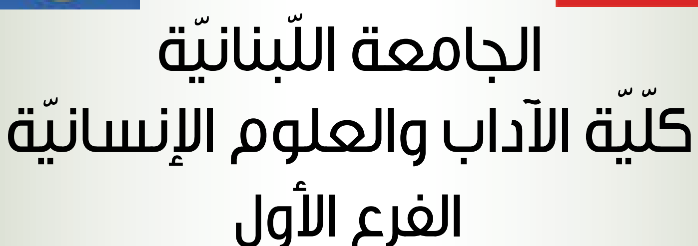




الجامعة اللّبنانيّة

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة

الفرع الأول

الهجرة والمكان

إشكاليّات وتحدّيات

أوراق الباحثين المشاركين في أعمال المؤتمر المنعقد في

١١–١٢ كانون الأول ٢٠٢٠



برعاية رئيس الجامعة اللبنانيّة البروفيسور فؤاد أيوب

إشراف الدكتورة بادية مزبودي والدكتورة منى الدسوقي






الجامعة اللّبنانيّة
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
الفرع الأول

الهجرة والمكان

إشكاليّات وتحدّيات

أوراق الباحثين المشاركين في أعمال المؤتمر المنعقد في
١١–١٢ كانون الأول ٢٠٢٠

برعاية رئيس الجامعة اللبنانيّة البروفيسور فؤاد أيوب
إشراف الدكتورة بادية مزبودي والدكتورة منى الدسوقي

منشورات الجامعة اللبنانيّة – بيروت

الطبعة الأولى – ٢٠٢١

العنوان: الهجرة والمكان إشكاليّات وتحديّات
الصفحات: عدد الصفحات ٥٤٦
القياس: ٢١ × ٢٩,٧ سم
تحرير: دكتور رزق الله قسطنطين
إخراج طباعي: أسعد ضامن

ISBN 978 - 9953 - 0 - 5475 -9

9 789953 054759

جدول المحتويات

صفحة

نخص بالشكر كل من الدكتور هشام الحاج حسن والدكتور حسين الحاج حسن والدكتور ابراهيم الحوت والدكتور حسين عبد الحليم والدكتور رزق الله الياس قسطنطين على المساعدة وعلى الجهود الحثيثة.

أسماء المشاركين

أبي عقل، جواد
مهندس معماري(الجامعة اللبنانية)
حائز على دكتوراه في التنظيم المدني (معهد باريس للتنظيم المدني)
أستاذ مساعد (الجامعة اللبنانية.كلية الفنون الجميلة قسمي التنظيم المدني، والهندسة المعمارية وكلية الآداب – قسم الجغرافيا الفرع الثاني)
الأبحاث:
. حوكمة الأراضي وإمكانية تطبيقها في لبنان.
. تقييم السياسات العامة المحلية من خلال مؤشرات جودة الحياة ومستوى الخدمات، مجلة كلية التربية
تحليل واقع المجال الريفي في لبنان

أبي فاضل، كوليت
أستاذ مساعد، دكتوراه في العلوم الاجتماعية، ديموغرافيا من جامعة الروح القدس- الكسليك،
دبلوم خبرة في الديموغرافيا، دراسات عليا في المعلوماتية القانونية
إجازة في العلوم الاقتصادية. متفرغة في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، قسم الجغرافيا.
أهم المؤلفات: أوراق حدشيت/ الهجرة والتنمية في وسط البترون / الوضع الديموغرافي لبلدة كفرحي

اسكندر، جميل
المعروف في الرهبانية اللبنانية المارونية بالأب حنا اسكندر
مجاز في اللاهوت ودكتور في التاريخ. استاذ التاريخ واللغات القديمة في الجامعة اللبنانية، الفرع الثالث.
له عشرات الكتب والمقالات بلغات مختلفة في مجال التاريخ واللغات العربية والسريانية والعلوم القرآنية.
شارك بعشرات الندوات المرئية والمسموعة والمؤتمرات في لبنان والبلاد العربية وأوروبا...

Bahi, Mohamed
Professeur de l'enseignement supérieur. Faculté des lettres et des sciences humaines. Université Sultan Moulay Slimane. Département de langue et littérature françaises. Beni Mellal. Maroc .
Il travaille essentiellement sur la littérature maghrébine, sur la littérature de jeunesse et sur le patrimoine immatériel

البدوي، حبيب
أستاذ مساعد، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الأول، قسم التاريخ.
أهم المؤلفات:
- تاريخ اليابان السياسي بين الحربين العالميتين
- الدستور الياباني: دراسة مقارنة
- اليابان ودبلوماسية القوة الناعمة

بزي، ملاك
أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية، اختصاص إحصاء/ إحصاء اجتماعي؛ تدرس في كلية الآداب في قسمي : الجغرافيا وعلم النفس، وفي معهد العلوم الاجتماعية (العمادة)
لها العديد من المشاركات في الدراسات التنموية والاقتصادية والإحصائية مع منظمات دولية، ومؤسسات خاصة، منها:
- التأثير غير المباشر للوجود السوري على البنى التحتية في لبنان (Ideas– World Bank)
- خطة اقتصادية تنموية مبسّطة ل 7 بلديات في قضاء صور (Rc – Eu) وأخرى ل 16 بلدية في قضاء بنت جبيل
- الصناعات الحرفية اللبنانية والتنمية المستدامة_ ضمن الأبحاث الأنتروبولوجية – الاجتماعية.

بوشكيوة ، عثمان
أستاذ محاضر في جامعة سكيكدة–الجزائر
من المتوقع مناقشة دكتوراه علوم في القانون العام – جامعة عنابة، الجزائر في كانون الأول (2020)
ماستر" مفاوضات تجارية دولية، جامعة السوربون، قسم اللغات الأجنبية التطبيقية، باريس3 فرنسا (2017)
إجازة في الترجمة والأنتربريتاريا، كلية الآداب واللغات الأجنبية، جامعة عنابة، الجزائر (2012)
ماجستير قانون إداري المركز الجامعي سوق أهراس، الجزائر (2006)

الحاج سليمان، بلال علي
أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية. كلية الأداب والعلوم الإنسانية – الفرع الأول -- الفرع الثالث– قسم الجغرافيا . المؤلفات :
- متى تصبح التنمية البيئية مستدامة
- أهمية التنمية في الفكر الإستثماري.
- الشركات العالمية فعلٌ إقتصادي أم إستعماري؟

حمود ، سها صلاح
استاذ دكتور في الجامعة اللبنانية الفرع الاول قسم التاريخ
استاذة في التاريخ القديم والوسيط والحديث منذ عشر سنوات. لها مؤلفان هما :الحضارة الرومانية دراسة تأسيسة في التاريخ والفن. والآثار العمرانية في لبنان خلال العصور الوسطى
ونشرت العديد من الابحاث والمقالات التاريخية في المجلات المحكمة بالاضافة الى المشاركة بورشات عمل في الجامعة الاميركية في بيروت

الدسوقي ، منى حسين
أستاذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الفرع الأول
دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها من جامعة القديس يوسف عام 2001، لها العديد من الأبحاث والمؤلفات منها:
الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية / التطور والإصلاح عند أمين الريحاني/ قاسم أمين : مصلحاً اجتماعياً/ الشاعر الدكتور فوزي عطوي سيرة ومسيرة : دراسة تحليلية لدواوينه الشعرية/ الحضارة واللغة.. وغيرها من المؤلفات والأبحاث. إلى جانب مشاركتها في بعض المؤتمرات التي قامت بها الجامعة اللبنانية.

دعكور، ملاك
استاذ مساعد،استاذة محاضرة في كلية الاداب وكلية الحقوق في الجامعة اللبنانية.
منتسبة الى نقابة المحامين في بيروت.
من ابحاثها: – جريمة الاحتيال الالكتروني
–المسؤولية الجزائية عن نقل فيروس كورونا المستجد

الدّمشقي، خلود نديم
دكتوراه في اللغة الإنجليزية وآدابها من الجامعة اللبنانية، تمارس العمل الإعلامي منذ عشرين عاماً.
لها بعض المقالات الصحافية وألأدبية منشورة في الصحف المحلية والمجلات الأدبية المحكّمة

رائف، عماد الدين
كاتب صحافي ومترجم عضو "اتحاد الكتاب اللبنانيين"، عضو نقابة محرري الصحافة اللبنانية، خبير في الترجمة متخصص باللغات السلافية وآدابها. عمل في جريدة "السفير"، ويكتب اليوم في العديد من الصحف المجلات الورقية والإلكترونية. صدر له أحد عشر كتابًا في بيروت وكييف وموسكو والقاهرة، تتضمن بحوثا وترجمات لعدد من الكتاب والمستشرقين والرحالة.

زهر الدين، غازي
عضو في الاتحاد الدولي للمؤرخين للثقافة والتربية والعلوم الاجتماعية
و تونس المغرب العراق تركيا شارك في عدة مؤتمرات خارج لبنان
شارك في تدريب اساتذة التاريخ (ثانوي متوسط) في كلية التربية الجامعة اللبنانية
صدر له كتاب بعنوان: كفرفاقود بين ١٩٢٠/٢٠١٠ دراسة في تحولاتها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية في العام ٢٠١٤
كتاب قيد الإصدار بعنوان: الأرض والانتاج واثرهما في تشكل البنية الاقتصادية والاجتماعية في قضاء الشوف بين ١٨٦٠و ١٩١٨، عماطور _ بعقلين نموذجاً. إضافة الى عدد من الأبحات المنشورة وغير المنشورة

Saade, Eliane
Doctorante en quatrième année de recherche en langue et littérature françaises.
Recherche spécifique sur le genre romanesque policier: une étude sémiologique du personnage de Georges Simenon et une étude narratologique et sociocritique sur l'engagement du roman policier contemporain.

سلوم، توفيق عبد الله
استاذ مساعد في الجامعة اللبنانية—كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الفرع الأول – قسم علم النفس.
المؤلفات:
الفرد التائه بين الاجيال المتعاقبة. مقالة
الاتجاه من ارتياد العيادات النفسية. بحث.
مدخل إلى التحليل النفسي الفرويدي. كتاب

الشباب، ريتا
أستاذة في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الأول – قسم علم النفس
الاختصاص الدقيق: علم النفس الأسري والمدرسي؛ معالجة نفسية تحليلية للأفراد والمجموعات ومدرّبة.
أهم الأبحاث المنشورة:
La part du transgénérationnel dans la rencontre مجلة نشر بحث، خريف 2018
Le père et la mémoire familiale مجلة الحداثة، شتاء 2019 ، العدد 197 – 198
L’approche groupale dans l’enseignement : contribution au développement du concept de soi مجلة نشر بحث، شتاء 2019، العدد 15

صبرا، يسرى
أستاذة في اختصاص الألسنية، في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب – الفرع الأول– قسم اللغة الإنكليزية، وفي العمادة، ومرشدة تربوية في وزارة التربية والتعليم العالي لديها منشورات عديدة في مجال الألسنية التطبيقية والمقارنة وفي مجال التربية
Central Themes
وأهمها السلسلة التعليمية للمرحلة الثانوية

عقل، جورج
استاذ محاضر في قسم الجغرافيا كلية الاداب والعلوم الانسانية الجامعة اللبنانية الفرع الثاني
منذ 2012 ؛ حائز على شهادة الدكتورة في البيئة وتنظيم الاراضي من جامعة القديس يوسف 2017
حائز على شهادة دبلوم بالهندسة الزراعية وعلى اجازة في الجغرافيا من الجامعة اللبنانية
استاذ محاضر في قسم الجغرافيا كلية الاداب والعلوم الانسانية الجامعة اللبنانية منذ 2012
شارك في عدة مؤتمرات علمية ابرزها ورشة عمل نظمتها الجامعة اللبنانية بخصوص الغطاء الغابي في لبنان سنة 2014.

عيسى، بسام
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية، أستاذ مساعد في جامعة (AUL) كلية الآداب، قسم الدراسات الإسلامية، فرع بيروت؛ ومحاضر في جامعة المقاصد، كلية الدراسات الإسلامية. له العديد من المنشورات، منها: الكائن اللغوي من الحسّية الجاهلية إلى الخيالية الصوفية، نظرية النحو الكلّي ووحدة اللغات بين التجريدية والامبريقية، فينومينولوجيا المعنى في شعرية اللغة المحكية.

فحص، صفاء هاني
ماستر في اللغة الانكليزية وآدابها من الجامعة اللبنانية

فرحات، درية كمال
أستاذة في الجامعة اللّبنانيّة / كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة الفرع الخامس
- عضو اتّحاد الكتّاب اللّبنانيين .
- عضو في ملتقى الأدب الوجيز.
- نائب رئيس التحرير لمجلة المنافذ الثّقافيّة. – لبنان.
- عضو في الهيئة الإدارية في هيئة تكريم العطاء المميز (محافظة النبطية) .
- المشاركة في العديد من المؤتمرات والندوات الثقافية.

لها العديد من والمؤلفات والمنشورات.

قسطنطين، رزق الله الياس
أستاذ جامعيّ وشاعر، متخصّص في النقد الحديث واللغة. تخرّج من الجامعة اللبنانيّة بإجازة تعليميّة في اللغة العربيّة وآدابها، ومن جامعة الروح القدس–الكسليك بشهادة دكتوراه بدرجة مشرّف جدًّا Très honorable . هو أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة الفرع الثاني، وفي الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة – جبيل.
من مؤسّسي تجمّع معلّمي اللغة العربيّة في لبنان ويشغل حاليًّا موقع نائب الرئيس. له عدّة مؤلّفات في النقد والشعر والتربية. وهو حاليًّا عضو في الاتّحاد الدوليّ للّغة العربيّة.

مارتينوس ، منى
دكتوراه في العلوم الاجتماعية فرع الأنتروبولوجيا ؛ تدرس في ملاك التعليم الرسمي
لها العديد من والمؤلفات والمنشورات

منصور، سليم
استاذ في كلية الاداب والعلوم الانسانية _الفرع الأول_ قسم التاريخ
– بكالوريوس تجارة: شعبة ادارة اعمال – جامعة بيروت العربية
– ماجستير في الدراسات الإسلامية: جامعة الامام الاوزاعي عام 1999
–دكتوراة في الدراسات الاسلامية : جامعة الامام الاوزاعي عام 2004
أهم المؤلفات: الأمن الغذائي من منظور اسلامي ، بيت الدعوة والدعاة/ الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر/ الرشوة وآثارها على الفرد والمجتمع.

نسر، علي عارف
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها. محاضر برتبة أستاذ في الجامعة اللبنانية كلية الآداب الفرع الأول.
المؤلفات: رواية بعنوان وادي الغيوم... ديوان شعر بعنوان وطن تنهد من ثقوب الناي... كتاب نقد: الرؤية إلى العالم في الرواية العربية. وله عشرات الأبحاث.. ومئات المقالات الصحفية، والمشاركة في عدة مؤتمرات خارج لبنان: المغرب وتونس والأردن.

يونس، مارلين
حائزة على دكتوراة دولة في الفلسفة، وماجستر في علم الأثار، ودبلوم في الغناء الشرقي (الكونسرفاتوار الوطني العالي للموسيقى). مؤلّفة موسيقيّة لها العديد من الألحان، عضو في جمعيّة الاتّحاد الفلسفي العربي، وفي لجنة التحكيم لجائزة كمال الحج للإبداع الفكري. أستاذة الفلسفة الغربيّة العقلانيّة الحديثة ومادة الجماليّات في الجامعة اللبنانيّة . شاركت في العديد من المؤتمرات الفلسفيّة والفنيّة. على الصعيد الفلسفي: صدر لها مؤخرًا عن مركز دراسات الوحدة العربيّة كتابًا بعنوان: جانكلفيتش، محاكمة أخلاقيّة في هدي جماليّ. وعلى الصعيد الفنيّ أغنية أسرار بيروت

كلمة الافتتاح لمنسقة المؤتمر

د. منى الدسوقي

بداية أرحب بالحضور الكريم وعلى رأسهم رئيس الجامعة اللبنانية البروفيسور فؤاد أيوب، وعميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور أحمد رباح، ومديرة كلية الآداب الفرع الأول الأستاذة الدكتورة بادية مزبودي؛ كما أرحب بالباحثين المشاركين في هذا المؤتمر، وبأساتذة الكلية والجامعة والطلاب والموظفين؛ وأودّ أن أتقدم بالتهنئة من المديرة الدكتورة بادية مزبودي على الجهود التي بذلتها في تحضير هذا المؤتمر. من دون أن أغفل جهود اللجنة الثقافية، متمنية أن تثمر جهودهم، وأن يحقق المؤتمر أهدافه المرجوة.

وفي هذا الإطار أذكر أنه عندما اجتمع أعضاء اللجنة الثقافية في إدارة الفرع الأول، في بداية هذا العام، وتمّ الاتفاق على أن يكون موضوع الهجرة عنواناً للمؤتمر السنوي الذي ستعقده الجامعة، لم يخطر ببال أحد منّا أنّ هذا الموضوع سيصبح هاجس اللبنانيين الذين عاشوا أزمات متلاحقة اقتصادية واجتماعية وسياسية، جعلت من الهجرة موضوع الساعة؛ وإذا بالتاريخ يعيد نفسه؛ فما هي الأسباب التي دفعت وتدفع المهاجرين إلى ترك أرض الوطن تتكرر بحثاً عن ظروف أكثر أمناً وأماناً في أعقاب حروب متلاحقة زُجّ بها لبنان وأهله في ظلّ صراعات لا طائل منها، وخسائر بشرية ومادية جسيمة. إلاّ إنّ بعض هذه الهجرات كان بحثاً عن آفاق أرحب اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. وفي الحالتين بات الانتشار اللبناني في الخارج أضعاف ما تضمُّه أرض الوطن.

وفي هذا الانتشار عرف عالم الاغتراب قائمة لا تحصى من اللبنانيين المبرّزين في شتى حقول المعرفة شكّلت مصدر اعتزازٍ لهؤلاء المغتربين كأفراد، وللبنان كوطن. وطرحت سؤالاً عن سرّ التفوّق في الخارج، وليس في أرض الوطن؛ فهل هي البيئة الحاضنة للمواهب هناك؟ أم هي الحاجة الملّحة والضاغطة لمن هو في بلاد الغربة لتأكيد الذات وإثبات الحضور؟؟ تلك الحاجة التي تفجّر الطاقات وتصنع الإبداع من دون أن تستنزفها صغائر الخلافات، أو تلهيها تفاهة الصراعات عن تحقيق الهدف الأكبر: الذي هو نتاج يليق بإنسانية المبدعين، ويلبي تطلعاتهم.

وقد ظهرت الدراسات المختلفة في هذا السبيل التي تعالج مواضيع الهجرة أسبابها، آفاقها، وتحدياتها على مختلف الصعد التاريخية، والجغرافية، والنفسية، والفلسفية، والأدبية؛ لعلنا في هذا المؤتمر نستطيع أن نلمّ بصورة شاملة وموجزة لمختلف هذه الصعد.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة مديرة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الفرع الأول

حضرة عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية البروفسور أحمد رباح،
حضرات المدراء والزملاء الكرام، والطلاب الأعزاء،

يسعدني أنْ أرحبَ بكم في «مؤتمرِ الهجرةِ والمكانِ، إشكالياتٌ وتحدياتٌ» والذي يشكِّلُ تجربَتَنا الأولى عن بُعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الأوَّل. لما لذلك من تحديات في انجاحه وايصاله الى بر الأمان نظرا للظروف الصعبة التي نمر بها.

أخصّ بالترحيب كذلك السادةِ الأساتذةِ المشاركين من الجامعات اللبنانية ومن الجزائر والمغرب. أهلا وسهلًا ومرحبًا بكم جميعًا حاضرين في كليتنا وعبر الشبكة العنكبوتية أون لاين .Online
لقد تم اختيار هذا الموضوع من الواقع الأليم الذي يعيشه ما يسمى بالعالم الثالث وتحديدا العالم العربي والاسلامي.

وصور الغرقى في البحار من المهاجرين، شباناً وأطفالاً، تطالعنا كيفما التفتنا. هجرةَ أَحاديةَ الاتجاه، نحو الغرب حيث الدولُ القوية، نحو الخليج حيث المال.. هربًا من الحروب القسرية والعبثية والفقر والأزمات الاقتصادية. هكذا تتشتت الشعوب المعذبة، يصبحون مهاجرين، نازحين، لاجئين، مهاجرين غير شرعيين.. أمّا هذا المهاجر الغربي فلا تصلح كلُ هذه التسمياتِ له، يعلو ويتعالى بنفسه، يخلق حدّاً فاصلاً، هو المغترب (expatrié). وفي فرق التسميات اللاعبثي يكمن التمييز بينَه وبين مهاجرٍ من العالم الثالث، فرقٌ ناتج عن بلد الانتماء واستقلالية دولته ومستواه المادي ولربما عرقه.

لقد أولى الأدب والعلوم الإنسانية عناية فائقة في مقارباتهم لهذا الموضوع سواءً من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو الفلسفية، فكانت للأدب كلمتُهُ من خلال الرّوايات والأشعار التي تناولت الهجرةَ وتأثيرَها على الاندماج وإحساس الغُربة والتعبير عن الحنين وفقدان الهوية.
كذلك لعلم النفس دراساتُه في الأثر الذي تتركُهُ الهجرةُ على كيان الإنسان وعلى شخصيتِهِ والأزمات مثلَ رفضِ ذاته أو التقوقع عليها.

هكذا يكون مؤتمرنا اليوم متعدِّدَ التخصصات (multidisciplinaire)، نقارب الهجرةَ في الأدب إلى علم النفس مع إطلالة اقترحناها للوجهتين القانونيَّة والاجتماعية لتبيان التحديات التي يواجهها المهاجر في العادات التي يُدخلها على واقعِهِ.

تتناول الاشكاليات أولًا أسبابَ الهجرة التي دفعت اللبنانيين والعرب للهجرة قديمًا وفي العصر المعاصر ودراسةَ تنوعها والعواملَ التي أدَّت إلى حدوثها والتغيرات التي طرأت عليها عبر العصور.

امّا السؤال المطروح هو معرفة خلفياتِ الهجرة، هل هي تعود لأسباب اقتصادية وتجارية بحتة أم من أجلِ الفتوحات أو المعرفة أو الرَّغبة في الاكتشاف. كما ستتناول المداخلات التحدياتِ التي واجهت شريحة كبيرة من اللبنانيين والسوريين المهاجرين في أوائل القرن العشرين للوصول فالعملِ في بلاد الاغتراب والتي تحولت الى نجاح بارز.

اشكالياتٌ أخرى فتحتها الهجرة، أن يحمل المهاجرُ معه متاعَه الثقافي والاجتماعي والديني، ماذا ينقل معه؟ وعن ماذا يستغني؟ هل هو بذلك عابر للثقافات، فاعلٌ في المجتمعات، مؤثرٌ في فكرها وفي لغتها، مندمج في مجتمعها؟ لأي مدى نستطيع التحدثَ عن تأثير المهاجر على الحضارةِ التي يدخلها؟ أم أنَّه يشكل خطرًا عليها؟

إنّ العلاقة مَا بين المهاجر والمجتمع المتلقي ليست سهلة ولا بسيطة، خاصة في عصرنا الحالي حيث وصل عدد المهاجرين عام ٢٠١٩ الى ٢٧٢ مليون مهاجر دولي حسب المنظمة العالمية للهجرة (IOM)، وقامت أوروبا وأميركا بالحدِ من دخول المهاجرين، كما ظهرت نظرياتٌ في أوروبا تتكلم عن الاستبدال الكبير (le grand remplacement, Renaud Camus) والذي يحذر من إدخال المهاجرين إليها، فالقارة الأوروبية العجوز التي ترزح تحت وطأة التراجع الديمغرافي لشعوبها باتت تخشى على وجودها وعلى حضارتها حسب قول Renaud Camus...

وعلى الرغم من ذلك، لا يخفى على القيمين أن المهاجرين يشكلون يدًا عاملةً رخيصة تعمل في مصانعهم وشركاتهم الكبيرة. أما المهاجرون من أصحاب الخبرات وحملة الشهادات والشبابُ الذين سيقدمون طاقاتِهم وخُبرتِهم من أجل رخاء الشعوب المتلقية وتطورها، فهل هناك من خطة بديلة لاسترجاعهم إلى البلد الأم؟ أمام كل هذه التحديات يبقى المهاجر النازح الحلقة الضعيفة، والذي يشكل وجودُه خطرًا وخوفًا من التصادم الحضاري والاختلاف الثقافي والديني.

إشكالية أخرى، عن علاقة المهاجر بالمكان الذي تركه والمكان الذي لجأ إليه، هنا تُطرح مسألة الغُربةِ نفسُها فهل يبقى غريبًا في المهجر وغريبًا في بلده؟ أم أنَّ الاندماج في المجتمعات الأخرى يعني الخروجَ عن هويته وانتمائه كشرط أساسي لتقبله ولانخراطه في المجتمع المستضيف؟ هل يشعر المهاجر بمعاداة المكان له من خلال رفض دينِه ومعتقداته كما يحصل حاليًا في أوروبا مع مسألة الإسلام؟

لا شكَّ أنَّ الهجراتِ تطورت منذ بداية القرن العشرين، فالاندماج الذي حققه المهاجرون القدامى والذي أدَّى في كثير من الأحوال الى تنمية مجتمعات متعددة الثقافات والأعراق لن يكون حاليًا سهلَ المنال أمام حالة الخوف والارباك والإحساس بعدم الأمان بسبب المدِّ من الشعوب المهاجرة.

نقف أمام نموذجين، الأول يبقى على تعلّقه بالوطن والأرض، فيلاحقه إحساسٌ يؤلمُهُ ويؤرقُهُ، كما الحنين إلى لغته وأهله وماضيه وجذوره وأصلِهِ. مشاعرٌ شكّلت خواص أدب المهجر الذي عبّر عن معاناة اللبناني خارج أراضيه.

ونموذجٌ ثانٍ، قطع فيه المهاجرون صِلاتهم ببلدهم الأم بفعل الزمن، نسوا لغتهم وتجاهلوا عاداتهم ولم يبقَ من جذورهم إلا الاسم الذي يذكِّر بأصولهم العربية أو اللبنانية.

يتضارب النموذجان، كما يتضارب المكانان، ليبقى مكان واحد يعلو على الآخر، وهنا قد تمنحنا المداخلات الإجابة. وطن الأصل، أم المكان الذي ولِدَ فيه من جديد، حيث شعر بالحُرية والانتماء والمساواة والعدالة، حين ينتقل من صفة المهاجر إلى مواطن من الدرجة الأولى.

كلُ هذه الإشكالياتِ سيعالجها محاضرونا خلال مؤتمرنا الممتد على يومين..

في الختام أودُّ أنْ أشكر أولًا رئيس الجامعة اللبنانية، البروفسور فؤاد أيوب، راعي المؤتمر والداعم لكل مؤتمرات ونشاطات كليتنا، والذي وضع فينا ثقته آملين أن نكون على قدر المسؤولية.

والشكر والامتنان لعميد كلية الآداب، البروفسور أحمد رباح على تشجيعه ومدِّ اليد لكلِّ صغيرة وكبيرة لكي تبقى كلية الآداب في الطليعة.

كما أخص بالشكر اللجنة المنظمة التي سهرت على إنجاح المؤتمر: ابدأ بالدكتورة منى الدسوقي منسقة المؤتمر التي عملت بكل كدٍّ وصبر واحترافية عالية والدكتور حسين الحاج حسن والدكتورابراهيم الحوت والدكتور هشام الحاج حسن، والدكتور حسين عبد الحليم وجميع اللجنة الثقافية.

مديرة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الفرع الأول – بيروت
د. بادية مزبودي

كلمة عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية

مديرة كلية الآداب والعلوم الإنسانية د. باديا مزبودي

منسقي المؤتمر

الأساتذة والزملاء والأصدقاء

الحضور الكرام

الهجرة والمكان إشكاليات وتحديات

ارتبطت الهجرة بتركيبة الشخصية اللبنانيّة التي جُبلت بثقافة الغربة والبحث عن موطن بديل، وصارت لصيقة بهوية اللبناني، والأسباب كثيرة ومعروفة من حروب واضطهاد وغيرها من الظروف الصعبة التي توالت على البلاد، جعلت اللبناني يحلم بوطن يعتقد أنه أكثر أمنًا ورخاء؛ والحاجة الى الأمان بكل أشكاله: الأمان الشخصي والنفسي والوظيفي والأسري والصحي والفكري ... وهي حاجة أساسية بعد الطعام والغذاء. لذلك برزت الهجرة عبر العصور بالنسبة إليه بمثابة حلّ منطقيّ، بهدف إنقاذ ما تبقى من كرامته وصحته وأعصابه وقدرته الإنتاجية في وطن اللاضمانات واللامنطقي واللامعقول. لا بل أصبحت الهدف الأول عند الشباب اللبناني ولاسيما في الآونة الأخيرة والأمل والمرتجى.

إلا أنّ هذا الدافع الى الهجرة الملّح لم يتغلّب أبدًا في داخل الفرد على تعلّقه في المكان وارتباطه به، فلطالما شكل المكان هوية الإنسان الفطرية، ولطالما شكل حبّه للأرض وما تمثله من أمكنة الارتباط بالآخر (أسرة، محيط، عقيدة...) نزوعًا طبيعيًّا ترتبط بوساطته ذاته بالذات الجماعيّة بروابط وثيقة، تتفرع منها مسألة إثبات الشخصيّة وتحديد الهويّة، وتُغذّي مشاعر الوطنية والمواطنة والولاء والانتماء، والرضا على الذات... ، من جهة، وإثبات للنفوذ من جهة أخرى.

أوجد ما سبق إشكاليات عديدة، امتدت مفاعيلها على مختلف المستويات الفردية والوطنية، وترك آثاره السلبية في تركيبة البلاد، ابتداء من علاقة الدولة بأبنائها؛ فالدولة اللبنانية، منذ عقود خلت، تًصدّر شبابها إلى الخارج ، وتستفيد من أموالهم المرسلة الى لبنان، سواء اكان في سياق إقامة المشاريع ام في سياق مساعدة ذويهم. وقبل الشباب هذه المعادلة، فطفت الفردية على أي عمل فريقي أو مؤسساتي. من هنا، اختلفت علاقة اللبناني بوطنه الام، واتّخذت طابعًا إشكاليًّا، فيه من الحسنات والسيئات الكثير، وتحوّلت الى علاقات معقدة وشائكة، فيها الكثير من الحنين والحب ، والغضب والغبن ، وأحلام العودة وصعوبات التأقلم، ما يجعل المهاجر، ولاسيما في السنوات الأولى من غربته فريسة للحنين، وما يفترضه من عدم استقرار وعيش للمؤقت، وعُرضة للقلق المستمر.

بين التعلّق بالأمكنة والرغبة في الهجرة، بين الاحتفاظ بالوطن الأم والبحث عن وطن بديل، بين المعطى والحق فيه والمفروض والمنتظر، بين ما يريد أن يكون اللبناني عليه وما يحلم به في وطنه وما هو حاصل عليه، يحيا اللبناني معلّقًا في مناطق الانتظار...

مؤتمر الهجرة والمكان إشكاليات وتحديات، يقارب موضوعا قديمًا جديدًا، يعرض الإشكاليات بمنظور جديد. هو سعي في إيجاد مخرج أو مخارج لواقع يتكرّر عبر قراءات بحثية في التاريخ والأدب والجغرافيا... بين الماضي والحاضر.

من موقعي، أهنئ القيّمين على هذا المؤتمر، على الفكرة والمنطلق، آملا أن يحقق أهدافه، وأن يسفر عن إيجاد حلّ أو مخرج نفسي يُسهم في التخفيف من حدةّ المآزم الناجمة من هذا القلق المستديم الذي حوّل فئة كبيرة من اللبنانيين الى نازحين أو مهاجرين بلا هوادة، يعتنقون ثقافتي الهجرة والنزوح مذهبًا.

ومن هذا المنبر، منبر الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المنتشرة في مختلف المناطق اللبنانية والتي لطالما عملت على تثبيت الشباب في أرضهم ومناطقهم، وأسهمت ولا تزال في التنمية المجتمعية، أؤكد أنّ الكلية ومن خلال هذا المؤتمر، تتابع تأدية دورها في إرساء ثقافة صحيّة وآمنة، ترسّخ المفاهيم والاتجاهات الإيجابية، وترسي ملامح مصالحة الفرد مع ذاته ووطنه ضمن امكانياتها المتاحة.

شكرًا لكل القيمين على هذا المؤتمر والمشاركين فيه ، شكرا لكم جميعًا.
عشتُم وعاشت الجامعةُ اللبنانيةُ.

عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية
البروفسور أحمد رباح

النزوح السوري وأثره على الواقع اللبناني

د. جواد يوسف أبي عقل
تنظيم مدني/ الجامعة اللبنانية

مقدمة

يُعدّ النزوح السوري الأضخم بين حركات النزوح في العالم. فقد انتقل، منذ العام 2011، أكثر من خمسة ملايين وست مئة ألف شخص من سوريا، بحسب أرقام المفوضية العليا لشؤون اللاجئين (UNHCR)، هرباً من الحرب التي تعصف ببلدهم. وإذا كانت تركيا تستقبل العدد الأكبر من هؤلاء النازحين، كما يشير إلى ذلك المرجع نفسه، فإن لبنان يستضيف النسبة الأعلى إلى عدد السكان والتي تتجاوز الواحد إلى أربعة. هذا مع العلم أن لبنان ما زال يستقبل على أراضيه عشرات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا إثر الاحتلال الصهيوني لفلسطين، كما وانه يستضيف الكثير من العراقيين الذين هربوا من المعارك الدائرة في بلدهم، خصوصاً في الفترة التي سيطرت فيها داعش على أجزاء كبيرة من العراق. وإذا كان الفلسطينيون يتوزعون عموماً على المخيمات التي أنشئت لهم منذ أن وفدوا إلى لبنان، فإن النازحين السوريين يتواجدون في معظم أرجاء لبنان، بعد أن رفضت الدولة اللبنانية إنشاء مخيمات خاصة بهم. وإذا كان البعض منهم قادراً على تأمين نفقات سكنه، فإن القسم الأكبر استفاد من تقديمات جهات مانحة، كالمنظمات الدولية والجمعيات غير الحكومية. والمتمعّن حالياً في التركيبة الاجتماعية للسوريين الموجودين في لبنان، يلاحظ تغييراً جذرياً عمّا كان الوضع عليه قبل الحرب السورية، حيث كان أغلب المتواجدين على الأراضي اللبنانية هم من العمّال الذكور الذين يعملون إمّا بشكل موسمي وإمّا بشكل شبه دائم، مشكلين بذلك نسبة عالية من اليد العاملة غير المتخصصة في مجالات البناء والزراعة والخدمات.

إن الإجراءات التي اتخذتها السلطات اللبنانية، ابتداءً من العام 2014، قد حدّت بشكل ملحوظ من حركة تنقل النازحين ذهاباً واياباً عبر الحدود اللبنانية السورية، وجعلت عوائل النازحين تستقر ضمن الأراضي اللبنانية[1]. من هذا المنطلق، شكّل لبنان مختبراً لفهم أشكال استقرار النازحين في المدن والقرى الواقعة ضمن حدوده، وبالوقت عينه، مرصداً لمراقبة حركة هؤلاء الوافدين الجدد في سعيهم إلى البحث عن آفاق جديدة من خلال محاولتهم الهجرة عبر الأراضي اللبنانية، نحو أمكنة أبعد، بخاصة إلى البلدان الأوروبية. وبهذا، تصبح المدن اللبنانية عامةً، وبيروت على وجه التحديد، مكان لجوء وسبيل عبور في آن واحد. لذلك يمكن اعتبار لبنان مكاناً أساسياً في مسيرة النازحين السوريين بغض النظر عن وجهتهم النهائية.

1- الإشكالية والفرضيات

إن كل هذه الاعتبارات تجعلنا نتساءل عن دور البلديات وأجهزة الدولة اللبنانية والمنظمات غير الحكومية في تنظيم شؤون النازحين وما هي الخيارات المتاحة في هذا المجال؟ وكيف يجب أن يؤخذ موضوع النازحين عند وضع الخطط الاستراتيجية للمدن والقرى؟ وهل من الممكن الاستفادة من وجودهم بحيث يتحول هذا الوجود من عبء إلى فرصة للتنمية؟ كيف يمكن توفير ظروف عيش مريحة للنازحين وللسكان الأصليين على حدّ سواء، بشكل يحافظ على تماسك المجتمع في ظلّ ازمة لها انعكاساتها ومخاطرها على السلم الأهلي في لبنان؟ للجواب عن كل هذه التساؤلات يجب فهم العلاقة بين تحديات مسألة النزوح والواقع اللبناني القائم ورؤية ومخططات المنظمات العالمية لحل هذه المشكلة. ويجب تحديد دور كل طرف من الأطراف التي لها تأثيرها على الموضوع، والبحث عن السبل الفضلى لإيجاد الحلول المناسبة. كما يجب أيضاً الاستثمار في تنمية المجتمع لكي يصير أكثر تماسكاً بوجه الأزمات.

2- المنهجية المتّبعة

يهدف البحث إلى فهم واقع النزوح السوري في لبنان من خلال تحليل المعلومات التي تم الحصول إليها من مصادر متعددة. وتجدر الإشارة إلى أن المعلومات التي توفّرها المصادر اللبنانية هي نادرة وتفتقر إلى الدقّة. لذلك لجأ البحث إلى مصادر معلومات أخرى مثل المنظمات الدولية التي تعمل مع النازحين في لبنان بهدف إقامة المشاريع الإنسانية أو مثل مراكز الدراسات التي توثّق حركة النزوح وتحلل ذيولها. وهنا تبرز مشاكل أخرى كرفض بعض الجهات الكشف عن المعلومات التي بحوزتها، عازيةً ذلك إلى عدم رغبة السلطات اللبنانية بنشر تلك المعلومات، أو كملاحظة تضارب في المعلومات، وهذا مردّه برأينا إلى الخلفيات السياسية والاقتصادية والإنسانية التي توجّه عمل تلك المنظمات، ولهذا السبب تمّ التعامل مع المعلومات بحذر كبير.

ومن ناحية أخرى، تمت مراجعة الخطط والقرارات الوطنية والمواثيق الدولية التي مع انها تتعاطى مع موضوع النزوح بشكل عام وشامل، فهي تعطي فكرةً واضحة عن التوجه السياسي والفكري والأيديولوجي الذي تنتهجه كل جهة في تعاملها مع هذا الموضوع. وتمّت أيضاً مراجعة الدراسات والأبحاث التي تتعاطى مع النزوح من الناحية النظرية. وجرت مراقبة حالة النازحين وواقعهم وتم فهم هواجس كل من النازحين وأبناء المجتمع المضيف وتحليل ردّات فعلهم ومواقفهم وتحليل خلفياتها. وبهذا الصدد كان لا بدّ من أخذ الأخبار التي تبثها وسائل الأعلام اللبنانية والعالمية بحذر شديد، بعد أن تبيّن عدم موضوعيتها ورغبتها في تسويق مواقف الجهات التي تمثلها.

وبالنهاية، يبقى الهمّ الأساسي لهذه الورقة البحثية، هو التفتيش بكل تجرّد عن الحلول المثلى والأفكار المنطقية لتخطي أزمة النزوح وذيولها، بالارتكاز إلى المبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية والتاريخية التي تسمح لنا باجتراح الحلول الناجعة بالرغم من كل المؤثرات النفسية والسياسية، الداخلية والخارجية، للتوصل إلى حلّ يرضي المواطن اللبناني والدولة اللبنانية كما يرضي النازح السوري دون أن يشكل تعارضاً صريحاً مع المراجع الأممية.

3- دراسة وتحليل واقع النزوح

لقد سعى الكثير من الباحثين من خلال تعمقهم بمشكلة النزوح السوري، إلى فهم تعقيدات وتحدّيات حركات الهجرة في العالم في وقتنا الحالي، والمساهمة في إيجاد الأجوبة المناسبة والحلول الملائمة لهذا الموضوع عموماً. فدراسة واقع النازحين السوريين في لبنان يعطي فكرةً عن التفاعلات الناتجة عن مجيء أعداد كبيرة من الناس واختلاطها بمجتمع ينظر إليها نظرات مختلفة ومتناقضة. فبينما يرى البعض ان السوريين هم شعب شقيق وهم أقرب ما يكون إلى اللبنانيين، يتعامل البعض الآخر معهم على أساس العلاقات المعقدة التي قامت بين الدولتين في فترة الحرب الأهلية اللبنانية وما بعدها. لذلك تحاول هذه الدراسة التعمق بشكل التفاعل بين النازحين والمجتمع المضيف لهم، أكان هذا التفاعل يحصل بشكل عفوي أو من خلال المنظمات الدولية والهيئات الحكومية. لذلك يجب فهم نظرة النازحين إلى هذه المنظمات والهيئات وكيفية تعاملهم معها، أكانت أُنشئت خصيصاً بهدف التعامل معهم أو كانت موجودةً قبل مجيئهم وعدّلت نشاطها ليتناسب مع وجودهم.

يرى الكثيرون أن قضية النزوح السوري تشكل أزمةً كبيرةً بالنسبة إلى لبنان الذي يفتقر إلى البنى التحتية الأساسية والمساحات اللازمة لاستقبال اعداد مهمة من الناس. ولذلك يمكن ان تُعتبر أزمة على مستوى الوطن ككل[2]. وهي تصيب المدن بشكل خاص، لما تتحمله من ضغط على بنيتها التحتية ومساحاتها العامة وتجهيزاتها الخدماتية، التي تعاني أصلاً من نقص كبير، نتيجة تراكم الأزمات المالية والسياسية والاقتصادية التي عصفت بلبنان ومازالت حتى الآن. وتضاف هذه الأزمة إلى مشاكل المجتمع اللبناني الموجودة اصلاً، كالطائفية والضائقة الاقتصادية والبطالة وغيرها، فتزيد أعباءً إضافيةً نتيجة وفود اعداد ضخمة من النازحين، خلال مدة قصيرة نسبياً، باحثين عن ملاذ آمن من الممكن إن يتوفر لهم في قلب النسيج المديني اللبناني، بسبب عدم رغبة الدولة في إنشاء مخيمات لهم، كما تمت الإشارة إليه سابقاً، مبررةً ذلك بالخوف من أن تتكرر مشكلة المخيمات الفلسطينية.

وقد دفع ذلك بالنازحين إلى البحث عن مساكن لهم في الأماكن التي تسمح لهم احوالهم الاقتصادية بالسكن فيها. فالنازحون المنتمون إلى فئات وضعها الاقتصادي متواضع، غالباً ما يستقرّون في الضواحي الشعبية، معتمدين على المساعدات التي تأتيهم من الجهات الدولية والمحلية المانحة. فهذه المساعدات صارت تعتبر عنصراً أساسياً تتمحور حوله اشكال استقرار النازحين في المدن والقرى اللبنانية. فهي توجّه مسار النزوح والاندماج في البيئة المضيفة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعملانية.

4- تعامل الجهات الرسمية والمنظمات غير الحكومية مع الأزمة

وكما ان الدولة اللبنانية لم تنشئ المخيمات للسوريين، فإنها لم تعترف بهم أصلاً كلاجئين بل تعتبرهم نازحين وتتعامل معهم على هذا الأساس. وهنا تجدر الإشارة إلى أن لبنان لم يوقّع على اتفاقية جينيف الخاصة بوضع اللاجئين، التي اعدّتها الأمم المتحدة عام1951[3]. من هذا المنطلق، بقيت الدولة اللبنانية تتمتع بنوع من الحرية في التعامل مع هذا الموضوع، وصار تعاطي النازحين في لبنان يتم بشكل خاص مع مكاتب المفوضية العليا للاجئين. ويرى العديد من المتابعين ان السوريين يحصلون على معاملة خاصة، بحيث يتم إعطاؤهم صفة لاجئ بشكل سهل نسبياً، مع ما يعني ذلك من اكتساب الحق بالحصول على مساعدات مادية وتسهيلات مالية. فبمجرّد الحصول على شهادة اللجوء من المفوضية العليا للأمم المتحدة، يحصل النازح/اللاجئ على مبلغ من المال كبدل ايجار منزل، بالإضافة إلى مساعدة مالية شهرية ومساعدات موسمية أخرى. وتثير جهات رسمية تساؤلات عديدة عن الشبهات التي تحوم حول هذا السخاء الاممي الذي يشجع النازحين على البقاء في لبنان، مع أن العديد منهم صار يمكنهم العودة إلى مناطقهم بعد أن عاد الهدوء إليها.

وتساهم جهات لبنانية وأجنبية في التمويل، من خلال خطة الاستجابة للازمة السورية، مشكّلةً بذلك هيكليةً متكاملةً تتكوّن من عدّة جهات كوزارات التربية والصحة والشؤون الاجتماعية، بالإضافة إلى جهات اممية مثل المفوضية العليا لشؤون اللاجئين وبرنامج الاغذية العالمي واليونيسف وبرنامج التنمية العالمي، كما تُشارك أيضاً العديد من المنظمات غير الحكومية الوطنية والأجنبية. وقد نجح هذا التعاون في إيجاد الآليات المناسبة في عدة قطاعات، كقطاع التربية مثلاً، فقد تم استحداث دوام إضافي خاص بالطلاب السوريين في المدارس الرسمية خلال فترة بعد الظهر، تطبق خلاله مناهج خاصة بهؤلاء الطلاب، تتلاءم مع وضعهم وخصوصياتهم. وإن أكثر ما يعبر عنه هذا الامر هو الأعداد الضخمة للتلاميذ السوريين في لبنان والذي يتخطى عددهم عدد التلاميذ اللبنانيين المسجلين في المدارس الرسمية.

إنه وبالرغم من ذلك، يخطئ من يعتبر أن وجود أعداد كبيرة من السوريين في لبنان بدأ عام 2011. فحتى قبل ذلك الحين، كانت حركة اليد العاملة السورية ناشطةً جداً، خصوصاً بعد انتهاء الحرب اللبنانية. فقد عمل السوريون في قطاع البناء ضمن إطار ورشة إعادة الإعمار التي بدأت مطلع تسعينيات القرن الماضي . وقد استفاد العمال السوريون من التسهيلات الكثيرة التي قُدّمت لهم، خصوصاً تلك التي تتعلق بتنقّلهم بين لبنان وسوريا. وكان هذا الوجود هو المحرك الأساسي الذي سهل وسرّع عملية النزوح نحو لبنان. إن الاعداد الكبيرة للنازحين والنقمة الشعبية على اليد العاملة السورية، في بلد تبلغ فيه نسبة البطالة أرقاماً مرتفعةً جداً، كانا السبب الذي دفع بالدولة اللبنانية، عام 2014، إلى تغيير سياساتها المتساهلة والمرنة بالنسبة إلى النازحين السوريين وحقهم بالعمل في لبنان[5]. وكانت بعض البلديات قد بدأت بنوع من الإجراءات المتشددة تجاه العمال السوريين كتطبيق منع التجوّل بعد الساعة الثامنة مساءً. إنّ تعامل بعض أجهزة الدولة بنوع من التشدد مع النازحين السوريين بالإضافة إلى محاولة عدد من البلديات اتخاذ إجراءات قاسية بحقهم، دفع بالمنظمات العالمية، الداعمة لتوفير اقصى حد من التسهيلات للسوريين في لبنان، إلى إدانة تلك الممارسات التي فيها بنظرهم الكثير من التعسف والجور[6].

وقد حاولت جهات أخرى تكثيف مساعداتها بهدف تحسين أحوال النازحين في لبنان. فتمّ بهذا الصدد التوقيع على اتفاقية بين الوكالة الفرنسية للتنمية ومجلس الإنماء والإعمار عام 2018، وصدر عن مجلس الوزراء في العام 2020 المرسوم رقم 6134 بعنوان: "إبرام اتفاقية تمويل بين لبنان ممثّلاً بمجلس الإنماء والإعمار والوكالة الفرنسية للتنمية لتنفيذ مشاريع بنى ريفية ومشاريع إعادة تحريج وتنفيذ عمليات تدريب في المناطق الأكثر تأثراً جراء تبعات الأزمة السورية" . ويطرح هذا المرسوم تساؤلات كثيرة عن دور بعض الجهات الوطنية والمنظمات العالمية في تشجيع النازحين على البقاء والعمل في لبنان. ويفتح هذا المرسوم، كغيره من الخطوات الهادفة إلى دعم النازحين، المجال لنقاش واسع حول شكوك البعض في وجود نيّة مبيتة لدى جهات معيّنة، تهدف إلى استعمال النازحين لضرب السلم الأهلي في لبنان أو للضغط على النظام السوري، وإلّا فلماذا التشديد في المرسوم على مساعدة البلديات التي تشغّل أكثر من نصف اليد العاملة لديها من السوريين، وأن يرتبط هؤلاء بعقود عمل لمدّة أربع سنوات. من جهة أخرى، لا يرى آخرون أي خلل في تلك المساعدة التي تهدف إلى دعم المناطق الريفية، بحيث يُعمل على تطوير البنى التحتية ودعم الزراعة وحماية البيئة.

5- دور المنظمات الدولية

وتلجأ المنظمات التابعة للأمم المتحدة في لبنان إلى تسويق فكرة التخطيط المستدام بهدف التنمية وتحسين ظروف عيش كل من النازحين والمجتمعات المضيفة معاً. وترتكز هذه المنظمات في عملها على مجموعة الأهداف التي أصدرتها الأمم المتحدة والتي تشكل دعوةً "لتعزيز الازدهار مع الاخذ بعين الاعتبار حماية كوكب الأرض"[8]. ويتمّ التركيز بشكل خاص على الهدف الحادي عشر: "جعل المدن والمستوطنات البشرية شاملةً للجميع وآمنة وقادرة على الصمود ومستدامة". ولهذا الأمر تأثير إيجابي على تحقيق الأهداف الأخرى وعلى موضوع اللاجئين. وبالاستناد إلى الأهداف المذكورة أصدرت منظمة UN Habitat، عام 2016، الخطة الحضرية الجديدة التي تحدد أساليب التنمية المدينية الأساسية[9]، والتي يمكن اختصارها بما يلي: تحديد المستوى الإداري المناسب لوضع وتنفيذ السياسات المدينية وتفعيل الحوكمة واعتماد اساليب تخطيط متكاملة وأدوات تمويل فعّالة ومستدامة.

من ناحية أخرى، تطرق الميثاق العالمي بشأن اللاجئين (Global Compact on Refugees)، الذي انعقد سنة 2018، إلى موضوع التخطيط، محدداً بعض الأهداف الرئيسية كتخفيف الضغوط عن البلدان المضيفة وتعزيز قدرة اللاجئين على الاعتماد على الذات وتوسيع نطاق إمكانية الوصول إلى البلدان الثالثة ودعم العودة إلى بلدان الأصل بأمان وكرامة[10]. وقد ارتكز لبنان على هذا البند الأخير في مطالبته بعودة النازحين الوافدين من المناطق التي عاد الأمان إليها، بسبب عدم قدرته على تحمل عبء العدد الهائل لمن نزحوا إليه. وقد تم الارتكاز على الميثاق المذكور، في المنتدى العالمي حول الهجرة الذي انعقد في مراكش سنة 2018، لاعتماد ثلاثة وعشرين هدفاً، يرتبط البعض منها بالتخطيط من خلال علاقتها بالبلديات، وهذا ما يؤكد على دور هذه الأخيرة في التخطيط والإدارة بهدف الحدّ من المشاكل الناتجة عن تدفق النازحين. ويمكن اختصار هذه الأهداف بما يلي: الاعتماد على معلومات صحيحة كأساس للتخطيط المحلي والحدّ من أسباب الهجرة وتوفير المعلومات الدقيقة خلال جميع مراحل الهجرة وتأمين الوصول إلى الخدمات الأساسية وتمكين المهاجرين من الاندماج في المجتمع المضيف والحفاظ على التماسك الاجتماعي والقضاء على كل اشكال التمييز وتمكين المهاجرين من الإسهام في التنمية المحلية المستدامة. وإذا كانت اغلب هذه الأهداف منطقية من النواحي الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، فإن بعضها يشكل حساسية بالنسبة إلى لبنان، خاصة كل ما يتعلق بدمج النازحين في المجتمع المضيف.

وبالعودة إلى المنظمات التابعة للأمم المتحدة، فباعتمادها مقررات المنتدى العالمي حول الهجرة، تجد نفسها مضطرةً إلى التعامل مع البلديات في مشاريعها المتعلقة بالتخطيط المديني والسياسات الاسكانية وتأمين الخدمات الأساسية وبناء قدرات الافراد والجماعات. وتكون مقاربتها للموضوع متعددة الأشكال بحيث تتخذ أوجهاً مختلفةً على الشكل التالي:

- مقاربة متعددة المستويات، تذهب من المستوى الوطني إلى المستوى المحلي، مروراً بالمستويات المناطقية بحسب كل بلد.
- مقاربة متعددة القطاعات تتضمن جميع المواضيع التي يجب أن يشملها التخطيط.
- مقاربة متعددة الجهات المعنية، من مجتمع مدني وقطاع خاص وأطراف فاعلة على أنواعها.

وتهدف هذه المنظمات إلى جعل البلديات وأجهزة الدولة تعمل بشكل يتماشى مع هذه المقاربات. فهي تشجع على التعاون العامودي بين مختلف مستويات الإدارة، كما تشجع أيضاً على التعاون الأفقي في مختلف المجالات، من خلال تعاون الإدارات العامة ومؤسسات الدولة بين بعضها البعض. وهي تسوّق لمزيد من الشراكة بين القطاعين العام والخاص، ولتحسين أداء البلديات على المستوى المالي، ولتغيير النظرة السلبية إلى النازحين، ولتطوير سبل جمع المعلومات الصحيحة بهدف القيام بتخطيط أفضل. لذلك وبالرغم من بعض الجوانب التي تفتح المجال لوجهات نظر متعارضة بين أجهزة الدولة اللبنانية والمنظمات الدولية، كتلك المتعلقة بتحسين شروط عيش النازحين وتطوير الإمكانيات الاقتصادية لديهم، والتي يرى البعض فيها تشجيعاً لهم على الاستقرار بدلاً من العودة حين يتاح لهم ذلك، فإنه لدى المنظمات الدولية الكثير من الأمور الإيجابية التي تستطيع أن تقدمها على مستوى الخبرات والإمكانيات. ففي مجال التخطيط المديني، أصدرت منظمة UN Habitat العديد من الدراسات والمشاريع المتعلقة بلبنان وبالنازحين الموجودين في مختلف مناطقه. ومن الممكن أن تُستعمل هذه الدراسات في عمليات التخطيط والإدارة التي تقوم بها أجهزة الدولة والبلديات. إن المتمعّن في هذه الدراسات والباحث في آلية وضعها، يلاحظ أنماطاً محدثة في العمل، ترتكز على دقة المعلومات ومطابقتها للواقع. فالتخطيط الناجح هو الذي يرتكز على أدلة وافية، وهذا ما حصل في الدراسات المذكورة وعلى سبيل المثال تلك التي تتناول منطقة القبة في طرابلس[11]. وقد تم جمع المعلومات بأسلوب تشاركي، يساهم من خلاله السكان بالعمل مع الجهة المسؤولة عن وضع الدراسة، فتأتي هذه الأخيرة على قدر كبير من الدقة والشفافية.

6- جمع المعلومات عن حركة النزوح

إن أحد الأهداف التي اعتمدها المنتدى العالمي حول الهجرة كان الاعتماد على معلومات صحيحة كأساس للتخطيط المحلي. ويُعدّ جمع المعلومات الدقيقة والوافية على أنه المرحلة الأولى من آلية التخطيط المديني. لذلك أَنشَأَت المنظمة الدولية للهجرة [12](IOM– International Organisation for Migration)، التابعة للأمم المتحدة، جدول تتبع النزوح [13](DTM– Displaced Tracking Matrix)، الذي يراقب حركة النازحين في العالم ويتابع تطورها ويجمع المعلومات عن هذا الموضوع وينشرها على الموقع الالكتروني الخاص به. وهذه المعلومات تتعلق بأشكال النزوح في كل اصقاع العالم وتوّثق أعداد النازحين وحالتهم الاقتصادية والاجتماعية وما يحتاجون إليه من خدمات ومساعدات وتجهيزات. ويتضح لمن يراقب الموقع

الالكتروني المذكور، أن جمع المعلومات يرتكز على أربعة عناصر هي التالية: تتبع التنقل ومراقبة التدفق ومتابعة التسجيل في الدوائر الرسمية ومكاتب المنظمات الدولية والقيام بأعمال المسح على أنواعها. ولهذا يضطرّ القيّمون على هذا الجدول إلى التعاون الوثيق مع الجهات الرسمية والبلديات والمنظمات غير الحكومية، خصوصاً تلك التابعة للأمم المتحدة، بالإضافة إلى التعامل مع جميع الجهات الفاعلة التي لها تواجد على الأرض. ويجري التحضير لعمليات المسح بشكل دقيق، فيتمّ تحديد الخيارات والسبل المتاحة لإتمامها بشكل ناجح. كما وأنه يتمّ نشر البيانات والتقارير للعموم على الموقع الالكتروني، فإن وسائل وطرق جمع المعلومات والمنهجيات المتبعة للوصول إليها، تكون أيضاً علنيةً في أغلب الأحيان. وفي هذا الإطار، فإن من يتصفّح الموقع الالكتروني لجدول تتبع النزوح بحثاً عن معلومات تتعلق بالنازحين في لبنان، فإنه لن يقع على شيء يذكر، ومن يسأل الجهة المذكورة عن المعلوات التي بحوزتها، فإن الردّ يكون أنه لا إمكانية لنشر المعلومات ولا لإعطائها، نظراً لحساسية الموضوع بالنسبة إلى السلطات الوطنية اللبنانية، لأن ذلك من الممكن أن يؤدي إلى مشاكل متعددة، بحسب المسؤولين عن إدارة جدول تتبع النزوح.

7- المشاكل الاجتماعية الناتجة عن النزوح

ومن يتابع تطوّر موضوع النزوح، إن من خلال الوسائل الإعلامية على التلفزيون أو شبكة الانترنت، يرى انه دائم التغيّر والتطوّر، وان هناك أشكال عديدة منه، كهجرة العبور مثلاً، وان الكثير من النازحين السوريين ينظرون إلى لبنان كوطن عبور باتجاه بلدان أخرى، كالبلدان الأوروبية. وهناك ايضاً الهجرة المعاكسة الطوعية، وهذا الخيار، تحاول أجهزة الدولة اللبنانية تسويقه لدى النازحين، بغية تخفيف الضغط على لبنان. ومع ذلك يستمر العدد الأكبر من النازحين بالبقاء في لبنان لأجل يبدو بعيداً. وهذا الاستقرار يتطلّب تكيّفاً مزدوجاً، أولاً من جهة النازحين الّذين يجب عليهم ان يتأقلموا مع مجتمعات، غالباً ما تكون مختلفةً عنهم من النواحي الاجتماعية والثقافية والدينية، وثانياً من جهة المجتمع المضيف الذي يجب عليه أن يكون أقلّ عنصرية وعدائية.

إن العنصرية تفترض وجود سمات بيولوجية وجينية عند مجموعة ما، تنعكس على ثقافتها، فتطبعها بطابع فكري وأخلاقي معيّن[14]. وقد ظهر مفهوم العرق في القرن التاسع عشر، وتطوّر خلال القرن العشرين، حيث تكاثرت حالات التفرقة بين الجماعات العرقية وزادت سيطرة شعوب على أخرى وتفشّى القمع وكثر الظلم. ومع أن فكرة العرق دحضها العلم مثبتاً عدم دقتها، ففي لبنان، أدّى التفكير بشكل عنصري، والذي سبّبته بشكل خاص مؤامرات جهات متخفية تعيش على بث السموم وزرع الفتن، إلى شحن القلوب ودسّ أفكار كانت غريبةً عن عقل مجتمعاتنا الشرقية وبعيدة عن وجدانها. وظهرت أشكال عديدة من العنصرية، تبدأ بالنزعة إلى التمايز والشتائم العنصرية لتتحوّل إلى تصرّفات أسوأ وأخطر، تؤدّي إلى تبنّي أيديولوجيات سياسية ومبادئ فلسفية تدفع إلى العنصرية وتشجع عليها. وليست اليافطات العدائية التي علقت في العديد من المدن والقرى، إلّا مثالاً على ذلك. وهذا يؤدي إلى تهديد الاستقرار في المجتمع اللبناني المتنوّع،

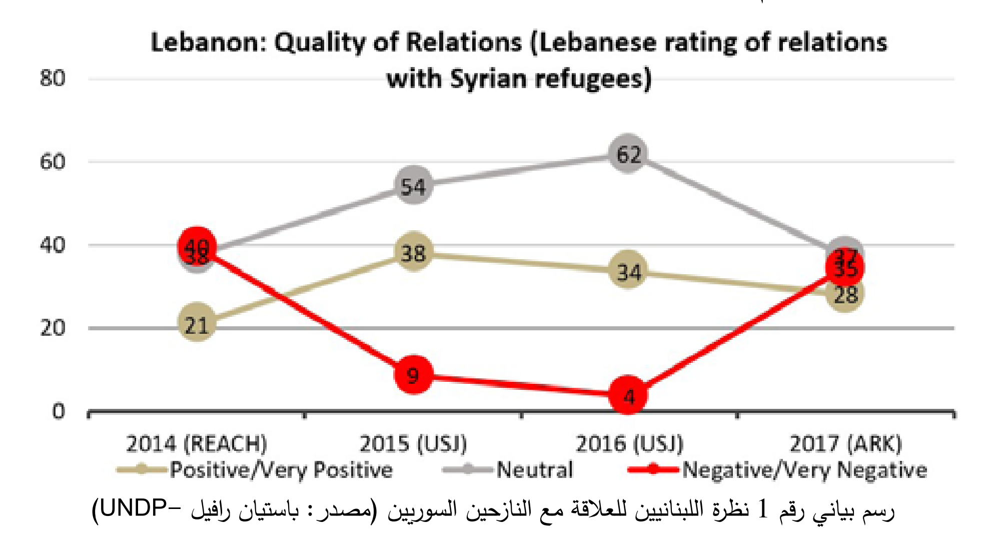
فالمواقف لا تبنى فقط على أساس اقتصادي، بل تضاف إلى ذلك عوامل سياسية وطائفية لتضيف المزيد من التعقيد والتوتر على الموضوع، ولتهدد بفرط عقد التماسك الاجتماعي الهشّ في البلد.

إن التماسك الاجتماعي هو استعداد الأفراد للتعاون في ما بينهم بهدف البقاء والازدهار[15]. وينعكس ذلك بشكل إيجابي على المجتمع، فينعم الناس بالأمن وينمو الاقتصاد. وقد تنبّهت خطة الاستجابة للأزمة إلى ذلك، فشجعت على اعتماد سلوكيات إيجابية وعلى تفعيل العوامل التي تؤدي إلى منع التوترات، الناجمة عن الأزمة، من أن تؤدي إلى صراعات بين النازحين او بينهم وبين المجتمعات المضيفة، من أجل حماية الاستقرار والحفاظ على تماسك المجتمع. وبالرغم من تشديدها على التعايش السلمي، لم تستجب الخطة لمطالبة بعض المنظمات العالمية بدمج النازحين حيثما يقيمون، لما لذلك من اخطار على المجتمع اللبناني، تجهلها تلك المنظمات أو تتجاهلها. وبالنتيجة، لا يسع أية خطة أو سياسات، محلية كانت أم على مستوى الوطن ككل، أن تتجاهل مكامن الضعف في مجتمعها. فبالنسبة للتماسك الاجتماعي، يجب فهم كل مقوماته وأبعاده. فأولاً، له بُعد عامودي يرتكز على الثقة المتبادلة بين الحكومة والمجتمع، وثانياً، له بُعد أفقي يتمثل بالعلاقة والتفاعل بين مكونات المجتمع والتي تشمل النازحين والسكان الأصليين. كما أن له أيضاً أبعاداً موضوعيةً تقاس من خلال مؤشراتٍ كمّية تحدد متانة عناصر التماسك في المجتمع، وأبعاداً غير موضوعية، تتعلّق بالقيم الأخلاقية والمواقف السياسية والمعتقدات[16]. أن كل هذه الأبعاد تساعد الباحثين والمتعاطين بشأن النازحين على التعمق بواقع التماسك الاجتماعي، فتتوضح الرؤية أمامهم فيتصرفون بروية ويتعاطون مع المشاكل المستجدة بعقلانية وتبصّر، على عكس العامة من الشعب، التي غالباً ما تنجر وراء الشائعات والأخبار غير الدقيقة، فيغلب التشنج والحدّة على مواقفهم، بسبب تصوّرهم الخاطئ للموضوع وإدراكهم المغلوط له.

8- انعكاس تصوّر الناس للعلاقة مع النازحين، على التماسك الاجتماعي

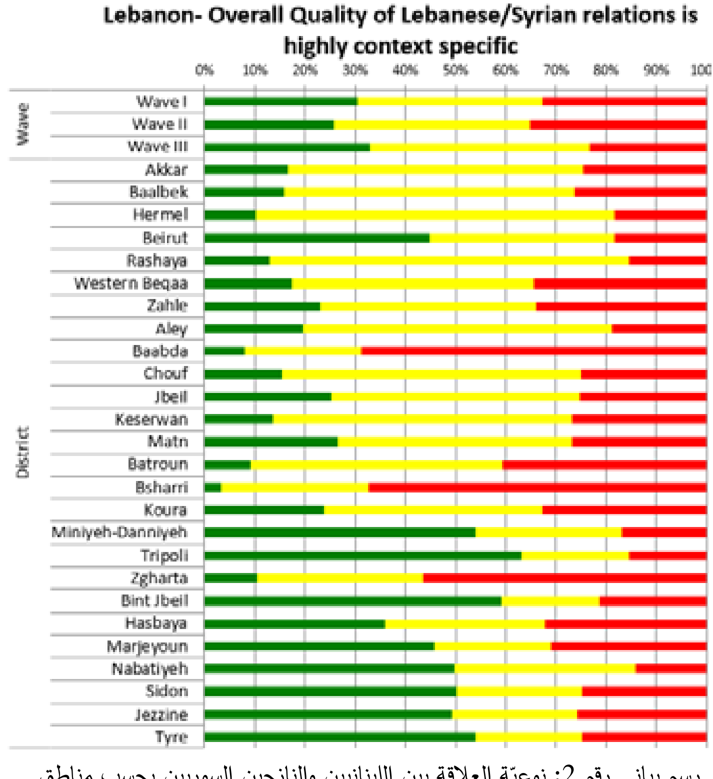
في زمن التدخل السوري في لبنان كان الشعار "شعب واحد في بلدين". وهذا الشعار كان يغضب بعض الفئات التي تعود لتؤيده أو يحوز على رضى البعض ليعودوا فيشجبوه. وإن من يسأل الناس اليوم عن تصورهم لشكل العلاقة مع النازحين عليه أن ينتظر الكثير من الردود السلبية. وكل ذلك هو نتيجة تقييم شخصي خاضع لتأثير جهات عديدة ووسائل مختلفة أولها الإعلام بأنواعه المتعددة. وتجدر الإشارة إلى الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في التأثير على الرأي العام اللبناني، وجعله يتبنّى آراءً تخدم من ترتبط به تلك الوسائل الإعلامية على الصعيدين الداخلي والخارجي. ولفهم وتحليل رأي اللبنانيين ونظرتهم لواقع النزوح، نعرض بعض الرسوم البيانية التي تمّ الحصول عليها من الخبير بشؤون اللاجئين، باستيان رافيل (Bastien Ravel)، وهو مستشار لدى مشروع الأمم المتحدة للتنمية (UNDP)، وقد عمل لسنوات عديدة على موضوع النازحين في لبنان.

إن الرسم البياني رقم 1، يُبرز نظرة اللبنانيين للعلاقة مع النازحين السوريين. ونلاحظ كيف تطورت تلك النظرة بين عامي 2014 و2017، فقد تحسن تقييم اللبنانيين للعلاقة مع النازحين تحسّناً ملحوظاً في العامين التاليين، ليعود إلى مستواه الأساسي بعد ثلاثة أعوام. ومردّ تحسن النظرة في الفترة الأولى إلى التخلص من الأفكار المسبقة بعد التعاطي المباشر مع النازحين. ولكن تقييم اللبنانيين عاد إلى مستواه الأساسي تقريباً، بعد ثلاث سنوات، وذلك لأسباب متعددة، كتضخيم العديد من وسائل الإعلام لبعض الأحداث المتفرقة وتعميم نتائجها. هذا بالإضافة إلى حالات معينة، تجعل استعداد البعض للتأثر بتلك الأخبار ولتصديقها أكبر وأهم.



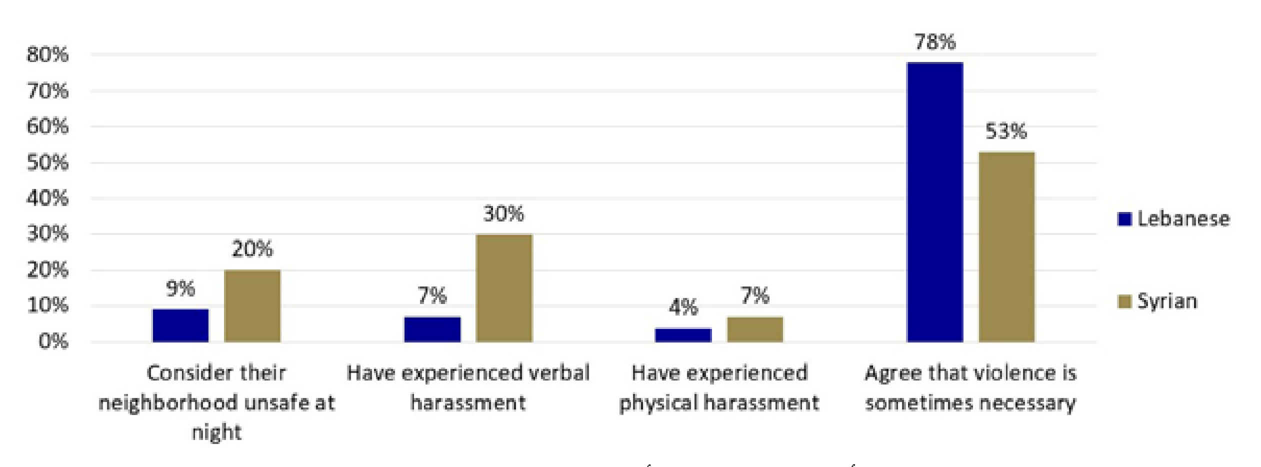
رسم بياني رقم 1 نظرة اللبنانيين للعلاقة مع النازحين السوريين (مصدر: باستيان رافيل –UNDP)

فكما يظهر في الرسم البياني رقم 2، تختلف النظرة إلى العلاقة مع النازحين بحسب المناطق. فهي تكون سلبيةً إلى حد كبير في مناطق كبشرّي، حيث وجود النازحين القليل نسبياً لا يسمح بتكوين فكرة واضحة عن الموضوع، أو كبعبدا حيث لا تزال ذيول الحرب الأهلية والتدخل السوري راسخين في عقول السكان. ولكن النظرة تكون أكثر إيجابية في أمكنة أخرى، كطرابلس مثلاً، حيث انعكس التقارب الجغرافي والمذهبي والسياسي على العلاقة بين النازحين والمجتمع المضيف، فزادها متانةً وقوة.



رسم بياني رقم 2: نوعيّة العلاقة بين اللبنانيين والنازحين السوريين بحسب مناطق تواجدهم (مصدر: باستيان رافيل –UNDP)

فبالواقع، ليست النظرة إلى العلاقة مع النازحين موضوعية، بل تتحكم بها عوامل عديدة تؤثر بأشكال مختلفة على حالة اللبنانيين النفسية بحسب تنوعهم، فتجعل آراءهم تفتقر إلى التماسك في المنطق وتتناقض في ما بينها. فرغم أن خمسة وثمانين بالمئة من اللبنانيين يوافقون على أن وجود أعداد من النازحين قد ساهم في وقوع المزيد من الجرائم وأحداث العنف، يبيّن الرسم البياني رقم 3 أن أكثر من تسعين بالمئة من اللبنانيين لا زالوا يشعرون بالأمان في المكان الذي يعيشون فيه. كما ويبيّن الرسم أيضاً أن النازحين الذين يتعرضون للمضايقات، نسبتهم تفوق نسبة اللبنانيين، وأن نسبة من يؤيد استعمال العنف هي أقل عند النازحين السوريين منها عند اللبنانيين.



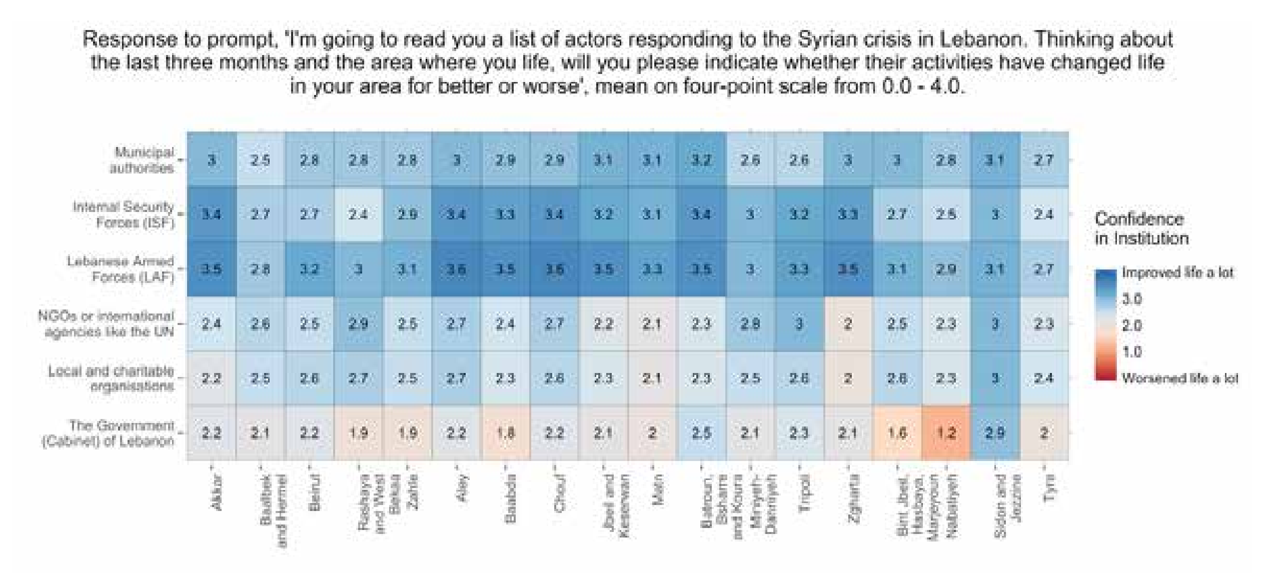
رسم بياني رقم 3: التماسك الاجتماعي وأنعكاسه على الشعور بالأمان لدى كل من اللبنانيين والسوريين (مصدر: باستيان رافيل –UNDP)

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن السوريين في السجون نسبتهم أدنى من السوريين في المجتمع اللبناني، وأن السبب الرئيسي لاعتقالهم هو مسائل تتعلق بقانونية اقامتهم لا بالجرائم وأعمال العنف. كل ذلك يؤكد أهمية نبذ الأفكار المسبقة وردود الفعل المتسرّعة، واللجوء إلى التروي والتعقل عند التعاطي مع هذا الموضوع، لأن الاستهتار بها يؤثر سلباً على التماسك الاجتماعي ما قد يؤدي إلى العنف، والتمييز، وإساءة المعاملة، وتضييع فرص ثمينة للتطور والنمو.

٩- دور المؤسسات الرسمية والبلديات

ا يتمحور التماسك الاجتماعي فقط حول علاقات مكونات المجتمع بين بعضها البعض، بل وأيضاً بين الجماعات المختلفة والمؤسسات الرسمية، كما قد أشرنا سابقاً. وهذه العلاقة في لبنان، تحكمها ديناميات تتعلق بالحالة السياسية ويحدد أطرها التنافس الطائفي والمذهبي في المنطقة، ولا يمكن فصلها عن الصراعات السابقة، التي ما انفكت ترخي بظلالها على الوضع الراهن. ولكن ورغماً عن كل ذلك، لا زالت جهات رسمية توحي للناس بالثقة من خلال مشاركتها بالتعامل بشكل إيجابي وفعّال، مع موضوع النزوح السوري، كما يظهر في الرسم البياني رقم 4، وهو أيضاً من إعداد مشروع الأمم المتحدة للتنمية (UNDP).

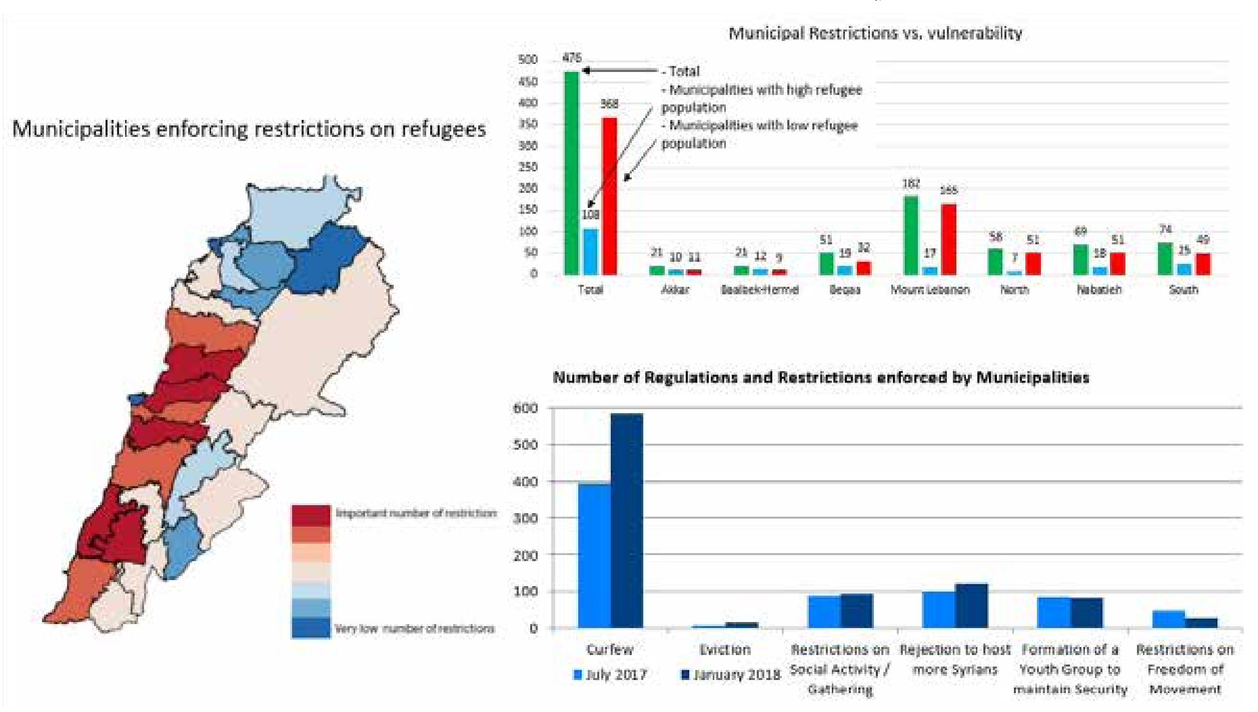
إن أكثر من يوحي للناس بالثقة كانت البلديات والقوى المسلحة. فالبلديات تعمل على تأمين الخدمات للسكان وهي أقرب إلى الناس بحكم كونها تشكل المستوى الأدنى من الحكم. والقوى المسلحة مسؤولة عن



رسم بياني رقم 4: ثقة الناس ببعض المنظمات الحكومية وغير الحكومية (مصدر: باستيان رافيل –UNDP)

حفظ الأمن وحماية السلم الأهلي. وبالمقابل لا تحوز الحكومة ولا المنظمات غير الحكومية، وطنية كانت أم أجنبية، على نسبة عالية من الثقة. وهذا مرده إلى التصور الذي يكونه الناس عن هذه المؤسسات. فرغم أن ممارسات تلك المؤسسات ليست بالضرورة ناجحة طوال الوقت، غير أن الفكرة المكونة عن عملها، تصورها بشكل أساسي وسائل الاعلام على أنواعها، وهذه الأخيرة بعيدة كل البعد عن الموضوعية. وإننا كنا قد بيّنا تأثر العلاقة بين النازحين والمجتمع المضيف بالأخبار الواردة على وسائل الإعلام. ويتبين أن نوعية هذه العلاقة تنعكس على القرارات والإجراءات التي تتخذها البلديات. فأكثر البلديات التي وضعت قيوداً على النازحين، هي التي يتواجد النازحون على أرضها بنسب متدنية، كما يظهر في الرسم البياني رقم 5، وتظهر على الخريطة المناطق التي تتواجد فيها اعلى نسبة من البلديات التي تفرض القيود، كما ويبين رسم بياني آخر أنواع هذه القيود واعدادها، والتي يأتي فيها حظر التجوّل بالمركز الأول. فكل ذلك يدل أن هناك فرق كبير بين الواقع على الأرض وبين الصورة التي ترتسم بذهن الناس، لبنانيين وسوريين، عن هذا الواقع والتي

تجهد جهات عديدة على إظهارها بالشكل الذي يفيدها و يساعدها على شحذ الهمم للسير بالمشاريع التي تخدم مصالح تلك الجهات والتي ليس فيها بالضرورة أية مصلحة للبنانيين أو للسوريين.



رسم بياني رقم 5: البلديات والقيود المفروضة على النازحين (مصدر: باستيان رافيل –UNDP)

خاتمة

إن أطراف النزوح السوري حالياً هي: النازحون واللبنانيون دولةً وشعباً والخارج الأممي بمؤسساته وجمعياته. النازحون السوريون يريدون الأمن والأمان بشكل عام، إن في البقاء حيث هم أو في الانتقال الى جهة غربية. وقد يفكر البعض بالعودة إلى سوريا. وهناك فئة استساغت المساعدات والسكن في لبنان ولا يشغل بالها المستقبل والتطورات القادمة.

من جهة اللبنانيين، هناك اعتبارات شتّى: عاطفة تقول بوجوب استقبال السوريين لأسباب إنسانية أو قومية. وهناك لدى البعض شعور بالخشية من قلب التوازنات الطائفية كما أنه هناك فئة ثالثة من المستفيدين من اليد العاملة أو من المساعدات الأممية وجزء من هذه الفئة الثالثة يسير في المشروع المبطن وفي الأهداف المرسومة خارجياً.

أما من ناحية المتدخل الأممي الذي يقوم بالمساعدات على أنواعها، فهناك صنفان: صنف أول يحدوه شعور انساني بحت، وهو يقوم بالدراسات لاستنباط الحلول الناجعة ولضخ المساعدات، وصنف ثانٍ يسير في خط المساعدات وهو يضمر هدفاً سياسياً. ونظن أن أي هدف سياسي خارجي لا يكتب له النجاح إن لم يزرع التناقض والتفرقة بين مكونات مجتمعنا المتعدد والمتناقض أصلاً. وعليه نرى أن واجبات اللبنانيين، دولةً وشعباً، تتمحور حول النقاط التالية:

- محاربة التمييز والضغط والعدائية تجاه النازحين السوريين.
- العرفان بالجميل للجهات الأممية المانحة أو التي تقوم بالدراسات المفيدة للبنان وللنازحين.
- مبادرة الدولة اللبنانية إلى حملة إعلامية دائمة لتبيان حق لبنان ومصلحة السوريين والفشل المنتظر للمستغلين السياسيين في هذا الموضوع الإنساني.

إن الانطلاق من هذه المبادئ يشجع على انجاز المخططات الاستراتيجية للمناطق اللبنانية، بالشكل الذي يستفيد من دعم وخبرة المنظمات الدولية التي جرى التطرّق إليها، مع مقاربة موضوع النزوح من منطلق تدارك أي خطر يهدد التماسك الاجتماعي. فهذا التوجه قد يجعل من أزمة النزوح السوري فرصةً للنهوض الاقتصادي في لبنان ولتأمين حياة كريمة للسوريين المتواجدين فيه ولإحباط كل المخططات التي ترمي إلى الاستفادة من جو التناقض والاختلاف لتعميق الخلافات والصدام والتدمير. وإننا نعتقد أن ردة الفعل لدى اللبنانيين والسوريين سوف تكون واعيةً، شعارها المحافظة على بعضهم البعض في مصالحهم وأمانيهم وتطلّعاتهم، على أن تكون الواقعية والموضوعية سبباً لخلاصهم ولدفع الأذية والضرر عن كل من الشعبين الشقيقين.

1 Kabbanji, L. (2016), Migration forcée et politiques migratoires: le cas des réfugiés de Syrie au Liban. In: Beauchemin C. (ed.), Ichou M. (ed.) Au-delà de la «crise des migrants» : décentrer le regard . Paris: Karthala, 97-116.
2 خطة لبنان للاستجابة للأزمة 2015-2016، www.lcpr.gov.lb
3 Texte de la convetion de 1951 relative aux réfugiés, in convention et protocole relatifs au statut des réfugiés (2007), Genève, UNHCR.
4 Chalcraft, J. (2009), The invisible cage: Syrian migrant workers in Lebanon, Stanford University Press.
5 Rizkallah, S. (2019), La crise des déplacés syriens : besoin/opportunité de recours à la RSE, in National Defense magazine. www.lebarmy.gov.lb.
6 تقرير هيومن رايتس ووتش (2019)، منازلنا ليست للغرباء_ البلديات اللبنانية تجلي آلاف اللاجئين السوريين قسراً.
7 الجريدة الرسمية، تاريخ 17/1/2020
8 أهداف التنمية المستدامة (2015) /www.un.org/sustainabledevelopment/ar
9 الخطة الحضرية الجديدة (2016) www.habitat3.org/wp-content/uploads/NUA-Arabic.pdf
10 الميثاق العالمي بشأن اللاجئين (2018) www.unhcr.org/ar/5938f7224.html
11 El-Qobbeh Neighbourhood Profile (2018), UN-Habitat, www. unhabitat.org/el-qobbeh-neighbourhood-profile.
12 https://www.iom.int
13 https://dtm.iom.int
14 Wieviorka, M. (1991) L›espace du racisme. Seuil.
15 Stanley, D. (2003). What Do We Know about Social Cohesion: The Research Perspective of the Federal Government›s Social Cohesion Research Network. The Canadian Journal of Sociology.
16 Larsen, C. A. (2014). Social cohesion: Definition, measurement, and developments. Center for Comparative Welfare Studies, Aalborg University.

المراجع العربية

مرسوم 6134 / 2020 – إبرام، على سبيل التسوية، إتفاقية تمويل بين الجمهورية اللبنانية ممثلة بمجلس الإنماء والإعمار والوكالة الفرنسية للتنمية لبنى تحتية ريفية ومشاريع اعادة تحريج وتنفيذ عمليات تدريب في المناطق الاكثر تأثراً جراء تبعات الازمة السورية، تاريخ 17/1/2020، الجريدة الرسمية.

أهداف التنمية المستدامة (2015 www.un.org/sustainabledevelopment/ar

الميثاق العالمي بشأن اللاجئين (2018 www.unhcr.org/ar/5938f7224.html

الخطة الحضرية الجديدة (2016 www.habitat3.org/wp-content/uploads/NUA-Arabic.pdf

تقرير هيومن رايتس ووتش (2019)، منازلنا ليست للغرباء_ البلديات اللبنانية تجلي آلاف اللاجئين السوريين قسراً.

خطة لبنان للاستجابة للأزمة 2015-2016، www.lcpr.gov.lb

خطة لبنان للاستجابة للأزمة 2017-2020، www.un.org.lb/lcrp2017-2020

المراجع الأجنبية

Chalcraft, J. (2009), The invisible cage: Syrian migrant workers in Lebanon, Stanford University Press

Kabbanji, L. (2016), Migration forcée et politiques migratoires: le cas des réfugiés de Syrie au Liban. In: Beauchemin C. (ed.), Ichou M. (ed.) Au-delà de la “crise des migrants” : décentrer le regard . Paris: Karthala, 97-116.

Larsen, C. A. (2014). Social cohesion: Definition, measurement, and developments. Center for Comparative Welfare Studies, Aalborg University.

Rizkallah, S. (2019), La crise des déplacés syriens : besoin/opportunité de recours à la RSE, in National Defense magazine. www.lebarmy.gov.lb.

Stanley, D. (2003). What Do We Know about Social Cohesion: The Research Perspective of the Federal Government’s Social Cohesion Research Network. The Canadian Journal of Sociology.

Wieviorka, M. (1991) L’espace du racisme. Seuil.

El-Qobbeh Neighbourhood Profile (2018), UN-Habitat, www. unhabitat.org/el-qobbeh-neighbourhood-profile.

Texte de la convetion de 1951 relative aux réfugiés, in convention et protocole relatifs au statut des réfugiés (2007), Genève, UNHCR.

https://www.iom.int

https://dtm.iom.int

علاقة الهجرة بالمكان
دراسة لخمس قرى في قضاءي جبيل والبترون

د. كوليت أبي فاضل
علوم اجتماعية/ الجامعة اللبنانية

مقدّمة:

ازدادت وتيرة الهجرة في العالم، وارتفعت معدلاتها حيث وصل عدد المهاجرين الدوليين إلى أكثر من مئتين وخمسين مليون شخصاً في العام 2017 وفق إحصاءات المنظمة الدولية للهجرة.

ويشهد لبنان أيضاً ارتفاعاً في وتيرة الهجرة. وقد أدّى تزايد الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في لبنان، وارتفاع معدلات الفقر والبطالة إلى تواصل الهجرة وتعاظم حجمها. فقد كان مجموع المهاجرين بين 1959 1974، 131,000 مهاجراً[1]، بمعدل سنوي 8187 مهاجراً. وبلغ هذا العدد 326,000 مهاجراً في الفترة 1975 . 1990،[2] ليصل إلى 718,584 مهاجراً في الفترة –2007 2018.[3]

الجدول رقم ١

المعدل السنوي لهجرة اللبنانيين بين 1959 و2018 [4]

السنوات	مجموع المهاجرين	المعدل السنوي للهجرة
1974 . 19٥9	131000	8187
1990 . 1975	326000	20000
1996 . 1991	138000	23000
2001 . 1997	135000	27000
2007 . 2002	214000	36000
2018 . 2007	718484	59882

ورغم التزايد في تدفقات الهجرة، لا تزال وجهتها تختلف بين مهاجرٍ وآخر، ووفق الفترات الزمنية.

هل توجد علاقة بين المكان المهاجر منه والمكان المهاجر إليه؟ وما مدى ارتباط هذين المكانين بمميزات المهاجر؟ وبخصائص الهجرة؟ وبالعلاقة ببلده الأم؟

سنتناول لمحة عن الهجرة من لبنان، من خلال عينةٍ عشوائية لخمس قرى. ووقع الاختيار ضمن محافظتي جبل لبنان ولبنان الشمالي، على قضاءين محازيَين، هما قضاءا جبيل والبترون. وقد حاولنا إجراء

مسح لكافة مهاجري هذه القرى من خلال الوسائل المتاحة، ورغم الصعوبات الإحصائية التي تعتري هذه الظاهرة السكانية. فتدفق المهاجرين لا يمكن قياسه بدقة ولا يتسم بالثبات من الناحية الزمنية. وقد بلغ عدد مهاجري العينّة 150 شخصاً بين عامي 2015 و2016، موزعين على الوجه التالي:

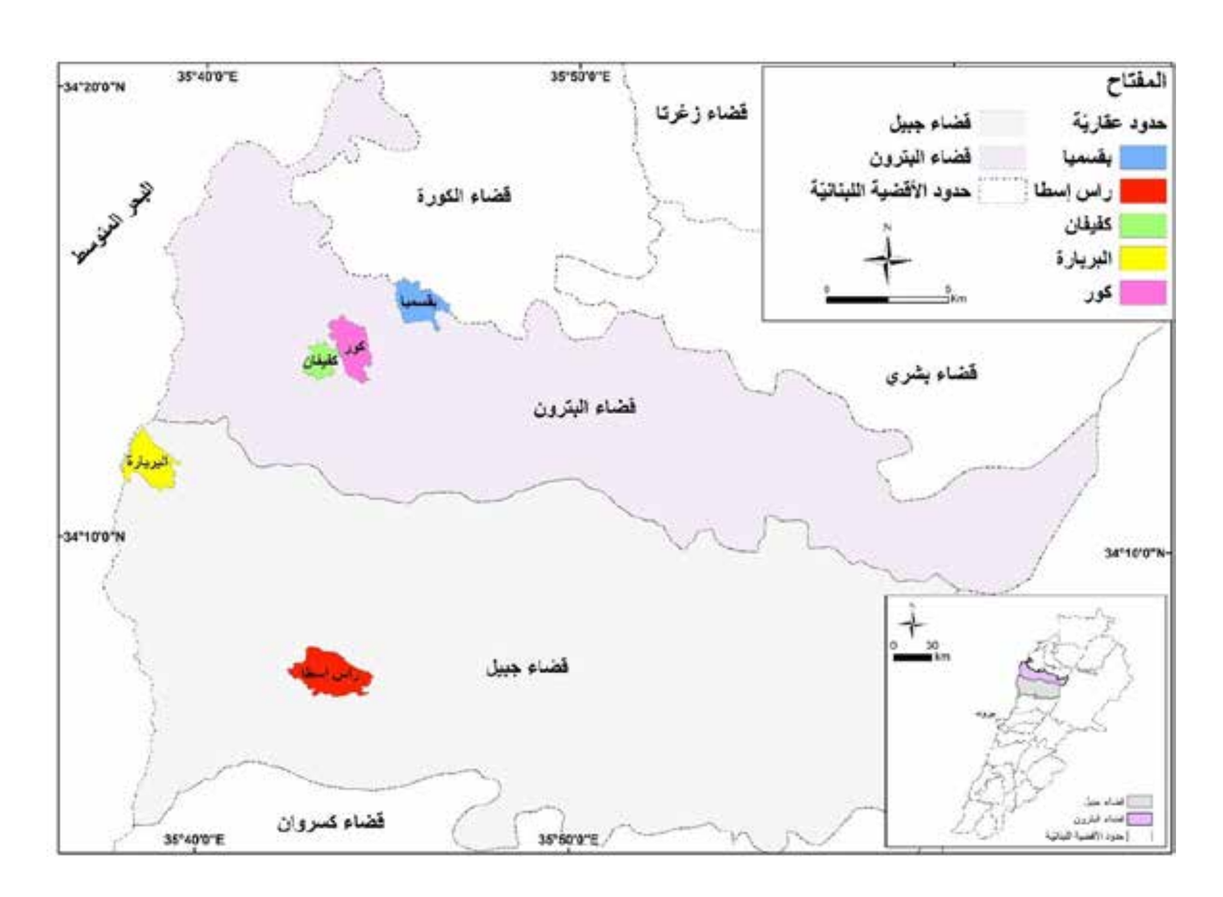
- 75 مهاجراً من قريتين في قضاء جبيل، هما: البربارة (44 مهاجراً) ورأس أسطا (31 مهاجراً)؛
- 75 مهاجراً من ثلاثة قرى في قضاء البترون، هي: كفيفان (27 مهاجراً)، كور (18 مهاجراً) وبقسميا (30 مهاجراً).

والخريطة التالية تبيّن مواقع هذه القرى المشمولة بالدراسة في كلا القضاءين.

الخريطة رقم 1

القرى المشمولة بالدراسة في قضاءي جبيل والبترون

(الخريطة من إعداد الباحثة)



سوف نعرض بدايةً مميزات الهجرة في هذه القرى، ثم ندرس مدى ارتباط المكان المهاجر منه بالمكان المهاجر إليه، وأخيراً نتطلع إلى العلاقة بين كل من المكانين ومميزات الهجرة.

1. مميزات الهجرة

طالت الهجرة في قرى البربارة وراس أسطا، كفيفان، كور وبقسميا، الذكور بشكلٍ أساسي، حيث وصل عدد المهاجرين الذكور في هذه القرى أكثر من 90٪ من مجموع المهاجرين. وعادةً، يهاجر الرجل أولاً، ثم يقوم بعد ذلك باستقدام زوجته أو عائلته الى دولة المهجر. لذلك، تكون هجرة النساء متدنية، وأغلبها مرتكزة على الاعتبارات الشخصية كالزواج أو لمّ شمل العائلة (57.1٪ من المهاجرات يهاجرن بدافع شخصي، مقابل 3.7٪ من المهاجرين الذكور)، بينما يسعى ثلث النساء إلى العمل أو لتحسين معيشتهن. وهذا التفوق العددي لهجرة الذكور ينطبق على الهجرة اللبنانية بعامةً [5].

كما تتشابه الخصائص الاجتماعية لمهاجري العينة مع خصائص المهاجرين اللبنانيين، حيث أن المهاجرين هم بأغلبيتهم من الشباب (80٪ منهم في سن العمل بين 21 و64 سنة)، ومن ذوي الكفاءات العلمية والمهنية العالية (72٪ من المهاجرين من حملة الشهادات الجامعية). ويميل غير المتزوجين عادةً إلى الهجرة أكثر من المتزوجين، إلّا أننا نلاحظ أن 76.7٪ من مهاجري العينة، هم متزوجون لأن هذا كان وضعهم الاجتماعي في السنة التي أنجزنا فيه الدراسة (2015 ـ 2016)، وليس في السنة التي هاجروا فيها. بالنسبة لخصائص الهجرة، كان الدافع الاقتصادي هو الأبرز، فثلثا المهاجرين تقريباً هاجروا بدافع العمل (45.3٪) أو لتحسين مستوى معيشتهم (20.7٪). أما أسباب الهجرة الأخرى، فكانت السعي من أجل الدراسة (17.3٪)، أو لاعتباراتٍ شخصية (9.9٪)، أو للبحث عن الأمان (7.3٪). وقد أتت هذه النسب شبيهة بنسب دراسة الجامعة اليسوعية وأكثر قرباً من دراسة إدارة الإحصاء المركزي، مع فارقٍ بسيط هو ارتفاع نسبة الهجرة بهدف الدراسة في العينة (17.3٪ مقابل 8.8٪ في دراسة الجامعة اليسوعية و10.9٪ في دراسة إدارة الإحصاء المركزي).

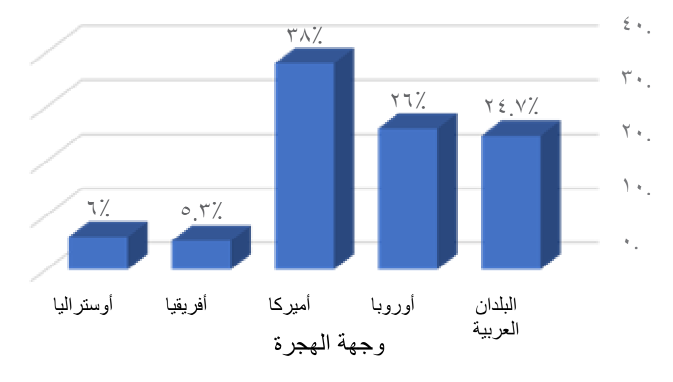
الجدول رقم 2
المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان حسب دوافع الهجرة

دوافع الهجرة	دراسة الجامعة اليسوعية 2007 [6]	الإحصاء المركزي 2009 [7]	العينة 2015 ـ 2016
العمل	52.4	65.9	66
الدراسة	8.8	10.9	17.3
اعتبارات شخصية	25.4	20.8	9.3
أسباب أخرى	13.4	2.4	7.3
المجموع	**100**	**100**	**100**

أما وجهة الهجرة، فكانت القارة الأميركية، بشكلٍ أساسي (38٪)، لا سيّما الولايات المتحدة، تلتها القارة الأوروبية (26٪)، ومن ثم البلدان العربية[8] (24.7٪). وكانت الهجرة إلى أوستراليا (6٪)، وأفريقيا (5.3٪) متدنية.

الرسم البياني رقم 1

المهاجرون حسب وجهة الهجرة



وازدادت وتيرة الهجرة إثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية منذ 1975. فالحرب الأهلية التي بدأت في ذلك العام ساهمت في الشعور بعدم الأمان، والانهيار الاقتصادي الذي حصل في الثمانينيات أدّى إلى انخفاض القدرة الشرائية للمواطنين، وتراجع الحد الأدنى للأجور إلى أكثر من 12 مّرة، وازدياد البطالة والفقر، ما أثّر على الهجرة، فتسارعت وتيرتها وتعاظم حجمها. واستمر نزيف الهجرة في السنوات اللاحقة للحرب لعدم شعور المواطن بالرضى على كافة الصعد الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية. وكان للاغتيالات السياسية، لا سيما في العام 2005، وللحرب الإسرائيلية في العام 2006 بالغ الأثر في زيادة أعداد المهاجرين، حيث وصل المعدل السنوي للهجرة في الفترة 2002– 2007 إلى أعلى مستوى له بمعدل 4.3 مهاجراً في السنة.

الجدول رقم 3

المهاجرون حسب فترات الهجرة والمعدل السنوي للهجرة

فترات الهجرة	العدد	المعدل السنوي للهجرة
ما قبل 1975	30	1.4
1975 – 1991	41	2.4
1992 – 1996	13	2.6
1997 – 2001	17	3.4
2002 – 2007	26	4.3
2008 وما بعد	23	2.9
المجموع	**150**	**2.4**

وامتازت هذه الهجرة بأنها هجرة فردية (53.3٪ من المهاجرين هاجروا بمفردهم) أكثر منها هجرة عائلات، حيث أن 23.3٪ من المهاجرين تبعهم شخص، ونسبة مماثلة (23.3٪) تبعها شخصان على الأقل.

تتجلى علاقة المهاجر ببلده الأم من خلال مدى تردّده إلى لبنان، وتحويله الأموال (حجماً، وتيرةً وأسباباً) وتطلعاته المستقبلية. فحوالي 75٪ من المهاجرين ترددوا، بعد هجرتهم، دورياً إلى لبنان، إما مرّة أو أكثر سنوياً (58.7٪) أو 4 أربع مرّات أو أكثر (16٪). في المقابل، لم يزر 8٪ من المهاجرين لبنان منذ هجرتهم. أضف إلى ذلك أن أكثر من نصف المهاجرين (54.7٪) يحوّل الأموال إلى لبنان، وبوتيرةٍ شهرية (57.3٪ من المهاجرين الذين يحوّلون الأموال)، وبقيمةٍ تفوق الست ملايين ليرة لبنانية سنوياً (89٪ منهم). أما أسباب هذه التحويلات، فهي من أجل معيشة العائلة والأهل (40.2٪ منهم)، شراء منزل أو عقار (24.4٪)، إيداع في المصرف (20.7٪)، القيام بمشاريع استثمارية في لبنان (8.5٪) أو تقديمات وتبرعات (6.1٪).

ولكن تتراجع علاقة المهاجر ببلده الأم من خلال تطلعاته المستقبلية، حيث ينوي 56.7٪ من المهاجرين البقاء في الخارج، يسعى الثلث فقط للعودة والعمل في لبنان، بينما يريد 10٪ من المهاجرين العودة إلى لبنان عند تقاعدهم. وتتماهى تطلعات مهاجري هذه العينة مع تطلعات مهاجري لبنان حسب دراسة الجامعة اليسوعية، إذ لا ينوي 54٪ من المهاجرين العودة إلى الوطن، بينما 18٪ منهم يتطلعون إلى العودة و 28٪ منهم في حيرة من أمرهم[9].

2. مدى ارتباط المكان المهاجر منه بالمكان المهاجر إليه

ضمن إطار ارتباط المكان المهاجر منه بالمكان المهاجر إليه، سنتناول الارتباط بين القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها، ثم نقوم بالمقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان في الفترتين 1992-2007، و2004-2009.

أ. الارتباط بين القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها

عديدة هي البلدان التي استقطبت المهاجرين في هذه الدراسة. ولمعرفة العلاقة بين المتغيرين القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها، استخدمنا مربع كاي (Khi-deux: χ^2)، وطرحنا :

فرضية العدم: القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها هما عاملان مستقلان.

فرضية البديل: القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها هما عاملان متجانسان.

وبلغت قيمة دلالة الاختبار 0.0 وهي أصغر من 0.05، لذلك تُطرح فرضية العدم جانباً، ويؤخذ بالفرضية البديلة، فتكون القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها عاملين متجانسين، وبالتالي يمكن القول بوجود علاقة بينهما. وهي علاقة متوسطة حسب معامل كرامر (V de Cramer) البالغ 0.278. فقد

اتجه مهاجرو البربارة، كور وبقسميا إلى القارة الأميركية بشكلٍ أساسي، وفضّل مهاجرو راس إسطا القارة الأوروبية، بينما اتجه مهاجرو كفيفان بالتساوي إلى القارة الأميركية والبلدان العربية.

الجدول رقم 4

المهاجرون حسب القرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها

القرى المهاجر منها		القارات المهاجر إليها					المجموع
		البلدان العربية	أوروبا	أميركا	أفريقيا	أوستراليا	
البربارة	العدد	6	3	28	3	4	44
	النسبة المئوية (٪)	13.6	6.8	63.6	6.8	9.1	100
راس إسطا	العدد	9	19	3	0	0	31
	النسبة المئوية (٪)	29	61.3	9.7	0	0	100
كفيفان	العدد	9	7	9	1	1	27
	النسبة المئوية (٪)	33.3	25.9	33.3	3.7	3.7	100
كور	العدد	5	3	7	2	1	18
	النسبة المئوية (٪)	27.8	16.7	38.9	11.1	5.6	100
بقسميا	العدد	8	7	10	2	3	30
	النسبة المئوية (٪)	26.7	23.3	33.3	6.7	10	100
المجموع	العدد	**37**	**39**	**57**	**8**	**9**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**24.7**	**26**	**38**	**5.3**	**6**	**100**

وتفصيلاً، اتجه مهاجرو جميع قرى قضاءي جبيل والبترون المشمولين بالدراسة، إلى القارة الأميركية (34٪ من مجموع المهاجرين)، وإلى البلدان العربية، بخاصةٍ دول الخليج (24.7٪). قصد القارة الأميركية أكثر من نصف مهاجري البربارة (54.2٪)، 38.9٪ من مهاجري كور وثلث مهاجري بقسميا. وكان مهاجرو كفيفان الروّاد في الهجرة نحو البلدان العربية (33.3٪)، ومن بعدهم مهاجرو راس إسطا (29.6٪).

وتصدرت فرنسا المرتبة الثالثة في وجهة الهجرة (8.7٪ من مجموع المهاجرين)، حيث استقطبت مهاجري بقسميا وكور بشكل أساسي (16.7٪ من مهاجري كل منهما)، ومن بعدها مهاجري كفيفان (14.8٪)، ومهاجري راس إسطا (3.7٪). والجدير بالذكر أن أحداً من البربارة لم يهاجر نحو فرنسا. ونعلل السبب إلى أن سكان البربارة هم من الروم الأورثوذكس، وقد يميلون إلى تعلم اللغة الإنكليزية كلغة ثانية بدل الفرنسية.

واحتلت المرتبة الرابعة كل من أوستراليا وسويسرا (6٪ من مجموع المهاجرين لكلّ منهما). لم يقصد أي مهاجر من راس إسطا أوستراليا، لكن بالمقابل لم يتوجه إلى سويسرا سوى مهاجري قضاء جبيل (25.9٪ من مهاجري راس إسطا، و4.2٪ من مهاجري البربارة).

وأتت من بعد هاتين الوجهتين، القارة الأفريقية (5.3٪ من مجموع المهاجرين)، واستثنيَ مهاجرو راس إسطا من هذه الوجهة.

وبلغت الهجرة إلى كل من كندا وألمانيا 4٪ من مجموع المهاجرين. وكانت هاتان الدولتان مقصداً لمهاجري قريتي قضاء جبيل، ومهاجري كفيفان في قضاء البترون.

استقطبت إسبانيا مهاجري البربارة فقط (7.4٪ من مهاجريها). وقد تفرد أهالي قضاء جبيل بالهجرة إلى لندن (3.8٪ من مهاجري راس إسطا، و2.1٪ من مهاجري البربارة)، ويعود السبب ربما إلى اللغة، حيث أن أهالي قضاء البترون يركّزون على تعلّم اللغة الفرنسية، ويؤثرون الهجرة إلى بلدان يتقنون لغتها.

ونلاحظ أن قرية معينة تفرّدت بالهجرة إلى وجهة معينة. فمهاجرو راس إسطا تفرّدوا بالتوجه إلى روسيا وقبرص (7.4٪ من مهاجري راس إسطا لكل منهما)، واليونان (3.7٪). ولكن كان بالأحرى من أهالي البربارة الأورثوذكس التوجه إلى هاتين الدولتين الأورثوذكسيتين. في حين تفرّد أهالي بقسميا بالهجرة نحو بلجيكا ورومانيا (3.3٪ من مهاجري بقسميا لكل منهما).

الجدول رقم 5

المهاجرون حسب الدول أو القارّات المهاجر إليها والقرى المهاجر منها

الدول أو القارّات المهاجر إليها	القرى المهاجر منها					المجموع
	البربارة	راس إسطا	بقسميا	كفيفان	كور	
أميركا	26	1	10	7	7	51
البلدان العربية	7	8	8	9	5	37
فرنسا	0	1	5	4	3	13
أوستراليا	4	0	3	1	1	9
سويسرا	2	7	0	0	0	9
أفريقيا	3	0	2	1	2	8
كندا	3	1	0	2	0	6
ألمانيا	2	3	0	1	0	6
إسبانيا	0	0	0	2	0	2

روسيا	0	2	0	0	0	2
قبرص	0	2	0	0	0	2
لندن	1	1	0	0	0	2
اليونان	0	1	0	0	0	1
بلجيكا	0	0	1	0	0	1
رومانيا	0	0	1	0	0	1
المجموع	**48**	**27**	**30**	**27**	**18**	**150**

بالنسبة للقضاء المهاجر منه، لم نجد ترابطاً بينه وبين القارّات المهاجر إليها. فحسب مربع كاي، بلغت قيمة دلالة الاختبار 0.555 وهي أكبر من 0.05. لذلك نقبل فرضية العدم، وبالتالي فإن القضاء المهاجر منه والقارّات المهاجر إليها هما عاملان مستقلان، لا علاقة بينهما.

الجدول رقم 6

المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه والقارّات المهاجر إليها

القضاء المهاجر منه		**القارّات المهاجر إليها**					**المجموع**
		البلدان العربية	**أوروبا**	**أميركا**	**أفريقيا**	**أوستراليا**	
جبيل	العدد	15	22	31	3	4	75
	النسبة المئوية (٪)	20	29.3	41.3	4	5.3	100
البترون	العدد	22	17	26	5	5	75
	النسبة المئوية (٪)	29.3	22.7	34.7	6.7	6.7	100
المجموع	العدد	**37**	**39**	**57**	**8**	**9**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**24.7**	**26**	**38**	**5.3**	**6**	**100**

ب. المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان

إذا ما قارنا مهاجري العينة ومهاجري لبنان حسب القارّات المهاجر إليها والقضاء والمحافظة للفترة 1992-2007، نجد أن نسب وجهة الهجرة في قضاء جبيل تتقارب مع نسب محافظة جبل لبنان، باستثناء الهجرة إلى أوروبا، حيث فاقت نسبة مهاجري قضاء جبيل إلى أوروبا (29.6٪ من مهاجري العينة) نسبة مهاجري جبل لبنان (18.3٪ من مهاجري جبل لبنان). وتختلف وجهة مهاجري البترون عن وجهة مهاجري لبنان الشمالي: تفوق نسبة مهاجري قضاء البترون إلى البلدان العربية (41.4٪) وأوروبا (24.1٪) نسبة مهاجري لبنان الشمالي إلى هذه الوجهات (32.8٪ وجهتهم البلدان العربية، 14.6٪ وجهتهم أوروبا)، لكن

بالمقابل، توجه مهاجرو لبنان الشمالي إلى أوستراليا بكثافة (28.2٪)، بينما لم يتوجه سوى 3.8٪ من مهاجري قضاء البترون إلى أوستراليا.

الجدول رقم 7

المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان

حسب القارّات المهاجر إليها والقضاء والمحافظة للفترة 1992-2007

القارّات المهاجر إليها	مهاجرو العينة (1992-2007) [10]			مهاجرو لبنان (1992-2007) [11]		
	جبيل	البترون	المجموع	جبل لبنان	لبنان الشمالي	لبنان
البلدان العربية	40.7	41.4	41.1	43.3	32.8	34.9
أوروبا	29.6	24.1	26.8	18.3	14.6	22.4
أميركا	25.9	17.2	21.4	28.7	17	25.4
أفريقيا	3.7	10.3	7.1	5.4	7.2	7.9
أوستراليا	0	6.9	3.6	3.8	28.2	8.9
آسيا	0	0	0	0.6	0.3	0.6
المجموع	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**

بالمقارنة بين وجهة مهاجري قضاءي جبيل والبترون ووجهة مهاجري لبنان للفترة 2004 . 2009، يتبيّن لنا اختلاف في النسب. فأكثر من نصف مهاجري العينة توجهوا إلى البلدان العربية (54.2٪)، مقابل 39.2٪ من مهاجري لبنان، والربع توجه إلى أوروبا مقابل 19.7٪ من مهاجري لبنان. وفاقت نسب مهاجري لبنان إلى كل من قارات أميركا، أفريقيا وأوستراليا، نسب مهاجري العينة. وهذا ما يدلّ أيضاً على العلاقة بين المكان المهاجر منه والمكان المهاجر إليه.

الجدول رقم 8

المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان

حسب القارّات المهاجر إليها للفترة 2004–2009

القارّات المهاجر إليها	مهاجرو العينة [12]	مهاجرو لبنان [13]
البلدان العربية	54.2	39.2
أوروبا	25	19.7
أميركا	12.5	19.5
أفريقيا	4.2	12.1
أوستراليا	4.2	7.6
آسيا	0	0.7
غير معروف	0	1.2
المجموع	**100**	**150**

وخلاصة القول إن المكان المهاجر إليه يختلف باختلاف المكان المهاجر منه.

3. العلاقة بين كل من المكانين (المهاجر منه والمهاجر إليه) ومميزات الهجرة

توثر عوامل عديدة على المكان المهاجر منه (قرىً أو قضاء) أو المكان المهاجر إليه (القارّات)، منها مميزات المهاجر، خصائص الهجرة، والعلاقة بالبلد الأم.

أ. مميزات المهاجر

لا توجد علاقة ذات دالة إحصائية بين القرى المهاجر منها ومستوى المهاجر التعليمي، حيث بلغت قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.08 وهي أكبر من 0.05. فأكثر من ثلثي مهاجري البربارة، كفيفان وبقسميا، وحوالي نصف مهاجري راس إسطا وكور هم من حملة الشهادات الجامعية. ويتجاوز عدد المهاجرين الذين بلغوا المستوى التعليمي الثانوي أولئك الذين لديهم مستوى متوسط وما دون، مهما كانت القرية المهاجر منها، باستثناء مهاجري البربارة

الجدول رقم 9

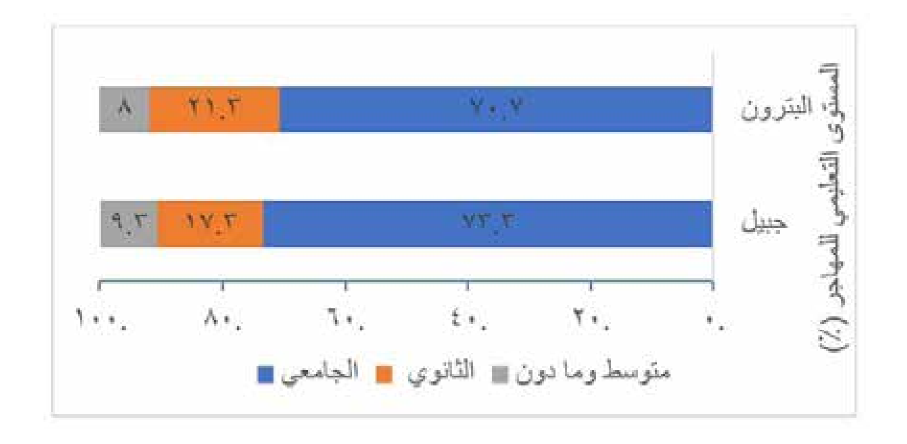
المهاجرون حسب القرى المهاجر منها والمستوى التعليمي

القرى المهاجر منها		المستوى التعليمي			المجموع
		الجامعي	الثانوي	متوسط وما دون	
البربارة	العدد	39	1	4	44
	النسبة المئوية (٪)	88.6	2.3	9.1	100
راس إسطا	العدد	16	12	3	31
	النسبة المئوية (٪)	51.6	38.7	9.7	100
كفيفان	العدد	22	4	1	27
	النسبة المئوية (٪)	81.5	14.8	3.7	100
كور	العدد	10	5	3	18
	النسبة المئوية (٪)	55.6	27.8	16.7	100
بقسميا	العدد	21	7	2	30
	النسبة المئوية (٪)	70	23.3	6.7	100
المجموع	العدد	**108**	**29**	**13**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**72**	**19.3**	**8.7**	**100**

كذلك لا توجد علاقة بين القضاء الذي ينتمي إليه المهاجر ومستواه التعليمي لأن نسب المهاجرين حسب المستوى التعليمي هي متقاربة بين القضاءين. وهذا ما أكّد عليه مربع كاي، فقيمة دلالته بلغت 0.809 هي أكبر من 0.05

الرسم البياني رقم 2

المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه والمستوى التعليمي



كذلك، لا توجد علاقة بين القارّات المهاجر إليها ومستوى المهاجر التعليمي حيث بلغت قيمة مربع كاي 0.09 وهي أكبر من 0.05. مهما كانت وجهة الهجرة، إن المهاجرين حملة الإجازات الجامعية هم الأكثرية، يليهم ذوي المستوى الثانوي، باستثناء مهاجري أوستراليا حيث يتعادل حملة الشهادات الجامعية مع حملة الشهادات المتوسطة وما دون.

الجدول رقم 10

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها والمستوى التعليمي

القارّات المهاجر إليها	المستوى التعليمي			المجموع
	الجامعي	الثانوي	متوسط وما دون	
البلدان العربية	28	8	1	37
أوروبا	28	9	2	39
أميركا	40	11	6	57
أفريقيا	8	0	0	8
أوستراليا	4	1	4	9
المجموع	**108**	**29**	**13**	**150**

ب. خصائص الهجرة

يظهر الارتباط بين المكان وخصائص الهجرة جليّاً فيما يتعلق بالدوافع إلى الهجرة، متوسطاً فيما يتعلق بفترات الهجرة، ومنعدماً بالنسبة لعدد الأشخاص الذين تبعوا المهاجر.

- الارتباط بين المكان والدوافع إلى الهجرة

إن العلاقة وثيقة بين المكان (المهاجر منه وإليه) والدافع الأساسي إلى الهجرة. فالعلاقة بين القرى المهاجر منها والدافع إلى الهجرة هي ذات دلالة إحصائية، إذ بلغت قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.00 وهي أصغر من 0.05، والارتباط بينهما قوي وفق معامل كرامر (0.34). وإن كان العمل أو تحسين مستوى المعيشة هو الدافع الأساسي لجميع المهاجرين، إلا أن نسبة مهاجري كور (88.9٪ من مهاجريها) وراس إسطا (80.6٪ من مهاجريها) هي الأعلى. وبالنسبة لدافع الأمان، كانت أعلى نسبة لمهاجري البربارة (22.8٪ من مهاجريها). فقد عانى أبناؤها من الحرب لا سيما أنها كانت خطاً أساسياً بين جبهتي الحرب الأهلية اللبنانية (جبهة الشمال وجبهة الجبل). وتصدر مهاجرو كفيفان الهجرة بدافع الدراسة (37٪ من مهاجريها)، ومهاجرو بقسميا الهجرة بدافع الاعتبارات الشخصية (30٪ من مهاجريها).

الجدول رقم 11

المهاجرون حسب القرى المهاجر منها ودوافع الهجرة

القرى المهاجر منها		**دوافع الهجرة**				**المجموع**
		العمل	**الاعتبارات الشخصية**	**التعليم**	**الأمان**	
البربارة	العدد	23	4	7	10	44
	النسبة المئوية (٪)	52.3	9.1	15.9	22.7	100
راس إسطا	العدد	25	0	5	1	31
	النسبة المئوية (٪)	80.6	0	16.1	3.2	100
كفيفان	العدد	16	1	10	0	27
	النسبة المئوية (٪)	59.3	3.7	37	0	100
كور	العدد	16	0	2	0	18
	النسبة المئوية (٪)	88.9	0	11.1	0	100
بقسميا	العدد	19	9	2	0	30
	النسبة المئوية (٪)	63.3	30	6.7	0	100
المجموع	العدد	**99**	**14**	**26**	**11**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**66**	**9.3**	**17.3**	**7.3**	**100**

وكذلك، إن العلاقة بين القضاء المهاجر منه ودافع الهجرة هي ذات دلالة إحصائية حسب مربع كاي، حيث بلغت قيمة دلالة الاختبار 0.03 وهي أصغر من 0.05، والارتباط قوي بينهما حسب معامل كرامر (0.303). فقد امتازت دوافع الهجرة في قضاء جبيل بسعيها إلى طلب الأمان (14.7٪ من مهاجري قضاء جبيل، مقابل 0٪ لمهاجري قضاء البترون)، وامتازت دوافع الهجرة في قضاء البترون بالاعتبارات الشخصية (13.3٪ من مهاجري قضاء البترون، مقابل 5.3٪ من مهاجري قضاء جبيل)، وتساوت تقريباً نسبة دوافع الهجرة بين القضاءين في طلب العمل (68٪ من مهاجري قضاء البترون، مقابل 64٪ من مهاجري قضاء جبيل) وفي طلب التعليم (18.7٪ من مهاجري قضاء البترون، مقابل 16٪ من مهاجري قضاء جبيل).

الجدول رقم 12

المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه ودوافع الهجرة

القضاء المهاجر منه		دوافع الهجرة				المجموع
		العمل	الاعتبارات الشخصية	التعليم	الأمان	
جبيل	العدد	48	4	12	11	75
	النسبة المئوية (٪)	64	5.3	16	14.7	100
البترون	العدد	51	10	14	0	75
	النسبة المئوية (٪)	68	13.3	18.7	0	100
المجموع	العدد	99	14	26	11	150
	النسبة المئوية (٪)	66	9.3	17.3	7.3	100

وتبرز العلاقة أيضاً بين القارّات المهاجر إليها ودوافع الهجرة، حيث تبيّن أن قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.00 وهي أصغر من 0.05، وهي بارتباط متوسط حسب معامل كرامر (0.283).

الجدول رقم 13

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها ودوافع الهجرة

القارّات المهاجر إليها		دوافع الهجرة				المجموع
		العمل	الاعتبارات الشخصية	التعليم	الأمان	
البلدان العربية	العدد	36	1	0	0	37
	النسبة المئوية (٪)	97.3	2.7	0	0	100
أوروبا	العدد	22	3	12	2	39
	النسبة المئوية (٪)	56.4	7.7	30.8	5.1	100
أميركا	العدد	28	9	14	6	57
	النسبة المئوية (٪)	49.1	15.8	24.6	10.5	100
أفريقيا	العدد	7	0	0	1	8
	النسبة المئوية (٪)	87.5	0	0	12.5	100
أوستراليا	العدد	6	1	0	2	9
	النسبة المئوية (٪)	66.7	11.1	0	22.2	100

المجموع	العدد	99	14	26	11	150
	النسبة المئوية (٪)	66	9.3	17.3	7.3	100

- **الارتباط بين المكان وفترات الهجرة**

يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين فترة الهجرة والقرى المهاجر منها. فحسب مربع كاي، إن قيمة دلالة الاختبار البالغة 0.021 هي أصغر من 0.05، ولكنها تُعتبر علاقة متوسطة فيما يشير إليه معامل كرامر (0.241). غادرت النسبة الكبرى من المهاجرين قرية البربارة (31.8٪) وقرية كفيفان (33.3٪) في الفترة بين 1975 و1991، لأن الحرب الأهلية قد تكون تركت عليهما بصمات أقسى مما تركته على القرى الأخرى. أما النسبة الأكبر من مهاجري راس إسطا، فغادرتها بأعداد متساوية في الفترات 1975- 1991 و1992- 1996 و2008 وما بعد (22.6٪ لكل من هذه الفترات). وعلى عكس ذلك، توزعت النسبة الأكبر من مهاجري كور في الفترات ما قبل 1975 وبين 2002 و2007 (27.8٪). ولم تشهد بقسميا النسبة الأكبر من الهجرة (26.7٪) إلاّ في الفترة الحديثة (2002- 2007).

الجدول رقم 14

المهاجرون حسب القرى المهاجر منها وفترات الهجرة

القرى المهاجر منها		فترات الهجرة						المجموع
		ما قبل 1975	1975- 1991	1992- 1996	1996- 2001	2002- 2007	2008 وما بعد	
البربارة	العدد	12	14	2	3	5	8	44
	النسبة المئوية (٪)	27.3	31.8	4.5	6.8	11.4	18.2	100
راس إسطا	العدد	0	7	7	6	4	7	31
	النسبة المئوية (٪)	0	22.6	22.6	19.4	12.9	22.6	100
كفيفان	العدد	8	9	0	5	4	1	27
	النسبة المئوية (٪)	29.6	33.3	0	18.5	14.8	3.7	100
كور	العدد	5	4	2	0	5	2	18
	النسبة المئوية (٪)	27.8	22.2	11.1	0	27.8	11.1	100
بقسميا	العدد	5	7	2	3	8	5	30
	النسبة المئوية (٪)	16.7	23.3	6.7	10	26.7	16.7	100
المجموع	العدد	30	41	13	17	26	23	150
	النسبة المئوية (٪)	20	27.3	8.7	11.3	17.3	15.3	100

لقد هاجر اللبنانيون في أوقاتٍ معينة لظروف سياسية، أمنية أو اقتصادية، ولكن لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين فترة الهجرة والقضاء المهاجر منه. وهذا ما أشار إليه مربع كاي، فقيمة الدلالة البالغة 0.168 هي أكبر من 0.05.

وبالمقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان حسب فترات الهجرة، تبيّن أن نسب مهاجري العينة هي مشابهة لنسب مهاجري لبنان، ونسب مهاجري البترون شبيهة بمهاجري لبنان الشمالي، لكن نسب مهاجري جبيل التي تساوت في جميع الفترات (33.3٪) اختلفت عن نسب جبل لبنان التي بلغ مهاجروها في الفترة 2002. 2007 حوالي ضعفي الفترتين السابقتين.

الجدول رقم 15

المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان

حسب فترات الهجرة والقضاء والمحافظة للفترة 1992– 2007

فترات الهجرة	العينة			لبنان [14]		
	جبيل	البترون	المجموع	جبل لبنان	لبنان الشمالي	لبنان
1992 – 1996	33.3	13.8	23.2	24.7	22.6	25
1997 – 2001	33.3	27.6	30.6	26.7	28.3	29
2002 – 2007	33.3	58.6	46.4	48.6	53.9	46

في المقابل، يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين القارّات المهاجر إليها والفترات التي حصلت فيها الهجرة. فقد بلغت قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.00 وهي أصغر من 0.05، وذات ارتباط قوي وفق معامل كرامر (0.318). كانت بداية الهجرة إلى الدول المتقدمة، لا سيّما إلى القارة الأوسترالية قبل العام 1975 (55.6٪ من مهاجري أوستراليا توجهوا إليها ما قبل 1975)، ومن ثم إلى القارتين الأميركية (36.8٪ من مهاجريها) والأوروبية (35.9٪ من مهاجريها) بين 1975 و1991. أما الهجرة الحديثة، فكانت إلى البلدان العربية (37.8٪ من مهاجريها) بين 2001 و2007، وإلى القارة الأفريقية منذ 2008 (50٪ من مهاجريها).

الجدول رقم 16

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها وفترات الهجرة

القارّات المهاجر إليها		فترات الهجرة						المجموع
		ما قبل 1975	1975-1991	1992-1996	1996-2001	2002-2007	2008 وما بعد	
البلدان العربية	العدد	2	3	4	5	14	9	37
	(٪) النسبة المئوية	5.4	8.1	10.8	13.5	37.8	24.3	100
أوروبا	العدد	4	14	3	6	6	6	39
	(٪) النسبة المئوية	10.3	35.9	7.7	15.4	15.4	15.4	100
أميركا	العدد	19	22	5	4	3	4	57
	(٪) النسبة المئوية	33.3	38.6	8.8	7	5.3	7	100
أفريقيا	العدد	0	0	0	2	2	4	8
	(٪) النسبة المئوية	0	0	0	25	25	50	100
أوستراليا	العدد	5	2	1	0	1	0	9
	(٪) النسبة المئوية	55.6	22.2	11.1	0	11.1	0	100
المجموع	العدد	**30**	**41**	**13**	**17**	**26**	**23**	**150**
	(٪) النسبة المئوية	**20**	**27.3**	**8.7**	**11.3**	**17.3**	**15.3**	**100**

كذلك تختلف وجهة مهاجري قضاءي جبيل والبترون عن وجهة مهاجري لبنان وفق فترات الهجرة. فنسبة مهاجري العينة إلى القارة الأميركية كانت أعلى من نسبة مهاجري لبنان في الفترتين الأولَيين (1975–1990 و1992–1996)، وأدنى في الفترتين التاليتين (1997–2001 و2002–2007). وكانت نسبة مهاجري العينة إلى البلدان العربية أعلى من نسب مهاجري لبنان في الفترتين 1992–1996 و2002–2007، والعكس في الفترتين الأخريين. وكانت نسبة مهاجري العينة إلى أوروبا أعلى من نسب مهاجري لبنان، باستثناء الفترة 1992–1996 حيث كانت أدنى بقليل. أما الهجرة إلى بقية القارّات، فكانت متدنية للعينة ولبنان، مع تفوق في نسب مهاجري لبنان بالإجمال لجميع الفترات.

الجدول رقم 17

المقارنة بين مهاجري العينة ومهاجري لبنان
حسب القارّات المهاجر إليها وفترات الهجرة [15]

القارّات المهاجر إليها	1975 – 1990		1992 – 1996		1997 – 2001		2002 – 2007	
	العينة	لبنان	العينة	لبنان	العينة	لبنان	العينة	لبنان
البلدان العربية	5.1	16.3	30.8	19.8	29.4	31.2	53.8	45.5
أوروبا	35.9	28.5	23.1	26.8	35.3	22.6	23.1	20
أميركا	53.8	35.6	38.5	36.2	23.5	28.9	11.5	17.1
أفريقيا	0	4.6	0	4.9	11.8	7.0	7.7	10
أوستراليا	5.1	14.6	7.7	11.7	0	9.9	3.8	6.7
آسيا	0	0.4	0	0.5	0	0.4	0	0.7
المجموع	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**

– الارتباط بين المكان وعدد الأشخاص الذي تبعوا المهاجر

ولا يتعلق عدد الأشخاص الذين تبعوا المهاجر بالمكان، فهي حالاتٍ خاصة لا تتأثر بالقرى المهاجر منها (تساوي قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.115 وهي أكبر من 0.05)، ولا بالقضاء المهاجر منه (تساوي قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.097 وهي أكبر من 0.05)، ولا بالقارّات المهاجر إليها (تساوي قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.610 وهي أكبر من 0.05).

ج. علاقة المهاجر ببلده الأم

يرتبط المكان (القرية والقضاء المهاجر منه والقارّة المهاجر إليها) على نحوٍ جزئي بمدى تردّد المهاجر إلى لبنان، وبتحويله للأموال، وتيرةً، حجماً، وأسباباً، وبتطلعاته المستقبلية.

– أولاً، بالنسبة للتردد إلى لبنان:

تبيّن أن العلاقة بين القرى المهاجر منها والتردد إلى لبنان هي ذات دلالة إحصائية (بلغت قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.018 وهي أصغر من 0.05)، وتنطوي على ارتباطٍ متوسط وفق معامل كرامر (0.260). فنسبة مهاجري البربارة الذين لم يزوروا لبنان منذ هجرتهم هي الأعلى (15.9٪ من مهاجري البربارة لم يزوروا لبنان منذ هجرتهم). وبالنسبة للذين لم يترددوا كثيراً إلى لبنان منذ هجرتهم، فكانت أعلى نسبة لمهاجري راس إسطا (12.9٪ منهم لم يزروا لبنان سوى مرّة واحدة)، ومهاجري البربارة (11.4٪ منهم زاروا لبنان مرّتين فقط). وبرز مهاجرو بقسميا في طليعة الذين زاروا لبنان بكثافة متردّدين أكثر من أربع مرّات منذ هجرتهم (33.3٪ من مهاجريها). وكانت أعلى نسبة لمهاجري راس إسطا الذين لم يغيبوا عن لبنان، وزاروه مرّة أو أكثر سنوياً (77.4٪ من مهاجريها)، يليهم مهاجرو كور (72.2٪ من مهاجريها).

الجدول رقم 18

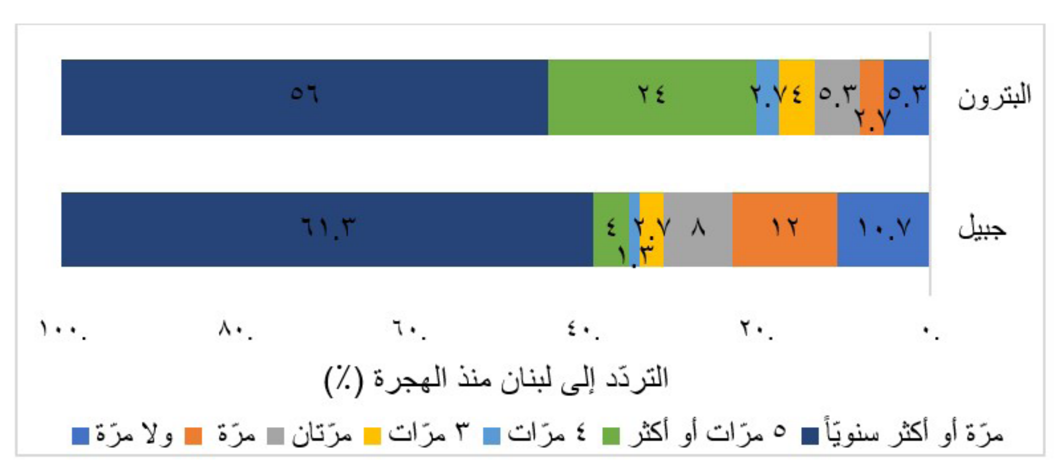
المهاجرون حسب القرى المهاجر منها والتردّد إلى لبنان

القرى المهاجر منها		ولا مرّة	مرّة	مرّتان	3 مرّات	4 مرّات	5 مرّات أو أكثر	مرّة أو أكثر سنويّاً	المجموع
		التردّد إلى لبنان							
البربارة	العدد	7	5	5	2	1	2	22	44
	النسبة المئوية (٪)	15.9	11.4	11.4	4.5	2.3	4.5	50	100
راس إسطا	العدد	1	4	1	0	0	1	24	31
	النسبة المئوية (٪)	3.2	12.9	3.2	0	0	3.2	77.4	100
كفيفان	العدد	0	2	2	2	1	4	16	27
	النسبة المئوية (٪)	0	7.4	7.4	7.4	3.7	14.8	59.3	100
كور	العدد	0	0	1	0	0	4	13	18
	النسبة المئوية (٪)	0	0	5.6	0	0	22.2	72.2	100
بقسميا	العدد	4	0	1	1	1	10	13	30
	النسبة المئوية (٪)	13.3	0	3.3	3.3	3.3	33.3	43.3	100
المجموع	العدد	**12**	**11**	**10**	**5**	**3**	**21**	**88**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**8**	**7.3**	**6.7**	**3.3**	**2**	**14**	**58.7**	**100**

ولكن هذا الارتباط بين القرى المهاجر منها والتردد إلى لبنان لم ينسحب على القضاء، فالقضاء المهاجر منه والتردد إلى لبنان هما عاملان مستقلان، حيث تبيّن أن قيمة دلالة مربع كاي البالغة 0.07 هي أكبر من 0.05.

الرسم البياني رقم 3

المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه والتردّد إلى لبنان



بالمقابل، تعتبر وجهة الهجرة والتردد إلى لبنان عاملين متجانسين، فقيمة دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.006 هي أصغر من 0.05. وتعتبر هذه العلاقة متوسطة حسب معامل كرامر 0.273. فالنسبة الأكبر من المهاجرين الذين لم يزوروا لبنان منذ هجرتهم أو زاروه مرّة واحدة فقط، تعود إلى مهاجري القارة الأميركية (14٪ منهم لم يزوروا لبنان، و12.3٪ منهم زاروه مرّة واحدة). أما الذين يتردّدون دائماً إلى لبنان، فهم مهاجرو البلدان العربية (89.2٪ من مهاجريها)، لقرب المسافة وقصر المدة التي يستغرقها السفر إلى لبنان، ويليهم مهاجرو القارة الأفريقية (75٪ منهم)، ومهاجرو القارة الأوروبية (66.7٪ منهم). وكان من الطبيعي أن تكون نسب مهاجري القارتين الأميركية (35.1٪ منهم) والأوسترالية (33.3٪ منهم) الذين يترددون سنوياً إلى لبنان، هي الأدنى لما يستلزم السفر إلى لبنان من وقتٍ ومسافةٍ وكلفة.

الجدول رقم 19

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها والتردّد إلى لبنان

القارّات المهاجر إليها		التردّد إلى لبنان							المجموع
		ولا مرّة	مرّة	مرّتان	3 مرّات	4 مرّات	5 مرّات أو أكثر	مرّة أو أكثر سنويّاً	
البلدان العربية	العدد	1	1	0	1	0	1	33	37
	النسبة المئوية (٪)	2.7	2.7	0	2.7	0	2.7	89.2	100
أوروبا	العدد	1	3	1	0	1	7	26	39
	النسبة المئوية (٪)	2.6	7.7	2.6	0	2.6	17.9	66.7	100
أميركا	العدد	8	7	7	3	1	11	20	57
	النسبة المئوية (٪)	14	12.3	12.3	5.3	1.8	19.3	35.1	100
أفريقيا	العدد	1	0	1	0	0	0	6	8
	النسبة المئوية (٪)	12.5	0	12.5	0	0	0	75	100
أوستراليا	العدد	1	0	1	1	1	2	3	9
	النسبة المئوية (٪)	11.1	0	11.1	11.1	11.1	22.2	33.3	100
المجموع	العدد	**12**	**11**	**10**	**5**	**3**	**21**	**88**	**150**

– ثانياً، بالنسبة إلى تحويل الأموال إلى لبنان:

إن القرى المهاجر منها وتحويل الأموال إلى لبنان هما عاملان متجانسان، فقد بلغت قيمة دلالة اختبار مربع كاي 0.00 وهي أصغر من 0.05. والارتباط قويّ بينهما حسب معامل كرامر الذي يساوي 0.375. فقد حوّل مهاجرو قرى كور (77.7٪ منهم) وراس إسطا (71٪ منهم) الأموال إلى لبنان أكثر من مهاجري قرى بقسميا (60٪ منهم) وكفيفان (59.3٪ منهم). أما بالنسبة إلى البربارة، فهي القرية الوحيدة التي يغلب عليها عدم تحويل الأموال إلى لبنان، بحيث بلغت نسبة مهاجريها الذين لا يحوّلون الأموال حوالي الثلاثة أرباع (72.7٪ منهم).

الجدول رقم 20

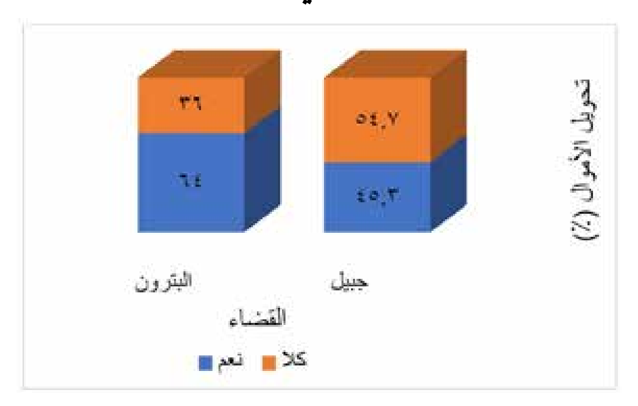
المهاجرون حسب القرى المهاجر منها وتحويل الأموال

القرى المهاجر منها		تحويل الأموال		المجموع
		نعم	كلا	
البربارة	العدد	12	32	44
	النسبة المئوية (٪)	27.3	72.7	100
راس إسطا	العدد	22	9	31
	النسبة المئوية (٪)	71	29	100
كفيفان	العدد	16	11	27
	النسبة المئوية (٪)	59.3	40.7	100
كور	العدد	14	4	18
	النسبة المئوية (٪)	77.8	22.2	100
بقسميا	العدد	18	12	30
	النسبة المئوية (٪)	60	40	100
المجموع	العدد	**82**	**68**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**54.7**	**45.3**	**100**

ويؤكد مربع كاي على وجود علاقة بين القضاء المهاجر منه وتحويل الأموال إلى لبنان، حيث بلغت قيمة الدلالة 0.022 وهي أصغر من 0.05، غير أن الارتباط بينهما ضعيف حسب معامل كرامر (0.187). فنسبة مهاجري قضاء جبيل الذين يحوّلون الأموال إلى لبنان (٪45.3 منهم) هي أقل من نسبة مهاجري قضاء البترون (٪64 من مهاجريها).

الرسم البياني رقم 4

المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه وتحويل الأموال



يرتبط تحويل الأموال أيضاً بوجهة الهجرة حسب مربع كاي، حيث بلغت الدلالة 0.00 وهي أصغر من 0.05، والارتباط بينهما قوي حسب معامل كرامر 0.466. وهكذا فإن أكثر مهاجري البلدان العربية يحوّلون الأموال إلى لبنان (86.5٪ من مهاجريها)، يليهم مهاجرو القارة الأفريقية (75٪ من مهاجريها)، ثم القارة الأوروبية (56.4٪ من مهاجريها)، بينما تحويل الأموال هو الأدنى لدى مهاجري القارتين الأوسترالية (33.3٪ منهم) والأميركية (31.6٪ منهم).

الجدول رقم 21

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها وتحويل الأموال

القارّات المهاجر إليها		تحويل الأموال		المجموع
		نعم	كلا	
البلدان العربية	العدد	32	5	37
	النسبة المئوية (٪)	86.5	13.5	100
أوروبا	العدد	22	17	39
	النسبة المئوية (٪)	56.4	43.6	100
أميركا	العدد	18	39	57
	النسبة المئوية (٪)	31.6	68.4	100
أفريقيا	العدد	7	1	8
	النسبة المئوية (٪)	87.5	12.5	100
أوستراليا	العدد	3	6	9
	النسبة المئوية (٪)	33.3	66.7	100
المجموع	العدد	**82**	**68**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**54.7**	**45.3**	**100**

في ما يتعلق بحجم الأموال المحوّلة، لم نجد ترابطاً ذات دلالة إحصائية بين هذا المتغيّر وبين كل من القرى المهاجر منها (دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.167 هي أكبر من 0.05)، والقضاء المهاجر منه (دلالة الاختبار البالغة 0.311 هي أكبر من 0.05)، والقارّات المهاجر إليها (دلالة الاختبار البالغة 0.146 هي أكبر من 0.05)، إذ أن حجم الأموال المحّولة هو مسألة شخصية تختلف باختلاف حالة المهاجر أو وضعه الاجتماعي والاقتصادي أو العائلي.

كذلك القول بالنسبة لوتيرة تحويل الأموال التي لا تتعلق بالقرى المهاجر منها (دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.26 هي أكبر من 0.05)، ولا بالقضاء المهاجر منه (دلالة الاختبار البالغة 0.749 هي أكبر من 0.05). فلا فرق بين القرى المهاجر منها أو القضاء المهاجر منه في وتيرة تحويل الأموال، فالنسبة الأكبر من المهاجرين ترسل الأموال شهرياً، والنسبة الأقل ترسل الأموال سنويّاً، باستثناء قرية كور، حيث أن نسبة مهاجريها الذين يرسلون الأموال سنوياً (35.7٪) أكثر من أولئك الذين يرسلون الأموال عدّة مرّات في السنة (21.4٪). وجاءت النسب متقاربة بين القضاءين لجهة وتيرة تحويل الأموال.

الرسم البياني رقم 5

المهاجرون حسب القرى أو القضاء المهاجر منه ووتيرة تحويل الأموال

وتيرة تحويل الأموال (٪)

البربارة: ١٦.٧ / ١٦.٧ / ٦٦.٧
راس إسطا: ١٣.٦ / ٤٠.٩ / ٤٥.٥
كفيفان: ٦.٣ / ٢٥ / ٦٨.٨
كور: ٣٥.٧ / ٢١.٤ / ٤٢.٩
بقسميا: ٥.٦ / ٢٧.٨ / ٦٦.٧
قضاء جبيل: ١٤.٧ / ٣٢.٤ / ٥٢.٩
قضاء البترون: ١٤.٦ / ٢٥ / ٦٠.٤

القرى أو القضاء المهاجر منه

سنويّاً ■ عدّة مرّات سنوياً ■ شهرياً ■

لكن الترابط قائمٌ بين وتيرة تحويل الأموال والقارّات المهاجر إليها (قيمة دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.018 هي أصغر من 0.05)، والعلاقة بينهما قوية جداً وفق معامل كرامر (0.457). فأغلبية مهاجري القارة الأفريقية (85.7٪ منهم) والبلدان العربية (69.7٪ منهم) يحوّلون الأموال شهرياً لأن دخلهم مرتفع، وفي نيتهم العودة إلى لبنان. أما جميع مهاجري أوستراليا والنسبة الأكبر من مهاجري أوروبا (45.5٪ منهم)، فيرسلون الأموال عدّة مرّات سنوياً. ويأتي مهاجرو القارة الأميركية في طليعة الذين يرسلون الأموال سنويّاً (33.3٪ منهم)، علماً أن نصف هؤلاء المهاجرين يرسلون الأموال شهرياً، لما يُعتقد أنه تأمينٌ لمقتضيات المعيشة الشهرية للأهل.

الجدول رقم 22

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها ووتيرة تحويل الأموال

القارّات المهاجر إليها		وتيرة تحويل الأموال			المجموع
		شهرياً	عدّة مرّات سنوياً	سنويّاً	
البلدان العربية	العدد	23	7	3	33
	النسبة المئوية (٪)	60.7	21.2	9.1	100
أوروبا	العدد	9	10	3	22
	النسبة المئوية (٪)	40.9	45.5	13.6	100
أميركا	العدد	9	3	6	18
	النسبة المئوية (٪)	50	16.7	33.3	100
أفريقيا	العدد	6	1	0	7
	النسبة المئوية (٪)	85.7	14.3	0	100
أوستراليا	العدد	0	2	0	2
	النسبة المئوية (٪)	0	100	0	100
المجموع	العدد	47	23	12	82
	النسبة المئوية (٪)	57.3	28	14.6	100

على عكس وتيرة تحويل الأموال، لا يرتبط سبب التحويل بالمكان المهاجر إليه (دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.25 هي أكبر من 0.05)، بل بالقرى المهاجر منها (دلالة الاختبار البالغة 0.0 هي أصغر من 0.05)، وبالقضاء المهاجر منه (دلالة الاختبار البالغة 0.02 هي أصغر من 0.05).

وتبيّن أن الارتباط بين سبب تحويل الأموال والقرى المهاجر منها هو قويّ وفق معامل كرامر (0.380). فيتطلع مهاجرو البربارة بالدرجة أولى لتأمين معيشة العائلة أو الأهل (66.7٪ من مهاجريها)، كذلك مهاجرو كفيفان (56.3٪ منهم) وراس إسطا (40.9٪ منهم)، بينما يؤثر مهاجرو بقسميا إيداع الأموال في المصرف (55.6٪ منهم). ويتقدم مهاجرو كور على القرى الأخرى في مجال شراء المنازل أو العقارات (42.9٪ منهم). ويسعى مهاجرو راس إسطا (18.2٪ منهم)، وكفيفان (12.5٪ منهم)، إلى القيام بمشاريع استثمارية في لبنان. أما التقديمات والتبرعات، فهي محصورة بمهاجري كل من كور (28.6٪ منهم) وكفيفان (6.3٪ منهم).

الجدول رقم 23

المهاجرون حسب القرى المهاجر منها وسبب تحويل الأموال

القرى المهاجر منها		سبب تحويل الأموال					المجموع
		معيشة العائلة والأهل	شراء منزل أو عقار	مشاريع استثمارية	إيداع مصرفي	تقديمات أو تبرعات	
البربارة	العدد	8	2	0	2	0	12
	النسبة المئوية (٪)	66.7	16.7	0	16.7	0	**100**
راس إسطا	العدد	9	8	4	1	0	22
	النسبة المئوية (٪)	40.9	36.4	18.2	4.5	0	**100**
كفيفان	العدد	9	1	2	3	1	16
	النسبة المئوية (٪)	56.3	6.3	12.5	18.8	6.3	**100**
كور	العدد	2	6	0	2	4	14
	النسبة المئوية (٪)	14.3	42.9	0	14.3	28.6	**100**
بقسميا	العدد	5	3	0	10	0	18
	النسبة المئوية (٪)	27.8	16.7	0	55.6	0	**100**
المجموع	العدد	**33**	**20**	**6**	**18**	**5**	**82**
	النسبة المئوية (٪)	**40.2**	**24.4**	**7.3**	**22**	**6.1**	**100**

كما تظهر العلاقة قوية بين سبب تحويل الأموال والقضاء المهاجر منه وفق معامل كرامر (0.377). فنصف مهاجري قضاء جبيل يحوّلون الأموال لتأمين معيشة العائلة أو الأهل، وأقل من ثلثهم لشراء منزل أو عقارات، و14.7٪ منهم للقيام بمشاريع استثمارية. بالنسبة لمهاجري قضاء البترون، تكاد تتعادل نسب الذين يحولون الأموال لتأمين المعيشة (33.3٪ منهم) مع نسب الذين يودعونها في المصرف (31.3٪ منهم)، بينما يقوم 10.4٪ منهم بالتقديمات والتبرعات، في حين يشتري 14.7٪ منهم المنازل أو العقارات، ويتوجه 4.2٪ منهم نحو المشاريع الاستثمارية.

الجدول رقم 24

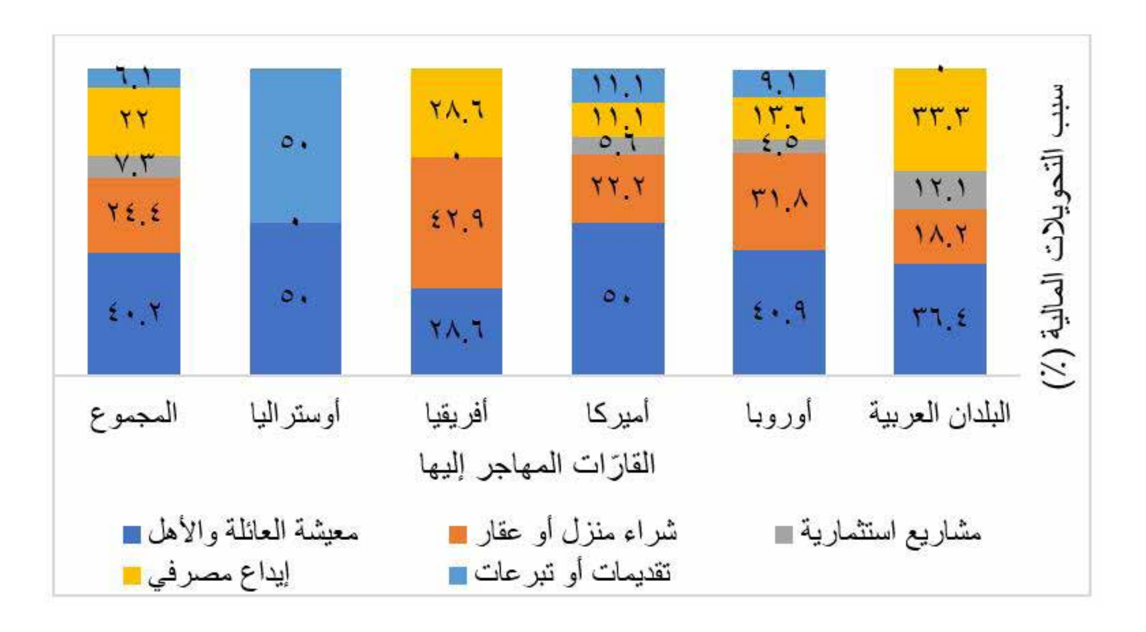
المهاجرون حسب القضاء المهاجر منه وسبب تحويل الأموال

القضاء المهاجر منه		**سبب تحويل الأموال**					**المجموع**
		معيشة العائلة والأهل	**شراء منزل أو عقار**	**مشاريع استثمارية**	**إيداع مصرفي**	**تقديمات أو تبرعات**	
جبيل	العدد	17	10	4	3	0	34
	النسبة المئوية (٪)	50	29.4	11.8	8.8	0	100
البترون	العدد	16	10	2	15	5	48
	النسبة المئوية (٪)	33.3	20.8	4.2	31.3	10.4	100
المجموع	العدد	**33**	**20**	**7**	**17**	**5**	**82**
	النسبة المئوية (٪)	**40.2**	**24.4**	**7.3**	**22**	**6.1**	**100**

ومهما كانت القارّات المهاجر إليها، فإن المهاجر يرسل النسبة الأكبر من الأموال لتأمين معيشة عائلته أو أهله، ومن ثم لشراء منزل أو عقار، أو إيداعها في المصرف، ونادراً ما يحّول الأموال بهدف الاستثمار أو للتقديمات والتبرعات.

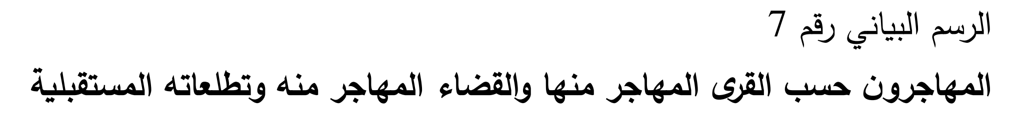
الرسم البياني رقم 6

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها وسبب تحويل الأموال



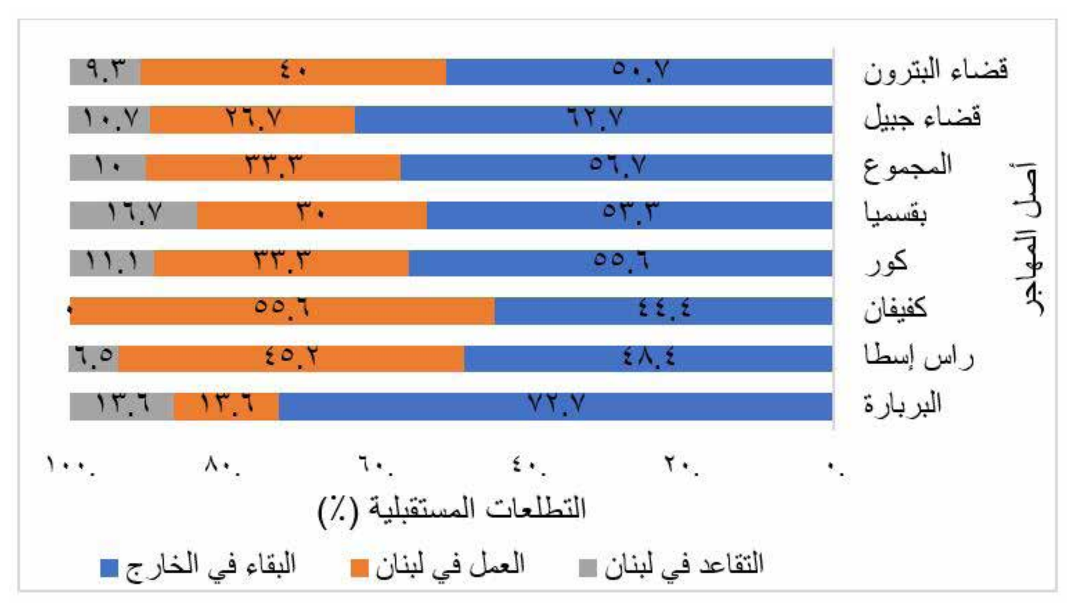
- ثالثاً، بالنسبة لتطلعات المهاجر المستقبلية:

من خلال التحليل الإحصائي، تبيّن أن التطلعات المستقبلية والقرى المهاجر منها هما عاملان مستقلان، (دلالة اختبار مربع كاي البالغة 0.17 هي أكبر من 0.05)، كذلك التطلعات المستقبلية والقضاء المهاجر منه هما عاملان مستقلان (دلالة الاختبار البالغة 0.221 هي أكبر من 0.05). فقد استقرّ أغلبية المهاجرين في الخارج ولا يردون العودة، والنسبة الأقل تنوي التقاعد في لبنان، ما عدا مهاجري كفيفان الذين في أكثريتهم يريدون العودة والعمل في لبنان (55.6٪ منهم).



الرسم البياني رقم 7

المهاجرون حسب القرى المهاجر منها والقضاء المهاجر منه وتطلعاته المستقبلية



لكن التطلعات المستقبلية والقارّات المهاجر إليها هما عاملان متجانسان (دلالة الاختبار البالغة 0.00 هي أقل من 0.05)، والارتباط بينهما قوي حسبما ما أشار إليه معامل كرامر 0.468. يتطلع مهاجرو الدول الأفريقية أو العربية إلى العودة والعمل أو الاستثمار في لبنان (78.5٪ من مهاجري الدول الأفريقية و73٪ من مهاجري الدول العربية) لأنهم يعتبرون أن الهجرة إلى هذه البلدان مؤقتة، فهي بلدان غير متقدمة وقد يصعب العيش فيها، بينما لا يرغب المهاجرون إلى القارتين الأوسترالية (88.9٪ منهم) والأميركية (86٪ منهم) في العودة إلى لبنان، لأن هذه الدول تسهّل الحصول على الجنسية، وتؤمن الحياة الكريمة لمواطنيها، وتضمن شيخوختهم. وتبيّن أن مهاجري الدول الأوروبية هم الأكثر تطلعاً للتقاعد في لبنان (15.4٪ من مهاجريها)، مستفيدين ربما من المعاش التقاعدي الذين يحصلون عليه في هذه الدول، ومن الفيء إلى ربوعٍ ألفوها بين أهلهم وخلّانهم.

الجدول رقم 25

المهاجرون حسب القارّات المهاجر إليها والتطلعات المستقبلية

القارّات المهاجر إليها		التطلعات المستقبلية			المجموع
		البقاء في الخارج	العمل في لبنان	التقاعد في لبنان	
البلدان العربية	العدد	6	27	4	37
	النسبة المئوية (٪)	16.2	73	10.8	100
أوروبا	العدد	21	12	6	39
	النسبة المئوية (٪)	53.8	30.8	15.4	100
أميركا	العدد	49	4	4	57
	النسبة المئوية (٪)	86	7	7	100
أفريقيا	العدد	1	7	0	8
	النسبة المئوية (٪)	12.5	87.5	0	100
أوستراليا	العدد	8	0	1	9
	النسبة المئوية (٪)	88.9	0	11.1	100
المجموع	العدد	**85**	**50**	**15**	**150**
	النسبة المئوية (٪)	**56.7**	**33.3**	**10**	**100**

خاتمة

للهجرة منافع كثيرة، على المكان المهاجر منه والمكان المهاجر إليه على حدًّ سواء. وهي تشمل جميع الصعد الاقتصادية، الاجتماعية والديموغرافية. ولكن بالمقابل، قد تأخذ الهجرة منحىً سلبياً، فتسبب خللاً في التركيبة الديموغرافية للسكان، وهجرة للأدمغة، وفقداناً لليد العاملة الشابة، ومنافسة بين العمال الأجانب والوطنيين.

ومهما كان للهجرة من مكاسب ومساوئ، تبقى علاقتها بالمكان وطيدة. فالمكان المهاجر منه أو إليه يرتبط بالمتغيرات التالية: الدافع إلى الهجرة، فترات الهجرة، تردّد المهاجر إلى لبنان، إرساله للأموال، وتيرةً وأسباباً، وتطلعاته المستقبلية.

ويرتبط الدافع إلى الهجرة بالمكان المهاجر منه، قريةً أو قضاء بعلاقة قوية، ويرتبط بالقارّات المهاجر إليها بعلاقة متوسطة.

وترتبط المتغيرات الثلاثة، فترات الهجرة، التردّد إلى البلد الأم وتحويل الأموال، بالقرى المهاجر منها والقارّات المهاجر إليها. وتعتبر العلاقة بين المكان وتحويل الأموال هي الأقوى.

وتظهر العلاقة قوية بين المكان المهاجر منه، قريةً وقضاء، وسبب تحويل الأموال، وبين المكان المهاجر إليه وكل من وتيرة تحويل الأموال وتطلعات المهاجر المستقبلية.

إذا كانت هذه العلاقة بين الهجرة والمكان واضحة في دراستنا، فهل تنسحب على بقية قرى وأقضية لبنان؟ وهل ستبقى علاقة المكان بالهجرة قائمة في ظل الانفتاح العالمي والعولمة؟ وفي ظل الابتكارات التكنولوجية والتطورات الحاصلة في مجالي المواصلات والاتصالات؟

1 Youssef Courbage ; Philippe Fargues (1974). La situation démographique au Liban II, analyse des données. Beyrouth: Publications de l'Université Libanaise, p. 43.

2 Marwan Abi Samra (2010). L'émigration libanaise et son impact sur l'économie et le développement. Programme des migrations internationales, Cahiers des migrations internationales no105, Genève : Organisation internationale du Travail, p. 27.

3 أسعد الأتات (2019). "تزيف الهجرة المتواصل، اللبنانيّون المقيمون يتناقصون". جريدة الأخبار، ملحق رأس المال، الإثنين 14 كانون الثاني 2019.

4 أسعد الأتات، المرجع السابق; Youssef Courbage ; Philippe Fargues, op. cit., p. 43 ; Marwan Abi Samra, op. cit., p. 27.

5 Choghig Kasparian (2003). L'entrée des jeunes libanais dans la vie active et l'émigration depuis 1975, 3 vols, Beyrouth, Presses de l'Université Saint Joseph ; Choghig Kasparian (2009). L'émigration des jeunes libanais et leurs projets d'avenir : enquête réalisée par l'Observatoire Universitaire de la Réalité Socio-Économique (OURSE) de l'Université Saint-Joseph de Beyrouth Octobre-Novembre 2007, vol. 2. Les jeunes Libanais dans la vague d'émigration de 1992 à 2007, Beyrouth, Presses de l'Université Saint Joseph ;

إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة (2010). متابعة أوضاع النساء والأطفال، لبنان، المسح العنقودي متعدد المؤشرات، الدورة الثالثة، 2009، التقرير النهائي، إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة، بيروت، لبنان.

6 Choghig Kasparian (2010). « Les jeunes libanais face à l'émigration ». CARIM Mediterranean Migration, report 2010. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole: European University Institute, p. 6.

7 إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة (2010)، المرجع السابق، ص. 12.

8 تضم البلدان العربية الدول الأفريقية والآسيوية، بذلك لا يدخل مهاجرو الدول العربية ضمن مهاجري قارتي آسيا وأفريقيا.

9 Choghig Kasparian (2009). « Liban: la dimension démographique et économique des migrations ». CARIM Mediterranean Migration, Report 2008- 2009 ; Robert Schuman Centre for Advanced Studies, San Domenico di Fiesole (FI) : European Univerity Institute, p.p. 152.

10 تجدر الإشارة إلى أننا في هذا الجدول، اخترنا مهاجري العينة الذين هاجروا في الفترة 1992 . 2007 فقط، لكي نستطيع مقارنتهم بإحصاء لبنان الذي تناول هذه الفترة.

11 Kasparian, Choghig (2011). « Liban : la dimension démo-économique de la migration ». CARIM, Migrations méditerranéennes et subsahariennes : évolutions récentes, rapport 2011. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole, Florence : Institut universitaire européen, p. 6.

12 تجدر الإشارة إلى أننا في هذا الجدول، اخترنا مهاجري العينة الذين هاجروا في الفترة 2004 . 2009 فقط، لكي نستطيع مقارنتهم بإحصاء لبنان الذي تناول هذه الفترة.

13 إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة (2010). متابعة أوضاع النساء والأطفال، لبنان، المسح العنقودي متعدد المؤشرات، الدورة الثالثة، 2009، التقرير النهائي، إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة، بيروت، لبنان، ص. 13.

14 Choghig Kasparian (2009). « Liban: la dimension démographique et économique des migrations », op. cit., p. 153.

15 Choghig Kasparian (2003), op.cit. ; Fadia Kiwan (2009). « La dimension politique et sociale des migrations au Liban », CARIM Mediterranean Migration, Report 2008- 2009. Robert Schuman Centre for Advanced Studies, San Domenico di Fiesole (FI): European Univerity Institute, 165.

المراجع:

1. أبي فرح، أنيس (2005). السكان والبطالة والهجرة في لبنان 1982 . 2001. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية.
2. الأتات، أسعد (2001). "الهجرة الخارجية والانتشار اللبناني في العالم". مجلة الدفاع الوطني اللبناني، العدد 38، تشرين الأول 2001.
3. الأتات، أسعد (2019). "تزيف الهجرة المتواصل، اللبنانيّون المقيمون يتناقصون". جريدة الأخبار، ملحق رأس المال، الإثنين 14 كانون الثاني 2019.
4. إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة (2010). متابعة أوضاع النساء والأطفال، لبنان، المسح العنقودي متعدد المؤشرات، الدورة الثالثة، 2009، التقرير النهائي. بيروت: إدارة الإحصاء المركزي، منظمة الأمم المتحدة للطفولة.

5. لبكي، بطرس (2005). "الهجرة اللبنانية خلال حروب الآخرين على أرض لبنان (1975. 1990)". مجلس الفكر، الكتاب الأول. عبدللي لبنان، ص. 215 . 275.
6. لبكي، بطرس (2019). هجرة اللبنانيين: 1850. 2018، مسارات عولمة مبكرة. بيروت: دار سائر المشرق.
7. المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق (2017). الأحوال المعيشية للأسر في لبنان 2015، النتائج والمؤشرات العامة والمناطقيّة، ملخّص تنفيذي، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق. بيروت.
8. المركز اللبناني للمعلومات (2013). الواقع الديموغرافي في لبنان. لبنان.
9. النجار، باقر سليمان (2001). حلم الهجرة للثروة، الهجرة والعمالة المهاجرة في الخليج العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
10. Abi Rached, Reine (2019). « L'émigration libanaise récente de 1975 à nos jours: réseaux éclatés et isolés ou diaspora « atypique »? ». Lebanese Science Journal, Vol. 20, no 2, pp. 285 - 299.
11. Abi Samra, Marwan (2010). L'émigration libanaise et son impact sur l'économie et le développement. Programme des migrations internationales, Cahiers des migrations internationales no105. Genève: Organisation internationale du Travail.
12. Courbage, Youssef ; Fargues, Philippe (1974). La situation démographique au Liban II, analyse des données. Beyrouth: Publications de l'Université Libanaise.
13. Faour, Ali (1992). « Les conséquences sociales de l'émigration au Liban ». Cahiers de la Méditerranée, n°44, 1, 1992, Liban, pp. 225243-.
14. Fargues, Phillipe (2006). International Migration in the Arab Region: Trends and Policies, paper presented at the United Nations expert Group meeting on International Migration and Development in the Arab Region, 15- 17 May 2006, Beirut, 40 p.
15. Jouni, Hassan (2009). « La migration hautement qualifiée au Liban ». CARIM Mediterranean Migration, Report 2008- 2009, Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole: European University Institute, pp. 155 – 159.
16. Jaber, H. et Metral F. (2005). Migrants et Migrations au Moyen-Orient au tournant du XXIe siècle. Beyrouth : IFPO.
17. Kasparian, Choghig (2003). L'entrée des jeunes libanais dans la vie active et l'émigration depuis 1975, 3 vols. Beyrouth : Presses de l'Université Saint Joseph.
18. Kasparian, Choghig (2009). « Liban: la dimension démographique et économique des migrations ». CARIM Mediterranean Migration, Report 2008- 2009 ; Robert Schuman Centre for Advanced Studies, San Domenico di Fiesole (FI) : European Univerity Institute, p. 149 – 154.
19. Kasparian, Choghig (2009). L'émigration des jeunes libanais et leurs projets d'avenir, enquête réalisée par l'Observatoire Universitaire de la Réalité Socio-Economique (OURSE) de l'Université Saint-Joseph de Beyrouth Octobre-Novembre 2007, vol. 2. Les jeunes Libanais dans la vague d'émigration de 1992 à 2007, Beyrouth, Presses de l'Université Saint Joseph.
20. Kasparian, Choghig (2010). « Les jeunes libanais face à l'émigration ». CARIM Mediterranean Migration, Report 2010. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole: European University Institute, pp. 1 – 19.
21. Kasparian, Choghig (2011). « Liban : la dimension démo-économique de la migration ». CARIM, Migrations méditerranéennes et subsahariennes : évolutions récentes, rapport 2011. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole, Florence : Institut universitaire européen, pp. 1 - 8.
22. Kasparian, Robert et al. (1995). La population déplacée par la guerre au Liban. Paris: L'Harmattan.
23. Kiwan, Fadia (2005). « Institutions et politiques migratoires au Liban ». CARIM Mediterranean Migration, report 2005. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole, Florence: European University Institute, pp. 1 - 24.
24. Kiwan, Fadia (2009). « La dimension politique et sociale des migrations au Liban », CARIM Mediterranean Migration, Report 2008- 2009. Robert Schuman Centre for Advanced Studies, San Domenico di Fiesole (FI): European Univerity Institute, pp. 161 – 167.
25. Kiwan, Fadia (2010). « L'émigration des compétences libanaises ». CARIM Mediterranean Migration, report 2010. Robert Schuman Centre for Advanced Studies. San Domenico di Fiesole: European University Institute, 12 p.
26. Ledent, Jacques ; Termote, Marc (1994). « Migration et lieu de naissance: l'exemple de Djakarta ». Espace, populations, sociétés, 19941-, pp. 4159-.
27. OCDE (2004). « Les grandes tendances des migrations internationales ». Tendances des migrations internationales. Paris : SOPEMI Edition, pp. 21- 93.
28. Papademetriou, Kodmani Hala (1994). « Les effets des migrations internationales sur les pays d'accueil, les pays d'origine et les immigrants ». Politique étrangère, n°3 - 1994 - 59e année, p. 671688-.
29. Safa, Elie (1960). L'émigration libanaise. Beyrouth : Publications de l'Université Saint-Joseph.
30. Wihtol de Wenden, Catherine (2008). « L'Europe, un continent d'immigration malgré lui ». Strates [En ligne], 15 janvier 2008, mis en ligne le 04 mars 2013, consulté le 23 août 2019. URL : http://journals.openedition.org/strates/6530.

الهجرة بين المسيحية والإسلام
من خلال الكتاب المقدس والقرآن الكريم

الاب د. جميل إسكندر
أستاذ التاريخ واللغات القديمة
الجامعة اللبنانية

مقدمة

الهجرة يدفعها أمران، إما هروب من ضيق وشدة وحروب نحو مكان أفضل، وإما تفتيش عن رزق وعمل لعيش كريم... لكن الهجرة الدينية تختلف كل الاختلاف عن هذا المفهوم. في بحثنا هذا السريع، الذي يعتمد على الكتاب المقدس والقرآن الكريم، وبعض دراسات اثرية وتاريخية، سنعرض مفهوم الهجرة في الكتاب المقدس من القدم الى المسيح وحوارييه واتباعه، وسنعرض مفهوم الهجرة القرآنية، وهجرة اتباع الرسول، لنصل بعدها الى نقاط مشتركة هامة، تعتمد على هجرة الدنيا نحو الآخرة، وهجرة المادة نحو الروح، وهجرة الظلام نحو النور...

كان نوح، أول المهاجرين، فبنى له سفينة انقذته من الطوفان[1]، من المسلمين[2]. وإبراهيم الذي قال: المُهَاجِرُ[3] ليعبد الله[4]، كان مسلما[5]. وهاجر[6]، ام إسماعيل، وأم "الهجرة"، هاجرت وابنها إسماعيل[7] مسلما[8]. ويعقوب، الذي هاجر الى بلاد ما بين النهرين، هربا من غضب أخيه[9]، تمنّى كي لا يموت وبنيه الا مسلمين[10]. ويوسف، الذي باعه اخوته، غريبا، مهاجرا الى مصر[11]، طلب من الله: "تَوَفَّنِي مُسْلِمًا"[12]. وموسى الذي هجر، قصر فرعون، والعيش الرغيد، ليقود شعبه، ويخرجهم من العبودية[13] وليكونوا مسلمين[14]...

والمسيح، الذي أتى الى العالم، ولم يعرفه![15] ولم يقبله اقاربه![16] عاش غريبا![17] متنقلا[18]! ليس لديه مسكنا[19]. وهكذا استمرت حياة حوارييه[20] من بعده "غُرَبَاءُ نُزَلَاء"[21]، فـ "سرّ المسيحيّة غريب من هذا العالم"[22]، والرهبان "تغرَّبوا في البرّيّةِ"[23]، في مسيرة حج من العاجلة إلى الباقية[24]...

دعا القرآن الكريم الى الهجرة: "الَّذِينَ هَاجَرُوا"[25]، "وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأُوذُوا"[26]، "وَصَبَرُوا"[27]، "وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ... فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[28]، "الصَّادِقُونَ"[29]، "لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ"[30] "أَعْظَمُ دَرَجَةً"[31]، "وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ"[32]...

وفي السياق نفسه، هاجر الرسول الى البرية وتحنف في غار حراء، وهاجر الى المدينة، وكان في هجرة دائمة من الدنيا الى الآخرة، كما هاجر المسلمون الى الحبشة وهناك، امام النجاشي، قرأوا سورة مريم، فنزلت دموعه ودموع الحاضرين من أساقفة وهكذا صرح ان ايمانكم هو كإيماني... والنتيجة الهجرة نفسها هجرة روحية من الدنيا الى الآخرة، والايمان نفسه...

اولا: الهجرة في الانجيل

1- المسيح

عاش المسيح سائحا وزاهدا في هذه الدنيا، في ترحال دائم من مكان الى آخر ومن بلد الى آخر، فانتقل من موطنه الناصرة ليولد غريبا في بيت لحم، في معلف الحيوانات[33] زاهدا في جاه الدنيا من يومه الأول، وهاجر الى مصر خوفا من بطش هيرودس[34]، وعاد الى الناصرة خائفا متخفيا[35] لم يبني بيتا[36] ليبني عائلة بشرية على الأرض، فاكمل حياته بالخفاء والدعاء لحين عمر الثلاثين[37] ، سائحا رافضا حكم الدنيا[38] وأساليب حكامها[39]، هاجر من قرية الى قرية وابتدأ بشارته مهاجرا بين الناس يجول في القرى ومن منطقة الى منطقة ينشر الحب والسلام... ويدعو الى التوبة والتغرب عن هذه الدنيا الزائلة والتعلق بالله المحبة، ومحبة اخوتنا البشر[40]...

بدأ يسوع خدمته في الجليل معلنا النداء أنه قد جاء الميعاد وقد اقترب ملكوت الله[41]. وعندما أعلن في مجمع الناصرة بأنه هو المقصود بالنبوات عن المسيح المنتظر وأن هذه النبوات قد تمت فيه، رفضه قومه وأهل بلدته[42] من بعد هذا اتخذ يسوع كفرناحوم مركز بث دعوته ونشر رسالته، وبقيت كفرناحوم مركزا له مدة تزيد على سنة كاملة من خدمته. فكان يعلم في كفرناحوم وفي أنحاء أخرى من الجليل ويعمل المعجزات[43] مظهرا محبته الفائقة وحنانه الذي لا نظير له على مصابي الجسد والروح[44]. وقد أعلن مرارا وتكرارا بأنه قد جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك[45].

وقد اختار من بين أتباعه اثني عشر ليكونوا تلاميذه المقربين[46]. وبعد أن رفض يسوع أن يتوج ملكا أرضيا[47]. وتركته الجماهير حتى أن بعضا من تلاميذه تركوه ومضوا عنه[48] فذهب إلى منطقة صور وصيدا وقيصرية فيلبس[49]. ولكن لم يمكن أن يختفي عن الأنظار، فلما عاد مرة أخرى إلى البلدان القريبة من بحر الجليل شفى كثيرين وأعان كثيرين في محنهم وأطعم الجماهير بمعجزة لأنه تحنن على الجموع وأشفق قلبه عليهم[50]. ثم ترك الجموع مرة أخرى وذهب على انفراد مع تلاميذه[51].

نما عداء حكام اليهود وقادتهم له وسار حقدهم عليه شططا من سيء إلى أسوأ[52]. فقاموا بكل حيلة ووسيلة لكي يوقعوه في فخاخهم لتنفيذ حكم الموت فيه[53]. ألقى على مسامعهم تعاليم كان ينبغي أن تتغير قلوبهم، ولكن إزاء شفاء المرضى وإقامة الموتى[54]. ألهبت قلوب غالبية الفريسيين والكتبة وآخرين من قادة اليهود وزعمائهم بنيران الحقد عليه والكراهية له[55].

وفي المساء السابق لصلبه أراد أن يعد رسله إعدادا نهائيا للمهمة العظمى التي تنتظرهم، فغسل الرب يسوع أرجلهم[56]، معلما إياهم درسا لازما لهم في التواضع والوداعة[57]. من ثم قدم نفسه نهائيا للآب[58]، خلافا لفكرة الزعيم التقليدي الذي يفدونه الناس بالروح والدم، وحمل خطيئة الكثيرين وأخذ على كاهله أثم البشرية الخاطئة الأثيمة، وقدم نفسه طوعا واختيارا للقبض عليه وللمذلة والهوان، وللاتهام ظلما وبهتانا وللصلب. وقد أخبر تلاميذه من قبل أنه لم يأت ليدين العالم بل ليقدم نفسه فدية عن كثيرين[59]. فقدم نفسه عن رغبة واختيار كحمل الله الذي يرفع خطيئة العالم[60]. فأنجز مهمته التي جاء من أجلها إلى أرضنا وأكمل غاية الآب السماوي ورغبته[61]. في فكرة غريبة عن فكر العالم... وهكذا أكمل سفره في ارضنا وعاد الى الله ابيه[62].

2- هجرة المسيح في التراث الاسلامي

ولا تختلف النظرة الإسلامية الى المسيح عن هذا المفهوم. فإذا طالعنا الأحاديث القدسية نجدها مليئة بمفهوم الهجرة والتركيز على زوال الدنيا وغربتها، وهذا بعض أقواله:

اتخذوا المساجد... مساكن وكلوا من بقل البرية وانجوا من الدنيا بسلام[63]. اتقوا فضول الدنيا فإن فضولها عند الله رجز[64]. وازهدوا في الدنيا تمشوا فيها بلا همّ[65]. ابغضوا الدنيا يحببكم الله[66]. الدنيا جسر اعبرها ولا تبني عليها[67]. اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب المرء عند كنزه[68]. وبحق اقول لكم، إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة في الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين[69]. فحب الدنيا أصل كل خطيئة[70]، والمال فيه داء كثير[71]. لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء. فإن سلم يشغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى[72]. ولم يسعى المسيح لبناء بيت او تأسيس عائلة في هذه الدنيا. فقال: أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارا؟ قالوا: يا روح الله، ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا[73]. إني أكببت الدنيا على وجهها وقعدت على ظهرها، وليس لي ولد يموت ولا بيت فيخرب. فقالوا له: أفلا تتخذ لك بيتا؟ قال: ابنوا لي على طريق السيل بيتا. قالوا: لا يثبت. قالوا: أفلا تتخذ لك زوجة؟ قال: وما أصنع بزوجة تموت؟[74] إنما نحبّ التكاثر في دار البقاء[75].

ولم يتعلّق بحجر: مرّ إبليس بعيسى بن مريم وهو متوسد حجرا فقال له: يا عيسى، قد رضيت من الدنيا بهذا الحجر؟ قال: فأخذه من تحت رأسه فقذف به إليه فقال: هذا لك مع الدنيا لا حاجة لي فيه[76]. ونظر الى إبليس فقال: هذا أركون[77] الدنيا إليها خرج وإياها سأل، لا أشركه في شيء منها ولا حجرا أضعه تحت رأسي، ولا أكثر فيها ضاحكا حتى أخرج منها[78].

وكان عيسى سيّاحا يسيح في الارض لا يأويه بيت ولا قرية. حلته وبر الإبل، وفي يده عصا. سراجه ضوء القمر وظله ظلمة الليل، فرشه الأرض وسادة الحجر، وربما طوى الأيام جائعا. إذا أصابته الشدّة فرح، وإذا أصابه الرخاء حزن[79]. كان يبيت حيث أمسى، ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يخبئ غداء لعشاء ولا عشاء لغداء[80].

وما تعلق بحمار يتنقل عليه، فقيل له: لو اتخذت حمارا تركبه لحاجتك؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئا يشغلني به[81]. ويوم رُفع لم يترك إلا خفين[82].

وفي هذه الرواية يتضح مدى زوال الدنيا في فكر عيسى حسب المصادر الإسلامية: أتى الحواريون عيسى بن مريم فقالوا له: يا روح الله وكلمته، أرنا جدنا سام بن نوح ليزيدنا الله يقينا. فسار بهم عيسى إلى قبر سام فقال: أجب بإذن الله يا سام بن نوح. فقام بقدرة الله كالنخلة السحوق. قال له: كم عشت يا سام؟ قال له: عشت 4000 سنة تنبيت 2000 وعمرت 2000. قال له عيسى: فكيف كانت الدنيا عندك؟ قال له سام: كبيت ببابين دخلت من هذا وخرجت من هذا[83].

3- الرهبان والقديسون

على مثال السيد المسيح الذي ولد في معلف الحيوانات، وهرب الى مصر من بطش هيرودس، وعاد الى الناصرة خائفا متخفيا، لم يبني بيتا ليبني عائلة بشرية على الأرض، بل كان سائحا رفض حكم الدنيا وأساليب حكامها، هاجر من قرية الى قرية ومن منطقة الى منطقة ينشر الحب والسلام... كما حذر تلاميذه من الاضطهادات ومن الهجرة القسرية التي ستصيبهم... لذا تتميّز الغربة المسيحية في هذه الدنيا بانها مشروع هجرة وسفر دائم في الأرض... ونحو بيت الاب السماوي... فهاجس القديسين والرهبان والمسيحيين هو السفر الدائم، وكلام الغربة عند الراهب امرا مألوفا، وهذا ما كان يقوله القديس شربل دائما: "ماذا لنا في هذه الدنيا؟! نحن فيها مسافرون إلى الأبديّة"[84]. "ومثل كلّ رحلة في هذا العالم، على الإنسان، في رحلته إلى العالم الآخر، أن يتزوّد بزوّادة، ويتسلّح بسلاح: الزاد الوحيد لهذه الرحلة هو المحبّة. والسلاح الوحيد هو المحبّة. هذه المحبّة لا تكون إلاّ شاملة لكلّ البشر، بدون مقابل، بلا حدود وبلا شروط. الإنسان في هذا العالم ينتقل من شاطئ الظلمة والعدم، الى شاطئ النور الأبدي، عابرا بحار هذا العالم بسفينة تنتهي عند شاطئ النور لتكمل مع النور، لأن الإنسان مخلوق كَوْني حدوده النور وليس مخلوق أرضي حدوده التراب والماء. الإنسان تراب ونور: فمن يعيش في التراب يرجع الى التراب، ويموت في التراب، ومن يعيش في بالنور يرجع الى النور ويحيى في النور"[85].

وفي بستان الرهبان أيضا نجد الفكر نفسه وهو هجرة العالم للاستعداد لهجرته نحو العالم الآخر.

قال البار إشعيا: إن الذي قد هجر العالمَ ولبس الزي الرهباني، وهو وسط العالم، فهو لنفسِه يُخادع. هجرنا العالمَ ورفضناه، ورفضنا الخمرَ ونظرَ النساءِ والذهبَ والفضةَ، لنهرب منه، فالربُّ يقول: من لا يهجر العالم وكل ما فيه وينكر نفسَه ويأخذ الصليبَ ويتبعني فلن يستحقني. وأيضاً يقول: اخرجوا من بينهم وافترقوا عنهم وأنا أقبلكم وأجعلكم لي بنين وبنات. وأكثر فرهبان يهربون ويهجرون قلاليهم بالرغم من أنها تحوي الكتب المقدسة، وكتب الخدمة، ولم يغلقوا حتى أبواب الخزانة بل رحلوا تاركين إياها مفتوحة.

ثانيا: الهجرة في القرآن الكريم

1- نصوص الهجرة في القرآن وما يقابلها من نصوص مسيحية

في هذه الآيات الكريمة يتوضح لنا ان هجرة المؤمنين من اجل الحق وخدمة الله لها مكافأة من الله دنيا وآخرة. وقد عرضنا النصوص المتقابلة لنوضح ان الهجرة ذاتها والمسلك نفسه والايمان نفسه...

- سورة البقرة

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[86]	وكُلُّ مَن ترَكَ بُيوتاً أَو إِخوةً أَو أَخواتٍ أَو أَباً أَو أُمّاً أَو بَنينَ أَو حُقولاً لأَجلِ اسْمي، يَنالُ مِائةَ ضِعْفٍ ويَرِثُ الحَياةَ الأَبَدِيَّة. وكَثيرٌ مِنَ الأَوَّلينَ يصيرونَ آخِرين، وَمِنَ الآخِرينَ أَوَّلين[87].

- سورة الأنفال

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ[88] مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ[89] بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[90]	فقالَ لَه بُطرس: "ها قد تَركْنا نَحنُ كُلَّ شيءٍ وتَبِعناك، فماذا يكونُ مَصيرُنا؟" فقالَ لهم يسوع: "الحَقَّ أَقولُ لكم: أَنتُم الَّذينَ تَبِعوني، متى جلَسَ ابنُ الإِنسانِ على عَرشِ مَجدِه عِندما يُجَدَّدُ كُلُّ شَيء، تَجلِسونَ أَنتم أَيضاً على اثنَي عَشَرَ عَرْشاً، لِتَدينوا أَسباطَ إِسرائيلَ الاثنَيْ عَشَر. وكُلُّ مَن ترَكَ بُيوتاً أَو إِخوةً أَو أَخواتٍ أَو أَباً أَو أُمّاً أَو بَنينَ أَو حُقولاً لأَجلِ اسْمي، يَنالُ مِائةَ ضِعْفٍ ويَرِثُ الحَياةَ الأَبَدِيَّة. "وكَثيرٌ مِنَ الأَوَّلينَ يصيرونَ آخِرين، وَمِنَ الآخِرينَ أَوَّلين"[91]

- **سورة التوبة**

"الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"[92]	"هؤلاءِ اللابِسونَ الحُلَلَ البَيضاء، هُمُ الَّذينَ أَتَوا مِنَ الشَدَّةِ الكُبْرى، فلَن يَجوعوا ولَن يَعطَشوا ولَن تَلفَحَهمُ الشَّمسُ وسيَمسَحُ اللهُ كُلَّ دَمعَةٍ مِن عُيونِهم"[93]. ولِلمَوتِ لن يَبْقى وُجودٌ بَعدَ الآن، ولا لِلحُزنِ ولا لِلصُّراخِ ولا لِلأَلَمِ لن يَبْقى وُجودٌ بَعدَ الآن، لأَنَّ العالَمَ القَديمَ قد زال"[94]

- **سورة النحل**

"الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ "[95]	"سَيُسلِمُ الأَخُ أَخاهُ إِلى الموت، والأَبُ ابنَه، ويَثورُ الأَبناءُ على والِدِيهم ويُميتونَهم، ويُبغِضُكم جَميعُ النَّاسِ مِن أَجلِ اسمي. والَّذي يَثبُتُ إِلى النِّهاية فذاكَ الَّذي يَخلُص. وإِذا طارَدوكم في مدينةٍ فاهرُبوا إِلى غَيرِها"[96]

2- الهجرة الرهبانية من خلال القرآن الكريم

الرهبان هم من رفضوا الدنيا وهجروها وجاهدوا في العبادة مدى الحياة، وهكذا يصفهم القرآن الكريم. بداية نجد بقايا قوانين رهبانية تدعو الى الصلاة الليلية التي تخص الرهبان فقط. ففي بداية سورة المزمّل نرى، على الأرجح، أربعة عناصر من القوانين الرُّهبانيّة:

- "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)". هنا دعوة للصلاة الليل كلّه، إلاّ قليلا. أي اسهر ما استطعت من الليل للصلاة. وذكر كلمة "نصفه" ربّما هي دعوة لصلاة نصف الليل، وبما أنّ الوقت كان غير دقيق، فالقانون يسهّل للرّاهب، أي قبل نصف الليل بقليل أو بعده فلا مشكلة.

- "وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا[97]". هنا دعوة لممارسة الصلوات اللفظيّة أي إنشاد المزامير والألحان.

- "وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ". تعبير "ذكر الله" هو صلاة بخاصّة بالرُّهبان الشرقيّين تعني التأمّل غير المتوقّف في الله وكلامه وعظائمه. وبالتالي هنا يحثّنا القرآن الكريم على الصلاة العقليّة أو الهذيذ الروحيّ، أو التأمّل بأعمال الله وعظائمه، فنصل من خلال قراءته إلى المداومة على ذكر الله، أي الصلاة المتواصلة.

– "وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا". هنا دعوة لانقطاع الرَّاهب عن العالم، وبخاصّة عن النساء، والتكرّس المطلق لله.
وفي سورة المدثّر، أيضًا، على الأرجح، بعضٌ من القوانين الرُّهبانيّة:

– "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ": (1) ربّما معنى آخر لهذه الكلمة ترجّح، أيضا، المعنى الرُّهبانيّ إذا عدَّلنا بالتنقيط: المُدَبِّر، وهي صفة أو اسم للرَّاهب. وهذه الكلمة من أصل سريانيّ "ܡܕܒܪܢܐ" بما معناه المتوحِّد والمتدبِّر في حياته ضمن مكانٍ محدَّد.

– "قُمْ فَأَنْذِرْ" (2) على الأرجح: "قم فانذُر" أي قدِّم حياتك نذرًا لله، ومن هنا كلمة نذير. إذًا على الأرجح: قم تنسَّك، وأنذُر نفسك للربّ وتكرَّس له بكلّيّتك. هنا تكرار لما ورد أعلاه: "تبتَّل".

– "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ" (3)، أي سبِّح وعظِّم الربّ بترتيل المزامير[98] والأناشيد. وهنا تكرار لما ورد أعلاه: "رتِّل".

– "وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" (4): أي "عملك فأصلح"[99]. و"قيلَ: قَلْبَكَ"[100]. ولكنّا نرجِّح أنّ كلمة: "ثيابك" هي مصدر من فعل: "ثاب" أي "عاد"، على مثال "غياب" وهي مصدر من فعل "غاب"، وبالتالي: "رجوعك إلى الله"، أي: "توبتك". والمعروف عن الرَّاهب أنّه التائب الدائم نحو الله، وقد انعزل عن العالم. و"طهِّر" تعني: "قدِّس": مقدّس[101]، طاهر[102]، قدّيس[103]، **ἁγίος**, saint ؛ طاهر[104]، مقدّس[105]، sacré ,**ἱερὸς**. حسب مكاريوس– سمعان. فيصبح المعنى: "قدِّس توبتك (أيّها الرَّاهب)، لتصبح تائبًا قدّيسا".

3– الرهبان في القرآن الكريم

وردت كلمة رهبان ثلاث مرّات في القرآن الكريم، ومرّةً واحدةً كلمة "رهبانيّة". وهذا يعني أنّ بيئة القرآن الكريم كانت تعرف الرُّهبان الزهاد والغرباء عن الدنيا جيّدا. وكانوا يتكلّمون العربيّة، وإلاّ كيف تحاوروا مع الرَّسول والصحابة وغيرهم.

"وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ[106] مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" [107].

إن الآية 82 الكريمة تختصر علاقة الرَّسول بالرُّهبان: تدلّ على قرب الرُّهبان ومودّتهم وحبّهم للمؤمنين. هذا هو دور الرُّهبان اللَّطيف من كلّ النواحي، إن من ناحية الصلاة على المرضى وشفاءاتٍ كثيرة، وإن بسماعهم لمشاكل كثيرين واهتمامهم بهم ونصحهم إيّاهم، وإن بضيافة الفقراء وعابري السبيل وتطبيب جراح المتألمين وأمراضهم...

إنّ الرُّهبان هم زينة النصارى، وهم سبب فرحة المؤمنين بالنصارى، "ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ" وهم "لا يستكبرون" على الفقراء العرب، لا بل يستقبلوهم بابتسامةٍ ومحبّة – ذلك أنّ البدويّ الفقير كان محتقرًا في الأوساط الغريبة عن محيطه – وهذا ما فعله الرُّهبان مع الرَّسول وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب...
وإنّ الآية 83 هي، على الأرجح، شرح لفضائل القسّيسين والرهبان...

4- الهجرة من خلال الفضائل

لقد ذكر القرآن الكريم فضائل تساعد الانسان المؤمن ليتغرب عن الدنيا ويزهد بها، نذكر على سبيل المثال العفة والفقر:

- العفة

حياة العفّة والتكرّس لله بدون زواج، تلميحٌ واضحٌ إلى الحياة الرُّهبانيّة. في القرآن أيضا هجرة الدنيا، والتعفف عن تأسيس العائلة والعيش في البتولية استعدادا للقاء رب العالمين والعيش بالبرارة الكاملة، وكلمة نكاح تعني: "عقد التزويج"[108]. "وأَنْكَحَها: زَوَّجَها"[109]. وقد عرضنا النصوص ضمن عامودين لنوضح هذا الامر المشترك، بين النصوص المقدسة المسيحية والإسلامية، الذي يدعو الى هجرة الدنيا وأهلها:

القرآن الكريم	المصادر المسيحية
"وَالْقَوَاعِدُ[110] مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ[111] نِكَاحًا[112] فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ"[113].	"أَأَنتَ مُرتَبِطٌ بامرَأَة؟ فلا تَطلُبِ الفِراق. أَأَنتَ غَيرُ مُرتَبِطٍ بِامرَأَة؟ فلا تطلُبِ امرأة، وإِذا تَزوَّجتَ فلا ذَنْبَ عَلَيكَ، وإِذا تَزَوَّجَتِ الفَتاة فلا ذَنْبَ عَلَيها"[114].
"أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[115].	"كذلِك لِيكُنْ على النِّساءِ لِباسٌ فيه حِشمَة، ولْتَكُنْ زينتُهُنَّ بِحَياءٍ ورَزانَة، لا بِشَعْرٍ مَجْدولٍ وذَهَبٍ ولُؤْلُؤٍ وثِيابٍ فاخِرة، بل بِأَعمالٍ صالِحةٍ تَليقُ بنِساءٍ تَعاهَدْنَ تَقْوى الله"[116].

إذًا، بالمقابلة مع نصوص القدّيس بولس، نرى أنّ هذه الآية الكريمة تدعو النِّساء إلى إهمال المظاهر الجماليّة للمرأة والتزام العفّة، ما يرجّح أنّها دعوة للحياة البتوليّة وربّما الرُّهبانيّة.

"وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ[117] نِكَاحًا حَتَّى[118] يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"[119].	"مَن عَزَمَ في قَلْبِه، وكانَ غَيرَ مُضطَرٍّ، حُرًّا في اختِيارِه، وصَمَّمَ في صَميمِ قَلبِه أَن يَصونَ خَطيبَتَه، فنِعْمَ ما يَفْعَل!"[120]

"وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ[121]، فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَآتُوهُمْ[122] مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ[123]، مِمَّا مَلَكَتْ[124] أَيْمَانُكُمْ"[125].	"وأَقولُ لِغَيرِ المُتَزَوِّجينَ والأَرامِلِ إنَّه يَحسُنُ بِهِم أَن يَظَلُّوا مِثْلي. (دون زواج) فإِذا لم يُطيقوا العَفاف فلْيَتَزَوَّجوا، فالزَّواجُ خَيرٌ مِنَ التَّحَرُّق"[126].
"وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ[127] عَلَى الْبِغَاءِ[128]، إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا[129]، لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَمَنْ يُكْرِههُنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ، مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ، غَفُورٌ رَحِيمٌ"[130].	"وإذا رَأَى أَحَدٌ أَنَّه قد لا يَصونُ خطيبَتَه، إِنِ اشتدَّت رَغبَتُه، وأَنَّه لا بُدَّ لِلأُمورِ أَن تَجرِيَ مَجْراها، فَلْيَفْعَلْ ما يَشاء، إِنَّه لا يخطأ: فلْيَتَزَوَّجا. فَمَن تزوَّجَ خطيبَته فَعَلَ حَسَنًا، ومَن لم يتَزَوَّجْها كانَ أَحسَنَ فِعْلاً"[131]

لقد اعتمدنا على تفسيرٍ جديدٍ لهذه الآية الكريمة بالمقابلة مع نصّ القدّيس بولس، وبدون التعليق على تفسير المسلمين المعروف.[132]

"يَعْلَمُ (الله) خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ "[133]	"مَن نظَرَ إِلى امرأَةٍ بِشَهْوَة، زَنى بِها في قَلبِه" [134]

يلمّح النصّ القرآنيّ هنا إلى زنى النظر والفكر[135]، الذي ورد في الإنجيل المقدّس، والذي تجنّبه بخاصّة الرهبان[136].

– الفقر

كما يدعو القرآن الكريم والإسلام الى الحياة الفقرية والزهد في الدنيا: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ"[137]. "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ"[138]. "لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ"[139]، ويأمر الله: "وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ "[140]، "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"[141] "لِوَجْهِ اللَّهِ"[142]، "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ "[143]، "وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ "[144].

وأيضا الرسول دعا الى الحياة الفقرية واعمال الرحمة وعاشها ومارسها، وهذه بعض امثلة، تثبت مدى غربة الإسلام عن الدنيا وملذاتها...

"أَهْدَى جَابِر إِلى رسول الله رَاهِبٌ مِنْ الشَّامِ جُبَّةً مِنْ سُنْدُسٍ فَلَبِسَهَا النَّبِيُّ ثُمَّ أَتَى الْبَيْتَ، فَوَضَعَهَا. وَأُخْبِرَ بِوَفْدٍ يَأْتِيهِ، فَأَمَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يَلْبَسَ الْجُبَّةَ، لِقُدُومِ الْوَفْدِ. فَقَالَ النَّبِيُّ: لَا يَصْلُحُ لَنَا لِبَاسُهَا فِي الدُّنْيَا، وَيَصْلُحُ لَنَا لِبَاسُهَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ خُذْهَا يَا عُمَرُ. فَقَالَ: أَتَكْرَهُهَا وَآخُذُهَا؟! فَقَالَ النَّبِيُّ إِنِّي: لَا آمُرُكَ أَنْ تَلْبَسَهَا، وَلَكِنْ تُرْسِلُ بِهَا إِلَى أَرْضِ فَارِسَ فَتُصِيبُ بِهَا مَالًا. فَأَبَى عُمَرُ. فَأَرْسَلَ بِهَا النَّبِيُّ إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَكَانَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَى مَنْ فَرَّ إِلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ"[145]. نستدلّ من هذه القصّة أنّ الرّسول الذي عاش عيشة فقريّة، أبى أن يلبس جبّة السندس.

"انطلق وفد نجران حتّى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبريّة، وخواتيم الذهب. ثمّ انطلقوا حتّى أتوا رسول الله فسلّموا عليه، فلم يردّ عليهم السلام... فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثمّ عادوا إلى رسول الله فسلّموا فردّ بسلامهم، ثمّ قال: "والذي بعثني بالحقّ، لقد أتوني المرّة الأولى وإنّ إبليس لمعهم"[146].

نستنتج من هذه القصّة، أيضًا، أنّ الرّسول رفض أن يلتقي بوجهاء نجران وعليهم الثياب الجميلة والذهب، ولم يستقبلهم إلاّ عندما لبسوا الثياب البسيطة، فقد صرّح بأنّه رأى الشيطان داخلاً معهم في المرّة الأولى، دلالة أنّه رآهم خطأً لأنّهم خالفوا نذر الفقر الرُّهبانيّ. هذه الروايات ترجّح زهد الرسول وعيشته الفقريّة.
"هذا ما أوصى به الرّسول لأحمد بن معاذ حين أرسله إلى اليمن: "إيّاك والتنّعم فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعّمين"[147]. وتابع في مكان آخر: "تَبًّا للذَّهَبِ تَبًّا للفِضَّةِ" يقولها ثلاثًا. قال: فشقّ ذلك على أصحاب رسول الله، قالوا: "فأيّ مالٍ نتّخذ؟" فقال: "لسانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ على دِينِه (عبادته)، وعلى إيمَانِهِ"[148].

5- التحنُّف والتحنُّث

يشرح ابن هشام: "التحنّث[149] هو التحنُّف[150] والتبرّر والتعبّد الليالي الطوال وإقامة أعمال البرّ والإحسان"[151] و"الحنيف: النّاسك"[152]. وهذا المعنى يتطابق مع بعض أبيات شعراء الجاهليّة:

"كأَنَّ تَوالِيَهُ بِالمَلا نَصارى يُساقُونَ لاقَوا حَنيفَا".

إذا هنا الأمر مرجّح أنّ الحنيف هو الرّاهب والناسك والعابد الذي يتحنّف أي يمارس غربته عن هذا العالم. و"حُنَفَاءَ: حجّاج"[153].

اعتبر أهل الحديث والأخبار عددًا من الرُّهبان والنصارى في جملة الأحناف، ومنهم قس بن ساعدة، الذي قال عنه الرّسول: "هذا رجلٌ من أياد تحنّف في الجاهليّة"[154]. وفي "مروج الذهب" ذكر المسعوديّ حنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان العبسيّ، ورئاب الشفيّ وأسعد أبي كرب الحميريّ وقس بن ساعدة الأياديّ وأميّة بن أبي الصلت الثقفيّ، وورقة بن نوفل وعدّاس النينويّ وأبي قبيس وصرمة أبي أنس الأنصاريّ وأبي عامر الأوسيّ وعبد الله بن جحش وبحيرا الرّاهب وقد صنّفهم المسعوديّ على أنّهم من الأحناف كما من النصرانيّة[155].

وحسب القاموس اليوناني العربي لمكاريوس سمعان المنحول فان كلمة حنيف تعني غريب، لذا فالغربة فضيلةٌ رهبانيّةٌ مهمّةٌ في بستان الرُّهبان، والتي بسببها ربّما دعي الرُّهبان العرب حنفاء، أي غرباء: فـ "القدّيسون اجتهدوا في أن يقلعوا من نفوسِهم الأوجاعَ، ولما صَعُبَ عليهم ذلك وهم بين العلمانيّين، تغرَّبوا في البرّيّةِ، ولازموا الصوم والصلاةَ والسهرَ"[156]. لذلك "الرهبنة هي غربةٌ، وفقرٌ، وصبرٌ على البلايا والظلمِ»[157]؛ "فنحن غرباء، فلنكن غرباء بالكمال، ولا نحسب أنفسنا شيئاً، ولا نشاء أن يحسبنا أحد فنتنيّح"[158].

"والرَّاهب إذًا، هو غريبٌ في أرضٍ غريبة، فإذا أراد أن يجد راحة، فعليه أن لا يشغل نفسه بأيّ شيءٍ فيها"[159] . لذا "إنّ الغربة أفضل من إضافة الغرباء»[160]. و«الغربة هي الصمت، وترك الالتفات الى الأمور الدينويّة"[161]. وحيثما يجلس الرَّاهب عليه أن يقول: "غريبٌ أنا، غريبٌ أنا"[162].

هذا ما صرّح به القدّيس بطرس الرسول: "أيُّها الأَحِبَّاء، أَحُثُّكم، وأَنتم غُرَبَاءُ نُزَلَاء"[163]. لذا قال مكاريوس– سمعان: "سرّ المسيحيّة وعملها وسيرتها غريب من هذا العالم"[164]. و"يجب على المسيحيّ أن يتغرّب من جميع أعضاء الخطيئة ويصير ممتلئا من جميع أعضاء البرّ"[165].

وأصبحت الغربة من الفضائل المسيحيّة، ويشرح مكاريوس– سمعان:
"لأن هوذا بالظاهر قد رفضنا جميعنا العالم. ونحن غرباء زاهدين وقد عدمنا المشاركة الجسدانيّة، وعلى الجملة قد عتقنا جسدنا بمعونة الله من كلّ شيء، لكي نقف في الصلاة قدّام الله... تركنا جسدنا غريبًا من هذا العالم، نعلم، أيضا، إن كان عقلنا غريبًا من هذا العالم ومن هذا الدهر"[166]. و"جيّد هو الصوم كلّ يوم والسهر والغربة"[167]. فـ"لنعطينّ إذا نحن لمبدئنا آخرة صالحة فقط ولنثبتنّ في التمسكن في الغربة في الشقاء"[168].

رابعا: هجرة الرسول

1– الرسول في غار حرّاء

"منح الله الرسول كلّ خُلقٍ جميلٍ"[169]. و"كان يحبّ الخلاء والانفراد عن قومه"[170]، "لمّا تقاربت سنّه الأربعين"[171]. "وكانت تأمّلاته الماضية قد وسَّعت الشقّة العقليّة بينه وبين قومه، حبَّب إليه الخلاء، فكان يأخذ السَّويق[172]والماء، ويذهب إلى جبل النور"[173]، "ويتحنَّث"[174] "في غار حرّاء"[175]، "وحرّاء جبل بأعلى مكّة على ثلاثة أميال منها"[176]، "كما كان يصنع ذلك متعبّدو ذلك الزمان"[177]"في قريش"[178]: "فإذا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُم فَاذْكُرُوا"[179]، "اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ"[180]؛ "وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ"[181]. لذلك كان الرَّسول "يصوم ويطعم الجياع ويرأف بالمساكين"[182]، "ويقضي وقته في العبادة"[183]، "الليالي أوّلات العدد"[184]. "ويتخلّى عن الناس وينقطع إلى الله ويفكّر فيه"[185]،

"شهرًا من السنة يتنسّك فيه"[186]. "ويقرأ الكتب المقدّسة ويتأمّل في قصصها"[187].

2- صلوات الرسول في الغار

وفي هذه الامثلة، من المصادر المسيحيّة والإسلاميّة، نستطيع أن نلقي الضوء على صلاة الرسول في الغار.

- صلاةٌ في الليل وتسبيحٌ وترتيل

القرآن الكريم	صلاة الشحيمة السريانيّة المارونيّة
"قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا"[188]	"انهضوا يا إخوتي من الرقاد"[189]و"نرتّل المجد مسافة الليل، متشبّهين بالملائكة، الذين لا يقفون عن التمجيد. فلنصلّي في منتصف الليل"[190].
"إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سُبُحًا[191]طَوِيلًا"[192].	"قرُبَ النهارُ لنصلّي طالما لنا للصلاة زمان"[193].
"وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا"[194].	"نصلّي ليل نهار، طالما لأزمتنا الحياة، وقبل أن يمرّ الزمان، ولا يبقى موضعٌ للتوبة"[195].

- التوبة وطلب الرحمة والاستغفار

إنّ كلمات "غفر وغفران وغافر وغفور" وردت 227 مرّة في القرآن الكريم. وموضوع إستغفار الله من المؤمنين وغفران الله من المواضيع المهمّة في التراث الرهبانيّ، وبخاصّة المشرقي. وغصّت الكتب الرهبانية وكتب الصلوات بكلمات الغفران...

القرآن الكريم	صلاة الشحيمة السريانيّة المارونيّة
"وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[196]. "رَبِّ اغْفِرْ لِي"[197].	"تعال أيّها الخاطئ أطلب المراحم، وتضرّع الى جابلك ليمنحك الغفران"[198].
"رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[199].	"ويلٌ لي لأنّ خطاياي كثيرةٌ جدًّا، وانتهت حياتي، فارحمني يا الله"[200].
"رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ"[201].	"فرّحني بغفران آثامي، خطئت إليك، يا راحم الخطأة، وقد جئت لتَنْشُد الضالين. فانشد ضلالتي بحنانك"[202]
"وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ".[203]	"وعلى مثال العشّار والزانية اللذين تبرّرا من آثامهما برّرني أنا الخاطئ، كما سامحتهما سامحني. وامنحني غفران ذنوبي".[204]
"لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ".[205]	"لنبتهل الى الربّ ليغفر خطايانا".[206]

"وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ"[207].	"إيّاك ندعو، واليك نتضرّع لتقبلنا تائبين إليك، وتسامحنا، وتغفر لنا أحصِنا بين أبناء اليمين، ولا تقرأ سجل إثمنا وخطايانا في يومك العظيم والمخيف"[208]

خاتمة

هاجر الأنبياء قديما حفاظا على ايمانهم وطاعة لله، وهاجر المسيح فولد غريبا في معلف الحيوانات، وهاجر الى مصر خوفا من بطش هيرودس، وابتدأ بشارته مهاجرا من منطقة الى منطقة ينشر الحب والسلام، وهو يقول، حسب التراث الاسلامي: "حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير". ولم يسعى لبناء بيت او تأسيس عائلة في هذه الدنيا. وربما طوى الأيام جائعا. والرسول كان يتحنَّث في غار حرّاء، ويتخلّى عن الناس وينقطع إلى الله ويفكّر فيه. ويقرأ الكتب المقدّسة ويتأمّل في قصصها. وهاجر بعدها الى يثرب وهاجر أصحابه الى الحبشة حفاظا على ايمانهم...

وتستمر هجرة المؤمنين من مسيحيين ومسلمين، فمنّا من يهجر العالم ليتفرّغ للعبادة كما هي الحال في التيارات الرهبانية والصوفية والعرفانية، ومع الناس الاتقياء بشكل عام، ومنّا من يهجر مكان يُضطهَد فيه بسبب ايمانه... وتبقى النقطة المشتركة الاساسية بين المسيحيين والمسلمين وهو مشروع الهجرة الدائمة من الفانية الى الباقية، ومن الدنيا الى الآخرة، ومن الارض الى السماء، ومن عالم المادة الى عالم الروح... واملنا كبير ان نلتقي يوما بوجه رب العالمين حيث مقرنا الابدي... "لأنَّنا سنُصبِحُ أَشباهَه، وسَنَراه كما هو"[209] ، ونتمتع برؤية وجهه مدى الابد "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"[210]... هذه هي الهجرة وهذا هو سفرنا في هذا العالم...

[1] أنظر تك 6-9.
[2] يونس 72.
[3] أنظر العنكبوت 26.
[4] أنظر تك 12-22.
[5] آل عمران 67.
[6] أنظر تك 16.
[7] أنظر تك 21/8-20.
[8] أنظر الصّافات 103.
[9] أنظر تك 27-30.
[10] البقرة 132- 133.
[11] أنظر تك 37-42.
[12] يوسف 101.
[13] أنظر خر 2-14.
[14] يونس 84.
[15] أنظر يو 10/1.
[16] أنظر يو 11/1.
[17] أنظر مت 24/17-27.
[18] أنظر لو 9-19.
[19] أنظر مت 20/8.
[20] أنظر مت 16/10-32؛ اع 1/8.
[21] 1 بط 11/2؛ وأنظر: يو 17/ 14-15؛ وأف 19/2.
[22] P p.168v.
[23] بستان الرهبان، ص 209.
[24] انظر القيامة 20- 21.
[25] البقرة 218؛ النحل 41.
[26] آل عمران 195.
[27] التوبة 110.
[28] الانفال 72. 74.
[29] الحشر 8.
[30] الحج 58.
[31] التوبة 20.
[32] التوبة 10.
[33] لو 2/ 1-7.
[34] مت 2/ 14 و17.
[35] مت 22/2.
[36] مت 19/8.
[37] لو 23/3.
[38] يو 31/12.
[39] لو 32/13.
[40] مت 37/22-40.
[41] مر 1/ 14 وما يليه.
[42] لو 4/ 16 وما يليه.
[43] مت 4/ 2-14/ 13 ومر 1/ 14-6/ 34 ولو 4/ 14-9/ 11 ويو 4/ 46-50 وغيره.
[44] مت 9/ 1-8 و18-22 ولو 8/ 43-48 وغيره.
[45] لو 5/ 20-26، 7/ 48-50.
[46] مت 10/ 1-4 ولو 6/ 12-16.
[47] يو 6 و26 و27.
[48] يو 6/ 66 و67.
[49] مت 15/ 21، 16/ 13 ومر 7/ 31 وغيره.
[50] مت 15/ 29-39.
[51] مت 16/ 15.
[52] لو 14/ 1.
[53] مت 19/ 1-3 ولو 11/ 53 و54.
[54] يو 11/ 41-45.
[55] يو 11/ 46-53.
[56] يو 13/ 1-11.
[57] يو 13 / 12-17 ولو 22/ 24-30.
[58] مت 26/ 39-46 وغيره.
[59] مت 26/ 28 ومر 10/ 45 وغيره.
[60] يو 1/ 29، 10/ 11-18.
[61] يو 19/ 30.
[62] يو 1/13.
[63] عبدالله بن المبارك ت 797/181.
[64] عبدالله بن المبارك ت 797/181.
[65] أبي بكر بن أبي الدنيا ت 894/281.
[66] هذا محاكاة يو 18/15-19. أبي بكر بن أبي الدنيا ت 894/281.
[67] نقلا عن كتاب عيسى أم يسوع، ص 15.
[68] أحمد بن حنبل ت 855/241.
[69] أحمد بن حنبل ت 855/241.
[70] روح العالم كما سبق عند 1يو 15/2-17.
[71] لا تعبدوا ربين الله والمال (مت 24/6)، وأصل كل الشرور عند بولس محبة الفضة.
[72] مع هموم الغنى لا تثمر كلمة الله (مت 22/13). أحمد بن حنبل ت 855/241.
[73] أحمد بن حنبل ت 855/241.
[74] أحمد بن حنبل ت 855/241.
[75] الماوردي ت 1058/450.
[76] أبي بكر بن أبي الدنيا ت 894/281.
[77] ويمكن مقارنتها بعبارة "اركون" archon الموجودة في الاناجيل الغنوصيّة، والتي تشير الى ولاة هذا العالم ومن بينهم الشيطان.
[78] أبي بكر بن أبي الدنيا ت 894/281.
[79] أبو رفاعة الفسوي ت 902/289.
[80] تحاكي مت 25/6-34. هناد بن السري ت 857/243.
[81] أحمد بن حنبل ت 855/241.
[82] تشابه مر 7/6-9. هناد بن السري ت 857/243.
[83] عبد الملك بن هشام ت 833/218.
[84] القديس شربل، ص 45.
[85] القديس شربل، ص 180.
[86] البقرة 218.
[87] مت 19/ 29-30.
[88] هو النصرة والمعونة دون الميراث (الطبري).
[89] والمتناسبون بالأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث (الطبري).
[90] الانفال 72- 75.
[91] مت 28/19-30.
[92] التوبة 20.
[93] رؤ 13/7و17.
[94] رؤ 4/21.
[95] النحل 110.
[96] مت 21/10-23.
[97] حسب مكاريوس المنحول: تزمير، أي إنشاد المزامير، وهذا جزءٌ من الصلاة الخورسيّة.
[98] "عَظِمُّوا الرَّبَّ معي تَعظيماً ولنُشِدْ بأسمِه جَميعاً". (مز 34/4ج).
[99] الطبري، www.altafsir.com/IndexArabic.asp.
[100] لسان العرب، http://baheth.info.
[101] 84: 3/2/1؛ 80: 3/1/36؛ 2/1/2؛ 3/2؛ 1/4.
[102] 84: 3/1/1؛ 1/2؛ 2/2؛ 1/4؛ 80: 2/1/36؛ 2/2؛ 3/3؛ 11/3و12؛ 1/4.
[103] 84: 3/3/1؛ 11/3 و12؛ 41.
[104] 84: 1/2/1؛ 9/3.
[105] 80: 1/2/36؛ 9/3؛ 1/6 و5.
[106] للدموع أهمية كبرى في الحياة الرهبانيّة. وللتوسُع في موضوع الدموع أنظر محاضرة ألقاها الأبّاتي يوحنّا ثابت في بداية المؤتمر السريانيّ العربيّ في الكسليك-لبنان، من 3 إلى 7 شباط 2015:
Le Don des Larmes dans les deux Beth-Gazzé (ܒܝܬ ܓܙܐ) Maronites : L'add. 14.703 (XII°- XIII°s.) et le Vat. Syr.324 (XIII°s).

ويستشهد في مقدمتها بأهمية الدموع عند القدّيسين: يوحنّا فم الذهب "دمعة واحدة تطفئ أتونًا مشتعلا من الخطايا"، وأفرام السريانيّ "الدموع تحيي النفس المائتة بسبب الخطيئة"، ويعقوب السروجيّ "إشتري الدموع من الفقراء إن كنت لا تبكي". (ص 4)

[107] المائدة 82–83.

[108] لسان العرب، http://baheth.info.

[109] القاموس المحيط، http://baheth.info.

[110] أي اللواتي لا يزلن قاعداتٍ في البيوت، أو في الأديرة؟

[111] حسب لوكسمبورغ، وفي حديث معه، يرجع إلى مخطوطات القرآن الكريم، فالجيم هنا هي عين سريانيّة، وبالتالي يرجون= يرعون راعي فلان= راضيه، أخذ بعين الاعتبار، ܪܥܐ بالسرياني= فكّر، ويصبح المعنى الذين لا يفكّرون بالزواج.

[112] أي لا يبغين الزواج.

[113] النُّور 60.

[114] 1 كور 7/ 27–30.

[115] النُّور 60.

[116] 1 تيم 2/9.

[117] رجَحناها: يَجْدُون أي يسألون، يبغون.

[118] بمعنى: لكي.

[119] النُّور 33.

[120] 1 كور 7/ 37.

[121] كتب كتابه، أي عقد رباط الزوَاج.

[122] مهر العروس ولوازم العرس وغيره.

[123] في الأصل: "وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ، مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ".

[124] أي ممّا لديكم من ملك وأموال للمهر، أو ممّا توفّر لكم من ماديّات، وفي قراءة للوكسمبورغ يرى في ملكة اليمين، الوعد أو القسم الذي يقوم به الزوج إبّان عقد الزواج (في لقاء معه في نورجفيك– فنلندا، في 2014/8/22).

[125] النُّور 33.

[126] 1 كور 7/ 8–9.

[127] البنات البالغات القادرات على الزواج. وهنا ممكن أن يكون المعنى الخطيبة أو الابنة.

[128] بغاء، أي طلب. (لسان العرب) وهنا باستعمال "الـ" التعريف لكلمة "بغاء"، ترجّح "بغاء الكتاب" أي الزواج، تتميمًا لما ورد أعلاه: "والذين يبتغون الزواج".

[129] المحصّنات أي الرَّاهبات، أي أردن الترهّب والتعفّف.

[130] النُّور 33.

[131] 1 كور 7/ 36–38. إنّ السنكسار أو كتاب سير القدّيسن مليء بأخبار عذارى رفضن الزواج حبّا بالبتوليّة. بالرغم من الإغراءات الكثيرة والترهيبات، وعلى سبيل المثال: "نشأت أغنس الشهيدة في روما، وقد اتّسمت بالجمال البارع مع الغنى فتشاحن أبناء الأشراف عليها، وتقدّم لها بروكبيوس ابن حاكم مدينة روما يطلب يدها مقدمًا هدايا ثمينة للغاية، فصارحته أنّها مخطوبة لعريسها السماويّ، وإذ ظنّ أنّها تحبّ آخر غيره مرض، فقلق عليه والده وعرف سرّ مرضه. فاستدعى الفتاة وصار يلاطفها وإذ رفضت الملاطفة كبّلها بالقيود بعد تعذيبها وسحبها إلى هيكل للأوثان لتسجد هناك فرفضت. إذ فشلت كلّ وسائل الحاكم من ملاطفة وتعذيب أمر بسحبها إلى أحد بيوت الدعارة لتسقط مع شباب روما الماجن. جاء بعض الشباب لاغتصابها فأعطاها الرب مهابة في أعينهم، وإذ تجاسر أحدهم بوقاحة أصيب بعمى وسقط على الأرض مرتعدًا. فتوسل رفقاؤه لديها أن تصلي عنه، وإذ صلت انفتحت عيناه وسبّح الكل لله".
(http://www.arabchurch.com/forums/archive/index.php/t-183070.html)

[132] "يقول تعالى ذكره: زَوِّجوا الصالحين من عبادكم وإمائكم ولا تُكْرِهوا إماءَكم على البغاء، وهو الزنى "إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً" يقول: إن أردن تعفّفا عن الزنى. "لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا" يقول: لتلتمسوا بإكراهكم إيّاهنّ على الزنى عَرَضَ الحياة، وذلك ما تعرِض لهم إليه الحاجة من رِياشها وزينتها وأموالها. "وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ" يقول: ومن يُكْره فَتياته على البغاء، فإنّ الله من بعد إكراهه إيّاهنّ على ذلك، لهم "غَفُورٌ رَحِيمٌ"، ووِزْر ما كان من ذلك عليهم دونهنّ. وذُكر أنّ هذه الآية أنزلت في عبد الله بن أبيّ ابن سَلُول حين أكره أمته مُسَيكة على الزنا" (الطبريّ، www.altafsir.com/IndexArabic.asp).

[133] غافر 19.

[134] متّ 5/ 28.

[135] أنظر الطبريّ، www.altafsir.com/IndexArabic.asp.

[136] أنظر بستان الرهبان، وأقوال الآباء الشيوخ والمصباح الرهبانيّ... في أبواب العفّة، وطهارة الفكر والنظر.

[137] البقرة 274.

[138] التوبة 60.

[139] البقرة 177.

[140] الحجّ 28.

[141] الإنسان 8.

[142] الإنسان 9.

[143] الضُّحى 9.

[144] الضُّحى 10.

[145] أحمد ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، 50 جزء (45+5 فهارس)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ، 1999م، 23/ 74.

[146] الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقيّ، دلائل النبوءة، تحقيق د. عبد المعطي قلعجيّ، 7 أجزاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1405هـ، 5/ 485.

147 عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطيّ، جامع الأحاديث، (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطي والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوي، والفتح الكبير للنبهانيّ)، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق من الباحثين بإشراف د على جمعة (مفتي الديار المصريّة)، طبع على نفقة د حسن عباس زكي، 40 جزء، مصر، دون تاريخ، 327/10.

148 الطبريّ www.altafsir.com/IndexArabic.asp.

149 سريانيّا: ܚܢܢܬ، "تحننث"، تعني: تضرُّع.

150 "يتحنّف من الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام. فالعرب تقول التحنّث والتحنّف يبدلون الفاء من الثاء" (الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13).

151 ابن هشام، السيرة النبويّة، المرجع السابق، 218/1 و222.

152 مقاييس اللغة، http://baheth.info.

153 العباب الزاخر، http://baheth.info.

154 محمّد بن منيع الزهريّ ابن سعد، الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى)، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421 – 2001، 11 جزء، 1/ 55.

155 أنظر أبو الحسن عليّ بن حسين المسعوديّ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المطبعة العصريّة، بيروت، 2005، 1/ 78 وما بعدها.

156 بستان الرهبان، المرجع السابق، ص 209.

157 المرجع نفسه، القدّيس دورثاوس، ص 120.

158 المرجع نفسه، القدّيس برصنوفيوس، ص 160.

159 المرجع نفسه، القدّيس ارسانيوس، ص 171.

160 المرجع نفسه، أنبا يعقوب، ص 171.

161 المرجع نفسه، ص 376.

162 المرجع نفسه، ص 293.

163 1 بط 11/2؛ وأنظر: يوحنّا 17/ 14–15؛ وأف 19/2؛ والرسالة إلى ديوجنوس، زمن القيامة، الكسليك، 1977، ص 410– 413.

164 M p.18, 206; L¹ p.13r؛ P p.168v.

165 M p.17; T p.318r.

166 Question 14, T p.350v، M p.232– 233.

167 قول أول مختصر، 1/1؛ ميمر 16، 1/1.

168 ميمر 17، 5/4.

169 ابن كثير، سيرة الرسول، المرجع السابق، 8/1.

170 الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13.

171 صفيّ الرحمن المباركفوريّ، الرحيق المختوم، أوّلي النهج للانتاج الاعلاميّ، السعوديّة، 1422هـ ، 1/ 50.

172 "ما يُتَّخذ من الحنطة والشعير" (لسان العرب، http://baheth.info).

173 المباركفوريّ، الرحيق المختوم، المرجع السابق، 1/ 50.

174 الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13.

175 ابن كثير، سيرة الرسول، المرجع السابق، 8/1.

176 الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13.

177 ابن كثير، سيرة الرسول، المرجع السابق، 1/ 8.

178 الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13.

179 البقرة 200. "العبادة" (الصّحاح في اللغة، http://baheth.info). "والطاعة وكل ما تُقُرب به إلى الله تعالى، وقيل لثعلب: هل يسمَّى الصوم نُسُكاً؟ فقال: كلّ حقّ لله عزَّ وجلّ يسمَّى نُسُكاً. نَسَك لله تعالى يَنْسُكُ نَسْكاً ونِسْكاً ونَسُكَ وتَنَسَّك" (لسان العرب، http://baheth.info). "وشِعارُ الحَج: مناسكه وعَلاَماتُه" (القاموس المحيط، http://baheth.info).

180 الحجّ 28.

181 الحجّ 29.

182 الأصفهاني، الأغاني، المرجع السابق، 113/3.

183 صفي الرحمن المباركفوريّ، الرحيق المختوم، أولي النهج للانتاج الاعلاميّ، السعودية، 1422هـ، 50/1.

184 أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقيّ، سنن البيهقيّ الكبرى، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، 11جزء، مكتبة دار الباز، مكّة المكرّمة، 1414هـ – 1994م، 5/ 9.

185 الأصفهاني، الأغاني، المرجع السابق، 113/3.

186 الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق، 1/ 13.

187 طبقات ابن سعد، المرجع السابق، 85/1.

188 الْمُزَّمِّلُ 2–4 و6.

189 الشحيمة، المرجع السابق، ليل الإثنين، لحن مقدّمة الصلوات، ص 164.

190 المرجع نفسه، ليل الإثنين، لحن مقدّمة الصلوات، ص 165.

191 في الأصل: سَبْحًا. ورجّحنا: سُبُحًا. أي صلاةً وتمجيدًا لربّ العالمين، لأنّ الرَّاهب والعابد يصلّي في النهار كما في الليل وهنا الدعوة إلى الصلاة الدائمة.

192 الْمُزَّمِّلُ 7.

193 الشحيمة، المرجع السابق، صباح الاثنين، نشيد رابع، ص 191.

194 الإنسان 25– 26.

195 الشحيمة، المرجع السابق، ليل الإثنين، لحن مقدّمة الصلوات، ص 164– 165.

196 الْمُزَّمِّلُ 20.
197 ص 35.
198 الشحيمة، المرجع السابق، ستّار السبت، لحن أوّل، ص 491.
199 الأعراف 23، وأنظر الآية 149.
200 الشحيمة، المرجع السابق، ستّار السبت، لحن أوّل، ص 491.
201 الأعراف 151 و155.
202 الشحيمة، المرجع السابق، ستّار السبت، لحن أوّل، ص 491.
203 الأعراف 153.
204 الشحيمة، المرجع السابق، ستّار السبت، لحن أوّل، ص 491.
205 النّمل 46.
206 الشحيمة، المرجع السابق، صباح الخميس، لحن ثالث، ص 391.
207 هود 3.
208 الشحيمة، المرجع السابق، ستّار السبت، الحسّاية، ص 492– 493.
209 1 يو 2/3.
210 القيامة 22–23.

المصطلحات

80 المجموعة العربيّة الأولى أي مجموعة المخطوطات التي تحمل اسم القدّيس سمعان، مخطوطات: فاتيكان عربيّ 80، وباريس عربيّ 149، وفاتيكان عربي 70، ودير الشرفة، رحماني 12، ولندن شرقي 2322 و4092...

85 المجموعة العربيّة الثانية، أي مجموعة المخطوطات التي تحمل اسم القدّيس مقاريوس، فاتيكان عربيّ 84، ومخطوطات سيناء الثلاث: 356 و358 و446...

مقالة، قول مختصر، مسألة أي مستقاة من 80 أي المجموعة العربيّة الأولى.

ميمر	أي مستقاة من 85، أي المجموعة العربيّة الثانية.
L¹	مخطوط لندن شرقيّ 4092.
L²	مخطوط لندن شرقيّ 2322.
M	مخطوط لبنان، دير الشرفة، رحماني 12.
P	مخطوط باريس عربيّ 149.
S¹	مخطوط سيناء عربيّ 356.
S²	مخطوط سيناء عربيّ 358.
S³	مخطوط سيناء عربيّ 446.
T	مخطوط فاتيكان عربيّ 70.
V	مخطوط فاتيكان عربيّ 80.
W	مخطوط فاتيكان عربيّ 84.
تك	سفر التكوين
خر	سفر الخروج
عد	سفر العد
1 اخ	سفر الاخبار الاول
ين	النبي يونان
مت	انجيل القديس متى
مر	انجيل القديس مرقس
لو	انجيل القديس لوقا
يو	انجيل القديس يوحنا
1بط	رسالة القديس بطرس الاولى
1يو	رسالة القديس يوحنا الاولى

المفسّرون المسلمون: التستريّ (ت 283هـ)، الهواريّ (ت القرن 3هـ)، الطبريّ (ت 310هـ)، الزمخشريّ (ت 538هـ)، الطبرسيّ (ت 548هـ)، الرازيّ (ت 606هـ)، القرطبيّ (ت 671هـ)، البيضاويّ (ت 685هـ)، ابن كثير (ت 774هـ)، السيوطيّ (ت 865هـ)، الشوكانيّ (ت 1250هـ)
www.altafsir.com/IndexArabic.asp

القواميس العربيّة: لسان العرب، مقاييس اللغة، الصحاح في اللغة، العباب الزاخر والقاموس المحيط http://baheth.info/

الكتب الإسلاميّة مثل كتب: السير النبويّة والأحاديث النبويّة الشريفة والتاريخ والجغرافيا من خلال الإنترنيت، مثل المكتبة الشاملة وموقع الورّاق.

المصادر والمراجع
أوّلاً: الكتب المقدّسة
1– القرآن الكريم
2– الكتاب المقدّس، العهد القديم والعهد الجديد، دار المشرق، بيروت، 1988.

ثانيا: المصادر العربيّة
3– إبن أبي أصيبعة، أحمد الخزرجي موفق الدين، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا. ت.
4– ابن الأثير، علي بن محمَّد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبدالله القاضي، 11 جزء، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1407هـ–1987م.
5– """""""، جامع الأصول من أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، 12 جزء، مكتبة الحلواني، بيروت، بين 1389 هـ – 1969 م، و 1392 هـ– 1972 م.
6– ابن الجعد، علي بن عبيد الجوهريّ البغداديّ، مسند ابن الجعد، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، 1410 هـ– 1990م.
7– ابن حيان، محمد بن أحمد أبو حاتم التميميّ البستيّ، صحيح ابن حيان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، 18 جزء، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1414 هـ – 1993م.
8– ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، 50 جزء (45+5 فهارس)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ، 1999م.
9– إبن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد الحضرميّ، التاريخ، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
10– إبن سعد، محمّد بن منيع الزهريّ، الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى)، تحقيق علي محمّد عمر، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، 1421 – 2001، 11 جزء.
11– ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1405هـ.
12– ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشيّ الدمشقيّ أبو الفداء، الفصول في سيرة الرسول صلّى الله عليه وسّلم، تحقيق محمد الخطراوي ومحيي الدين مستو، مؤسّسة علوم القرآن، دمشق، 1402 هـ– 1981م.
13– ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك ابن هشام، السيرة النبويّة، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، 4 أجزاء، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، طبعة 3، 1391هـ / 1971 م.
14– الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ.
15– """""""، دلائل النبوءة، تحقيق محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، جزءان، دار النفائس، بيروت، 1406 هـ – 1986 م.
16– البخاريّ، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفيّ، صحيح البخاريّ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيامه، تحقيق محمّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، 9 أجزاء، –2001 1422 هـ.
17– """""""، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلّيّة الشريعة، جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، 1407 هـ– 1987م.
18– البيهقيّ، الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ، دلائل النبوءة، تحقيق عبد المعطي قلعجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1405هـ.
19– البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين، سنن البيهقيّ الكبرى، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، 11جزء، مكتبة دار الباز، مكّة المكرّمة، 1414 هـ – 1994 م.
20– الترمذيّ، الأمام والمحدّث أبي عيسى محمّد بن عيسى، الجامع الصحيح أوسنن الترمذيّ، محمود محمد محمود حسن نصّار، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1989.
21– الذهبيّ، محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيي المعلمي، 4 أجزاء، دائرة المعارف العثمانيّة، سنة 1374هـ.
22– """""""، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسيّ، 25 جزء، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1413هـ.
23– """""""، تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت– لبنان، 1407هـ – 1987م.
24– الصفديّ، محمّد بن محمّد بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1415هـ – 1995م.
25– الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، المعروف بـ"تاريخ الطبريّ"، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، 11 جزء، بيروت، 1976.
26– مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيريّ النيسابوريّ، صحيح مسلم، تحقيق نظر بن محمّد الفاريابيّ أبو قتيبة، الرياض، جزءان، 1427 هـ– 2006م.
27– المسعوديّ، أبو الحسن عليّ بن الحسين، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تحقيق قاسم الشماعيّ الرفاعيّ، بيروت، ١٩٨٩.
28– النيسابوريّ، محمّد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، 4 أجزاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1411 هـ– 1990م.
29– الهنديّ البرهان فوريّ، علاء الدين، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، 18 جزء، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1401هـ 1981–م.
30– بستان الرهبان، منشورات مكتبة السائح، المنشورات الأرثوذكسية، لبنان، لا ت.
31– ܫܚܝܡܬܐ ܕܥܕܬܐ ܗܘܝܐ ܕܥܠܬܐ ܐܝܟ ܛܟܣܐ ܕܗܦܟܬܐ ܚܕܬܐ ܕܐܬܬܣܝܡܬ ܒܦܘܩܕܢܐ ܕܡܪܝ ܐܦܪܝܡ ܒܪܨܘܡ
ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܐܢܛܝܘܟܝܐ ܘܕܟܠܗ ܡܕܢܚܐ، 25/ܥܒܪܐ/ܠ/1935.

ثالثا: المراجع
32– بروكلمن، كارل، تاريخ الشُّعوب الإسلاميّة، نقله إلى العربيّة نبيه فارس ومنير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1973.
33– المباركفوريّ، صفيّ الرحمن، الرحيق المختوم، أوّلي النهج للانتاج الاعلاميّ، السعوديّة، 1422هـ.
34– أقوال الآباء الشيوخ، ترجمة معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاهوتيّ، البلمند، لبنان، 1990.

35- ترجمة الشحيمة، أو كتاب فرض الكهنة الموارنة، نقلها من اللسان السريانيّ إلى اللسان العربيّ الأب بطرس زهره اللبناني، مطابع الكريم، جونيه، لبنان، 1958.
36- معجم اللاهوت الكتابي، بيروت، 2018.
37- Andrae, Tor, Les Origines de l'Islam et Le Christianisme, traduit de l'allemand par Jules Roche , Coll. « Initiation à l'Islam », VIII, lib. D'Amérique et d'Orient, Adrien-Maison Neuve, 1955
38- Luxemberg, Christophe, The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Qur'an, 2007.

تاريخ الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية، اللبنانيون نموذجاً

د. حبيب البدوي
قسم التاريخ – الجامعة اللبنانية

تُعرّف الهجرة في "اللغة" أنّها الخروج من أَرض إلى أُخرى، وهاجَرَ مِن مكان، أو عنه: أي تَرَكَهُ وخَرَجَ منه إلى غيره، أمّا في "الاصطلاح" فإن الهجرة يُقصد بها انتقال فرد أو مجموعة من مكانٍ ما إلى آخر بغرض الاستقرار في المكان الجديد، وذلك للدلالة على الانتقال مِن البلد الأمّ للاستقرار في بلدٍ آخر، وهي حركة أفراد يتمّ فيها الانتقال بشكلٍ فردي أو جماعي من موطنهم الأصليّ (طوعاً أو قصراً) إلى وطن جديد، ليتمتع بمواصفات ومزايا وفرص أفضل، وعادة ما تكون الهجرة لدرءِ مفسدة أو هروباً من واقع أليم واضطهاد مزمن أو لجلب منفعة وتحسين الأوضاع الاقتصادية والفرص التعليمية للفرد أو الجماعة المهاجرة.

في التاريخ الحديث، كانت الولايات المتحدة الأميركية هي المثال الأوضح لأمة أسسها المهاجرون. فحالما تخلصت الدولة الوليدة من الاستعمار البريطاني أصدرت قانون الجنسية الأول عام 1790، وفيه حددت "الرجل الأبيض" المرغوب به للقدوم إلى ربوعها العذراء. وتوالت القوانين التي تنظم مختلف أنواع الهجرة (وبعضها شمل حظراً على بعض القوميات والجنسيات)، وكان القانون الأخير عام 2019.

اللبنانيون، بالطبع، كانوا في طليعة المهاجرين من منطقة الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة الأميركية. كانت المرحلة الأولى منتصف القرن التاسع عشر، وتمتد إلى شرارة الحرب العالمية لأولى العام 1914. وكان لبنان في هذه المرحلة يخضع لحكم الدولة العثمانية، ومن أسباب هذه الهجرة الطوعية تردّي الأوضاع السياسية والاقتصادية، إضافة إلى الجفاف وانتشار الأمراض والأوبئة. كذلك ساعدت أخبار النجاح التي حققها المهاجرون الأوائل في الأميركيتين في تنامي هذه المغامرة. أما المرحلة الثانية فقد امتدت من العام 1914 وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد أودت المجاعة خلال الحرب العالمية الأولى بحياة الكثير من أبناء لبنان. فضلا عن انتشار الطاعون وفرض التجنيد الإجباري من قبل العثمانيين، فكان الهروب الصعب إلى أميركا. المرحلة الثالثة "الهادئة"، امتدت من الحرب العالمية الثانية حتى بداية الحرب اللبنانية المشؤومة العام 1975، لتبدأ بعدها المرحلة الرابعة القصرية "الكثيفة" هرباً من الأوضاع المزرية أمنياً واقتصادياً واجتماعياً.

ومن هنا ستقسم هذه الدراسة إلى **جزأين**، الأول سيتحدث بالتفصيل عن التشريعات الأميركية لاستقبال المهاجرين، والثاني عن مراحل الهجرة اللبنانية، بنجاحاتها وإنتكساتها.

التسلسل الزمني للتشريعات الأميركية التي تنظم الهجرة إلى الولايات المتحدة

لطالما اعتبرت الولايات المتحدة أمة من المهاجرين. فهي الأرض الجديدة التي قصدها المغامرون والطامعون والطامحون وكذلك المستعبدون والمنفيون والمضطهدون، كلٌّ وصل إليها واستوطنها وساهم بطريقة أو بأخرى في نموذجها المجتمعي المتعدد الحالي.

لقد وطئت أقدام الإنسان الأول تلك القارة قبل آلاف السنين من وصول المستعمرين الأوروبيين، فمنذ ما قبل التاريخ المدوّن عبرت جموع بشرية الكتل الجليدية الصلبة التي كانت تربط سيبيريا بألاسكا عند مضيق بيرنج[1]؛ حيث كان مستوى البحر أقل، كما أنّ كثيراً من المسطحات المائية الموجودة حالياً كانت على شكل جليد متحجر، ويُرجّح العلماء أنّه كان هناك تواصل بري بين القارتين الآسيوية والأميركية في ذلك الزمن السحيق[2]، فكانت الهجرات البشرية الأولى بحثاً عن الطعام[3].

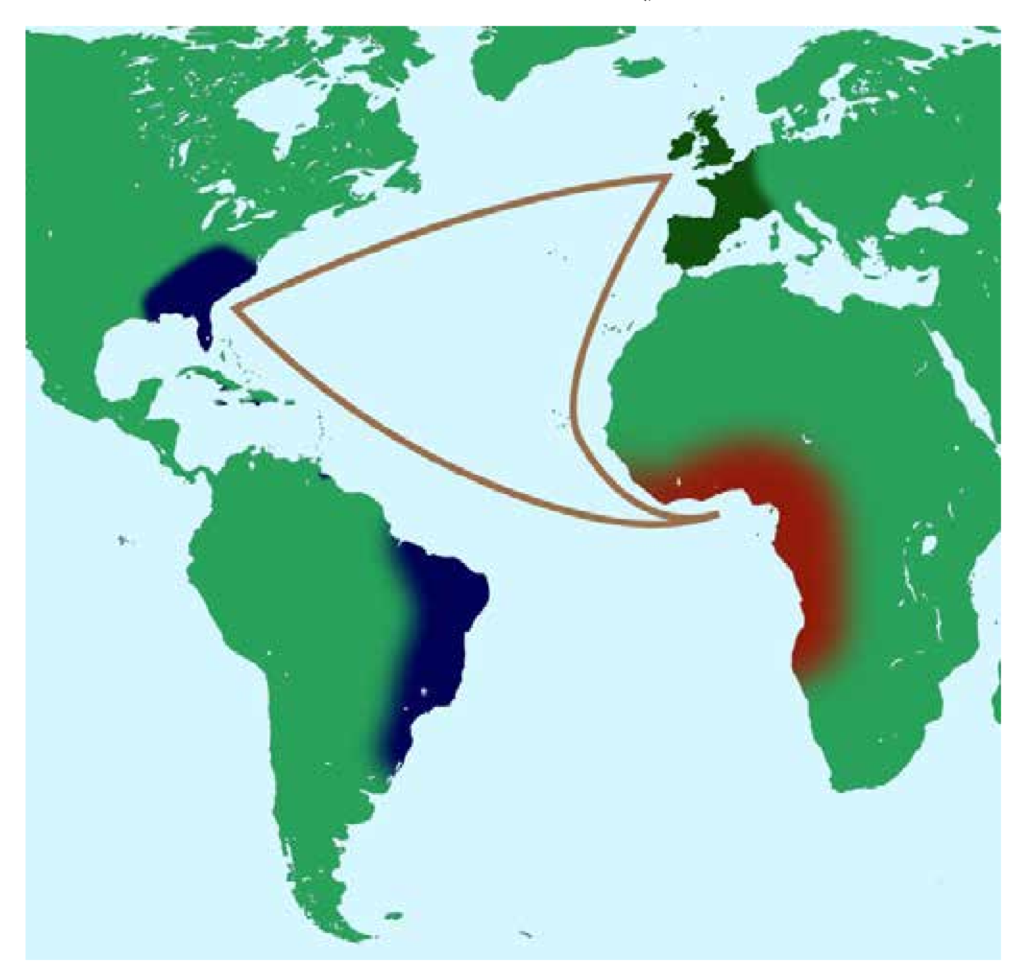
خريطة جسر يابسة بيرنجيا[4]



وتتعدد الادعاءات عن كشوف فرعونية[5] وفينيقية[6] وصينية[7] ويابانية[8] وإسكندنافية[9] وعربية – إسلامية[10] بنكهة أندلسية[11]، وكذلك عثمانية[12]، ولكن الحقيقة العلمية الثابتة هي أن الأوروبيين، بداية من رحلة كرستوفر كولومبوس[13] الأولى[14]، هم من اكتشفوا "العالم الجديد" واستعمروه وأبادوا الشعوب الأصلية فيه، واسترقوا شعوب أفريقيا عبيداً للعمل القهري في مزارعهم، ثم بنوا حضارة تتبوأ حالياً الصدارة على مستوى العالم.

بحلول أوائل القرن السابع عشر، انتشرت مجتمعات المهاجرين الأوروبيين على الساحل الشرقي. البريطانيين في نيوإنجلاند وفرجينيا، الإسبان في فلوريدا، والهولنديين في نيويورك، والسويديين في ديلاوير. تبعهم المنفيون الألمان هرباً من الاضطهاد المذهبي ومن أجلِ الحرية الدينية. وسعى آخرون (كالإيرلنديين) من أجل الفرص الاقتصادية الأكبر والحياة الكريمة. تبع ذلك خطف ملايين من الأفارقة المستعبدين[15]، الذين وصل منهم 5% فقط أحياء بعد رحلة العذاب الطويلة لعبور المحيط الأطلسي[16].

خريطة طريق الاستعباد الثلاثي (من غرب أفريقيا إلى بريطانيا، ثم الأميريكيتين)[17]



فكرة المواطنة الأميركية

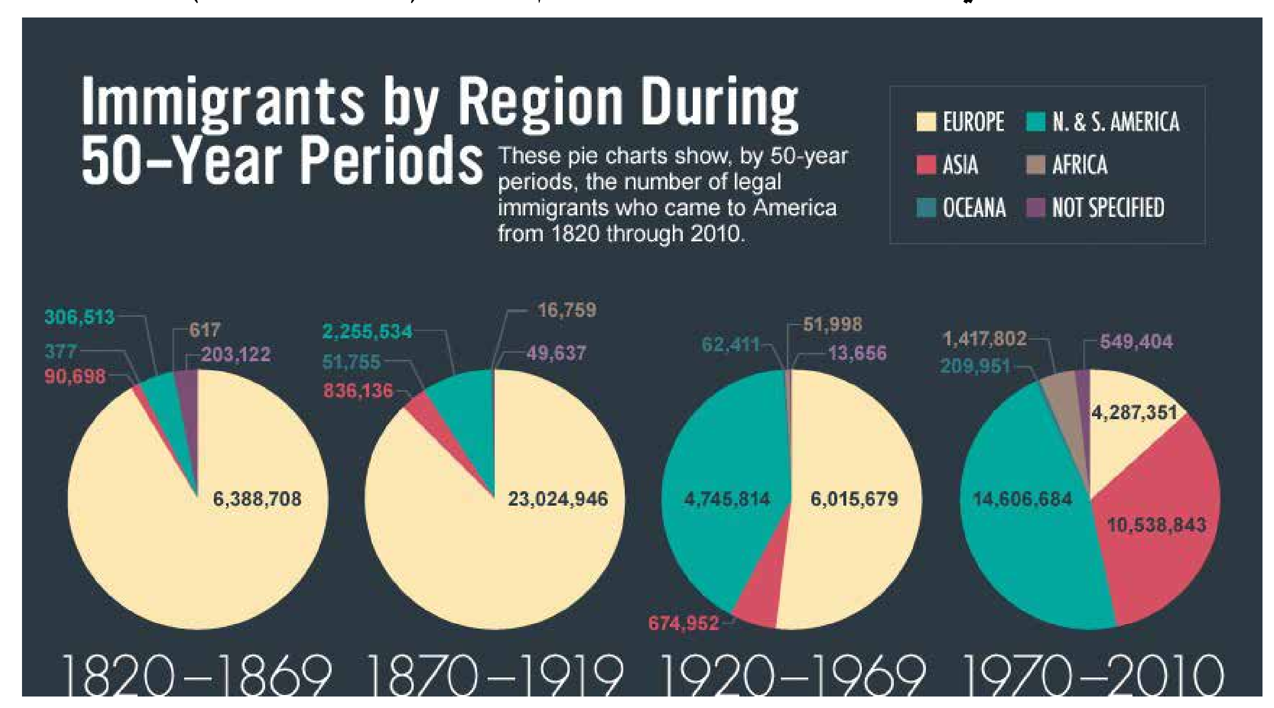
وسط الشعور العام لمواطني المستعمرات الثلاثة عشر[18] المتذمر والغاضب من الهيمنة الاستعمارية البريطانية، نشر المفكر توماس باين[19] كتيباً بعنوان "المنطق السليم"[20] في كانون الثاني 1776 يناقش فيه ويدعو إلى الاستقلال الأمريكي بطريقة عقلانية المظهر ثورية المضمون. وفي ذلك الوقت كان معظم المستعمرين يصنفون أنفسهم بأنهم بريطانيين، لكن باين طرح مفهوم المواطن الأميركي كهوية وطنية. ويكتب باين قائلاً: "أوروبا ، وليس إنجلترا، هي البلد الأم لأمريكا. لقد كان هذا العالم الجديد هو ملجأ لعشاق الحرية الدينية والمدنية، الهاربون من الاضطهاد من كل جزء من أوروبا ".

وبعد أن تحقق للوطنيين الأميركيين ما أرادوا ونالت أمتهم الوليدة استقلالها، أصدر الكونجرس في آذار 1790 أول قانون حول من يجب منحه الجنسية الأمريكية. يسمح قانون التجنيس لعام 1790 [21] لأي شخص أبيض حر "حَسَن الخلق" يعيش في الولايات الثلاث عشر منذ عامين أو أكثر بالتقدم للحصول على الجنسية الأميركية. ودون الجنسية، يُحرم من الحماية الدستورية الأساسية، بما في ذلك الحق في التصويت أو التملك أو الشهادة في المحكمة. ولم تمضي شهور حتى تمَّ إجراء أول تعداد للسكان في شهر آب من العام نفسه. الناطقين باللغة الإنجليزية مثلوا أكبر مجموعة عرقية من بين 3.9 مليون مواطن تمَّ إحصاؤهم، مع تجاهل تام للعبيد الأفارقة، رغم أنهم يشكلون 20% من مجموع السكان في تلك الولايات.

ومع بداية العام 1815، بدأت علاقات أميركا مع مستعمرها القديم تتحسن نظراً للتطورات المتسارعة على الصعيد الأوروبي. وتدريجياً عاد الود الدبلوماسي والتبادل التجاري بين الولايات المتحدة وبريطانيا بعد الحرب الضروس وطرد النفوذ الإنكليزي من التراب الأميركي[22]. وبذلك تَحَوَّلْت الهجرة من أوروبا الغربية من أعداد هزيلة إلى موجات تدفق كبيرة، مما أَدَّى إلى تَحَوُّل في التركيبة السكانية للولايات المتحدة، بخاصة مع استمرار هذه الموجة الرئيسية الأولى من الهجرة حتى اندلاع الحرب الأهلية.

بين عامي 1820 و1860، مثَّل الإيرلنديون ومعظمهم من الكاثوليك (بعكس المواطنين الحاليين وغالبيتهم العظمى من البروتستانت)، ما يقدر بثلث المهاجرين إلى الولايات المتحدة. وقدم كذلك حوالي 5 ملايين مهاجر ألماني، توجه الكثير منهم إلى الغرب الأوسط لشراء الأراضي الخصبة وإقامة المستعمرات الزراعية، فيما فضلت أقلية منهم الاستقرار في المدن الرئيسية، بالأخص ميلووكي وسانت لويس وسينسيناتي.

نسبة المهاجرين إلى الولايات المتحدة وفقاً لبلدانهم الأصلية (1820 – 2010) [23]



ولقد أصيب العديد من الوافدين الجُدُد بالأمراض، وتوفي الكثير منهم تبعاً لرحلتهم الشاقة الطويلة عبر المحيط الأطلسي في ظروف صعبة وغير إنسانية (وإن كانت ارحم من رحلات استعباد العبيد الأفارقة). ومن شُفِيَ وتعافى منهم كانت وجهته المدن الساحلية الكبرى، تحديداً نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا وتشارلستون، حيث ساهموا في إحياء هذه الحواضر وإعمارها. ومع هول مُصاب هؤلاء المهاجرين وحالتهم الصحية السيئة، أَصدَرَ المشرعون الأميركيون **قانون التوجيه لعام 1819**[24]، والذي يشترط ظروفاً أفضل على السفن القادمة إلى الولايات المتحدة تراعي سلامة المسافرين. وكذلك يفرض القانون على قباطنة وطواقم السفن تقديم معلومات ديموغرافية عن هوية الركاب، وبذلك تم إنشاء وتدوين أول سِجلات فيدرالية عن التكوين العرقي للمهاجرين، وبالتالي كانت تعرف عقائدهم الدينية.

وسط الترحيب الشعبي والتساهل الحكومي والرعاية القانونية والحماية التشريعية، برزت ردات فعل شعبية سلبية بصبغة عنصرية تجاه القادمين الجدد. فتم في العام 1849 تشكيل كأول حزب سياسي مُنَاهِض لاستقبال المهاجرين في أمريكا، أطلق عليه في البداية حزب "لا يعرفون شيء"[25]، وكان ردة فعل غوغائية على العدد المتزايد من المهاجرين الألمان والأيرلنديين وسط الأغلبية البروتستانتية المحافظة البيضاء.

هذا التنافر الأبيض – الأبيض كان مقدمة لصراع عنصري أكبر أدى إلى الصدام الداخلي بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي. كان من أهم شعارات الشمالية أثناء الحرب الأهلية الأميركية[26] هو إلغاء نظام الرق وتحرير العبيد وإعطائهم حريتهم، لذلك وبعد هزيمة الكونفدراليين الجنوبيين أعلَنَت المحكمة العليا في عام 1875 أنَّه من مسؤولية الحكومة الفيدرالية (المركزية) أن تَضَع وَتُنَفِّذ قوانين الهجرة[27].

بعد حلول السلام وبداية الاستقرار انطلقت فترة زاهية من العمران والازدهار، ليبدأ تدفق موجة الهجرة الثانية. فبين عامي 1880 و1920، وَصَلَ أكثر من 20 مليون مهاجر. مُعظَمُهم من جنوب وشرق ووسط أوروبا، الكتلة الكبرى من إيطاليا تقدر بأربعة ملايين وافد (وهم بالطبع كاثوليك)، ولقد استقر العديد منهم في المدن الأمريكية الكبرى وعملوا في المصانع[28].

قانون الإقصاء الصيني واستهداف اليابانيين

منذ العام 1848، ازداد عدد المهاجرين الصينيين للعمل في الولايات المتحدة الأميركية بشكل كبير. فبالتزامن مع ظهور حمى الذهب بكاليفورنيا، أقبل الصينيون بكثافة نحو الأراضي الأميركية هرباً من ويلات الفقر الذي كان متفشيا بوطنهم. أقدم المسؤولون بولاية كاليفورنيا على إرساء قوانين عجّلت بإقصاء الصينيين من مواقع التنقيب عن الذهب، ولذلك اتّجه هؤلاء الآسيويون لإنشاء عدد من الأحياء القصديرية قرب كبرى المدن، خاصة سان فرانسيسكو، ولجأوا للعمل بعدد من الوظائف الخطيرة والصعبة، كمشاريع تشييد خطوط السكك الحديدية ومناجم الفحم والتعدين، وكذلك التنظيف في المطاعم، وذلك مقابل أجور زهيدة مقارنة بتلك التي يحصل عليها المواطنون الأميركيون.

في العام 1882 تمَّ تمرير قانون الإقصاء الصيني[29] الذي يمنع المهاجرين الصينيين من دخول الولايات المتحدة. وابتداء من خمسينيات القرن التاسع عشر كان التدفق المستمر للعمال الصينيين إلى أمريكا كهجرة كثيفة قد تصاعد.

وكان الوافدون يعملون في مناجم الذهب ومصانع الملابس وبناء السكك الحديدية والوظائف زراعية. فنَمَت المشاعر المعادية للصينيين مع نجاح العمال والحرفيين في أمريكا. وعلى الرغم من أنَّ المهاجرين الصينيين يشكلون 0.002 في المائة فقط من سكان الولايات المتحدة، إلا أنَّ العمال البيض كانوا يلومونهم على تدني الأجور. وعلى الرغم من نسبتهم الضئيلة بالنسيج الديموغرافي الأميركي، غادر العديد من الصينيين الأراضي الأميركية وسط موجة من الكراهية، مفضلين العودة لعائلاتهم ووطنهم. فخلال العام 1880 قدّر عدد الصينيين بأميركا بنحو 105,465، وقد تراجع هذا العدد لقرابة 90,000 مهاجر في سنة 1900 قبل أن ينخفض لنحو 85,202 وافد سنة 1920.

جدول: نسبة تواجد العرق الصيني في الديموغرافيا الأميركية[30]

Year	Total U.S. population	Of Chinese origin	Percentage
1840	17,069,453	not available	n/a
1850	23,191,876	4,018	0.02%
1860	31,443,321	34,933	0.11%
1870	38,558,371	64,199	0.17%
1880	50,189,209	105,465	0.21%
1890	62,979,766	107,488	0.17%
1900	76,212,168	118,746	0.16%
1910	92,228,496	94,414	0.10%
1920	106,021,537	85,202	0.08%
1930	123,202,624	102,159	0.08%
1940	132,164,569	106,334	0.08%
1950	151,325,798	150,005	0.10%
1960	179,323,175	237,292	0.13%
1970	203,302,031	436,062	0.21%
1980	226,542,199	812,178	0.36%
1990	248,709,873	1,645,472	0.66%
2000	281,421,906	2,432,585	0.86%
2010	308,745,538	3,794,673	1.23%

وكان **قانون العام 1882** هو التشريع الأول في التاريخ الأمريكي الذي يفرض قيوداً واسعة على مجموعات معينة من المهاجرين، وفقاً لأصولهم العرقية. واشترط القانون على الساعين إلى الدخول الى الأراضي الأميركية الحصول على شهادة من الحكومة الصينية بأنهم مؤهلون للهجرة. وحدد أن المستبعدين من المجيء إلى الأراضي الأميركية هم "العمال المهرة، وغير المهرة، والصينيون العاملون في مجال التنقيب"، وبالتالي فإن قِلة من الصينيين تمكنوا من دخول البلاد بموجب هذا التعجيز القانوني. النطاق الضيق الذي كان يمكن استقباله هو الدبلوماسيين، ورجال الأعمال الأثرياء، وخدم المنازل، وجميعهم عليهم الحصول على الشهادة المناسبة للتحقق من أوراق اعتمادهم.

ثم استثنى **قانون الهجرة لعام 1891** [31] هجرة متعددي الزوجات والأشخاص المُدانين بجرائم والمرضى. كما أنشأ القانون مكتباً اتحادياً للهجرة، وذلك للتحقق من إنفاذ قوانين الهجرة الصادرة. وتم توظيف ونشر مجموعة من المفتشين الحكوميين الذين ترصدوا في موانئ الدخول الرئيسية.

وأثناء تلك الفورة العنصرية تجاه العرق الأصفر تمَّ افتتاح جزيرة إليس[32] في كانون الثاني 1892، وكانت أول محطة تطأ فيها أقدام المهاجرين الأرض الأميركية بعد رحلتهم البحرية (الآمنة نسبياً وفقاً للقوانين السابقة) في عُبَاب الأطلسي. وهذه الجزيرة تقع مقابل ميناء نيويورك. وأول من استقبله مركز التدقيق هو ملف "آني مور[33]"، وهي مراهقة من مقاطعة كورك في أيرلندا. ودَخَل عبر جزيرة إليس بين عامي 1892 و1954 أكثر من 12 مليون مهاجر[34] لهثاً وراء الحلم الأميركي.

وفي عودة للهجرة الشرق آسيوية، كان هناك أزمة في العلاقات اليابانية– الأميركية بسبب الهجرة اليابانية المكثفة التي انطلقت نحو العالم بعد إنهاء عقود العزلة[35]، والتي كانت إحدى محطاتها الولايات المتحدة الأميركية[36]، بخاصة جزيرة هاواي وولاية كاليفورنيا. لكن تمّ حلّها جزئياً في شهر شباط من العام 1907، حيث تمّ توقيع اتفاق بين الولايات المتحدة الأميركية واليابان للحدّ من الهجرة اليابانية[37]. فوسط التحيزات في كاليفورنيا والادعاء بأنَّ تدفق العمال اليابانيين سيُكلِّف العمال البيض خسارة وظائفهم (خصوصاً في الحقل الزراعي) وبالتالي انخفاض الأجور ليطال الجميع، وَقَّعَت الولايات المتحدة واليابان على تفاهم مشترك Gentleman's Agreement [38]. نتيجة لهذا الاتفاق الأولي حُصِرَت مواصفات اليابانيين الذين يحق لهم بالإقامة في الولايات المتحدة بالمقيمين السابقين إضافة إلى عائلاتهم وزوجاتهم وأطفالهم[39]. في المقابل، حثَّ الرئيس ثيودور روزفلت سان فرانسيسكو على إنهاء الفصل بين الطلاب اليابانيين والطلاب البيض في المدارس.

تشريعات مشددة مع بداية كل حرب العالمية جديدة

وصل رُهاب الأجانب[41] في الداخل الأميركي إلى مستويات عالية مخيفة عشية التدخل العسكري لواشنطن في الحرب العالمية الأولى[42]. فَنَصّ **قانون الهجرة لعام1917**[43] على شرط محو الأمية للمهاجرين الذين يدخلون البلاد، وأوصد باب الهجرة من معظم الدول الآسيوية.

ثم حدَّد **قانون الهجرة لعام 1924** [44] عدد المهاجرين المسموح لهم بدخول الولايات المتحدة سنوياً من خلال حصص الجنسية. بموجب نظام الحصص الجديد، تُصدِر الولايات المتحدة تأشيرات الهجرة إلى 2% من إجمالي عدد الأشخاص من كل جنسية المتواجدين في الولايات المتحدة وفقاً لتعداد العام 1890، وبذلك حابى القانون المهاجرين من دول شمال وغرب أوروبا. ووفقاً للشروط التعجيزية حصلت ثلاث دول (بريطانيا وأيرلندا وألمانيا) على 70% من مجمل التأشيرات المتاحة. وكانت نسبة القادمين من جنوب ووسط وشرق أوروبا محدودة، فكان الاستهداف للآسيويين تحديداً، باستثناء الفلبين، والتي كانت تحت السيطرة الأميركية[45].

في أعقاب الحدود العددية التي وَضَعَها قانون 1924، زادت الهجرة غير الشرعية إلى الولايات المتحدة. تمَّ إنشاء دورية الحدود الأمريكية [46] U.S. Border Patrol للقضاء على المهاجرين غير الشرعيين الذين يَعبُرُون الحدود المكسيكية والكندية إلى الولايات المتحدة. وكان العديد من هؤلاء العابرين للحدود من الصينيين) وغيرهم من المهاجرين الآسيويين(، الذين مُنِعوا من الدخول بشكلٍ قانوني.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وتسخير كل الطاقات الأميركية في الحرب بعد صدمة اليابانية بالهجوم على بيرل هاربور[47]، تجلى نقص العمالة مع بداية العمليات القتالية[48] بسبب النفير العام واستدعاء جميع الشباب إلى الخدمة العسكرية الإجبارية. فتعاونت الحكومة الأميركية مع المكسيك، فتم استحداث برنامج باريكو[49]، الذي سَمَح للعمال الزراعيين المكسيكيين بالدخول والعمل في الولايات المتحدة بصورة مؤقتة، ولقد استمر تعاون الدولتين من خلال هذا البرنامج حتى العام 1964.

ومع تزايد الحاجة إلى اليد العاملة أصدرت واشنطن في عام 1953 **قانون ماكاران – والتر**[50] الذي ينهي رسمياً استبعاد استقبال المهاجرين الآسيويين في مختلف الولايات الأميركية (خاصة الجنوب غربية).

وبعد دمار ودموية الحربين العالميتين عاش العالم على وقع مواجهة شاملة جديدة عرفت بالحرب الباردة [51]، وكان على الولايات المتحدة هذه المرة واجب استقبال الفارين من الستار الحديدي السوفياتي، وإغراء المنشقين من أصحاب الكفاءات باللجوء إلى العالم الحر (بزعمها).

الموجة الكبرى من المهاجرين الفارين والذين تقدر أعدادهم بحوالي 38 ألف إنسان هربوا من أوروبا الشرقية بعد مجزرة ربيع براغ[52]، ووصل عدد اللاجئين من الكتلة الشرقية إلى حوالي ثلاثة ملايين إنسان على مر عقود الحرب الباردة[53].

هذا الصراع العالمي اقترب خطره من السواحل الأميركية بعد نجاح الثورة الكوبية[54] بقيادة فيدل كاسترو[55]. وفي ذروة المنازلة بين قادة البيت الأبيض وثوريي هافانا، نفذت الاستخبارات الأميركية بالتعاون مع الكنيسة الكوبية عملية بيتر بان[56]، وفيها تم نقل ما يقرب من 14,000 طفل كوبي خلال تلك العملية السرية إلى الولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1960 – 1962. كانت الطبقة الوسطى الكوبية والفئات الأكثر تديناً عرضة لحملة إعلامية شرسة ادعت بأن الحكومة الشيوعية ستقوم بانتزاع الأطفال من حضن عائلاتهم لتقوم بتربيتهم في مؤسسات حكومية وفقاً لمبادئ الماركسية العالمية، مما أثار هلع الأهالي الذين تخلوا عن أطفالهم بطيب خاطر من أجل الحفاظ على كينونتهم وشخصيتهم وعقائدهم[57].

وبعد الأطفال، ازدهرت الهجرة الغير الشرعية للكوبيين البالغين نحو مدينة ميامي الأميركية تحديداً، وسط تغاضي السلطات المحلية وتشجيع الأجهزة الأميركية. ولما ضاق فيديل كاسترو ذرعاً بالاستفزازات الأميركية، أعلن أن ميناء ماريل البحري[58] مفتوح لكل من يرغب بمغادرة الجزيرة، وقامت السلطات الكوبية بحشر المساجين والمدمنين والمرضى في ذلك الحيّز الجغرافي الضيّق، حيث قام ما يقرب من 125,000 لاجئ بعبور المضيق الفاصل مع سواحل ولاية فلوريدا في قوارب مكتظة متهالكة طلباً للجوء السياسي والإنساني[59].

وفي الداخل الأميركي صدر العام 1965 **قانون الهجرة والجنسية**[60] كنظام هجرة أمريكي أنهى نظام "الكوتا" السابق وألغى القانون الجديد حصص الأصل القومي التي سُنَّت في عشرينيات القرن الماضي، والتي كانت تُفَضِّل بعض المجموعات العرقية والاثنية والدينية (البيض والأوروبيين، وفي طليعتهم البروستانت حصراً) على غيرها من الأجناس البشرية المتنوعة والمتساوية.

ووفقاً للأطر الجديدة تم العمل بنظام تفضيل من سبع فئات يُرَكز على لم شَمِل الأسرة والمهاجرين المهرة. عند التوقيع على مشروع القانون الجديد، وَصَفَ الرئيس ليندون جونسون[61] نظام الهجرة القديم بأنَّه "غير أمريكي"، وقال إنَّ مشروع القانون الجديد سيصحح "خطأ قاس في سلوك الأمة الأمريكية"[62].

وبعيداً عن جغرافية القارة الأميركية، كان التدخل الأميركي في الحرب الفيتنامية[63] عاملاً جديداً لاستقبال المزيد من اللاجئين السياسيين الهاربين بعد سيطرة الحكومة الشيوعية على سايغون عاصمة الديكتاتورية بصبغتها الليبرالية. أكثر من 130000 لاجئ فيتنامي فروا إلى الولايات المتحدة بوصفهم عملاء لواشنطن، خوفاً من مواجهة المصير الأسود المحتوم، وكان الواجب الأخلاقي المفروض على الأميركيين، بضغط من البنتاغون، هو استقبال هؤلاء الموالين والحلفاء (الخونة والعملاء بنظر شعبهم)[64].

وعلى مدى السنوات الخمس التالية ستزداد الهجرة من المناطق التي مزقتها الحرب في آسيا، بما في ذلك لاوس وكمبوديا، وأصبح لم شمل الأسرة قوة دافعة للهجرة إلى أميركا[65] بقوة القانون، ليضطر الرئيس رونالد ريغان[66] على توقيع **قانون سيمبسون – مازولي**[67]، الذي يمنح العفو لأكثر من 3 ملايين مهاجر يعيشون بشكل غير قانوني في الولايات المتحدة، فيما تساهلت سلطات الهجرة أكثر مع الطلبات الإنسانية للم شمل العائلات.

ومع بداية الألفية الثانية اقترح المشرعون الأميركيون في العام 2001 أول **قانون لتطوير وإغاثة وتعليم القُصَّر الأجانب**[68] وهدفه تشكيل مسار قانوني لأبناء المهاجرين غير المسجلين رسمياً، واللذين أحضروا إلى الولايات المتحدة بشكل غير قانوني من قبل والديهم.

وفي ظل تسلم الإدارة الديمقراطية للحكم في البيت الأبيض وقَّع الرئيس باراك أوباما[69] في العام 2011 **قانون العمل المؤجل للأطفال الواصلين**[70] الذي يحمي مؤقتاً بعض هؤلاء الأطفال من الترحيل القصري، ولكنه لا يُوفر سبيلاً للحصول على الجنسية. ولكن مع عودة الجمهوريين إلى الحكم أصدر الرئيس دونالد ترامب[71] أمرين تنفيذيين[72]، كلاهما بعنوان "**حماية الأمة من دخول الإرهابيين الأجانب إلى الولايات المتحدة**"[73]، يهدفان إلى الحد من منح تأشيرات الدخول لمواطني ست دول إسلامية هي تشاد وإيران وليبيا وسوريا واليمن والصومال، وكذلك كوريا الشمالية وفنزويلا. ولقد تم الطعن بقانونية حظر السفر في محاكم الولايات والمحكمة الفيدرالية. وفي نيسان 2018، تمَّ رفع قيود السفر على التشاديين، تلا ذلك في حزيران العام نفسه تأييد المحكمة العليا الأمريكية نسخة ثالثة من الحظر المفروض على الدول السبع المتبقية[74].

نسبة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية عبر العقود[75]



الهجرة اللبنانية إلى الولايات المتحدة الأميركية[76]

منذ العهد الفينيقي كان سكان لبنان من المغامرين الذين شقوا عباب البحار بحثاً عن توسيع موارد رزقهم وزيادة غلالهم وتقوية مكانتهم الاقتصادية، كذلك هرباً من الغزوات الخارجية والصراعات بين "المدن – الدول" والاضطهاد الديني.

أما في العصر الحديث فيمكننا تقسيم مراحل الاغتراب اللبناني إلى المراحل الزمنية التالية:

المرحلة الأولى (1840 – 1914)

انطلقت باكورة الهجرة من لبنان إلى القارة الأميركية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما كان جبل لبنان مسرحًا للعديد من النزاعات الإقليمية والدولية التي أدت إلى حروب أهلية بين أبنائه[77]، خاصة خلال الأعوام 1840 و1860، ولما انتهت فتنة عام 1861 أقرت الدولة العثمانية في عهد "التنظيمات الإدارية" نظام "المتصرفية"[78]، ليتمتع جبل لبنان بشبه كيان يختلف عن ولايات بيروت وطرابلس العثمانية[79].

وعلى صعيد "الهروب المتسارع" من أراضي المتصرفية عمدت السلطات المستحدثة إلى "تنظيم" الهجرة عبر وضع سلسلة من الشروط على المغادرين. فألزم المهاجر على أن يحمل "جواز سفر"، والمسافر "تذكرة سفر"، وكما حدّدت شروط الانتقال إلى الخارج على الشكل الآتي:

1- "العلم والخبر" يأخذه كلّ مسافر من شيخ قريته ويتضمّن إقراراً بعدم وجود دعاوى بحقّه (يشبه اليوم السجل العدلي).

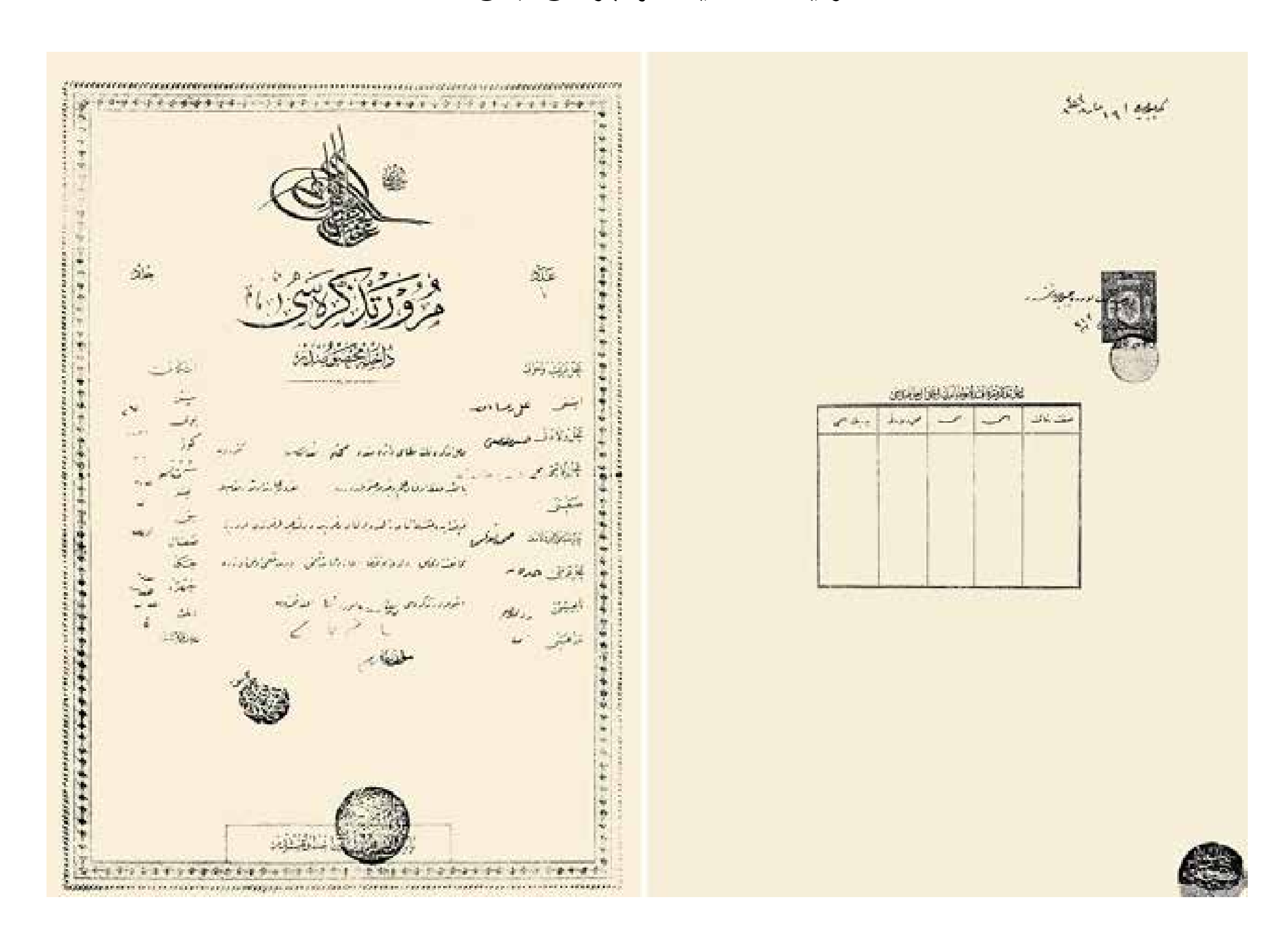
2- "الكفالة" يقدّم كلّ مسافر كفالة إلى حكومته بمعرفة شيخ صلح قريته (تشبه الكفالة المصرفيّة).

3- "العريضة"، وهي أشبه بالطلب، تُرفع إلى مقام المتصرفيّة للحصول على باسبورت أو تذكرة سفر.

4- "الرسم القانوني" البالغ عشرة قروش صاغ، واليوم يستوفى رسم مماثل يعتمد فيه رسم الطوابع.

5- "الرقيم" وهو الإذن بالسفر، الذي يحصل عليه المسافر أو المهاجر من المتصرفيّة، فيقدّمه إلى "قومسيون بيروت" فيسهل سفره. والرقيم يشبه اليوم الباسبور[80].

وثيقة عثمانية لمهاجر من لبنان[81]



اعتمد المهاجرون اللبنانيّون على التجارة كمصدر رزق، عكس كونهم بالأصل مزارعين، واشتهروا في الغرب بأنهم تجار "الكشّة" (وهي كلمة برتغالية وتعني الصندوق). الكشةلا تتطلب الخبرة والعلم، ولا الرأسمال ولا مهارات لغوية متقدمة، وهي ذات مردود مادي سريع، واستقلالية في العمل، وهي حرة لا دوام عمل لها، عدتها صندوق خشبي تصل زنته أحياناً إلى 50 كلغ، يحمله البائع على ظهره ويسير به مسافات طويلة تبدأ عند الفجر ولا تنتهي إلا عند غروب الشمس. وكانوا يضعون في الصندوق بعض الحاجيات من خيوط وإبر ودبابيس وجوارب وصابون وعلب السجائر وأمشاط ومرايا وعطور وألبسة داخلية وأنسجة وثياب جاهزة، ثم يبيعونها في شوارع المدن وفي الأرياف.

أهم دوافع الهجرة في فترة الاستقرار تمحورت حول جور رجال الإقطاع، والضغط الديموغرافي الناجم عن أعداد سكانية كثيفة على مساحة جغرافية محدودة[82] والاضطرابات الدينية والاجتماعية[83] التي استمرت بشكل أو آخر بسبب تداعيات النزاع الأهلي. كذلك ساعدت أخبار جنيّ المال والنجاح التي حققها المهاجرون الأوائل في الأميركيتين في تنامي هذه الهجرة وتشجيع اللبنانيين على الالتحاق بهذه البلدان[84].

وقد سجلت الهجرة ارتفاعاً ملحوظاً بين عام 1903 و1906 إذ ارتفعت من 15.97% عام 1903 إلى 18.21% عام 1906 ويشير الإحصاء الرسمي لعدد المهاجرين لعامي 1913 و1914 إلى 100,657 مهاجر لبناني من أصل 407,750 وهو عدد سكان المتصرفية[85]، والتي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، ومن هنا كان الخلط الاثني، فهل المهاجرون هم أتراك أم عرب أم شاميون أم لبنانيون؟[86]

المرحلة الثانية (1918 – 1948)

توقفت الهجرة مؤقتاً خلال أحداث الحرب العالمية الأولى, بيد أن الوضع اختلف بعد انتهائها وزوال السلطنة العثمانية، وإنشاء دولة لبنان الكبير على يد الإنتداب الفرنسي[87]. الكيان الجديد ورث ولاية بيروت العثمانية وجعلها عاصمة له بعد ضم أقضية حاصبيا وراشيا وبعلبك والمعلّقة (عكار) إلى كيانه[88].

من رحم المعاناة وهرباً من آثار الحرب والمجاعة وسعياً لفرص حياتية أفضل كان عدد المغادرين سنوياً من لبنان حوالي 3250 نسمة خلال الفترة الممتدة من عام 1919 ولغاية عام 1933 [89]، ووصل إلى 4,400 مغادر مع نهاية الأربعينيات[90].

المرحلة الثالثة (1949 – 1974)

مع استقلال الجمهورية اللبنانية[91] هدأت موجات الهجرة من الأراضي اللبنانية بخاصة في العهد الشهابي[92]، فتضاءلت نسبة المهاجرين اللبنانيين إلى 17,256 نسمة في الفترة ما بين 1959 و 1967، لكن عاودت الهجرة الخارجية زخمها بعد عام 1968 وتداعيات أحداث المنطقة إقليمياً ومحلياً، ليصل عدد المهاجرين إلى حوالي 10,200 نسمة سنوياً. وهكذا وصل عدد المهاجرين إلى 131 ألف نسمة خلال الفترة الممتدة من عام 1959 وحتى عشية اندلاع شرارة الحرب الأهلية أواخر عام 1974 [93].

المرحلة الرابعة (1975 – 1990)

شهدت هذه المرحلة العصيبة العديد من الحروب والنزاعات أولها حرب السنتين 1975 – 1976 [94]، التي قسمت الوطن إلى منطقتين شرقية وغربية، وفي كل منهما تصارع أمراء الحرب على مناطق النفوذ. تلا ذلك الاجتياحين الإسرائيليين عامي 1978 و1982 مما غيّر تركيبة الصراع الذي استمر بأشكال أخرى، حتى انتهى ظاهرياً مع توقيع اتفاق الطائف عام 1990 [95].

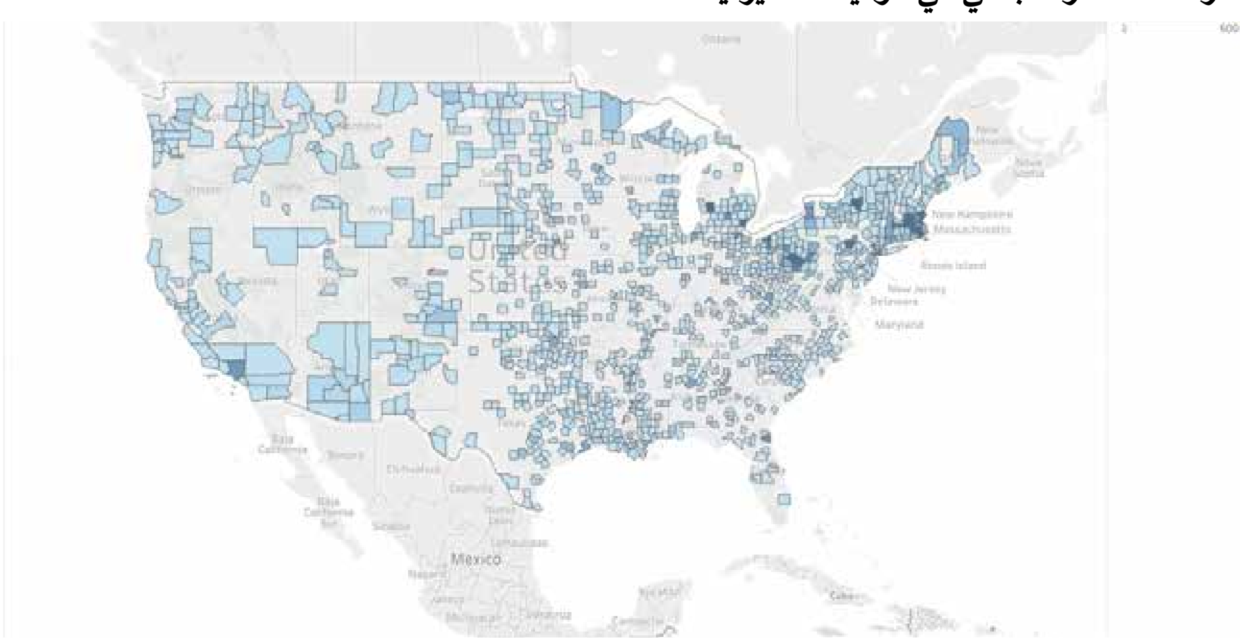
لقد بلغت أرقام أعداد المهاجرين ال50,000 [96]سنوياً خلال تلك السنوات السوداء من عمر لبنان، وهو عدد كبير بنسبة لشعب لا يتعدى تعداده الخمسة ملايين نسمة[97]، وهذا يهدد التركيبة الديموغرافية لأي كيان مستقل على صعيد العالم. إن العدد التراكمي للهجرة اللبنانية خلال سنوات الحرب من 1975 إلى 1990 بحوالي تسعمئة ألف نسمة، أي حوالي ثلث السكان المقيمين قبل اندلاع الحرب الأهلية[98].

المرحلة الخامسة (1991 – 2019)

لقد عاش لبنان شبه حالة من الاستقرار حتى عام 2005، ولكن مع التطورات المأساوية على الساحة اللبنانية عاد حلم الهجرة ليراود جميع أطياف الشعب اللبناني، بخاصة في ظل اهتزاز الوضع الأمني وتدهور الوضع الاقتصادي. حجم الهجرة الخارجية بين اللبنانيين وصل إلى 718,584 مهاجراً خلال العقد الأخير 2008–2017، أي بمتوسّط سنوي وصل إلى نحو 72 ألفاً[99] (أي أكثر من عدد المهاجرين سنوياً في فترة الأهلية). والذي زاد انهياراً في العام 2020 مع فقدان الليرة اللبنانية لقيمتها السوقية في ظل الأزمة المالية الطاحنة التي سببها النزاع السياسي الحاد بين الفرقاء اللبنانيين. مع دخول البلاد الأزمة الاقتصادية الجادة وتباطؤ النمو وتفشي البطالة وانعدام آفاق الرؤية أمام الفئة العمرية الشابة والمتعلمة، ازدادت أعداد الذين يسعون للهجرة بحثاً عن المستقبل ولقمة العيش، وتحولت الهجرة إلى حلم يجمع اللبنانيين بمختلف أطيافهم الدينية والمذهبية والحزبية والمناطقية.

أميركياً، وعبر التاريخ، استقر المهاجرون اللبنانيون في جميع أنحاء الولايات المتحدة[100]. البداية من الحواضر الساحلية لنيوإنجلاند، بخاصة أزقة نيويورك، ثم توجه الكثير منهم نحو الغرب الأوسط، حيث استوطنوا وافتتحوا المتاجر العامة والمصالح العائلية وشكلوا الجمعيات والنوادي الاجتماعية والرياضية. ثم أسس اللبنانيون جاليات مؤثرة في يوتيكا، بوسطن، لورانس، لويل، وسبرينغفيلد، ماساتشوستس؛ نهر فال، رود آيلاند، ودانبري، كونيتيكت، نيو أورليانز، لويزيانا، جاكسون فيل، فلوريدا، ديترويت وديربورن، ميشيغان وتوليدو، وأوهايو.كما توجد تجمعات كبيرة من اللبنانيين في الشمال الشرقي والغرب الأوسط. حيث تحتضن ديترويت واحدة من أكبر الجاليات من أصول اللبنانية في مدينة واحدة في العالم، وهناك جاليات حديثة تتشكل في لوس أنجلوس وهيوستن[101].

خارطة الانتشار اللبناني في الولايات الأميركية[102]



لقد التقى "الحلم الأميركي" مع "الطموح اللبناني" ليخسر وطننا كوكبة من خيرة أبنائه، ولكن هل يمكننا أن نلومهم؟

الهوامش:

1 Hoffecker, J., Powers, W., & Goebel, T. (1993) The Colonization of Beringia and the Peopling of the New World, Science, 259(5091), 46-53. (Retrieved October 20, 2020) http://www.jstor.org/stable/2880233

2 جسر يابسة بيرنجيا: كان عبارة عن جسر يابسة ربط بين ألاسكا وشرق سيبيريا خلال أوقات مختلفة من عصر البلستوسين الجليدي، وقد بلغ عرضه في فترات تاريخية متفاوتة 1,600 كيلومتر تقريباً من الشمال إلى الجنوب عند أقصى اتساع له. لم يتجمد هذا الجسر خلال فترة وُجوده لأن هطول الثلج كان خفيفاً جداً آنذاك، وذلك نتيجة لفقدان الرياح الشمالية الغربية القادمة من المحيط الهادئ لرطوبتها بعد تثلج سلسلة جبال ألاسكا بالكامل. سُميت جميع أراضي السهوب التي تمتد لمسافة عدة مئات من الكيلومترات داخل كلا القارتين الآسيوية والأمريكية، وبما في ذلك جسر اليابسة هذا بـ"بيرنجيا". يُعتقد اليوم أن عدداً ضئيلاً من القاطنين البشر لهذه المنطقة (بضعة آلاف على الأكثر) نجوا من آخر أقصى تجلد لبيرنجيا، الذين انعزلوا عن أسلافهم من البشر في آسيا لمدة 5,000 عام على الأقل قبل أن يُهاجروا للاستقرار في الأمريكيتين في وقت ما قبل 16,500 عام خلال أقصى تجلد متأخر، حيث انصهرت المثالج الأمريكية التي كانت تسد الطريق إلى القارتين.

Hoffecker, John F.; Elias, Scott A. (2007) Human ecology of Beringia, NY: Columbia University Press.

3 McGhee, R. (1989) Who Owns Prehistory? The Bering Land Bridge Dilemma, Canadian Journal of Archaeology / Journal Canadien D'Archéologie, 13, 13-20. (Retrieved October 20, 2020) http://www.jstor.org/stable/41102821

4 National Park Service, History of the Bering Land Bridge Theory (Retrieved October 21, 2020) https://www.nps.gov/bela/learn/historyculture/the-bering-land-bridge-theory.htm

5 Kehoe, A.B. (1998) The Land of Prehistory, A Critical History of American Archaeology, NY: Routledge, p. 266.

6 Carpenter, R. (1958), Phoenicians in the West, American Journal of Archaeology, 62(1), 35-53. doi:10.2307/500460

7 Gavin Menzies (2005) 1421: The Year China Discovered America, The Sixteenth Century Journal, 36(1), 276-278. (Retrieved October 13, 2020) http://www.jstor.org/stable/20477328

8 Quimby, G. (1985), Japanese Wrecks, Iron Tools, and Prehistoric Indians of the Northwest Coast, Arctic Anthropology, 22(2), 7-15. (Retrieved October 13, 2020) http://www.jstor.org/stable/40316086

9 Godfrey, W. (1955) Vikings in America: Theories and Evidence, American Anthropologist, 57(1), new series, 35-43. (Retrieved October 23, 2020) http://www.jstor.org/stable/665785

10 ذكر المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (896 – 957) في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" نقلاً عن أبو حامد الغرناطي أن أحد المغامرين من قرطبة واسمه الخشخاش بن سعيد بن الأسود، عبر بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى الأرض التي هي وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وقال الخشخاش لما عاد من رحلته بأنه وجد شعوباً وقبائل فيما بعد البحر حيث يكثر الذهب، وبذلك عندما رسم المسعودي خريطة للعالم، حيث حدّد بعد بحر الظلمات أرضاً سماها "الأرض المجهولة" وعلى دربه سار أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (1100 – 1166) مطلقاً عليها "الأرض الكبيرة".

الشريف الإدريسي ذكر في كتابه "الممالك والمسالك" قصة جماعة خرجوا ببواخر من أشبونة (لشبونة حالياً عاصمة البرتغال) وعَبَرَ هؤلاء المغامرون بحر الظلمات، ورجع بعضهم, وذكروا قصتهم وأنهم وصلوا إلى أرض وصفوها وخيراتها ووصفوا ملوكها، والغريب في الأمر أنهم ذكروا أنهم وجدوا أناساً يتكلمون بالعربية هناك (وهذا دليل على وصول العرب والمسلمين قبلهم إلى تلك الأنحاء)، وكانت التفاصيل قريبة من أو صاف الحالية للجزر الكاريبية وجزيرة كوبا.

وكذلك ذكر المؤرخ ابن فضل الله العمري (1301 – 1349) في كتابه "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي حاجي كانجا مانسا موسى (1280 – 1337) والذي يقال إنه أغنى رجل في التاريخ، لما توجه إلى الحج عام 1327 ميلادية، أخبر بأنه أرسل 200 سفينة عبرت المحيط نحو الضفة الأخرى المجهولة، ولم تعد أبداً.

Mohammed, Hamidullah (1968) Muslim Discovery of America before Columbus, Journal of the Muslim Students' Association of the United States and Canada 4 (2), p. 7-9.

11 Armstrong, K. (1992) The Andalus Legacy - A New World Discovered: An Old World Destroyed, European Judaism: A Journal for the New Europe, 25(2), 3-11. (Retrieved October 23, 2020) http://www.jstor.org/stable/41432742

12 McIntosh, G., & Thrower, N. (2000) The Piri Reis Map of 1513, University of Georgia Press. (Retrieved October 5, 2020) http://www.jstor.org/stable/j.ctt46ng16

13 كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus (1451 – 1506) رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا). ولد في مدينة جنوة في إيطاليا، حيث درس الرياضيات والعلوم الطبيعية وعلوم الفلك في جامعة بافيا. عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى الجزر الكاريبية في 12 أكتوبر 1492م لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام 1498 م. اسم كولومبيا، وهي أحد أقطار أميركا اللاتينية مستند إلى اسمه.

Wilford, John Noble (1991) The Mysterious History of Columbus: An Exploration of the Man, the Myth, the Legacy, New York: Alfred A. Knopf.

14 Dyson, John (1991) Columbus: For Gold, God and Glory, NY: Madison Press Books, p. 102.

15 Schermerhorn, C. (2015) The Business of Slavery and the Rise of American Capitalism 1815-1860, NY: Yale University Press.

16 12.000.000 مليون إنسان (بين رجل وامرأة وطفل) هو العدد التقريبي للبشر المختطفين من القارة السمراء الذين تم اقتيادهم للعالم الجديد. وصل منهم سالماً 600.000 إنسان فقط، أي 5%.

17 Randall, Miller & John Smith (1988) Dictionary of Afro-American Slavery, NY: Praeger Publishers, p. 678.

Ostrander, G. (1973) The Making of the Triangular Trade Myth, The William and Mary Quarterly, 30(4), 635-644. doi:10.2307/1918599

18 المستعمرات الثلاث عشرة Thirteen Colonies، هي مجموعة من مستعمرات التاج البريطاني على الساحل الأمريكي للمحيط الأطلسي. أسست في القرن السابع عشر والثامن عشر، وأعلنت استقلالها عام 1776، لتؤسس الولايات المتحدة الأميركية. امتلكت هذه المستعمرات أنظمة سياسية ودستورية وقانونية متشابهة جدًا، وكان يُسيطر عليها البروتستانت المتحدثين بالإنجليزية، وهي : ديلاوير، پنسلڤانيا، نيوجرزي، جورجيا، كنتيكت، خليج مساتشوستس، ماريلاند، كارولينا الجنوبية، نيو هامپشر، ڤرجينيا، نيويورك، كارولينا الشمالية، ورود آيلاند ومزارع پروڤيدنس.
Richter, Daniel (2011) Before the Revolution: America's ancient pasts, Massachusetts: Belknap Press.

19 توماس باين Thomas Paine (1737 – 1809)، كاتب أمريكي ومنظّر سياسي، أصدر كتيب "المنطق السليم" ومقالات أو راق الأزمات، فكان تأثيرات مهمة على الثورة الأمريكية. الأعمال الأخرى التي ساهمت في سمعته كواحد من أكبر الدعاة السياسيين في التاريخ كانت حقوق الإنسان، والدفاع عن الثورة الفرنسية والمبادئ الجمهورية؛ وعصر العقل، وعرض لمكانة الدين في المجتمع.
Harlow, Giles Unger (2019) Thomas Paine and the Clarion Call for American Independence, New York: Da Capo Press.

20 المنطق السليم Common Sense هو كتيب ألفه توماس باين ثم أصدره العام 1775، وفيه يدعو إلى الاستقلال عن االامبراطورية الاستعمارية البريطانية، وكذلك نادى بوحدة مصير المستعمرات الثلاثة عشر وتميزها. لقد كتب نثر واضح ومقنع، نظم فيه الحجج الأخلاقية والسياسية لتشجيع عامة الناس في المستعمرات على النضال من أجل حكومة المساواة. تمَّ نشر الكتاب في 10 كانون الثاني 1776 ، في بداية الثورة الأمريكية، وحقق انتشاراً سريعاً بين أفراد الشعب برضى السلطات المحلية.
Thomas Paine: Common sense. (n.d.). US History. https://www.ushistory.org/paine/commonsense/

21 The Naturalization Law of 1790 (1 Stat. 103) : قانون التجنيس لعام 1790 (1 Stat.103) صدر عن كونغرس الولايات المتحدة في 26 آذار 1790، ووضع القواعد الأولى لمنح الجنسية الأمريكية عن طريق التجنس. حَصَر القانون التجنس على "الشخص (الأشخاص) الحر ... من ذوي السمعة الحسنة"، وبالتالي استبعد الأمريكيين الأصليين والخدم بعقود والعبيد والسود الأحرار والآسيويين اللاحقين، مع السماح للسود الأحرار بالمواطنة على مستوى الولاية في عدد من الولايات.
A century of lawmaking for a new nation: U.S. congressional documents and debates, 1774 – 1875. (n.d.). American Memory: Remaining Collections. https://memory.loc.gov/cgi-bin/ampage?collId=llsl&fileName=001/llsl001.db&recNum=226

22 HICKEY, D. (2012) The War of 1812: A Short History, Champaign: University of Illinois Press.

23 Immigrants by Region (Retrieved July 4, 2020)
Welcome to immigration. (n.d.). https://teacher.scholastic.com/activities/immigration/immigration_data/periods-and-region.htm

24 The Steerage Act of 1819 (Manifest of Immigrants Act): كان قانون التوجيه لعام 1819 (قانون بيان المهاجرين) تشريعاً أصدرته الحكومة الفيدرالية الأمريكية في 2 آذار 1819، ليطبّق اعتباراً من 1 كانون الثاني 1820. وهو قانون لتنظيم عمل وأهلية سفن الركاب بأنواعها. وكان أول قانون في الولايات المتحدة يُنظم شروط النقل وفقاً للضوابط الإنسانية، وذلك لتحسين ظروف الحياة في المراكب التي يستخدمها الأشخاص الذين يصلون ويغادرون أميركا عن طريق البحر.
Michael, LeMay (2006) Guarding the Gates: Immigration and National Security, NY: Green Wood Pub, p. 19.

25 Know-Nothing party, byname of American Party، : حزب الذين "لا يعرفون شيء"، ويُعرَف بإسم الحزب الأمريكي. وهو عصبة سياسية ازدهرت في خمسينيات القرن التاسع عشر. لقد هذا الحزب العنصري ثمرة مشاعر الحقد القوية المناهضة للمهاجرين ، بخاصة الكاثوليك، ولقد بدأت الكراهية تتجلى خلال أربعينيات القرن التاسع عشر. إن المد المتصاعد من المهاجرين، وخاصة الألمان في الغرب الأوسط ، والأيرلنديين في الشرق، أضحى يُشَكِّل تهديداً للأمن الاقتصادي والسياسي للأمريكيين البروتستانت الأصليين (حسب اعتقادهم). وفي عام 1849 تَشَكل النظام السري للراية اللامعة للنجوم في مدينة نيويورك، وبعد فترة وجيزة انتشرت المراكز الحزبية في كل المدينة الرئيسية الأمريكية.
Bladek, John David (1998) 'Virginia Is Middle Ground': The Know Nothing Party and the Virginia Gubernatorial Election of 1855, Virginia Magazine of History and Biography, 1998 106 (1): 35-70.
https://www.history.com/topics/us-politics/populism-united-states-timeline

26 Civil War (Retrieved May 19, 2020)
Civil War. (n.d.). HISTORY. https://www.history.com/topics/american-civil-war

27 Chy Lung v. Freeman, 92 U.S. 275 (1876) : كانت قضية تشي لونغ ضد فريمان من معضلات المحكمة العليا للولايات المتحدة، والتي أخيراً حَكَمَت فيها المحكمة بأنَّ على السلطات المحلية وضع القواعد المتعلقة بالهجرة ، وأن إدارة العلاقات الخارجية تَقَع على عاتق الحكومة المركزية في واشنطن وليس سلطات الولايات. وقد تمَّ الاستشهاد بهذه القضية في مسائل أخرى للمحكمة العليا تتعلق بصلاحيات السلطة الفدرالية في المسائل المتعلقة بسياسة الهجرة وتطبيقها.
UNITED STATES REPORTS, VOLUMES 2 – 107 (1791 – 1882), (Retrieved June 4, 2020) (n.d.). Supreme Court of the United States. https://www.supremecourt.gov/opinions/datesofdecisions.pdf

28 في عام 1884 بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تشهد موجة من هجرة اليهود الألمان، استمرت متقطعة حتى العام 1930، حيث شهدت الهجرة اليهودية كبرى من الأشكناز (اليهود الغربيين) القادمون من أوروبا الشرقية، بخاصة من بولونيا وروسيا القيصرية، ويعتبر هذا العنصر الأشكنازي هو الأغلب ويشكل 85 في المائة من يهود الولايات المتحدة. أما الهجرة اليهودية التالية فقد ابتدأت من الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين حتى العهد الحاضر، وكان معظمها من اليهود الألمان الذين هاجروا إبان الحكم النازي.
Sterba, Christopher M. (2003) Good Americans: Italian and Jewish Immigrants During the First World War, Oxford: Oxford University Press.

29 The Chinese Exclusion Act: كان قانون الاستبعاد الصيني قانوناً اتحادياً للولايات المتحدة وَقَّع عليه الرئيس تشيستر آرثر في 6 أيار 1882. يَحْظُرهذا القانون هجرة العمال الصينيين إلى الأراضي الأميركية. كما يحرم النساء الصينيات في أوطانهم حق الإتحاق بأزواجهم. كان قانون الاستبعاد الصيني سابقة تشريعية، كونه استهدف عنصرياً تحت مسمى القانون قومية بعينها.
Chinese Exclusion Act (1882) (Retrieved July 1, 2020)
Chinese Exclusion Act (1882). (n.d.). Welcome to OurDocuments.gov. https://www.ourdocuments.gov/doc.php?flash=false&doc=47

30 Comparison of Asian Populations during the Exclusion Years (Retrieved July 7, 2020)

(n.d.). University of Delaware. https://www1.udel.edu/readhistory/resources/2005_2006/summer_06/hsu.pdf

31 The Immigration Act of 1891: كان قانون الهجرة لعام 1891 تعديلاً لقانون الهجرة السابق لعام 1882، وهدفه التركيز على قواعد الهجرة وتنفيذ آليات التطبيق، وذلك للأجانب الوافدين من دول أخرى غير الصين. كان ثاني تشريع فدرالي رئيسي يتعلق بآليات وسلطة إنفاذ الهجرة، الأول هو قانون الهجرة لعام 1882 (تلا ذلك تشريعات أخرى تمَّ تمريرها في ثمانينيات القرن التاسع عشر). وصدر القانون في 3 آذار 1891، مُتَزامِنًا مع نهاية الفترة 51 لعضوية الكونجرس الأمريكي.

FIFTY-FIRST CONGRESS. SESS. II. CH. 550, 551. 1891. (Retrieved June 2, 2020) (n.d.).Library of Congress. https://www.loc.gov/law/help/statutes-at-large/51st-congress/session-2/c51s2ch551.pdf

32 Ellis Island (Retrieved June 2, 2020)

History.com Editors. (2009, October 27). Ellis Island. HISTORY. https://www.history.com/topics/immigration/ellis-island

33 كانت آنا "آني" مور Anna "Annie" Moore (1877 - 1924) مهاجرة أيرلندية أول من استقبلت في الولايات المتحدة الأميركية عبر التفتيش الفيدرالي للمهاجرين في محطة جزيرة إليس في ميناء نيويورك.

Susan Kelly & Stephen Morton (2004) Annie Moore and the archives of displacement: towards an immigrant history of the present, Social & Cultural Geography, 5:4, 633-650, DOI: 10.1080/1464936042000317749

34 20 Ellis Island Immigration Photos That Capture the Hope and Diversity of New Arrivals (Retrieved June 3, 2020)

Horne, M. (2018, November 2). 20 Ellis Island immigration photos that capture the hope and diversity of new arrivals. HISTORY. https://www.history.com/news/ellis-island-immigration-photos-diversity

35 حقبة إيدو 江戸時代, (1603-1868) تميزت هذه الفترة بعزلة اليابان الكاملة عن العالم الخارجي، حيث لم يكن للمواطنين اليابانيين الحق في مغادرة البلاد تحت طائلة عقوبة الإعدام. فقد كان الشوغونات، وهم قادة الحكم العسكري في اليابان، يرون أنه يتوجب عليهم من أجل ضمان استقرار سياسي واجتماعي في البلاد وسط الأطماع الغربية، أن يتحكموا في حركة انتقال الأشخاص من وإلى جزرهم، فأعلنوها منطقة مغلقة 鎖国. كانت الفكرة تقضي بأن يتم إغلاق كل اليابان على الخارج، ومنع السكان من التواصل مع بقية العالم، وقد تم تطبيق هذه الفكرة منذ القرن السابع عشر.

Hellyer, R. (2002) Historical and Contemporary Perspectives on the "Sakoku" Theme in Japanese Foreign Relations: 1600-2000, Social Science Japan Journal, 5(2), 255-259. (Retrieved October 1, 2020) http://www.jstor.org/stable/30209385

36 البدوي، حبيب، تاريخ اليابان السياسي بين الحربين العالميتين، طبعة ثانية، بيروت: دار النهضة العربية، 2017.

37 Warren, Robert (2008) Immigration Statistics, a Story of Neglect, Washington: National Research Council, p. 18.

38 The Gentlemen's Agreement of 1907 (日米紳士協約, Nichibei Shinshi Kyōyaku) : كان تفاهم النبلاء لعام 1907 اتفاق غير رسمي بين الولايات المتحدة الأمريكية وإمبراطورية اليابان. وفي حيثياته أن واشنطن لن تفرض قيوداً على الهجرة اليابانية ، وكذلك فإن طوكيو لن تسهل وتسمح للمهاجرين اليابانيين بالتوجه إلى أميركا. كان الهدف من هذه النقاط المشتركة هو الحد من التوترات بين دول المحيط الهادئ. وبالتالي لم تتحول إلى مستند رسمي ولم يصدّق الكونغرس الأمريكي على هذه الاتفاقية أبداً، وبالتالي ألغيت مفاعيلها مع صدور قانون الهجرة لعام 1924.

Letter from Theodore Roosevelt to Victor Howard Metcalf. Theodore Roosevelt Collection. MS Am 1540 (408). Harvard College Library. https://www.theodorerooseveltcenter.org/Research/Digital-Library/Record?libID=o280328 Theodore Roosevelt Digital Library. Dickinson State University.

39 Thomas R., Williamson (1925) Problems in American Democracy, Ohio: Forgotten Books, p. 185.

40 تيودور روزفلت Theodore Roosevelt (1858 - 1919)، الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة (1901-1909). وهو كاتب أدبي وعالم طبيعي وعسكري محترف. قام بتوسيع سلطات الرئيس والحكومة الفيدرالية لدعم المصلحة العامة في النزاعات بين الشركات الكبرى والعمال. كما قاد السياسة الأميركية نحو دور نشِط في السياسة العالمية، بخاصة في أوروبا وآسيا. حَصَل على جائزة نوبل للسلام في عام 1906 لقيامه بالتوسط لإنهاء الحرب الروسية اليابانية (1904-1905)، وبدأ حفر وتشييد قناة بنما (1904-1914) في عهده.

Thompson, J Lee (2010), Theodore Roosevelt Abroad: Nature, Empire, and the Journey of an American President, New York: Palgrave Macmillan

41 رُهاب الأجانب Xenophobia، هو الخوف والكراهية مما يُنظَر إليه على أنَّه غريب أو مغترب. إنَّه تعبير عن صراع محسوس بين الانتماء إلى جماعة داخلية أو جماعة خارجية. قد يَظْهَر في الشك بسبب أحد أنشطة الآخرين المختلفين، ونمو الرغبة العنصرية في القضاء على وجودهم، بسبب الخوف من فقدان الهوية الوطنية أو العرقية أو العرقية.

Wimmer, Andreas (1997) Explaining Xenophobia and Racism: A critical review of current research approaches, Ethnic and Racial Studies. 20 (1): 17. doi:10.1080/01419870.1997.9993946.

42 Schmitt, B. (1959) The First World War, 1914-1918, Proceedings of the American Philosophical Society, 103(3), 321-331. (Retrieved October 2, 2020) http://www.jstor.org/stable/985472

43 The Immigration Act of 1917 (Literacy Act and less often as the Asiatic Barred Zone Act) : قانون الهجرة لعام 1917 (قانون محو الأمية، وهو يطلق عليه شعبياً "قانون حظر الآسيويين") كان تشريعاً أمريكياً يهدف إلى تقييد الهجرة من خلال فرض اختبارات محو الأمية على المهاجرين، وبالتالي كشف فئات جديدة من الأشخاص الغير مرغوب في استقبالهم في الولايات المتحدة، بالأخص ومنع الهجرة من منطقة آسيا ومنطقة المحيط الهادئ. كان قانون الهجرة هذا هو الأكثر شمولاً الذي تصدره السلطات الأميركية حتى ذلك الوقت، ولقد اتبعت نموذج قانون الإقصاء الصيني لعام 1882 في تحديد الهوية الوطنية للمهاجرين، كخطوة أولى لرفضهم. تم تعديل هذا القانون الفئوي بموجب قانون الهجرة لعام 1924؛ وكلا القانونين تم إلغائهما بموجب قانون الهجرة والجنسية لعام 1952.

SIXTY-FOURTH CONGRESS. SEss.II. CHS. 27-29. 1917. (Retrieved May 2, 2020) (n.d.). Library of Congress. https://www.loc.gov/law/help/statutes-at-large/64th-congress/session-2/c64s2ch29.pdf

44 كان قانون الهجرة لعام The Immigration Act of 1924، قانوناً اتحادياً للولايات المتحدة مَنَع الهجرة من آسيا، وحدَّد حصصاً لعدد المهاجرين من نصف الكرة الشرقي، ووفّر التمويل وآلية تنفيذ لتنفيذ الحظر الطويل الأمد على المهاجرين الآخرين.

Ngai, M. (1999) The Architecture of Race in American Immigration Law: A Reexamination of the Immigration Act of 1924, The Journal of American History, 86(1), 67-92. doi:10.2307/2567407

45 Salter, W. (1902) America's Duty in the Philippines, International Journal of Ethics, 12(3), 360-375. (Retrieved October 6, 2020) http://www.jstor.org/stable/2376349

46 The Violent History of the U.S.-Mexico Border (Retrieved June 6, 2020)

Little, B. (2018, April 9). The violent history of the U.S.-Mexico border. HISTORY. https://www.history.com/news/mexico-border-wall-military-facts

47 الهجوم على بيرل هاربر Attack on Pearl Harbor، أو العملية زد كما كان يسميها المقر العام للإمبراطورية اليابانية، هي غارة جوية مباغتة نفذتها البحرية اليابانية في 7 كانون الأول 1941 على الأسطول الأمريكي القابع في المحيط الهادئ في قاعدته البحرية في ميناء بيرل هاربر بجزر هاواي، هذا الحدث مجرى التاريخ وأرغم الولايات المتحدة على دخول الحرب العالمية الثانية.

Gailey, Harry A. (1997) War in the Pacific: From Pearl Harbor to Tokyo Bay, NY: Presidio.

48 World War II. (n.d.). HISTORY. https://www.history.com/topics/world-war-ii

49 The Bracero Program: كان برنامج bracero (المشتق من المصطلح الإسباني bracero، ويعني "العامل اليدوي" أو "الشخص الذي يعمل باستخدام ذراعيه") سلسلة من القوانين والاتفاقيات الدبلوماسية، بدأت مشاوراتها في آب 1942، بعدها وقّعت الولايات المتحدة اتفاق مع المكسيك للاستفادة من اليد العاملة الزراعية. بالنسبة لهؤلاء العمال الزراعيين، تضمن الاتفاقية ظروف معيشية لائقة (الصرف الصحي والمأوى المناسب والطعام) والحد الأدنى للأجور بمعدل30 سنتاً في الساعة، بالإضافة إلى الحماية من الخدمة العسكرية القسرية في بلدهم الأم، على أن يتم إنشاء "صندوق حكومي خاص" يتم عبره ادخار جزء من الأجور لصالح الدولة المكسيكية.

The Bracero Program 1942-1964 (Retrieved July 7, 2020)

The Bracero program 1942-1964. (2018, July 20). Re-imagining Migration. https://reimaginingmigration.org/the-bracero-program-1942-1964/

50 The Immigration and Nationality Act of 1952 (McCarran-Walter Act) : ينظم قانون الهجرة والجنسية لعام 1952 اللجوء والمواطنة في الولايات المتحدة. وبدء سريان مفعوله منذ 27 حزيران 1952. ومن الجدير ذكره أنه قبل صدور هذا القانون، كانت مجموعة متنوعة من الأعراف تحكم تنظيمات الهجرة، لكنها لم تكن منسقة ضمن إطار نص واحد.

The Immigration and Nationality Act of 1952 (Retrieved May 9, 2020)

Milestones: 1945–1952. (n.d.). Office of the Historian. https://history.state.gov/milestones/1945-1952/immigration-act

51 الحرب الباردة The Cold War، هي مواجهة سياسية وأيديولوجية وأحيانا عسكرية بشكل غير مباشر، دارت أحداثها خلال الأعوام 1947-1991 بين أكبر قوتين في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وهما الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي. وكان من مظاهرها انقسام العالم إلى معسكرين: شيوعي يتزعمه حلف وارسو، وليبرالي تتزعمه الحلف الأطلسي.

Gaddis, John Lewis (1997) We Now Know: Rethinking Cold War History, Oxford: Oxford University Press.

52 Hungarian Uprising: الانتفاضة المجرية، كانت ثورة وطنية ضد الجمهورية الشعبية المجرية وسياساتها التي فرضها الاتحاد السوفياتي، استمرت من 23 تشرين الأول حتى 10 تشرين الثاني 1956. وكانت أو ل تهديد رئيسي للسيطرة السوفياتية منذ أن طرد الجيش الأحمر ألمانيا النازية من أراضيها في نهاية الحرب العالمية الثانية في أو روبا.

Gati, Charles (2006) Failed Illusions: Moscow, Washington, Budapest and the 1956 Hungarian Revolt, Palo Alto: Stanford University Press.

53 History.com Editors. (2009, October 27). Cold war history. HISTORY. https://www.history.com/topics/cold-war/cold-war-history

54 اندلعت الثورة الكوبية بين عامي 1953-1959 كانتفاضة مسلحة ضد الحكم الديكتاتوري المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية والمدار بواسطة جهاز الاستخبارات الأميركية بشكل مباشر. بدأت المصادمات في تموز عام 1953، واستمرت بشكل متقطع حتى النصر اليساري في نهاية المطاف في 1 كانون ثاني 1959، لتعلن كوبا دولة اشتراكية ثورية، ويتم تنظيم حركة إصلاحية على أسس شيوعية ، ويصبح يصبح الحزب الشيوعي في تشرين ثاني العام 1965 هو السلطة المطلقة في جميع أنحاء الجزيرة.

Marifeli, Perez-Stable (1998) The Cuban Revolution: Origins, Course, and Legacy, Oxford: Oxford University Press.

55 فيدل كاسترو Fidel Castro (1926-2016)، الزعيم السياسي لكوبا (1959-2008) الذي حوَّل بلاده إلى الدولة الشيوعية الأولى في نصف الكرة الغربي، وليصبح رمزاً للثورة الشيوعية في أمريكا اللاتينية. شَغَل لقب رئيس مجلس الوزراء حتى عام 1976، ثُم بدأ فترة طويلة كرئيس لمجلس الدولة ومجلس الوزراء. وسلَّم السلطة المؤقتة في تموز 2006 بسبب مشاكل صحية وتنازل رسمياً عن الرئاسة في شباط 2008.

Geyer, Georgie Anne (1991) Guerrilla Prince: The Untold Story of Fidel Castro, NY: Little, Brown & Company.

56 SHNOOKAL, D. (2020) Operation Pedro Pan and the Exodus of Cuba's Children, Gainesville: University Press of Florida.

57 Meghan Vai, Media Cold Warriors: how the Pedro panes reinforced cold war policies toward Cuba (Retrieved July 10, 2020)

(n.d.). Latin American Network Information Center - LANIC. https://lanic.utexas.edu/project/etext/llilas/portal/portal119/cuba.pdf

58 Fidel Castro announces Mariel Boatlift, allowing Cubans to emigrate to U.S. (Retrieved July 10, 2020)

History.com Editors. (2009, November 24). HISTORY. https://www.history.com/this-day-in-history/castro-announces-mariel-boatlift

59 Fernández, Gastón A. (2007) "Race, Gender, and Class in the Persistence of the Mariel Stigma Twenty Years after the Exodus from Cuba". The International Migration Review. 41 (3): 602–622.

60 The Immigration and Nationality Act of 1965, (Hart-Celler Act): قانون الهجرة والجنسية لعام 1965، هو قانون إتحادي أَقَرَّهُ

الكونغرس الـ 89 للولايات المتحدة، ووقَّعه الرئيس ليندون جونسون ليصبح ساري المفعول. ألغى هذا القانون صيغة الأصول العرقية (ذات الطابع العنصري)، التي كانت أساس سياسة الهجرة الأمريكية منذ عشرينيات القرن الماضي. كما أزال القانون التمييز "بحكم الواقع" والذي يستهدف ذوي الأصول القادمة من جنوب وشرق أو روبا والآسيويين وغيرهم من الجماعات العرقية غير الشمالية الغربية الأوروبية.
Immigration and Nationality Act of 1965 (Retrieved October 2, 2020)

Immigration and nationality Act of 1965. (n.d.). US House of Representatives: History, Art & Archives. https://history.house.gov/Historical-Highlights/1951-2000/Immigration-and-Nationality-Act-of-1965/

61 (Lyndon B. Johnson (1908 - 1973 : ليندون جونسون (1908-1973) الرئيس السادس والثلاثون للولايات المتحدة (1963-1969). إنتخبجونسون، وهو ديمقراطي معتدل وزعيم نَشِط في مجلس الشيوخ الأمريكي، نائباً للرئيس في عام 1960 واستلم الرئاسة في عام 1963 بعد اغتيال الرئيس. جون كينيدي. خلال فترة إدارته، وَقَّع على قانون الحقوق المدنية (1964)، وهو أشمل تشريع للحقوق المدنية منذ حقبة إعادة الإعمار، وبدأ برامج الخدمة الاجتماعية الرئيسية، وتحمل العبء الأكبر من المعارضة المحلية لسياساته الخارجية بسبب التدخل العسكري الأمريكي في حرب فيتنام.

Andrew, John A. (1999) Lyndon Johnson and the Great Society, Chicago: Ivan R. Dee.

62 Johnson, L.B., (1965) President Lyndon B. Johnson's Remarks at the Signing of the Immigration Bill, Liberty Island, New York October 3, 1965.

Library, L. P. (n.d.). Upon signing the immigration bill of 1965, President Johnson said that it was one of the most important acts of his administration. LBJ Presidential Library. https://www.lbjlibrary.org/lyndon-baines-johnson/timeline/lbj-on-immigration

63 حرب ڤيتنام، بدء النزاع بين جمهورية فيتنام الديموقراطية (فيتنام الشمالية)، المتحالفة مع جبهة التحرير الوطنية في الجنوب، ضد جمهورية فيتنام (فيتنام الجنوبية)، بهدف توحيد فيتنام في دولة واحدة تحت الحكم الشيوعي. كانت الولايات المتحدة الأمريكية بين عاميّ 1965 و 1973 من أبرز الداعمين لحكومة الجنوب، ولكن انصاعت في النهاية أمام إصرار الثوار وانسحبت نهائياً عام 1975، بعد أن تكبدت 58318 قتيل.
Vietnam War Casualties 1955 – 1975 (Retrieved June 6, 2020)

Vietnam War casualties (1955-1975). (n.d.). Military Factory - Global Defense Reference. https://www.militaryfactory.com/vietnam/casualties.asp

64 Haines, David (1996) Refugees in America in the 1990s: a reference handbook, New York: Greenwood Press.

65 Jeanne Batalova Hataipreuk Rkasnuam and Jeanne Batalova. (2017, March 2). Vietnamese immigrants in the United States.migrationpolicy.org.https://www.migrationpolicy.org/article/vietnamese-immigrants-united-states-2

66 رونالد ريغان Ronald Reagan (1911 - 2004) الرئيس الأربعون للولايات المتحدة (1981-1989)، وهو من التيار المحافظ المتشدد في الحزب الجمهوري. أشتهر بمناهضته وعداوته وتصديه للشيوعية. وهو الممثل الوحيد للأفلام الذي أصبح قائداً لأعتى أمم الأرض.
Reeves, Richard (2005) President Reagan: The Triumph of Imagination, New York: Simon & Schuster.

67 Simpson-Mazzoli Act (Retrieved June 6, 2020)

(n.d.). Ronald Reagan Presidential Library & Museum | Ronald Reagan. https://www.reaganlibrary.gov/sites/default/files/documents/simpson-mazzoli-act-sheet.pdf

68 (The Development, Relief, and Education for Alien Minors Act (DREAM Act : قانون التنمية والإغاثة والتعليم للقاصرين الأجانب (قانون DREAM) هو اقتراح تشريعي للولايات المتحدة لمنح إقامة مشروطة مؤقتة، مع الحق في العمل، بهدف تأهيل المهاجرين الذين دخلوا الولايات المتحدة كقاصرين – وإذا استوفوا لاحقاً المزيد من المؤهلات، سيحصلون على إقامة دائمة.

The dream act, DACA, and other policies designed to protect dreamers. (2020, August 27). American Immigration Council. https://www.americanimmigrationcouncil.org/research/dream-act-daca-and-other-policies-designed-protect-dreamers

69 باراك حسين أوباما Barack Hussein Obama، الرئيس الرابع والأربعون للولايات المتحدة (2009-2017) وأول أميركي من أصل أفريقي يشغل هذا المنصب. قبل فوزه بالرئاسة، مثَّل أو باما إلينوي في مجلس الشيوخ الأمريكي (2005-2008)، حيث كان ثالث "أسود" يتم انتخابه في تلك الهيئة منذ نهاية إعادة الإعمار (1877). في عام 2009 حَصَل على جائزة نوبل للسلام "لجهوده غير العادية لتعزيز الدبلوماسية الدولية والتعاو ن بين الشعوب".
Maraniss, David (2012) Barack Obama: The Story, New York: Simon & Schuster.

70 (Deferred Action for Childhood Arrivals (DACA : هو تشريع يسمح لبعض الأفراد الذين لديهم وجود غير قانوني في الولايات المتحدة رغم إحضارهم إلى البلاد في سن الطفولة بالحصول على فترة سنتين لتسوية أوضاعهم القانونية حتى يصبحوا مؤهلين للحصول على تصريح عمل داخل الولايات المتحدة.
Consideration of Deferred Action for Childhood Arrivals (DACA) (Retrieved June 10, 2020)

Consideration of deferred action for childhood arrivals (DACA). (2021, January 21). USCIS. https://www.uscis.gov/archive/consideration-deferred-action-childhood-arrivals-daca

71 دونالد جون ترامب Donald John Trump ، الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية منذ العام 2017 . كان ترامب مطوراً عقارياً ورجل أعمال يمتلك العديد من الفنادق والكازينوهات وملاعب الجولف والمنتجعات والأبنية السكنية في منطقة مدينة نيويورك وحول العالم. منذ الثمانينيات من القرن الماضي، قدَّم ترامب اسمه أيضاً لعشرات من مشاريع البيع بالتجزئة – بما في ذلك خطوط الملابس ذات العلامات التجارية والكولونيا والطعام والأثاث. وأنشأ جامعة ترامب التي قدَّمت حلقات دراسية في مجال التعليم العقاري من عام 2005 إلى عام 2010.
Blair, Gwenda (2015) Donald Trump: The Candidate, New York: Simon & Schuster.

72 Here's What President Trump's Immigration Order Actually Does (Retrieved June 10, 2020)

Here's what President Trump's immigration order actually does. (2018, June 20). Time. https://time.com/5317703/trump-family-separation-policy-executive-order/

73 في 6 آذار 2017، أصدر الرئيس ترامب الأمر التنفيذي Executive Order 13780، لحماية الأمة من دخول الإرهابيين الأجانب بزعمه. حيث أعلن أنَّ "سياسة الولايات المتحدة هي حماية مواطنيها من الهجمات الإرهابية"ووجَّه لسلسلة من الإجراءات القانونية التعسفية لتعزيز أمن الشعب الأميركي.

Executive Order Protecting The Nation From Foreign Terrorist Entry Into The United States (Retrieved June 10, 2020)
Executive order protecting the nation from foreign terrorist entry into the United States. (n.d.). The White House. https://www.whitehouse.gov/presidential-actions/executive-order-protecting-nation-foreign-terrorist-entry-united-states-2/

74 The Supreme Court's travel ban decision, explained (Retrieved June 12, 2020)
The Supreme Court's travel ban decision, explained – Center for public integrity. (2018, June 26). Center for Public Integrity. https://publicintegrity.org/inequality-poverty-opportunity/immigration/the-supreme-courts-travel-ban-decision-explained/

75 Total Immigrants by Decade (Retrieved June 12, 2020)
Who lives in America: Teaching immigration history with data | Scholastic.com. (n.d.). https://teacher.scholastic.com/activities/immigration/immigration_data/index.htm

76 أتوجه بالشكر للدكتور أكرم خاطر أستاذ التاريخ بجامعة ولاية كارولينا الشمالية ورئيس مركز مويس خير الله لدراسات الشتات اللبناني لتزويدي بكافة المعلومات المتعلقة بالاغتراب اللبناني إلى الولايات المتحدة الأميركية. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Staff. (n.d.). Moise A. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Studies - NC State. https://lebanesestudies.ncsu.edu/about/staff.php

77 Khater, Akram (2001) Inventing Home: Emigration, gender and the making of a Lebanese Middle Class, 1861-1921, Berkeley: University of California Press.
Inventing home. (n.d.). UC Press E-Books Collection, 1982-2004. https://publishing.cdlib.org/ucpressebooks/view?docId=ft9d5nb66k;brand=ucpress

78 رستم، أسد (1987) لبنان في عهد المتصرفية، بيروت: المكتبة البوليسية.

79 Farah, Ceasar E. (2000) Politics of Interventionism in Ottoman Lebanon, 1830-1861, London: I.B.Tauris

80 عقل، جهاد (2002) الهجرة الحديثة من لبنان وتعاطي المؤسسات الرسمية والأهلية معها (1860 – 2000)، بيروت: دار ومكتبة التراث الأدبي.

81 Khayrallah Center Archive (Retrieved June 17, 2020)
(n.d.). Moise A. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Studies Archive. https://lebanesestudies.omeka.chass.ncsu.edu/

82 IRFED, Besoins et possibilités de developpement au Liban 1960- 1961, Beyrouth: Ministère du plan, p. 49.

83 عيساوي، شارل (1990) التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800 1914، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ص 60.

84 Jones, J. Sydney, and Paula Hajar (2014) Lebanese Americans, in Gale, Encyclopedia of Multicultural America, edited by Thomas Riggs, (3rd ed., vol. 3, Gale, 2014), pp. 79-90.

85 الانتشار اللبناني "الاغتراب" (2010) وزارة الإعلام – مديرية الدراسات والمنشورات اللبنانية، ص. 8. (Retrieved June 17, 2020)
لمحة تاريخية .(n.d.) .وزارة الإعلام اللبنانية https://www.ministryinfo.gov.lb/669 .

86 Karpat, K. (1985) The Ottoman Emigration to America, 1860-1914, International Journal of Middle East Studies, 17(2), 175-209. (Retrieved June 17, 2020) http://www.jstor.org/stable/163603

87 الانتداب الفرنسي على لبنان (1920-1943) هي فترة حكم فرنسا الاستعمارية للبنان بعد انهيار السلطنة العثمانية، حيث تم تنفيذ تقسيمات اتفاقية سايكس-بيكو، والتي تم تأييدها لاحقًا بقرارات من عصبة الأمم صدرت عام 1920 وأجازت نظام الانتداب على المناطق العثمانية المتفككة بحجة المساعدة في إنشاء مؤسسات للدول الجديدة.
Salibi, Kamal (1990) A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered, Berkley: University of California Press.

88 Harris, William (2012) Lebanon: A History, 600-2011, Oxford: Oxford University Press, pp. 173-179.

89 حمادة، سعيد (1936) النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية، ص 16.

90 صفا، إيلي (1960) الهجرة اللبنانية، بيروت: منشورات كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف بيروت، ص .ص 168-185.

91 Salibi, Kamal (1977) The Modern History of Lebanon, New York: Caravan Books.

92 فترة حكم الرئيس فؤاد شهاب (1958 – 1964) تعبر الأزهى والأكثر استقراراً في عمر الجمهورية اللبنانية. تمحورت الشهابية حول الأفكار والقضايا التالية: إصلاح الدولة وتحديث الإدارة وإنشاء المؤسسات العامة والتخفيف من وطأة الإقطاع السياسي على الحياة السياسية اللبنانية. كما كانت الشهابية تنادي بالسيادة، الوحدة الوطنية، اللاتعصب واللاتطرّف، العدالة الاجتماعية، الديمقراطية، النظام البرلماني، إبعاد الجيش عن السياسة، انتماء لبنان العربي، الانفتاح على الغرب والعالم والعصر.
الجسر، باسم (1998) فؤاد شهاب، بيروت: مؤسسة فؤاد شهاب.

93 Y.Courbage & Ph.Fargues (1974) La situation démographique au Liban, Beyrouth: Université Libanaise, p. 18

94 طالت الهجرة القسرية التي فتحت باب الهروب اللبناني حوالي 625760 شخصاً من نيسان 1975 حتى آذار 1977.
الاغتراب اللبناني، مرجع سابق، ص. 9.

95 Krayem, Hassan (2012) The Lebanese civil war and the Taif agreement, Beirut: AUB Publications.

96 Abdelkarim, Amir (1996) la dispora Libanaise en France, Paris: harmattan, p. 25.

97 Faour, M. (2007) Religion, Demography, and Politics in Lebanon, Middle Eastern Studies, 43(6), 909-921. (Retrieved June 17, 2020) http://www.jstor.org/stable/40262539

89 لبكي، بطرس (2019) هجرة اللبنانيين: 1850 . 2018 مسارات عولمة مبكرة، بيروت: دار سائر المشرق، ص ص 184 – 187.

99 الاتات، أسعد (2019) نزيف الهجرة المتواصل اللبنانيّون المقيمون يتناقصون، محاضرة، بيروت: الجامعة اللبنانية.

Abdelhady, D. (2011) The Lebanese Diaspora, New York: London: NYU Press. 100
The Early Lebanese in America: A Demographic Portrait (Retrieved June 17, 2020) 101
The early Lebanese in America: A demographic portrait, 1880-1930. (2018, November 8). Moise A. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Studies | NC State University. https://lebanesestudies.news.chass.ncsu.edu/2018/11/08/the-early-lebanese-in-america-a-demographic-portrait-1880-1930
Khayrallah Center Archive (Retrieved June 17, 2020) 102
https://lebanesestudies.omeka.chass.ncsu.edu(n.d.). Moise A. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Studies Archive. https://lebanesestudies.omeka.chass.ncsu.edu/

REFERENCES

Abdelhady, D. (2011) The Lebanese Diaspora, New York: London: NYU Press.
Abdelkarim, Amir (1996) la dispora Libanaise en France, Paris: harmattan.
Andrew, John A. (1999) Lyndon Johnson and the Great Society, Chicago: Ivan R. Dee.
Armstrong, K. (1992) The Andalus Legacy - A New World Discovered: An Old World Destroyed, European Judaism: A Journal for the New Europe, 25(2), 3-11. http://www.jstor.org/stable/41432742
Bladek, John David (1998) 'Virginia Is Middle Ground': The Know Nothing Party and the Virginia Gubernatorial Election of 1855, Virginia Magazine of History and Biography, 1998 106 (1): 35–70.
Blair, Gwenda (2015) Donald Trump: The Candidate, New York: Simon & Schuster.
Carpenter, R. (1958), Phoenicians in the West, American Journal of Archaeology, 62(1), 35-53. doi:10.2307/500460
Dyson, John (1991) Columbus: For Gold, God and Glory, NY: Madison Press Books.
Faour, M. (2007) Religion, Demography, and Politics in Lebanon, Middle Eastern Studies, 43(6), 909-921.
Farah, Ceasar E. (2000) Politics of Interventionism in Ottoman Lebanon, 1830-1861, London: I.B.Tauris
Fernández, Gastón A. (2007) "Race, Gender, and Class in the Persistence of the Mariel Stigma Twenty Years after the Exodus from Cuba". The International Migration Review. 41 (3): 602–622.
Gaddis, John Lewis (1997) We Now Know: Rethinking Cold War History, Oxford: Oxford University Press.
Gailey, Harry A. (1997) War in the Pacific: From Pearl Harbor to Tokyo Bay, NY: Presidio.
Gati, Charles (2006) Failed Illusions: Moscow, Washington, Budapest and the 1956 Hungarian Revolt, Palo Alto: Stanford University Press.
Gavin Menzies (2005) 1421: The Year China Discovered America, The Sixteenth Century Journal, 36(1), 276-278. http://www.jstor.org/stable/20477328
Geyer, Georgie Anne (1991) Guerrilla Prince: The Untold Story of Fidel Castro, NY: Little, Brown & Company.
Godfrey, W. (1955) Vikings in America: Theories and Evidence, American Anthropologist, 57(1), new series, 35-43. http://www.jstor.org/stable/665785
Haines, David (1996) Refugees in America in the 1990s: a reference handbook, New York: Greenwood Press.
Harlow, Giles Unger (2019) Thomas Paine and the Clarion Call for American Independence, New York: Da Capo Press.
Harris, William (2012) Lebanon: A History, 600-2011, Oxford: Oxford University Press.
Hellyer, R. (2002) Historical and Contemporary Perspectives on the "Sakoku" Theme in Japanese Foreign Relations: 1600-2000, Social Science Japan Journal, 5(2), 255-259. http://www.jstor.org/stable/30209385
HICKEY, D. (2012) The War of 1812: A Short History, Champaign: University of Illinois Press.
Hoffecker, J., Powers, W., & Goebel, T. (1993) The Colonization of Beringia and the Peopling of the New World, Science, 259(5091), 46-53. http://www.jstor.org/stable/2880233
Hoffecker, John F.; Elias, Scott A. (2007) Human ecology of Beringia, NY:

Columbia University Press.
IRFED, Besoins et possibilités de developpement au Liban 1960- 1961, Beyrouth: Ministère du plan.
Johnson, L.B., (1965) President Lyndon B. Johnson's Remarks at the Signing of the Immigration Bill, Liberty Island, New York October 3, 1965.
Jones, J. Sydney, and Paula Hajar (2014) Lebanese Americans, in Gale, Encyclopedia of Multicultural America, edited by Thomas Riggs, (3rd ed., vol. 3, Gale, 2014).
Karpat, K. (1985) The Ottoman Emigration to America, 1860-1914, International Journal of Middle East Studies, 17(2), 175-209. http://www.jstor.org/stable/163603
Kehoe, A.B. (1998) The Land of Prehistory, A Critical History of American Archaeology, NY: Routledge.
Khater, Akram (2001) Inventing Home: Emigration, gender and the making of a Lebanese Middle Class, 1861-1921, Berkeley: University of California Press.
Krayem, Hassan (2012) The Lebanese civil war and the Taif agreement, Beirut: AUB Publications.
Letter from Theodore Roosevelt to Victor Howard Metcalf. Theodore Roosevelt Collection. MS Am 1540 (408). Harvard College Library. https://www.theodorerooseveltcenter.org/Research/Digital-Library/Record?libID=o280328
Maraniss, David (2012) Barack Obama: The Story, New York: Simon & Schuster.
Marifeli, Perez-Stable (1998) The Cuban Revolution: Origins, Course, and Legacy, Oxford: Oxford University Press.
McGhee, R. (1989) Who Owns Prehistory? The Bering Land Bridge Dilemma, Canadian Journal of Archaeology / Journal Canadien D'Archéologie, 13, 13-20. http://www.jstor.org/stable/41102821
McIntosh, G., & Thrower, N. (2000) The Piri Reis Map of 1513, University of Georgia Press. http://www.jstor.org/stable/j.ctt46ng16
Meghan Vai, Media Cold Warriors: how the Pedro panes reinforced cold war policies toward Cuba
Michael, LeMay (2006) Guarding the Gates: Immigration and National Security, NY: Green Wood Pub.
Mohammed, Hamidullah (1968) Muslim Discovery of America before Columbus, Journal of the Muslim Students' Association of the United States and Canada 4 (2).
Ngai, M. (1999) The Architecture of Race in American Immigration Law: A Reexamination of the Immigration Act of 1924, The Journal of American History, 86(1), 67-92. doi:10.2307/2567407
Ostrander, G. (1973) The Making of the Triangular Trade Myth, The William and Mary Quarterly, 30(4), 635-644. doi:10.2307/1918599
Quimby, G. (1985), Japanese Wrecks, Iron Tools, and Prehistoric Indians of the Northwest Coast, Arctic Anthropology, 22(2), 7-15. http://www.jstor.org/stable/40316086
Randall, Miller & John Smith (1988) Dictionary of Afro-American Slavery, NY: Praeger Publishers.
Reeves, Richard (2005) President Reagan: The Triumph of Imagination, New York: Simon & Schuster.
Richter, Daniel (2011) Before the Revolution: America's ancient pasts, Massachusetts: Belknap Press.
Salibi, Kamal (1977) The Modern History of Lebanon, New York: Caravan Books.
Salibi, Kamal (1990) A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered, Berkley: University of California Press.
Salter, W. (1902) America's Duty in the Philippines, International Journal of Ethics, 12(3), 360-375. http://www.jstor.org/stable/2376349
Schermerhorn, C. (2015) The Business of Slavery and the Rise of American Capitalism 1815–1860, NY: Yale University Press.
Schmitt, B. (1959) The First World War, 1914-1918, Proceedings of the American Philosophical Society, 103(3), 321-331. http://www.jstor.org/stable/985472
SHNOOKAL, D. (2020) Operation Pedro Pan and the Exodus of Cuba's

Children, Gainesville: University Press of Florida.
Sterba, Christopher M. (2003) Good Americans: Italian and Jewish Immigrants During the First World War, Oxford: Oxford University Press.
Susan Kelly & Stephen Morton (2004) Annie Moore and the archives of displacement: towards an immigrant history of the present, Social & Cultural Geography, 5:4, 633-650, DOI: 10.1080/1464936042000317749
Thomas R., Williamson (1925) Problems in American Democracy, Ohio: Forgotten Books.
Thompson, J Lee (2010), Theodore Roosevelt Abroad: Nature, Empire, and the Journey of an American President, New York: Palgrave Macmillan.
Warren, Robert (2008) Immigration Statistics, a Story of Neglect, Washington: National Research Council.
Wilford, John Noble (1991) The Mysterious History of Columbus: An Exploration of the Man, the Myth, the Legacy, New York: Alfred A. Knopf.
Wimmer, Andreas (1997) Explaining Xenophobia and Racism: A critical review of current research approaches, Ethnic and Racial Studies. 20 (1): 17. doi:10.1080/01419870.1997.9993946.
Y. Courbage & Ph.Fargues (1974) La situation démographique au Liban, Beyrouth: Université Libanaise.

الجسر، باسم (1998) فؤاد شهاب، بيروت: مؤسسة فؤاد شهاب.
الاتات، اسعد (2019) نزيف الهجرة المتواصل اللبنانيّون المقيمون يتناقصون، بيروت: الجامعة اللبنانية.
الانتشار اللبناني "الاغتراب" (2010) وزارة الإعلام – مديرية الدراسات والمنشورات اللبنانية.
البدوي، حبيب (2017) تاريخ اليابان السياسي بين الحربين العالميتين، طبعة ثانية، بيروت: دار النهضة العربية.
حمادة، سعيد (1936) النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية.
رستم، أسد (1987) لبنان في عهد المتصرفية، بيروت: المكتبة البوليسية.
صفا، إيلي (1960) الهجرة اللبنانية، بيروت: منشورات كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف.
–عقل، جهاد (2002) الهجرة الحديثة من لبنان وتعاطي المؤسسات الرسمية والأهلية معها، بيروت: دار ومكتبة التراث الأدبي.
عيساوي، شارل (1990) التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800 – 1914، بيروت: منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.
لبكي، بطرس (2019) هجرة اللبنانيين: 1850 2018 مسارات عولمة مبكرة، بيروت: دار سائر المشرق.

الأدمغة اللبنانية: إعداد للهجرة

د. ملاك علي بزّي
احصاء اجتماعي/الجامعة اللبنانية

مقدمة

تعتبر الهجرة ظاهرة عالمية لكن مفاعيلها وتداعياتها تختلف من دولة لأخرى، حيث ان النظام الإقتصادي للدولة يشكّل المحدد الأساس لوتيرة الهجرة على مستوى التصدير او الإستقبال. وتشير إحصائيات اليونسكو (UNESCO, 2019)بأن عدد المهاجرين في العام 1960 بلغ 93 مليونًا على مستوى العالم، أي ما يقارب 3.1% من سكانه. وفي العام 1990 بلغت نسبة المهاجرين 2.7% من سكان العالم. أما في العام 2017 فقد عرفت تزايدا ملحوظاً، إذ بلغ عدد المهاجرين 258 مليونًا أي ما نسبته 3.4% من سكان العالم، وان نسبة 64% من هؤلاء المهاجرين توجهوا الى البلدان الغربية الغنية والى دول الخليج العربي بشكل خاص.

أما الهجرة من الدول العربية وبناءً لما صدر عن موقع إيلاف من بيروت (إيلاف، 2019)، وهي مذكرة من قبل الأمانة العامة لإتحاد البرلماني العربي، حيث ورد ما مضمونه أن الدول العربية تساهم في ثلث هجرة الأدمغة من البلدان النامية. كما أن 50% من الأطباء و23 % من المهندسين و15% من العلماء، هم من مجموع الأدمغة العربية المتخرّجة الذين يهاجرون إلى الولايات المتحدة الأميركية وكندا وأوروبا. ومن الملاحظ 54% من الطلاب العرب الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم.

اما الأمر الأشد خطورة عندما يتبين لنا أن حوالي 46% من المهاجرين اللبنانيين هم متخرجون جامعيون، وحوالي 83% هم من الشباب (مجلس–النواب، 2014)، ترافق ذلك مع تفاقم الأزمات المتتالية في العقدين الأولين من القرن العشرين. من أجل ذلك، تعتبر الهجرة ظاهرة تستحق المقاربة، لإبراز حجمها وآثارها في مختلف الحقبات الزمنية.

يعاني لبنان كغيره من الدول العربية من هجرة الأدمغة العلمية أو الخبرات الفنية. ومهما تعددت تسميات هذه الظاهرة من هجرة أو نزيف الأدمغة او الكفاءات، فإن تداعياتها على الدول المصدرة لا تتغير. ولهذه الهجرة وجهتان: الأولى غرب أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واستراليا طلبا للعلم والعمل والإستقرار الاجتماعي، لما توفره هذه الدول من تقديمات وخدمات مختلفة، والوجهة الثانية دول الخليج العربي وأفريقيا بهدف العمل وتحسين الوضع الإقتصادي. تشمل هجرة الأدمغة العلمية الكوادر الطبية: من

أطباء وممرضين وصيادلة وأطباء أسنان، كما تشمل ايضاً العلماء والمهندسون والمحامون والتكنولوجيون والكتاب... وغيرهم.

وعلى الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة في لبنان، الا أنها تبقى بحاجة الى تتبع سيرورتها، بإعتبارها ظاهرة ديناميكية باستمرار، خصوصًا في ظل الأزمات الإقتصادية والسياسية والأمنية والصحية التي يعاني منها لبنان. في ظل هذا الوضع المتردي فإن خريجي الجامعات يتحولون الى سوق البطالة السافرة أم المقنعة وإما الى الهجرة. وهذا ما يؤدي الى خسائر جسيمة للاقتصاد الوطني والى عرقلة عملية التنمية، لأن هذه الأخيرة تقترن وبشكل طردي مع وجود وتوافر الكفاءات العلمية والخبراء الفنيين.

لذلك فان دراسة التحولات الإقتصادية والمهنية والثقافية الناتجة عن ثنائية حركة الهجرة وآثارها، تمكننا من إكتشاف ليس فقط فعل التغيّر الاجتماعي، بل أسبابه وأنساق التحولات المجتمعية التي أنتجته، وكذلك أنماطها التغيرية المتعددة الأشكال في التكوينات الاجتماعية اللبنانية. خصوصا أن هذه التغيرات ناجمة عن هجرة فئة من الإختصاصيين تلقوا تعليمًا وتدريبًا عاليًا على مدى عدة سنوات، حيث يخسر لبنان المردود الإقتصادي لهؤلاء ليستفيد منهم نظام إقتصادي آخر.

إنطلاقا من هذه الرؤيا فإن تسليط الضوء على هذه الظاهرة في لبنان، هدفه معرفة حجمها من جهة، والعمل بالمقابل للمحافظة على المخزون البشري العلمي وربما لإعادة المهاجرين من جهة اخرى بهدف الإستفادة من هذه الخبرات وإشراكها في وضع الخطط التنموية المساهمة في النهوض، ولو كان ذلك مجال تفاؤل مفرط.

اشكالية البحث

ظاهرة هجرة الأدمغة اللبنانية برزت نتيجة مجموعة من العوامل الأمنية والإقتصادية والاجتماعية والعلمية، دفعت الكفاءات لترك أماكن سكنهم وقراهم. بالرغم من أحقية تلك الأسباب والعوامل التي كانت وراء إنطلاقة الهجرة وإستمرارها، ويبقى لها نتائج وإنعكاسات مباشرة وغير مباشرة تجلّت في مجموعة من العوامل والدلالات. كما أنها تركت آثاراً على المجتمع الذي وصلت اليه، والمجتمع الذي انطلقت منه لأنها أفرغته من كفاءات بحاجة اليها. وهنا نحاول رصد هذه الظاهرة وتسليط الضوء عليها لمعرفة حجمها وآثارها، خاصة أنها في حالة تزايد مستمر مع تفاقم الأحداث.

إن التساؤل الأساسي للبحث هو: هل هجرة الأدمغة نعمة أم نقمة على لبنان؟ فإذا كانت نعمة، من خلال ما يجنيه هؤلاء من أموال من الخارج ويرسلون جزءًا منها الى ذويهم إضافة الى تخفيض معدلات البطالة وتخفيف حدة التوتر الاجتماعي والأمني، فكيف نفسر النقص في الاختصاصيين حينما تحاول الدولة القيام بعملية تنموية في قطاع محدد الأمر الذي يضطرها الى الاستعانة بخبراء من الخارج بتكاليف عالية. أما إذا كانت نقمة جراء تفريغ الدولة من الخبراء والاختصاصيين بعد أن تكبدت الدولة نفقات كبيرة

على تعليمهم وإعدادهم، فكيف نفسر تحول هؤلاء الخريجين الى سوق البطالة او الى عمال في القطاع الهامشي او في مجالات لا تتناسب مع إختصاصاتهم نتيجة عدم قدرة النظام الإقتصادي إستيعابهم؟

في الواقع، إن الآراء حيال الموقف من الهجرة متباينة بين مؤيدة ومعارضة. فالمؤيدون يعتبرون أن للهجرة مكاسب عديدة على لبنان من خلال تحويلات المهاجرين والتخلص من الضيق الإقتصادي والضغط الأمني حيث دعا ميشال شيحا أهل الجبل إلى الهجرة لأنه لم يعد يستطيع تأمين قوت سكانه الذين لا مفر أمامهم سوى الهجرة إلى الخارج تماثلًا بأجدادهم الفينيقيين (شيحا، 1962). ويستند أصحاب هذا الإتجاه إلى أن المهاجرين من أصحاب الكفاءات العلمية يشكلون قوة إقتصادية وسياسية تقدم دعمًا إقتصاديًا للبنان من خلال التحويلات الخارجية من ناحية، ودعمًا سياسيًا من خلال تبوؤ اللبنانيين مناصب سياسية في الخارج يستطيعون دعم القضايا اللبنانية في المحافل الدولية وفي علاقات المهاجرين مع النخب السياسية في الخارج.

وإذا كان صحيحًا أن المهاجرين من الأدمغة يساهمون في دعم الاقتصاد اللبناني من خلال التحويلات الخارجية، إلا أن إستثماراتهم تتمركز بشكل أساسي في البلدان التي هاجروا إليها، وكلما إزدادت معدّلات إستثماراتهم أصبحوا أكثر اندماجًا في المجتمعات المستقبلة لهم، وأن علاقتهم بوطنهم تتمثل بزيارات مؤقتة أو بناء قصور لا يسكنها سوى الحجّاب والخدم. أما على مستوى الدعم السياسي لقضايا لبنان في الخارج، فنعتقد أن هذا الأمر مبالغ فيه، بإعتبار أن الولاء يكون للدولة التي يمارس فيها المهاجر مهامه السياسية وليس للبنان، ويبقى إرتباطه في لبنان آنيًا ولدواعٍ عاطفية حيث عاش آباؤه وأجداده.

أما المعارضون لتيار الهجرة فيعتبرون أن مساوئ هجرة الأدمغة تفوق مكاسبها نتيجة للخسائر المترتبة عليها جراء تفريغ المجتمع من الكفاءات العلمية الناشطة إقتصاديًا، لا سيما الكوادر العليا المتخصصة في مختلف الميادين، والتداعيات التي تحدثها الهجرة على صعيد البنية الديموغرافية حسب النوع الإجتماعي والعمر للسكان المقيمين (نوفل، 2003). وإذا سلمنا بصحة هذا التحليل، كيف نفسر حالة مئات الشباب والمتعلمين الذين يعانون من البطالة السافرة أو المقنعة أو الذين يعملون في القطاع الهامشي؟ ألا تشكّل الهجرة حلًا للأوضاع السيئة التي يعيشها هؤلاء وتمكنهم من تأمين مستقبل لائق لهم؟

في ظل هذا التناقض في الرؤيا من ظاهرة الهجرة، كيف يمكن التوفيق بين حاجات التنمية المحلية وتأمين مستقبل لائق للخريجين من الجامعات؟ ولما كانت هذه المعادلة تتجاوز قدرة الأفراد بإعتبارها تقع على عاتق الدولة بمختلف مؤسساتها فتصبح ظاهرة هجرة الأدمغة عشوائية تتعلق بتوجهات الفرد وإمكانياته المادية وتطلعاته المستقبلية.

بناءً على هذه الرؤيا إنطلقنا من فرضية أساسية تتعلق بالعلاقة بين هجرة الأدمغة في ميادين الطب والصيدلة والهندسة... ودوافعها وتداعياتها على المستوى الإقتصادي الإجتماعي. بمعنى آخر كلما إرتفعت وتيرة الهجرة بين الخريجين من الجامعات اللبنانية إنعكس الوضع سلبا على صعيد تلبية الحاجات التنموية على المستوى الوطني. إضافة الى تمركز المهاجرين في الخارج لا سيما الذين يهاجرون الى أوروبا وأميركا الشمالية وإندماجهم في تلك المجتمعات لناحية الزواج والجنسية والإستقرار النهائي والعودة الى لبنان تبقى محصورة بزيارات الأهل والأصدقاء.

للتوصل لتحقيق أهداف البحث إعتمدنا على منهجية مزدوجة تمثلت الأولى بالإطلاع على الأدبيات التي تناولت موضوع الهجرة بشكل عام والأدمغة بشكل خاص من مختلف جوانبها. وتمثلت الثانية بتجميع المعطيات الميدانية اللازمة للبحث، عبر عدة تقنيات منها الملاحظة التي تعتبر التقنية الأساس في الأبحاث الإحصائية الاجتماعية. فمن خلالها نصل الى لحظٍ دقيقٍ للمتغيرات المتعلقة بالظاهرة، لمقاربة دينامية التغيير الحاصل على الأفراد ذوي الشأن من المجتمع الذي إنطلقوا منه. إنها مقاربة بنيوية لموضوع هجرة الأدمغة المتمثلة برصد دينامية التغير الحاصل. أما البيانات الإحصائية فتمت من خلال جداول الإحصائيات المتوفرة لدى النقابات، ولدى المؤسسات والجمعيات المانحة للدراسات التخصصية، ومنها تم إستخلاص النسب والمقاييس.

الخلفية التاريخية للهجرة اللبنانية

إذا كانت الهجرة قد رسمت طبيعة المجتمع اللبناني تاريخيًا، إلا أنها ارتبطت إلى حدٍ بعيد بنظرية الدفع والجذب. حيث يؤدي لبنان دورًا مزدوجًا في هذه النظرية. إذ أنه يشكل حالة دفع قوية للهجرة في بعض الظروف الأمنية أو الإقتصادية من ناحية، وحالة جذب أخرى للعمالة الخارجية من ناحية ثانية. وبالرغم من أن الفوارق شاسعة جدًا بين هذه الإزدواجية، إلا أن وتيرة الهجرة اللبنانية إلى الخارج لم تكن بهذا المستوى من الإندفاع لو لم يرافقها عاملان أساسيان:

– الأول تمثل بالدعوة إلى الهجرة كثقافة موجهة بشكل أساسي إلى مسيحيي الجبل، والتي أرسى دعائمها بعض المنظرين أمثال ميشال شيحا وفيليب حتي وغيرهما، باعتبار أن جبل لبنان يضيق بسكانه ولم تعد خيرات الأرض تكفي لمعيشة السكان ولا سبيل أمام اللبنانيين سوى الهجرة تماثلًا بأجدادهم الفينيقيين.

– الثاني إجرائي، بفعل عوامل الفقر والاضطهاد التي سببها الإحتلال التركي وما تلاها من هجرات متتالية ومتلاحقة شجعتها سلطات الإنتداب الفرنسي نحو مستعمراتها في قارة إفريقيا لحاجتها لليد العاملة. كما ساهمت عوامل الجذب تجاه الدول المستقبلة في زيادة الطلب على المهنيين وأصحاب الكفاءات للعمل في مشاريع التنمية الإقتصادية.

إضافة لما تقدم، إستمرت ظاهرة الهجرة، في بداية التسعينيات من القرن الماضي، وتزامنت مع محاولات إعادة الإعمار، بالصعود والهبوط وفقًا لعوامل مؤثرة عديدة. فقد إزدادت الهجرة بسبب إنهيار النمو الإقتصادي وبسبب السياسات المالية والنقدية والتجارية التي إعتمدتها الحكومات المتعاقبة. إلا أنها إنخفضت خلال العام 2005 نتيجة الأحداث السياسية والأمنية التي شهدها لبنان، لتعود وترتفع خلال وبعد حرب تموز 2006. وشكّل العام 2008 تسارع الهجرة إلى الخليج العربي بسبب النمو المذهل لأسعار النفط، الذي رفع مداخيل الدول النفطية العربية، وبالتالي زاد الطلب على القوى العاملة اللبنانية بأجور مرتفعة (لبكي، 2011).

أما هجرة الأدمغة في لبنان فقد بدأت في القرن التاسع عشر، أيام الحكم التركي، ثم توالت فيما بعد مع الانتداب الفرنسي عام 1920، لم تتوقف حتى بعد الاستقلال عام 1943، وما زالت حتى تاريخه.

وهنا نستعرض ما قاله ميشال شيحا في أوائل القرن الماضي: "إذا كان لبنان لا يمكنه العيش من دون هجرة فإنه يموت من ضخامتها". وهذا ما يحصل اليوم لأن خطر الهجرة ماثل وبشكل عنيف، إذ يشكل لبنان الآن بلد إرسال وإستقبال في آن واحد. من جهة بلغ عدد النازحين إليه ما يقارب المليونين، أي ما يعادل نصف عدد المقيمين من اللبنانيين، وهجرة معاكسة للمقيمين من جهة أخرى. لكن الهجرة الخارجية من لبنان عرفت شكلًا واسعًا وفي مراحل متفرقة. واليوم المشكلة مطروحة بعنف والكلام بها متشعب لأنه يطال أكثر من موضوع على المستوى الوطني، الإقتصادي، الإجتماعي والسياسي وهي الآن مثار جدل في كافة الأوساط، ودخلت في بازار السجال السياسي القائم. إثر ذلك تضاربت الأرقام وبدأت تأخذ أشكالاً أبعدتها عن إطارها العلمي.

لابد من الإعتراف، أن مجال البحث عن هجرة الكفاءات أو عودتها، ليس بالأمر السهل. فالإحصاءات والمعلومات الدقيقة والشاملة غير متوفرة، إذ نحن أمام كتل من المتخصصين الذين لم يتم تتبع مسارها مطلقًا. حتى أن الدراسات عن الهجرة لم تصنف هؤلاء على حده، ولا يوجد معلومات من الدوائر الرسمية المختصة، حتى أن دوائر الهجرة بالسفارات تبدي تكتما تجاه هذا الموضوع. لذلك إعتمدنا على بعض المصادر المنشورة في تقارير رسمية، ومن سجلات بعض المؤسسات، وبعض الدراسات والأبحاث والصحف.

ظاهرة الهجرة في العصر الحديث تفاقمت، بعد أن ضاقت سبل العيش وتعددت المؤثرات المأساوية، فكان الهدف البلاد البعيدة ربما يجدون ما يشبع الطموح ويلبي الحاجات. وما نراه هو تزايد مستمر في حجم المهاجرين، وإتساعهم على رقعة الوطن. إذ ليست محصورة بمنطقة معينة أو طائفة فهي تشمل كافة شرائح المجتمع اللبناني، وهذا مرده إلى اليأس والأفق المسدود من أجل بناء مستقبل أفضل. والافت هو إستمرار الهجرة حتى بعد العام 1990 أي بعد توقف الأعمال العسكرية على أرض لبنان، وأيضاً بعد العام 2000

أي بعد تحرير أرض الجنوب، وربما إزدادت عن ما كانت عليه في السبعينيات والثمانينيات زمن الحرب. وهذا يدلنا أن العامل الأمني ليس السبب الوحيد، بحيث نجد تزايداً للهجرة مع إزدياد الضيق الإقتصادي. والمؤسف أن الهجرة تطال شريحة معينة وأساسية من المجتمع اللبناني وهي عنصر الشباب، وخاصة المثقفين منهم، وتشير بعض الدراسات بأن أكثر من ثلث الشباب اللبناني يخطط للهجرة. أما المحفز على الدراسة، فهو تزايد هجرة ذوي الإختصاصات وأصحاب الكفاءات العالية.

أما بالنسبة للعوامل الدافعة للهجرة كالعوامل الإقتصادية والإجتماعية فلبنان عانى وما زال يعاني من المطبات الأمنية والضيق الإقتصادي والبطالة والفقر والتهميش. أمر تجلى في غياب المشاريع الإنتاجية الصناعية، كما تراجع النظام الزراعي الذي كان يشكل الأساس الإنتاجي المعيشي لمعظم أبنائه، وهي أمور تساهم عادةً في تمتين أواصر إرتباط المواطن بأرضه.

وإذا تحدثنا عن قضية الإنتاج في لبنان وأثرها في ربط المواطن وإبقائه في أرضه، فلابد من الحديث أيضاً عن الجانب التاريخي والصراع الذي عاشته المناطق اللبنانية بسبب موقعها على حدود ساخنة مع العدو الإسرائيلي، الأمر الذي ساهم الى حد كبير في زيادة حراك سكانها وفي دفعهم للهجرة سواء الداخلية منها أو الخارجية. بمعنى آخر، شكل الصراع اللبناني/ الإسرائيلي، عاملًا أساسيًا، إن لم يكن الأبرز في تفاقم حركة الهجرة داخل المجتمع اللبناني.

وإذا كان للتهجير القسري دورًا في معاناة اللبنانيين، فإن الواقع لم يكن سلبيًا على الدوام، إنما ساهمت الهجرة في إعادة إعمار لبنان ونهوضه وإزدهاره وتطوره. فاللبنانيون وبالرغم من حراكهم وترحالهم المستمر في مختلف أصقاع الدنيا، إلا أنهم، وإن ابتعدوا مكانيًا عن قراهم فهم لم ينسلخوا عنها. ورغم تثاقفهم مع فضاءات ثقافية جديدة، إلا أنه ما زال بالإمكان التحدث عن هوية وذاكرة جماعية تشدهم إلى بلادهم.

لقد وظف الكثير منهم أمواله وخبراته في إعادة إعمار منطقته، فشهد لبنان تغيرات وتطورات سريعة وهامة في مختلف القطاعات والأصعدة. بذلك تحولت معظم المجتمعات من مجتمع يعتمد بشكل أساسي على النمط الإنتاجي الزراعي الى آخر بأنماط ريعية تعتمد على عائدات المهاجرين بشكلٍ أساسي. كما وبرز نمط معيشي بطابع إستهلاكي إتّسم بالبذخ والإفراط.

كما تغير العمران فتحول من البسيط الى القصور والأبنية الفخمة الباهظة التكاليف. بعد تغير في مفهومها القيمي إذ لم تعد مكاناً للسكن بل صارت مظهراً للتباهي والمكانة الاجتماعية والدلالة الرمزية. كما ارتفعت القدرة الشرائية للسكان، وعلى سبيل المثال الحالة العمرانية في البلدات: بنت جبيل، يارون، عيناثا ... وهذا من خلال الملاحظة المباشرة والمعاشة.

إن هذه التحولات المادية ليست إلا ترجمة لتغيرات إجتماعية هامة على صعيد الواقع الطبقي للمجتمع اللبناني. فلقد تسببت الهجرة ببروز فئات إجتماعية جديدة أزاحت فئات أخرى سيطرت وتنفذت لعقود ولأجيال عديدة سابقة. كما وأثرت عودة المهاجر في تغير أساليب الحياة التي يعيشها أفراد المجتمع، خصوصاً في الأنماط السلوكية، وصولاً إلى مفردات وأشكال ثقافية أخرى، مثل العادات والتقاليد وأنماط العمل والمعتقدات، وظهور متمايزات "ثقافية" مادية ورمزية في لبنان.

I. الهجرة : أنواعها وواقعها

تعتبر الهجرة حركة سكانية يجري من خلالها إنتقال الأفراد والجماعات من موطنهم الأصلي إلى وطن جديد يختارونه وذلك نتيجة لأسباب متعددة، بما تسمح به ظروف الدول المستقبلة، وبما يخدم الأوضاع الإقتصادية لكل من دول المهجر ودول المنشأ. يتم ذلك من خلال آليات تعاون فني وأمني وقضائي وتشريعي، في إطار الاحترام الكامل لحقوق المهاجرين.

أما أنواع الهجرة فتحدد بإتجاهين هما:

1. الهجرة الداخلية: هي هجرة السكان من منطقة إلى أخرى ضمن البلد نفسه أي داخل حدود الدولة، مثل الهجرة من الريف إلى المدينة.

2. الهجرة الخارجية: هي الهجرة التي تحدث خارج حدود الدولة.

ليبقى السبب الرئيسي للهجرة أن المهاجر يبحث دائماً عن حياة أفضل ومستوى معيشي أحسن، إلا أنها قد تشكل آثارًا سلبية على البلد الذي انطلقت منه.

لذلك يبحث المهاجر عادةً عن طلب الرزق وتحسين الواقع الإقتصادي ورفع المستوى المعيشي من خلال فرصة عمل أفضل. وأحيانًا تكون الهجرة نتيجة عوامل عدة منها: الهروب من أوضاع أمنية متردية، سياسات ضاغطة، إحتلال عسكري، حروب، ضائقة مالية وسوء الحالة الإقتصادية، الإضطهاد بسبب العقائد الدينية، إنتشار الأمراض والأوبئة، ظروف طبيعية مدمرة: زلازل، جفاف، ظروف مناخيه سيئة... وغيرها من الأسباب المتفرقة والمتشعبة.

إلا أن الإنتقال ولأي سبب كان، هو لتوفير متطلبات وشروط أفضل لحياة كريمة. أما الملاحظة البارزة مؤخرًا، أن الهجرة لم تعد مقتصرة على الذكور، فهي الآن مختلطة ومن الجنسين..

فيما يتعلق بالكفاءات العلمية فواقع هجرتها لا يختلف كثيرًا عن باقي الهجرات، وإنما تختلف بنتائجها.

اما أسبابها، فليس من سبب واحد لهجرة الكفاءات العلمية من لبنان، بل ذلك ناتج عن مجموعة عناصر ومسببات تؤثر وتتأثر بشكل تفاعلي. وتتوزع أسباب الهجرة على مجالات متنوعة، ويمكن أن تحصر في إتجاهين وهما:

1. أسباب دافعة:

• ضعف وإنعدام القدرة على إستيعاب الكفاءات العلمية؛ إذ يجدون أنفسهم عاطلين عن العمل وإن وجدوا فبرواتب متدنية جداً، أو بغير إختصاصهم.

• عدم ترابط التعليم وحاجات التنمية وسوق العمل؛ لتصبح الجامعات مصانع لتخريج حملة شهادات دون التخطيط المسبق لحاجة البلاد.

• عدم القدرة على كسب المعلومات بسبب ضعف الإمكانيات البحثية والعلمية، وعدم توفر المناخ العلمي في الدول النامية، أي تأمين الحد الادنى من المستلزمات الأساسية للبحث العلمي.

• التفاعل الثقافي بين الشرق والغرب نتيجة الإنفتاح التكنولوجي وخدمات الإنترنت، ما أدى الى سيادة التيارات التحررية.

• الخلل وعدم الأمان الاجتماعي بسبب ضعف الضمانات الصحية والغذائية والبيئية...

• كسب الرزق المرتبط بالضائقة الإقتصادية وعدم توفر الأمن الإقتصادي.

• كثافة السكان مع ضيق الموارد الإقتصادية.

• إرتفاع نسبة البطالة التي تترافق مع إنخفاض نسبة نمو الناتج المحلي، ما يؤدي الى تزايد في أعداد المهاجرين، والذي يحد بدوره من إرتفاع نسبة البطالة.

• تدني القدرة الشرائية في لبنان المترافقة مع الغلاء وإرتفاع الأسعار، ثم إتساع دائرة الفقر ومن هم دون خط الفقر.

• الإستبداد، قمع الحريات – وهنا نشير إلى أن الواقع ليس هجرة بل تهجير– حيث إضطراب الأحوال السياسية، بعدم وجود الأمن السياسي، وما يرتكب من جرائم وإرهاب وفساد مستشري.

• إنعدام الحياة الديمقراطية التي تتضلل بالقوانين والدستور كشعارات جوفاء.

• الخلل الحاصل على المستوى السياسي، وسيطرة النزاعات الطائفية والمذهبية والعشائرية والمناطقية، مما يضعف المواطنة والشعور بالإنتماء الوطني.

• الشعور بعدم الثقة والإطمئنان ما أدى الى قتل الطموح وأفق مسدود، إثر الأزمات والحروب المتتالية، فيصبح الهاجس تأمين جنسية ثانية.

• العامل الأمني وخاصة في العقود الأخيرة، وقد تمثل بدخول لبنان ضمن الصراع العربي الإسرائيلي، ثم الحرب الأهلية اللبنانية، وحاليا سوء وخلل في الأداء السياسي.

• الرغبة في المغامرة.

2. أسباب جاذبة

- الإغراء المادي؛ وهو نتيجة التفاوت الدخل بين الدول المصدرة للكفاءات، والدول المستقطبة لها.
- وجود دول تفتح أبوابها للهجرة مثل أميركا وكندا وأستراليا، ودول تمنح اللجوء السياسي أو تسهيلات بالإقامة.
- توفر فرص العمل.
- الحرية الشخصية والفكرية
- أنظمة تعليمية متطورة تساهم وتساعد طلبة العلم والباحثين للقيام بدراساتهم وأبحاثهم.
- نوعية حياة أفضل

هذه الأسباب وغيرها كان لها الأثر على المجتمع اللبناني، كما أثرت على البنية الإقتصادية بما فيها عوامل الإستثمار والتنمية المستدامة وتضاؤل فرص العمل التي تتماشى مع المحصلات العلمية التي أنجزها الشباب.

II. حجم الهجرة

للهجرة المغادرة سياسات غائبة لدى الدولة اللبنانية، فهي لا تمتلك وللأسف إحصاءات عن عودة الكفاءات، مع العلم أن هناك إحصاءات عن عودة الرساميل المالية. ولكن الرأسمال البشري ما زال مهمشاً في معرفته من حيث المغادرة أو العودة للوطن. كل ما يمكن قوله بناءً على الإحصاءات الرسمية المتاحة هو أن أعداد اللبنانيين الذين يبقون في الخارج سنوياً هي كبيرة وفي إزدياد مضطرد ولكنها غير معروفة بدقة أو بالتفاصيل المطلوبة لما لهذه الإحصاءات من شوائب يصعب تقديرها (طبارة، 2000).

بالإستناد الى بعض الدراسات التي تفيد أن لبنان هو أكثر البلدان العربية هجرة، حيث يأتي في المرتبة الأولى نسبيا من حيث المهاجرين من المهندسين والعلماء والأطباء غيرهم من أصحاب الاختصاص (زين، 1972).

فقد أشارت إحصائيات وزارة العدل في الولايات المتحدة الأميركية عن المهاجرين من الدول العربية، أن الأشخاص المهاجرين وخاصة الكفاءات منهم والذين حصلوا على الجنسية الأميركية بين عامي 1966 و1969، أن للبنان موقع بارز ضمن هذه الظاهرة. كان هذا إستنتاج نسبي بالمقارنة بين حجمه وعدد سكانه مع باقي الدول العربية، بحيث تبرز ظاهرة الهجرة بين المجتمعين الفلسطيني واللبناني وذلك له دلالة واضحة عن المعاناة على أكثر من صعيد.

يتوزع هؤلاء المهاجرين على بعض البلدان العربية وفق الشكل التالي (U.S, 1970):

جدول رقم 1: هجرة كفاءات بعض الدول العربية إلى أميركا 1966 – 1969

البلد	عدد الأخصائيين والفنيين	المجموع الكلي	نسبة الكفاءات
مصر	357	**1318**	**27.1%**
لبنان	326	**1409**	**23.1%**
العراق	211	**975**	**21.6%**
المغرب	39	**387**	**10.1%**
سوريا	118	**539**	**21.9%**
الأردن (مع عرب فلسطين)	194	**1581**	**12.3%**

Reference: U.S, Department of justice, Immigration and Naturalization Service, Annual reports, Tables 40

أما هجرة الكفاءات العربية إلى كندا بين عامي 1962 و 1967 فقد توزعت بحسب المفوضية العامة للامم المتحدة على الشكل التالي (United Nations G.، 1968):

جدول رقم 2: هجرة كفاءات بعض الدول العربية إلى كندا 1962 – 1967

	مصر	لبنان	سوريا
فنيون	913	244	37
مهندسون	116	19	5
علماء طبيعة	68	8	2
أطباء	100	41	9
ممرضات	7	10	2
أساتذة	17	11	1
أرباب مهن	1929	890	100
مجموع الكفاءات	**3.150**	**1.223**	**156**
مجموع المهاجرين الى كندا	**9.616**	**3.693**	**458**
نسبة الكفاءات من المهاجرين	**32.8%**	**33.1%**	**34.1%**

Reference: United Nations General Assembly, 5 November 1968, A/7294 tables I-B.

أما هجرة الكفاءات إلى فرنسا، من خلال الذين منحوا إجازات عمل، بين عامي 1962 و1966 هم كالتالي (United Nations, 1968):

جدول رقم 3: هجرة كفاءات بعض الدول العربية إلى فرنسا 1962 – 1966

البلد	مهندس	علماء طبيعة	أطباء	أساتذة	المجموع
لبنان	129	24		1	**154**
المغرب	129	14	2	6	**151**
تونس	94	11	3		**108**
سوريا	56	9	4		**69**
مصر	44	13			**57**
العراق	1	4	1		**6**
الأردن			1		**1**

.Reference: United Nations General Assembly, 5 November 1968, A/7294 tables I-D

هذه نماذج من الهجرة في الستينيات، وقد تفاقم الوضع بعد ذلك في لبنان وخاصة بعد العام 1970 مع إتفاقية القاهرة ودخول لبنان بشكل مباشر في حلبة الصراع العربي الإسرائيلي. ثم جاءت أحداث عام 1975 لتزيد المشاكل والأعباء، ثم الاجتياح الإسرائيلي المحدود عام 1978، وتلاه الإجتياح الواسع عام 1982، وإنشاء الشريط الحدوي المحتل لغاية العام 2000. حرب تصفية الحساب العام 1993، حرب عناقيد الغضب العام 1996، وحرب تموز العام 2006، وأخيراً منذ أواخر العام 2019 وبداية العام 2020 تراكمت الأزمات الأمنية والإقتصادية والصحية، والحبل على الجرار، كل ذلك ساهم بازدياد أعداد المهاجرين بشكل عام وأصحاب الكفاءات بشكل خاص.

III. الآثار المترتبة عن هجرة الأدمغة

للهجرة آثار متعددة منها الإيجابية ومنها السلبية. تبرز الآثار السلبية ضمن أبعاد ثلاثيه، وهي:

1. آثارها على الأفراد

حيث يصعب على العديد من الأفراد التأقلم والعيش في البلد الجديد. ما يتوجب عليهم تعلم لغة جديدة، والتأقلم مع عادات وتقاليد البلد المضيف، ليبدأ الصراع بين الآباء والأبناء...

2. آثارها في المجتمع الذي انطلقت منه

إن هجرة الأدمغة اللبنانية من حيث الكم أو النوع، تشكل خسارة على مختلف المستويات الاجتماعية، الإقتصادية والثقافية. إذ أن هذه الهجرات تحد من حيوية ونشاط المجتمع، لتسيطر حالة من الشلل والركود للإفتقار لعنصر الشباب بشكل عام والكفاءات العلمية بشكل خاص، ما يؤدي إلى عرقلة مسيرة التنمية والنهوض. مع العلم أن الهجرة قد إنطلقت من بلد يعاني الحروب وعدم الإستقرار الأمني والإقتصادي

والكثافة السكانية والبطالة والفقر... ما يساعد على التخفيف من نسبة البطالة والتقليل من معدل الفقر. لكنها تعمل في المقابل ايضاً على هجرة العقول وغياب العديد من الكفاءات ونزوحهم إلى الخارج لتتردّى بعدها الحياة العلمية والإقتصادية، هذا ما يعانيه لبنان ودول العالم الثالث بشكل عام. كما أحدثت الهجره خللًا في البنى الاجتماعية، إذ سادت ظاهرة التأنيث على المقيمين في المجتمع اللبناني.

3. آثارها في المجتمع الذي وصلت اليه

يعاني المهاجرون معاملة غير عادلة في السكن والتوظيف كونهم من الأقلّيات، وتعيش أعداد كبيرة منهم في الأحياء الفقيرة المزدحمة. حتى أن البعض لا يجد سوى أعمال صعبة تستغرق ساعات طويلة وأجوراً منخفضة وظروف عمل سيئة. ويزداد امتعاظهم في أوقات الكساد الإقتصادي عندما تقل فرص العمل.

وبالمقابل شكلت تحويلات الكفاءات المغادرة مورداً هاماً لقسم كبير من اللبنانيين الذين فقدوا موارد رزقهم خلال الحرب أو الأزمة الأخيرة. وهذه التحويلات تشكل تعويضًا نسبيًا لما فقده لبنان من خبرة أبنائه المهاجرين. لذلك لا يمكن تجاهل التأثير الإيجابي للهجرة عامة ولهجرة الكفاءات خاصة، الذي برز دورها في الحالات التالية:

1. دعم الكفاءات علميا، من خلال ما توفره الدول الجاذبة من تقنيات ومناهج ومختبرات وكل السبل المحفزة للبحث العلمي. ما يؤدي الى تحقيق الطموح المطلوب.

2. بروز علماء لبنانيين متفوقين وفي مختلف الإختصاصات، وهذا يؤثر في الطلب من خلال السمعة الطيبة والمميزة

3. التحويلات المالية الى لبنان، وهذا جلي بالأرقام المتداولة من المهاجرين بشكل عام والكفاءات بشكل خاص، وغالبا ما تطرح من قبل الإقتصاديين ورجال المال، بأن هذه التحويلات تسد جزءاً من العجز المالي في الموازنة العامة. وهنا نتمنى بعد المستجدات المالية الراهنة، ألّا يشعر هؤلاء بالخيبة من تلاشي مدخرات سنوات العمل والشقاء.

4. المساهمة الإيجابية للعائدين بنشر خلاصة معلومات ومكتسبات معرفية الى ذويهم وكل من يحتك بهم مباشرة أو من خلال نشر نتاجهم العلمي.

IV. نماذج من هجرة الأدمغة

يشكل لبنان اليوم نموذجاً لظاهرة الهجرة الدولية، لما تتميز من أبعاد ومضامين جديرة بالإهتمام والدراسة العلمية هذا بشكل عام، وهذه الظاهرة تتفاقم حاليا بشكل خاص.

تطال الهجرة كافة اللبنانيين وعلى كافة المستويات: المناطقية، الطائفية والطبقية، لتظهر بشكل جلي في النسب العالية لهجرة الأدمغة، منها: الأطباء، المهندسون، العلماء، الباحثون. وحاليا يتم تداول أرقام خيالية لطالبي الهجرة لمختلف اللبنانيين وبالأخص ضمن المستويات الجامعية.

تعتبر ظاهرة الهجرة إحدى خصائص لبنان المعاصر، وتطال هذه الظاهرة مختلف المناطق، من أجل ذلك نحاول الرصد والتحليل لمداخلتنا هذه.

1. هجرة الأطباء

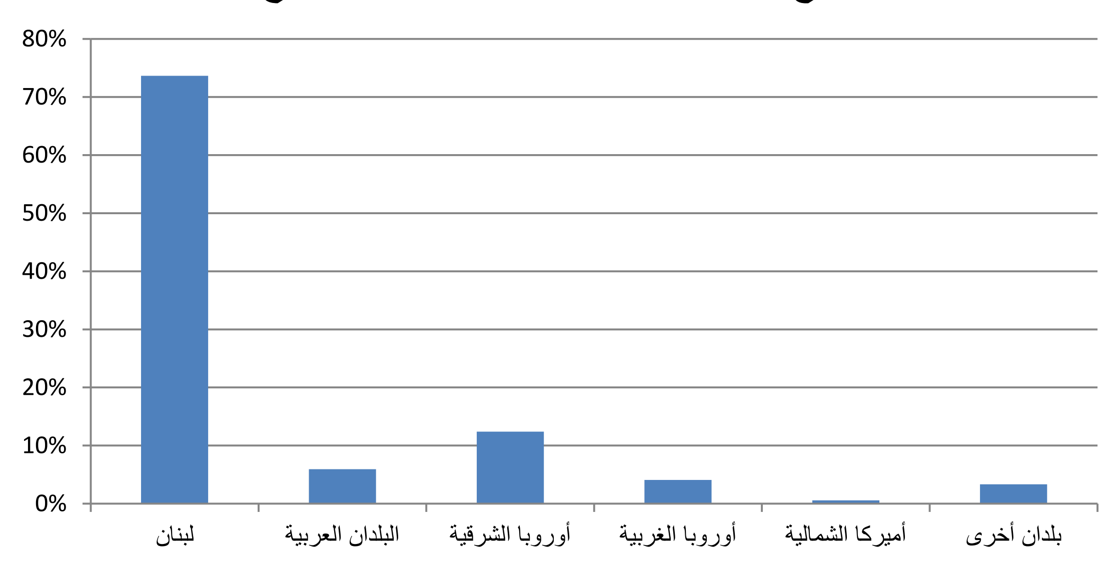
صرح نقيب الأطباء في لبنان عبر وسائل الإعلام، بأن مئات الأطباء على إستعداد لمغادرة لبنان والعمل في الخارج، منبِّها من كارثة حقيقية في حال إستمر النزيف الحاصل في القطاع الطبي. وأشار إلى تهافت دول أوروبية وكندا وأميركا وعدد من الدول العربية المجاورة على توظيف الأطباء.

وتفيد سجلات النقابة (Eid, 2020) بأن الأطباء موزعين على الشكل الآتي :

- المسجلون حالياً حتى نهاية شهر أيلول 2020 بلغ 12286
- المتقاعدون منهم بلغ 679 طبيباً حتى تاريخه
- اما المتوفين فبلغ 1097
- المشطوبون منهم بلغ 1618 حتى تاريخه.

تتعدد الأسباب لشطب الطبيب من النقابة أبرزها عدم دفع الإشتراكات أو مشاكل إدارية إكتشفت لاحقاً. إلا أن السبب الأخير نادر الحصول بحسب المعنيين، لنستنتج أن وجود الطبيب خارج لبنان هو ما يدفعه الى التخلف عن سداد الإشتراكات، مع العلم يمكن للبعض أن يكون مسافرًا ويدفع كل المستحقات وهذا ما لا يمكن حصره.

أما مصادر شهادات وتخرج الأطباء المسجلين في النقابة فقد توزعت على القارات الخمس، إلا أن الشهادات اللبنانية تبقى الأعلى نسبةً حيث بلغت 70% من الخريجين المسجلين.



رسم بياني رقم 1: توزع الأطباء النقابيين بحسب بلد التخرج

المصدر: أرشيف نقابة الأطباء بتاريخ 2020/9/24

هنا ملاحظة مهمة تتعلق بعدد الأطباء بالنسبة لعدد السكان؛ إذ لكل 429 مواطنًا طبيبًا، وهي حصيلة معادلة بأن عدد سكان لبنان حالياً يقدر بـ 4.8 مليون نسمة بحسب آخر منشورات إدارة الإحصاء المركزي (ACS, ILO, & EU, 2020)، و11.189 طبيباً (بإستثناء المتوفين). وهؤلاء موزعون على 76 إختصاصًا مختلفًا، يستقطب الطب العام أغلبية الثلث، والثلثين لباقي الإختصاصات.

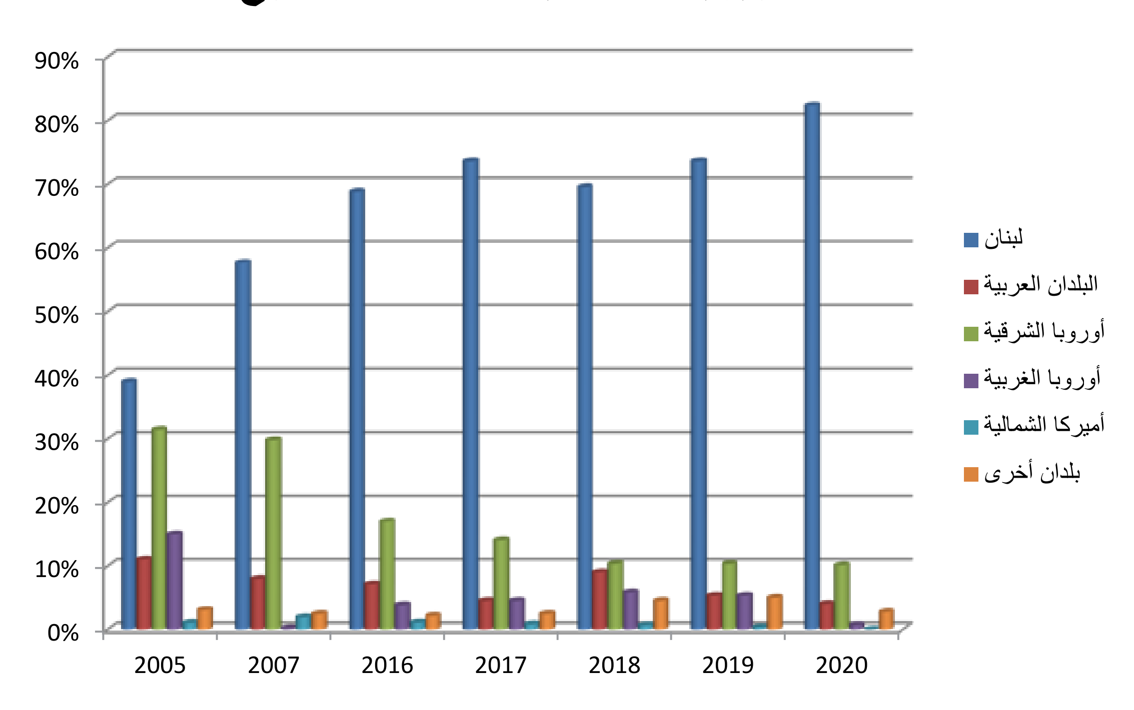
ومن سجلات النقابة أيضًا، نلاحظ إنخفاض تدريجي في أعداد الأطباء المنتسبين خاصة خلال السنوات الخمس الماضية. وذلك ربما لإعتبارات متعددة منها: تزايد الأعداد بما يفوق الطلب المحلي، أو إنخفاض الدخل والتقديمات للأطباء الجدد، أو متابعة الدراسة التخصصية، أو البقاء مكان التخصص وبالتحديد أوروبا الغربية وأميركا الشمالية، وهذا ما تم ملاحظته بأن الأطباء المسجلين في النقابة والمتخرجين من هذه الجامعات تتضاءل أعدادهم بشكل ملحوظ. وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم 4: توزع الأطباء النقابيين بحسب بلد التخرج خلال الأعوام الخمس الماضية

سنة / بلد التخرج	2016	2017	2018	2019	2020	المجموع
لبنان	195	277	215	221	244	1152
البلدان العربية	20	17	28	16	12	93
أوروبا الشرقية	48	53	32	31	30	194
أوروبا الغربية	11	17	18	16	2	64
أميركا الشمالية	3	3	2	1	0	9
بلدان أخرى	6	9	14	15	8	52
المجموع	283	376	309	300	296	1564
المجموع	283	376	309	300	296	1564

المصدر: أرشيف نقابة الأطباء بتاريخ 24/9/2020

الملاحظة البارزة في أعداد الأطباء، أن المتخرجين من الجامعة اللبنانية أو من داخل لبنان هم في تزايد مستمر. حتى العام 2005 كانوا يشكلون ما يقارب 40% من الجسم الطبي، أما في العام 2007 فأصبحوا يشكلون حوالي 58% من إجمالي الأطباء المسجلين. لترتفع النسبة تدريجياً الى 82% من المتخرجين العام 2020 والمسجلين في النقابة، كما يبين الرسم البياني التالي:

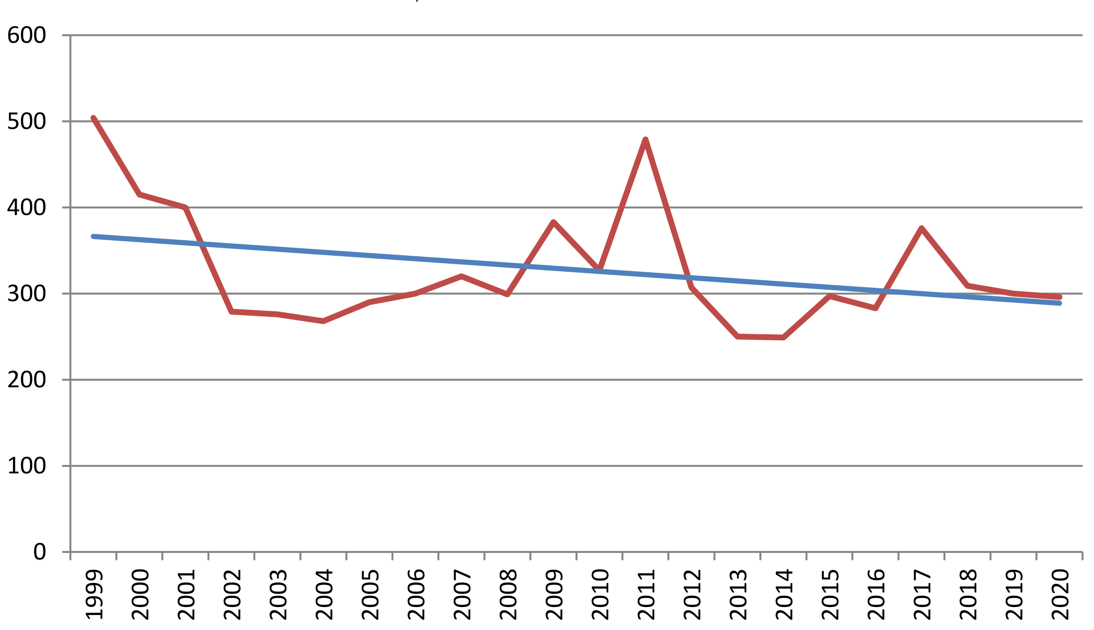


رسم بياني رقم 2: نسبة الخريجين المنتسبين بحسب بلد التخرج

المصدر: ارشيف نقابة الأطباء بتاريخ 2020/9/24

كما نلاحظ جلياً الإنخفاض التدريجي لأعداد الخريجين من جامعات أوروبا الشرقية، مع العلم أن التوجه لهذه الجامعات مازال مرغوباً لإنخفاض التكلفة، بالمقارنة مع الجامعات الغربية وخاصة "الأمريكية، الكندية، البريطانية..." وبعض المنح ما زالت تقدم للتعلم في هذه البلدان. أما في ما يتعلق بالخريجين من جامعات أوروبا الغربية فبعد أن كانت تشكل 15% من مجموع الخريجين المنتسبين للنقابة، إنخفضت النسبة تدريجياً ايضاً الى 1% خلال العام الحالي. كذلك الحال بالنسبة للمتخرجين من أميركا الشمالية، حيث إنعدمت نسبة المنتسبين للنقابة خلال 2020. أما مردّ ذلك فيعود إلى زيادة التكلفة في هذه الجامعات، أو غالباً بقاء هؤلاء الأطباء في الخارج للعمل في البلدان التي تخصصوا فيها.

من خلال هذه النسب، وخاصة الخريجون من لبنان إزدادت بشكل ملحوظ منذ بداية الألفية الثانية، إلا ان أعداد المنتسبين الى إنخفاض! كما يشير الرسم البياني الزمني التالي:



رسم بياني رقم 3: عدد الاطباء المسجلين بحسب العام منذ بداية القرن

المصدر: أرشيف نقابة الأطباء بتاريخ 2020/9/24

من خلال هذا الجدول الزمني يمكن ملاحظة تدني نسبة الأطباء المسجلين في النقابة خلال السنوات الماضية وبشكل تدريجي خلال الأعوام الأربعة الأخيرة. هذا بالرغم من أن أعداد الخريجين من الجامعات اللبنانية إلى إرتفاع (كما رأينا سابقًا)، ما يشير الى ان الإنتساب الى النقابة لا يشمل كل الأطباء الخريجين، فهل هجرة الخريجين المقيمين هي السبب؟

بالمحصلة يمكن إستنتاج تدني أعداد الأطباء المنتسبين الى النقابة، وخاصة أولائك الخريجين من أوروبا الغربية حيث تدنت النسبة بحوالي 14% من مجمل الخريجين منذ العام 2005. وكذلك الخريجين من أميركا الشمالية، حيث إنعدمت أعداد المنتسبين للنقابة من الوافدين! ما يشير جليًا أن هذه الدول مستقطب رئيسي للاطباء، حيث يوفرون لهم العمل فور تخرجهم ما يعيق عودتهم الى لبنان. الى جانب نسبة 13.2% من المشطوبين من سجلات النقابة، ما يعني عدم متابعة إنتسابهم ودفع المستحقات اللازمة، ربما دلالة لهجرتهم خارج البلاد خاصة وأن من يعمل داخل البلد هو حكمًا منتسب.

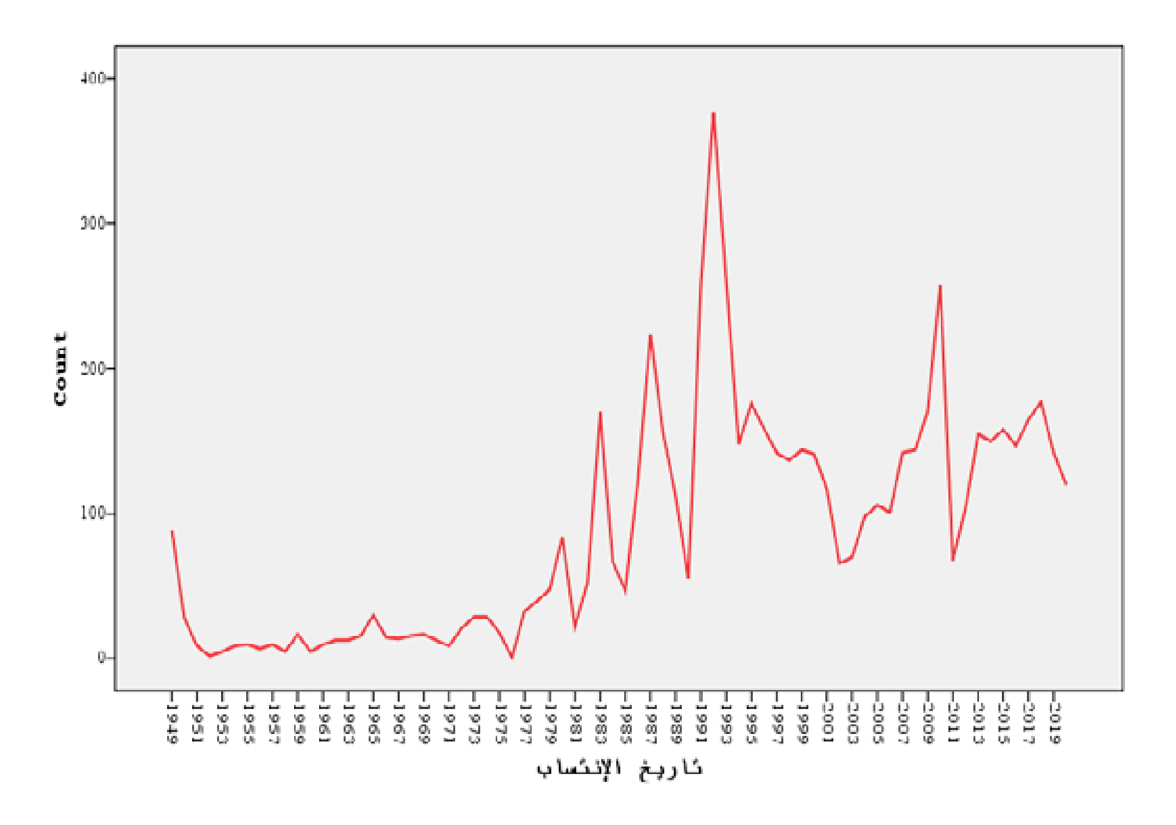
2. هجرة أطباء الأسنان

تفيد سجلات نقابة طب الأسنان (Kayali, 2020) بأن عدد أطباء الأسنان المسجلين، يتوزعون على الشكل الآتي :

- عدد أطباء الأسنان المسجلين حالياً: 6298 طبيباً
- عدد الأطباء الذين يعملون خارج لبنان ومصرحين للنقابة: 432 طبيباً.
- عدد الأطباء المتوفين: 342 طبيباً.
- الأطباء المشطوبون: 559 طبيباً
- الأطباء المتقاعدون: 318 طبيباً

الإنتساب إلى النقابة كان متقلبًا عبر مختلف السنوات، وذلك حسب سنوات التخرج وعودة الخريجين إلى وطنهم، متأثرًا بسنوات السلم والحرب والهزات الامنية والإقتصادية، ليتوزعوا على الشكل التالي:

أعداد أطباء الأسنان المنتسبين سنوياً منذ تأسيس النقابة

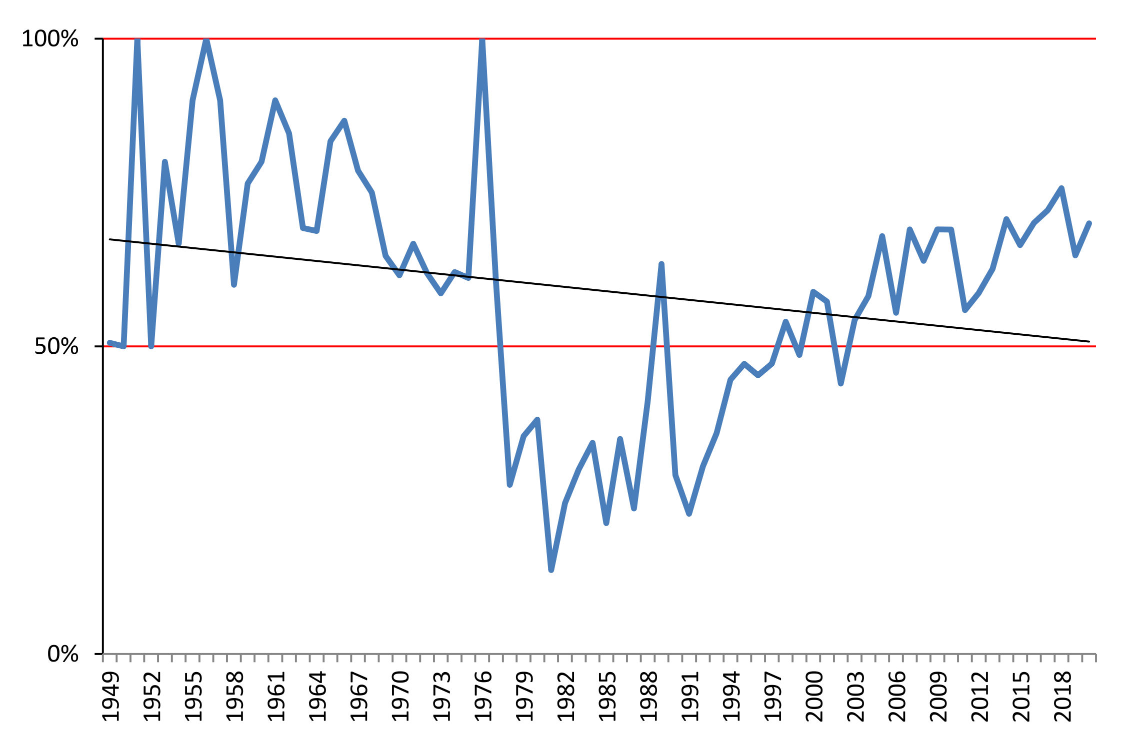


رسم بياني رقم 4: أعداد أطباء الأسنان المنتسبين سنوياً منذ تأسيس النقابة

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 2020/9/25

الملاحظة البارزة في أعداد أطباء الأسنان، أن المتخرجين من الجامعة اللبنانية أو من الجامعات الخاصة داخل لبنان هم في تزايد مستمر. فقد أشارت بيانات النقابة أن الخريجين من جامعات لبنان كانوا يشكلون ما يقارب 45% من الجسم الطبي في العام 2002، وبدأت النسبة بالإرتفاع منذ ذلك التاريخ لتصل الى 70% في الـ 2020، وهذا ما يبينه الرسم البياني الآتي:

أطباء الأسنان الخريجين من لبنان والمنتسبين للنقابة



رسم بياني رقم 5: أطباء الأسنان الخريجين من لبنان والمنتسبين للنقابة

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 2020/9/25

هذا التزايد من الخريجين من داخل لبنان، من المفترض ان نجده ارتفاعًا موازيًا في أعداد النقابيين المنتسبين. إلا أن الواقع يشير أن أعداد المنتسبين في تدنٍ مستمر منذ العام 2016 (كما أشرنا في الرسم البياني رقم 4). فهل نفترض أن أطباء الأسنان يمارسون المهنة داخل لبنان دون الإنتساب للنقابة؟ أم أنهم غادروا البلد ليمارسوها في الخارج؟

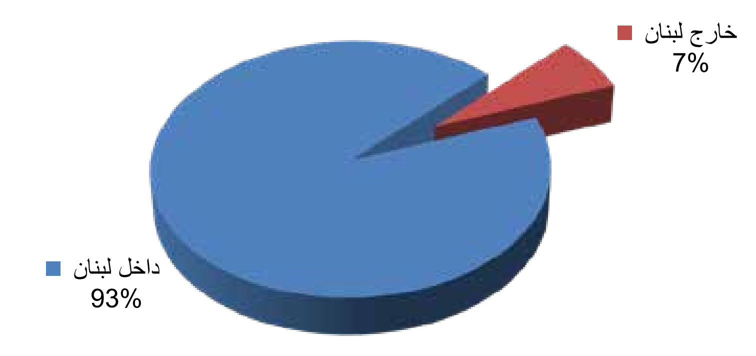
هذا في ما يتعلق بخريجي لبنان، أما خريجي باقي الدول من مجمل النقابيين فهم يتوزعون على الشكل التالي:

جدول رقم 5 : بلد تخرج النقابيين من أطباء الأسنان

	Frequency	Percent	Valid Percent	Cumulative Percent
الجامعة اللبنانية	1086	17.2	17.2	17.2
الجامعات الخاصة في لبنان	2178	34.6	34.6	51.8
دول عربية	766	12.2	12.2	64.0
أوروبا الشرقية	1683	26.7	26.7	90.7
اوروبا الغربية	336	5.3	5.3	96.0
أميركا الشمالية	57	9.	9.	97.0
أميركا اللاتينية	62	1.0	1.0	97.9
دول أخرى	130	2.1	2.1	100.0
Total	6298	100.0	100.0	

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 25/9/2020

كما أوردنا سابقًا، يبين هذا الجدول أن نسبة الخريجين من داخل لبنان تفوق الـ 50% من مجمل أطباء الاسنان المنتسبين للنقابة منذ تأسيسها. لتأتي بعده دول أوروبا الشرقية والدول العربية، أما خريجي أميركا الشمالية فهم لا يتعدوا الـ1%، ربما لأنهم يمارسون العمل خارج البلد ولم ينتسبوا للنقابة بعد. حيث ان 7% من المنتسبين للنقابة قد صرحوا بأنهم يمارسون العمل خارج البلد، وعددهم 432 طبيبًا من مجمل النقابيين:



رسم بياني رقم 6: توزع أطباء الأسنان النقابيين بين من يعمل داخل البلد وخارجه

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 2020/9/25

ويتوزع من يعمل خارج لبنان بحسب بلد التخرج على الشكل التالي:

جدول رقم 6: جدول مزدوج بين بلد التخرج ومن يعمل داخل وخارج لبنان من أطباء الأسنان بلد التخرج * يعمل خارج لبنان Crosstabulation

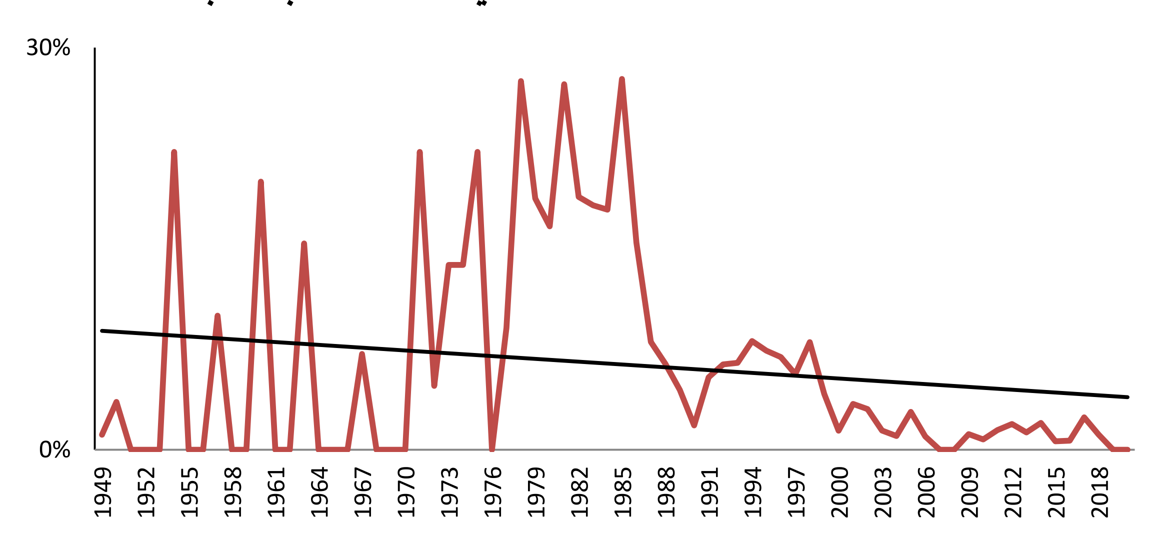
			يعمل خارج لبنان		Total
			كلا	نعم	
بلد التخرج	الجامعة اللبنانية	Count	1007	79	1086
		% within يعمل خارج لبنان	17.2%	18.3%	17.2%
	الجامعات الخاصة في لبنان	Count	2049	129	2178
		% within يعمل خارج لبنان	34.9%	29.9%	34.6%
	دول عربية	Count	720	46	766
		% within يعمل خارج لبنان	12.3%	10.6%	12.2%
	أوروبا الشرقية	Count	1561	122	1683
		% within يعمل خارج لبنان	26.6%	28.2%	26.7%
	اوروبا الغربية	Count	298	38	336
		% within يعمل خارج لبنان	5.1%	8.8%	5.3%
	أميركا الشمالية	Count	44	13	57
		% within يعمل خارج لبنان	.8%	3.0%	.9%
	أميركا اللاتينية	Count	60	2	62
		% within يعمل خارج لبنان	1.0%	.5%	1.0%
	دول أخرى	Count	127	3	130
		% within يعمل خارج لبنان	2.2%	.7%	2.1%
Total		Count	5866	432	6298
		% within يعمل خارج لبنان	100.0%	100.0%	100.0%

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 25/9/2020

يتبين لنا من الجدول أعلاه أن النسبة الأكبر من النقابيين الذين يعملون في الخارج هم من خريجي الجامعة اللبنانية والجامعات الخاصة في لبنان. فقد تعلموا وتخصصوا في لبنان ليختاروا طريق الهجرة فيما بعد، يليهم خريجي جامعات أوروبا وأميركا الشمالية، بحيث يبقى المتخرج منها في بلاد الإغتراب لينتسب للنقابة عن بعد.

وبالإشارة الى خريجي أوروبا الغربية مثلًا، نجد أن إنتسابهم عبر السنوات يقل تدريجيًا. فبعد ان كانوا يشكلون ما يقارب الـ 30% من المنتسبين خلال الأعوام 1978 و1985، بدأت هذه النسبة بالتدني تدريجيًا الى ان وصلت الى 1% عام 2018 و0% خلال السنتين السابقتين كما يشير الرسم البياني التالي:

أطباء الأسنان المنتسبين للنقابة والخريجين من أوروبا الغربية



رسم بياني رقم 7: أطباء الأسنان المنتسبين للنقابة والخريجين من أوروبا الغربية منذ تاسيس النقابة

المصدر: أرشيف نقابة أطباء الأسنان بتاريخ 2020/9/25

من خلال الرسم البياني السابق، وكملخص لوضع أطباء الأسنان في لبنان هناك عدة مؤشرات يمكن التطرق لها. فإلى جانب الـ 7% من المصرحين بأنهم يعملون خارج لبنان، هناك 9% مشطوبون لعدم متابعتهم أمور النقابة. كما أن الإرتفاع المتزايد للخريجين من الجامعات اللبنانية، كان من المفترض أن يصاحبه إرتفاع موازٍ لأعداد المنتسبين، وهذا ما لم نراه وخاصة خلال السنوات الخمس الماضية. وبالإشارة الى البلدان الأكثر إستقطابًا لمهاجري الأدمغة، كدول أوروبا الغربية مثلًا وجدنا أن الأعداد المنتسبة والوافدة من هذه الدول تتضاءل تدريجيًا. فبعد أن كانت تمثل 30% من الخريجين المنتسبين في أواخر القرن الماضي، أصبحت شبه معدومة حاليًا.

بالمقارنة مع الواقع ومع الجهات مانحة، التي تؤكد بأن الغالبية العظمى للممنوحين والذين يتابعون دراستهم في الخارج يتوجهون بشكل أساسي الى أوروبا الغربية عامة وفرنسا بشكل خاص، ما يجعلنا نضع علامة إستفهام حول نسبة الـ30% من الخريجين الذين إفتقدتهم النقابة، فهل ما زالوا في الخارج وحضنتهم بلاد الإغتراب؟

3. هجرة الممرضين والممرضات

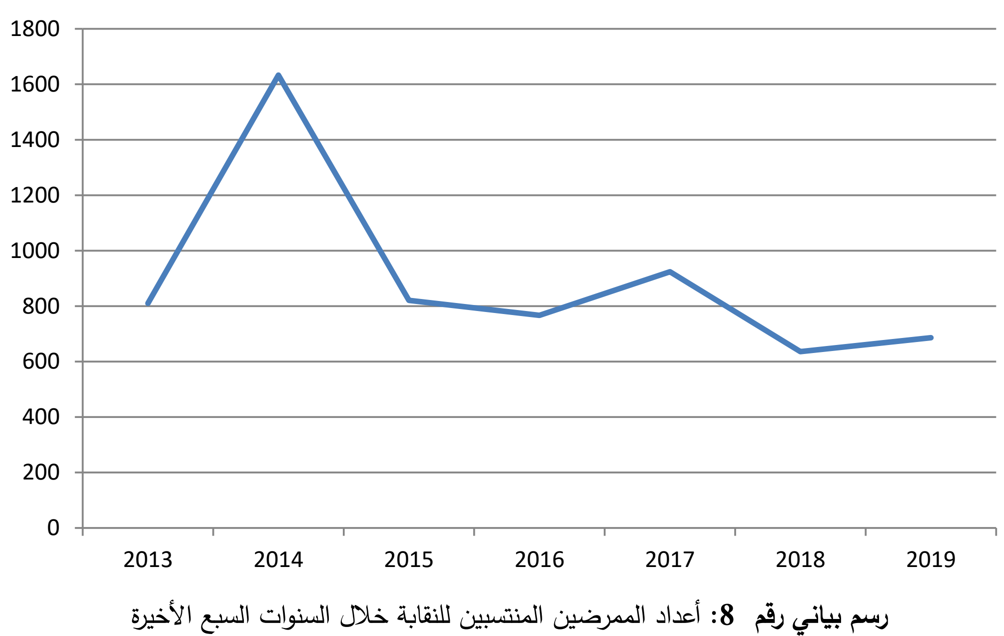
تحدثت نقيبة الممرضين والممرضات في لبنان عن عشرات الطلبات التي تصلها من المنضوين في النقابة للحصول على إفادة إنتساب تطلبها المؤسسات الصحية والمستشفيات في الخارج. لافتة إلى أن هجرة العاملين في القطاع بلغت مستويات غير مسبوقة نتيجة الرواتب المنخفضة أو عدم تقاضي الرواتب، والإجازات غير المدفوعة إضافة لظروف العمل غير الآمنة (Order-Nurses, 2020).

جدول رقم 7: توزيع الممرضات والممرضين المنتسبين الى النقابة حسب الوضع المهني عام 2019

الوضع المهني	العدد	النسبة المئوية
يعمل في لبنان	11604	70.95%
لا يعمل متقاعد	1991	12.17%
غير مصرح	2060	12.59%
يعمل خارج لبنان	701	4.29%
المجموع	**16356**	**100%**

المصدر: إحصائيات نقابة الممرضات والممرضين في لبنان بتاريخ 2020/9/27

تختلف نسبة المنتسبين لنقابة الممرضين والممرضات من سنة لأخرى، فبعد أن إرتفعت بنسبة 13% بين عامي 2013-2014، إلا أنها عادت وإنخفضت الى 4% خلال السنتين السابقتين. أما أعداد النقابيين المنتسبين خلال السنوات السبع الأخيرة، فتتوزع كالتالي:



رسم بياني رقم 8: أعداد الممرضين المنتسبين للنقابة خلال السنوات السبع الأخيرة

المصدر: إحصائيات نقابة الممرضات والممرضين في لبنان بتاريخ 2020/9/27

النقابييون المنتسبون الذين صرحوا بأنهم يعملون في الخارج، كانت نسبهم متقاربة خلال السنوات الأخيرة حيث تراوحت بين %3 عام 2012، لترتفع الى %5.3 خلال العامين 2014 و 2015، لتتدنى مجدداً العام المنصرم الى %4.3. إلا أن التصريحات الأخيرة لنقيبة الممرضين والممرضات، وبناءً للإفادات المطلوبة من المنتسبين، تنذر بإرتفاع كبير لهذه النسبة حتى نهاية العام 2020.

4. هجرة الصيادلة

مصادر نقابة الصيادلة في لبنان (Hayek, 2020) تفيد بأن عدد الصيادلة المسجلين حاليا والذين إستوفوا الشروط القانونية بلغ 9212 صيدلي، والمتقاعدون 284 صيدليًا. من يمارس المهنة يشكل %73 من مجمل المنتسبين، فيما الباقي لا يعمل أو أنه خارج البلد، ليشكلوا ثلث المنتسبين تقريباً بنسبة %27.

يتوزع الصيادلة العاملين مناصفة تقريباً بين مهن حرة خاصة (%50.04)، وبين موظفين ضمن شركات أو مختبرات أو مستشفيات (%49.96). لتستقطب الصيدليات النسبة الأكبر منهم، ويتوزعوا على الشكل التالي:

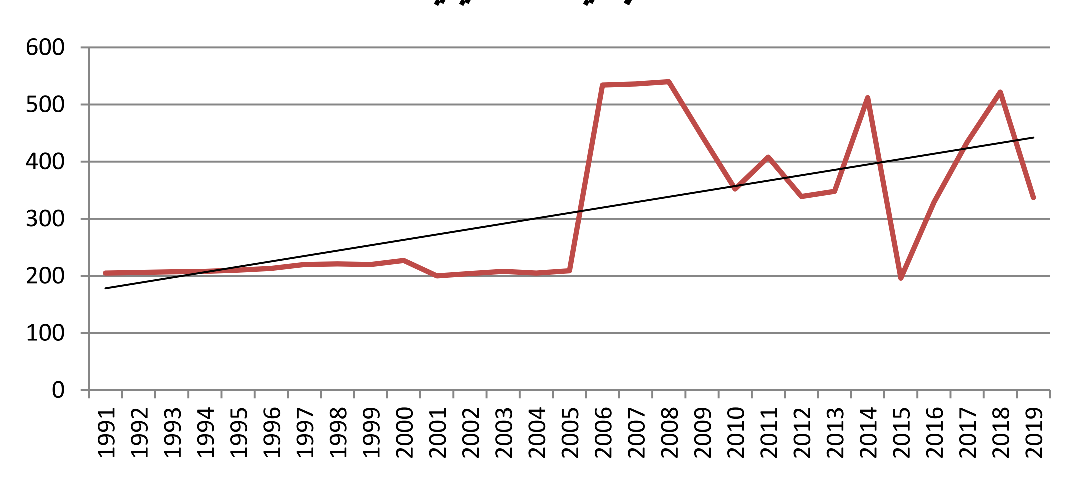
جدول رقم 8: توزع الصيادلة العاملين النقابيين بحسب نوع الوظيفة

الوظيفة	العدد	النسبة
صيدلية خاصة	4249	63.1%
صيدلية داخل مستشفى	351	5.2%
مختبرات طبية	88	1.3%
وكيل او موزع	867	12.9%
مصانع أدوية	83	1.2%
شركات أدوية ودراسات	579	8.6%
قطاع عام	515	7.7%
المجموع	**6732**	**100%**

المصدر: أرشيف نقابة الصيادلة بتاريخ 2020/9/25

تشير الأرقام داخل الجدول أن نسبة الصيادلة الذين يعملون في صيدليات هي 63.1% اما النسبة الادنى فهي من حصة المختبرات الطبية ومصانع الادوية.

أعداد المنتسبين للنقابة كان تصاعدياً عبر مختلف السنوات، وذلك حسب سنوات التخرج وعودة الخريجين إلى وطنهم، وقد توزعوا على الشكل التالي:



رسم بياني رقم 9: عدد الصيادلة المنتسبين للنقابة بحسب العام منذ بداية التسعينيات

المصدر: أرشيف نقابة الصيادلة بتاريخ 2020/9/25

غالبية الخريجين بنسبة 73% هم من الجامعة اللبنانية والجامعات الخاصة في لبنان. أما الربع الباقي فهم من خريجي الجامعات الدولية، لتستقطب جامعات أوروبا الشرقية الغالبية. إلا أن هذه النسبة تتغير مع مرور الوقت لترتفع نسبة الخريجين من جامعات لبنان الى 85% من مجمل المنتسبين، كما يشير الجدول أدناه:

جدول رقم 9: توزع الصيادلة النقابيين المنتسبين عام 2019 بحسب بلد التخرج

بلد التخرج	العدد	النسبة المئوية
لبنان	313	84.8%
البلدان العربية	9	2.4%
أوروبا الغربية	8	2.2%
أوروبا الشرقية	26	7%
أميركا الشمالية	3	0.8%
بلدان أخرى	10	2.7%
المجموع	369	100%

المصدر: أرشيف نقابة الصيادلة بتاريخ 2020/9/25

وهنا سؤال يطرح نفسه حول خريجي دول أوروبا الغربية وأميركا الشمالية التي تشكل النسب الأدنى من المنتسبين، حول تدني نسب الطلاب الذين يتابعون دراستهم في هذه الدول لصالح الجامعة اللبنانية وجامعات لبنان الخاصة؟ أم أن هؤلاء الطلاب يختارون الهجرة ليزاولوا العمل في أماكن تخرجهم دون الرجوع الى لبنان أو الإنتساب الى نقابتهم.

5. هجرة المهندسين

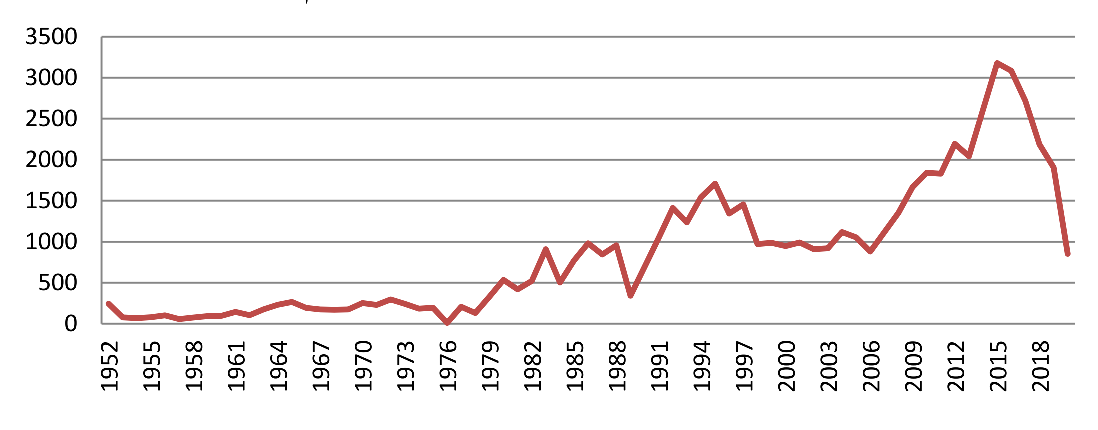
تفيد سجلات نقابة المهندسين في بيروت (Nasr, 2020) بأن عدد المهندسين المسجلين، يتوزعون على الشكل التالي:

- المهندسون المسجلون: 59.120 مهندسًا
- المهندسون العاملون: 49.801 مهندسًا
- المهندسون المشطوبون: 5.042 مهندسًا
- المهندسون المتوفون: 1.820 مهندسًا
- المهندسون المتقاعدون: 2.457 مهندسًا

يجدر الذكر أن المهندسين المشطوبين تمّت لأسباب متعددة منها عدم دفع الإشتراكات، أو لمشاكل إدارية أو لوجودهم خارج لبنان ولم يصرحوا. مع العلم أنه من ضمن العدد الإجمالي للمهندسين العاملين يمكن للبعض أن يكون مسافرًا ويدفع كل المستحقات وهذا ما لا يمكن حصره.

يتوزع المهندسون على فروع متعددة وهي: مدني، معماري، كهرباء، ميكانيك، زراعي، صناعي، بيترو-كيميائي، آثار... وغيرها.

الانتساب إلى النقابة كان تصاعدياً عبر مختلف السنوات، وذلك حسب سنوات التخرج وعودة الخريجين إلى وطنهم. وقد وصل ذروته عام 2015 حيث بلغ عدد المنتسبين 3178، ثم بدأ بالإنحسار تدريجيا لتصل إعداد المنتسبين الى 1904 عام 2019، أما هذا العام فالعدد لم يتخطى بعد الـ 900 منتسب حتى تاريخه. وقد توزعوا على الشكل التالي:

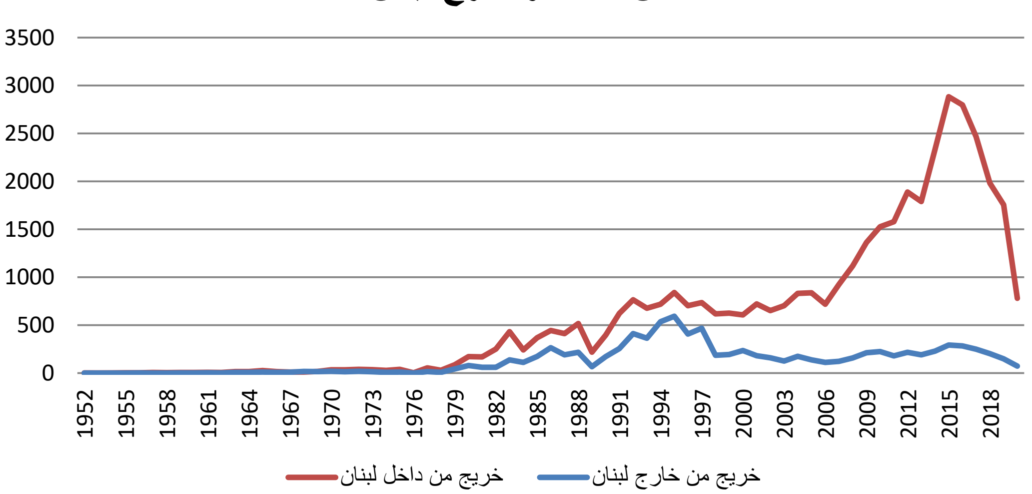


رسم بياني رقم 10: عدد المهندسين المسجلين بحسب العام

المصدر: أرشيف نقابة الهندسة بتاريخ 2020/9/1

وبالمقارنة مع أعداد الخريجين من داخل او خارج لبنان، نجد ان نسب الخريجين من الجامعات اللبنانية قد تخطى نصف الخريجين المنتسبين منذ بداية التسعينيات. ليتخطى الـ80% منذ العام 2007، وقد وصلت النسبة الى 92.2% العام 2019، كما يشير الرسم البياني التالي:





رسم بياني رقم 11: عدد المهندسين بحسب شهادة التخرج من داخل او خارج لبنان

المصدر: أرشيف نقابة الهندسة بتاريخ 2020/9/1

وهنا مثار تساؤل عن المهندسين الذين يتخصصون في الخارج، الذين يشكلون فقط 8% من مهندسي النقابة في بيروت! فهل يمكن الإعتبار أن هذه هي نسبة المتخصصين في الخارج؟ ام ان خريجي الخارج يبقون في الخارج؟ خاصة وأن أعداد الخريجين من أميركا الشمالية على مدار السنوات والمنتسبين للنقابة يفوق الـ 3400 مهندسًا، وكذلك الخريجين من أوروبا الغربية، كما يشير الجدول أدناه:

جدول رقم 10: توزع المهندسين النقابيين بحسب بلد التخرج

بلد التخرج	العدد	النسبة المئوية
لبنان	45.803	77.5%
البلدان العربية	1.853	3.1%
أوروبا الغربية	3.457	5.8%
أوروبا الشرقية	4.163	7%
أميركا الشمالية	3.443	5.8%
أميركا اللاتينية	109	0.2%
بلدان أخرى	292	0.5%
المجموع	**283**	**376**

المصدر: أرشيف نقابة الهندسة بتاريخ 2020/9/1

هذا الجدول يشير أن هؤلاء المهندسين المنتسبين للنقابة انهوا دراساتهم في جامعات متفرقة. لتستقطب الجامعة اللبنانية والجامعات الخاصة في لبنان الأغلبية منهم بنسبة 77.5%، جامعات أوروبا الشرقية بنسبة 7%، جامعات أوروبا الغربية 5.8%، ومن أميركا الشمالية 5.8%.... هنا السؤال الذي يطرح نفسه، إذا كانت جامعات العالم تساهم بربع الخريجين المنتسبين للنقابة في بيروت، لماذا تغيرت هذه النسبة في السنوات الاخيرة حيث باتت تشكل أقل من 10%؟ أهي هجرة الأدمغة، وعدم عودة الكفاءات من بلاد المهجر في السنوات الأخيرة؟

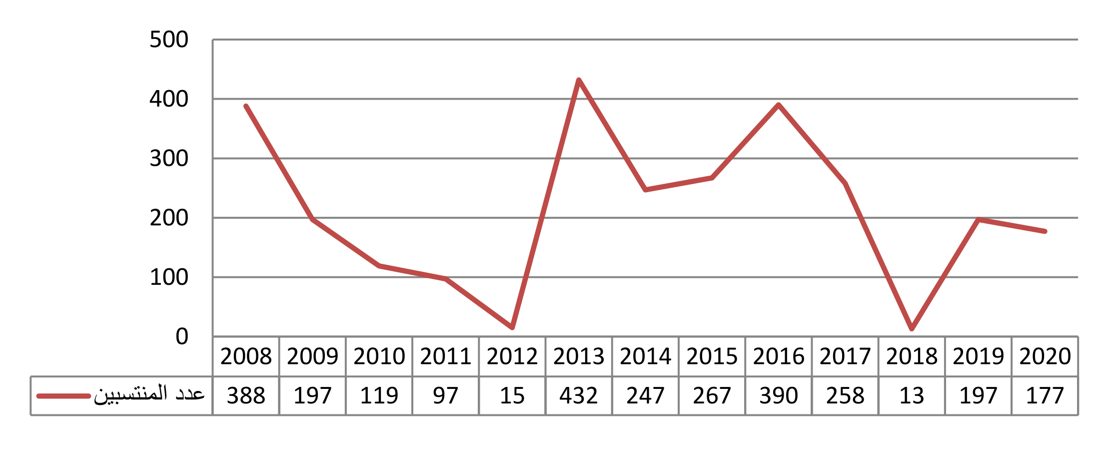
6. هجرة المحامين

تفيد سجلات نقابة المحامين في بيروت (El.Khatib, 2020)بأن عدد المحامين المسجلين، يتوزعون على الشكل التالي:

- المحامون المسجلون: 8.229 محاميًا
- المحامون المتدرجون: 1.189 محاميًا
- المحامون المشطوبون: 2.291 محاميًا
- المحامون المتوفون: 1.520 محاميًا
- المحامون المتقاعدون: 536 محاميًا

يجدر الذكر أن المحامين المشطوبين تمّ شطبهم لأسباب متعددة منها عدم دفع الإشتراكات، او ربما لمشاكل في شهاداتهم أو لوجودهم خارج لبنان ولم يصرحوا. إلا أن المحامي يتميز عن باقي الكفاءات أنه لا يمكن مزاولة مهنته كمحامي إلا داخل الأراضي اللبنانية. فإختار درب الهجرة عليه العمل بغير إختصاصه. كما يمكن للبعض أن يكون مسافرًا ويدفع كل المستحقات وهذا ما لا يمكن حصره. أما المنتسبين خلال السنوات العشر الماضية فقد توزعوا على الشكل التالي:





	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020
عدد المنتسبين	388	197	119	97	15	432	247	267	390	258	13	197	177

رسم بياني رقم 12: عدد المحامين المنتسبين للنقابة بحسب العام منذ عشر سنوات

المصدر: أرشيف نقابة المحامين بتاريخ 2020/9/23

نلاحظ بشكل جلي تفاوت المنتسبين عبر السنوات، مرد ذلك أن الإنتساب الى نقابة المحامين يختلف عن باقي النقابات حيث ينتسب كل من هو مستوفٍ للشروط تلقائيًا إذا أراد. أما الحال في نقابة المحامين فيختلف إذ تجرى دورات يتم من بعدها إنتقاء الناجحين لينتسبوا الى النقابة بشكل جماعي في فترات محددة من السنة، ولا يعتبر منتسبًا الا من يدفع المستحقات. فإذا جرت الدورة نهاية العام كما هي الحال عام 2012، فإن من دفعوا مستحقاتهم لا يتعدوا الـ 15 محاميًا، اما الباقون فيعتبروا منتسبين عام 2013، الى جانب من صادفت دورتهم في نفس السنة. وهذا ما يبرر التفاوت الكبير في المنتسبين.

فيما يتعلق ببلد التخرج فإن جميع المحامين من خرّيجي لبنان وقد درسوا القانون اللبناني، وأقلية منهم من تابع دراسته بالخارج للشهادات العليا ولكن بالتنسيق مع الجامعة اللبنانية (Co–direction). لذلك فإن متغير الهجرة او العمل في الخارج لا ينطبق على المحامين كما المهندسين أو الأطباء أو غيرهم، من الذين يمارسون مهنتهم وينقلون كفاءاتهم العلمية الى الخارج.

V. المؤسسات المانحة

تتعدد المصادر التي تقدم مساعدات للطلاب الذين يتابعون تحصيلهم العلمي، في الماضي أو في الحاضر، وهم موزعون على الجهات التالية:

• جهات محلية: الجامعة اللبنانية، الجمعية الإسلامية للتخصص والتوجيه العلمي، مؤسسة الحريري، مؤسسة عصام فارس، ... وغيرها

• إقليمية: سوريا، الجزائر، مصر، تونس، المغرب، العراق، إيران...

• عالمية: دول أوروبا الشرقية (روسيا، رومانيا، هنغاريا، بولونيا، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا...) دول أوروبا الغربية (فرنسا، ايطاليا، أسبانيا...).

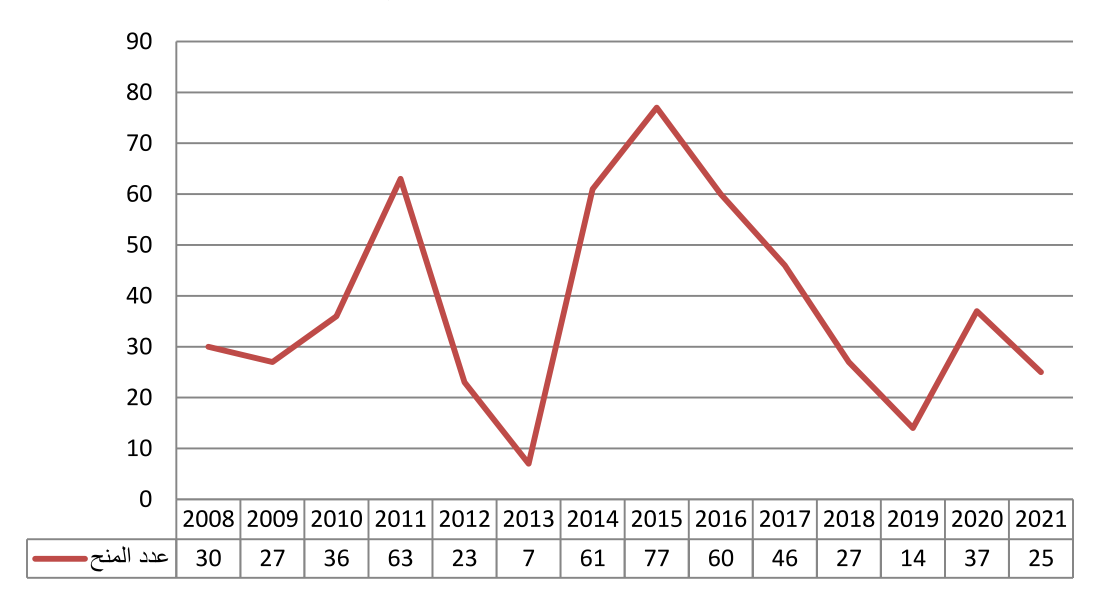
من خلال هذه الورقة البحثية سنتطرق الى بعض الجهات المانحة المحلية، كعينة لمعرفة توجه الطلاب من حيث الإختصاص خلال السنوات الماضية.

1. الجامعة اللبنانية

تخصص الجامعة اللبنانية لطلابها المتفوقين منحًا لمتابعة الدراسات العليا في الخارج وفقا للأنظمة المعمول بها في الجامعة اللبنانية.

فمنذ العام 2000 حتى تاريخه ساهمت الجامعة بتقديم ما يزيد على 600 منحة دراسية موزعة على السنوات العشر الأخيرة كما يلي (هرموش، 2020)[6]:





	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020	2021
عدد المنح	30	27	36	63	23	7	61	77	60	46	27	14	37	25

رسم بياني رقم 13: أعداد الخريجين الممنوحين من الجامعة اللبنانية خلال السنوات العشر الماضية

المصدر: إحصائيات الجامعة اللبنانية بتاريخ 2020/10/27

الجامعات المقصودة في الخارج هي بالغالب نحو أوروبا الغربية، لتستقبل فرنسا وحدها 90% من الممنوحين. ذلك لأن الجامعة اللبنانية توصي الممنوحين بعدم متابعة الدراسة في أميركا الشمالية ولندن وذلك لإرتفاع رسوم التسجيل فيها.

بالعودة الى أرشيف الجامعة اللبنانية فإن ثلاث أرباع الممنوحين قد عادوا الى ربوع الوطن وقد تأمنت لهم عقود تدريس مع كافة فروع الجامعة اللبنانية. خاصة وأن الطالب الممنوح من الجامعة اللبنانية يقدم تعهدًا بوضع نفسه في تصرفها للعمل فيها ضمن اختصاصه لمدة لاتقل عن خمس سنوات بعد إنتهاء مدة دراسته. يعفى المتخصص من تنفيذ التعهد إذا لم تؤمن له الجامعة عملًا خلال سنة كاملة بعد إبلاغها بإنهاء تخصصه.

2. مؤسسة الحريري

بدأت مؤسسة الحريري عملها في صيدا عام 1979 تحت إسم المؤسسة الإسلامية للثقافة والتعليم العالي (Hariri–Foundation, 2017) ، وإنتقلت سنة 1984 إلى بيروت وعرفت بمؤسسة الحريري، لها مكاتب في أكثر من منطقة في لبنان. ساعدت الطلاب من جميع المناطق والأديان والمذاهب وإستفادوا من القروض التي مكنتهم من الإلتحاق بالجامعات والمعاهد في لبنان كما في الخارج.

لقد إستفاد، حتى حزيران 2003، من قروض المؤسسة 31.614 طالباً وطالبة (مؤسسة–الحريري، 1994):

جدول رقم 11: عدد الطلاب المستفيدين من مؤسسة الحريري والبلد الذي تخصصوا فيه

البلد	العدد	%
لبنان	22888	72.3%
الولايات المتحدة وكندا	3100	9.8%
فرنسا وأوروبا ودول شمالي إفريقيا	5626	17.7%
المجموع	**31614**	**100**

المصدر: أجيال مؤسسة الحريري من 1991 إلى 1993، منشورات مؤسسة الحريري، المجموعة الثانية 1994.

وقد بلغ عدد الذين انهوا دراستهم من هؤلاء 20.690 متخرجًا (مؤسسة_الحريري، 1998):

جدول رقم 12: عدد الطلاب المتخرجين من مؤسسة الحريري والبلد الذي تخصصوا فيه

البلد	العدد	%
لبنان	16242	78.5%
الولايات المتحدة وكندا	1902	9.1%
فرنسا وأوروبا ودول شمالي إفريقيا	2546	12.3%
المجموع	**20690**	**100**

المصدر: أجيال مؤسسة الحريري من 1994 إلى 1997، منشورات مؤسسة الحريري، المجموعة الثالثة 1994.

بالإضافة إلى 2800 طالبًا وطالبة اختصرت دراستهم على اللغة الإنكليزية.

الخريجون يتوزعون على إختصاصات متنوعة بينهم حوالي 4.500 مهندسًا وأكثر من 1.600 طبيبًا. وتوزعت الإختصاصات الرئيسية على الشكل التالي (مؤسسة_الحريري، 1998):

جدول رقم 13: الإختصاصات والنسبة المئوية لمتخرجي مؤسسة الحريري

الاختصاص	النسبة المئوية
هندسة	22%
إدارة أعمال	21%
علوم عامة	18%
علوم طبية	14%
علوم إنسانية	9%
اختصاصات أخرى	16%

المصدر: أجيال مؤسسة الحريري من 1994 إلى 1997، منشورات مؤسسة الحريري، المجموعة الثالثة 1994.

من بين الخريجين 835 من حملة الدكتوراه، ويتوزعون على إختصاصات متنوعة ومن جامعات متفرقة (مؤسسة_الحريري،1998):

جدول رقم 14: مكان الإختصاص ونوعه لحملة الدكتوراه من متخرجي مؤسسة الحريري

	فرنسا	أميركا	بريطانيا	لبنان	بلجيكا	إسبانيا	مصر	ألمانيا	المجموع
هندسة	62	145	81		1			1	290
علوم حياة	148	33	35	1					217
علوم إنسانية واجتماعية	77	15	11	5	1		1		110
حقوق وعلوم سياسية	35	6	5	2			1		49
زراعة وعلوم طبيعية	2	30	13						45
تربية	10	23	11						44
إدارة واقتصاد	9	25	4						38
طب	4	19	3			2			28
فنون	11	3							14
المجموع	358	299	163	8	2	2	2	1	835

المصدر: أجيال مؤسسة الحريري من 1994 إلى 1997، منشورات مؤسسة الحريري، المجموعة الثالثة 1994.

الملاحظة الأساسية الإنقطاع التام بين الخريجين والمؤسسة المانحة، بإستثناء حالات نادرة، 1% كما أفاد مدير مؤسسة الحريري السيد مصطفى الزعتري خلال مقابلة سابقة. مع العلم أن هناك عقودًا بين المؤسسة والطلاب، يتم تجاهلها بشكل عام. وهنا سؤال يطرح نفسه، هل هذا الإنقطاع مع هؤلاء الخريجين مفاده أنهم بقوا في بلاد تخرجهم؟ كان هذا هو الإستنتاج الأولي من قبل المؤسسة، إلا أن احدًا لا يمكنه الجزم.

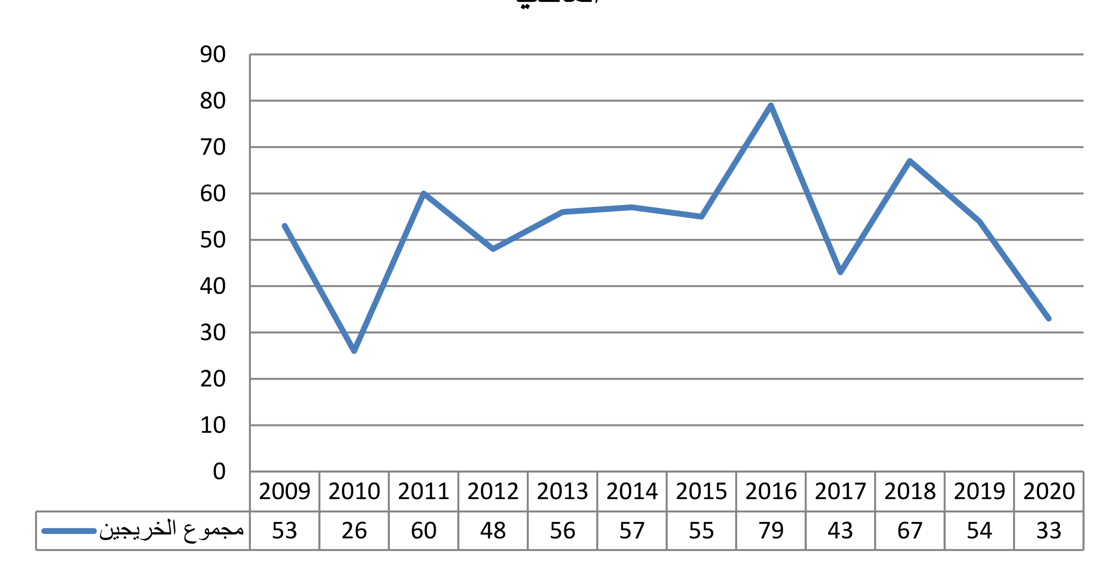
3. الجمعية الإسلامية للتخصص والتوجيه العلمي

تأسست الجمعية الإسلامية للتخصص والتوجيه العلمي عام 1969 لدعم العالم رمال رمال، حيث ساهمت بدعم الطلاب للتخصص الجامعي في فروع علمية، للمتفوقين منهم وغير الميسورين (يونس، 2020). بلغ عددهم حتى تاريخه 1805 متخرجًا، وهم من حملة الإجازة وما فوق.

أما الإختصاصات التي يلجأ اليها الطلاب في الخارج فهي متنوعة: تشكل علوم الحياة، والفيزياء والرياضيات النسبة الأكبر من الممنوحين أي ما يقارب نصف المنح. ليأتي بعدها إختصاص الهندسة بنسبة 32%، أما الإدارة والإحصاء والتغذية تستقطب 12% من الطلاب. فيما منح الطب والصيدلة لا تتعدى الـ 3% إحداها ومعظم خريجيها يلجأون الى فرنسا.

وقد توزعوا خلال السنوات العشر الماضية على الشكل التالي:





رسم بياني رقم 14: أعداد الخريجين الممنوحين من الجمعية الإسلامية خلال السنوات العشر الماضية

المصدر: إحصائيات الجمعية الإسلامية بتاريخ 2020/10/5

تمثل جامعات لبنان وجهة 65% من منح الجمعية، فيما تتوزع 35% من المنح على جامعات خارجية. الجدير ذكره أن مجمل المنح الخارجية تتجه نحو أوروبا الغربية، لتتصدر فرنسا الخريجين بنسبة 50%، تليها ايطاليا بنسبة 25%، وبعدها أسبانيا (11%)، وبلجيكا (9%) وأخيراً المانيا بـ 5%. أما توزعهم بحسب الإختصاص فهو على الشكل التالي:

جدول رقم 15: توزع الخريجين الممنوحين من الجمعية الإسلامية بحسب الإختصاص، خلال السنوات العشر الماضية

	طب	هندسة	علوم الحياة- فيزياء- رياضيات	حقوق - ادارة - احصاء - تغذية	صيدلة	مجموع الخريجين
2009	4	21	13	8	7	**53**
2010	8	10	2	5	1	**26**
2011	13	22	9	8	8	**60**
2012	12	16	8	8	4	**48**
2013	16	23	4	1	12	**56**
2014	11	27	9	4	6	**57**
2015	13	19	11	3	9	**55**
2016	11	25	33	3	7	**79**
2017	9	14	12	5	3	**43**
2018	16	17	23	5	6	**67**
2019	9	17	19	4	5	**54**
2020	7	17	6	2	1	**33**
المجموع	129	228	149	56	69	**631**
النسبة	**20%**	**36%**	**24%**	**9%**	**11%**	**100%**

المصدر: إحصائيات الجمعية الإسلامية بتاريخ 2020/10/5

كما يشير الجدول أن النسبة الأكبر للخريجين الممنوحين هم من المهندسين بنسبة 36% (228 من أصل 631). يليها علماء الفيزياء والرياضيات وعلوم الحياة بنسبة 24%، ليأتي بعدها الأطباء بنسبة 20%.

تتميز الجمعية عن باقي الجهات المانحة بأنها تبقى على تواصل مع الغالبية العظمى من الخريجين، إن لم يكن كلهم. لذلك تكون نسبة المهاجرين من الأدمغة الذين يصرحون للجمعية، أقرب الى

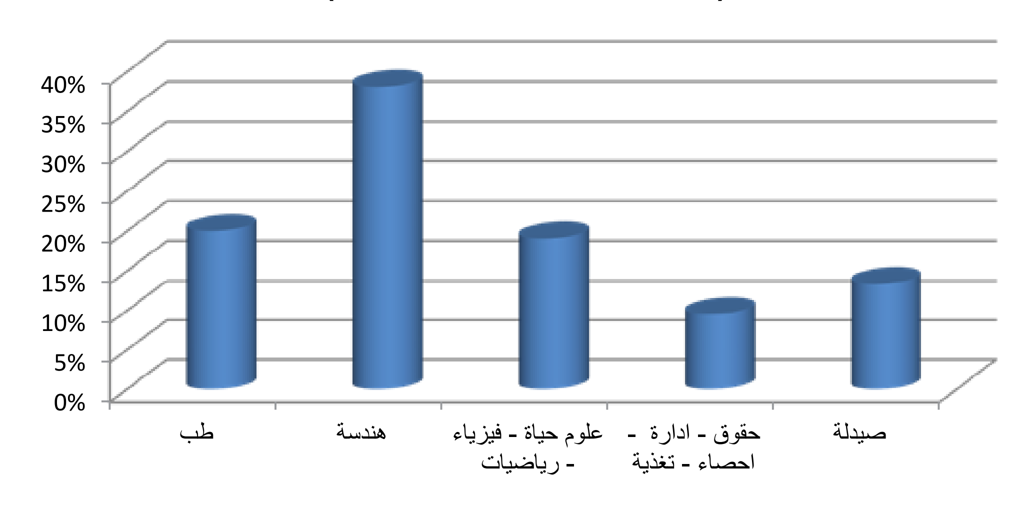
الواقع منها عن الإستنتاجات. فحسب بيانات الجمعية هناك 33% من الخريجين الممنوحين خلال السنوات العشر الماضية فضلوا الهجرة على بقائهم في البلد، فمنذ العام 2009 هناك 631 ممنوحًا إختار 210 منهم السفر توزعوا على كافة الإختصاصات على الشكل التالي:

جدول رقم 16: توزع الخريجين الممنوحين من الجمعية الإسلامية والمهاجرين بحسب الإختصاص

	طب	هندسة	علوم الحياة- فيزياء- رياضيات	حقوق - ادارة - احصاء - تغذية	صيدلة	مجموع الخريجين
المهاجرين	**42**	**80**	**40**	**20**	**28**	**210**
النسبة	**20%**	**38%**	**19%**	**10%**	**13%**	**100%**

المصدر: إحصائيات الجمعية الإسلامية بتاريخ 2020/10/5

يشير هذا الجدول أيضًا أن النسبة الأكبر للمهاجرين الممنوحين هم من المهندسين بنسبة 38% من مجموع الخريجين، ليأتي بعدها الأطباء بسنبة 20%. اما باقي النسب بحسب الإختصاص فيتوزعوا على الشكل التالي:



رسم بياني رقم 15: توزع الخريجين المهاجرين بحسب الإختصاص، والممنوحين من الجمعية الإسلامية

المصدر: إحصائيات الجمعية الإسلامية بتاريخ 2020/10/5

بالمقارنة بين نسب الخريجين الممنوحين من الجمعية والمهاجرين، نجد ان نسب المهندسين متصدرين كخريجين وأيضًا كمهاجرين. أما علوم الحياة والرياضيات والفيزياء فكونها شهادات تعليمية لها مجالها في لبنان، نجد ان الهجرة فيها أقل من الأطباء مثلًا مع أنهم أكثر تخصصًا.

بالمحصلة نستنتج أن ثلث الخريجين الممنوحين من الجمعية الإسلامية، إختار وجهة الهجرة عن البقاء او العودة الى ربوع الوطن.

VI. أدمغة لبنانية متألقة في بلاد الإغتراب

صحيح أن لبنان دولة صغيرة من حيث مساحتها وعدد سكانها، لكن هذا البلد عُرف عالميا في التاريخ القديم كما الحديث من خلال المبدعين المهاجرين. ولا داعي للتذكير بأن الفينيقيّين، سكان لبنان القدامى 2500 قبل الميلاد، قد جابوا العالم برحلاتهم، وقد إخترعوا الأبجديّة ونشروها في العالم ووصلوا في مراكبهم إلى أوروبا وإفريقيا، وبحسب إحدى الدراسات كانوا أول من عبر المحيط الأطلسي واكتشف القارة الأميركيّة.

أما في العصر الحديث، فقد بدأت هجرة اللبنانيّين باكراً جداً منذ نهاية القرن الثامن عشر، خصوصاً إلى أوروبا والأميركيّتَين وإفريقيا.

لبنان من اكثر بلدان العالم يعتبر نموذجاً لدراسة واقع المغتربين وتأثيراتهم الداخلية والخارجية، وخاصة أن أعداد المغتربين يفوق المقيمين، وقد عرف طاقات مميزة كان لها تأثيرها في الخارج كما أثرت وبإيجابية على الداخل. وهذه الطاقات وفي مختلف المجالات العلمية والفكرية والأدبية والفنية والإعلامية، ونحاول أن نسلط الضوء ونعطي بعض النماذج في مجالات متنوعة.

1. في مجال الطب

- مايكل إلياس دبغي، طبيب ومخترع ومعلِّم ومرجع طبي أمريكي لبناني الأصل مشهور عالميًا وأحد رواد جراحة القلب. الرئيس الفخري لكلية بايلور الطبية في هيوستن- الولايات المتحدة، ومدير مركز دبغي لطب القلب وجراح القلب المسؤول الأول في مستشفى ميثوديست في مركز تكساس الطبي.
- بيتر براين مدوَّر (1915-1987)، طبيب بريطاني من أصل لبناني.
- زياد سنكري: هو مؤسس شركة Cardio-Diagnostics شركة التكنولوجيا الطبية المتخصصة في مجال تقديم الحلول لحماية القلب في الولايات المتحدة.

2. في مجال الاعلام

مجال الإعلام بشقيه المقيم والمغترب، إحتل فيه لبنان موقعا مميزا بإنتاجه للصحف والمجلات، وكان يتبوأ المرتبة الثانية بعد مصر في هذا المجال، بحيث كانت بيروت منارة ثقافية وإعلامية. وفي بلاد الإغتراب تعددت الصحف والمجلات في أكثر من مدينة، وأبرزها: نيويورك، ديترويت، بوسطن، أنديانا، أوهايو، كليفلند، فيلادلفيا،....

أما أبرز الإعلاميين[8]، نذكر منهم:

- فوزي بريدي: جريدة الإصلاح -1934 1953 نيويورك
- المجلة العربية، 1917، سليم شحاذة، فيليب حتي، فؤاد شطارة، خليل الأسود.
- يوسف مراد الخوري، 1917، جريدة الشعب.

- وديع شاكر، جريدة الرسول و مجلة فتاة بوسطن، 1919.
- شكري كنعان، جريدة لسان العدل، 1926 ديترويت.
- نسيب عريضة، جريدة الحرب والسلم، 1914، نيويورك.
- سلوم مكرزل، جريدة بريد أميركا، 1907، نيويورك.
- رشيد تقي الدين وعباس أبو شقرا، مجلة البرهان، 1910، نيويورك.
- نعوم مكرزل، جريدة العصر، 1894، فيلادلفيا.
- يوسف معلوف، جريدة الأيام، 1898، نيويورك

وغيرهم الكثير لا مجال لذكرهم جميعاً، لأن ذلك يستأهل عملا خاصاً. وقد ساهم الإعلاميون في أنشاء مؤسسات في مصر، ونذكر منهم:

- بشارة وسليم تقلا، جريدة الأهرام، 1875، تأسست في الإسكندرية، وفي العام 1899 نقلت الى القاهرة.
- فرح أنطون، مجلة الجامعة نصف شهرية، 1899، الإسكندرية.
- هند نوفل، مجلة الفتاة، أول مجلة نسائية في الوطن العربي، 1892، الإسكندرية، ثم انتقلت للقاهرة في العام 1893.

3. في مجال الأدب

- جبران خليل جبران (1883–1931)، عرفه الغرب شاعراً ورساماً بعد هجرته إلى الولايات المتحدة ونشره لكتبه باللغة الإنكليزيّة. إشتهر في العالم الغربي بكتابه "النبي" الذي نشره في العام 1923.
- إيليا أبو ماضي (1889–1957)، شاعر عربي لبناني يعد من أهم شعراء المهجر في أوائل القرن العشرين، وأحد مؤسسي الرابطة القلمية.
- ميخائيل نعيمة(–1889 1988) ، مفكر لبناني وأحد رموز النهضة الفكرية والثقافية، درس الحقوق في الولايات المتحدة الأمريكية. إنضم إلى الرابطة القلمية التي أسّسها أدباءٌ عرب في المهجر.

4. في مجال الفيزياء:

- حسن كامل الصبّاح (–1894 1935) إبن مدينة النبطيّة في جنوب لبنان. مخترع لبناني، تُنسب إليه عشرات الاختراعات التي سجلت في الولايات المتحدة وأوروبا واليابان وأستراليا، بالإضافة إلى عدد من النظريات الرياضيّة في مجال الهندسة الكهربائيّة. وقد أُطلق عليه لقب "أديسون الشرق".
- رمّال حسن رمّال (–1951 1991) وهو عالم لبناني آخر من بلدة الدوير في جنوب لبنان، حصل في العام 1977 على شهادة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة جوزيف فورييه (UJF) في غرونوبل في فرنسا. عمل رمّال في مجال المادّة المكثّفة والفيزياء الإحصائيّة والنظريّة في مركز البحوث حول درجات الحرارة الشديدة الانخفاض في غرونوبل.

- سلوى نصار(1913 – 1967) من ضهور الشوير إحدى ضيع المتن، قيل فيها إنّها عالمة الذرّة الأولى والوحيدة في زمانها، وأوّل سيّدة عربيّة تخوض معركة تفجير الذرّة، وتقف على أسرارها. تعمل معاونة لأعظم علماء الفيزياء، وفي مقدّمهم الأستاذ لورنس مخترع آلة تفجير الذرّة (السيكلوترون). كما تمّت الإشارة إليها على أنّها شاركت في أبحاث إنتاج القنبلة الذريّة! أثناء وجودها القسري في الولايات المتّحدة الأميركيّة وعملها في مختبراتها النوويّة، في فترة الحرب العالميّة الثانية.

5. في مجال السياسة (الأخبار، 2015)

- مايكل لويس: وزير ونائب سابق في برلمان جنوب أفريقيا، متحدر من اصل لبناني. لمع نجمه في عهد الرئيس الراحل نيلسون مانديلا.
- فرناندو كابيز: هو رئيس مجلس نواب مدينة ساو باولو البرازيلية.
- ميشيل تامر: في العام 2016، تولى رئاسة البرازيل، ليصبح رئيس أكبر دولة في أميركا اللاتينية.
- جوليو سالم: تولى رئاسة الإكوادور، في العام 1944 ولفترة قصيرة.
- سلفادور نصر الله: رئيس الهندوراس، 2017.

تبقى هذه نبذة متواضعة عن المبدعين اللبنانيين الكثيرين وفي كافة المجلات، الذين حضنتهم بلاد الإغتراب منذ أقدم العصور ولا زالت حتى تاريخه.

VII. إدارة الثروة البشرية

إنطلاقا مما تقدم من خلال مداخلتنا المتواضعة، والتي بيّنت تفاقم ظاهرة هجرة الكفاءات العلمية وما تعكسه من تأثيرات مع الأخذ بعين الإعتبار النواحي الإيجابية، الّا أن البارز هو كثافة التأثيرات السلبية على بنية المجتمع اللبناني بكل الأبعاد. إذ طالت الواقع الإقتصادي والإجتماعي والتنموي، وأفرغت المجتمع من كادرات بأمسّ الحاجة اليها.

المطلوب هو درء الأخطار المتزايدة للهجرة، بالأساليب المناسبة. لذا من الضرورة أن يكون هناك إدارة للثروة البشرية الوطنية، بموازات الثروات الطبيعية التي تستحوذ من الحكومات المتعاقبة إدارات ومؤسسات وربما وزارات. لأن هذا النزف البشري سيزيد من حالة الركود والتخلف، إذ أنه بالمقابل كان له تأثير وتسهيل للتنمية في الدول الجاذبة المستقطبة.

هذا يتطلب الرعاية وزيادة الإستثمارات التي تخلق فرص عمل للكفاءات، مما يساهم بالنمو وتعزيز السلم الأهلي وتطوير عجلة الاقتصاد. ويجب أن يترافق ذلك مع خطط شاملة تراعي تسوية الأوضاع المادية للكفاءات، فالطبيب أو المهندس يدخل سوق العمل بدخل متواضع لا يتعدى المليون ونصف المليون ليرة شهريًا وأصبحت قيمتهم تقل شيئًا فشيئًا وخاصة مع تدهور العملة اللبنانية مقابل الدولار الأميركي. أما المشكلة الأكثر سوءًا، تكمن في التفاوت بالتقديمات للمتخرجين بين السوق المحلي والأسواق الخارجية، ما

يشكل دافع أساسي للهجرة والعمل في الخارج. وقد اشرنا سابقًا إلى عوامل الطرد التي دفعت هؤلاء لمغادرة البلاد، وبالمقابل عوامل الجذب للدول المضيفة.

خلاصة

بعد هذه القراءة الموجزه لواقع الهجرة بشكل عام، والكفاءات العلمية من خلال النقابات بشكل خاص، يتبين لنا حجم هذه الظاهرة وأهميتها على المستوى الوطني. فمن خلال النقابات تبين لنا بشكل جلي تراجع أعداد المنتسبين، أو على الأقل تراجعها بالمقارنة مع إزدياد أعداد الخريجين من جامعات لبنان. كما برزت جليًا إنحسار أعداد المنتسبين الخريجين من جامعات أوروبا الغربية وأميركا الشمالية شيئًا فشيئًا، لينعدم العدد خلال السنوات الأخيرة. ما يشير الى أن هذه الدول الصناعية هي المستقطبة وبشكل رئيسي للكفاءات اللبنانية من أطباء وأطباء أسنان وصيادلة وغيرهم. أما فيما يتعلق بالمهندسين فقد أشارت الجمعية الإسلامية، وهي إحدى الجهات المانحة المحلية الأساسية في لبنان، أن نسبة المهندسين المهاجرين تخطت الـ 38% من مجمل الخريجين.

هذه الهجرة تمثل خسارة على المستوى المادي والمعنوي للوطن، رغم النواحي الإيجابية وخاصة ضمن المنظور الإقتصادي وما تقدمه هذه الكفاءات من تحويلات مادية، كما نجد أهمية من الناحية الثقافية والاجتماعية. ولكن المنحى السلبي الذي لا يعوض عنه يكمن في مجالات التنمية، إذ نلاحظ تأخر أو فشل في الخطط التنموية، ليدخل عامل الهجرة كمتغير أساسي، لأن الموارد البشرية وخاصة العلمية منها، غائبة عن الساحة لما لها من دور في أي مشروع تنموي.

الغوص في تفاصيل الأرقام والأحصاء لن يغير من حقيقة مفادها أن الأرقام وإن حضرت تبقى ناقصة وغير واضحة المعالم لأعداد الأدمغة المنتشرين في أكثر من مكان من العالم. ولكن يتوافق الجميع أن عدد المنتشرين كثيف ويتكاثر باستمرار، كحالة غير إعتيادية تسيطر على الساحة اللبنانية. والكفاءات يتوزعون على قارات العالم الخمس وقد حافظوا على تواصلهم بوطنهم الأم، وشكلوا إمتدادا عالميا للبنان في البلدان التي نزلوا فيها. وقد برزت مآثرهم على كافة المستويات: الإقتصاديه، السياسية، الأدبية، الإعلامية، والطب، والهندسة، والفيزياء... فإنهم مبدعون حيث يحلون.

[1] فرناندو عيد، قسم المعلوماتية في نقابة الأطباء في لبنان، مقابلة بتاريخ 24 و 27 أيلول 2020.
[2] فادي كيالي، رئيس قسم المعلوماتية والمواقع الإلكترونية في نقابة أطباء الأسنان في لبنان، مقابلة بتاريخ 25 أيلول 2020.
[3] د. داني حايك، مدير عام نقابة الصيادلة في لبنان، مقابلة بتاريخ 25 أيلول 2020.
[4] المهندس سيمون نصر، مدير عام نقابة المهندسين في بيروت، مقابلة بتاريخ 1 أيلول 2020.
[5] مقابلة سعد الدين الخطيب، أمين عام نقابة المحامين في بيروت، مقابلة بتاريخ 23 أيلول 2020.
[6] ليلى هرموش، رئيس دائرة الشؤون الثقافية في الجامعة اللبنانية، مقابلة بتاريخ 26 أيلول 2020.
[7] ردينة يونس، قسم المعلوماتية في الجمعية الإسلامية، مقابلة بتاريخ 5 تشرين أول 2020.
[8] الدوريات اللبنانية المهجرية الأولى في الولايات المتحدة الأميركية بين العامين 1892 – 1946

دور الهجرة في دعم حركات التحرر العالمية: الهجرة الجزائرية في فرنسا أنموذجا

عثمان بوشكيوة
قانون عام/ جامعة سكيكدة، الجزائر

المقدّمة:

إذا كان التاريخ يكتبه المنتصرون، فإن تاريخ ثورة التحرير في الجزائر انبرى له ثوار مرابطون في البلد الأم، وجزائريون مغتربون في فرنسا باعتبارها مكانا يختصر مخيال الغاصب والمحتل، برغم توالي هجرات موازية للجزائريين نحو بلاد المغرب العربي وبلاد الشام.

وغني عن البيان أن الهجرة القسرية للجزائريين نحو فرنسا كانت بمثابة تجنيد إجباري لهم للقتال مع جيوش الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى[1]، إلا أن التاريخ يشهد بأن هذا التجنيد انقلب وبالا على دولة المستعمر؛ حيث برزت تيارات تحررية في أوساط المغتربين الجزائريين في فرنسا الذين آثروا الاستقرار فيها، ليتشكل دورها بمرور السنين، وتصبح سندا داعما لثورة التحرير في الجزائر البلد الأم.

إن الهجرة الجزائرية ولا ريب، كان لها دورا بارزا في دعم ثورة التحرير الوطني خلال خمسينات القرن الماضي، في مشارق الأرض ومغاربها، إلا أن المغتربين الجزائريين في فرنسا تحديدا كان لهم الدور الفيصل في تغيير منحى الثورة إيجابا لمصلحة الثوار في البلد الأم؛ إذ لم يكن بالإمكان أن يكون دور المغتربين حاسما في دعم ثورة التحرير، لو لم يكن اختيار مكان المقاومة والدعم موفقا، بالصورة التي تشكل ضغطا على الدولة المستعمرة في عقر دارها، طرح يؤكد أهمية ثنائية الهجرة والمكان في دعم حركة التحرر الوطنية في العالم والجزائر بصفة خاصة.

وعطفا عما سبق، فإن إشكالية الورقة البحثية ستدور حول مدى مساهمة المغتربين الجزائريين في فرنسا في دعم ثورة التحرير الوطني، عن طريق تسليط الضوء على رمزية اختيار فرنسا كمكان للاغتراب والهجرة، ومظاهر مساهمة هؤلاء المغتربين في دعم الثورة انطلاقا من فرنسا، لاسيما من خلال النشاط السياسي من جهة، وانطلاقا من العمل الثوري من جهة أخرى.

لأجل ذلك سنقسم هذه الدراسة إلى مبحثين رئيسين يكون كل منهما مجالا للإجابة عن الإشكالية؛ حيث سنخصص الأول منهما لبيان الدلالة الرمزية لفرنسا كمكان لاغتراب الجزائريين قبل اندلاع ثورة التحرير، فيما سيكون المبحث الثاني محلا لدراسة مظاهر مساهمة المغتربين الجزائريين في فرنسا دعما للمقاومة وثورة التحرير.

المبحث الأول: الدلالة الرمزية لفرنسا كمكان للاغتراب الاختياري والقسري للجزائريين قبل ثورة التحرير

إن مكان الاغتراب يحمل دلالات رمزية كثيرة، تجعله بالضرورة يختزل أسبابا ودوافعا يمكنها تفسير ظاهرة الهجرة، طالما أن هذه الأخيرة ظاهرة اجتماعية وإنسانية تتفاعل معها أسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية، تتفاوت في درجة التأثير في نطاق هجرة المغتربين باختلاف المكان والزمان[2]، الأمر الذي يجعل بيان المقاربة التاريخية لظاهرة توافد المغتربين الجزائريين على فرنسا (أولا)، واستقصاء الأسباب التي ساهمت في اختيار فرنسا كمكان للاغتراب برغم اختزاله لمكان الغاصب والمحتل (ثانيا)، ضرورة تقتضيها دراسة ظاهرة هجرة الجزائريين نحو فرنسا تحديدا.

أولا: المقاربة التاريخية لظاهرة الهجرة الجزائرية نحو فرنسا

من نافلة القول أن ظاهرة هجرة الجزائريين نحو فرنسا بغض النظر عن نوعها اختيارية أو قسرية رافقتها ظروف تاريخية ساهمت في تدفقها وتعاظمها سنة بعد أخرى، فبرغم توافد كثير من المغتربين الجزائريين على بلاد الشام والجزيرة العربية لاعتبارات دينية فرادى وجماعات[3]، إلا أنه بالمقابل كانت فرنسا تمثل قبلة لنوع آخر من الهجرة الجزائرية، تقاطعت فيها كل معاني الاستعباد والاضطهاد والازدراء والتعذيب والتنكيل لا يداريها في بشاعتها إلا ما تعرض له الهنود الحمر من المحتل الأوربي[4]، مع اختلاف في علاقة المكان بالهجرة.

وتاريخيا يتفق أغلب المؤرخين المتخصصين في مادة الهجرة الجزائرية، أن الاغتراب الجزائري نحو فرنسا بدأ في مرحلته الأولى اختياريا ودون إثارة انتباه السلطات الاستعمارية، لذلك يعتقد الباحث عبد الحميد زوزو أنه من الصعب تحديد سنة بعينها كبداية للهجرة نحو فرنسا، ومع ذلك يرجح أن تكون بدايتها الفعلية قبل سنة 1874 وهي السنة التي تزامنت مع صدور مرسوم يقيد الهجرة نحو فرنسا بضرورة استصدار إذن بالسفر[5]، حيث انطلقت أول أفواج المهاجرين الجزائريين من منطقة القبائل شمال الجزائر، لتليها هجرات متتابعة من مناطق أخرى من مختلف أقاليم الوطن، كانوا يمتهنون بيع الزرابي والصناعات التقليدية، ورعي أغنام مستخدميهم، وما إن دخل القرن العشرين حتى تضاعف عددهم، ليصبح عدد كبير منهم يشتغلون في مصانع الزيت والصابون في مرسيليا ومنطقة شمال فرنسا وباريس[6].

غير أن حركية الحياة الاقتصادية في فرنسا في مجال البنية التحتية والصناعات التحويلية والغذائية والاستثمارات المنجمية، دفعت الفرنسيين إلى الاعتماد على المهاجرين الجزائريين، مما دفع الحكومة الفرنسية إلى إلغاء الترخيص المسبق للهجرة نحو فرنسا، غداة إصدار قانون 24 ديسمبر 1904، وهي الحقيقة التاريخية التي فسرت تزايد أعداد المهاجرين الجزائريين بين سنتي 1906 و1907، لتقرر فرنسا لاحقا إلغاء المرسوم السالف الذكر المتعلق بتقييد سفر الجزائريين نحو فرنسا بموجب قرار صدر بتاريخ 18 جوان 1913، في خطتها للتسابق نحو التسلح لمجاراة القوة الألمانية، خصوصا في الصناعات الحربية، التي احتاجت الكثير من اليد العاملة، وجدت بمناسبتها الحكومة الفرنسية في المهاجرين الجزائريين حلا مجديا وفاعلا [7].

والملاحظ أن المغتربين الجزائريين عند نزولهم في الأراضي الفرنسية اكتشفوا عالما آخر يختلف عن البيئة التي يعيشون فيها، فقد كانت معيشتهم في ضنك وشقاء، استعباد وقهر، بينما كان الجزائريون المغتربون في فرنسا أحسن حالا من مواطنيهم في البلد الأم، حيث أنه بالرغم من اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية لا تختلف كثيرا عن النظام الذي تخضع له أغلب الأقاليم الفرنسية الأخرى إلا أن الجزائريين الرازحين تحت نير الاستعمار في بلدهم كانوا يعاملون معاملة ظالمة لا عدل فيها ولا مساواة، حتى أن المستوطنين من الفرنسيين ومن مختلف جنسيات أوروبا يعتبرون مواطنون من الدرجة الأولى، بينما كان يعد الجزائريون مجرد أهالي لا يتمتعون بحق المواطنة.

وعطفا عما سبق، كتبت الباحثة ليندا عميري Linda Amiri في مؤلفها الموسوم بعنوان معركة فرنسا، أن أهالي الجزائر في بلدهم كانت تعاملهم السلطات الاستعمارية بسلطة تقديرية غاشمة، تجلت في لا مساواة في ممارسة حق التقاضي أمام العدالة، وغياب تام للحقوق السياسية والنقابية والتقييد على ممارسة حرية التعبد وحرية التنقل، ووصل الحد بجور السلطات الاستعمارية في الجزائر إلى سن تشريع مستقل بعنوان القانون الأساسي للمسلم، الذي يحرم الجزائريين المسلمين من حق المواطنة، بالمقابل كان المغتربون الجزائريون في فرنسا يتمتعون بحريات أوسع دفعت الحكومة الفرنسية إلى الإسراع في تأطير حركة المغتربين ونشاطهم داخل الإقليم الفرنسي[8].

ونقلا عن الباحث جاك أوغارد Jaques Augardeفي مؤلفه الهجرة الجزائرية في فرنسا، نشر الباحث سعدي بزيان إحصائية رسمية صادرة عن مصالح الإقامة العامة بالجزائر، أن غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى كان عدد المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا7444، لينتقل في سنة 1915 إلى 20092، وإلى 30755 في سنة 1916، ليصل عقب انتهاء الحرب سنة 1918 إلى ما يزيد عن 23240 مهاجر[9].

وبعد أن جندت فرنسا 250000 شخصا من منطقة شمال إفريقيا منهم 175000 من الجزائريين طيلة سنوات الحرب، في توجه يعكس حقيقة أن جيل بأكلمه من المهاجرين الجزائريين كان قدره أن يكون في خطوط النار الأولى في حرب لا تعنيه من قريب أو بعيد[10]، غير أنه ما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى فكرت فرنسا الاستعمارية في تجسيد مشاريع إعادة الإعمار، بعد أن خلف القصف الحربي دمارا فضيعا أتى على بنى تحتية بأكملها، لأجل ذلك كان عليها أن تدعو الجزائريين من جديد للهجرة نحوها، عن طريق ما يعرف بالهجرة الاختيارية أو الهجرة الاقتصادية.

وإذا كان الثائر الجزائري فرحات عباس قد كتب في أحد مقالاته المنشورة في باريس سنة 1931، عندما كان متشبعا بالفكر الاندماجي[11]، قائلا: "إن للأحداث الكبرى نتائج غير متوقعة على الرجال، فقد كانت من نتائج الحرب الكبرى أن تعرف الجزائريون على فرنسا أثناء كفاحهم عنها حتى بدت لهم كأنها أرض الميعاد"[12]، فقد فتح المجندون الجزائريون- خصوصا من آثر منهم البقاء في فرنسا- أعينهم على

حياة فرنسية كريمة وأسلوب عيش كريم، أغرتهم على استغلال فرصة الفعل والمشاركة، عن طريق الانضمام في الحركات النقابية والسياسية الفرنسية، والتجرؤ أحيانا حتى على المشاركة في المظاهرات والاحتجاجات التي تثار ضد السياسة الاستعمارية، يتحرجون في أحيان كثيرة عن الإفصاح عن أصولهم وجنسيتهم، لكن المشاعر القومية والوطنية كانت كامنة في صدورهم[13]، تنتظر عاملا يثيرها ويجعلها متقدة، لم يكن في مرحلة لاحقة سوى الحركات السياسية التحررية التي رفع لواءها المهاجرون الجزائريون في قلب فرنسا طلبا لحرية بلدهم الأم.

وقد كان للنقابات العمالية دورا بارزا في تأطير النضال السياسي لدى المهاجرين الجزائريين، تجسد واقعا في تأسيس نجم شمال إفريقيا، الذي تولى قيادته مصلي الحاج، عامل شاب ومهاجر، جزائري متشبع بالفكر الماركسي، فصيح اللسان، وذو شخصية قيادية عالية[14]، منذ إنشاء منظمته السياسية سنة 1926، والمشكلة من 3600 مناضل، مقسمين على 15 فرقة منها 8 فرق كاملة في العاصمة الفرنسية باريس لوحدها، ظل ينادي بالاستقلال التام للدول العربية المغاربية: الجزائر، تونس والمغرب، قبل أن يتم حل تنظيمه من طرف السلطات الفرنسية سنة 1937، في قمع واضطهاد سياسي لكل مهاجر يفكر في استقلال بلده الأم عن فرنسا[15].

وتطبيقا لسياسة التضييق التي اتبعتها فرنسا ضد المهاجرين الجزائريين عمدت إدارتها إلى إصدار مرسوم بتاريخ 04 أغسطس 1926 يقيد حرية الهجرة عن طريق فرض إجراءات إدارية وشهادات صحية، زاد من آثارها أزمة الكساد العظيم سنة 1929 والتي اضطرت الكثير من المهاجرين الجزائريين للعودة إلى بلادهم لأسباب تتعلق جلها بتسريح العمال وندرة مناصب العمل، إلى أن وصلت الجبهة الشعبية للرئاسة في فرنسا بدعم من المهاجرين الجزائريين[16]، فشرعت في سياسة مغايرة تستهدف تشجيع الهجرة الجزائرية فتم إلغاء مرسوم 4 أغسطس 1926 الذي سلف ذكره، بموجب القرار الصادر بتاريخ 17 تموز 1936، لكن سرعان ما نكصت الجبهة الشعبية الفرنسية عن عقبيها وأدارت ظهرها للمهاجرين الجزائريين بضغط من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، فكان لزاما أن يتم حل حزب نجم شمال إفريقيا كما سلف ذكره، ويحل محله لاحقا حزب الشعب الجزائري بتاريخ 11 آذار 1937 برئاسة مصالي الحاج نفسه، والذي حمل أنصاره العلم الجزائري في قلب العاصمة الجزائر، مرددين: ' برلمان جزائري، الحرية للجميع، الأرض للفلاحين، مدارس عربية، احترام الإسلام"[17].

واستنادا للمعطيات الإحصائية التي نشرتها مصالح الإقامة العامة في الجزائر المشار إليها أعلاه، فإن عدد المهاجرين الجزائريين ارتفع من 48677 غداة إنشاء نجم شمال إفريقيا في باريس، ليتقهقر بصورة كبيرة إلى ما دون 4630 للأسباب الاقتصادية التي صاحبت الكساد لعظيم، لتعود أرقام المهاجرين الجزائريين إلى الارتفاع وتسجل 27200 مهاجر غداة إلغاء إجراءات قيد الهجرة ضد الجزائريين، إلى أن بلغت قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1938 أكثر 34019، لتعاود أعداد المهاجرين الجزائريين في الانحصار بسبب أوضاع الحرب[18].

ونظرا لظروف الحرب العالمية الثانية تم تعليق نظام الهجرة الحرة للجزائريين نحو فرنسا، والتوجه إلى سياسة التجنيد الإجباري للمرة الثانية لاستعمال الجزائريين كدروع بشرية ضد الجيوش الألمانية، فاق عددهم 170000 جزائري، قتل منهم 26000، وهي السياسة التي كان قد ندد بها مصالي الحاج زعيم حزب الشعب الجزائري، وهو الموقف الذي كلفه إدانة قضائية، بتاريخ 17 آذار 1940 بتهمة المساس بأمن فرنسا[19]، لتبدأ لاحقا إرهاصات التحضير لتفجير ثورة التحرير في الجزائر، صاحبها تزايد عدد المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا ليصل غداة اندلاع الثورة في الفاتح من تشرين الثاني 1954 إلى 164934 ويقفز إلى 180167 مهاجر جزائري غداة إعلان استقلال الجزائر[20].

ثانيا: أسباب اختيار المهاجرين الجزائريين فرنسا للاغتراب

يقول المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله إن تاريخ الاحتلال الفرنسي في الجزائر موثق ومعروف، لكن من الموضوعات التي لا يزال يشوبها غموض كبير مسألة الهجرة الجزائرية نحو فرنسا، لاسيما فيما تعلق بعواملها ومراحلها، ووجهات أصحابها فضلا عن سبب تغير مكان الهجرة، لأنه تاريخيا كان المشرق العربي هو القبلة الأولي للمغتربين الجزائريين، ثم تغير مكان الاغتراب لاحقا لتصبح فرنسا هي القبلة الأولى للمهاجرين الجزائريين[21].

لقد كانت هجرة الجزائريين في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر في سنة 1830 إلى بلاد المشرق العربي تبررها اعتبارات دينية وثقافية ولغوية، جعلت كثيرا من الميسورين والأعيان في الجزائر يختارون طواعية بلاد المغرب العربي وبلاد الشام للهجرة والاغتراب هروبا من فظاعة مجازر الاحتلال الفرنسي، فقد أبيدت قبائل بأكملها في ولاية الجزائر والبليدة وقسنطينة، وغيرها من الحواضر الجزائرية التي كانت هدفا للاحتلال الفرنسي في بداياته[22].

بالمقابل توالت أسباب عديدة جعلت الكثير من المغتربين الجزائريين يولون قبلتهم نحو فرنسا– برغم أنها كانت تختزل في المخيال الجمعي الجزائري مكانا ينتسب إليه الغاصب والمحتل– يجد بعضها أساسه في اعتبارات اقتصادية وبعضها في عوامل سياسية، في حين لا تقل الاعتبارات الاجتماعية شأنا عن غيرها من الأسباب والعوامل التي دفعت الجزائريين للاغتراب في فرنسا، ستكون محلا للعرض والبيان في النقاط الآتية:

أ– الأسباب الاقتصادية:

كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر مجتمعا زراعيا يعتمد على خدمة الأرض وتربية الماشية، استطاع بفضل الاستثمار في النشاط الفلاحي أن يحقق فائضا من منتجات زراعية كثيرة على غرار القمح والشعير ومختلف أنواع البقول، وهو ما يفسر اعتبار الجزائر أهم موردي مادة القمح للدولة الفرنسية في تلك الفترة[23]، لكن اجتياح الجيوش الفرنسية للجزائر في 1830 كان بداية لسياسة استعمارية مدمرة قامت على سلب الجزائريين أراضيهم الخصبة وتمكينها للمعمرين الأوروبيين الذي دعتهم سلطات

الاحتلال للاستقرار في الجزائر، فالجزائريون بعد أن كانوا ملاكا وأسيادا في أراضيهم وضيعاتهم، أصبحوا مجرد مستخدمين يعاملون معاملة العبيد في أرضهم، وضعية أجبرت الكثير منهم للبحث عن مصدر للرزق عن طريق الهجرة التي كان فيها تثمين العمالة بأضعاف مضاعفة عما كان يتلقاه العمال الجزائريون في بلدهم.

ويؤكد الباحث عبد الحميد زوزو أن الدافع الرئيسي لبداية اغتراب الجزائريين إلى فرنسا كان اقتصاديا، إذ كانت عوامل الطرد طاغية على عوامل الجذب، نتيجة نظام اقتصادي طبقته السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، استفادت منه الأقليات الأوروبية المهاجرة للجزائر، وتضرر منه الجزائريون الذين كانوا يعتبرون مجرد أهالي، اشتدت بهم الفاقة والحاجة في جهات كثيرة من بلدهم، حتى بدت لهم فرنسا حينذاك مفرا ومهربا من حياة البؤس والشقاء التي كانوا يعيشونها[24].

ب- **الأسباب السياسية:**

أجبرت سياسة الحكومة الاستعمارية في الجزائر الكثير من الجزائريين إلى التوجه نحو فرنسا للاغتراب، بعد أن عمدت فرنسا إلى تطبيق معايير ازدواجية، مكنت الأوروبيين المقيمين في الجزائر من نفس حقوق الفرنسيين على الإقليم الفرنسي، بينما ظل الجزائريون يعاملون مجرد أهالي دون حقوق سياسية.

حيث كان أول تشريع يجرد الجزائريين من حقوقهم السياسية ذلك الصادر بتاريخ 24 تشرين الأول 1870، والذي حرم الجزائريين من المشاركة في هيئة المحلفين لدى المحاكم الشرعية، وتلاه لاحقا ما أقدم عليه البرلمان الفرنسي حين سن قانونا يسمح بمعاملة الأوروبيين المقيمين في الجزائر بموجب قوانين الحالات العادية، بينما سمح للحاكم العام في الجزائر بمعاملة الجزائريين بموجب قوانين الطوارئ والحالات الاستثنائية[25]، وهي التشريعات التي جردت الجزائريين من ممارسة حقوقهم السياسية على غرار المشاركة في الانتخابات والتسيير المحلي.

وعطفا عما سبق أدى الوضع الخانق للحريات، وسياسة التضييق المنتهجة من طرف الحكومة الفرنسية إلى تشجيع الكثير من العمال الجزائريين الذين كانوا يناضلون من أجل العدل والمساواة في المعاملة، وتمكينهم من حقهم في المواطنة وفي إبداء آرائهم واعتراضهم على سياسات فرنسا بكل حرية، إلى التفكير جديا في الانتقال والهجرة إلى أرض فرنسا نفسها ومخاصمتها في عقر دارها، ولا نغالي إن قلنا إن هجرة العمال الجزائريين ذوي النزعة النقابية نحو فرنسا ساهم في صقل شخصياتهم ليتمردوا لاحقا على المستعمر الفرنسي عن طريق النشاط السياسي.

كما لا نغفل من جانب آخر ما تسببت فيه سياسة التجنيد الإجباري الذي اتبعته السلطات

الاستعمارية؛ حيث أجبرت كرها، مئات الآلاف من الجزائريين لخدمة الجيش الفرنسي والقتال إلى جانبه في الصفوف الأولى، لنصرة قضايا سياسية لا تعنيهم من قريب أو من بعيد، شجعت الكثير منهم للاستقرار في فرنسا بعدما اكتشف هؤلاء رغد العيش فيها والمعاملة الكريمة التي يلقاها كثير من المغتربين على أراضيها.

ت- **الأسباب الاجتماعية:**

أدى تزايد عدد المهاجرين الجزائريين في فرنسا إلى تغير في القيم الاجتماعية داخل الجزائر، فقد أصبح الكثير من المهاجرين محط إعجاب من ذويهم وأقاربهم بسبب تغير مستواهم الثقافي والاقتصادي، الأمر الذي رغب الكثير ممن لم يفكروا في الاغتراب إلى إعادة النظر في أفكارهم، والتفكير جديا في ركوب مغامرة الاغتراب والانتقال للعيش في فرنسا.

ويعتبر بعض الباحثين أن أداء الخدمة العسكرية من طرف الشبان الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي، كانت له انعكاسات على النسيج الاجتماعي في الجزائر؛ حيث بعيدا عن السلطة الأبوية التي كانت تميز العائلة الجزائرية على غرار كثير من العائلات العربية التي ترعرعت في الثقافة الشرقية، تمرد أولئك الشبان العسكريون عن تقاليد وعادات عائلاتهم، وكانوا أميل للحرية منهم للقيد، فوجدوا بالنتيجة في الهجرة نحو فرنسا الحل في التحرر من قيود السلطة الأبوية[26].

كما يمكن القول أن توجه الكثير من الطلاب الجزائريين للرفع من مستواهم التعليمي دفعهم للهجرة نحو فرنسا لاستكمال دراساتهم والحصول على الخبرة المهنية اللازمة التي تؤهلهم ليكونوا في مراتب متقدمة من التحصيل العلمي، وهي الفرص التي لا توفرها معاهد البلد الأم الذي كان يعاني تحت نير الاستعمار.

حيث نقل الباحث عبد الحميد زوزو في مؤلفة حول الهجرة الجزائرية أرقاما مروعة تعكس فظاعة سياسة التجهيل التي كانت تقودها فرنسا الاستعمارية في الجزائر، إذ لم يتجاوز عدد التلاميذ المتعلمين في الجزائر في سنة 1890 نسبة 1.9% ، ارتفع بعد مرور ربع قرن أي بحلول سنة 1914 إلى نسبة لم تجاوز 5% فقط[27]، وهي نسب تؤكد مدى انتشار الجهل والأمية آنذاك، مما دفع كثيرا من الشبان الجزائريين إلى البحث عن أماكن أخرى لصقل مهاراتهم واستغلال مؤهلاتهم لزيادة التحصيل العلمي، فوجدوا في فرنسا أحسن خيار.

المبحث الثاني: مظاهر مساهمة المغتربين الجزائريين في فرنسا دعما لثورة التحرير

بغض النظر عن نوع الهجرة التي قام بها بعض الجزائريين، سواء كانت طوعية بسبب الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية، أو كانت قسرية بسبب الاضطهاد السياسي والتجنيد الإجباري العسكري، فإن المهاجرين الجزائريين الذي وطئت أقدامهم أرض الغاصب والمحتل كان لهم دور بارز لاحقا عند اندلاع ثورة التحرير المظفرة في الفاتح من تشرين الثاني 1954؛ حيث اتخذ الكثير منهم أرض المستعمر مكانا لممارسة مقاومة الهجرة، كان وقودها مهاجرون لم يثنهم التغرب عن البلد الأم في نصرة قضيته العادلة.

لأجل ما سبق ذكره لعب المهاجرون بغض النظر عن طوائفهم كانوا سياسيين أو عمالا أو مثقفين وطلابا، فقد أبلى كل حسب خصوصيته البلاء الحسن في نصرة المقاومة داخل الجزائر، فأضحت الثورة في معقل فرنسا، ليتجلى دور العمال المغتربين الجزائريين في دعم ثورة التحرير (أولا) لا يقل عنهم دور الطلاب الجزائريين الذين آثروا الاغتراب في فرنسا في الدعم الإسناد (ثانيا)، وصول إلى رد فعل فرنسا لمجابهة دور المهاجرين الجزائريين على أراضيها في دعم ثورة بلدهم (ثالثا).

أولا: دور العمال الجزائريين المغتربين في دعم ثورة التحرير المظفرة

يمكن القول أن العمال الجزائريين المغتربين كانوا مثالا في دعم ثورة بلدهم بالرغم من تواجدهم في أرض المستعمر، وهو ما كان يشكل هاجسا لكل عامل يخشى أن يفضح أمره في دعمه الثوار داخل الجزائر، الذين كانوا يوصفون من طرف الحكومة الفرنسية بأنهم خارجون عن القانون وقطاع طرق، حقيقة قد تجعل كل من يساندهم وينصرهم مهدد بتحمل أشد العقوبات.

بل إننا لا نذيع سرا إطلاقا عندما نقول أن العمال الجزائريين المغتربين وحدهم من كان يناضل على جبهتين: أولاهما جبهة اجتماعية واقتصادية لافتكاك حقوقهم العمالية في إطار ممارسة الحق النقابي، وثانيهما جبهة سياسية ثورية لدعم ثورة التحرير الوطني كنوع من الوفاء للوطن الأم المكبل بقيود الاستعمار الغاشم، لأجل ذلك سنبين الدور النقابي والمالي للعمال الجزائريين المغتربين في فرنسا في دعم ثورة التحرير، على أن نليها بنقطة ثانية تكون محلا لعرض الدور السياسي والثوري لهؤلاء العمال في نصرة قضية بلدهم الأم.

أ- الدور النقابي والمالي للعمال الجزائريين المغتربين في فرنسا في دعم ثورة التحرير الوطني

من الحقائق التاريخية الذي رافقت اندلاع ثورة التحرير الجزائرية أن العمال الجزائريين المغتربين في فرنسا عشية اندلاع ثورة نوفمبر كان أغلبهم يدين بالولاء لزعيم التيار الاستقلالي مصالي الحاج، والذي كان عاملا نقابيا ذو شخصية قوية أنشأ عدة تنظيمات سياسية لتأطير المهاجرين الجزائريين في فرنسا، لأجل ذلك لم يكن موافقا على قيادة جبهة التحرير الوطني لثورة التحرير، مما دفعه لحمل المهاجرين الجزائريين لعدم التعاون معها ونبذ قادتها.

لاحقا حاولت جبهة التحرير الوطني عن طريق قادتها ودبلوماسيتها أن تستميل المهاجرين الجزائريين لصفها وحملهم على دعم ثورة التحرير الوطني في عقر دار فرنسا، برغم أن بيان أول نوفمبر خلا من أي إشارة للمهاجرين الجزائريين المغتربين في فرنسا، إلى أن استدركت الجبهة الأمر بمناسبة عقد مؤتمر الصومام في أعالي جبال القبائل بتاريخ 20 أغسطس 1956، حيث جاء في وثيقته أنه: "يعتبر الجزائريون المهاجرون في فرنسا رأس مال ثمين بالنسبة لعددهم وطابعهم الذي يمتازون به من الفتوة، وحب الكفاح ، وإن مهمة جبهة التحرير هي تعبئة هذه القوى الكبيرة"[28].

وعمدت السلطات الفرنسية عشية اندلاع ثورة التحرير الوطني في الجزائر إلى عقد اجتماع موسع ضم رؤساء مصالح أمن المحافظات الفرنسية قصد تضييق الخناق على المهاجرين الجزائيين وضمان عدم توسع نطاق المقاومة إلى الداخل الفرنسي، لأجل ذلك تم إنشاء كتائب درك للاستعلام والقمع، خاصة بالمهاجرين ذوي أصول شمال إفريقيا[29]، تماشيا مع نفس السياسة التي تتبناها الحكومات الفرنسية المتعاقبة بخصوص المسألة الجزائرية؛ حيث دأبت حتى في المرحلة التي سبقت اندلاع ثورة التحرير على تعقب آثار العمال المهاجرين الجزائريين، فكانت الشرطة الفرنسية تراقب تحركاتهم في النزل والمطاعم والمقاهي، وتسعى للتضييق عليهم في ممارسة حقوقهم النقابية؛ لاسيما المبادرة بالاحتجاجات وعقد الاجتماعات[30].

بالمقابل لعب العمال الجزائريون المغتربون في فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسي دورا بارزا في دعم ثورة التحرير، خصوصا من الجانب المالي، بسبب اليسر المالي الذي كان ينعم به كثير منهم، فلم يكن عائقا أمامهم أن يجمعوا إعانات مالية توجه لقيادة جبهة التحرير الوطني عن طريق فيدراليتها في فرنسا لتمويل الثورة المسلحة؛ حيث بلغت مساهمات العمال المغتربين الجزائريين في فرنسا أربعة أخماس ميزانية الحكومة المؤقتة الجزائرية[31].

ولعل مبادرة المهاجرين الجزائريين في فرنسا لدعم ثورة بلدهم بالمال يدل على الارتباط الوثيق مع عناصر هويتهم، فقد كانت التبرعات سخية جدا، بدأت منذ انطلاق أول رصاصة للثورة في جبال الأوراس الأشم شرق الجزائر، لا سيما في المناسبات الوطنية على غرار ذكرى اندلاع الثورة، إذ كان العمال الجزائريون يخصصون أجرة يوم كامل لدعم الثورة حسب ما جاء مذكرات علي هارون، تخصص في شراء السلاح والإنفاق على عائلات المساجين ومصاريف المحامين المدافعين عن قضايا الثورة الجزائرية، وتمويل مصاريف نقل هذه المساعدات إلى أرض الوطن بفضل تعاظم الاشتراكات والمساعدات والتي فاقت خلال أربعة سنوات 1957، 1958، 1960 و1961 مبلغ ملياري فرنك فرنسي[32].

الدور الثوري للعمال الجزائريين المغتربين في فرنسا في دعم ثورة التحرير الوطني

برغم الصراع الذي قائما بين الحركة المصالية وفيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، فقد كان دور العمال المهاجرين الجزائريين مترددا بين الاتجاهين بسبب حرب الزعامة ومن فرض قيادة النضال السياسي والعسكري، دون أن يمنع ذلك تأييد غالبيتهم لشرعية العمل العسكري قصد تحرير البلد الأم من الاستعمار، صراع ألقى بضلاله على التنظيم الهيكلي للعمال الجزائريين المقيمين بفرنسا، حيث سارع المصاليون إلى إنشاء الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين[33]، قصد استمالتهم ورص صفوفهم خلف القائد النقابي مصالي الحاج، إلا أن قيادة جبهة التحرير الوطني سارعت هي الأخرى إلى محاولة إقناع المهاجرين الجزائريين في فرنسا قصد التخلي عن الحركة المصالية ودعمها لحساب قيادة الجبهة، مما دفع الكثير منهم للتفكير جديا في تبني العمل العسكري والعودة إلى أرض الوطن.

لأجل ذلك تزايد بدء من سنة 1956 أعداد المهاجرين الجزائريين العائدين لأرض الوطن لدعم الثورة محليا، مما جعل الحاكم العام للجزائر يفرض قيودا إدارية تتمثل في ضرورة الحصول على ترخيص للعودة للجزائر، لأن الإدارة الاستعمارية كانت تعتقد أن زيادة أعداد المهاجرين العائدين إلى الجزائر يصب في مصلحة المتمردين الثوار لذلك وجب ثنيهم عن العودة أو التضييق عليهم قدر الإمكان[34].

بالمقابل سعت قيادة جبهة التحرير الوطني، لا سيما عن طريق جناحها المكلف بتأطير المهاجرين في فرنسا، العمل على تأسيس ودادية العمال المهاجرين الجزائريين في فرنسا، بدأت إرهاصاتها تتجلى مع نجاح الإضراب العام الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني في فرنسا من 28 يناير إلى 4 شباط 1957، خصوصا مع تضامن العديد من أصدقاء الثورة الجزائرية من الفرنسيين من أمثال أندري تولي Andre Tollet الأمين العام لنقابة عمال مقاطعة السين في فرنسا وغيره، لتأسس فعليا ودادية العمال المهاجرين الجزائريين في فرنسا بتاريخ 21 شباط 1957 وتتخذ من مقاطعة باريس مقرا لها[35].

وقد وجد العمل الثوري الذي انخرط فيه العمال الجزائريون المغتربون في فرنسا أساسه في دعوة فيدرالية جبهة التحرير الوطني لهم قصد القيام بأعمال عسكرية مسلحة داخل معقل فرنسا، ويبرر أحد أهم قادة الفدرالية المعنية وهما رئيسها عمر بوداوود، وعلي هارون المكلف فيها بالإعلام والمساجين، هذا التوجه الثوري بقولهما: " لم يكن يدور في فكر المهاجرين الجزائريين الذين يترواح عددهم ما بين 600 ألف إلى 700 ألف مهاجر، القيام بحرب ضد بلد تعداد سكانه 45 مليون نسمة، ومن السخافة بما كان التفكير في ذلك، ولكننا وشعبنا نتعرض للقصف بالنابالم من طرف الاستعمار الفرنسي، كما أن شعبنا قد زج به في المحتشدات، ويتعرض يوميا للقمع والاستنطاق. إن شعبنا في الجزائر يعيش في معاناة وآلام يوميا، في حين يعيش الشعب الفرنسي حياته اليومية بكل هدوء واطمئنان، يذهب للسينما، ويقضي عطلته الأسبوعية كالمعتاد دون أدنى شعور بما يجري في الجزائر من حرب... وهدفنا من وراء القيام بأعمال تخريبية في فرنسا قد تحقق، ذلك أننا استطعنا أن نشعر الفرنسيين بأن هناك حربا تجري في الجزائر..."[36].

وتجلى دور العمال المهاجرين الجزائريين في دعم العمل العسكري في معقل فرنسا انخراطهم في المنظمة الخاصة باعتبارها الجناح العسكري لفدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا والتي تمت هيكلتها بعد توصيات مؤتمر الصومام المنعقد في 20أغسطس 1956 في جبال القبائل بالجزائر، والتطوع للقيام بأعمال تخريبية تمس بعض المصالح الاقتصادية على غرار خطوط الأنفاق وقرصنة الإذاعة والتلفزيون ورفع العلم الجزائري فوق برج إيفل[37]، ولعله في ذات السياق أكد المؤرخ الفرنسي بنجامين ستورا Benjamin Stora أن حصيلة الأعمال الفدائية التي كان يقوم بها فدائيو الجالية الجزائرية المغتربة في فرنسا ضد المؤسسات لاقتصادية والعسكرية والأمنية: 56 عملية تخريب، 181 هدف عسكري واقتصادي[38].

ثانيا: دور الطلاب الجزائريين المغتربين في دعم وإسناد ثورة التحرير الوطني

إذا كانت الهجرة العمالية الجزائرية في فرنسا قد لاقت اهتماما إعلاميا وسياسيا، فإنه بالمقابل لم تحظ نظيرتها من الهجرة الطلابية بنفس الاهتمام، وتعدى الأمر إلى المستوى الأكاديمي، أين عزف كثير من الباحثين عن الكتابة في موضوع الهجرة الطلابية[39]، حقيقة لم تنقص البتة من دور الطلاب الجزائريين الذين آثروا الاغتراب في فرنسا قصد التحصيل العلمي، والذين لم يفكروا لحظة عند الخيار بين الدراسة والالتحاق بالثورة، فكانوا وسام شرف توشح به صدر ثورة الجزائر.

وإذا كان طلاب الجزائر المغتربون في أصقاع الأرض قد لبوا نداء ثورة التحرير وتعاطفوا معها، فإنها حقيقة جعلت جبهة التحرير الوطني توفد ممثليها لتأطيرهم، عن طريق إنشاء مكاتب ومنظمات طلابية محلية، على غرار مكتب الطلبة الجزائريين في دمشق العاصمة السورية، الذي أبان عن وعيه بقضايا الأمة المصيرية، وربطها بعمقها العربي وحضارتها الإسلامية[40]، فإنه بالمقابل كان أقرانهم من الطلاب المهاجرين في فرنسا يعانون تضييقا رهيبا بسبب نصرة قضية بلدهم العادلة، لأجل ذلك تجلى دورهم سياسيا في تشكيل منظمات كانت تناضل سياسيا في نصرة فكرة المقاومة والتحرر من الاستعمار، كما لم تتخلف عن العمل الثوري والعسكري استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني الممثل والشرعي والوحيد لثوار الجزائر.

الدور السياسي للطلبة الجزائريين المغتربين في فرنسا في دعم ثورة التحرير الوطني

لقد تجلي الدور السياسي للطلاب الجزائريين المغتربين في فرنسا قبل اندلاع ثورة التحرير الوطني في الفاتح من تشرين الثاني 1954، إيمانا منهم بقضيتهم العادلة، وحق شعبهم في تقرير مصيره بالاستقلال التام عن فرنسا الاستعمارية، وقد اشتد الولاء والانخراط في العمل السياسي بعد اندلاع شرارة الثورة في البلد الأم، فكانوا السباقين لتأطير صفوفهم عن طريق إنشاء كيانات طلابية تناضل سلميا وبالطرق السياسية قصد تحسيس الجالية الجزائرية بضرورة نصرة الثورة والسعي للدفاع عن مبادئها التحررية التي أصبحت شعلة لكل شعوب المستعمرات في العالم.

ورغم تعدد الكيانات التي تمثل الطلاب الجزائريين المغتربين في فرنسا، والتي كانت تنشأ وتختفي لأسباب تنظيمية وهيكلية، فإنه ما يمكن الإشارة إليه أن تأسيس جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين بفرنسا في تموز 1955 كان منعرجا حاسما في انخراط طلاب الجزائر المغتربين في العمل السياسي لدعم الثورة، وإحداث صدى عالمي للقضية الجزائرية والسعي لتدويلها وكسب تضامن الدول الشقيقة والصديقة، على اعتبار أن الطلاب فئة مثقفة وواعية، تملك القدرة على الإقناع والتواصل مع مختلف المنظمات والهيآت الإقليمية والدولية[41].

وما يلاحظ في الممارسة السياسية التي كان يأتيها الطلاب المغتربون الجزائريون في فرنسا أنهم كانوا يحاولون التوفيق بين متطلبات الدراسة وظروف الإقامة في المهجر من جهة، ونصرة الثورة والمقاومة

التحريرية من جهة ثانية، مما دفعهم إلى توجيه تنظيماتهم الطلابية إلى العمل النقابي والسياسي، والعمل على التنسيق مع الطلبة الأشقاء من بلاد المغرب العربي الذين كانوا يعانون من الاحتلال الفرنسي[42].

وبعيدا عن اللغط الذي صاحب استعمال صفة المسلمين في تسمية اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين لاسيما من خلال معارضة الطلاب الجزائريين ذوو التوجه الشيوعي، فإن الاتحاد قضى في مجلسه التأسيسي المنعقد من 8 إلى 14 تموز 1955 برئاسة أحمد طالب الإبراهيمي، أن الاتحاد يسعى لتحقيق أهداف أربعة رئيسة: أولها العمل على توحيد جهود العمل النقابي للطلاب المغتربين الجزائريين في فرنسا، والسعي لتوحيد كلمتهم لمواجهة الغطرسة الفرنسية دفاعا عن قيم الثورة والمقاومة، وثانيها العمل لرد الاعتبار للغة العربية باعتبارها لغة الجزائريين الأولى، وثالثها تشجيع مشاركة الاتحاد في الحياة السياسية والإدارية، ورابعها الاستفادة من روافد الحضارة الأوروبية[43].

ولعل ما يفسر تشبع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالإيديولوجية الوطنية والتحررية، احتكاك مناضليه بإطارات جبهة التحرير الوطني، باعتبارها الجهة التي تقود الثورة سياسيا وعسكريا؛ حيث كان محمد البجاوي يتصل بهم في الأحياء الجامعية ليشرح لهم السياسة العامة التي قررها جيش التحرير بقيادة الجبهة بعد مؤتمر الصومام في 20 أغسطس 1955، في توجه ساعد على إذكاء العمل السياسي للطلاب المغتربين الجزائريين عن طريق العمل سويا على مطالبة السلطات الفرنسية بتمكين الشعب الجزائري من حقه في الاستقلال، دون إغفال التنسيق مع الأحرار الفرنسيين الذي كانوا يساندون ثورة الجزائر في قلب الحواضر الفرنسية[44].

الدور الثوري للطلبة الجزائريين المغتربين في فرنسا في دعم ثورة التحرير الوطني

إن المستقرئ لحركات التحرر في العالم يدرك مدى صعوبة الاعتماد على المدنيين في الكيانات المسلحة التحررية لاعتبارات تتعلق أساسا بواجب السرية والتخطيط الآمن في مواجهة العدو، الذي يمكنه استخدام المدنيين كعملاء لاختراقها وفك صفوفها، وهي الحقيقة التي تفسر تأخر التحاق الطلاب المغتربين الجزائريين في فرنسا بالعمل المسلح، لأن قيادة الثورة المسلحة في الجزائر عن طريق فرعها المتمثل في فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، كانت تتوجس من محاولات الاختراق ومكائد الخيانة التي قد تقضي على الثورة في مهدها، لكن لاحقا وبعد انتشار واسع لإطارات جبهة التحرير الوطني في الأراضي الفرنسية، استطاعوا تعيين الكثير من الطلاب الجزائريين ليكون مناضلين ثوريين ومستعدين للعمل العسكري[45].

حيث التحق الكثير من الطلاب الجزائريين بساحات الشرف بعدما آثروا الهجرة العكسية نحو بلدهم الأم ومقاومة فرنسا في أرض أجدادهم، بينما فضل آخرون بأوامر من قيادة الثورة الجزائرية الالتحاق بالجارتين تونس والمغرب للعمل بمصالح الاتصالات والاستعلامات العام، خاصة أن أغلبهم ذوو تكوين تقني يؤهلهم لمثل تلك الأعباء، بل سخروا معارفهم وخبراتهم لتكوين جزائريين آخرين في مجال الاتصال بالراديو والمخابرات والتجسس.

وإثباتا لهذا التوجه الثوري أعلن الطلاب المغتربون الجزائريون في فرنسا والمنضوون تحت لواء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بمناسبة عقد مؤتمرهم السنوي الثاني ما بين 24- 30 آذار 1956 بباريس؛ حيث صوت المؤتمرون على لائحة جاء فيها:" اعتبارا من أن كفاح الشعب الجزائري ضروري ومشروع، واعتبارا من أن سياسة القوة وحرب الإبادة والقمع التي يشنها الاستعمار الفرنسي تجعل كل تقارب بين الشعبين الجزائري والفرنسي مستحيلا، فإن المؤتمر يطالب بما يلي: أ-استقلال الجزائر، ب-إطلاق سراح كل الوطنيين المسجونين أو المعتقلين، ت-المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني[46]"، وهو التوجه الذي دفع السلطات الفرنسية إلى حل الاتحاد لاحقا بتاريخ 28 كانون الثاني 1958.

ويقينا، فإن التاريخ يشهد أنه برغم ممارسات التضييق والتعذيب والاستنطاق التي عانى منها الطلاب الجزائريون المغتربون في فرنسا بسبب دعمهم الثوري والسياسي لثورة التحرير الوطني لبلدهم الأم، إلا أن ذلك لم يثن عزائمهم ولم يثبط قواهم، بل كلما اشتد بهم الضيق كلما انفجروا دعما لقضايا بلدهم حتى ولو كان الثمن الإغراق في نهر السين في العاصمة باريس، كسياسة انتقامية من سلطات فرنسا الاستعمارية.

ثالثا: مظاهرات 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1961 رمز الهجرة والمهاجرين في مخيال الجزائريين

تبين جليا من خلال الفقرتين السابقتين مدى مساهمة المهاجرين الجزائريين في فرنسا في دعم ثورة التحرير المظفرة، عمالا كانوا في مصانعهم ومزارعهم ومؤسساتهم، أو طلابا كانوا في مدرجات الجامعة وأقسام الثانويات، فقد كانوا سندا للثورة الجزائرية، نقلوا المقاومة إلى عقر دار فرنسا الاستعمارية، حقيقة جعلت فرنسا تقرر مواجهة المد الثوري والنضالي للمهاجرين الجزائريين في دعم الثورة عن طريق سياسة قمعية وحشية.

ولعله بمجرد وصول شارل دو غول إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية في الفاتح من جوان/حزيران 1958، معتمدا على سياسية جديدة في علاقة فرنسا بالجزائر كمستعمرة في شمال إفريقيا[47]، مقوماتها تكثيف العمليات الوحشية ومختلف أصناف التعذيب والتنكيل والتشريد في حق الجزائريين بعمليات عسكرية بمسميات مختلفة[48]، هدفها القضاء على نار الثورة وإبقاء الجزائر فرنسية.

وأخذا لخصوصية محافظة شرطة باريس باعتبارها العاصمة الفرنسية، ومقر إقامة السواد الأعظم من المهاجرين الجزائريين، فإنها كانت تحظى بنظام قانوني استثنائي توارثته من حقبة نابليون بونابرت، ونظرا لحساسيتها تعاقب على إدارتها محافظون عدة إلى أن تم تعيين موريس بابون Maurice Papon على رأسها بتاريخ 15 مارس/ آذار 1958، في ظل ظروف خاصة[49].

وتجسيدا لسياسة القضاء على الثورة في أرض فرنسا مكنت الحكومة الفرنسية موريس بابون محافظ شرطة باريس صلاحيات مطلقة وكاملة لحفظ النظام العام، والعمل على القضاء على تنظيمات المهاجرين الجزائريين في الداخل الفرنسي، لاسيما فيدرالية جبهة التحرير الوطني، باعتباره كان صاحب خبرة في إدارة المستعمرات، خصوصا في ولاية قسنطينة في الشرق الجزائري[50].

والمفارقة أن التاريخ يحفظ جيدا تاريخ الضحية ويفضح الجلاد، فقد كان تاريخ 17 أكتوبر/تشرين الأول 1961 محفورا في الذاكرة الوطنية الجزائرية حتى تم ترسيمه في الجزائر يوما وطنيا للهجرة، وفاء لتضحيات المهاجرين الجزائريين في فرنسا الذين خرجوا في مظاهرات ضخمة، لاسيما في العاصمة باريس لمواجهة التعسف والتمييز الذي عانى منه المهاجرون الجزائريون دون غيرهم من الأجانب.

حيث تعود أسباب هذه المظاهرات إلى قرار موريس بابون إلى إعلان حظر التجول من الثامنة والنصف ليلا إلى الخامسة والنصف صباحا، يشمل الجزائريين فقط، بهدف منع المهاجرين من التواصل مع فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، فكان قرار جائرا يخالف جميع المواثيق الدولية التي التزمت بها فرنسا داخليا ودوليا.

وفي ظل هذه الظروف الخانقة والتعسف الجائر، لم يكن أمام جبهة التحرير الوطني عن طريق فرعها في فرنسا، إلا أن تدعو لمظاهرات حاشدة بتاريخ 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1961، شارك فيها ما يفوق عن 40 ألف مهاجر جزائري[51]، تنديدا بالتضييق عنهم وقمعهم بطرق لا إنسانية، عن طريق الاعتماد على بعض العملاء الجزائريين، الذي فضلوا التعاون مع المصالح الفرنسية ضد بلدهم، فكانوا سيفا قاصما على ظهر المهاجرين الجزائريين، خصوصا أولئك الذين يقطنون في الدائرة الثالثة عشرة والدائرة الثامنة عشرة في باريس[52].

ويضيف بعض الباحثين في شؤون الهجرة الجزائرية في فرنسا إبان الثورة، أن فظاعة جرائم موريس بابون ضد الجزائريين لم تبدأ في 17 أكتوبر/تشرين الأول 1961، بل بدأ التحضير لها في السادس من أكتوبر/ تشرين الأول 1961 عندما أعلنت الشرطة الفرنسية بيانا عاما يفرض حظر التجول ضد المهاجرين الجزائريين ليلا، ومن كان يعمل منهم بالتوقيت الليلي يتعين عليه استصدار ترخيص إداري استثنائي، مع عدم إمكانية التنقل الجماعي لهؤلاء المغتربين الجزائريين[53].

لقد واجهت الشرطة الفرنسية بأوامر من موريس بابون المتظاهرين العزل من المهاجرين الجزائريين في شوراع باريس رميا بالرصاص الحي ورمي الكثير من الجزائريين مكبلي الأيادي في نهر السين ليلقوا حتفهم غرقا بلغ عددهم 300 جزائري شهيد، و400 مفقود، وقد كانت كثير من جثث المهاجرين الجزائريين تطفو فوق نهر السين ويعثر عليها في غابات مجاورة، فضلا عن الجرحى والمرحلين عنوة بحرا للجزائر[54].

إن هذه المظاهرات شكلت منعطفا حاسما في نصرة المهاجرين الجزائريين لثورتهم داخل التراب الفرنسي، وبقي نهر السين شاهدا على فظاعة سياسة التنكيل والتعذيب الفرنسية، قابلتها صدور الجزائريين بشجاعة وبسالة لا نظير لها أفضت بعد أشهر إلى إعلان وقف إطلاق النار وإعلان استفتاء تقرير المصير، ليلعن استقلال الجزائر في الخامس من تموز 1962، بعدما أبلى مهاجريها ومغتربيها البلاء الحسن في دعمها ونصرة قضيتها.

الخاتمة

من جماع ما تقدم، نخلص إلى أن توافد المهاجرين الجزائريين على فرنسا كرها عن طريق التجنيد الإجباري للشباب الجزائري، أو طوعا لتحسين ظروف المعيشة، شكل ظاهرة استحقت الدراسة العلمية من جوانب تاريخية واجتماعية وسياسية، بسبب خصوصية المكان محل الهجرة، لأن فرنسا لم تكن مكانا لتحقيق أحلام اقتصادية فقط، بل كانت دولة تختصر دولة الغاصب والمحتل، ومكانا يمكن أن تتقد منه جذوة المقاومة ونصرة ثورة التحرير.

إن دراسة ظاهرة هجرة الجزائريين نحو فرنسا في الفترة التي سبقت اندلاع ثورة التحرير الوطني في الجزائر، فسرت إلى حد كبير كيف ساهم هؤلاء المغتربون في دعم ثورة بلدهم برغم سياسة القمع والتضييق التي كانت تعاملهم بها السلطات الفرنسية في مهجرهم، وحجم المخاطرة التي كانت تتسبب في كثير من الأحيان في طرد العمال المهاجرين الجزائريين من عملهم، أو طرد مواطنيهم من الطلاب، أو حتى تصفية الكثير منهم لأسباب تتعلق أساسا بدعم المقاومة الجزائرية وثورتها المظفرة.

وحقيق علينا أن نسجل أن المهاجرين الجزائريين بغض النظر عن الأسباب التي دفعتهم للالتحاق بفرنسا، إلا أنهم أبلوا بلاء حسنا منذ لحظة إطلاق أول رصاصة في جبال الأوراس الأشم شرق الجزائر، إذ لم يترددوا لحظة في نصرتها ودعمها، حتى سجلت الإحصائيات الرسمية أن أربعة أخماس ميزانية الحكومة المؤقتة الجزائرية كان يمولها المغتربون الجزائر، لا سيما المقميمون منهم في فرنسا، دون أن نغفل دورهم السياسي الذي تجلى في الحركات النقابية العمالية التي كانت تضم المهاجرين الجزائريين، وتجمع صفوفهم، وتوحد كلمتهم على قول واحد: نصرة ثورة التحرير الوطني ومساندتها قدر المستطاع، وهي التنظيمات الهيكلية التي لم يتخلف عنها الطلاب المغتربون الجزائريون في فرنسا، برغم ظروف الدراسة ومتطلبات التحصيل العلمي، إلا أنهم كانوا لا يدخرون جهدا في دعم مقاومة شعبهم، ومواجهة السياسة الاستعمارية التمييزية الممارسة ضدهم بصورة تحقق نصرا مؤزرا.

وفضلا عن الدور السياسي الذي تصدت له التنظيمات النقابية والطلابية للمغتربين الجزائريين في فرنسا إبان ثورة التحرير، فقد آثروا أن يتطوعوا كفدائيين في صفوف جيش التحرير الوطني في عقر دار فرنسا الاستعمارية، فقد تحلى الكثير منهم بشجاعة وبأس قل نظيرهما، والتحقا بكتائب المقاومة المسلحة

عن طريق استهداف مراكز حيوية فرنسية ذات طبيعة اقتصادية وأمنية عسكرية على مدار سبع سنوات ونصف من الثورة والمقاومة.

وقد كانت أحداث 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1961 في باريس أجلى درجات تحدي المهاجرين الجزائريين في فرنسا لجلاديهم وعلى رأسهم موريس بابون قائد شرطة باريس، حيث لم يمر ذلك الثلاثاء الأسود حتى رمت الشرطة الفرنسية مئات المهاجرين الجزائريين في نهر السين دون رحمة ولا شفقة، تمردوا على إجراءات تمييزية ضدهم دون غيرهم من المهاجرين بالتظاهر سلميا وتعبيرا منهم عن نصرة الثورة والمقاومة في الجزائر.

وعطفا عما سبق بيانه فقد سجلت الهجرة الجزائرية صفحات ناصعة تتقاطر مجدا وفخرا، حتى أضحى تاريخ 17 أكتوبر/تشرين الأول من كل سنة محطة لاستذكار تضحيات المهاجرين الجزائريين ومحاولة رد الجميل لهم، عن طريق تخليد مآثرهم والاقتداء بسيرهم في نصرة الثورة والمقاومة والانعتاق من الاستعمار الغاشم، لاسيما أن ضفاف نهر السين لازالت شاهدة عن معاناة وألم اعتصر ولا يزال قلوب الجزائريين.

ومن جانب آخر، يتعين النضال سياسيا ودبلوماسيا قصد اعتراف فرنسا بجرائمها ضد عامة الجزائريين، وخاصة المغتربين الذي كانوا على أرضها إبان ثورة التحرير، لأن الجريمة ضد الإنسانية واحدة، والجزائريون كغيرهم من شعوب العالم الذين قاوموا الاستعمار، لا يبغون إلا اعتراف مستعمرهم بجرائمه، وفي مقدمتها إغراق المهاجرين الجزائريين أحياء في نهر السين، وكشف حقيقة بشاعة الاستعمار للأجيال القادمة.

الحواشي:

1 جندت فرنسا الاستعمارية أثناء الحرب العالمية الأولى، أكثر من 173 ألف جزائريا للقتال دفاعا عنها ، مات منهم 25 ألف جزائري لا تزال مقابرهم شاهدة عليهم في فاردان "Verdun" في الشرق الفرنسي: راجع بخصوص ذلك:
بزيان، سعدي. دور الطبقة العاملة الجزائرية في المهجر في ثورة نوفمبر 54، التاريخ السياسي والنضالي للعمال الجزائريين في المهجر من "نجم شمال إفريقيا" إلى الاستقلال. الطبعة الثانية.الجزائر: منشورات ثالة؛ 2009. ص، 8.
ويضيف الباحث عبد الحميد زوزو أن الحرب العالمية الأولى كانت سببا في فتح باب الهجرة أمام الجزائريين إلى فرنسا تحديدا، فخلال هذه الحرب ارتفع عدد المهاجرين الجزائريين المجندين قهرا من 7444 في سنة 1914 إلى 23340 سنة 1918: انظر بشأن ذلك: زوزو، عبد الحميد. الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين 1914-1939، الحركة المصالية. الطبعة الثالثة. الجزائر: دار هومة؛ 2013. ص، 15.

2 طرشون، نادية. يحياوي، جمال. الخالدي، سهيل. الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي، أثناء الاحتلال. سلسلة المشاريع الوطنية للبحث. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954؛ 2007. ص، 9.

3 المرجع نفسه، ص 197.

4 ياحي، محمد. النضال الوطني للمهاجرين الجزائريين بفرنسا. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30-31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007. ص، 175.

5 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 12.

6 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص، 11.

7 بن فاطمة، سامية. حفظ الله، بوبكر. الهجرة الجزائرية إلى فرنسا خلال الاحتلال الفرنسي 1830-1962، قراءة في الأسباب والدوافع. مجلة العلوم الاجتماعية، عدد 27. الأغواط (الجزائر): كلية العلوم الاجتماعية جامعة عمار ثليجي بالأغواط، نوفمبر 2017. ص، 126.

8 Amiri(L.). La bataille de France, la guerre d’Algérie en France, préface Benjamin Stora. Alger : Chihab Editions .; 2005. P, P.17.18

9 بزيان سعدي. المرجع السابق. ص، 12.

10 Amiri(L.). Op, cit. p, 18.

11 يقصد بالفكر الاندماجي الذي يتزعمه فرحات عباس في بداية نضاله السياسي ضد المستعمر الفرنسي، أن تظل الجزائر إقليما فرنسيا شريطة

أن يتمتع الجزائريون بحقهم في المواطنة، ويتساوون في حقوقهم السياسية والمدنية مع الفرنسيين أنفسهم، قبل أن يغير فكره تماما ويعتنق الفكر الاستقلالي عن فرنسا الاستعمارية عندما التحق بثورة التحرير الوطني.

12 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 16.
13 المرجع نفسه.
14 Amiri(L.). Op , cit. P, 23.
15 ياحي، محمد. المرجع السابق. ص، 187.
16 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 20.
17 Amiri(L.).Op, cit. P, 25.
18 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص،12.
19 ياحي، محمد. المرجع السابق. ص، 194.
20 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص، 13.
21 سعد الله، أبو القاسم. هجرة بعض الأعيان. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830–1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30–31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007. ص، 21.
22 طرشون، نادية. يحياوي، جمال. الخالدي، سهيل. المرجع السابق. ص، 143 وما بعدها.
23 بن فاطمة، سامية. حفظ الله، بوبكر. االمرجع السابق. ص، 131.
24 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 46.
25 ليندة، علال. قالمي، فايزة. الهجرة الجزائرية نحو فرنسا، أسبابها ونتائجها. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال1830–1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30–31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007. ص،213.
26 ليندة، علال. قالمي، فايزة. المرجع السابق. ص، 217.
27 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 47.
28 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص، 25.
29 Amiri(L.). op, cit. p, p. 43, 44.
30 زوزو، عبد الحميد. المرجع السابق. ص، 166.
31 Einaudi)J–L.). La bataille de paris, 17 octobre 1961. Paris: Editions Média– Plus ; 1991. p, 21.
32 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص، 63 وما بعدها.
33 يعبش، محمد. المهاجرون الجزائريون بفرنسا بين الحركة المصالية وفيدرالية جبهة التحرير الوطني. مجلة البحوث التاريخية، المجلد الأول، العدد 2. الجزائر: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة؛ 2017. ص، 206.
34 تكران، جيلالي. فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، دراسة في التنظيم والهيلكة 1954–1957. الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، المجلد 10، العدد 1. الجزائر: جامعة حسيبة بن بوعلي؛ 2018. ص،ص. 187، 188.
35 بغداد، خلوفي. الودادية العامة للعمال الجزائريين. مجلة الساوة للدراسات الإجتماعية والإنسانية، المجلد 4 ، العدد 1. الجزائر: جامعة بشار؛ 2018. ص، ص. 23، 24.
36 بزيان سعدي. المرجع السابق.ص 45.
37 تكران، جيلالي. المرجع السابق. ص، 190.
38 سعدي، بزيان. المرجع السابق. ص، 46.
39 عبد اللاوي، حسين. هجرة الطلبة الجزائريين إلى فرنسا 1900–1960. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830–1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30–31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007. ص، 127.
40 عبيد، مصطفى. النشاط الثوري للطلبة الجزائريين بسوريا 1955–1962. مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 10، عدد 2. الجزائر: جامعة معسكر؛ 2019. ص، ص. 605،606.
41 عقيب، محمد السعيد. الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والمنظمات العالمية للطلبة. مجلة البحوث والدراسات، المجلد 4، العدد 1. الجزائر: جامعة الوادي؛ 2007. ص، 120.
42 العبد اللاوي، حسين. المرجع السابق. ص، 160.
43 بغداد، خلوفي. الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بين 1955–1962. مجلة عصور، المجلد 5، العدد 1. الجزائر: مخبر البحث التاريخي بجامعة وهران؛ 2006. ص، ص. 96، 97.
44 بزيان، سعدي. المرجع السابق. ص، 32.
45 بلفردي، جمال. فاتح، وزياني. نشاط الطلبة الجزائريين في الجامعات الفرنسية خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1954–1962. المجلة التاريخية الجزائرية. المجلد 4، العدد 2. الجزائر: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، 2018. ص، 259.
46 بغداد، خلوفي. الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بين 1955–1962. مرجع سابق. ص، 98.
47 Einaudi(J–L.)., op, cit. p, 22.
48 Idem
49 Amiri(L.). op, cit. p,p. 56, 57.
50 بزيان، سعدي. جرائم موريس بابون ضد المهاجرين الجزائريين في 17 أكتوبر 1961. الطبعة الثانية.الجزائر: منشورات ثالة؛ 2009. ص، 30.
51 صاري، أحمد. دور المهاجرين الجزائريين في الثورة التحريرية. مجلة مصادر تاريخ الجزائر المعاصر، المجلد 1، العدد1. الجزائر: منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954؛ 1999. ص، 344.
52 سامية، بن فاطمة. مظاهرات المهاجرين الجزائريين بفرنسا، 17 اكتوبر 1961، وانعكاساتها على مسار الثورة التحريرية. مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد الأول، العدد 4. الجزائر ؛ 2016. ص، ص. 217، 218.
53 بزيان، سعدي. جرائم موريس بابون ضد المهاجرين الجزائريين في 17 أكتوبر 1961. مرجع سابق. ص، ، ص. 87، 88.
54 المرجع نفسه. ص، 48.

قائمة المصادر والمرجع

1- بزيان، سعدي. دور الطبقة العاملة الجزائرية في المهجر في ثورة نوفمبر 54، التاريخ السياسي والنضالي للعمال الجزائريين في المهجر من "نجم شمال إفريقيا" إلى الاستقلال. الطبعة الثانية.الجزائر: منشورات ثالة؛ 2009.
2- زوزو، عبد الحميد. الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين 1914-1939، الحركة المصالية. الطبعة الثالثة. الجزائر: دار هومة؛ 2013.
3- طرشون، نادية. يحياوي، جمال. الخالدي، سهيل. الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي، أثناء الاحتلال. سلسلة المشاريع الوطنية للبحث. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954؛ 2007.
4- ياحي، محمد. النضال الوطني للمهاجرين الجزائريين بفرنسا. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830- 1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30-31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007.
5- بن فاطمة، سامية. حفظ الله، بوبكر. الهجرة الجزائرية إلى فرنسا خلال الاحتلال الفرنسي 1830-1962، قراءة في الأسباب والدوافع. مجلة العلوم الاجتماعية، عدد 27. الأغواط (الجزائر): كلية العلوم الاجتماعية جامعة عمار ثليجي بالأغواط، نوفمبر 2017.
6- سعد الله، أبو القاسم. هجرة بعض الأعيان. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30-31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007.
7- لبندة، علال. قالمي، فايزة. الهجرة الجزائرية نحو فرنسا، أسبابها ونتائجها. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30-31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007.
8- يعبش، محمد. المهاجرون الجزائريون بفرنسا بين الحركة المصالية وفيدرالية جبهة التحرير الوطني. مجلة البحوث التاريخية، المجلد الأول، العدد 2. الجزائر: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة؛ 2017.
9- تكران، جيلالي. فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، دراسة في التنظيم والهيلكة 1954-1957. الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، المجلد 10، العدد 1. الجزائر: جامعة حسيبة بن بوعلي؛ 2018.
10- بغداد، خلوفي. الودادية العامة للعمال الجزائريين. مجلة الساوة للدراسات الإجتماعية والإنسانية، المجلد 4 ، العدد 1. الجزائر: جامعة بشار ؛ 2018.
11- عبد اللاوي، حسين. هجرة الطلبة الجزائريين إلى فرنسا 1900-1960. الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962 المنعقد بفندق الأوراسي، يومي 30-31 أكتوبر 2006. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين، 2007
12- عبيد، مصطفى. النشاط الثوري للطلبة الجزائريين بسوريا 1955- 1962. مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 10، عدد 2. الجزائر: جامعة معسكر؛ 2019.
13- عقيب، محمد السعيد. الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والمنظمات العالمية للطلبة. مجلة البحوث والدراسات، المجلد 4، العدد 1. الجزائر: جامعة الوادي؛ 2007.
14- بغداد، خلوفي. الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بين 1955-1962. مجلة عصور، المجلد 5، العدد 1. الجزائر: مخبر البحث التاريخي بجامعة وهران؛ 2006.
15- بلفردي، جمال. فاتح، وزياني. نشاط الطلبة الجزائريين في الجامعات الفرنسية خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962. المجلة التاريخية الجزائرية. المجلد 4، العدد 2. الجزائر: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، 2018
16- بزيان، سعدي. جرائم موريس بابون ضد المهاجرين الجزائريين في 17 أكتوبر 1961. الطبعة الثانية.الجزائر: منشورات ثالة؛ 2009.
17- صاري، أحمد. دور المهاجرين الجزائريين في الثورة التحريرية. مجلة مصادر تاريخ الجزائر المعاصر، المجلد 1، العدد1. الجزائر: منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954؛ 1999.
18- سامية، بن فاطمة. مظاهرات المهاجرين الجزائريين بفرنسا، 17 اكتوبر 1961، وانعكاساتها على مسار الثورة التحريرية. مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد الأول، العدد 4. الجزائر ؛ 2016.

19- Amiri(L.). La bataille de France, la guerre d’Algérie en France, préface Benjamin Stora. Alger : Chihab Editions ; 2005.
20- Einaudi (J-L.). La bataille de paris, 17 octobre 1961. Paris: Editions Média- Plus ; 1991.

إيجابيات وسلبيات الهجرة وفرص المكان وأزماته
الهجرة في منطقة حوض البحر المتوسط – لبنان نموذجاً –

د. بلال علي الحاج سليمان.
قسم الجغرافيا/الجامعة اللبنانية

– مقدمة:

يعود سبب الهجرة إلى قيام اقتصاد رأسمالي عالمي شديد التكامل لدى أقطابه (كالإتحاد الأوروبي)، مما إستقطب اليد العاملة المتنوعة وجعل الناس يرتحلون باستمرار من أجل العمل، أو لتأهيل القوى العاملة من خلال الدراسة، ولاسيما الدراسات العليا المتقدمة والمتخصصة وكذلك اللجوء السياسي عبر الحدود بسبب سيادة الديمقراطية والعدالة الإنسانية وخاصة لدى الدول الأوروبية الصناعية.

منذ بداية تاريخ البشرية والهجرة تمثل محوراً جوهرياً في عملية التحول الاجتماعي ، فالهجرة ليست بالظاهرة الحديثة ، بل هي جزء لا يتجزأ من الكينونة البشرية ، وهي تصَّنف وفقاً للظروف التي تحكمه[1]، والمهاجرون هم الأشخاص الذين حصلوا على وضع قانوني يتميز – على الأقل – بشكل من أشكال تصريح الإقامة الذي ينظم شروط عملهم. ويسعى هؤلاء العمال للحصول على جنسية البلاد التي يعملون بها من أجل ثباتهم وإستقرارهم. ولا يُعَدْ كل العمال الذين ليس معهم الأوراق اللازمة، على وجه الدقة بأنهم مهاجرين غير شرعيين، فلدى الكثير من الدول القوية، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وغيرها من الدول، أنظمة قانونية جعلت من الممكن العمل في هذه الدول دون موافقة واضحة منها، وكأن الحاجة لليد العاملة تبيح المحظورات. من هنا يمكن إعتبار الشك في مدى مصداقية إحصاءات الهجرة، فهي مع الأسف تبقى منخفضة نظراً لعدم معرفة أعداد هجرة العمالة غير مستوفية المستندات اللازمة.

وللهجرة عدة دوافع وأسباب متنوعة الأشكال، لها من الإيجابيات والسلبيات التى تؤثر على المهاجر بشخصه، ومجتمعه.

أولاً: الهجرة، وإتجاهاتها في الحوض المتوسطي:

1– بيانات عن الهجرة العالمية:

تُعَدُّ البلدان ذات الدخل المرتفع من أوروبية وأميركية وبلدان عربية نفطية، مقصداً للمهاجرين. "رغم أن معظم البلدان المهاجر اليها تقع في الجزء الشمالي من العالم، فإن الهجرة فيما بين بلدان الجنوب سائدة مثلها مثل الهجرة بين الجنوب والشمال. وتقدَّر نسبتهم بحوالي 36 % البالغ عددهم (82,3 مليون نسمة بين

دول الجنوب) من أعداد المهاجرين في عام 2013، في حين بلغت نسبة المهاجرين بين الجنوب والشمال 35 في المئة من مجموع المهاجرين البالغ عددهم (81,9 مليون نسمة) وبلغت نسبة المهاجرين بين بلدان الشمال 23% من إجمالي المهاجرين في العالم"[2].

– وتعتبر الأزمات الإقتصادية العالمية المؤثر الأساس على نسبة المهاجرين في العالم. فخلال حالة الإستقرار الإقتصادي، عادةً ما تزداد فيها نسبتهم كما عام 2010، الذي تميَّز بمعدل هجرة يفوق سرعة نمو تعداد السكان في العالم حيث بلغ تعداد المهاجرين الدوليين 272 مليوناً، أي بزيادة نسبتها 5،3% من سكان العالم[3]، علماً أن نسبة النمو السكاني بين عامي 1990 و 2010 بلغت 30% [4].

" في عام 2017، بلغ عدد المهاجرين الدوليين في جميع أنحاء العالم – أي الأشخاص المقيمون في بلد غير بلدهم الأم – 258 مليون شخص[5]. والجدول التالي يظهر بيانات الهجرة الدولية بحسب السنوات:

– **الهجرة الدولية.**

السنة	عدد المهاجرين \ شخص[1]	نسبة نمو الهجرة %. [2]
1980	–	% 2.3
2000	173 مليون	% 2.8
2005	175 مليون	% 2.9
2010	272 مليون	% 3.5
2013	247 مليون	–
2015	244 مليون	–
2017	258 مليون	النمو 3.4%. – توزعهم بحسب القارات: يقيم 31% في أسيا، و٪30 في أوروبا، و٪26 في الأمريكتين و٪10 في أفريقيا، و3% في البلدان الجذرية.

المصدر:(2) المنظمة الدولية للهجرة، بوابة بيانات الهجرة العالمية. قراءة في خارطة اللاجئين والمهاجرين العرب عالمياً، مجلة العربي، الخميس 28 مايو 2020، العدد 21.
(1) الأمم المتحدة، قضايا عالمية "الهجرة"، الصفحة الرئيسية.
https://www.un.org/ar/sections/issues-depth/migration/index.html

– **وعلى مستوى الرغبة:**

ففي عام 2015 إرتفعت نسبة الذين يرغبون في الهجرة الدائمة من بلدانهم إلى 23 في المئة، لترتفع مجددًا في عام 2016 إلى 25 في المئة؛ وهو تغيّر محدود وغير جوهري من الناحية الإحصائية، لكنه يشير من ناحية دلالته الاجتماعية إلى أن وتيرة الرغبة في الهجرة لا تزال مستمرة، ومرشحة للزيادة[6].

2- مراحل الهجرة في الحوض المتوسطي:

تميزت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي بتسجيل تدفق واسع لأنواع الهجرة من الجنوب نحو الشمال في حوض المتوسط، ووجهتهم قارة أوروبا. " ويمكن تقسيمها إلى ثلاث محطات زمنية محكومةٌ بأسبابها:

أ- **المرحلة الأولى ما قبل عام 1985**، وتمثَّلت الظروف الحاكمة حينها بحاجة الدول الأوروبية إلى المزيد من العمالة.

ب- **المرحلة الثانية بين عامي (1985-1995)**، أدت الى مزاحمة المهاجرين لأبناء البلد الأصليين، والذي أعطاهم قوةً وثباتاً، حصول الإتفاقيات الدولية المنعقدة عام 1990 المخصصة لحماية حقوق العمال المهاجرين. وكذلك "إتفاقية شنكن" الموقعة في 19 يونيو 1995، سمحت بحرية تنقل الأشخاص المنتمين إلى الفضاء الأوروبي.

ج- **المرحلة الثالثة بعد 1995**، إتخذت هذه المرحلة طابعاً أمنياً صارماً إتبعته الدول الأوروبية لضبط الحدود ومنع الهجرة غير الشرعية"[7].

3- تعريف الهجرة:

الهجرة هي حركة سكانية داخلية أو خارجية أدت الى ترك الفرد مكانه الأصلي وإستقر في مكانٍ أخر وجد فيه حاجاته ومتطلباته التي لم يتمكن من تأمينها في مكان سكنه الأساس. توجدُ ظروفٌ عديدةٌ تُؤدّي إلى الهجرة، مثل انتشار الحروب، أو سوء الأوضاع الاقتصاديّة والتي تُعتبرُ من المُحفّزات للهجرةِ. "وقد حدَّدت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 18 كانون الأول يوماً دولياً للمهاجرين، وتم إعتماد الإتفاقية الدولية لحماية حقوق جميع العمَّال المهاجرين وأفراد أسرهم"[8].

4- مفهوم الهجرة:

الهجرة هي انتقال الناس بشكل فردي أو جماعي من بلدهم الأصلي إلى أي مكان آخر، وذلك للاستقرار بصورة دائمة أو مؤقته، أو بحثًا عن حال أفضل في العيش، أو السكن، أو الأمن. ونتيجةً لظهور إقتصاد رأسمالي عالمي، وقيام الحدود بين الدول على أسس قومية، ما جعل الناس يهاجرون عبر هذه الحدود بهدف العمل أو الدراسة أو اللّجوء السياسي أو الإنساني، وعلى الرغم من كون نظام الحدود أصبح قديمًا، إلّا أنّ قوانين الإقامة والجنسية والمواطنة في مختلف الدول، تتسبب بنتائج وآثار سياسية للهجرة، على الفرد والمجتمع[9].

5- من هو المهاجر؟

رغم أنه لا يوجد تعريف متفق عليه قانونًا، تُعرِّف الأمم المتحدة المهاجر على أنه:" شخص أقام في دولة أجنبية لأكثر من سنة بغض النظر عن الأسباب سواء كانت طوعية أو مفروضة، وبغض النظر عن الوسيلة المستخدمة للهجرة سواء كانت نظامية أو غير نظامية".

وقد خصَّصت الإتفاقية المنعقدة عام 1951، المهاجر الذي فُرِضَت عليه الهجرة بأنه لاجئ، لأنه موجود خارج دولة جنسيته بسبب تخوف مبرر من التعرض للاضطهاد، وأصبح بسبب ذلك التخوف يفتقر إلى القدرة على أن يستظل بحماية دولته أو لم تعد لديه الرغبة في ذلك[10].

6- لماذا تكون هجرة اللبناني غالباً الخيار الوحيد؟

لأنهم يريدون بداية جديدة، أو وظيفة جديدة، للدراسة أو لجمع شمل الأسرة. ولكن يضطر اللبنانيون إلى الهجرة أحيانًا بسبب أحداث تهدد حياتهم. وغالبًا ما تكون الهجرة هي الخيار الوحيد لتحسين حياتهم ومواجهة الفقر والجوع، وانعدام الوظائف، وغياب الدعم من جانب الحكومة، وقلة الموارد الطبيعية. إن مستوى المعيشة اللائق، والتغذية الكافية، وتوفر الرعاية الصحية، والتعليم، والعمل الكريم، وغيرها... ليست مجرد غايات إنمائية بل هي أيضاً من حقوق الإنسان[11].

7- أهمية الهجرة:

تساهم الهجرة في بناء المجتمعات وتطوير الأمم، وفي الحفاظ على عدد السكان العاملين، والمساهمة في دفع الضرائب، وكذلك الحماية من الكوارث البيئية وآثار الحروب، إضافةً الى العيش في بيئة اجتماعية أكثر تطوراً، وأماناً.

ثانياً: خصائص ومميّزات الهجرة العالمية:

1- أنواع الهجرة: - تختلف أنواع الهجرة باختلاف معيار التصنيف:

أ- تصنيف الهجرة بناءً على الإرادة: إختيارية أو إجبارية.

ب- تصنيف الهجرة بناءً على المدة الزمنية: مؤقتة - دائمة - موسمية.

ج- تصنيف الهجرة بناءً على النطاق الجغرافي: داخلية أو خارجية.

د- تصنيف الهجرة بناءً على الأسباب: هجرة مهنية (إقتصادية) - سياسية - دينية إجتماعية - للتعلم.

2- انواع الهجرات الحديثة غير التقليدية، والسياسات المتبعة تجاهها:

أ- هجرة الرساميل:

إن هجرة رأس المال الإستثماري الذي صاغ نفسه في سياق النظام العالمي الجديد "العولمة وإنفتاح السوق"، فتح باب الهجرة لدى الشباب كادحين وراء هذا المال الذي يستثمر في القطاعات الإقتصادية الثلاثة فهاجر الشباب للعمل فيه. ويشكل تصدير رأس المال ونشاط الشركات العابرة للقومية عاملاً بالغ الأهمية من عوامل تحفيز حركة إنتقال اليد العاملة عبر الحدود.

ب- سياسة الإنتقاء الطلابي:

فعبر المؤسسات التي تعنى بدعم الطلاب المتفوقين تكون عملية التأسيس لهجرة الأدمغة، حيث يتم توفير ما يلزم للطالب المجتهد بغية السفر الى احدى الدول المتطورة، لإستكمال تعليمه على نفقة الدولة المستضيفة ويكون ذلك من خلال سياسة إنتقاء وفقاً لدرجة تفوقه والمواقع التي يمكن أن يبرع فيها.

ج-هجرة التقاعد:

إن هجرة المتقاعدين من الدول الغنية إلى الدول الأقل تكلفة والتي تمتاز بمناخ أفضل تُعد نوعاً جديداً من أنواع الهجرة الدولية، وتتضمن الأمثلة على ذلك هجرة مواطنين إنجليز متقاعدين إلى أسبانيا أو إيطاليا، وكذلك هجرة مواطنين كنديين إلى الولايات المتحدة، وخاصةً إلى ولاية فلوريدا وولاية تكساس.

3- أدوات الهجرة التنفيذية:

ساهمت العولمة، والأنفتاح الدولي، وتطور وسائل النقل، بكافة أنواعه، وسهولة التواصل، والترابط، بين بقاع الأرض، والتطور التكنولوجي، في تكثيف حركة الهجرة في الآونة الأخيرة. وسهَّلت إنتقال الأفراد وإنسياب رؤوس الأموال عبر حدود الدول من أجل الإستثمارات. فهجرة الرساميل بدورها أدت الى جذب إنتقال اليد العاملة وبخاصة المتخصِّصة للعمل في المصانع التي وفّرتها. كما ساهمت الاتفاقات الإقليمية في تيسير حرية تنقل السلع والأشخاص، بما في ذلك حركية اليد العاملة. ويدخل في سياق أدوات الهجرة أيضاً، شبكات الهجرة السرية التي تؤمن أوراق مزورة. ولبنان دخل هذا المعترك حيث تم الكشف عن عمليات تهريب لبنانيين وسوريين عبر البحر الى قبرص، وعبر المطار نحو إسبانيا[12].

وكذلك فإن بعض المؤسسات التربوية في المرحلتين الثانوية والجامعية هي من هذه الأدوات، التي تُقدِّم المغريات للطلاب المتفوقين الذين يتأمن عملهم وسكنهم في الخارج. إضافةً الى أن تردي الأوضاع الإقتصادية والسياسية والإضطهاد والحروب بمجملها تخلق حافز نفور نفسي للهروب من واقع مرير.

4- إتجاهات الهجرة الدولية ونِسَب توزعهم:

أ- إن الإتجاهات التي سلكتها الهجرة العمالية الدولية الشرعية، يمكن تحديدها بخمسة اتجاهات رئيسية:

1- الهجرة من البلدان النامية إلى البلدان المتطورة.

2- الهجرة بين البلدان المتطورة.

3- الهجرة بين البلدان النامية (نحو البلدان النفطية).

4- الهجرة من البلدان الإشتراكية السابقة (وهي شبيهة بالهجرة من البلدان النامية إلى البلدان المتطورة).

ب- **وفيما يخص الهجرة غير الشرعية التي تفرضها الظروف السائدة، فإن مواقعها العالمية تتوزع في المناطق التالية من العالم:**

1- الحدود المكسيكية الأميركية. (البحث عن فرص عمل).

2- من لبنان الى قبرص. (الأزمة الإقتصادية اللبنانية)

3- من سوريا الى لبنان وتركيا وأوروبا. (الحرب)

4- الحدود الإسبانية المغربية: الموقع الجغرافي القريب من أوروبا، وإنتقال للهجرة غير الشرعية، عبر معبر سبتة الى إسبانيا (يسمى التهريب المعيشي أو المأزق المميت).

5- مخيم الشوشة جنوب تونس الذي يقطنه ليبيون (الحرب).

وتعد إيطاليا نقطة الدخول الرئيسية إلى الاتحاد الأوروبي بالنسبة إلى أولئك الذين يصلون عن طريق القوارب من ليبيا، ووقعت كل من إيطاليا وليبيا ثلاث اتفاقيات ثنائية لحل معضلة الهجرة غير الشرعية خلال الأعوام: 2000 و 2003 و 2005. وبسبب تشدد إيطاليا فقد تبدلت حركة هذه الهجرة نحو مالطا، للدخول الى الإتحاد الأوروبي[13].

- حركة الهجرة من سبتة المغربية نحو إسبانيا



ليبيا بوابة الدخول بحراً نحو إيطاليا.



عبر مضيق جبل طارق.. هكذا انتعشت الهجرة السرية بين المغرب وإسبانيا ... المصدر: الموقع الإلكتروني dw.com

5- سياسات متبعة تجاه الهجرة:

أ- دول مشجعة على الهجرة: هي الدول التي تعايش ظروف الإكتظاظ السكاني، وتأثير الزيادة السكانية على الموارد أصبح معضلة.

ب- دول مستقبلة للمهاجرين: هي الدول التي تعاني من نمو سكاني سلبي، حيث تقل فيها نسبة اليد العاملة مقارنةً مع فرص العمل التي تتزايد مترافقةً مع النمو الإقتصادي المستمر.

ثالثاً:- الأسباب والدوافع المؤدية للهجرة:

في ظل الظروف الحياتية في بعض البلدان ولبنان من ضمنها، يلجأ الكثير من الأشخاص إلى الهجرة خارج البلاد، وفيما يلي أبرز أسباب ودوافع الهجرة، وكذلك الهجرة غير الشرعية، التي يتورط فيها البعض ويعانون آثارها المدمرة لاحقا.

1- أسباب ودوافع الهجرة عامةً في الحوض المتوسطي:

- تتباين الأسباب الكامنة وراء الهجرة، نذكرها فيما يأتي[41]:

أ- **أسباب ودوافع اقتصاديّة:** تُعتبَر من أهمّ الأسباب التي تدفع الناس إلى الهجرة، والهدف تحسين مستوى معيشتهم، في عملٍ أفضل من العمل السّابق وبخاصة من لديهم تخصصات.

ب- **أسباب ودوافع اجتماعيّة:** يُهاجر الناس إلى المناطق التي يُوجَد فيها مهاجرون سابقون تَربطُهم بهم علاقات وروابط اجتماعيّة، كصِلة القرابة، واللغة، والدين، والتطلع لتحقيق الأحلام، والتمرد والخروج عن المألوف من التقاليد التي يجدونها تقييداً لحريتهم الشخصية والفكرية[51]".

ج- **أسباب ودوافع جغرافيّة وبيئية:** رغبة الانتقال إلى أماكن ذات مساحات أوسع، حيث تتوفَّر فيها فُرَص عمل أكثر وتنوُّع جغرافيّ، ومناخيّ، أو الهروب من الكوارث الطبيعية (كفشل المحاصيل، وتلوث المياه، والهواء، والزلازل، والسيول، والفيضانات، والبراكين).

د- **أسباب ودوافع دينيّة:** يهاجر العديد من الناس إلى أماكن أخرى لأسباب دينيّة، نظراً لتعرُّضهم للاضطهاد، بسبب كونهم أقلّيات دينيّة.

هـ- **أسباب ودوافع سياسيّة:** تظهر في الهجرات الدوليّة، رغبة منهم في الحصول على حرّياتهم (حرّية التعبير، والمُعتقَد)، الهروب من حالات الحرب في الدّول التي تعانيّ منها بشكلٍ دائم، وهذا ما يشهده العراق وسوريا ولبنان وليبيا وغيرهم من الدول غير المستقرة وتكون أغلب إتجاه حركة الهجرة لديهم الى أوروبا.

و- **أسباب ودوافع حكوميّة:** تحدِّد الحكومات إتجاهات المهاجرين نحو أماكن مُعيَّنة في البلاد بعد تأمين كافة الخدمات الجاذبة من أجل تطويرها، وتحديثها. كما أن عدم تقدير **الحكومات** للعقول النابغة، والأشخاص الذين يحملون شهادات عُليا، وعدم توفير عمل ملائمٍ لهم، مما يؤدي إلى هجرتهم، وخسران بلادهم لهم[16].

ز- **أسباب ودوافع سكانية:** إن تقلص عدد سكان العديد من البلدان الصناعية، وإنخفاض معدلات الخصوبة لديها، وارتفاع نسبة الشيخوخة فيها، يدفع بحكوماتها الى فتح باب الهجرة إليها. كما أن الكثافة السكانية المرتفعة تُسبب البطالة وانخفاض المستوى الاقتصادي. إن التوتر بين زيادة العرض الديمغرافي لقوة الشباب في هذه المجتمعات وإخفاقات السياسات، سيبقى حافلً بالتوترات والمفاجآت، ما لم يترافق الانتقال الديمغرافي مع انتقال ديمقراطي مؤسسي، قائم على فهم التنمية

بصفتها خيارات وفرصًا، أي حرية تمتلكها الفئة الشابة، ويكون صوتها مسموعًا[71].

ص- دوافع نفسية منفِّرة من واقع أليم: كالضغط النفسيّ، والاكتئاب الذي يُسيطر على الشباب نتيجة الأوضاع السيئة. وكذلك الانجذاب للحياة الغربيّة، وأسلوب معيشتها، والحريّات الموجودة فيها، والتي تتوافق مع طموحات الشباب.

2- أسباب الهجرة اللبنانية ودوافعها:

قال رئيس مركز الدولية للمعلومات في لبنان: "أنه ما بين كانون الثاني وتشرين الثاني من عام 2019 قد غادر لبنان 61 ألفًا و924 لبنانيًا، مقارنة بـ41 ألفًا و766 لبنانيًا خلال المدّة عينها من العام 2018، أيّ بزيادة 42 بالمئة"، وأوضح أن "غالبيتهم من الشباب ومن خريجي الجامعات، فالشباب اللبناني يبحث عن فرص عمل واستقرار في الخارج، نظرًا لصعوبة الأوضاع الاقتصاديّة بلبنان"[81].

إن جميع الدراسات التي تناولت موضوع هجرة العقول من لبنان تجمع على أن هذه الهجرة هي نتيجة لتشابك جملة من الأسباب والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والشخصية. ويصنِّف الباحثون هذه الأسباب في نوعين هما[91]:

أ- الأسباب الأساسية الدافعة إلى الهجرة اللبنانية:

- ضعف أو إنعدام القدرة على استيعاب أصحاب الكفاءات الذين يجدون أنفسهم إما عاطلين عن العمل أو لا يجدون عملاً يناسب اختصاصاتهم في لبنان.
- ضعف المردود المادي لأصحاب الكفاءات.
- عدم الاستقرار السياسي، الأمني والاجتماعي.

ب- الأسباب الجاذبة لهجرة العقول اللبنانية:

- الريادة العلمية والتكنولوجية للبلدان الجاذبة.
- مناخ الاستقرار السائد في البلدان المتطورة.
- التقدم الذي تتمتع به اجمالا هذه البلدان.
- إتاحة الفرص لأصحاب الخبرات في مجال البحث العلمي والتجارب التي تثبت كفاءاتهم وتطورها من جهة، وتفتح أمامهم آفاقا جديدة أوسع وأكثر عطاءً، من جهة أخرى.

إن البحث في مسألة هجرة العقول اللبنانية يطرح التساؤل التالي، لماذا يفشل لبنان في بذل الجهود اللازمة لجذب علمائه وفنييه من ذوي المهارات العالية والدقيقة في حين نجحت دول أخرى في ذلك؟

إن جانبا من الإجابة على هذا السؤال يكمن في الأسباب الدافعة للهجرة والتي سبق أن أشرنا إليها. ولكن ثمة جوانب أخرى يمكن توضيحها وهي أن لبنان يفتقد ما يمكن أن يطلق عليه مشروع التنمية المتوازنة والشاملة، والذي من أهم عوامله خلق وتعزيز البيئة الفكرية والعلمية والثقافية التي توفر مقومات العمل والاستقرار المعيشي والنفسي والإنتاج العلمي.

3- أسباب ودوافع الهجرة غير الشرعية.

وهي تتشابه مع الهجرة عامةً، إلا أنها تمتاز بدقة الموقف. حيث تظهر من خلال رؤية الفرد لإنتعاش حياة الأسر المهاجرة، والسرعة في جني الأموال بطرقٍ غير شرعية، وظهور الثراء السريع في حياتهم الإجتماعية، وتكون بهدف الإستقرار طمعاً في الحصول على جنسية البلاد الأخرى وبالتالي الاستمتاع بالخدمات التعليمية والصحية والإجتماعية المتوفرة هناك. لكنها تتكلل بالسلبيات عادةً أكثر من الإيجابيات، حيث لا يكاد يمر يوم إلا ويموت عشرات من الراغبين في الإنتقال من دول الجنوب الى دول الشمال، إما برصاص حرس الحدود وإما غرقاً في زوارق إنتهى عمرها الإفتراضي منذ زمن. لقد إستقبلت السلطات الإسبانية عشرات من الجثث الطافية على سطح المحيط بعد أن إنشطر الذورق ولم ينج من ركابه أحداً[02].

– تعرض الكثيرين إلى الإصابة أو الوفاة وخاصة الغرق، **و**فقدان الكثير من الأموال التي تهدر عند دفعها في محاولة الهجرة غير الشرعية. كما يتعرض الكثير من الأفراد إلى عمليات النصب عند الهجرة غير الشرعية، وقد يتعرض المهاجرون إلى الاعتقال والحبس والترحيل[21].

– هناك الكثير من الذين تمكنوا من الدخول الى دول بشكلٍ غير شرعي ومزَّقوا أوراقهم الثبوتية مطالبين باللجوء السياسي، أو إستقروا في بلاد المهجر متخفين ويعملون سراً وجنوا الكثير من الأرباح المالية، لكن حياتهم دائما في دائرة الخطر[22].

رابعاً:- الإيجابيات والسلبيات الناجمة عن الهجرة وأثارها المترتبة.

1- إيجابيات الهجرة على لبنان وبلدان حوض المتوسط:

تُساهم الهجرة في رفع الناتج المحلي الإجمالي العالمي، حيث لاحظ مختصّون أنّ تسهيل إجراءات الهجرة وإزالة الحواجز أمام المهاجرين يرفع الناتج المحلي الإجمالي العالمي بنسبة 67% إلى 147% [23]. يمكن للهجرة أن تساهم في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، فلو أن الحكومات تتعلم إدارة الهجرة على نحو أفضل، ووقف الصراعات ومنعها، يمكن لها أن تؤدي إلى نمو اقتصادي وتقربنا من تحقيق أهداف التنمية المستدامة. إن الهجرة الآمنة والمنظمة والنظامية يمكن أن تسهم في التنمية إذا كان المهاجرون قادرين على إيجاد وظيفة، أو تعلم اللغة المحلية، أو تلقي التدريب للحصول على مهارات جديدة. كما يمكن للمهاجرين

أيضًا أن يسهموا في نمو بلدهم الأصلي عن طريق إرسال الأموال إلى أسرهم، مما يمكن من تحسين الأمن الغذائي وحياة السكان الريفيين. وإذا تمكن المهاجرون من العودة إلى وطنهم عندما ينتهي الصراع، يمكنهم أن يجلبوا معهم إلى مجتمعهم مهارات جديدة تعلموها عندما كانوا في الخارج، وبالإضافة إلى ذلك، فإن معالجة جذور أسباب الهجرة تساعدنا على بلوغ هدفنا الأساسي وهو القضاء على الجوع. إن تحقيق أهداف التنمية المستدامة تكون بإشراك جميع الناس، بمن فيهم المهاجرون[24].

" أُجرت وزارة التوظيف والتعليم في أكسفورد دراسة حول الهجرة، والمهاجرين، حيث أشارت إلى أنّ المهاجرين يساهمون في تغذية الطَّفْرة الاقتصاديّة، كما تساهم العمالة المهاجرة في إبقاء بعض الشركات في السوق، إضافةً إلى فوائد عديدة في المجال السياحيّ من خلال تحديث طُرُق جوّية جديدة. وللهجرة تأثير جيّد في العمالة المحلّية، وكفاءتهم، وهي تساهم في إظهار نَهْج، وفِكْر جديد للشركات، وتُسهِّل النموّ الاقتصاديّ في البلد المُضيف"[52]. إضافة الى تبادل الثقافات بين الدول والتعرف على العادات والتقاليد الجديدة والتعرف على أصداقاء مختلفين، وتساعد الهجرة في الحصول على جنسية بلاد أخرى، التي تقدم حوافز للشخص المهاجر، وخدمات صحية وتعليمية واجتماعية أفضل[26]، كما تساهم الهجرة في ملء الوظائف الشاغرة في البلد المُضيف وتزداد فرصتهم في تحسين مستوى معيشتهم، مع الحفاظ على النموّ الاقتصاديّ فيه. ويُصبحون قادرين على الادِّخار، كما أنّهم يحصلون على مهارات مختلفة بسبب هجرتهم. كما تساهم الهجرة في رفد السوق المحلي بقوى عاملة من الشباب، وتزيد من حجم الحوالات المالية بشكل مطرد إذ أصبحت تشكل ثاني أكبر مصدر مالي خارجي للبلدان النامية، " تأتي ألمانيا في المرتبة الثالثة حيث يحوّل منها ما نسبته 8,1٪ من مجموع الحوالات المالية المرسلة من دول المهجر بعد الولايات المتحدة الأمريكية (28,4%) والمملكة العربية السعودية (15,1%) [72].

2- سلبيات الهجرة:

الشعور بالغربة والبعد عن الموطن الأصلي، والتأثير على أسر الأشخاص المهاجرين وتشتتها، والإصابة بالاضطرابات النفسية والاضطرابات الاجتماعية. كما تفقد الدول الكثير من العمالة التي تحتاجها نتيجة الهجرة. فقدان الهوية إذا ما كانت الدولة التي هاجر إليها الشخص مختلفة عن العادات والتقاليد التي تربى عليها. التخلي عن اللغة الأم والتمسك باللغات الأخرى. وإفتقار بعض الدول لأبنائها العلماء والعمال[28].

زيادة عدد السكّان، تؤدي الى احتماليّة ازدياد نسبة البطالة إذا كانت هنالك أعداد كبيرة من المهاجرين. كما أن سهولة الهجرة والتنقُّل من مكان إلى آخر، قد يتسبَّب في انتشار الجريمة، والتجارة بالبَشَر. ويعاني المهاجرون من تجاهُل أصحاب العمل للابتكار، والإنتاجيّة، والتدريب، في حال وجود عمالة منخفضة الأجر. وتظهر المشاكل الإجتماعيّة التي تتمثَّل بنشوء الأطفال بعيداً عن آبائهم؛ نظراً لهجرة الآباء إلى

خارج البلاد. " يتعرض المهاجر لضغوطات نفسية واقتصادية وحتى جسدية، نتيجة وجوده في بيئة تزداد يوماً بعد يوم شراسة تجاهه. فعندما يتم الحديث عن ارتفاع نسبة البطالة، فإن أصابع الاتهام تشير أولاً إلى مسؤولية المهاجر، وحينما تتأزم وضعية البلاد اقتصادياً، فإن تحويلات المهاجرين إلى بلادهم هي السبب. ولكي يتصدر أحدهم المشهد الإعلامي، يهاجم المهاجرين، ثم يتحدث بإسهاب عن انعدام الأمن وارتفاع نسبة الإجرام وارتباطه بهم[92]".

خامساً:- الفرص القابلة للإستثمار والإستغلال:

تتعدَّد أوجه العوامل الجاذبة في بلاد المهجر، وعادة ما تمثل الطموح الكبير والمؤثر لدى الشباب ذكوراً وإناثاً. ويختلف تفسير مصطلح الفرص بين عوامل الجذب وعوامل الطرد، لأنها جميعها في مقام الفرص المتاحة بحثاً عن أمل مرجو. فمثلاً، مقولة "أنا أهاجر إذاً أنا لبناني" وأن مصطلح مغترب مفخرة لا تستدعي الندم. يعود ذلك الى إرتفاع معدل البطالة، والمشاكل الأمنية والسياسية، وغياب الإرشاد المهني، وعدم دراسة سوق العمل التي من شأنها أن تؤمن فرص عمل[03]". إن ما يحتاج إليه لبنان هو صدمة ايجابية تنزع المناعة عن النظام الاجتماعي السياسي الثقافي العفن، الذي ازداد سوءاً بعد الطائف، إضافة الى منع الطبقة الحاكمة، من إشعار الشباب بأنهم ضيوف ثقيلو الظل على أرض وطنهم[31].

1- هجرة الكفاءات اللبنانية:

يمكن القول أن فرص المكان دائماً في بلاد المهجر ما سمح بهجرة الأدمغة. إن عدد اللبنانيين المولودين في لبنان والذين يتمتعون بالكفاءات، يعملون في بعض الدول الأجنبية بنحو 401388 لبنانياً[23].

ولأن فرص المكان تتعزز في البلدان الأكثر تطوراً، فإن دراسة أسباب الهجرة بيَّنت " أن 39.3 % من المقيمين المستطلعين قالوا أنهم سيهاجرون لضمان مستقبلهم، فيما 25.3 % عزوا السبب الى الوضع الأمني السيىء في لبنان[33]". " نصف السكان يعيشون تحت خط الفقر، وهناك شباب قلق وبطالة واسعة، كما أن التضخّم مروّع ومذهل[34]، وذلك يعود الى عدم توفر حكومة تسعى الى النهوض الإقتصادي وتوفر فرص عملٍ وخدمات تساهم في تثبيت المواطن في أرضه وتعزز ثقته ببلده.

كما تعترف خطة التنمية المستدامة لعام 2030 لأول مرة بمساهمة الهجرة في التنمية المستدامة. كما أن أهداف التنمية المستدامة تحتوي على مؤشرات ذات الصلة بالهجرة، ويتمحور المبدأ الأساسي لجدول أعمال التنمية على ضرورة "عدم التخلي عن أحد" بما في ذلك المهاجرين،عن طريق تسهيل الهجرة والتنقل المنظم والآمن والمنتظم والمسؤول للأشخاص من خلال تنفيذ سياسات الهجرة المخطط لها والمدارة بشكل مسؤول. فيما تشير الأهداف الأخرى مباشرة إلى الهجرة من خلال الاتجار والتحويلات المالية وحركة الطلاب الدوليين والعديد من أبعاد الهجرة[35].

2- تعزيز حوكمة الهجرة:

يدخل في هذا السياق برنامج الحركات السكانية المبرمجة الداخلية الذي يساهم في تثبيت وإستقرار سكان الريف، أو السعي المنظم الى توزع سكاني يهدف الى حماية وتقوية أهداف الدولة العليا، كحماية الموارد، وتنظيم وترشيد إستثمارها وإستغلالها، من أجل إطالة أمد عمرها.

كذلك إرساء نمط مبتكَر بغية جعل الهجرة رافعة حقيقية للتنمية المشتركة والتعاون والتضامن، قادرة على ضمان انسجام السياسات العمومية والأجندات المتعلقة بهجرة اليد العاملة يقتضي هذا النمط من الحكامة الحرص على التنسيق واعتماد تدخل شامل متعدد الأبعاد، قائمٍ على إشراك مجموع الأطراف المعنية من أجل إيجاد حلول مستدامة لتدبير تدفقات الهجرة.

علماً أننا نجد تناقضات سياسية حول الهجرة في بلدان أوروبا العاجزة عن الإجماع على سياسة واحدة. فكل بلد يغني على ليلاه، فإيطاليا وإسبانيا، قررتا تجنيس 700 ألف عامل غير شرعي، وفرنسا وألمانيا إعترضتا على ذلك نظراً الى خشيتهما من إزدياد عدد العمال الذين لا يملكون أوراقاً قانونية[63]. إن الانتقال الديمغرافي في إطار سياسات الانتقال الديمقراطي المؤسسي على أساس رؤية تنموية متكاملة، تركز على التطوير المؤسسي الديمقراطي لإدارة شؤون الدولة والمجتمع، وتعزيز القدرات البشرية والمعرفية للشباب، وإتاحة المجال أمامهم للمشاركة السياسية والمجتمعية في توسيع خياراتهم وفي تنمية مجتمعاتهم، والتمكن من ممارسة حقوقهم الاجتماعية والسياسية المواطنية، وتعزيز شروط الأمن الإنساني للحد من تدفقات الهجرة الخارجية[37].

3- تعزيز التعاون الدولي من أجل تدبيرٍ أفضل لتدفقات الهجرة:

تُعد ظاهرة الهجرة غير الشرعية، من أهم القضايا الشائكة والراهنة التي أصبحت تشكل موضوع إهتمام بالغ للمجتمع الدولي وللدول التي تمثل مصدراً للمهاجرين وكذلك الدول التي تستقبلهم. فالهجرة غير الشرعية (السرية) باتت ظاهرة عالمية تصنَّف في المرتبة الثالثة تبعاً لخطورتها الإجرامية بعد المتاجرة بالمخدرات والأسلحة والتطور التكنولوجي ساهم بتفاقمها[83].

4- طُرق التصدي للهجرة غير الشرعية:

قامت بعض الدول بوضع عدد من الطرق التي تساعد على التصدي للهجرة غير الشرعية، ومن أبرز تلك الطرق ما يأتي:[93]

أ- **وضع آليات خاصة بالعلاج الوطني:** وهي الآلية التي تتمثل في سن التشريعات والقوانين التي تمنع مغادرة الإنسان لبلاده بشكل غير شرعي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الدخول للبلاد. إن الخطط

الوطنية هي خطط تعتمدها حكومات البلدان لتوفير رؤية تنموية للبلد على المدى القريب والمتوسط والبعيد وتشمل مختلف القطاعات من تعليم وصحة وعمل وشؤون إجتماعية[04].

ب- آليات العلاج الدولية: إذ تعتبر الهجرة إحدى الظواهر العالمية التي لا يُمكن القضاء عليها بسهولة، ولهذا يجب أن تتكاتف الجهود الدولية من أجل أن تتمكن من التحكم في الأمور المُتعلقة بتلك الظاهرة، وذلك من خلال القيام بالمعاهدات والمواثيق الإقليمية والدولية.

سادساً:- أزمة المكان:

1- نتائج الهجرة وإنعكاساتها الإقتصادية الإجتماعية والثقافية:

أ- الحركات السكانية المجالية عُرضَة لهجرة قطاعية.

يضطر المهاجرون الى تغيير وجهة عملهم في المكان الجغرافي المقصود، وذلك تماشياً مع الشروط المسهِّلة للهجرة، حيث لا يتوافق عملهم السابق مع المكان المهاجر اليه، الذي في كثيرٍ من الأحيان يعتمد النشاطين الإنتاجيين الصناعي والخدماتي. والحركة السكانية الداخلية اللبنانية من الريف الى المدن الساحلية خير دليلٍ على ذلك، وخلال الهجرة اللبنانيّة الاولى التي بدأت بإتجاه القارة الأميركيّة، إعتمد المهاجرون اللبنانيّون مهنة التجارة وهي عكس مهنتهم الأساسيّة في لبنان والتي كانت ترتكز أساساً على الزراعة، فأصبحوا تجاراً جوَّالين عُرفوا في البرازيل بالـ Mascate وفي الولايات المتحدة الأميركيّة بال Peddlerأو ما أطلق عليهم اسم "تجَّار الكشّة" (والكشّة هي كلمة برتغالية وتعني الصندوق). لقد اعتمدوا الكشة لأنها عمل لا يتطلب الخبرة والعلم ولا رأسمالاً ولا مهارات لغوية متقدمة، ولأنها ذات مردود سريع[41].

ب- الإنعكاسات المترتبة عن الهجرة وأثارها على الفرد والمجتمع:

للهجرة إنعكاسات بعضها يعتبر أثراً سلبياً وبعضها إيجابياً، بعضها يتعلق بالوطن الأم للمهاجرين، وبعضها يخص البلد المستضيف، فضلا عن نتائج وآثار تخص المهاجر نفسه.

لا شك أن وطناً كلبنان يفقد أبناءه ويدفعهم للخروج منه، إما لضعف الإمكانيات أو لعدم توفر الأمن والاستقرار او لتخلفه وعدم مواكبته للتطور الحاصل في العالم، سيتأثر بشكل كبير بهذه الهجرة، ومنها:

- نقص الكوادر البشرية، وتغيرات في التركيبة السكانية، وتراجع معدلات الإنتاج والتنمية.
- أو تنعكس إنتعاشاً إقتصادياً لدى الدول المصدرة للمهاجرين الناتج عن التحويلات المالية المرسلة لذويهم داخل أوطانهم الأصلية. وكذلك انتشار ثقافة الدولة حيث أن المهاجر يحمل معه ثقافته ولغته ودينه ومعتقداته إلى الوطن.
- تتسبب الهجرة سواء الداخلية أو الخارجية بآثار، وذلك على كلّ من المناطق الطاردة والمستقبلة للمهاجرين.

أ- الآثار الديموغرافية: تكمن في تَغيُّر مظاهر النمو الديمغرافي وأعداد السكان وخصائص تركيبتهم المعهودة.

ب- الآثار الاقتصادية: تؤثر الهجرة في الأنشطة المرتبطة بالاقتصاد مثل أعداد القوى العاملة والكوادر المؤهلة، والتأثير على سوق العمل والبطالة، وزيادة نسب الاستهلاك والادخار. إن بطالة الشباب تؤدي الى خسائر إقتصادية كبيرة في المنطقة حيث تجاوزت 40 الى 50 مليار د. أ. أي ما يعادل الناتج المحلي الإجمالي لدول مثل تونس ولبنان[24].

ج- الآثار الاجتماعية: وهي آثار متنوعة تختلف بين مناطق الجذب ومناطق الطرد وبحسب حجم الهجرة وطبيعة الفئة المهاجرة، إضافةً إلى الاختلافات الثقافية والتربوية والوضع الاجتماعي، حيث قد يتسبب ذلك بارتفاع نسبة الجرائم والسرقات في مناطق الجذب، ويحدث حالة تبدل في القيم والمفاهيم وبخاصة لدى المهاجرين المحافظين.

د- الآثار السياسية والقانونية: وهذه المشاكل تنجم عن اختلاف الثقافات، وبسبب طبيعة القوانين. فقد يواجه المهاجرين العنصرية في الحياة الإجتماعية والوظيفية، ذلك بحسب الموطن الأصلي أو اللون أو العرق.

هـ- آثار اللجوء الإنساني: في حالات اللجوء القسري نتيجة الحروب أو الكوارث البيئية أو ما شابه، تتفاقم المعاناة الإنسانية للاجئين، لأنهم يفتقدون أبسط مقومات الحياة البسيطة للنجاة.

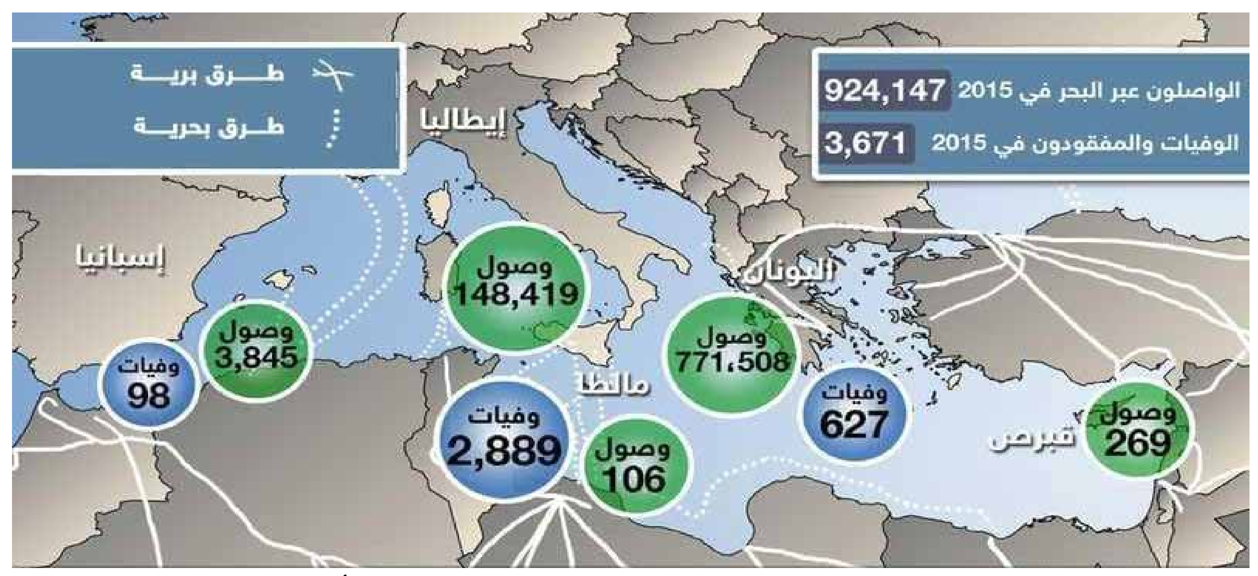
2- دول منطقة حوض المتوسط بؤرة للهجرة غير الشرعية:

هي التسلل عبر الحدود البرية والبحرية والإقامة بدولة أخرى بطريقة غير مشروعة. وقد تكون الهجرة في أساسها قانونية وتتحول فيما بعد الى غير شرعية، وهو ما يعرف بالإقامة غير الشرعية. وتتضمن الهجرة غير الشرعية في مضمونها الهجرة السرية وتعني الإجتياز غير القانوني للحدود، دخولاً أو خروجاً من التراب الوطني للدولة[43]. ترتعد أوروبا مما تسميه "إنفجار الهجرة" وتزايد أعداد المهاجرين غير الشرعيين الى دولها، فهناك حوالي 15 الى 30 مليون مهاجر غير شرعي في العالم، نصيب أوروبا منهم يبلغ 4 ملايين، وهو ما يعني أن دول الإتحاد الأوروبي تستقبل سنوياً نحو 400 ألف شخص يدخلون حدودها بطريقة غير شرعية[44]. وتحقق عمليات تهريب البشر أرباحاً تصل الى 4،4 مليارات دولار وتعمل فيها شبكات مافياوية عالمية[45].

- وتشتمل الهجرة غير الشرعية، على[64]:

- الأشخاص الذين يدخلون بطريقة غير قانونية إلى دول الاستقبال ولا يسوون وضعهم القانوني.
- الأشخاص الذين يدخلون دول الاستقبال بطريقة قانونية ويمكثون هناك بعد انقضاء مدة الإقامة القانونية.
- الأشخاص الذين يشتغلون بطريقة غير قانونية خلال إقامة مسموح بها.
- الأشخاص الذين يشغلون منصبا دون المنصوص عليه في عقد العمل.

خريطة (2): حركة الهجرة غير الشرعية:



المصدر: الموقع الإلكتروني infomigrants.net . رحلات الهجرة.. ماهي سبل المهاجرين إلى أوروبا؟ – مهاجر نيوز.

-3 عمليات تهريب المهاجرين:

يتم تهريب الأشخاص إلى إحدى دول الاتحاد الأوروبي لمساعدتهم على دخولها دون تصريح مسبق. ويتم ذلك عادة عن طريق الحصول على المساعدة للهروب من الضوابط الحدودية أو عن طريق الحصول على وثائق سفر أو وثائق إثبات هوية مزورة أو مزيفة، مما قد يعرض أولئك المهاجرين إلى مواقف حرجة وخطيرة[74].

سابعاً:- لبنان نموذج للواقع الإقتصادي والسياسي الذي يفرض هجرة أبنائه:

نشر صندوق النقد الدولي أرقاماً حديثة لتوقعاته حول أوضاع الإقتصاد اللبناني. وتدل الأرقام على أن الإقتصاد سجل في هذا العام تراجعاً في النمو، وإنكماشاً حاداً بنسبة 25 %، فإنخفض حجم الإقتصاد من 52.5 مليار دولار في العام 9102 الى 7.81 مليار دولار عام 0202 اي أنه عاد الى مستوه في عام 2002. أما بشأن غلاء الأسعار فيتوقع صندوق النقد الدولي أن يرتفع معدل التضخم وأسعار السلع الإستهلاكية ترتفع بنسبة 441.5% مقارنةً مع العام الماضي. وهذا الرقم هو مستوى قياسي لم يسجل منذ عام 2991.

يوجد في لبنان ثلاث دراسات إحصائية بالعينة، يمكن بناء استنتاجات عليها، وهذه الدراسات الإحصائية قامت بها إدارة الإحصاء المركزي، الأولى عن القوى العاملة عام 0791، والثانية عن القوى العاملة وميزانية الأسرة في عامي 6991 و 7991، والثالثة نُشِرت عام 4002، يجب العودة إلى هذه الإحصاءات الثلاثة والى إحصائيات جديدة في أي كلام جدي في مسائل الأوضاع الديمغرافية والعمل والأوضاع الاجتماعية وإنفاق الأسر والمداخيل في لبنان. لأن أقوى أسباب الهجرة، وما أظهرته الدراسات، هو العامل الاقتصادي، أو الفروق بين القدرة الشرائية الفعلية بين لبنان والبلاد المهاجر إليها، لذلك هاجر شباب لبنان، وجرى استبدالهم بعمال وافدين من بلدان أفقر من سوريين ومصريين... .[84]

– بعض الدراسات والإحصاءات التي تتعلق بمعدلات الهجرة اللبنانية:

" يشير مسح المعطيات الإحصائية للسكان والمساكن الذي أعدته وزارة الشؤون الاجتماعية بين أعوام 7991 و 4002 الى أن عدد المهاجرين هو نحو 44 ألف لبناني سنويا بينما إرتفع هذا العدد منذ عام 5002 الى نسبة تتراوح بين 06 و56 ألفا سنويا وبلغ ذروته خلال حرب تموز 6002.

تعتبر المرحلة الأبرز للهجرة اللبنانية قد بدأت من العام 0991 حتى الآن نتيجة للظروف السياسية التي مر بها لبنان من اغتيالات وتراجع في الأوضاع الاقتصادية ومن غلاء متزايد للمعيشة ثم حرب تموز 6002 التي دفعت بالكثيرين إلى الهجرة.

وتشير دراسة أخرى للدكتور علي فاعور الى أنه بين عامي 1991 و 2000 هاجر حوالي 350 ألفا من فئة الشباب وبين عامي 2001 و 2005 هاجر 210 آلاف من الشباب فيما هاجر أكثر من 120 ألفا خلال شهر تموز 2006 "[49]. " كما يحدد الدكتور علي فاعور في دراسته حول خارطة الإغتراب اللبناني في أستراليا أن ولاية نيو ساوث ويلز في الشرق (إقليم العاصمة)، قد بلغ عدد اللبنانيين المهاجرين إليها 55780 أي حوالي 74.5 % من مجمل اللبنانيين المهاجرين الى كافة أستراليا البالغ عددهم حوالي 6.6 ملايين عام 2014 " [50]

" إن الحساب الصافي بين القادمين والمغادرين من اللبنانيين، يتيح إمكانية فعلية لتقدير حجم المهاجرين اللبنانيين. ويتبيّن أن حجم الهجره الخارجية بين اللبنانيين وصل إلى 718.584 مهاجراً خلال العقد الأخير (2008–2017)، أي بمتوسّط سنوي وصل إلى نحو 72 ألفاً. وهو ما لم يعرفه لبنان في تاريخه، إذ لم يتجاوز المتوسّط السنوي حافة 60 ألفاً خلال فترة الاحتراب الأهلي (1975–1990) ونحو 40 ألفاً خلال فترة 1992–2007. وصل عدد المقيمين من غير اللبنانيين في بداية عام 2018، إلى 1.398 مليون شخص، أي ما يشكّل نحو 39% من المقيمين اللبنانيين، و28% من مجموع المقيمين كافة، وذلك وفق البيانات الرسمية، غير الفعلية، التي تُغفل أعداد السوريين والفلسطينيين الذين يقيمون خارج المخيّمات أو التجمّعات الخاصّة بهم، بالإضافة إلى العمّال الأجانب من المقيمين بصورة غير شرعية "[51].

إن حركة الهجرة الوافدة تؤثر سلباً على الإقتصاد وعلى المجتمع اللبناني والخدمات العامة. حيث تُبّين الهجرة الإحلالية اللبنانية، أنه يوجد ما بين 7 إلى 8 ملايين قاطن في لبنان من لبنانيين وغير لبنانيين حيث تؤكد الهيئات الدولية خصوصاً المفوضية العليا للاجئين أنَّ لبنان فقَدَ القدرة على الإستيعاب مقارنةً بعدد سكانه ومساحة أرضه. هذا الوضع المقلق الذي أخذ في أوروبا أبعاداً أمنية انعكس قراراً دولياً بالمحافظة على اللاجئين السوريين الذين فاق عددهم الـ 5 ملايين سوري خارج حدود سوريا بعيداً من القارة العجوز[52].

" نهاية عام 2013 بلغ عدد النازحين الى لبنان نحو 835،805 شخص ليعود ويرتفع نهاية عام 2014 الى 995،158،1 نازح، وبلغ بتاريخ 18\3\2015 حوالي 407، 187،1 شخص. تراجعت حركة هذه الهجرة نتيجة لعدم قدرة لبنان على الإستيعاب، حيث إتخذت الدولة تدابير بداية عام 2015 عن طريق معايير وضعتها الحكومة لوقف النزوح، إلاَّ أنها لا زالت مستمرة ولو بشكلٍ منخفض "[53].

– وعن تأثير الحروب التي عايشها لبنان على الهجرة، فإن حرب تموز 2006، وفي دراسة على عيّنة تمت دراستها، فإن 60.5 % من اللبنانيين المقيمين المستطلعين في الدراسة، أبدوا رغبتهم في الهجرة، وأن 80 % من الذين قالوا نعم للهجرة، هم من حملة الإجازات والماجستير، وأكد 68.4 % من الراغبين في الهجرة أن الحرب ساعدتهم في إتخاذ قرار الرحيل. إن القراءة التاريخية لعقودٍ مضت عن معاناة اللبنانيين السياسية والإقتصادية والتي إنعكست سلباً على واقعهم الإجتماعي تُبَّين أن أمل التغيير لا زال بعيداً[54]". "يوجد أكثر من 35 ألف مهاجر لبناني سنوياً، 77% منهم أعمارهم دون 35 سنة، مما يعني استنزافاً لمواردنا نتيجةً للانقسامات السياسية في لبنان. كما تبرز مشكلة في البقاع، إذ إن عدد اللاجئين، يبلغ 400 ألف نسمة مسجلين في المفوضية وعدد البقاعيين 450 ألف نسمة، والأهم هو أنَّ 55% من هؤلاء نساء وأطفال وغالبيتهم دون الـ17 عاماً، في حين يشكل الأطفال دون الـ5 سنين 19.25% أي يصنفون في خانة "الفئات الضعيفة"[55]. من هنا فإن الواقع السياسي والإقتصادي اللبناني المتردي يزيد من معناة اللبنانيين ويدفعهم نحو الهجرة.

- **الخاتمة:**

يسعى الأفراد عموماً في البحث عن حياةٍ أفضل، لذلك يختارُ مُعظمهم الهجرة إلى دولٍ وأماكنٍ جديدة تُساعدهم على تحسين مُستوى حياتهم المعيشي، أو للهروب من الاضطرابات السياسيّة والحروب، ولكن قد تُشكّلُ الهجرة مجموعةً من الآثار على المهاجرين والدّول التي يتوجّهون لها، فتُوثّرُ الهجرةُ على بعضِ الأفراد من خلال صعوبة تأقلُمِهم مع طبيعةِ الحياة في البلد الجديد، وخصوصاً مع ظهور الاختلافات الثقافيّة والاجتماعيّة، وأيضاً لا يَجِد الكثير من المهاجرين سوى الأعمال الصّعبة للعمل بها، والتي تستغرقُ ساعات عملٍ طويلة، وأجورٍ مُنخفضة، وظروف عمل صعبة.

تؤثرُ الهجرة على الدّول ذات الكثافة السُكّانية المُرتفعة، ممّا يُؤدّي إلى زيادةِ مُعدّلات البطالة والفقر، وظهورُ العديد من النّتائج السياسيّة والاقتصاديّة التي تُؤثّرُ سلباً على مُعدّلاتِ الدّخل العام في الدّولة، لكن يُعتبرُ هذا التّأثير مُتبايناً ويعتمدُ على قياس الأوضاع الإقتصاديّة والسياسيّة بين البلدان؛ فالدّول التي تتميّزُ باستقرارٍ إقتصاديّ وسياسيّ هي الأفضلُ لإستقبال المُهاجرين. لذلك تعتبر القارة الأوروبية وجهة الكثيرين من المهاجرين.

تُقسمُ الهجرةُ إلى مجموعةٍ من الأنواع، ولكلّ نوعٍ منها تأثيرٌ مختلفٌ على المُهاجرين، إذ تعتبرُ الهجرة الداخليّة من أقلِّ أنواع الهجرة تأثيراً مُقارنةً بالهجرةِ الخارجيّة التي تحتاجُ إلى نفقات ماليّة مُرتفعة، وفي حال عدم التمكّن من تأمين المبلغ الماليّ المُناسب للهجرة يتمُّ اللّجوء إلى الهجرة السريّة التي تكونُ غالباً بطُرقٍ غير شرعيّة، وتعود بالكثير من النّتائج السلبيّة على المهاجرين.

يعاني لبنان من مشاكل إقتصادية وسياسية سمحت بهجرة الكثير من أبناءه وبخاصة فئة الشباب التي يعوَّل عليها في التنمية الإقتصادية. ولأن الحكومات المتعاقبة لم تسجل في تاريخها خطة تنمية متوازنة، وأهداف إقتصادية تساهم في زيادة الناتج الوطني، وتساهم في إستقرار الريفيين، أو عودة المهاجرين من أصحاب الأدمغة. إن الهجرة غير الشرعية ظاهرة توسَّعت مظاهرها وإتخذت مساراً خطراً وتحتاج الى سياسات تساعد على ضبط الحدود وكذلك العصابات التي تستغل الفقراء الباحثين عن عيش كريم.

[1] وفقاً لتصنيف الباحث في شؤون الهجرة "ليوخن أولتمر" – ما يساعد على تقييم الأحداث الراهنة على نحو أفضل.
[2] إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة، 2013.
[3] Tendances des migrations internationales, p 2004
[4] النمو السكاني والانفجار السكاني، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
[5] المنظمة الدولية للهجرة، بوابة بيانات الهجرة العالمية.
[6] الهجرة والشباب العربي: الهجرة والمستقبل، أعمال المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والإنسانية ، تقارير المؤتمرات : بين 18 و 20 آذار/مارس 2017 في الدوحة، العدد 22\6، ص: 215.
[7] "محطات في تاريخ الهجرة غير الشرعية". الجزيرة نت. 2005-03-11.
[8] الأمم المتحدة، قضايا عالمية "الهجرة"، الصفحة الرئيسية . https://www.un.org/ar/sections/issues-depth/migration/index.html
[9] د. أحمد أبو زيد، أغراب في أوطان أجنبية، مجلة "العربي"، الكويت، العدد 581، 2007، ص:30.
[10] الأمم المتحدة، قضايا عالمية "الهجرة"، مرجع سابق.
[11] تقرير التنمية البشرية لعام 2000، منشور لحساب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ص: 8.

12 توقيف شبكة هجرة غير شرعية في لبنان... السفر من مطار بيروت، العين الإخبارية، بيروت، 19\10\2020.
13 قراءة في خارطة اللاجئين والمهاجرين العرب عالمياً، مجلة العربي، الخميس 28 مايو 2020، العدد 21.
14 Rasmussen H.K, "Immigration Policy in Europe", Copenhagen,1977, p.139
15 بحث حول الهجرة – إيمان الحياري – 8 فبراير 2018.
16 فوائد الهجرة كتابة محمد مروان، بحث حول الهجرة، ٩ أكتوبر 2019 .
17 تقارير المؤتمرات: الهجرة والشباب العربي: الهجرة والمستقبل، أعمال المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والإنسانية، عقد بين 18 و 20آذار/مارس 2017 في الدوحة، العدد 22\6، ص: 218.
18 تتعدد أسباب اللبنانيين ... وحلم الهجرة واحد، تقرير، وكالة الأناضول 23\1\2020.
19 الجمهورية اللبنانية، مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات، مصلحة الأبحاث والدراسات، الهجرة من لبنان، إعداد: خالد فرج، ص:3، (2014)،
20 د. سعيد اللاوندي وأخرون، الهجرة غير الشرعية، طبعة 1، يوليو 2007، ص: 3.
21 Hundreds of migrants feared dead in Mediterranean this week Iworld\the Guardian, 23\october\2017.
22 At least 58 people killed as boat carrying migrants sinks off Mauritania coast". Retrieved .سي إن إن. 2019-12-05
23 موضوع حول ظاهرة الهجرة كتابة سميحة ناصر خليف، أغسطس، 2020.
24 منظمة الأغذية والزراعة، الأمم المتحدة، أهداف التنمية المستدامة، العمل على القضاء على الجوع، ص: 14.
25 فوائد الهجرة كتابة محمد مروان، 9 أكتوبر.
26 أسباب الهجرة.. وأبرز إيجابياتها وسلبياتها العين الإخبارية الأربعاء 2/5/2018،
27 مجلة نيوزويك الأمريكية، الحوالات المالية شكلا جديدا لمساعدة خارجية، ١٩ كانون الثاني 2004.
28 بحث حول الهجرة – إيمان الحياري – 8 فبراير 2018.
29 عثمان البهالي، الكفاءات العلمية المغربية بالخارج...، بلجيكا كنموذج، الدار البيضاء، دار النشر المغربية 2002،
30 دراسة الدكتور علي فاعور عن الشباب والهجرة، جريدة الأخبار، موقع خيامكم 5113، تاريخ 28\7\2008.
31 فوزي هاشم، في دراسة الدكتور علي فاعور عن "الشباب والهجرة"، موقع خيامكم 5113، تاريخ 28\7\2008.
32 حوراني، مقالة من مركز دراسات الانتشار، آذار 2005، في دراسة الدكتور علي فاعور عن "الشباب والهجرة"،28\7\2008 موقع خيامكم5113.
33 حول دراسة الدكتور علي فاعور عن الشباب والهجرة فوزي هاشم 28\7\2008 موقع خيامكم 5113.
34 أ. د. علي فاعور، موجات مقبلة من الهجرة: لبنان في خطر وجوديّ، جريدة الأخبار، السبت 26 أيلول 2020.
35 الأمم المتحدة، الصفحة الرئيسية، السلام والكرامة والمساواة على كوكب ينعم بالصحة، قضايا عالمية "الهجرة". https://www.un.org/ar/sections/issues-depth/migration/index.html
36 د. سعيد اللاوندي وأخرون، الهجرة غير الشرعية، طبعة 1، يوليو 2007، ص: 102.
37 تقارير المؤتمرات: الهجرة والشباب العربي: الهجرة والمستقبل، أعمال المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والإنسانية، عقد بين 18 و 20 آذار/مارس 2017 في الدوحة، العدد 22\6، ص: 225.
38 الهجرة غير الشرعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، المخاطر وإستراتيجية المواجهة، تحرير الدكتور محمد غربي، أ. صفيان فوكة، أ. مشري مرسي، دار الروافد الثقافية إبن النديم للنشر والتوزيع، طبعة أولى بيروت، 2014. ص: 16.
39 د. أحمد أبو زيد، أغراب في أوطان أجنبية، مجلة "العربي"، الكويت، العدد 581، 2007،ص: 31.
40 د. تانيا فاعو، التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، المؤسسة الجغرافية،مركز السكان والتنمية، بيروت، أذار، 2014، ص: 140.
41 الهجرة، أسباب الهجرة اللبنانية، من العام 1860 وحتى العام 1920، Baabdat Family Trees
42 د. تانيا فاعو، التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، المؤسسة الجغرافية،مركز السكان والتنمية، بيروت، أذار، 2014، ص: 113.
43 د. سعيد اللاوندي وأخرون، الهجرة غير الشرعية، طبعة 1، يوليو 2007، ص:15.
44 د. سعيد اللاوندي، الهجرة غير الشرعية، الموسوعة السياسية للشباب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع2010، طبعة 8، ص: 8.
45 د. سعيد اللاوندي وأخرون، المرجع السابق، ص: 5.
46 "محطات في تاريخ الهجرة غير الشرعية". الجزيرة نت. 2005-03-11.
47 بوابة الهجرة الى الإتحاد الأوروبي، المفوضية الأوروبية.
48 الجمهورية اللبنانية، مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات، مصلحة الأبحاث والدراسات، الهجرة من لبنان، إعداد: خالد فرج، ص:4، (2014)،
49 الجمهورية اللبنانية، مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات، مصلحة الأبحاث والدراسات، الهجرة من لبنان، إعداد: خالد فرج، ص:5 (2014)،
50 د. علي فاعور، خبير في شؤون السكان والهجرة، تاريخ الإغتراب اللبناني في أستراليا، 140 عاماً من الكفاح والبناء، جريدة السفير، الأحد 9 شباط 2016.
51 تقرير، Lebanon 24.News أرقام مخيفة لأعداد المهاجرين من لبنان: ما نعيشه أخطر من الحرب، تاريخ 14\1\2019.
52 تصريح لعميد كلية الآداب في الجامعة اللبنانية سابقاً الدكتور علي فاعور في حديث لجريدة النهار.
53 د. علي فاعور، الإنفجار السكاني، أربعة ملايين لاجىء هل تبقى سوريا؟ وهل ينجو لبنان؟ المؤسسة الجغرافية، مركز السكان والتنمية، ص:42.
54 ماهر الخطيب، قوارب الهجرة غير الشرعية: أين المسؤولين من المتابعة قبل وقوع الكارثة؟ خاص النشرة، الثلاثاء ٨ أيلول 2020
55 الموقع الإلكتروني للدكتور علي فاعور.

- المراجع:

1 وفقاً لتصنيف الباحث في شؤون الهجرة "ليوخن أولتمر" – ما يساعد على تقييم الأحداث الراهنة على نحو أفضل.
2 د. أحمد أبو زيد، أغراب في أوطان أجنبية، مجلة "العربي"، الكويت، العدد 581، 2007.
3 ويكيبيديا، هجرة الفعل، 2006.

4 ويكيبيديا، كتابة محمد مروان، ٩ أكتوبر 2018.
5 معلومات تم البحث عنها من خلال غوغل.
6 المنظمة الدولية للهجرة، اتجاهات الهجرة العالمية، عام 2014.
7 إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة، 2013.
8 إحصاء الأمم المتحدة عام 2005.
9 بحث حول الهجرة – إيمان الحياري – 8 فبراير 2018.
10 فوائد الهجرة كتابة محمد مروان، 9 أكتوبر 2019.
11 السكان، الأمم المتحدة، قضايا عالمية.
12 تقارير المؤتمرات: الهجرة والشباب العربي: الهجرة والمستقبل، أعمال المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والإنسانية، عقد بين 18 و 20آذار/مارس 2017 في الدوحة، العدد 22\6.
13 أ. د. علي فاعور موجات مقبلة من الهجرة: لبنان في خطر وجوديّ، قضايا، جريدة الأخبار الإثنين 5 تشرين الأول 2020.
14 د. تانيا فاعو، التنمية البشرية المستدامة والتخطيط في المنطقة العربية، المؤسسة الجغرافية،مركز السكان والتنمية، بيروت، أذار، 2014،
15 موضوع حول ظاهرة الهجرة كتابة سميحة ناصر خليف، أغسطس، 2020.
16 منظمة الأغذية والزراعة، الأمم المتحدة، أهداف التنمية المستدامة، العمل على القضاء على الجوع.
17 أسباب الهجرة.. وأبرز إيجابياتها وسلبياتها العين الإخبارية الأربعاء 2/5/2018.
18 مجلة نيوزويك الأمريكية، الحوالات المالية شكلا جديدا لمساعدة خارجية، ١٩ كانون الثاني 2004.
19 دراسة الدكتور علي فاعور عن الشباب والهجرة، جريدة الأخبار، 28\7\2008.
20 فوزي هاشم، في دراسة الدكتور علي فاعور عن "الشباب والهجرة"، 28\7\2008 موقع خيامكم 5113.
21 أ. د. علي فاعور، موجات مقبلة من الهجرة: لبنان في خطر وجوديّ، جريدة الأخبار، السبت 26 أيلول 2020.
22 أ. د. علي فاعور، خبير في شؤون السكان والهجرة، تاريخ الإغتراب اللبناني في أستراليا، 140 عاماً من الكفاح والبناء، جريدة السفير، الأحد 9 شباط 2016.
23 الأمم المتحدة، الصفحة الرئيسية، السلام والكرامة والمساواة على كوكب ينعم بالصحة، قضايا عالمية "الهجرة".
24 د. سعيد اللاوندي وأخرون، الهجرة غير الشرعية، طبعة 1، يوليو 2007.
25 الهجرة غير الشرعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، المخاطر وإستراتيجية المواجهة، تحرير الدكتور محمد غربي أ. صفيان فوكة، أ. مشري
26 مرسي، دار الروافد الثقافية إبن النديم للنشر والتوزيع، طبعة أولى بيروت، 2014.
27 د. سعيد اللاوندي وأخرون، الهجرة غير الشرعية، طبعة 1، يوليو 2007.
28 "محطات في تاريخ الهجرة غير الشرعية". الجزيرة نت. 2005-03-11.
29 بوابة الهجرة الى الإتحاد الأوروبي، المفوضية الأوروبية.
30 ماهر الخطيب، قوارب الهجرة غير الشرعية: أين المسؤولين من المتابعة قبل وقوع الكارثة؟ خاص النشرة، الثلاثاء 8 أيلول 2020.
31 النمو السكاني والانفجار السكاني، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
32 قراءة في خارطة اللاجئين والمهاجرين العرب عالمياً، مجلة العربي، الخميس 28 مايو 2020، العدد 21.
33 تتعدد أسباب اللبنانيين ... وحلم الهجرة واحد، تقرير، وكالة الأناضول 23\1\2020.
34 الجمهورية اللبنانية، مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات، مصلحة الأبحاث والدراسات، الهجرة من لبنان، إعداد: خالد فرج، (2014)،
35 حوراني، مقالة من مركز دراسات الانتشار، آذار 2005، في دراسة الدكتور علي فاعور عن "الشباب والهجرة"، 28\7\2008 موقع خيامكم 5113.
36 الموقع الإلكتروني للعميد الدكتور علي فاعور.
37 تصريح لعميد كلية الآداب في الجامعة اللبنانية سابقاً الدكتور علي فاعور في حديث لجريدة النهار.
38 عثمان البهالي، الكفاءات العلمية المغربية بالخارج...، بلجيكا كنموذج، الدار البيضاء، دار النشر المغربية 2002،
39 https://www.un.org/ar/sections/issues-depth/migration/index.html - Tendances des migrations internationales, p 2004
40 Rasmussen H.K, "Immigration Policy in Europe" Copenhagen, 1977,
41 United Nation Department of Economic and Social Affairs Population Division, World Population Prospects: The 2015 Revision Produced by: United Nation Department of Public Information.
42 Hundreds of migrants feared dead in Mediterranean this week I world\the Guardian,23\October\2017.
43 At least 58 people killed as boat carrying migrants sinks off Mauritania coast- 2019-12-05. سي إن إن. Retrieved
44 https:\\Konmowaten.com\48797\

الهجرة العربية غير النظامية إلى أوروبا
النتائج المباشرة وتوتّرات الاندماج

د. سها حمود

مديرة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الفرع الأول

الهجرة سلوك إنسانيّ يعبّر من خلاله الإنسان عن بحثه عن مكان يوفّر له الأمن، ويحفظ العيش الكريم لشخصه ولأسرته، وقد مرّ هذا السلوك الإنسانيّ بعدّة مراحل تاريخيّة، فهو قديم قدم الإنسان على الأرض، إلا أنّ دوافعه اليوم اختلفت، فبات الإنسان يهاجر من أجل حريّته وحقوقه وحفظ كرامته من كلّ أشكال الاضطهاد.

الهجرة في اللغة مصدر الفعل (هَجرَ)، الذي يعني الترك والإقلاع، "والهجرة هي ترك مكان العيش المعتاد، والانتقال إلى مكان آخر بهدف الاستقرار أو الانتقال من جديد"[1]. أمّا في الاصطلاح، فقد ورد في تقرير التنمية البشريّة للعام 2009م، الذي صدر تحت عنوان: "التغلّب على الحواجز، قابليّة التنقّل البشريّ والتنمية"، الهجرة تعني: "التحرّك البشريّ عبر الحدود الدوليّة الذي ينتج منه تغيير في بلد الإقامة المعتاد"[2].

أ – نشأة الهجرة

بدأت الهجرة بين القارات بشكل عامّ منذ القرون الوسطى، ففي الفترة الممتدّة ما بين (1500 – 1800م)، "جاءت على شكل انتقالات من الدول الأوروبيّة إلى دول العالم، بهدف الاستيطان، وتأسيس مدن جديدة واستغلال ثروات تلك المدن؛ إذ إنّ الأوروبيّين تواجدوا بشكل كبير في كلّ من القارات الثلاث: أمريكا وإفريقيا وآسيا"[3]. "وقد امتازت تلك الهجرة بالتطوّر الصناعيّ، الذي بدأ في أوروبّا، ثمّ انتقل إلى قارّات العالم الأخرى، وكان لهذه المرحلة دور كبير في صياغة العالم ديمغرافيًّا، حيث قامت ببناء مجتمعات جديدة بالعالم مثل الولايات المتّحدة الأمريكية"[4]. وتعدّ الهجرة في هذه المرحلة موجّهة، بدأت إلى البلاد المستعمرة من قبل الدول الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا)، نحو مستعمراتها لاستغلال مواردها. ثمّ جاءت مرحلة الحرب العالميّة الأولى، "التي أفرزت نزوحًا كبيرًا. ولكن في العام 1929م تحديدًا، سادت فترة الكساد العالميّ، "وشهدت هذه المرحلة انحسارًا للحركة الدوليّة للهجرة"[5].

ب – الهجرة الحديثة إلى أوروبا

بعد الحرب العالميّة الثانية، أضحت الهجرة انعكاسًا واضحًا لصورة الهجرة الجماعيّة والفرديّة بحثًا عن حياة أفضل وفرص عمل أكبر، "كانت أوروبا في تلك الفترة بحاجة للأيدي العاملة، بعد الدمار الذي لحق بها بعد الحرب العالميّة الثانية، إذ دأبت على تسهيل هجرة الناس من العالم الثالث إلى مجتمعاتها، وخاصّة

المتعلّمين والمهنيّين"[6]. وشهدت القارة الأوروبيّة وجهًا جديدًا؛ إذ شكلت بداية للازدهار الاقتصاديّ، ففي العام 1957م، "تأسّست المجموعة الاقتصاديّة الأوروبيّة، وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتّحاد السوفيتي عام 1989م، أصبحت القارة الأوروبية وجهة المهاجرين"[7].

وبعد أزمة البترول عام 1973م، التي تأثّرت بها الدول الأوروبية بشكل كبير ، أعلنت الدول العربيّة المصدّرة للنفط توقّف صادراتها لأوروبا وأميركا بسبب حرب أكتوبر بين إسرائيل والدول العربيّة، فكان ذلك احتجاجًا من الدول العربيّة على السياسات الغربية المؤيّدة للعدوان الإسرائيلي.

لذا قامت الدول الأوروبية بالتوقّف عن استقبال الأيدي العاملة القادمة من الدول العربيّة، وبدأت تعتمد خطابًا إعلاميًّا سياسيًّا يقول إنّ عهد الهجرات الكبرى قد مضى، وإنّ الأيدي العاملة الأوروبيّة ستحلّ محلّ تلك الأجنبية، وقامت أيضًا بالترويج لفكرة أنّ التقدّم التكنولوجي، سيعوّض القارة الأوروبيّة عن الأيدي العاملة العربيّة.

وبالإشارة إلى واقع الدول الأوروبيّة في السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، فإنّ مجموعة من الدول الأوروبيّة، وضعت عدّة تشريعات وقوانين تتعلّق بالهجرة، من خلال سياسات وإجراءات صارمة. "وأسهمت بعض الأحداث العالميّة في تدفّق المهاجرين إلى أوروبا، منها سقوط سور برلين، وانهيار الاتحاد السوفيتي، واندلاع الحروب في يوغوسلافيا السابقة، وحروب القوى الغربية في العراق وأفغانستان، ثم أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001م، والحرب على الإرهاب، كلّ تلك العوامل تضافرت من أجل جعل القارة الأوروبية وجهة المهاجرين"( ). بالإضافة إلى الحروب في المنطقة العربيّة خصوصًا في سوريا، وعدم الاستقرار الذي ساعد في زيادة الهجرة غير النظاميّة إلى أوروبا، "إذ بدأت أزمة اللاجئين السوريين في أوروبا عام 2011م، وبلغت ذروتها في العامين 2014 – 2015م"[9]؛ ما أدّى إلى ظهور النزعات اليمينيّة المتطرّفة التي تضع قضايا الهجرة غير النظاميّة على رأس قائمة أولويّاتها السياسيّة.

ج – أسباب الهجرة العربيّة

ارتبطت الهجرة من الدول العربيّة بمرحلة الاستعمار وما تلاها، "فبعد غزو المنطقة قدمت أعداد كبيرة من الأوروبيين لغرض الإقامة، وسيطروا على الثروات المعدنيّة والأراضي الزراعيّة، ودفعوا الفلاحين إلى الأراضي الجافّة والمجدبة. وقد كانت هذه الممارسات سببًا في هجرة أبناء العرب إلى الخارج وبالأخصّ إلى أوروبا"[10].

كانت فرنسا قد واجهت خلال الفترة الممتدّة بين العامين 1900 – 1931م نقصًا في اليد العاملة بشكلٍ غير مسبوق، وتبع ذلك خسائر بشرية كبيرة في الحرب العالميّة الثانية. ولولا استخدام اليد الأجنبيّة، لكان الاقتصاد الفرنسيّ قد أعيق بشدّة. "ومن أسباب استقدام فرنسا للمهاجرين، حاجتها إليهم في الجهد الحربيّ خلال الحربين العالميتين، وبعد انتهاء الحرب، تحوّل هؤلاء المهاجرون للعمل في المصانع والمزارع والأعمال الأخرى؛ ليساهموا في إعادة بناء الاقتصاد الفرنسيّ الذي أنهكته الحرب"[11].

ومن أسباب الهجرة انخفاض الأجور، فقد كان 60% من مجموع أرباب الأسر المهاجرين لا يتعدّى دخلهم 2000 دولار سنويًّا، ونسبة 5% يفوق دخلها 7000 دولار سنويا. وكان 15 % من الأسر يحصل على ميزانيّة شهريّة ناقصة تتطلّب الدعم العائليّ الخارجي. "إنّ التحليل الدقيق لخصوصيّات الهجرة، يشير إلى أنّ الهجرة الدولية هي هجرة إراديّة شملت على الخصوص سكّان القرى. وأنّ العامل الأوّل المصرّح به كدافع أساس للهجرة هو العامل الاجتماعيّ (67%)، أمّا الأسباب الاقتصادية فتمثّل العامل الأخير المصرّح به بعد الأسباب الاجتماعيّة والجفاف"[12].

"فالظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي قادت إلى الفقر والحرمان والاضطهاد، تدفع المواطن العربيّ إلى الهجرة خارج بلده بحثًا عن العمل. وتبلغ هذه النسبة (79%) بالنسبة إلى المهاجرين الذين تتراوح أعمارهم بين 35 – 40 سنة"[13]. والملاحظ أنّ عدد المهاجرين من بلدان المغرب العربيّ، ازداد عقب استقلالها، وامتدّت وجهة هجرتهم إلى بلدان أخرى غير فرنسا، مثل: بلجيكا، وألمانيا، وهولندا، وإسبانيا، وإيطاليا، وغيرها.

"ومن جهة أخرى، أدّت عدّة عوامل من بينها انخفاض معدّلات النموّ السكّاني في أوروبا؛ وعزوف الأوروبيين عن العمل في مهن ذات مكانة اجتماعيّة منخفضة؛ وهجرتهم إلى بلدان أوروبية أخرى تتمتّع بمستويات أجور مرتفعة؛ إلى أن تكون العمالة المهاجرة ضرورة بنيويّة بالنسبة إلى اقتصاديّات أوروبا الغربية"[14]. وهكذا، فإنّنا لا نستطيع أن نعلّل ظاهرة الهجرة بمجموعة محدّدة من الأسباب، فالظاهرة نفسها تولّد أسبابًا أخرى تعيد إنتاجها.

"ويتفاوت تقدير عدد العرب المهاجرين إلى دول الاتّحاد الأوربي من مصدر إلى آخر؛ ويرجع ذلك إلى أنّ أغلب الدول الأوربية، لا يحتفظ بإحصاءات رسميّة للمقيمين فيه. وفي غياب هذه الإحصائيات أو وجودها الجزئيّ، ما يجعل مناقشة موضوع الهجرة في مرحلة زمنيّة معيّنة وتحليل أبعادها، نوعًا من التخمين القائم على أسس واهية"[15].

"ويشكّل المهاجرون العرب نسبة كبيرة من المهاجرين عبر العالم؛ لأنّ المنطقة العربية، منذ سنوات طويلة كانت من الدول المصدّرة للهجرة والعمالة، إذا استثنينا دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. ويشكّل المهاجرون من مصر، ولبنان، وفلسطين، والعراق، جاليات كبيرة في الكثير من دول أوروبا الغربية، وقد حقّق المهاجرون العرب في أوطانهم الجديدة، نجاحًا اقتصاديًّا ملموسًا، وبرز من بينهم رجال أعمال، وصنّاع قرار سياسيّ أو اقتصاديّ على مستوى عالميّ"[16].

يحيط بدراسة الهجرة والمهاجرين وخصائصهم بصفة عامّة، الكثير من الصعوبات؛ أهمّها: تعدّد التعريفات، وصعوبة التحديد، وندرة البيانات، وعدم دقّتها، كما أنّه "ليس هناك بيانات دقيقة عن التركيب العمريّ والتصنيف النوعيّ للمهاجرين أو المغتربين، تغطّي كلّ الدول الأوربية، طوال فترات زمنيّة متباعدة. كما لا تعطي البيانات إمكانية التحديد الدقيق للمهاجرين، بحسب أنماط الهجرة واتجاهاتها؛ كالدائمين والمؤقّتين والنظاميين وغير النظاميين، أو الأفراد العاملين، وأفراد الأسرة الآخرين"[17].

د – استثمار الهجرة العربيّة

كانت الهجرة العربية الحديثة إلى أوروبا في بداياتها مقتصرة على الذكور، غير أنّها بعد ذلك بدأت تشمل الهجرة النسائيّة والعائلية، "وكان لهجرة اليد العاملة النسويّة مميّزات، فهي رخيصة وطيّعة وتعمل أساسًا في قطاع الخدمات: الأشغال المنزلية، ورعاية الأطفال، ومساعدة المسنّين، والتنظيف، وغيره. وقد تقع النساء ضحيّة الاستغلال وشبكات الاتّجار بالبشر"[18].

فضلًا عن أنّ هذه الهجرة كانت متوقّفة على هجرة الأيدي العاملة إلى المصانع الأوروبية، فقد تطوّرت إلى هجرة الكفاءات، وفي ظلّ ازدياد حاجة الدول المتقدّمة إلى مؤهّلات متميّزة، دأبت على جلب الكفاءات من دول الجنوب بهدف استثمارها. ومنذ مطلع الألف الثالث، أصبحت المنافسة شديدة لاستقطاب الكفاءات في مجالات معيّنة من العلم والمعرفة إلى الدول المتقدّمة. ونتج من هذه السياسة الانتقائية: "جلب الأدمغة من دول الجنوب، وجعل عدد كبير من الأشخاص غير المتعلّمين يقعون في وضعيّة الهجرة السرّية واللاقانونية"[19].

وفي ظلّ سياسات الهجرة الانتقائيّة، والسياسات الصارمة التي وضعتها الدول الاوروبية للحدّ من الهجرة اليها، ازدادت أعداد المهاجرين بشكل غير نظاميّ، ليشكلوا تطوّرًا جديدًا على مظاهر الهجرة إلى أوروبا وأشكالها، والتي تعرف بظاهرة الهجرة غير النظامية. "وفرض كلّ من قانون الاتحاد الأوروبي والاتفاقية الأوروبية لحقوق الانسان، حدودًا لممارسة هذا السيادة، بحيث تحظر المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان رفض الأشخاص المعرّضين لخطر الاضطهاد، أو الذين يصادفون خطرًا على الحدود"[20].

ثانيًا: مفهوم الهجرة غير النظاميّة

يمكن تعريف الهجرة غير النظامية إلى أوروبا إجرائيًّا بأنّها: "عمليّة دخول، مع إقامة أو عمل، من دول غير أعضاء في الاتّحاد الأوروبيّ إلى إحدى هذه دول من دون الوثائق أو التصاريح أو السجلات المطلوبة".

إنّ اعتماد مصطلح (الهجرة غير النظاميّة) بدل مصطلح (الهجرة غير الشرعيةّ)، أقرّته الجمعيّة العموميّة للأمم المتّحدة عام 1975م، باعتبار أنّ مصطلح (غير الشرعيّة) لا يلائم الطبيعة الإنسانيّة، فحياة الإنسان مشروعة في أيّ مكان، سواء هاجر أم بقي في موطنه الأصليّ. فضلًا عن أنّ مصطلح (الهجرة غير الشرعية) يميل إلى العمل الجرميّ؛ لذا لا يمكن اعتماده؛ لأنّ المهاجرين غير النظاميّين ليسوا بمجرمين، فجاء في تقرير مقرّر الأمم المتحدة الخاصّ بحقوق الإنسان أنّه:

"لا ينبغي معاملة المهاجرين على أنّهم مجرمون، وان كانوا في دولة بطريقة غير مشروعة. كما أنّ المهاجرين هم بشر، حالهم حال أيّ إنسان، يمتلكون الحقّ في الحياة الكريمة وإن دخلوا بطرق غير نظاميّة؛ لذلك لا يجب وصفهم بالمهاجرين غير الشرعيّين"[21].

بالعودة إلى تاريخ الهجرة غير النظاميّة، نجد أنّ أقرب المصطلحات إليها في السلوك البشريّ هو مصطلح العبوديّة، لدرجة أنّ الهجرة غير النظاميّة اكتسبت تسمية (الرقّ المعاصر)؛ ذلك أنّ العبوديّة نفسها ساهمت بشكل كبير في ظهور الهجرة غير النظاميّة اليوم؛ إذ تعتبر مملكتا إسبانيا والبرتغال، من أوائل الدول التي كانت تقوم بإرسال العبيد، بعد أن تقوم بجلبهم من إفريقيا، للعمل في أوروبا وأمريكا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. "والهجرة غير النظاميّة اليوم تتمّ بواسطة مهرّبين مختصّين بتهريب البشر، وهو ما يعرف في نطاق القانون الدوليّ باسم (جريمة الاتّجار بالبشر) أو (العبودية الحديثة) وهي من الجرائم العابرة للدول"[22].

باتت الهجرة غير النظاميّة ظاهرة عالميّة؛ وقد تطوّر هذا المفهوم حتى أطلق عليه اسم: (الهجرة غير الموثّقة)، ثمّ (الهجرة غير الشرعيّة)، وثمّة مصطلحات أخرى في توصيف هذه الظاهرة باعتبارها جريمة منظّمة، حيث تكوّنت عصابات دوليّة، تعمل أساسًا في تجارة البشر، أي الهجرة السرّية، باستخدام جوازات سفر ومستندات وتأشيرات وعقود عمل مزوّرة.

"ظهرت الهجرة غير النظاميّة، امتدادًا للهجرة النظاميّة، خاصّة في بداية التسعينيات من القرن العشرين، وتنامت بموازاتها شبكات التهريب والمتاجرة بالبشر. ولم تعد تقتصر على الرجال فحسب، بل طالت حتى النساء والأطفال"[23]. وتُعدّ قضيّة الهجرة غير القانونيّة وجهًا من وجوه إفرازات الفجوة التنمويّة بين الشمال

والجنوب، وما يرتبط بها من ظواهر سلبيّة؛ مثل: الاتّجار بالبشر والأعضاء البشريّة، والمخدّرات، والدعارة، والاستغلال الجنسيّ للنساء والأطفال، "وقد أدّت القيود التي فرضتها دول العالم على الهجرة القانونيّة، إلى تنشيط الهجرة غير القانونيّة"[24].

وترتّب على الهجرة غير النظاميّة نتائج عدّة سواء في الدول المستقبلة للمهاجرين والدول المصدّرة لهم، وقد تعاني الدول المستقبلة قصورًا في توفير الخدمات اللازمة، إضافة إلى تغيير الواقع الديموغرافي لكلا الطرفين؛ إذ يزيد عدد السكان في المناطق المستقبلة؛ ما قد يؤدّي إلى ظهور أزمة في السكن والخدمات، وعلى العكس في الدول المرسلة التي تشهد تناقصًا في عدد سكّانها.

"وللهجرة أيضًا تأثير في التركيبة السكانية من حيث النوع والعمر، ومن المتوقّع أن يساهم صافي الهجرة في تأجيل آثار شيخوخة السكان في المناطق المتقدّمة. ومع ذلك، من المتوقّع أن ترتفع نسبة الإعالة في المناطق المتقدّمة خلال العقود القادمة رغم تدفّق المهاجرين"[25].

أ – اللجوء

ظهر حقّ الإنسان في اللجوء قديمًا عند اليونان، وفي القرن الرابع الميلادي انتشرت هذه الظاهرة حين كان يطلب بعض الأشخاص اللجوء إلى الكنيسة هربًا من الإمبراطورية الرومانيّة. أمّا في العصر الحديث، فوجد مصطلح اللجوء طريقه إلى الدول الأوروبية بشكل كبير، خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية، ثمّ بعد احتلال فلسطين في العام 1948م. "وبالاقتراب من الزمن الأحدث نجد أنّ الأزمة السوريّة، ترتّب عليها عدد كبير من اللاجئين السوريّين إلى دول عربية ودول أخرى أوروبية"[26]. ووفق إحصائية للمنظمّة الدولية للهجرة في العام 2015م، قدّر عدد اللاجئين بنحو 65 مليون شخص حول العالم.

وقد نصّت اتفاقية جنيف الصادرة في 12/آب لعام 1949م على أنّ: "اللاجئ كلّ إنسان يخشى جدّيًا من تعذيبه أو اضطهاده بسبب دينه أو جنسيّته، أو جنسه، ووجد خارج بلاده قبل العاشر من كانون الثاني 1951م، بسبب أحداث وقعت في البلاد التي يحمل جنسيّتها".

أمّا في القانون الأساسي لمنظّمة الوحدة الإفريقية ضمن معاهدة 10 أيلول لسنة 1969م، فقد جاء: "أيّ إنسان اضطرّ إلى مغادرة مسكنه ووطنه واللجوء إلى مكان آخر، سواء أكان بسبب عدوان خارجيّ أو احتلال أو هيمنة أجنبيّة، أم بسبب حوادث تخلّ إخلالًا خطرًا بالنظام العامّ".

ب – الاتّجار بالبشر

جاء في بروتوكول: (منع وقمع ومعاقبة الاتّجار بالأشخاص) لعام 2000م: "الاتّجار بالبشر هو تجنيد أشخاص ونقلهم أو إيوائهم أو استقبالهم، بالتهديد بالقوّة، أو بشكل من أشكال القسر أو الاختطاف أو الاحتيال أو الخداع، أو إعطاء المبالغ النقديّة بهدف الاستغلال في جريمة"[27].

أمّا منظّمة العفو الدولية حديثًا، فعلّلت تجريم الاتّجار بالبشر بأنّه: "انتهاك حقوق الإنسان بما فيها الحقّ في السلامة الجسديّة والعقليّة والحياة والحريّة، وأمن الشخص، والكرامة، والتحرّر من العبوديّة، وحرّية التنقّل، والصحّة، والخصوصيّة، والسكن الآمن"[28].

من خلال هذين النصّين القانونيّين، يمكن القول إنّ "مصطلح الاتّجار بالبشر يتمثّل في أيّ عمل أو نشاط من شأنه انتهاك حقوق الإنسان، وإجباره على القيام بأيّ عمل قسرًا"[29]. وهو جريمة تعاقب عليها جميع القوانين والتشريعات المحلّية والدوليّة.

ج – تهريب البشر

تعني جريمة تهريب البشر: "الإدخال غير المشروع لشخص معيّن إلى دولة لا تعتبر موطنًا له، وهو ليس من المقيمين فيه، وذلك بهدف الحصول على المنفعة"[30]. "والعلاقة بين الهجرة غير النظاميّة وتهريب البشر علاقة طرديّة، إذ إنّ المهاجر غير النظاميّ يلجأ إلى الأشخاص القادرين على تهريبه وإدخاله إلى الدولة التي يقصدها، من خلال أيّ وسيلة يجدها المهرّبون مناسبة لمساعدة المهاجرين للدخول إلى دول أخرى"[31]. وفي هذا الصدد قدّر بعض المصادر أنّ "عائدات الهجرة عبر العالم تبلغ نحو 12 مليار يورو سنويًّا تذهب إلى عصابات الاتّجار بتهريب البشر"[32].

وبدراسة الفرق بين ظاهرتي تهريب البشر والاتّجار بهم، فإنّ تهريب البشر مصطلح يشير إلى قيام مجموعة من الأشخاص بتهريب أشخاص آخرين إلى دول هم ليسوا مواطنين فيها، وليس لديهم القدرة على دخولها بطرق نظاميّة، وذلك لقاء مبلغ ماليّ. أمّا الاتّجار بالبشر فهو استغلال مجموعة من الأشخاص والسيطرة عليهم بالقوّة أو الاحتيال والخداع، ونقلهم من بلد إلى آخر من أجل الحصول على منفعة مادّية.

د – قوارب الموت

أوّل ما يتبادر إلى الأذهان لدى قراءة مصطلح (قوارب الموت)، هو ذلك "المركب البسيط الذي لا يقوى على حمل مجموعة من البشر من مكان إلى آخر، فكيف له أن يجابه أمواج البحر وهو غير مزوّد بأقلّ المتطلّبات المتعلّقة بالحفاظ على حياة الإنسان الذي يستقلّه هروبًا من واقع صعب إلى رحلة مفادها الموت بحتميّة عالية جدًّا"[33]؟

ليست ظاهرة (قوارب الموت) أمرًا عشوائيًّا، بل جريمة منظّمة يرتكبها أشخاص يبحثون عن المال، ولا يأبهون بحياة الذين يحاولون الانتقال من دولهم إلى دول أخرى بحثًا عن حياه كريمة.

"وقد أصدرت المنظمة الدولية للهجرة تقريرًا أكّدت فيه أنّ أكثر من 33 ألف شخص غرقوا وهم يحاولون الوصول إلى شواطئ أوروبا خلال القرن الجاري؛ ما يجعل البحر المتوسط أكبر منطقة حدوديّة في عدد الوفيات بالعالم وبفارق كبير عمّا بعدها"[34].

هـ – النتائج الاقتصادية

أنتجت الهجرة غير النظامية العديد من الآثار الاقتصاديّة الإيجابية في الدول المستقبلة، كون الأيدي المهاجرة أصبحت أحد عناصر الإنتاج الاقتصاديّ، وبذلك استطاعت استغلال الموارد والإمكانات المتاحة لتحقيق نموّها الاقتصاديّ، وزيادة دخلها القوميّ. "ورغم ذلك عانت دول الاستقبال من تفاقم مشكلة البطالة بين مواطنيها، أحيانًا بسبب تزايد عدد المهاجرين، أو نتيجة عدم كفاية فرص العمل، وأحيانًا لتميّز المهاجرين وتمسّكهم بفرص العمل وقبولهم بمحفّزات مادّية أقلّ"[35].

"أمّا الآثار السلبية في الدول المصدّرة للهجرة، فهي أيضًا تشكّل مصدر قلق، ومنها ندرة الكفاءات من الحرفيّين والمزارعين في الدول الأصليّة، وبالتالي حدوث خلل مهنيّ"[36]. إضافة إلى غياب سياسات محلّية تعمل على بناء مشاريع اقتصادية تنمويّة تتيح فرص عمل جديده للشباب وتخفّف نسبة البطالة.

و – الآثار الأمنية

ظهرت ملامح تهديد الأمن العامّ للدول المستقبلة نتيجة عنف الأقلّيات، أو المظاهرات، أو الإضرابات المتكرّرة لتحسين شروط العمل التي يقوم المهاجرون بها للحصول على حقوقهم، "وقد تستغلّ الجماعات الإرهابيّة ظاهرة الهجرة للتسلّل إلى هذه الدول، والقيام بأعمال تزعزع أمنها"[37].

أمّا الدول التي تصدّر المهاجرين، فقد "انتشرت فيها مكاتب التسفير الوهميّة التي تقوم بالنصب على الحالمين بالهجرة، للحصول على مبالغ ماليّة كبيرة منهم. كذلك زادت التعاملات بالسوق السوداء وجرائم النقد، وجرائم التهريب وغسيل الأموال، وغيرها من الجرائم"[38].

إنّ العامل الأمنيّ الناتج من الهجرة، خاصّة الهجرة غير النظاميّة، بات هاجسًا أمنيًّا يقلق الدول الاوروبيّة، إذ اتّخذت العديد من الإجراءات في محاولة للحدّ منها، خصوصًا بعد الحرب السوريّة، وارتفاع أعداد اللاجئين الهائلة التي تدفّقت للحدود الاوروبيّة التي بلغت ذروتها عام 2015م.

وعليه، تواجه الدول الأوروبية اليوم إشكالات كبرى تتعلّق بالأزمات والحروب المنتشرة حول العالم واللاجئين الوافدين منها، وخشيتها من الإرهاب، ونشوء العنصرية في مواطنيها، وتهديد أمنها.

يضاف إلى ذلك تصعيد الخطاب التحريضيّ ضدّ المهاجرين من قبل الأحزاب اليمينيّة المتطرّفة، التي سعت إلى الاستفادة من بعض الأحداث والعمليّات الإرهابيّة التي يقوم بها بعض المتشدّدين، والتي أورثت حالة رعب داخل المجتمعات الأوربيّة، وأثّرت سلبًا في حياة المهاجرين.

ثالثا: توتّرات الاندماج مع المجتمعات الحاضنة

حين يهاجر الإنسان تحت أيّ ظرف أو دافع، يسعى للبحث عن سبل الاستقرار في البلاد الغريبة، نظرًا لتباين المفاهيم والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والثقافية والسياسية.

أ – سمات الاندماج والانصهار

إنّ مشكلة الاندماج تأتي في طليعة ما يواجه المهاجر في المجتمع الآخر، فهو يحمل معه موروثًا ثقافيًّا ومنظومة من القيم والعادات، تطرحه أمام تساؤلات عدّة، في مقدّمتها: كيف ستتفاعل هذه المخزونات الثقافيّة والاجتماعيّة والدينيّة والأخلاقيّة، مع عادات المجتمعات المضيفة ومفاهيمها بكلّ ما تحمله من اختلاف؟

"كون الإنسان مهاجرًا مسألة ليست سهلة، بل هي نوع من المحنة عليه أن يجتازها وينتصر عليها، فهو مقاتل في حركة مستمرّة وتفاعل متّصل، يدافع ويتقدم ويتراجع، يفكّر ويخطّط، وينجح ويخفق، وله – في النهاية – أن يكتسب ميزات المقاتل وعيوبه باحثًا عن حياة مادّية أكثر رخاء، وحياة اجتماعيّة أكثر رفاهية، في ظلّ اقتصاديّات محليّة لا تبدو مشجّعة للباحثين عن عمل بدخل يوازي طموحات البعض مع تزايد البطالة ونوعيّتها باطّراد"[39]. إذن تواجه المهاجرين مشكلة التكيّف مع الأوضاع القانونيّة والاجتماعيّة والثقافيّة الجديدة، فيجدون أنفسهم في أحوال كثيرة، في حيرة بين التمسّك بمقوّمات الهويّة الأصليّة، وبين متطلّبات المواطنة الجديدة في مجتمعات الهجرة.

وتعدّ الممارسات العنصريّة والعدائيّة أخطر ما يتعرّض له المهاجرون؛ ما يشعرهم بأنّهم غرباء وسط آخرين ينظرون إليهم بخوف وشكّ أحيانا، وباستعلاء وسخرية أحايين أخرى، وهذا ما يكرّس مشاعر الإحساس بالدونيّة، وبأنّهم مرفوضون ومهمّشون، ومعرّضون للطرد في أيّ لحظة.

وممّا يواجه المهاجرين أيضًا تعدّد الأطراف المحلّيين والإقليميّين الذين يتجاذبونهم، والذين يسعى بعضهم لتأطيرهم في بوتقات مذهبيّة أو عقائدية أو حزبيّة، لا تلائم هويّاتهم وتطلّعاتهم.

ونعرض في ما يأتي، مستويات التكيّف التي يعيشها المهاجرون، والتي تعكس مدى القدرة على مواجهة المعاناة التي يلاقونها:

لا شكّ أنّ للهجرة تداعيات اجتماعيةً وثقافية ونفسية، تختلف في درجاتها ومستوياتها سلبًا وإيجابًا بحسب ظروف كلّ مجتمع، وظروف كلّ مهاجر. فإذا كانت الهجرة تمثّل رحيلًا عن الوطن سعيًا وراء متطلّبات مادّية أو مهنيّة أو اجتماعيّة، فإنّ لها وجهًا آخر، يرتبط بمجموعة القيم والمبادئ التي يحملها المهاجر معه من وطنه، وتلك التي يلاقيها في بلد الهجرة.

يقاوم المهاجر حنينه للوطن، ويقلقه حزن ثقيل ودؤوب، وهذا الحنين يتوارثه الأبناء وأبناؤهم ممّن لا يعرفون الوطن الأمّ ولم يروه، فهناك في الذاكرة مكان لصورة هذا الوطن، وكأنّها موجودة في الجينات الموروثة. وهذا ما يدفع المهاجر إلى النفور من دار غربته، فيعبّر عن ذلك بالرفض أو النقد، أو بأيّ أسلوب آخر؛ فالمهاجر لم يأتِ من العدم، بل من مجتمع له تصوّراته للحياة وما بعد الحياة، وله معايير أخلاقية. ويزداد الاختلاف كلّما طالت المسافة الجغرافية بين البيئتين، وهذا الاختلاف هو ما يحكم العلاقات بين أبناء البلاد والمهاجرين؛ فيطلق كلّ منهما على الآخر أحكامًا قيميّة مستمدّة من مرجعيّته، ويزن الآخر بمعاييره المثاليّة الخاصّة، لا بمعايير بشريّة كونيّة جامعة. "والحال أنّ حكم أهل البلاد هو الأفعل؛ لأنّ المهاجر يحتاج إليهم، وهم غير محتاجين إليه بالدرجة نفسها؛ ولهذا يتحوّل النفور في بعض الحالات إلى احتقار من هنا، وكراهية من هناك، ولا علاج لهذه المسألة إلا الزمن الذي ينمّي في المهاجر قدراته على التكيّف"[40].

ويرتبط تفاعل المهاجر ومجتمع الهجرة، بالخلفية الثقافية والحضارية لنشأته الأوّلية التي شكّلت وجدانه، وهيّأت نضوجه الفكريّ والنفسي، وترتبط نتيجة هذا التفاعل بمدى ما يتخلّى عنه المهاجر من زاد ثقافيّ ورصيد اجتماعيّ حمله معه من موطنه، وقدرته على تبنّي معايير معيشيّة جديدة، يطمح أن تحقّق له إرضاءً نفسيًّا يتمثّل في إعادة التقدير للنفس، وتقبّل أنماط جديدة للحياة.

وبعد صعود الرؤية الافتراضيّة في عصر العولمة، من زيادة التداخل بين ما هو وطنيّ وما هو أجنبيّ، كان ينبغي للفكرة الوطنية أو القومية أن تتراجع، ويصبح المهاجر والمهاجر إليه أقلّ حساسية من حيث الانتماءات المكانيّة أو العرقيّة، ولكن غالبًا ما تعصف بهم الأهواء السياسية والأيديولوجية، وتصاعد الكراهية والتمييز العنصريّ.

وفي هذه الأجواء يواجه المهاجرون صعوبات التعايش، ويعانون الانقسام النفسيّ، ومشكلات التكيّف الناجمة عن انتقال الهويّة، ولعلّ بعضهم حافظ على تقاليده مع بعض المواءمة والأوضاع في مجتمعات الهجرة، ونجح بعضهم في الاندماج نسبيًّا، وبالمقابل هناك شريحة أخرى تمّ استيعابها وذوبانها بشكل شبه تامّ، وآخرون عزلوا أنفسهم داخل ما يسمّى (الجيتو الاختياري)، الذي يعني "الانعزال طوعًا أو كرهًا لمجموعات

من الأفراد عن المجتمع المحيط، وتقليل نقاط حالات التفاعل والتعايش وإيّاه إلى أقلّ حدّ ممكن، عن طريق قصر ممارسة الحياة العادية داخل هذا الجيتو؛ فالتعليم، والتجارة، والزواج، والثقافة، والتديّن، وكلّ مجالات العيش تتمّ بينيًّا وحصريًّا، والعلاقة بالمحيط الخارجي تميل إلى أن تكون غير ودّية من الطرفين"[41].

ويعود سبب هذا الانعزال إلى عجز المهاجرين عن التكيف والتأقلم مع عادات المحيط الخارجيّ وتقاليده؛ فيلجأون إلى التجمّعات والتكتّلات في منطقة سكنيّة محدّدة، ويكاد تعاملهم اليوميّ فيها يكون مقصورًا على مجموعة من أقرانهم، بحيث تظلّ فرص اختلاط أفرادها وتفاعلاتهم وتعاملاتهم اليوميّة المعيشيّة إزاء الآخرين في الحدود الدنيا خارج هذه الدائرة الضيّقة. "فأفراد هذه الفئات يعيشون في غربتهم مع أوطانهم الأصلية وجدانيًّا وشعوريًّا، برغم الانقطاع الجغرافيّ، وليس لهم علاقة بالسياسة المحلّية التي تدور في المحيط الغريب الذي يعيشون فيه"[42].

وهذه الشريحة من المهاجرين، تعتقد أنّ العزلة تمنحهم شعورًا بالأمن الجماعيّ، ولكنّه شعور آنيّ يمتد بتأثيره سلبًا إلى أبناء الجيل الثاني، ويعرقل عمليّة اندماجهم في المجتمعات التي ولدوا فيها، ما يعرّضهم للتهميش، الذي "يحدث عندما تفقد مجموعة من المهاجرين الاتّصال بثقافتها وتقاليدها؛ لسبب أو لآخر، وتبقى في الوقت نفسه خارج الاتّجاه السائد بالمجتمع المضيف، وتصبح أمام وضع الشخص المهمّش، أو المجموعة المهمّشة، بين ثقافتين، وليست جزءًا من أيّ منهما"[43].

ويميل أغلب المهاجرين – ولا سيّما العرب – إلى تقبّل الاندماج من خلال نقد أوضاع الأوطان الأمّ، والمقارنة بينها وبين مجتمع الهجرة الذي انخرطوا فيه، "وهكذا نشأ وضع جديد، وقف فيه المهاجر عن استعادة الوطن من ذاكرة الطفولة ومن مشاعر الحنين، وبدأ يفكّر فيه بعقل الرجل المسؤول"[44].

ويتّسم مصطلح (الاندماج) ببعض الغموض، وبتعدّد معانيه ودلالاته، وتعدّد الأطراف المعنيّين به؛ فهو يستدعي التكامل، أو نوعًا من الثنائية التوفيقية. وقد عرّفته منظمة الهجرة الدولية (IOM) على نحو شامل جامع يميل إلى الخلط بين الاندماج والاستيعاب؛ فهذا التعريف يقول: "إنّ الاندماج يتضمّن عمليّة ذات اتجاهين؛ للمواءمة المتبادلة بين المهاجرين والشعوب المضيفة، وفي الوقت الذي يتعلّم كلّ طرف من ثقافة الآخر المغايرة، فإنّ الفرد أو المجموعة العرقيّة يبقيان بعض ميراثهما الثقافيّ، وفي مثل هذا الوضع، فإنّ المجتمعات المستقبلة، تظلّ هي المجموعة المهيمنة، في الوقت الذي تقبل فيه بوجود عدد من الأفراد من ذوي الانتماء العرقي المغاير، في إطار اجتماعيّ أكبر. إنّ استعارة بوتقة الانصهار، تعدّ مثالًا للمقاربة الاندماجيّة في احتواء المهاجرين؛ إذ يتوقّع أنّ المهاجرين الجدد سيذوبون في الهويّة العامّة، أو الهويّة المشتركة التي حدّد قيمها ومعاييرها الشعب المسيطر، وهو الذي طوّع ثقافات مميّزة عدّة؛ وصولًا إلى ثقافة

موحّدة في إطار استراتيجية الاندماج؛ لأن التضامن بين أفراد مجموعة عرقية ما، هو أمر معترف به، من حيث هو آلية للتوطن، والتكيف الناجح، أكثر منها علامة على سوء التكيف، وقد تلجأ الدولة إلى إصدار تشريع لضمان حماية حقوق أفراد ينتمون إلى أقليات؛ لتوفِّر فرصًا متساوية للجميع"[45].

يحمل المهاجر معه منظومة راسخة من الخصائص المميّزة، تحدّد بالتاريخ والطبيعة لمجتمعه وعقيدته وسياساته، فهل يسمح خيار الاندماج بالإبقاء على ثقافتها وتقاليدها الاجتماعية؟ وإلى أيّ مدى؟

يعني الاندماج الابتعاد عن الانعزال، والتخلّي الموروثات وتحويلها إلى سلوكيات إيجابيّة، بمشاركات فاعلة في الحياة العامّة، ويقوم بدور الجسر بين المجتمعات والمجتمعات الأصلية؛ "ومن هنا، فإنّ الاندماج في أحد معانيه، يدلّ على إحداث تفاعل بنّاء بين المكتسبات الثقافيّة والاجتماعيّة للمهاجر، والحضارة التي أصبح يعيش في ظلّها، بما ينفي كلّ تنابذ أو صراع، والإسهام المتجدّد في العطاء الإنسانيّ المتبادل، بالمزج الواعي بين ميراث المهاجرين الثقافيّ وميراثهم الاجتماعيّ، وحاضرهم المستجدّ، بما يتضمّنه من قيم وعادات وثقافات، وتعزيز التواصل الإيجابيّ"[46].

"وهذا المعنى لا يقتصر على مجال واحد، بل قد يتحقّق في مستوى دون آخر؛ فيكون على المستوى الثقافيّ أو المستوى الاجتماعيّ مثلا، وقد يكون أسهل في المستوى الاقتصاديّ، المشاركة الفعليّة في الدورة الاقتصاديّة، ومن الممكن أن يتمّ في النسقين التعليميّ والثقافيّ، من دون قطع الارتباط بالجذور الاجتماعيّة والحضاريّة الأصليّة، بالمحافظة على الأساليب التربوية الوطنية"[47].

وقد يسمح نمط الاندماج للمهاجر بالمشاركة الفعليّة في مختلف مجالات الحياة في بلاد المهجر، وفي الوقت ذاته يتمكّن من الاحتفاظ بشخصيّته الحضارية الأصلية وثقافته ولغته ومنظومة القيم والعادات التي ورثها عن مجتمعه الأصليّ؛ "فهو في سعيه للاندماج في مجتمع المهجر، يحتفظ بجانب كبير من مقوّمات الإرث التاريخيّة والثقافيّة والدينيّة في وطنه الأمّ؛ ولذا يوصف الاندماج في هذه الحال بأنّه نصف استيعاب"[48].

أمّا الاستيعاب أو الانصهار، فيصبح المهاجر معه جزءًا لا يتجزّأ من المجتمع الذي هاجر إليه ويعيش فيه، وبات يعدّه وطنه، وينشغل بهمومه ومشكلاته، وينفصل تمامًا عمّا يحدث في وطنه، وماضيه وتاريخه وثقافته. ويسعى لإقامة علاقات اجتماعيّة وعائليّة خارج مجموعته الإثنيّة التي يتحدّر إليها، بل يتخلّى عن ارتباطه وعلاقته بها؛ لأنّه يرى فيها عائقًا دون الانطلاق في حياته الجديدة التي اختارها. وهذا النمط من الانصهار تتبنّاه فرنسا؛ بحيث يحدث الاستيعاب حينما ترى مجموعة ما، أنّ النقاء الثقافيّ أو العرقيّ، تواجهه عقبات متعددة، والنتيجة في النهاية أقلّ أهمّية من عائد القبول من المجتمع المضيف وميزاته،

وتكون هذه المجموعة مستعدّة للتخلّي عن جانب كبير من مقوّمات هويّتها الثقافية؛ بوصف ذلك ثمنًا تدفعه مقابل الانتماء إلى المجتمع المضيف.

إنّ بلوغ حال الانصهار، أشبه عند بعض الناس بعمليّة جراحيّة مؤلمة؛ فهي بمنزلة بتر جزء من الذات، ويتمثّل ذلك بسلسلة من الحرمانات التي تتناول المكوّنات الأساس لذات المهاجر؛ فالهجرة تحرمه من لغته؛ فتتعطّل قدرته على استعمال الإشارات والعلامات التي تربط لسانه وسمعه بالناس، والتي كانت تشكّل هويّته؛ فيصبح شبه مجهول الهويّة؛ وتحرمه من يقينه بقيمه الثقافيّة. أمّا قوّة الصدمة الثقافية للذوبان، فتختلف تبعًا للعمر، والجنس، والمعتقدات، والطبقة الاجتماعية، وبحسب شخصيّة المهاجر وأسباب هجرته، واستعداده النفسيّ للانصهار.

وقد خلص كوفي أنان، الأمين العام السابق للأمم المتحدة، في تقريره الذي رفعه إلى الجمعية العامّة عن أوضاع الاندماج إلى القول: "يرتبط نجاح الهجرة بالتكيّف المتبادل بين المهاجرين والمجتمع المضيف؛ ولتحقيق ذلك، يزداد باطّراد الاعتراف بأنّ تعزيز اندماج المهاجرين كلما كان مبكرًا في أثناء فترة إقامتهم في بلد المقصد، كان ذلك في مصلحة المهاجرين والمجتمع المضيف، ويعدّ حجر الزاوية في الاندماج: المعاملة المتساوية، وحظر أي نوع من أنواع التمييز، ويعتمد الاندماج على عوامل كثيرة؛ من بينها: القدرة على التخاطب باللغة المحلّية، وإمكانية الوصول إلى سوق العمل، والإلمام بالعادات، وقبول قيم المجتمع المضيف، وإمكانية مرافقة أفراد الأسرة المباشرين، أو جمع شتاتهم، وإتاحة فرص التجنّس، وعندما يكون للمهاجرين الحقّ في الخدمات الاجتماعية، تكون حقوقهم – من حيث هم عاملون – محميّة، وُتيسَّر عمومًا عمليّة اندماجهم، وقد تعرض الحكومات خدمات خاصّة، أو برامج للمساعدة في اندماج المهاجرين، ويستطيع المجتمع المدنيّ أن يساعد في تشجيع الاندماج، ونشر المعلومات عن الخدمات المتاحة للمهاجرين، وتقديم هذه الخدمات عند الاقتضاء، وتعزيز مشاركة المهاجرين في توجيه عملية الاندماج... وبالمقابل، تقع على عاتق المهاجرين – مثلهم مثل أيّ شخص مقيم في البلد المضيف – مسؤوليّة فهم القوانين والقيم في المجتمع المضيف، والتزام احترام حقوق الآخرين، وهويّتهم الثقافية أيضًا، على نحو خاصّ، وعلى المجتمع المضيف ذاته، أن يحترم التنوع الثقافيّ وحقوق المهاجرين، ويمكن تعزيز التفاهم المشترك، عن طريق الاستفادة من فرص الإثراء الاجتماعيّة والثقافيّة التي تتيحها الهجرة[49].

ب – دور العوامل الثقافية والاجتماعية في الاندماج

إنّ اندماج أيّ أقلّية في مجتمع آخر، هو صورة من صور الصيرورة الاجتماعية، بحيث تعتمد على الكثير من العوامل المتّصلة بالمهاجر والمجتمع الجديد. فتحقيق عملية التكيّف، يرتبط بمدى تقبّل المهاجر، وما يكتسبه من برامج التأهيل والدمج.

وتعتمد قدرة المهاجر على الاندماج في المجتمع المضيف، على عوامل عدّة؛ وفي مقدّمتها: الموروثات الثقافيّة والاجتماعيّة، وبطبيعة الحال يختلف تأثير كلّ من هذين العاملين من شخص إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى، ويصعب التعميم في التعامل مع فئات المهاجرين على أنّهم مجموعة واحدة متجانسة.

عندما يأخذ الإنسان القرار بترك وطنه ليعيش في بلد آخر، فإنّه يكون مثل الشجرة التي تقتلع من الأرض، وقد نبتت فيها الجذور وترعرعت فيها أوراقها وثمارها، ثمّ تقوم بزراعتها في مكان آخر وتربة جديدة وبيئة جديدة مختلفة عن بيئتها، والشجرة في موقعها الجديد تحتاج إلى الوقت؛ كي تتأقلم مع البيئة الجديدة وتتكيّف معها، وقد تنجح أو ربما لا تنجح. "وقد يضع الشابّ في خطّته المستقبليّة الزواج من بريطانية تحقيقًا للاستقرار النفسيّ في بلاد المهجر، غير آبه بمشاكل من نوع التنشئة التي ستقابل أبناءه، وغير مستبعد احتماليّة الإقامة الدائمة"[50].

ومهما تعدّدت أسباب الهجرة ودوافع الاغتراب؛ فإنّ السبب الرئيس في أغلب الأحوال، يعود إلى مؤثّرات اقتصاديّة واجتماعيّة بالدرجة الأولى؛ فليس هناك سبب أو دافع أقوى من الصعوبات المعيشيّة اليوميّة التي تضطرّ الإنسان إلى مغادرة أرضه ومفارقة أهله؛ ليضرب في بقاع العالم مهاجرًا.

وقد يبدو بالدرجة الثانية لأوّل وهلة، أنّ من المعتاد أن يلتمس المهاجرون والمغتربون العون من أبناء وطنهم الموجودين معهم في مواطن الهجرة والاغتراب ممّن سبقوهم إليها، وقد يبدو من البدهيّ أيضًا، أن يسود روح التعاون والتضامن بين المهاجرين من البلد نفسه؛ وهذا يساعدهم على تخفيف مشكلات الغربة ويقلّل معاناتهم.

"تعود أكثر أسباب عزلة المهاجرين العرب؛ إلى عوامل ومؤثّرات ثقافية واجتماعية، ناجمة عن صعوبة عمليّة التثاقف؛ ونعني بالتثاقف عمومًا التغييرات التي تحدث عندما تصبح مجموعتان من الأفراد، من ذوي الثقافات المختلطة، على اتصال مباشر، ويحدث تفاعل بينهما؛ يؤدّي إلى تغييرات لاحقة في الأنماط الثقافيّة الأصلية، لإحدى المجموعتين أو كلتيهما"[51]؛ فالاندماج الثقافيّ يعني أن يقيم المهاجر علاقة ارتباط بين ماضي مجتمع الهجرة ومستقبل هذا المجتمع.

ولأنيس منصور في كتابه (الذين هاجروا) تفسير لهذه الظاهرة المتناقضة الأبعاد، يعبّر عنها بقوله: "إنّ المصريّين في كلّ مكان؛ مثل كلّ الأقليات، يتجمّعون معًا، ويتمسّكون ببعضهم، إنّهم كتلة واحدة؛ ولأنّهم كتلة فهم مقيّدون بعضهم إلى بعض؛ والمعنى واضح، فليس لهم من الكتلة إلّا مظهرها، كما أنّ ثقلها معيق للحركة، وهو ليس مصدر مساندة؛ ولهذا يعاني المهاجر التشتّت بين زمنين ومكانين؛ فيجعله هذا في حال من القلق والترقّب الدائمين"[52].

أما الكاتب محمود عودة، فلديه تفسير آخر؛ ففي تقديره أنّ "ظاهرة ضعف التضامن بين المصريّين في الخارج، لها جذورها الممتدّة من الواقع المعيش في المجتمع المصريّ؛ فالمصريّ المغترب خارج من مجتمع الزحام، وقد تأثر بثقافة الزحام التي يسعى في إطارها كلّ فرد للبحث عن موطئ قدم له، بغضّ النظر عن الآخر، وغالبًا ما تكون هذه الثقافة مشحونة بالعداوة نحو الآخر"[53].

وينطبق ذلك بصفة عامّة على المهاجرين العرب، وإن بدرجات متفاوتة، ولعلّ أحد تفسيرات ذلك يعود إلى حداثة ظاهرتي الهجرة والاغتراب بالنسبة إلى كثير من العرب، فقد خرج أبناؤهم من بيئة وطنية تتّسم بسلوكيات الشكّ المتبادل في بعض المراحل؛ فاختلطت فيها القيم، وغلبت فيها العوامل والمؤثّرات المادّية. وتعتمد طبيعة تفاعل المهاجر مع أوضاعه الجديدة في المجتمع المضيف، على مجموعة متنوّعة من العوامل؛ أبرزها: العمر، والتعليم، والمهنة، والوضع العائليّ، والمعرفة السابقة باللغة، والخبرة بين الثقافات، ودوافع الهجرة، والتحسينات المرجوّة...

ومن أهمّ أسباب التكيّف أن يتقن المهاجر لغة البلاد الجديدة، ويستخدمها في حياته اليوميّة، ولهذا أثر كبير في إعادة بناء شخصيته؛ لأنّ اللغة ناقلة للأفكار والمضامين ومترجمة لها، وتعكس تصوّر أهلها للواقع وشؤونه، وتبني التصوّرات العقليّة للمتكلّمين بها.

واستكمالًا لذلك، نلاحظ أنّ أغلب المهاجرين الذين يتمتّعون بدرجات علميّة عالية ومهارات لغويّة فذّة، يواجه مشكلات أقلّ تعقيدًا وأخفّ وطأة في الاندماج، ولا شكّ أنّ كثيرًا من المهاجرين العرب أثبت وجوده في المهجر علميًّا وفنيًّا وسياسيًّا، وحقق نجاحات هائلة في المهجر.

والملاحظ أيضًا أنّ المهاجر العربيّ لا يميل غالبًا إلى تغيير عاداته الاجتماعيّة، بالرغم من تطوّر حياته؛ فهو يظلّ محافظًا على أغلب العادات والتقاليد التي نشأ عليها وتجذّرت في شخصيّته.

"والمهاجرون العرب في الخارج، وإن كانوا يفضّلون عادةً الزواج من بنات بلادهم الأصليّة، فإنّ نسبة كبيرة منهم، تتزوّج من الأجناس الأخرى من دون أن تجد في ذلك حرجًا، ومن دون أن يضعف ذلك انتماءها"[54].

ومن ذلك مثلا: أنّ محافظة الحسكة (الواقعة في شمال شرقي سوريا)، هاجرت جاليات صغيرة منها إلى الخارج، خصوصًا إلى السويد، وقد شكّلت الهجرة نوعًا من الحلم بالنسبة إلى الكثير من جيل الشباب، ممّن هاجروا واستقرّوا هناك؛ فحقّقوا حلمهم. يقول والد إحدى الفتيات عن سبب إصراره على أن يكون زواج ابنته من مسقط رأسه، خصوصًا أنّها ولدت في السويد: "إذا زوّجت ابنتي لأجنبيّ، فسأفقدها تمامًا، أنا لا أريد حفدة غرباء عن بيئتي الأولى"[55].

خلاصة القول

إنّ الاندماج في أنماط الحياة الجديدة الانتقالية للمهاجرين داخل المجتمعات الأوربية، ترتبط صيرورته ونتاجه في النهاية بمدى التلاقي بين الاستعداد النسبيّ للاندماج أولا، وثانيًا ما تسمح به الأوضاع والظروف في بيئة الدولة المضيفة التي هاجر إليها من عوامل ميسّرة أو معرقلة لهذا الاندماج.

تجدر الإشارة إلى أنّ صعوبات الاندماج لا تواجه المهاجرين العرب وحدهم فحسب، بل تواجه أيضًا الجنسيّات المهاجرة كافّة، أيًّا كانت جذورها وانتماءاتها الأصلية كالهنود والأفارقة المهاجرين إلى دول الخليج العربيّ، والصينيّين المهاجرين إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وغيرهم. وقد بيّنت عمليّات تحليل ظواهر الاندماج الاجتماعيّ والاندماج الثقافي للمهاجرين في المجتمع المضيف، أنّ المهاجرين يكون أداؤهم أفضل في المجتمعات الداعمة لهم اجتماعيًّا وسياسيًّا، من تلك التي تسمح لهم بالتكيّف وفقًا لاستجابتهم الشخصيّة؛ لذا ينبغي أن تقوم الحكومات بحمايتهم من التمييز ، والعنصريّة، والكراهية، والعنف، ولا سيّما عن طريق اتّخاذ تدابير فعّالة لحمايتهم من انتهاكات حقوق الإنسان، وسوء المعاملة.

"ومن المهمّ أيضًا، التأثير في التصوّرات العامة المتعلّقة بالمهاجرين، من خلال تبنّي استراتيجيات اتّصال توضح مدى توافق سياسات الهجرة الحاليّة، وتشرح احتياجات المجتمع، وقدرته على استيعاب المهاجرين واندماجهم، وهو أمرّ مهم جدًّا لإقناع أفراد المجتمع المضيف بحاجة مجتمعهم إلى هذا المهاجر والإسهام الذي يقدمه، وينبغي أن تشكّل الاستراتيجيّات الرامية إلى إدارة التنوّع وتعزيز التعلّم الشامل لثقافات عدة، جزءًا لا يتجّزأ من أيّ سياسات هجرة"[56].

هوامش البحث

[1] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. (بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، 2005م) ص460.

[2] كلوجمان، جني؛ وآخرون. مترجم، تقرير التنمية البشرية 2009 – التغلب على الحواجز قابلية التنقل البشري والتنمية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2009م) ص211.

[3] سويعدي، نجيب. إدارة سياسة الهجرة وعلاقتها بصناعة القرار المحلي: دراسة مقارنة بين الولايات المتحدة الأمريكية، كندا وفرنسا، (ورقة: جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2012م) ص17.

[4] سويعدي. م. ن. ص18.

[5] Immigration Timeline: A timeline showing forces behind immigration and their impact on the immigrant experience,The Statue of Liberty- Ellis Island. https://www.libertyellisfoundation.org/immigration-timeline

[6] Jef Huysmans، "The European Union and the securitization of migration". Journal of Common Market Studies 38, no.5، December 2000، pp 751 – 777.

[7] Christian Dustmann and Tommaso Frattini، Immigration: The European Experience، Discussion Paper Series، University College London: Centre for Research and Analysis of Migration Department of Economics، No 2211/: p4 – 7.

[8] Colin Bundy، Migrants، refugees، history and precedents، Forced Migration Review، no. 51 (Jan 2016). (http://www.fmreview.org/destination-europe/bundy)

[9] مليون لاجئ ومهاجر يفرون إلى أوروبا في عام 2015م، المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، تاريخ النشر 2015/12/23م. (http://www.unhcr-arabic.org/567a14086)

[10] فياض، هاشم نعمة. إفريقيا – دراسة في حركات الهجرة السكانية. ليبيا: مركز البحوث والدراسات الإفريقية، 1992م. ص 102

[11] فياض. م. ن. ص 102.

[12] بنعتو، محمد. "إشكالية الموارد البشرية والهجرة السرية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية "فكر"، 4، 2007م، ص26.

[13] فياض. م. س. ص112.

[14] فياض. م. ن. ص112.

[15] التقرير الإقليمي لهجرة العمل العربية 2006م. القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 2006م.

[16] مرسي، مصطفى عبد العزيز. قضايا المهاجرين العرب في أوروبا. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط2، 2012م ص172.

[17] **انظر مقدمة دراسة:**
R.E. Bilsborrow، Graeme Hirgo، A.S. Oberai and Hania Zlotnik. International Migration Statistics. Geneva: International Labor Office، 1997.

[18] الخشاني، محمد. الهجرة الدولية: الواقع والآفاق. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011م. ص11.

[19] الخشاني. م. ن. ص12.

[20] European Union Agency for Fundamental Rights. Handbook on European Law Relating to Asylum، Borders and Immigration. 2015، p23.

[21] Khalid Koser. Irregular migration، state security and human security. A paper prepared for the Policy Analysis and Research Program of the Global Commission on International Migration، GCIM، September 2005، p6.

[22] السامرائي، خليل؛ طه، عبد الواحد؛ مطلوب، ناطق. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2000م. ص81.

[23] الخشاني. م. س. ص19.

[24] مرسي. م. س. ص146.

[25] الهجرة الدولية والتنمية: تقرير الأمين العام، الجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة 68، البند (21/هـ) من جدول الأعمال المؤقت، التنمية والترابط، 2013م.

[26] عبد الشهيد سنان، "حقوق وواجبات الدولة المضيفة للاجئ الإنساني" مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والإدارية، العراق، المجلد 2، العدد 13، 2009م. ص298.

[27] بروتوكول منع وقمع ومعاقبة الاتجار بالبشر، وبخاصة النساء والأطفال المكمل لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية، الجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة الخامسة والخمسون: البند 105 من جدول الأعمال 2001/1/8م. ص34.

[28] الرويلي، علي. جهود جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية في مجال مكافحة الاتجار بالبشر. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2009م، ص6.

[29] علي، عادل. الاتجار بالبشر بين التجريم وآليات المواجهة، الرياض: مركز الدراسات والبحوث، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2012م، ص70.

[30] السراني، عبد الله. العلاقة بين الهجرة الغير مشروعة وجريمة تهريب البشر والاتجار بهم. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2010م، ص105.

[31] "مكافحة الهجرة غير المشروعة". مجلة الأمن والحياة، الرياض، العدد 357، شباط 357، شباط 2012م، ص59.

[32] حامد، نصر. "إشكالية الهجرة إلى الاتحاد الأوربي"، القاهرة: مجلة السياسة الدولية، العدد 159، كانون الثاني/ يناير، 2005م. ص189.

[33] الحاج، عبد. "قوارب الموت: عصابات التهريب المنظمة تتقاسم المهاجرين بحرًا وبرًّا ولكل مهاجر قصة،" مجلة دلتا نون، دمشق – لندن، العدد 1، 2014م، ص2.

[34] "قوارب الموت.. أحلام غارقة في مياه البحر المتوسط"، قطر: صحيفة الشرق، 26 نوفمبر 2017م.

[35] ساعد، رشيد. واقع الهجرة غير الشرعية في الجزائر من منظور الأمن الإنساني. الجزائر: جامعة محمد خضيرة بسكرة، 2012م، ص55.

[36] ساعد. م. ن. ص57.

[37] عواد، رياض. هجرة العقول. دمشق: دار الملتقى للطباعة والنشر، 1995م، ص70.

[38] عواد. م. ن. ص71.

[39] جزائري، محمد. "سعوديون في المهجر". صحيفة الشرق الأوسط. لندن: الإثنين 16 ذو القعدة 1423هـ، 20 يناير، 2003م، العدد 8819.

[40] زيتوني، لطيف. الغرب بعيون عربية. الكويت: كتاب العربي، وزارة الإعلام، نيسان/أبريل 2005م. ص131.

[41] انظر: الحروب، خالد. "الجاليات العربية في الغرب: نحو تفكيك عقلية الجيتو الاختياري بعد أحداث سبتمبر 2001". مجلة شؤون عربية، العدد

109، القاهرة: ربيع 2002م. ص52 – 60.

[42] الحروب. م. ن. ص52.

[43] Lee Driedger، The Ethnic Factor: Identity in Diversity، Ryerson Series in Canadian Sociology. (Toronto: McGraw Hill Ryerson، 1989. pp 329 – 331.

[44] بودون وف. بوريكو. المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1986م. ص50 وما بعدها.

[45] انظر هذا التعريف الذي ورد في التقرير السنوي لمنظمة الهجرة الدولية:
International Organization for Migration (IOM)، World Migration Annual Report، 2005، pp 322 – 324.

[46] مرسي. م. س. ص59.

[47] طعمة، خميس. الهجرة المغاربية في ضوء التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بأوربا: تجربة الجيلين الثاني والثالث. بحث مقدم إلى الندوة العلمية المعقودة بتونس في أيار/مايو 1995م.

[48] مهدي، محمد عاشور. "الوجود اللبناني في إفريقيا: قضايا الماضي والواقع وآفاق المستقبل"، في ندوة (المغتربون العرب في المهجر الإفريقي)، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة: 14 – 2002/6/15م.

[49] تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، الهجرة الدولية والتنمية رقم (871/A/60) للجمعية العامة بتاريخ 2006/5/18م، (النص العربي)؛ الأشقر، أحمد. من الشرق والغرب. القاهرة: مكتبة الآداب، 1992م. ص174 – 175.

[50] جزائري. صحيفة الشرق الأوسط. م. س.

[51] في هذا المعنى انظر:
Miltom Myran Gordan، Assimilation in American Life: The Role of Race، Religion and National Origins. New York: Oxford University Press، 1964. p132.

[52] منصور، أنيس. الذين هاجروا. القاهرة: دار الشروق، 1988م.

[53] عودة، محمد. التكيف والمقاومة: الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1995م.

[54] الأشقر. م. س. ص175.

[55] صحيفة الحياة. لندن: 2005/9/15م.

[56] تقرير الأمين العام للأمم المتحدة. الهجرة الدولية والتنمية. رقم (871/A/60) للجمعية العامة بتاريخ 2006/5/18م، (النص العربي)، ص99.

مراجع البحث

أ – المراجع العربية

1- الأشقر، أحمد. من الشرق والغرب. القاهرة: مكتبة الآداب، 1992م.
2- بودون وف. بوريكو. المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1986م.
3- الخشاني، محمد. الهجرة الدولية: الواقع والآفاق. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011م.
4- الرويلي، علي. جهود جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية في مجال مكافحة الاتجار بالبشر. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2009م.
5- زيتوني، لطيف. الغرب بعيون عربية. الكويت: كتاب العربي، وزارة الإعلام، نيسان/أبريل 2005م.
6- ساعد، رشيد. واقع الهجرة غير الشرعية في الجزائر من منظور الأمن الإنساني. الجزائر: جامعة محمد خضيرة بسكرة، 2012م.
7- السامرائي، خليل؛ طه، عبد الواحد؛ مطلوب، ناطق. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2000م.
8- السراني، عبد الله. العلاقة بين الهجرة الغير مشروعة وجريمة تهريب البشر والاتجار بهم. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2010م.
9- سويعدي، نجيب. إدارة سياسة الهجرة وعلاقتها بصناعة القرار المحلي: دراسة مقارنة بين الولايات المتحدة الأمريكية، كندا وفرنسا، (ورقلة: جامعة
10- قاصدي مرباح ورقلة، 2012م).
11- علي، عادل. الاتجار بالبشر بين التجريم وآليات المواجهة، الرياض: مركز الدراسات والبحوث، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2012م.
12- عواد، رياض. هجرة العقول. دمشق: دار الملتقى للطباعة والنشر، 1995م.
13- عودة، محمد. التكيف والمقاومة: الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
14- فياض، هاشم نعمة. إفريقيا – دراسة في حركات الهجرة السكانية. ليبيا: مركز البحوث والدراسات الإفريقية، 1992م.
15- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. (بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، 2005م).
16- مرسي، مصطفى عبد العزيز. قضايا المهاجرين العرب في أوروبا. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط2، 2012م.
17- منصور، أنيس. الذين هاجروا. القاهرة: دار الشروق، 1988م.

ب – الدوريات العربية

1- صحيفة الحياة. لندن: 2005/9/15م.
2- صحيفة الشرق الأوسط. لندن: الإثنين 16 ذو القعدة 1423هـ، 20 يناير، 2003م، العدد 8819.
3- صحيفة الشرق، قطر: 26 نوفمبر 2017م.
4- مجلة الأمن والحياة، الرياض، العدد 357، شباط 357، شباط 2012م.
5- مجلة السياسة الدولية، القاهرة: العدد 159، كانون الثاني/ يناير، 2005م.
6- مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية "فكر"، 4، 2007م.
7- مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والإدارية، العراق، المجلد 2، العدد 13، 2009م.
8- مجلة دلتا نون، دمشق – لندن، العدد 1، 2014م.
9- مجلة شؤون عربية، العدد 109، القاهرة: ربيع 2002م.

ج – تقارير وندوات دولية

1- التقرير الإقليمي لهجرة العمل العربية 2006م. القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 2006م.

2-تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، الهجرة الدولية والتنمية رقم (871/A/60) للجمعية العامة بتاريخ 2006/5/18م، (النص العربي).
3-تقرير الأمين العام، الجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة 68، البند (21/هـ) من جدول الأعمال المؤقت، التنمية والترابط، 2013م.
4-الجمعية العامة للأمم المتحدة، الدورة الخامسة والخمسون: البند 105 من جدول الأعمال 2001/1/8م. ص34.
5-طعمة، خميس. الهجرة المغاربية في ضوء التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بأوربا: تجربة الجيلين الثاني والثالث. بحث مقدم إلى الندوة العلمية المعقودة بتونس في أيار/مايو 1995م.
6-كلوجمان، جني؛ وآخرون. مترجم، تقرير التنمية البشرية 2009 – التغلب على الحواجز قابلية التنقل البشري والتنمية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2009م).
7-ندوة (المغتربون العرب في المهجر الإفريقي)، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، والأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة: 14 – 2002/6/15م.

د – المراجع الأجنبية

1- Christian Dustmann and Tommaso Frattini، Immigration: The European Experience، Discussion Paper Series، University College London: Centre for Research and Analysis of Migration Department of Economics، No 2211/: p4 – 7.
2-European Union Agency for Fundamental Rights. Handbook on European Law Relating to Asylum، Borders and Immigration. 2015.
3-Immigration Timeline: A timeline showing forces behind immigration and their impact on the immigrant experience,The Statue of Liberty- Ellis Island. https://www.libertyellisfoundation.org/immigration-timeline
4-International Organization for Migration (IOM)، World Migration Annual Report، 2005، pp 322 – 324.
5-Jef Huysmans، “The European Union and the securitization of migration”. Journal of Common Market Studies 38, no.5, December 2000، pp 751 – 777.
6-Khalid Koser. Irregular migration، state security and human security. A paper prepared for the Policy Analysis and Research Program of the Global Commission on International Migration، GCIM، September 2005.
7-Lee Driedger، The Ethnic Factor: Identity in Diversity، Ryerson Series in Canadian Sociology. (Toronto: McGraw Hill Ryerson، 1989.
8-Miltom Myran Gordan، Assimilation in American Life: The Role of Race، Religion and National Origins. New York: Oxford University Press، 1964. p132.
9-R.E. Bilsborrow، Graeme Hirgo، A.S. Oberai and Hania Zlotnik. International Migration Statistics. Geneva: International Labor Office، 1997.

هـ – المواقع الالكترونية

1- http://www.unhcr-arabic.org/567a14086
2- http://www.fmreview.org/destination-europe/bundy

أدب المهجر: صراع الهوية واللغة بين عصر النهضة والعصر الحديث والمعاصر

د. منى الدسوقي
قسم اللغة العربية وآدابها
الجامعة اللبنانية

تمهيد

يطلق مصطلح أدب المهجر على النتاج الأدبي لشعراء عرب عاشوا في البلاد التي هاجروا إليها وأقاموا فيها؛ ويطلق اسم شعراء المهجر عادة على أدباء أهل الشام، وخاصة اللبنانيين الذين هاجروا إلى الأميركيتين (الشمالية والجنوبية) ما بين عام 1870 حتى أواسط عام 1900، وقد اعتاد الناس تسمية أعضاء الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية بشعراء المهجر، بينما في الواقع هناك الكثير من الشعراء المهاجرين الذين لم يكونوا أعضاء في تلك الروابط والنوادي الأدبية.

وفي زمننا المعاصر عاد مصطلح أدب المهجر ليطفو من جديد مع تجدد ظاهرة النزوح والهجرة، حيث هاجر الكثير من الشباب المثقف إلى بقاع الأرض المختلفة، هرباً من الظروف القاسية التي عانوا منها، سواء الاقتصادية منها، أو الاجتماعية، والسياسية، مما دفع أدباءنا في عصر النهضة، كما في العصر الحديث إلى البحث عن ظروف معيشية أفضل، وعن عيش كريم في ظلّ من الحرية وكرامة العيش، فكانت الهجرة ملاذاً لهم سعياً وراء حياة كريمة.

فما هي الخطوات التي اتّبعها أدباؤنا في المهاجر المختلفة لتثبيت انتمائهم وهويتهم، وللحفاظ على لغتهم العربية؟؟ وما هو مفهومهم للهوية، وما يستتبعه من مفهومهم للغة التي اعتبروا الدفاع عنها سبيلاً إلى إثبات الذات.

مفهوم الهُوية:

تعني الهُوية ببساطة من نحن؟ على المستوى الجماعي، ومن أنا؟ على المستوى الفردي. فالهُوية كلمة مشتقة من الضمير "هو" للتعبير عن شخصية المرء واتجاهاته، وطابعه القومي، وانتمائه الاجتماعي والثقافي والحضاري والسياسي في الجماعة التي يعيش فيها[1].

وهي قضية مهمة شغلت بال المفكرين والعلماء والمثقفين والقادة في جميع الدول من أجل منع الانقسامات، وتشتت الهويات والانتماءات بين أفراد المجتمع، وتقديم المجتمع المتماسك الواحد.

وترتبط الهوية بعدة مفاهيم تتداخل معها، وترتبط بها بعلاقة وثيقة. من هذه المفاهيم مفهومي الانتماء والولاء؛ حيث يعتبر **الانتماء** حاجة أساسية في أعماق الفرد، يتضمن شعور الفرد بكونه جزءاً من مجموعة أكبر (أسرة، قبيلة، حزب، ملّة، جنسية، قومية...) ينتمي إليها وكأنه ممثل لها أو متحّد معها، في رؤاها وتوجهاتها[2]. أمّا مفهوم **الولاء** فهو يرتبط بالانتماء؛ ويُظهر علاقة الفرد بالدولة والوطن؛ ويُحرك الفرد يستثيره ويجعل لحياته مغزى أو اتجاهاً وهدفاً يوحّد من أجلها نشاطاته[3].

ومن خلال هذين المفهومين يتضح ارتباط كلّ منهما بمفهوم **القومية**، التي ليست إلاّ صلة انتماء قوية بين الفرد وشعب معيّن، يعيش في إقليم محدد ذي تاريخ مشترك، ويتكلم لغة واحدة، ويتميّز عن غيره من الشعوب بالسمات والصبغات القومية التي لا تتعارض مع الهوية الوطنية أو الولاء المحلي[4].

وقد ميّز الباحثون بين عدة أنواع من الهوية، منها: الهوية الدينية، والهوية العرقية، والهوية اللغوية، كون اللغة من أهم أدوات التفاهم؛ فهي تعتبر من أوثق الروابط القومية بين أفراد الشعب الواحد، حيث إنّ استعمال لغة قومية واحدة أدعى إلى التقارب والتفاهم والانسجام بين أبناء الأمة الواحدة، وصهرهم جميعاً في بوتقة فكرية واجتماعية واحدة[5]. وقد أجمعت كلّ الدساتير العربية على تحديد هويتها العربية، مما يوضح تمسّك العرب بهويتهم المشتركة، التي توحدهم وتشكّل شخصية أمتهم المتميّزة بالانتماء إلى اللغة العربية[6]. لذلك تُعتبر اللغة العربية صورة لوجود الأمّة، بل هي تاريخ الأمّة الناطق بأفكارها ومعانيها، كما تُعتبر العنصر الأهم من االعناصر البنائية لثقافة وحضارة هذه الأمة.

وتعيش العربية اليوم في ظل حضارة ليست من صنع أبنائها، نتيجة العولمة وسيطرة اللغة الإنكليزية، فشكلت لنفسها نظاماً فكرياً، وتصورات عقائدية عن الكون مخالفاً في كثير من نواحيه للنظام الفكري الذي عاشت في ظله اللغة العربية.

وإذا كان هذا حال اللغة العربية عند أهلها وفي عقر دارها، فما بال الشعوب العربية التي دفعتها الظروف المعيشية الصعبة إلى الهجرة بحثاً عن حياة كريمة[7]، وما هو وضع أبناء المهجريين اليوم من لغتهم العربية؟ هل عانى المهاجرون المشكلة نفسها في بدايات القرن المنصرم ؟ وما هي الخطوات التي اتّبعها أبناء الجاليات العربية آنذاك من أدباء ومثقفين للحفاظ على اللغة العربية؟؟ وهل تساوى العطاء الأدبي لأدباء المهجر في عصر النهضة والعصر الحديث والمعاصر في إبراز هذه المفاهيم؟ وما هي الخطوات التي اتخذها كلّ منهم لإثبات وجوده، وهويته، وتكريس استخدام هويته ولغته؟

اللغة العربية والمهجر في عصر النهضة:

مقدمة:

دفعت الظروف القاسية الكثير من الأدباء إلى تركه والهجرة إلى البلاد البعيدة سعياً وراء ظروف معيشية أفضل؛ غير أنهم حملوا الوطن وهمومه معهم أنما توجّهوا؛ فكانت الصحف هي الوسيلة الوحيدة لإيصال صوتهم ورأيهم بالأحداث التي تجري على أرض الوطن؛ إلا أنه رغم بُعد المسافات بين الوطن والمهاجر، وانعدام وسائل الاتصال بينهما، اهتمّ أدباء المهجر بمتابعة أخبار الوطن والعالم العربي، ومؤازرتها والدفاع عنها؛ كما اهتموا أيضاً بتجديد اللغة وأساليب الكتابة، متأثرين بنهضة الغرب الأدبية، وأساليب أدبائه؛ فعملوا على اتخاذ نهج وأسلوب جديد في الكتابة يميّزهم عن غيرهم، ويجعل لهم بصمة خالدة في هذا المجال. وهم المعتدّون بأنفسهم وثقافتهم ولغتهم، أرادو أن يكونوا أصحاب مدرسة جديدة تفسح للكثير من الشعراء والأدباء باستعمال لغة متداولة، والابتعاد ما أمكن عن اللغة الموروثة التي لا تحتوي بنظرهم إلاّ على رموز قاموسية، حيث لا يؤدي الاعتماد عليها إلى الوصول إلى أدب عصري يواكب التطور الحياتي العام. كما كانوا يريدون أن يثبتوا لأبناء البلد المُضيف أنّ لهم قيمتهم الأدبية والمعنوية؛ وأنهم ليسوا بمتسولين، وأجلّ قدراً مما يتصوّرونهم، فلهم ثقافتهم وآدابهم ولغتهم التي يعتدّون بها، ولن يتهاونوا في التفريط بها، ، وينجروا وراء ثقافة أو لغة غريبة عنهم . وقد أخذتهم الحمية القومية إلى نظم الأشعار القومية والوطنية، والتغني ببطولات أبناء بلادهم ، وجمالها. كما بدأوا يسعون إلى تأسيس الجمعيات وعقدها، وتأسيس المنتديات والروابط التي تعنى بشؤونهم الاجتماعية والثقافية؛ وما توانوا عن إرسال المساعدات لأبناء وطنهم أيام المحن، وعن التعبير عن قضاياهم؛ إلاّ أن تأخر وصول أخبار الوطن والأمة إليهم، دفعهم إلى الاهتمام باللغة وبالتجديد اللغوي؛ إلى جانب اهتمامهم بقضايا القومية العربية وقضايا الوطن.

فكيف ظهر اهتمامهم باللغة، وما هي أهم الخطوات التي اتخذوها في هذا السبيل؟؟

أدباء المهجر في الأميركيتين في عصر النهضة

عرفت أميركا الشمالية والجنوبية حركة نزوح كثيفة في بدايات القرن الماضي، تعود إلى الظروف السيئة التي عاناها أهل الشام آنذاك من ظروف اقتصادية، واجتماعية، وسياسية دفعت بالكثير من أبنائه إلى الهجرة، بحثاً عن ظروف معيشية أفضل، في ظلّ من الحرية والكرامة، التي افتقدوها في بلادهم[8]، وقد اشتهر منهم عصبة من اللبنانيين من أمثال جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، أمين الريحاني، إيليا أبو ماضي، وغيرهم الكثير من أبناء الجاليات العربية الذين سعوا ما في وسعهم لتوطيد علاقتهم بأبناء وطنهم، وعدم الانقطاع عن أخبار بلادهم، مع تشجيع الإقبال على تعلّم اللغة العربية، والمضي قدماً في التأليف باللغة العربية، وتشجيع الأدباء على نشر مؤلفاتهم التي ليست سوى مرآة صادقة لهموم أبنائهم في الوطن وفي المهجر، وللتنفيس عن همومهم، وتحديد صورة آمالهم وطموحاتهم، ورسم أطر لشخصيتهم وهويتهم. فما هو دور الجاليات العربية آنذاك، ودور المثقفين منهم في هذا السبيل؟

دور الجاليات في خدمة اللغة العربية:

كانت الجاليات في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي تفيض غيرة على العروبة، وملؤها ثقة بمستقبل عربي زاهر، فكلّ حادث يقع في بلادها تتردد أصداء له في مؤسساتها؛ فعندما انتزعت سورية حريتها من براثن الانتداب، عمّت الفرحة في ربوع المغتربين، وكان همّ مشكلة فلسطين الذي بدا يلوح في الأفق العربي مع شيوع مشاعر الخوف من الحرب والويلات، يقابله أمل في نفوس المغتربين بالفوز والنصر[9].

وكان المغتربون يشعرون أنّ عليهم واجباً هو تأييد النضال القومي، وكانوا يرون في الشعر الوطني تعبيراً عن أحاسيسهم، فاهتموا به واعتبروه شكلاً من أشكال الجهاد[10]، كما تراكضوا لخدمة القضية، فأنشأت اللجان التي توالت جمع المال، وأسّست الهيئات التي وحدّت المقاصد، وأصدرت النشرات التي تشرح للناس ما يجب أن يعرفوه عن حقيقة اليهود[11]. وكانت للصحافة العربية الفضل الأكبر في بقاء الروح العربية والنفس العربي حيّاً في تلك الأصقاع، فقد مكّنت الصلة بين المغتربين والمقيمين، حيث ظلت أكثر من ستين سنة تدافع عن سمعة الجالية، وترشد خطواتها، وتذكرها بواجباتها تجاه الوطن[12]، والتي لولاها لما صدح صوت الأدب شعراً ونثراً في تلك البقاع، ولتفككت الجالية الاجتماعية، ولم يعد لديها أية واسطة للتفاهم الاجتماعي[13]. فهي تعتبر الحاضنة للأدب العربي المغترب، ولولاها لما لقي الأدباء الذين استوطنوا العالم الجديد وسيلة لنشر ما أنتجوه، ولولا هذه الصحافة لتوجّه الكثير من حملة الأقلام إلى التجارة أو الصناعة بحثاً عن الثراء السريع، الذي ما كان لو أضيفوا إلى عداد الأغنياء الآخرين ليرفع من قيمتهم وقدرهم[14].

وقد توزعت أهم الصحف التي برزت في الأميركيتين بين الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين[15]، وقد استطاعت أن تحافظ على الروح العربية، فكانت صدى أميناً لصرخات الاستقلال، وبوقاً يردد أيات الحرية[16]، تذكر المهاجرين بوطنهم الأول..[17]

ولا مناص من الإشارة إلى كيفية تأثير احتجاب بعض الصحف على خفت صوت الأدب[18] الذي احتضنته، والذي لم يكتب للمجتمعات العربية في الوطن، بل لتلك البيئات الصغيرة الغريبة المستوحشة، فكان هذا الأدب صورة عن الصراع الذي سببه التقاء الحضارة العربية وقيمها بحضارة الغرب وقيمه. فقد جاء هؤلاء المهاجرون من قرى شرقية بسيطة إلى مدن مكتظة ذات تقاليد معقّدة؛ فلا غرابة أن تصيبهم الدهشة، ويحسوا بالتشتت وتشوّش الأفكار. على أن هذه المرحلة لم تطل كثيراً، فسرعان ما تأقلموا وأخذوا يعتادون واقعهم وتجربة حياتهم الجديدة، وراحوا يحدّدون موقفهم من المجتمع الجديد والمجتمع القديم الذي خلفوه. وبذلك بدأت تتضح سمات شخصيتهم، التي بدت بعد ذلك في أدبهم وميّزته بالجدة والأصالة.[19]

وإلى جانب ذلك قامت الجاليات بتأسيس الجمعيات المختلفة، التي كان من بعض أهدافها العمل على الحفاظ على تقاليد المهاجرين، وآدابهم العربية، وعوائدهم الشرقية.[20]

كما تأسست جمعيات الصداقة ومؤسسات التعاون، وبدأت مظاهر الحياة الاجتماعية للمهاجرين تتآلف مع الحياة الأميركية الجديدة، وبدأ بعض المهاجرين يشاركون في الحياة السياسية الأميركية، وينتسبون إلى الأحزاب، وينخرطون في الجيش، وكلّ ذلك كان دليلاً على بدء انتهاء الصراع، وتقبّل الواقع ومواجهة المشكلات.[21]

كما أقدمت الجاليات العربية على إنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية، واستقدام معلمين أكفّاء لها، وقد لاقت أثراً طيباً عند الشباب العربي، فسارعوا للالتحاق بها، ولكنها لم تنتشر على النطاق الذي كانوا يحلمون به، لأن عدد الطلبة الذين التحقوا بها كان محدوداً[22].

وفي هذا الصدد تمّ تأسيس " ندوة الأدب العربي" التي حددت لنفسها غاية أساسية تتمثّل في الحفاظ على اللغة العربية، وقد ضمت حملة الأقلام من الفوج الأول وزملائهم من المخضرمين في الهجرة، والمحدثين الذين يتوقون إلى تمجيد الحرف ممن يتذوّقون الأدب. ورغم ضعف مواردها المالية، فقد نظمت في مواسمها مهرجانات للعروبة، وحببت الشعر والنثر للكثير من أوساط الجالية الذين لم يكونوا يعيرون مثل هذه الأمور الثقافية اهتماماً. [23]

وظهر بعد ذلك بزوغ نجم الرابطة القلمية في نيويورك عام 1920 [24]، والعصبة الأندلسية في البرازيل عام 1932 [25]، وقد اهتمّت الأولى بفنون الأدب المختلفة، وعملت على تحديد موقفها من الأدب الذي يمثلها، واختارت نهج التجديد من ناحيتي المعنى والمبنى، وفضّلت الثانية الإبقاء على نهج القدماء، واهتمت بشؤون الشعر أكثر من بقية الفنون.[26]

ويرى البعض أنّ إنشاء الرابطة يعتبر تعبيراً عن استواء شخصية المهاجرين في بيئاتهم الجديدة، وأنه أصبح لهم رأي خاص يعبرون به عن الحياة والأدب، بعد أن كوّنوا موقفاً من الحياة الجديدة التي عاشوها وأخذوا يعتادون عليها، والحياة القديمة التي خلّفوها، بعد أن أصبحت هذه الفئة تثق بقدراتها على التعبير، وعلى التخطيط لصورة النتاج الأدبي الذي يرونه مناسباً لميولهم ونزعاتهم، يضمن لهم الاحتفاظ بالقيم الفنية التي يبشرون بها[27]. وقامت الرابطة من خلاله بتصحيح المقاييس الأدبية القديمة على ضوء تجارب أفرادها وثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية[28]، لتنشئ أدباً عربياً يتبنى هذه المقاييس الجديدة[29]. وفي هذا يقول نعيمة في قانون الرابطة : " إنّ هذه الروح الجديدة التي ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد، إلى دور

الابتكار في جميل الأساليب والمعاني، لحرِية في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة، فهي أمل اليوم وركن الغد. كما أنّ الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى، هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا"[30].

أمّا شعراء "العصبة الأندلسية" فقد عالجوا كل المناحي الشعرية تقريباً: من الشعر القومي والوجداني، إلى الشعر الأسطوري والاجتماعي، من دون أن يغفلوا الخوض في الفنون النثرية الأخرى، يحدوهم هدف واحد وهو العمل على خلق أدب حرّ قوي، يعنى بالمعاني والأفكار الكبيرة..[31]

وبعد فرط عقد الرابطة القلمية في أميركا الشمالية، والعصبة الأندلسية في أميركا الجنوبية، بوفاة أغلب أدبائها كجبران، وعريضة، وكاتسفليس، وأبي ماضي والريحاني، وفوزي وميشال المعلوف، راح أبناء المهجريين يكتبون باللغات الأجنبية المختلفة، فكتب أدباء المهجر الشمالي بالإنكليزية، وكتب أدباء المهجر الجنوبي بالإسبانية والبرتغالية،[32] وظهرت الحاجة إلى إيجاد بديل (رابطة أو عصبة) تحفظ للعرب لغتهم وآدابهم، فكان أن تمّ الإعلان عن إنشاء رابطة جديدة باسم "جامعة القلم" عام 1965 [33] وقد تمحورت أهدافها كسابقاتها حول نشر اللغة لعربية في المهاجر وتعزيز الأدب العربي ونشره في بلاد الاغتراب، بالإضافة إلى توثيق روابط الأدب العربي بين المغتربين والمقيمين[34].

وأمام دور الجاليات وما قاموا به في سبيل خدمة اللغة العربية من محاولة إنشاء المدارس، إلى إنشاءالصحف، والمنتديات والروابط التي عمل مؤسسوها على تشجيع الأدب العربي، وتشجيع النشر باللغة العربية، يبقى أن نشير إلى الدور الأدبي الذي ظهر من خلال مؤلفات أدباء المهجر من ناحيتي المعنى والمبنى.

التجديد في أدب المهاجرين:

حملت الكلمة العربية عند أدباء النهضة معانٍ جديدة، لا عهد للعربية بها من قبل. فصار الأدب يحمل في طيّاته السلام والمحبة، ولم يعد ترويضات لغوية، وألاعيب بيانية لا تثمن ولا تغني من جوع[35]. فلقد أدرك أصحاب هذه المدرسة أن الجمود بالأدب وتقلّص اللغة على ذاتها سيؤدي بهما إلى الانمحاق والانسحاق[36]؛ فأرادوا أن يعبّروا عن حيوية هذه اللغة التي اتخذوها أداة للتعبير عما ينتاب الإنسان من عوامل ونزوات وعاطفة وأحاسيس وبغض ومحبة وشك ويقين وقلق وطمأنينة، وغير ذلك من أمور تتصارع داخل أغوار النفس والحياة، ليثبتوا لنا قابلية اللغة على التطور والتحول[37]. وهكذا نشر المهجريون رسالة التجديد والتبسيط والإبداع في زمن كان الأداء فيه تقليداً ومسخاً وتعقيداً، بدأت هذه الرسالة مع الريحاني[38] وجبران، ثم انضمّ إليهما نعيمة، وأصبح زعيم الحركة المهجرية في تحرير اللغة، والنظر إلى الأدب بمقدار ما ينبض فيه من الأفكار والمعاني، لا بمقدار ما يرتديه من الأزياء اللغوية، واعتُبر كتابه "الغربال" دستور المجددين والناقدين.[39]

كما كان مقال جبران " لكم لغتكم ولي لغتي" بمثابة دستور الرابطة القلمية في النهج الكتابي، حيث جاء فيها: " لكم من اللغة العربية ما شئتم ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي، لكم منها الألفاظ وترتيبها، ولي منها ما تومئ إليه الألفاظ ولا تلمسه ويصبو إليه الترتيب ولا يبلغه . لكم منها جثث محنّطة، باردة، جامدة، تحسبونه الكل في الكل، ولي منها أجساد لا قيمة لها بذاتها، بل كل قيمتها بالروح التي تحلّ فيها... لكم منها القواميس، والمعجمات والمطولات، ولي منها ما غربلته الأذن، وحفظته الذاكرة من كلام مأنوس مألوف تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم...."[40]

وكأنّ جبران يريد أن يقول إنه كيف سنسهم في الحضارة الإنسانية إن لم نُزِل عن رؤوسنا ردم القديم ونسعى إلى التجديد؟ وإن اللغة لن تكون مقبرة للأفكار بعد اليوم، وإنه لن نسمح بعد اليوم إهمال فكرة من أجل لفظة لم ترد على لسان بدوي بليغ.[41]

كما يرد جبران عن سؤال: "ما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربية؟" فيجيب : " إنّ خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرّره الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين..."[42]. رغم الصور الشعرية ، وعنصر الخيال المسيطر على إجابته، نرى أنّ اللغة الحيّة برأيه هي تلك التي يمكنها تلبية رغبات الشاعر العبقري وسدّ حاجات روحه لإيجاد اللفظ الأكثر إيحاءً وتأثيراً في نفس المتلقي. ومن هنا كانت حملة جبران على ادعياء الشعر في مقالته " شعراء المهجر" حين قال : " لو تخيّل الخليل أنّ الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلّق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال. ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الأقلام بأيدي الإهمال." إلى أن يقول : " الشعر يا قوم روح مقدسة متجسّمة في ابتسامة تحيي القلب، أو تنهدة تسرق من العين مدامعها. أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذّاب نبْذه أوقى"[43]

وهكذا كانت أساليبهم البيانية غاية في الجمال والبساطة، لأنها لم تتقيّد بقيود الألفاظ والزركشة اللفظية، بل أرسلت إرسالاً لتعبّر بصدق وبساطة وحيوية عن الفكرة أو العاطفة التي تمليها. ولقد اشترك أدباء المهجر إجمالاً بالمذهب الرومنسي الذي تأثّر به المهجريون كثيراً في أفكارهم وأساليبهم بالإضافة للمذهب الواقعي والقومي[44]. وقد جمعت بينهم الغيرة على إنقاذ الأدب العربي من جموده وقيوده، وساعدهم على ذلك جو الحرية الذي كان يحيط بهم.

أمّا بالنسبة للمضامين التي كتبوا فيها أدباء المهجر، فقد اجتمعوا بشكل عام حول عدد من المعاني، أهمها ما تفجّر خلال غربتهم من شعور عميق من انتمائهم للعروبة، ودعوتهم لتوحيد موقفهم تجاه القومية العربية؛ مما دفع الشاعر القروي المهاجر إلى البرازيل إلى نظم قصيدة جاء فيها:

إنـي علـى ديـن العروبـة واقفٌ قلبـي سُـبُحاتـها ولسـاني
إنجيلـي الحـبّ المقيـمُ لأهلهـا والـذودُ عـن حُرُماتهـا فُرقانـي
أرْضيْتُ أحمدَ والمسيحَ بثورتي وحماسـتي وتسـامحي وحنانـي
يا مسلمون ويا نصارى دينُكم ديـنُ العروبـةِ واحـدٌ لا إثنـانِ
بيروتُكـم كدمشـقَكم ودمشـقِكم كـريـاضِكـم كـعُمـانِ
ستُجددون المِلك من يمنٍ إلى مصـرَ إلـى شـامٍ إلـى بَغـدانِ
وسـتكفُلون حضـارةَ الدنيـا كمـا كفَلَ الجُـدودُ حضـارةَ اليونـانِ[45]

بالإضافة إلى مواضيع أخرى، كالحنين إلى الوطن، التأمل، النزعة الإنسانية[46]، عمق الشعور بالطبيعة، الغنائية الرقيقة في الشعر، براعة الوصف والتصوير المستند إلى عنصر الخيال، والحرية الدينية[47]، وبعض المواضيع الفلسفية التي ظهرت عند نعيمة وجبران وتمثلت بعقيدة تناسخ الأرواح، ووحدة الوجود[48]

كما طال التجديد نتاج شعر المهاجرين في أميركا الجنوبية، حيث آمن شعراؤهم بمبادئ التجديد التي أرساها أدباء المهجر الشمالي، فخرجوا بنتاجهم الشعري خروجاً بحتاً عن التقليد، وأعطوه قبساً من نفوسهم الثائرة، حتى حوّلوا هذا النتاج إلى ثورة بمعناها الأسمى، وجد الشباب فيه الضالة التي كانوا ينشدونها، فوجدوا فيها تعبيراً عن صدق خوالج الإنسان، وتفسيراً عن هواجس الإنسان " المواطن". ومرآة ينعكس على صحيفتها جمال عن مشاعر الإنسان "الفنان".

أما نتاج شعرهم الوطني الذي رافق الأحداث العربية، وكان بوقها الصارخ على الذين اغتصبوا استقلال أوطانهم، ترى فيه أصالة المطالبة بأن يعاد الحق إلى أصحابه، وبأن تمارس الشعوب سيادتها، وأن تتكامل شخصية المواطن العربي في بلاد حرة مستقلة. فما كانت البشرية بنظرهم لتهتدي إلى السعادة إلاّ إذا كانت الكرامة القومية محترمة لا يعبث بها عابث. وما الظلم الذي حاربوه في قصائدهم، إلاّ من باب الحفاظ على القيم الإنسانية التي يريدونها في أعلى مقامها[49].

وهكذا نرى أن الأدباء والشعراء العرب في الأميركيتين لم يقبعوا في بروجهم العاجية، بل تقدّموا إلى ساحة الحياة، فعاركوها وذاقوا من وثباتها الحلو والمر[50]، وأدوا للأدب في بلاد المهجر خدمات جلّى، دفعت به

إلى التطوير والتجديد ، مع العمل على الحفاظ على اللغة العربية ونشرها بين أبناء المهجريين، وإلى توطيد العلاقة بين أبناء المهجر وأدبائه، وبين أبناء الوطن وأدبائه، فكان صلة الوصل بين الطرفين، والناطق الرسمي بآمال وأحلام المهجريين.

اللغة العربية والمهجر في العصر الحديث:

مقدمة:

بعد أن مهّد أدباء المهجر في عصر النهضة درب اللغة من العوائق والشوائب التي طالما كبّلت تفكيرهم ورؤاهم وصورهم التعبيرية، وحرروا اللغة من ثوبها القديم. توارثها جيل الأدباء من بعدهم في العصر الحديث، حيث انحصر اهتمامهم بالمحافظة على هذه اللغة، والاهتمام بقضايا الوطن والأمة، التي تربطها بهم مشاعر القومية العربية، وتشدهم إليه رابطة اللغة والهُوية؛ فعملوا من خلال نتاجهم على إثبات وجودهم وانتمائهم أينما حلّوا، بلغة عربية فصيحة ميسرة، وصلت إليهم متحررة من كلّ القيود. فظهر العمل الجماعي المنظم بين أبناء المغتربين بغية الحفاظ على هُوية المهاجر ولغته وثقافته. كما ظهرت مواضيع إثبات الهُوية، والتفاخر باللغة العربية عند العديد من الأدباء والكتّاب منهم.

أدباء المهجر في العصر الحديث والمعاصر

استمرّ مصطلح "أدب المهجر" متداولاً مع استمرار تشابه ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الصعبة، تعبيراً عن النتاج الأدبي للأدباء في العصر الحديث والمعاصر، الذين دفعتهم الظروف الحياتية القاسية نفسها إلى الهجرة، بحثاً عن ظروف حياة أفضل.

وقد قرّبت وسائل التواصل الإعلامي وثورة الاتصالات، الوطن من بلدان الهجرة، بحيث نقرأ كل يوم مواقف الأدباء في المهاجر المختلفة من القضايا المعاصرة التي يعيشها لبنان والعالم العربي.

ولم يعد بالإمكان منع التواصل والتفاعل بين الوطن والمنفى، وبين أدب الوطن وأدب المنفى. ولكن رغم هذا التطور إلاّ إنّ المُهاجر الذي يعيش خارج بيئته وثقافة مجتمعه ولغته الأم، التي ولو سعى وحاول الحفاظ عليها، لا بدّ إنه يعيش صراعاً بين هويته الأصلية وهويته الجديدة[51]. حيث يفرض المجتمع الجديد على المُهاجر بشكل عام أوضاعاً مختلفة توجب عليه أن يتوافق معها ويعتاد عليها؛ أما المُهاجر المثقف منهم، فنظراً لحساسيته وانشغالاته الإبداعية، فهو يعمل على أن يكسب هذه الأوضاع ملمحاً جديداً، يصنعها على طريقته وحسب قناعاته، خاصة إذا توّفرت له الحرية المفقودة، وكان له سعيه للحفاظ على لغته وثقافته، حتى وإن اكتسب لغة أخرى وكتب فيها في شؤون الثقافة والحياة المسّتقبلية، فإنّ هذا سيؤدي حتماً إلى ظهور هذا الصراع بين هويتيه، وإلى تنشئة ثقافة جديدة في المهجر لها سماتها وتحدياتها وبيئتها وعناصرها[52].

وهذا ما أشار إليه الكاتب "جون عصفور" (1945 – 2014) في صراعه مع ذاته عن كيفية تعايشه مع البلد الجديد، حين يتساءل كيف له أن يترك جذوره الثقافية، بل كيف ومتى يمكنه أن ينتقل ويهاجر فكرياً وثقافياً إلى العالم الجديد، وأن لا تقتصر هجرته على هجرة الجسد فقط[53]. وقد توصل نتيجة هذا الصراع إلى محاولة الجمع بين الثقافتين وبالتالي بين اللغتين العربية والإنكليزية، وذلك من خلال نظم الشعر تارة باللغة العربية، وأخرى باللغة الإنكليزية، بثّ فيه عصارة آرائه وثقافته العربية، بغية تعريف المواطن الكندي إلى أدب وطنه ونتاجه، كما قام بترجمة مؤلفات عربية إلى الإنكليزية وبالعكس، في محاولة منه إلى فتح الثقافات على بعض ، وتعريف كلّ منها بالأخرى[54]. وفي السياق نفسه تشير "لبنى هيكل"، طبيبة لبنانية وكاتبة تعيش في أستراليا، إلى الصراع بين الهويتين: هوية الوطن القديمة، وهوية البلد الجديد الذي هاجرت إليه، وكيف سعت جاهدة أن تكون متميّزة كي ينظر الشعب الأسترالي إليها نظرة احترام، بعيداً عن النظرة الدونية التي يشعر المُهاجر بها عادة. وكيف اضطرتها هويتها الجديدة إلى مسح جزء من هويتها القديمة على حساب هويتها الجديدة؛ وكيف تعايشت مع الصراع كونها لبنانية وأسترالية في الوقت نفسه، مما جعلها تمثّل حالة اللانتماء إلى مكان معيّن[55].

مخاطر الهجرة ودور المنظمات والعمل الجماعي:

يواجه المهاجرون العرب إلى البلاد الأوروبية تحديات عدة تتمثّل في عقبات اللغة الجديدة، والإقامة، والتأقلم، والبحث عن مكان في سوق العمل؛ ولكن أبرز هذه التحديات تتجلى في التحدّي الثقافي، الذي يوجبه اختلاف العادات وأنماط الحياة بين مجتمعات المهاجرين الأصلية، وبين مجتمعاتهم الجديدة. بالإضافة إلى التشنّج الذي أوجبته أحداث 11 أيلول تجاه العرب وثقافتهم وعاداتهم؛ مما يخلق شعوراً بالغربة في نفس اللاجئ، وفي لغته وشعائر دينه، وتقاليده، وهوية لباسه، فيصبح أمام خيارين: إمّا الانطواء على نفسه والابتعاد عن المجتمع، وإمّا التخلّي عن ممتلكاته الثقافية والإنسانية والذوبان في المجتمع الجديد[56].

وفي مواجهة هذا الواقع الاغترابي، نشير إلى دور العمل الجماعي المنظّم من قبل المغتربين العرب والمسلمين، لاحتضان اللاجئ والمهاجر، واستيعاب احتياجاته الثقافية، وحمايته من التلاشي، ومساعدته على التأقلم مع نظام الحياة والعمل، والقيام بفعاليات اجتماعية وثقافية للتأكيد على أحقية احتفاظ المُهاجر بلغته وثقافته، بوصفها مكوّنات إنسانية لا تقلّ أهمية عن مطلب الأمان الذي هاجر لأجله[57].

ولعلّ الشعور بالقومية، والمواطنة من الأسباب التي تدفع العرب إلى التواصل مع أبناء جلدتهم ولغتهم، فيحاولون المحافظة على هويتهم، وهوية أولادهم، وفي ذلك تبرر الكاتبة "هدى بركات" _ روائية وكاتبة مسرحية لبنانية مقيمة في باريس_ استخدامها اللغة العربية في كتابتها مع إتقانها الفرنسية فتقول : " كان من الصعب بل من المربك والمخجل الإفصاح عن أن العربية هي اليوم شيء يشبه أن تكون وطناً لي، لا

لغة، مجرد لغة يمكن استبدالها. وأنّ هويتي العميقة من بلاد العرب ... هي هذه اللغة العربية بالذات أنتمي إليها كما أنتمي إلى ولديّ وإلى الأصدقاء الذين أحبهم، وهي من تبقّى لي، وارتأيتُ أن أقيم عليها ما يُسمى بانتمائي الوطني في كلّ ما أكتب بالعربية _ وعن لبنان _ أشعر أني بشكل من الأشكال، أعود، أعود ولا أصل، فأكرر العودة. لم يعد يؤلمني الآن ألاّ يكون عندي بيت. كأنني من هنالك_ بالعربية _ وعن لبنان، أرسل بيوتاً صغيرة. أقيم فيها بلذّة، وبشيء من الكفاية. إنها بيوت بعيدة، ولكنها، مضاءة دائماً، وهي دائماً بانتظاري"[58]؛ لتربط في ذلك بين حنينها إلى الوطن، ووجع الغربة، والتعويض عنهما بمواكبة اللغة العربية كتابة وشفاهة.

ولعلّ كتاب المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد "خارج المكان" الذي يتحدث فيه عن تجربة اقتلاع شعب من أرضه ورميه خارج المكان في محاولة لمحو ذاكرته ومصادرة تاريخه، هو نموذج يشير من خلاله إلى ازدواجية الهُوية، حيث ظلت الهُوية عنده تشكّل الهاجس الذي يطلّ برأسه، ويلوح بصورة عفوية من دون استحضار مسبق.[59]

كما سبق ل "أمين المعلوف" الروائي اللبناني العالمي الذي مُنح أعلى وسام فرنسي مؤخراً أن تحدث عن موضوع الهُوية في كتابه " الهُويات القاتلة" بعد أن استشعر هذا الهاجس وعاشه، بحمله الثقافتين العربية والفرنسية، وكيف استطاع اجتيازه في اختياره أن يكون جسراً للتواصل بين تلك الثقافتين.[60]

الدور الذي يجب أن ينتهجه المهاجرون العرب في مهجرهم:

توفّر للمهاجرين العرب في بلاد المهجر فرصة التفاعل المشترك فيما بينهم، بغض النظر عن خصوصياتهم الوطنية؛ مما مكّنهم من بناء النموذج المطلوب لحالة التفاعل العربي في أكثر من مجال، بعد أن أتاحت لهم الإقامة في الغرب فرص الاحتكاك مع تجارب الديمقراطية المتعددة. فجهدوا لجعل بلد المهجر خميرة إيجابية جديدة وجيدة، لا مرآة تعكس سلبيات الوطن التي دفعتهم للهجرة منه. أخذوا الكثير من بلاد الغرب، من دون أن ينسوا أوطانهم، أو يفقدوا هويتهم، فحافظوا على لغتهم وثقافتهم، مع بقائهم إيجابيين في مجتمعاتهم الجديدة. تجلى همهم الأول في الشرق، وإن كان تواجدهم في الغرب. استفادوا من حسنات المكان وما قدمه لهم من انفتاح وحرية الفكر، ليساهموا في تغيير سيئات أوطانهم.[61]

فأسسوا في هذا السبيل المدارس والمنتديات والجمعيات بهدف التواصل بين أبناء الجالية العربية، في محاولة المحافظة على هويتهم، وانتمائهم من خلال المحافظة على إحياء تقاليدهم وأعيادهم ومناسباتهم الاجتماعية، بالإضافة إلى تأسيس الصحف التي كانت الوسيلة لنشر آدابهم وأفكارهم وثقافتهم، والحفاظ على لغتهم. وفي هذا السياق نعرض لدور الجاليات العربية في كلّ من أستراليا، وكندا وفرنسا وما قدموه في سبيل الحفاظ على الثقافة العربية والأدب العربي واللغة العربية في بلد المهجر.

ففي أستراليا وبعد أكثر من سبعين عاماً مرت على أول الهجرات العربية إلى أستراليا، بدأت بوادر متواضعة في نشر الأدب العربي عام 1957 عن طريق نشرات تضمّ أخبار تهم الجالية العربية، فصدرت " الوطن العربي" وهي نشرة نصف شهرية تهتم بالعرب والأدب العربي، ثم ظهرت جريدة "القمر"[62]، ثم توالت الجرائد والنشرات العربية، والمجلات الشهرية ومن أبرزها "صوت المغترب" ، "الهدف"، "التلغراف" "النهار" ،"الرسالة"، "المنارة"، "الثقافة"، "البيرق"، حتى وصل عدد المجلات والجرائد في ذلك الوقت إلى مائة جريدة ومجلة[63]، مما أدى إلى نشر الثقافة العربية بين العرب المغتربين، كوسيلة للتعبير عن همومهم وتطلعاتهم وأحوالهم الاجتماعية. كما ساهم وجود مجلات وجرائد عربية تصدر باللغتين العربية والإنكليزية على التواصل والترابط بين أفراد الجالية العربية، الناطقين منهم بالعربية أو الإنكليزية. كما ساهمت الخدمات الألكترونية المباشرة كالأنترنت والستلايت والبرامج الإذاعية على نشر الأنشطة والمهرجانات العربية والثقافية بين الأسر العربية.

إلى جانب ذلك، ظهرت المؤسسات والجمعيات العربية، التي تقدم خدماتها للجالية العربية في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية والصحية والتعليمية؛ من هذه الجمعيات والمؤسسات، نذكر " المجلس العربي الأسترالي، الذي أسس لخدمة الثقافة واللغة العربية؛ و" رابطة إحياء التراث العربي في سيدني" التي قدّمت جوائز للأدباء والمفكرين العرب ممن أسهموا في إثراء الثقافة العربية. كما أن وجود تخصصات عربية في بعض الجامعات الأسترالية كجامعة ديكن، وجامعة ملبورن، وجامعة أستراليا الوطنية، يُعتبر من أبرز أساليب نشر الثقافة العربية وتوثيقها، حيث تقوم هذه الجامعات بتدريس اللغة والآداب العربية، وتمنح درجات علمية في هذه التخصصات، مما أسهم في دعم الثقافة والأدب العربي ونشره بين المهتمين من الشعب الأسترالي.[64]

وفي كندا انشغل الأدباء والمثقفين في إيجاد السبل الكفيلة للحفاظ على اللغة العربية، خاصة بعد أن رأوا أبناء المهاجرين يندمجون بحكم ولادتهم ونشأتهم مع المجتمع الكندي لغة وثقافة وفكرا، ، فهبّوا لاتخاذ الخطوات التي من شأنها أن تحفظ اللغة العربية والآداب العربية. وقامت مجموعة[65] بإنشاء الحركة الإبداعية في مدينة مونتريال كيبك الكندية عام 2017 كحركة أدبية تُعنى بالثقافة والشعر والأدب العربي، فضمت خلال لقاءاتها العديد من المثقفين والأدباء والموسيقيين من أصول عربية، جمعهم هدف مشترك يتمحور حول مشاركة الإبداعات الفردية المتنوعة باللغة العربية، من أجل الحفاظ على اللغة العربية، وتوريثها إلى الأجيال الكندية العربية، وتعريف المجتمع الكندي على النتاج الذي ينشرونه على صفحات التواصل الاجتماعي، حتى قام الكثير من أصدقاء الصفحة الكنديين بترجمة هذه النصوص، في محاولة فهمها واستيعابها.[66]

وتمّ إنشاء مجلة أدبية لهذه الحركة الثقافية تحمل اسم "مقاربات"، تصدر بشكل دوري، وتقوم بنشر ما ينتجه الشعراء والأدباء العرب في كندا وأستراليا وأميركا ودول أخرى. تقوم سياستها على أهمية التوأمة الثقافية بين كندا وبين الحركات الثقافية في الوطن العربي والعالم، كي تواكب كل جديد، وتجعلهم يتواصلون مع زملائهم في بلدان المهجر المختلفة.[67]

أما في فرنسا فقد بحثت الجاليات العربية عن السبل الكفيلة للحفاظ على اللغة العربية، وبتعليم أبنائها اللغة العربية إلى جانب الفرنسية، فاعتمدت على بعض الجمعيات التي تقدّم دروساً مجانية للأطفال، أو على دروس ليلية تنظمها البلديات في مناطق عديدة من فرنسا، أو على بعض المساجد. وأمام مطالبة العديد من العائلات المسلمة بتعليم اللغة العربية في المدارس، والجدل الذي دار في فرنسا حول أهمية تعليم اللغة العربية لأبناء اللاجئين والمهاجرين العرب، وبعد أن أوصى معهد "مونتاني" بتقريره حول تعليم اللغة العربية في المدارس العمومية الفرنسية في 9 أيلول عام 2018، بهدف محاربة التطرف الإسلامي[68]، أعلن وزير التربية الفرنسي "ميشال بلانكير" دعمه لاقتراح المعهد المذكور.

وهكذا تنبّه المهاجرون لأهمية الحفاظ على اللغة العربية، فظهرت المحاولات والنشاطات المختلفة في سبيل الإبقاء عليها، وتعليمها لأبنائهم، فظهرت في هذا السبيل المنتديات الأدبية، والصحف العربية، وكانت المحاولات لتشريع تعليم العربية في المدارس الأجنبية، كما حصل في فرنسا[69].

ورغم العقبات التي واجهها المثقفون العرب في إيصال رؤاهم وفكرهم وثقافتهم من خلال نتاجهم الأدبي[70]، إلى أبناء الجاليات العربية، وأبناء الوطن العربي، للتعبير عن مشاكل أوطانهم وهمومه، التي وإن تركوها وهاجروا منها بالجسد إلى أصقاع العالم المختلفة، فإنهم ما نسوها أبداً، بل حملوها معهم أينما توجهوا، حتى صارت هاجس فكرهم، وجلّ مبتغاهم، التي وإن عبّر بعضهم عنها بلغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية، فإنما كان ذلك بهدف إيصال الصوت للمغتربين والمهاجرين، ولأهل البلاد المضيفة في آن معاً، ولنشر العربية وآدابها، والفكر العربي في كل أصقاع العالم، وتعريف العالم أجمع عليه.

نظرة على أعمال بعض أدباء العرب المعاصرين:

جمع الشعور بالغربة، والحنين إلى ربوع الأوطان كل الشعراء العرب الذين أجبرتهم الظروف الضاغطة على مغادرة أوطانهم، سعياً وراء إيجاد ظروف معيشية أفضل، في جوّ من الحرية الفكرية التي افتقدوها في بلادهم، فقد دفعهم غياب الأرض والأهل والأصدقاءإلى إيجاد وسيلة اتصال معنوية تربطهم بجذورهم، فكانت الصور الأدبية الملتهبة بالحنين إلى الوطن. وفي هذا السياق نعرض تباعاً بعض المقاطع من نتاج أدباء لبنانيين معاصرين عاشوا الغربة واكتووا بنارها وعبّروا عنها خير تعبير. مبتدئين بالشاعر" شربل بعيني" من أستراليا، ثم بالشاعر والكاتب الدكتور "جون عصفور" من كندا، ومختتمين بالأديب "أمين المعلوف" من فرنسا، بغية الوقوف على مشاعرهم ومواقفهم تجاه الغربة والهجرة، وما خلّفته فيهم من آثار في نتاجهم ومواقفهم.

يعتبر الشاعر " شربل بعيني "(1951) من أهم شعراء المهجر في أستراليا[71]، نظم حوالي اثني وخمسين ديواناً، واعتبر محطة من محطات الشعر العربي المهاجر، يعتبر امتداد منطقي لرواد الرابطة القلمية"[72] عرض من خلال قصيدته " الأديب الغريب" إلى دور الأديب في بلاد الغربة، وإلى معاناته الإنسانية فيها، فيستنكر أن تكون الهجرة إلى بلاد جديدة، هي من رفعت من قدره، لأن الأرض هي من تتعشّق وقْع حروفه أينما حلّ، فكم تمنته الربى _ قبل أن يرتحل ويهاجر_ أن يكون لها بمثابة المطر الذي يسقيها، والحلم الأخضر االذي ينشر السلام والجمال في روابيها، فيقول:

لا تَحْسَبَنَّ الْهَجْرَ يَرْفَعُ قَدْرَهُ فالأَرْضُ وَقْعَ حُروفِهِ تَتَعَشَّقُ
قَبْلَ ارْتِحالٍ كَمْ تَمَنَّتْهُ الرُّبَى مَطَراً.. وَحُلْماً أَخْضَراً يَتَفَتَّقُ

ملمحاً بذلك إلى حنينه إلى الوطن (إلى الربى والندى)، فيشعر بانتشاء أطرافه، وكأنّ صوت وطنه يناديه قائلاً : عدْ يا حبيبي فالندى لا يُحرق ؛ فيقول:

هَمَسَتْ بِهِ وَقَدِ انْتَشَتْ أَطْرافُهُ عُدْ يا حَبيبي، فَالنَّدى لا يُحْرَقُ

وفي هذا السياق يشير إلى الدور الذي يلعبه شعراؤنا وأدباؤنا في المهجر، الذين لم يفرّطوا بثقافتهم ولا بلغتهم، فيتوجّه للأديب منهم يناديهم بقوله "يا ابن العروبة" ويطلب منه أن لا يخشى نظم الأرجوزة، التي تاقت الناس لسماعها في المشرق والعالم أجمع؛ ليصل إلى تصوير شعور الغربة، والدعوة لربّ الكون أن يعين الشاعر في غربته، ويدعوه أن لا يعزف عن النشيد، لعله يستطيع أن يعتق من خلاله الإنسان ويحرره من شعور الغربة. يقول في ذلك:

شُعَراؤنا، أُدَباؤنا، نُقَّادُنا غَزَلوا الْبَراءَةَ مِشْلَحاً وَتَنَمَّقوا
رَدُّوا الْقَصائِدَ لِلْمَضارِبِ، هَمُّهُمْ أَنْ لا يُفَرِّطَ بِالأَصالَةِ أَحْمَقُ
مِجْذافُهُمْ كَفٌّ تُرَوِّضُ هَجْرَهُمْ وَعَلَى أَصابِعِهِم تَرَنَّحَ زَوْرَقُ
يا ابْنَ العُروبَةِ لا تَسَلْ فَعُيونُهُمْ تَزْدادُ سِحْراً عِنْدَما تَتَأَرَّقُ
فَاكْتُبْ، أَديبي، لا تَخَفْ أُرْجوزَةً سَئِمَ الْمَغيبُ سَماعَها والْمَشْرِقُ
أَنْشِدْ، أَعانَكَ خالِقي، في غُرْبَةٍ فَلَعَلَّكَ الإنسانَ فيها تُعْتِقُ

وينقلك في قصيدة أخرى إلى مشاعر الغربة والحنين إلى الوطن يبث فيها لواعج نفسه المتعطشة إلى تراب الوطن، وإلى لقيا الأهل والأصدقاء والأحبة، فيقول في ديوان " إلهي جديد عليكم"[73]:

غَريبٌ أَنا
في دِيارِ الأَحِبَّةِ
أَمْشي
وَأَرْكُضُ خَلْفَ الضَّياعِ

وَأَغْزِلُ نَجماً كَنَجْمِ الْمَجوسِ
مُضيئاً
لِيُرْشِدَني إِلى مِذودِ حُبّي
أَنا مَنْ أَنا؟
مَنْ أَكونُ؟
فَصَمْتي رَهيبٌ
وَعَيْشي كَئيبٌ
وَأَتْرِبَةُ الْحُزْنِ تَأْكُلُ نَعْلي
وَجَورَبِيَ الْعالِقَ خَوفاً
بِأَطرافِ ثَوبي
أَنا مَنْ أَنا؟

كما دفعته قوميته العربية للكتابة عن الجرح الفلسطيني، والحلم بالعودة إلى أرضه، واستعادة أراضيه المسلوبة، وعن العراق واحتلاله، ومشاعر الحب القومي الذي تربطه به. فقال مخاطباً الشعب الفلسطيني[74]

نَعُودُ؟
إِلى أَرْضِنا سَنَعُودْ
وَنَقْذِفُ جَنْباً شَريطَ الْحُدُودْ
فَلَسْطِينُ أَنْتِ بِلادي.. وَهَلْ
سَأَتْرُكُ لِلْغَيْرِ أَرْضَ الْجُدُودْ
هلُمُّوا إِلى قُدْسِنا
رَاجِعين
لِنَطْرُدَ مِنْها الْعَدُوَّ اللَّدُودْ

وعن العراق قال:

أَرضَ الْعِراقِ.. أَتَيْتُكِ
وَالْهَجْرُ يَغْتالُ البَنينْ
عُمْري انْتَهى
وَصَبابَتي
تَحْكي حَكايا غُرْبَتي
كَيْفَ احْتَبَسْتُ القَهْرَ أَعْواماً
وَعارَكْتُ الحَنينْ
كَيْفَ احْتَرَفْتُ الْقَفْزَ مِنْ شَكٍّ إِلى شَكٍّ
لأَحْظَى بِالْيَقينْ[75]

والشاعر في كل ما نظمه يستعيد ذكرى شعراء المهجر الذين مثلوا وعي الوطنية والقومية العروبية، من منافيهم في مستهل القرن العشرين كجبران، وأبو ماضي، ونعيمة، والشاعر القروي وغيرهم.

ومن أستراليا ننتقل إلى كندا وإلى الشاعر اللبناني "جون عصفور"، الذي ترك البلاد مهاجراً ، بعد أن انفجرت قنبلة في وجهه خلال الأزمة اللبنانية عام 1958 أدّت إلى فقده البصر وهو في عمر الثلاثة عشر ربيعاً، فانتقل إلى كندا وأصبح أستاذاً للأدب في مونتريال كيبك، ألف خمسة مجلدات شعرية بالإنكليزية، ومجلدين بالعربية، نظّم مؤتمرين حول حقوق المهاجرين العرب وواجباتهم برعاية وزارة الهجرة في كيبك. شغل منصب رئيس الاتحاد العربي الكندي، ونال جوائز كندية وعالمية[76].

تأثر جون عصفور بالكاتب الفلسطيني الأميركي "إدوارد سعيد" المدافع عن حقوق الشعب الفلسطيني، والذي اعتبر الصوت الفعّال للقضية القلسطينية، والذي أدى به الجمع بين الهويتين الفلسطينية والأميركية إلى الشعور بعدم الانتماء و ضياع الهوية مما دفعه إلى كتابة سيرته الذاتية "خارج المكان" لتوضيح هذه النظرة. وبعد وفاة "سعيد" نظم "عصفور" قصيدة بعنوان " إلى إدوارد سعيد" أشار فيها إلى دور "سعيد" السياسي في الدفاع عن إنشاء دولة فلسطين، وحق عودة الفلسطينيين؛ فيتملكه الأسى على وفاته، فلولا موته لكان حقّق كل الأماني التي حلم بها، مما تسبّب في زجر عنفوان وطنه وإبطاء مسيرته، ولكن رغم الموت فهو سيبقى حياً في الكتب والأفكار، سيبقى رؤيا حكيمة، ومعجزة وجواز سفر إلى بلاد متحرّرة تعمّها الأفراح، وإن فلسطين المحتلّة ستولد لا محالة من جديد وستنهض من تحت الركام، وسيحطم الناس فيها الأصفاد والسجون المغلقة، فيقول:

قل لي كيف ، في بناء بلادك، تعثرتَ بالموت
زجرتَ عنفوانه، أبطأتَ مسيرته
وكيف ستعيش في الكتب والأفكار، رؤيا حكيمةً
معجزة، جوازَ سفر
هل يمكن أن نقول أنّ عرساً في الأفق ثمة
والعروس ترفلُ في ثيابها
وأن بلداً تولدُ من الدمار
وأن ناساً يحطّمون الأصفاد
والسجون المغلقة

ويتوجه إليه بالقول متسائلاً :

كيف محوتَ كل الأكاذيب الموجّهة لك ولنا دون منطق
أو دليل يدعمُ الإهانةَ
كيف نزعتَ التشويهَ عن تاريخنا

ومسحتَ الغبارَ عن سجلاّتنا
وعلمتنا أن نكون فخورين
وأن نحوّل منافينا إلى أوطان
علمتنا أن نتمسك بصورة وندافع عنها
إلى أن يقول :
رحلتَ عبر العالم لتنظم فوضى حالتنا
وتعيدَ اختراع مفهوم السلام في كل مكان
ودرّبت كل واحد منا لنعرف رغباتنا
ولا نخاف شغف فكرنا وجسدنا
رغباتنا أن نعبر الحدود دون نقطة تفتيش
أن نكون أحراراً
أن لا تؤخذ بصماتُنا ونصنّفَ
أن لا تُطمسَ وتشوّه وجوهُنا على أي شاشة أو صفحة أولى

وهكذا لم تشغل الغربة، ولا الحياة الجديدة، والمناصب الجديدة الشاعر "جون عصفور" عن التفكير بقضايا العرب، فلم يخف إعجابه بالمفكر الفلسطيني المدافع عن القضية الفلسطينية " إدوارد سعيد"، فدفعت به حميته القومية إلى نظم هذه القصيدة، معتدّاً فيها بمواقف هذا المفكر المناضل، ومدافعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني، الذي يستحق أن ينعم بحقوقه وحريته. وهو لا يختلف في ذلك عن كثير من شعراء المهجر في عصر النهضة، ممن شغلتهم هذه القضية، فلم يتركوا مناسبة إلاّ وتطرقوا إليها في خطبهم وأشعارهم. ومن كندا وجون عصفور ننتقل إلى فرنسا وإلى الكاتب اللبناني "أمين معلوف" (1949) ، الذي يقيم في فرنسا، وله العديد من المؤلفات في الرواية والتاريخ والمسرح الشعري والسياسة، والذي انتُخب في عضوية أكاديمية اللغة الفرنسية، وحاز على العديد من الجوائز والأوسمة الأدبية الفرنسية.[77] والذي ما منعته جنسيته الفرنسية التي حصل عليها ، ولا شهرته من التنكر من هويته العربية، ولا من لغته العربية، بل دعا إلى التمسك بالهُوية الأم، والحفاظ على لغة الأجداد. ففي كتابه "الهُويات القاتلة "[78] يشير إلى أنّ اللغة تبقى " من أهم العناصر تحديداً للانتماء، وهي لا تقلّ عن الدين الذي كان على مدى التاريخ منافسها الأساسي بطريقة ما، وأحياناً حليفها....إنّ اللغة تمتلك تلك الخصوصية المدهشة في أنها عنصر هُوية وأداة اتصال في الوقت ذاته....وإنّ فصل اللغة عن الهوية غير ممكن وغير مفيد. فقدر اللغة أن تبقى محور الهُوية الثقافية"[79] وهو يظهر إلى أن كل إنسان له الحق والحرية في الاحتفاظ بلغته الأم التي تحدد هوية انتمائه، وإنّ هذه الحرية هي أكثر أهمية من حرية المعتقد[80].

وحول هيمنة اللغة الإنكليزية في حياتنا اليومية يرى " معلوف " أن الإنكليزية وإن كانت تلبي تماماً بعض حاجياتنا الحالية، فهناك حاجات أخرى لا تلبيها وعلى رأسها الحاجة إلى الهُوية"[81]. وإنه لا يمكن للإنكليزية أن تلعب هذا الدور إلاّ إذا أردنا " خلق أفواج من الكائنات المضطربة والمنحرفة وذات الشخصية المشوّهة"[82]. ويستنكر أن يضطر المرء إلى ترك لغة هويته من أجل أن يشعر بالراحة في عالمه الجديد، بل يستنكر الأمور التي تدفع بالمرأ إلى "الاغتراب" الذهني كلما فتح كتاباً، أو جلس أمام شاشة، أو ناقش فكراً. ويلتمس الحل المناسب لتجنب المآسي التي تجلبها التخلي عن اللغة باللجوء إلى الترجمة؛ فيقول: " ولكي نتجنّب المآسي نفضل أن نترجم ونترجم ونترجم مهما كان الثمن.. وإنه يجب أن نحافظ على لغة هُويتنا وعدم تركها في المؤخرة كيلا يصبح الذين ينطقون بها مضطرين إلى التحوّل عنها، إذا كانوا يريدون الوصول إلى ما تقترحه عليهم حضارة اليوم"[83].

والمعلوف كمثقف يحمل الهويتين، ويعاني الشعور بالتمزق والتشتت جراء ذلك، يدعو ويشجع على إدراك الهُوية ذات الانتماءات المختلفة، بدلاً من اختزالها في هُوية واحدة تُفرض عليه، وتصبح كأداة استعباد، ويدعو كل من لا تلتقي ثقافته الأصلية بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه أن يتمكن من الاضطلاع بانتمائه المزدوج، من دون الكثير من التمزقات التي تستوجبه هذه الازدواجية. مع ضرورة الحفاظ على انتمائه إلى ثقافته الأصلية. وأن لا يشعر إنه مجبر على إخفاء هويته وانتمائه كمن يخفي مرضاً مخزياً، بل يدعوه أن ينفتح بالتوازي على ثقافة البلد المضيف.[84]

الختام

وهكذا نرى أنّ أدباء المهجر سواء في عصر النهضة أم في العصر الحديث والمعاصر، عانوا التبعات نفسها التي فرضتها عليهم ضريبة الهجرة، من حيث الشعور بالغربة، والحنين إلى الأهل والديار؛ وتوجههم لإثبات هُويتهم العربية، التي لم يكن من السهل عليهم التنكر لها واستبدالها بهُوية البلد المُهاجر إليه، بحيث لم يتركوا مناسبة وطنية أو قومية إلاّ وشاركوا فيها بأشعار أو خطب تفي بالمناسبة. من دون أن نغفل شعورهم بالتشتت بين الهويتين العربية والأجنبية؛ ومحاولتهم العمل على إثبات شخصيتهم العربية؛ إنتاجاً أدبياً، ومشاركة فعّالة في مجتمعاتهم الجديدة؛ وإنْ كان هذا الصراع لم يُتناولْ ويُشرْ إليه جليّاً إلاّ مع أدباء المهجر في العصر الحديث والمعاصر. ومن دون أن ننسى أيضاً دور الجاليات العربية الفعّالة في هاتين الفترتين التي عملت كلّ ما في وسعها لإثبات ذاتها وهُويتها؛ من خلال السعي لإنشاء الصحف والمنتديات والمدارس التي حاولوا من خلالها إثبات هُويتهم العربية، وإيصال صورة مشرقة عن تراثهم وحضارتهم لأبناء العالم الجديد الذي هاجروا إليه.

الهوامش

1 أسماعيل عبد الكافي، التعليم والهوية في العالم المعاصر (مع التطبيق على مصر)، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2001، (سلسلة دراسات استراتيجية؛ العدد 66)، ص. 7

2 انظر إسماعيل عبد الكافي، التعليم والهوية...، ص. 17 – 18

3 م. ن.، ص. 18

4 م. ن.، ص. 14

5 تركي رابح، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1402هـ – 1982م، ص. 103.

6 عبد الرزاق البصير، نظرات في الأدب والنقد، الكويت، مجلة العربي، (سلسلة كتاب العربي؛ 28)، 1990، ص. 31.

7 انظر جورج صيدح ، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، الطبعة الثانية منقحة، بيروت، د. ن.، 1957. حيث عرض في هذا الإطار بواعث الهجرة في عصر النهضة في بدايات القرن الماضي، التي لا تختلف أبداًعن البواعث الحالية التي يعيشها الناس في زمننا المعاصر من ظروف معيشية خانقة اقتصادية واجتماعية وسياسية.

8 انظر جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في الامهاجر الأميركية، ص. 23، تحت عنوان " بواعث الهجرة"

9 إلياس قنصل، مأساة الحرف العربي في المهاجر الأميركية، دمشق، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1980، ص. 8 – 9

10 إلياس قنصل ، م. ن.، ص. 13

11 إلياس قنصل، م. ن.، ص. 16 – 17 وما أشار إليه من إرسال "المستشفى السوري اللبناني" بمقادير من الدم لجرحى العرب في حرب حزيران

12 إلياس قنصل، م. ن. ، ص. 49

13 إلياس قنصل، م. ن.، ص. 50

14 إلياس قنصل، م. ن. ، ص. 26 – 27

15 فكانت " الهدى" لصاحبها نعوم مكرزل في الولايات المتحدة، وكانت " الجريدة السورية اللبنانية" في الأرجنتين، وكانت " الإصلاح" في تشيلي . راجع أهم الصحف التي ظهرت في الأميركيتين، وتوجهاتها السياسية إلياس قنصل، م. س. ص. 24 – 29

16 انظر إلياس قنصل، م. س. ، ص. 21

17 إلياس قنصل، م. س. ، ص. 20

18 انظر إلياس قنصل، م. س. ، ص.30 – 31، 45.

19 انظر عبد الكريم الأشتر، النثر المهجري: المضمون وصورة التعبير، الطبعة الثالثة، (دمشق) ، دار الفكر، 1970، ص.15 – 17

20 انظر عبد الكريم الأشتر، م. ن. ، ص. 17 – 18 حيث أشار على حرص بعضهم على لقب (البيك) الذي جاء به من الوطن، وحرص بعضهم على ذكر شفيع كنيسة القرية التي هاجروا منها. كما أشار إلى احتفاظهم بخلافاتهم المذهبية والطائفية والقروية، حيث التفت كل طائفة حول نفسها، وأصدرت نشرة أو جريدة تحمل رأيها، وإنه كثيراً ما كانت تشب بين هذه الصحف معارك مخجلة تزيد في تمزيقهم، بالإضافة إلى وقوع بعض جرائم القتل إجابة لثأر قديم كان قد قام في الوطن.

21 عبد الكريم الأشتر، م. س. ص. 19

22 انظر إلياس قنصل، مأساة الحرف العربي في المهاجر الأميركية، ص. 65 – 66.

23 انظر إلياس قنصل، م. ن. ، ص. 67 – 68

24 يترأسها جبران خليل جبران "عميداً"، ميخائيل نعيمة "مستشاراً"، وليم كاتسفليس "خازنا"، ويعمل تحت لوائها سبعة آخرون، يحملون اسم "العمال" وهم: إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، عبد لمسيح حداد، رشيد أيوب، ندره حداد،وديع باحوط، ، وإلياس عطا الله.

25 تتألف من ميشال معلوف رئيساً، داود شكور نائب رئيس، نظير زيتون أمين السر، يوسف البعيني أمين الصندوق، حبيب مسعود خطيباً، وكل من الأعضاء: نصر سمعان، حسني غراب، يوسف غانم، إسكندر كرباج، أنطون سليم سعد، وشكر الله الجر.

26 راجع حول نشأة الأدب المهجري واتجاهاته، وحول نشأة الرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية، ومؤسسي كلّ منهما: عيسى الناعوري، أدب المهجر، الطبعة الثالثة، مصر، دار المعارف، 1977، ص. 17 – 31

27 عبد الكريم الأشتر، م. س. ، ص. 20 – 21

28 حيث استقوا ثقافاتهم من مصادر متقاربة أو موحدة، وعانوا تجارب مماثلة، مما قرّب بينهم وجهات النظر راجع حول مصادر التكوين الفكري لكتّاب الرابطة عبد الكريم الأشتر، م. س. ، ص. 23 – 24– 25

29 انظر عبد الكريم الأشتر، م. س. ، ص. 21

30 ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، بيروت، د. ن. ، 1943 ص. 176

31 انظر عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص. 21

32 وقد ترك يوسف البعيني في مجلة "العصبة" عام 1949 عدداً ذكر فيه ممن كتب وترك مؤلفات بلغات أجنبية، مع كتابة القليل منهم بالعربية، انظر عيسى الناعوري، م. ن.، ص. 41 – 43.

33 انظر عيسى الناعوري، م. س. ، ص. 47، حيث أشار إلى جهد السيدة "مريانا دعبول الفاخوري" التي كانت تصدر في البرازيل مجلة "المراحل"، م أعلنت عن إنشاء رابطة جديدة باسم " جامعة القلم"

34 انظر حول أهداف هذه الربطة م. ن. ، ص. 47 – 48

35 الفرد خوري، الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار ريحاني للطباعة والنشر، د. ت. ، ص. 14

36 م. ن. ص. 16

37 م. ن. ، ص. 18

38 الذي أول من دعا إلى الشعر لمنثور متأثراً يالشاعر الأميركي والت وتمان

39 وفي هذا الصدد قال نعيمة في كتابه الغربال: إنه يذكر أنه قرأ انتقاداً من كاتب مصري لقصيدة جبران " المواكب" وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت: " هل تحممت بعطر وتنشفت بنور" مستنكراً لفظة "تحمّمت" وإنه ليس في اللغة كلمة "تحمم" بل "استحم" فقامت قيامة نعيمة فقال ساخراً " سألتكم يا سادتي، باسم العدل والفهم والقاموس. لماذا جاز لبدوي لا أعرفه ولا تعرفونه أن يُدخل على لغتكم كلمة "استحم" ولا يجوز لشاعر أعرفه وتعرفونه أن يجعلها "تحمّم"؟ وأنتم تفهمون قصده بل تفهمون " تحمّم " قبل أن تفهموا " استحمّ". وما هي الشريعة السرمدية التي تربط ألسنتكم

بلسان إعرابي عاش قبلكم بألوف السنين ولا تربطها بلسان معاصريكم...." أنظر ألفرد خوري، م. ن. ، ص. 20 – 21 ؛ وراجع عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص. 71

40 انظر جبران خليل جبران، نصوص خارج المجموعة، جمع أنطوان القوّال، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1994، ص. 93 – 97

41 انظر ألفرد خوري، م. س. ، ص. .23 – 24

42 جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، تقديم وإشراف ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر، د. ت.، ص. 560

43 جبران خليل جبران، م. س. ، 286 – 287

44 انظر عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص. 21

45 رشيد سليم الخوري، ديوان القروي، الأعمال الكاملة (الشعر)، طرابلس، لبنان، جروس برس، الطبعة السادسة، 1986، ص. 444.

46 تظهر هذه النزعة في تلك النداءات الإنسانية التي تهز النفوس بحنان عذب من مثل : " اخي، صاحبي، رفيقي، وغيرها" هذه االتعابير التي لم يعرفها سابقاً الأدب العربي بمثل هذه الرقة من ذلك ما ورد في قصيدة إيليا أبو ماضي " الفاتحة" حين قال : يا رفيقي! أنا لولا أنت ما وقّعتُ لحنا؛ وفي قصيدة الطين حين قال: يا أخي لا تُشحْ بوجهك عني ما أنا فحمة، ولا أنت فرْقد ؛ وقول نسيب عريضة: يا ابن ودّي، يا صاحبي ، ياصديقي ليس حبي تطفلاً أو ثقاله؛ وقول ندرة حداد : يا أخي الساعي لنيل ال مجد خفف عنك جمحكْ. انظر عيسى الناعوري، م. ن. ص. 55

47 عيسى الناعوري، م. ن. ص. 69

48 عيسى الناعوري،م. ن. ص. 54

49 إلياس قنصل، م. ن. ص. 89

50 م. ن. ص. 90

51 راجع عبد الحسين شعبان، الثقافة العربية في المهجر : الهوية وأدب المنفى، https://m.facebmmk.com وراجع أيضاً wwu.mahewar.org

52 م. ن.

53 الأدب اللبناني في المهجر والمغتربات: وقائع المؤتمر الدولي، بيروت، اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو، الطبعة الأولى، 2010، ص. 21

54 م. ن. ص. 27 – 28

55 م. ن. ، ص. 33

56 راجع أحمد أبو رتيمة، عربي 21، (الجمعة 10 مارس 2017) https://m.arabi21.com

57 م. ن.

58 انظر الأدب اللبناني في المهجر والمغتربات: وقائع المؤتمر الدولي، ص. 51 – 52

59 راجع كتاب إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، الطبعة الأولى، 2000 ، المقدمة ص. 8 – 9

60 راجع كتاب أمين معلوف، الهويات القاتلة : قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، دمشق، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1999، المقدمة ص. 10

61 انظر د. صبحي غندور، أزمة الهوية ودور المهاجرين العرب، (26 يوليو 2017) www.yemeninews.net تمت الزيارة في 15/7/2020 الساعة الثالثة بعد الظهر.

62 نجاة مرسي، حول نشأة الأدب العربي المهجري، retrieved 22K March 2007 نقلاً عن سعيد تركي الشهراني، كيف حافظ العرب الاستراليون على الثقافة والأدب العربي في بلد المهجر http:// nagatmorsimuseum.blogspot.com 2010/11/blog_post.html2m=l

63 Salim zabai,1989 azabal information Report, 1989 نقلاً عن الموقع الألكتروني نفسه م. ن.

64 انظر سعيد تركي الشهراني، كيف حافظ العرب الأستراليون على الثقافة والأدب العربي في بلد المهجر nagatmorsimuseum.blogspot.com 2010/11/blog_post.html2m=l

65 وعلى رأس هذه المجموعة الشاعرة والأديبة اللبنانية الكندية "رندة رفعت شرارة"، مع الشاعرين جويل عماد وجان كرم. انظر الحركة الإبداعية في كندا.. ملتقى ثقافي للحفاظ على اللغة العربية www.aljazeera.net/news/cultureandart/28/2019 تمت الزيارة 18/7/2020

66 م. ن.

67 م. ن.

68 ذكر "حكيم القروي" مستشار ماكرون لشؤون المسلمين، في تقرير بعنوان" صناعة الإسلام للتطرّف" أنه كلما تأخرنا في تعليم اللغة العربية في المدارس كلما ارتفع عدد التلاميذ في المساجد وإن المعركة التي تدور حالياً هي معركة المعرفة. التلميذ في المدرسة بإمكانه أن يطوّر تفكيره ويضع الأحداث في إطار سياقها التاريخي خلاف ما يمكن أن يستمع إليه في المساجد" انظر www.france24.com/ar/20180911 and www.infomigrants.net/ar/post/11978

69 وقد اقتصرت في هذا البحث على عرض وضع اللغة العربية في كلّ من أستراليا وكندا وفرنسا، مع العلم إن هذه الظاهرة موجودة في كل بلدان المهجر الأوروبي والأميركي

70 راجع حول المعوقات التي تقف حاجزاً أمام تعلّم اللغة العربية كتابنا، الحضارة واللغة، الطبعة الأولى، بيروت، مجموعة الرشاد الثقافية، 1439هـ – 2018م، ص. 38 – 40

71 شربل بعيني أحد الشعراء اللبنانيين المغتربين في أستراليا، كان أول من أصدر ديواناً شعرياً باللغة العربية مطبوعاً في أستراليا اسمه "مجانين"، وقد اختارته الجامعة اللبنانية الثقافية – قارة أميركا الشمالية أميراً للشعر الاغترابي عام 2000، كما منحته رابطة إحياء التراث العربي جائزة جبران العالمية، وكرمته السفارة اللبنانية في العاصمة الأسترالية كانبرا عام 1987، أيام السفير الدكتور لطيف أبو الحسن وبحضور السلك الدبلوماسي العربي، كما شارك بمهرجانات المربد الشعرية في العراق عام 1987، وقال عنه يومذاك الدكتور الأب يوسف سعيد: شربل بعيني هزّ المربد الشعري الثامن في العراق. أصدر العديد من الكتب المدرسية والأدبية، وألف وأخرج العديد من المسرحيات التي أسهمت ببناء مسرح الأطفال العرب في أستراليا. كتبت عنه المؤلفات الكثيرة، وترجم العديد من مؤلفاته إلى الإنكليزية والفرنسية والأسبانية ولغة أردية والسريانية والفارسية. ولد عام 1951 في بلدة مجدلياالشمالية، كما منحته عام 2014 وزارة الثقافة اللبنانية درعاً تكريمياً لنشاطه الشعري المميز. [1]. "http://www.charbelbainibook.blogspot.com.au/ </

72 انظر م. ن.

73 هدلا القصار، شاعر الماركة المسجلة، الشاعر اللبناني "شربل بعيني المهاجر" نقلاً عن www.arabicnadwah.com تمت الزيارة في 25/9/2020

74 شربل بعيني، حوار مع القمر، نقلا عن هدلا القصار م. ن.
75 شربل بعيني، كيف أيعنت السنابل، قصيدة " أرض العراق أتيتك" نقلا عن هدلا القصار الانترنت
76 انظر https://ar.wikipedia.org/wiki جون عصفور، تمت الزيارة 26/9/2020
77 تمت الزيارة 9/27/ 2020 https://ar.wikipedia.org/wiki
78 انظر أمين المعلوف، الهويات القاتلة، ص. 7 – 8 ، حيث يعرض في مقدمة كتابه شعوره بأنه نصف لبناني ونصف فرنسي، رافضاً قطع الحبل السرّي الذي يربطه بلغته.
79 م. ن.، ص. 116 – 117
80 م. ن.، ص. 118
81 م. ن.، ص. 121.
82 م. ن. ، ص. 122
83 م. ن.، ص. 123، 125
84 م. ن.، ص. 139.

لائحة المصادر والمراجع:

الأدب اللبناني في المهجر والمغتربات: وقائع المؤتمر الدولي، بيروت، اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو، الطبعة الأولى، 2010
الأشتر، عبد الكريم، النثر المهجري: المضمون وصورة التعبير، الطبعة الثالثة، (دمشق) ، دار الفكر، 1970
البصير ،عبد الرزاق، نظرات في الأدب والنقد، الكويت، مجلة العربي، (سلسلة كتاب العربي؛)28 ، 1990
جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة، تقديم وإشراف ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر،د. ت.
جبران، جبران خليل، نصوص خارج المجموعة، جمع أنطوان القوّال، بيروت، دار الجيل، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1994
خوري، ألفرد، الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار الريحاني للطباعة والنشر، د. ت.
الخوري، رشيد سليم، ديوان القروي، الأعمال الكاملة (الشعر)، طرابلس، لبنان، جروس برس، الطبعة السادسة، 1986
الدسوقي، منى، الحضارة واللغة، الطبعة الأولى، بيروت، مجموعة الرشاد الثقافية، 1439هـ – 2018م
رابح، تركي، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1402هـ – 1982م
سعيد، إدوارد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، الطبعة الأولى، 2000
صيدح، جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، الطبعة الثانية منقحة، بيروت، د. ن.، 1957.
عبد الكافي، إسماعيل، التعليم والهوية في العالم المعاصر (مع التطبيق على مصر)، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2001، (سلسلة دراسات استراتيجية؛ العدد 66)
قنصل، إلياس، مأساة الحرف العربي في المهاجر الأميركية، دمشق، منشورات إتحاد الكتّاب العرب، 1980
معلوف، أمين، الهويات القاتلة : قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، دمشق، وورد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1999
ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، بيروت، د. ن.
الناعوري، عيسى ، أدب المهجر، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف، 1977

المواقع الألكترونية

www.aljazeera.net/news/cultureandart/28/2019
https: //m.arabi21.com
www.arabicnadwah.com
http://www.charbelbainibook.blogspot.com.au/
https://m.facebmmk.com
www.france24.com/ar/20180911
www.infomigrants.net/ar/post/11978
wwu.mahewar.com
nagatmorsimuseum.blogspot.com
https://ar.wikipedia.org/wiki
www.yemeninews.net

المكافحة القانونية للهجرة غير الشرعية

د.ملاك عرب دعكور
كلية حقوق
الجامعة اللبنانية

المقدمة

تستجيب ظاهرة الهجرة على امتداد التاريخ الإنساني لتطلعات الأفراد من حيث تطوير حياتهم أو من حيث تغيير ظروفهم لحياة أفضل.

وفي عصرنا الحالي، تحوّلت الهجرة الى معضلة سواء بالنسبة للدول المصدّرة أو تلك المستقبلة، وذلك من منطلق تداعياتها وانعكاساتها المختلفة على الطرفين. فقد عرفت ظاهرة الهجرة تطوّرًا غير مسبوق خلال السنوات الأخيرة، وذلك بفعل الأزمات السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي شهدتها الكثير من دول منطقة الشرق الأوسط ؛إلاّ أنه، ومع توجّه الدول الى فرض التأشيرات ومراقبة الحدود، بدأ الحديث عن هجرة قانونية وأخرى غير قانونية خلافًا للمواثيق والإتفاقيات الدولية الداعمة لحرية التنقل والانتقال.وباتت الهجرة غير الشرعية النتيجة الطبيعية للازمات السياسية والاقتصادية ولحالة المنع وإغلاق الأبواب أمام الهجرات الشرعية.

فالهجرة غير الشرعية تتعدّى حدود الدولة، بل قد يكون لها أطراف كالدولة المصدّرة للمهاجرين غير الشرعيين، والدولة المستقبلة لهم، إضافة الى دولة العبور.

وعليه، فإن الهجرة غير الشرعية هي التي تتم خلافًا للإتفاقات والمعاهدات الدولية أو بشكل يخالف قانون الدولة المصدّرة للمهاجرين أو قانون الدولة التي يمرّون عبرها عن طريق الترانزيت أو الدولة المستقبلة لهم. وتعدّ الهجرة غير الشرعية ظاهرة جديدة على الساحة الدولية، ما يستدعي أن يكون لها حيّز كبير في التشريعات الدولية والوطنية، لأنها تمسّ المجتمع الدولي بكامله، إضافة الى تباين أحكام التشريعات الدولية والوطنية المتعلقة بالهجرة غير الشرعية باعتبارها شكلًا من أشكال الجريمة المنظّمة العابرة للحدود.

لذلك، فإن مكافحة ظاهرة الهجرة غير الشرعية تتطلب معالجة عن طريق المواثيق والمعاهدات الدولية، وهو ما تمثّل بجهود منظّمة الأمم المتحدة في مكافحة الهجرة غير الشرعية من خلال وضعها بروتوكول

خاص عن مكافحة تهريب المهاجرين عن طريق البر والبحر والجو المكمّل لإتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية أو ما يعرف باتفاقية "باليرمو" عام 2000، حيث كان هدف البروتوكول هو منع ومكافحة تهريب المهاجرين من جهة، وتعزيز التعاون بين الدول الأطراف تحقيقًا لتلك الغاية مع حماية حقوق المهاجرين المهربين من جهة أخرى.

تجدر الإشارة الى أنه، وبتاريخ 2005/8/24، وبموجب القانون رقم 680، صدر عن المجلس النيابي اللبناني القانون الذي أجاز للحكومة الإنضمام الى إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية. كذلك صدر، وفي التاريخ عينه، عن المجلس النيابي اللبناني القانون رقم 681 الذي أجاز للحكومة الإنضمام الى بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين عن طريق البرّ والبحر والجو المكمّل لإتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية.

بناءً عليه، تكمن الإشكالية في بحثنا هذا في النظر الى مدى الإلتزام بتطبيق إتفاقية الأمم المتحدة وبروتوكولها في مكافحة تهريب المهاجرين غير الشرعيين، وفي مدى فعالية التشريع الوطني لمكافحة الهجرة غير الشرعية فضلاً عن تبيان العلاقة بين الهجرة غير الشرعية والجرائم المنظّمة العابرة للحدود.

وعليه، سنقوم بتقسيم البحث الى فصلين :

الفصل الأول : ماهية الهجرة غير الشرعية.

الفصل الثاني : الإطار التشريعي للهجرة غير الشرعية.

الفصل الاول: ماهية الهجرة غير الشرعية

شهدت ظاهرة الهجرة غير الشرعية في ظل العولمة تطورا سريعا على صعيد انتشارها وتزايدها اذ تجاوزت حدود الدول حيث أصبحت من أهم المواضيع التي تثير اهتمام المجتمع الدولي. رغم ذلك،الا اننا نلاحظ وجود التباس بينها وبين غيرها من المصطلحات،لذلك سنقوم بتوضيح مفهوم الهجرة غير الشرعية(المبحث الاول) من خلال تعريفها وتميزها عن غيرها من التحركات السكانية من ناحية،وتبيان علاقتها مع الجريمة المنظمة عبر الوطنية من ناحية أخرى(المبحث الثاني).

المبحث الاول: مفهوم الهجرة غير الشرعية

تثير ظاهرة الهجرة غير الشرعية التساؤل حول تعريفها وعن كيفية تمييزها عن غيرها من المفاهيم.لهذا سنقوم بتحديد تعريفها في المطلب الاول من هذا المبحث على أن نميز بينها وبين غيرها من التحركات السكانية في المطلب الثاني.

المطلب الاول:تعريف الهجرة غير الشرعية

لم يضع المشرع اللبناني تعريفًا للهجرة غير الشرعية، إلاّ أنه يتبيّن لنا أن مكتب العمل الدولي قد سعى لوضع تعريف للمهاجرين غير الشرعيين من خلال الفقرة الأولى من المادة الثانية من الإتفاقية رقم 143 لعام 1975 التي اعتبرت أن المهاجرين هم الذين أثناء سفرهم وعند وصولهم أو أثناء إقامتهم واستخدامهم يكونون في ظروف تنطوي على إخلال بالصكوك أو الإتفاقيات الدولية متعدّدة الأطراف أو الثنائية أو بالقوانين أو اللوائح الوطنية[1].

وعليه، فإنه يترتب على مخالفة قوانين الهجرة إضفاء الوصف غير القانوني على حركة الإنتقال ؛ إلاّ أنه في الوقت عينه لا يمكن الإعتداد بفئة واحدة من المهاجرين غير الشرعيين، إذ يوجد أنواع مختلفة من الهجرة غير الشرعية – والتي سنلحظها لاحقًا – ومردّ ذلك الى الأوضاع المختلفة لكل من المهاجرين والتي تستتبع إعتماد أساليب متنوّعة من الوقاية[2].

بدوره، يعرّف البرلمان الأوروبي المهاجر غير الشرعي بأنه الشخص الذي يدخل الإتحاد دون إذن أو الحصول على التأشيرة المطلوبة أو الذي يتجاوز مدة إقامته بعد إنتهاء تأشيرته[3].

كما عرّف البعض الهجرة غير الشرعية بأنها تتمثّل في دخول الشخص حدود دولة من دون وثائق قانونية تفيد بموافقة هذه الدولة على ذلك، أو دخول الشخص حدود دولة ما بوثائق قانونية لفترة محدودة ومن ثم بقاؤه فيها الى ما بعد الفترة المشار إليها دون موافقة قانونية مماثلة[4].

هذا ويطلق على الهجرة غير الشرعية تسمية الهجرة السرية نظرًا لأن الدولة المهاجر منها والأخرى المهاجر اليها لا علم لها بحركة المهاجرين، ويضاف الى ذلك أن المهاجر لا يلتزم في هذه الحال بالقوانين المرعية ولا بالضوابط اللازمة لاعتباره مقيمًا شرعيًا في أرض الغير [5].

وعليه، يمكن تحديد أنواع المهاجرين السريين بثلاثة :

- الأشخاص الذين يدخلون بطريقة غير قانونية دول الإستقبال ولا يسوون وضعهم القانوني.
- الأشخاص الذين يدخلون دول الإستقبال بطريقة قانونية ويمكثون هناك الى ما بعد إنقضاء مدة الإقامة القانونية.
- الأشخاص الذين يعملون بطريقة غير قانونية خلال إقامة مسموحة قانونًا[6].

من جهتها، ووفقًا للمفوضية الأوروبية، يستخدم مصطلح الهجرة غير الشرعية للدلالة على التحركات السكانية المختلفة التي تتم بدخول أو خروج غير قانونيين عبر أحد المنافذ البرية أو البحرية أو الجوية بوثائق مزوّرة أو بمساعدة شبكات الجريمة المنظمة، كما أن هناك عددًا من الأشخاص يدخلون بصورة قانونية وبتأشيرة صالحة لكنهم يبقون أو يغادرون دون الحصول على موافقة السلطات[7].

المطلب الثاني:التمييز بينها وبين غيرها من التحركات السكانية

يلتبس مصطلح الهجرة غير الشرعية مع غيره من المفاهيم التي تدور حول فكرة التحركات السكانية،ولتوضيح ذلك الالتباس سنتناول اللجوء في الفقرة الاولى،من ثم النزوح في الفقرة الثانية.

الفقرة الاولى:اللجوء

تنص الفقرة الأولى من المادة الأولى من إتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بوضع اللاجئين لسنة 1951 على أنه يعتبر لاجئًا كل شخص يوجد، وبسبب خوف له ما يبرره من التعرض للإضطهاد بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو إنتمائه الى فئة إجتماعية معينة أو آرائه السياسية، خارج بلد جنسيته ولا يستطيع أو لا يريد بسبب ذلك الخوف، أن يستظل بحماية ذلك البلد، أو كل شخص لا يملك جنسية ويوجد خارج بلد إقامته المعتادة السابق بنتيجة مثل تلك الأحداث، ولا يستطيع أو لا يريد بسبب ذلك الخوف، أن يعود الى ذلك البلد.

وقد أضافت الفقرة "د" من نص المادة ذاتها على أنه لا تنطبق هذه الإتفاقية على الأشخاص الذين يتمتعون حاليًا بحماية أو مساعدة من هيئات أو وكالات تابعة للأمم المتحدة غير مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

يترتب على ذلك إخراج اللاجئين الفلسطينيين من نطاق تطبيق الفقرة "د" وذلك لأنهم يدخلون في اختصاص وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين[8].

هذا ونصّت المادة 14 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن لكل فرد حق إلتماس ملجأ في بلدان أخرى والتمتع به خلاصًا من الإضطهاد.

ولا يمكن التذرع بهذا الحق إذا كانت هناك ملاحقة ناشئة بالفعل عن جريمة غير سياسية أو عن أعمال تناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها.

وعليه، فعلى جميع الدول أن تحترم الملجأ الذي منحته الدول لطالبي اللجوء، وبالتالي في حال تقدّمت حكومة اللاجئ بطلب من دولة اللجوء لتسليمه إليها، فإنه يُرفض طلبها سندًا لنص المادة 14 المذكور أعلاه[9].

والسؤال الذي يُطرح : هل يُطبق على هؤلاء الأشخاص الذين تركوا بلدانهم خلال السنوات الماضية وانتقلوا عبر الحدود بغية الوصول الى بلدان أخرى مصطلح (لاجئون) أو (مهاجرون) ؟

وفق المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين[10]، ينطبق على الأشخاص– الذين وصلوا بواسطة القوارب الى اليونان وإيطاليا وأماكن أخرى خلال الأعوام القليلة الماضية – المصطلحين معًا. ويردّ ذلك الى أنها تستخدم مصطلح لاجئ ومهاجر عند الإشارة الى تحركات الأشخاص عبر البرّ أو في ظروف أخرى تعتقد فيها بأن أشخاصًا من المجموعتين قد يكونون موجودين.

وقد يتم إستخدام مصطلح لاجئ عند الإشارة الى الأشخاص الفارين من الحروب أو الإضطهاد عبر حدود دولية، ومصطلح مهاجر للدلالة على أشخاص ينتقلون لأسباب لا يشملها التعريف القانوني لمصطلح لاجئ.

وهذا يعني أن كل لاجئ هو مهاجر، ولكن لا ينطبق وصف اللاجئ على كل مهاجر.

الفقرة الثانية:النزوح

على الرغم من العدد الكبير من النازحين في أكثر من بقعة في العالم، إلاّ أننا لم نجد إطار قانوني يعطي تعريفًا لهذه الفئة.

إزاء ذلك، عُرّف النزوح بأنه حركة الفرد أو المجموعة من مكان الى آخر داخل حدود الدولة رغمًا عن إرادة النازح، بسبب مؤثّر خارجي مهدّد للحياة بحيث يدفع النازح الى مغادرة موقعه والتوجّه الى موقع آخر طمعًا في الخلاص من تلك الظروف[11].

وعليه،فقد عُرّف النازحون بأنهم الأشخاص الذين أكرهوا على الهرب أو على ترك منازلهم وأماكن إقامتهم العادية أو اضطروا الى ذلك سعيًا لتفادي آثار نزاع مسلّح أو حالات العنف العام أو إنتهاك حقوق الإنسان أو الكوارث الطبيعية والذين لم يعبروا الحدود الدولية لدولة إقامتهم[12].

يتضح لنا أن الفارق بين الهجرة واللجوء والنزوح، أن عملية النزوح لا تتطلب موافقة مسبقة من أي جهة كانت، وذلك سنداً للفقرة الأولى من نص المادة 13 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على أنه لكلّ فرد حق التنقّل وفي اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة[13].

تجدر الإشارة الى اللغط الذي لحظناه في معرض بحثنا حول استعمال مصطلح نازح. فقد لفت إنتباهنا أن بعض المراجع تعمد الى إستخدام مصطلح نازح للدلالة على الشخص الذي عبر حدود دولة إقامته للوصول الى دولة أخرى، ما يتنافى مع تعريف النازح في القانون الدولي الإنساني، ولعل ذلك يعود الى رغبة الدولة في اعتبار اللاجئ كنازح للتهرّب من الإلتزام بحقوق اللاجئين التي تضمّنتها إتفاقية العام 1951 والبروتوكول الملحق بها، ما لم تنص على هذه الحقوق معاهدات أو إتفاقيات دولية أخرى على غرار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فضلًا عن الحؤول دون إندماج اللاجئين وضمان عودتهم الى بلادهم.

جدير بالذكر أن لبنان لم يصادق على إتفاقية 1951 الخاصة بوضع اللاجئين وبروتوكول 1967 الملحق بها، وبالتالي يعود له الحق بالإمتناع عن منح صفة لاجئ لشخص تواجد داخل الإقليم اللبناني.مع الاشارة، الى أن منظمة العفو الدولية تعتبر أنه ينبغي إعتبار جميع طالبي اللجوء من سوريا أفرادًا بحاجة للحصول على الحماية الدولية جراء طبيعة النزاع الدائر في سوريا[14].

المبحث الثاني: علاقة الهجرة غير الشرعية بالجريمة المنظّمة

تعتبر ظاهرة الهجرة غير الشرعية من أهم الظواهر التي تحظى باهتمام الدول في الوقت الحالي. وقد عبّرت عن ذلك منظمة الهجرة الدولية بقولها : انه في أي وقت من الأوقات يوجد ما بين 15 الى 30 مليون مهاجر غير شرعي حول العالم[15].

نتيجة لتدهور الأوضاع الإقتصادية والأمنية في كثير من الدول، تبلورت ظاهرة الهجرة غير الشرعية. ومع التطوّر الحاصل وظهور العولمة، لم تعد ظاهرة الهجرة غير الشرعية بمنأى عن التقدّم الحاصل، ولم يعد الحديث مقتصرًا على التقسيم التقليدي للجرائم، بل ظهر نوع جديد من الجرائم إذ لم يعد للجريمة وطن أو جنسية أو هوية[16].

إزاء ذلك، استغلّت جماعات الجريمة المنظّمة تلك الأجواء العالمية من أجل توسيع نطاق أعمالها غير المشروعة. فقد شهد العالم أنماطًا مستحدثة من الإجرام المنظّم من خلال الإتجار بالبشر وتهريب الأشخاص عبر البر والبحر والجو وغيرها من الجرائم التي باتت تتمّ بحرفية عالية[17].

والسؤال الذي يُطرح : ما هو المقصود بالجريمة المنظّمة ؟ وما الفرق بينها وبين الجريمة المنظّمة عبر الوطنية ؟

عرّفت المنظمة الدولية للشرطة الجنائية (الانتربول) الجريمة المنظّمة بأنها مجموعة من الأشخاص تعمل بصورة مستمرة في نشاط غير قانوني، ويكون باعثها الأساسي الحصول على الأرباح دون اعتبار للحدود الوطنية[18].

كما عُرّفت الجريمة المنظّمة وفق التقرير الوطني لمؤتمر الأمم المتحدة حول منع الجريمة ومعاملة المجرمين المنعقد في القاهرة عام 1995، أنها مشروع إجرامي تمارسه جماعة من الأشخاص ويحكمه نظام داخلي بالغ الصرامة، حيث يستخدم هذا المشروع الجريمة والعنف والتهديد والإبتزاز والرشوة وفرض السطوة بهدف الحصول على أرباح كبيرة بوسائل غير مشروعة حتى وإن بدت الوسائل في ظاهرها أنها مشروعة[19].

وقد عُرّفت الجريمة المنظّمة بدلالة "جماعة إجرامية منظمة" وفق الفقرة "أ" من نص المادة الثانية من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية، والتي اعتبرت أنها جماعة ذات هيكل تنظيمي، مؤلفة من ثلاثة أشخاص أو أكثر، موجودة لفترة من الزمن، وتعمل بصورة متضافرة بهدف إرتكاب واحدة أو أكثر من الجرائم الخطيرة أو الأفعال المجرّمة وفقًا لهذه الإتفاقية، من أجل الحصول، بشكل مباشر أو غير مباشر، على منفعة مالية أو منفعة مادية أخرى.

كما نصّت الفقرة "ب" من نص المادة عينه على أنه يقصد بتعبير جريمة خطيرة سلوك يمثل جرمًا يعاقب عليها بالحرمان التام من الحرية لمدة لا تقل عن أربعة سنوات أو بعقوبة أشد.

أمّا فيما يتعلق بالجريمة المنظّمة عبر الوطنية، ورغم عدم وجود إتفاق على تعريف محدّد لها، إلاّ أن الجميع متفق على أن هذه الجريمة تتضمّن صفات مميزة تندرج في أشكال الأنظمة الجماعية الإجرامية وهي تتماثل مع الجريمة المنظّمة، مع التركيز على النقاط التالية[20]:

- الأنشطة عبر الوطنية والروابط مع الجماعات المشابهة في دول أخرى.
- يكون الحجم الأكبر للمنظمة نفسها.
- ملاحظة الحجم الضخم للنشاط الإجرامي.
- المستوى العالي من الربح.
- ضخامة رأس المال المتاح.
- القوة والنفوذ في أسلوب ممارسة النشاط.

ومن الملاحظ أن بعض الجماعات العادية (غير المنظّمة) تقوم ببعض الأنشطة عبر الوطنية من خلال تهريب المهاجرين من إقليم دولتها، فتتصف مثل هذه الأنشطة بالطابع المحلي (وليست الدولي).

ورغم ذلك، يُلاحظ التداخل بين الأنشطة الوطنية وعبر الوطنية الذي يتمثل في صعوبة التمييز بينهما[21].
هذا، وقد نصّت الفقرة الثانية من نص المادة الثالثة من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية على أنه يكون الجرم ذا طابع عبر وطني اذا:

- ارتُكب في أكثر من دولة واحدة.
- ارتُكب في دولة واحدة، ولكن جرى جانب كبير من الإعداد أو التخطيط له أو توجيهه أو الإشراف عليه في دولة أخرى.
- ارتكب في دولة واحدة، ولكن ضلعت في إرتكابه جماعة إجرامية منظّمة تمارس أنشطة إجرامية في أكثر من دولة واحدة.
- ارتكب في دولة واحدة، ولكن له آثار شديدة في دولة أخرى.

فالجريمة المنظّمة عبر الوطنية تعتبر من أهم التحدّيات التي تواجه عصرنا الحالي، ومردّ ذلك الى أن آثارها تتجاوز الحدود الإقليمية لكل دولة لتشمل أقاليم دول عديدة، حيث تهدّد إستقرار العلاقات الدولية والأمن الداخلي. فالتغيّرات السياسية أدّت الى تسهيل حركة رؤوس الأموال بين الدول والتي نجم عنها نظام إقتصادي عالمي جديد لا يعرف حدودًا للزمان أو للمكان.

هذا النظام الجديد الذي يقدم بلا شكّ خدمات ومنافع عظيمة للإنسانية وللتبادل التجاري والثقافي، بات يساعد بصورة غير مباشرة، وطبعًا عن غير قصد، الجماعات الإجرامية المنظّمة في تحقيق مآربها من خلال إرتكاب جرائمها وإخفاء عائداتها.

وعليه، يلاحظ بعد تعريفنا للهجرة غير الشرعية وتبيان مفهوم الجريمة المنظمة عبر الوطنية، أن نشاط ظاهرة الهجرة غير الشرعية وتهريب المهاجرين يؤدي الى خلق وزيادة نشاط الجريمة المنظّمة عبر الوطنية.

وبما أن الهجرة غير الشرعية باتت ظاهرة تتسم بالعولمة وكذلك الجريمة المنظمة عبر الوطنية، فقد بات الأعضاء في هذه المنظّمات يمارسون إجرامهم في دول مختلفة.وبالتالي، كلّما زاد عدد المهاجرين غير الشرعيين، توسّع نطاق الجريمة المنظّمة عبر الوطنية، خاصة وأن موضوع الهجرة غير الشرعية بات يشكّل هاجسًا بالنسبة لدول الإستقبال. وما زاد من خطورة هذا الوضع هو تنامي الجريمة المنظّمة، إذ لوحظ الكثير من الشبكات العالمية متخصصة في نقل المهاجرين بطرق غير شرعية لقاء الحصول على مبالغ

باهظة. والأخطر من ذلك، ما لاحظناه أنه كثيرًا ما ينتهي الأمر الى استغلال هؤلاء المهاجرين إستغلالاً بشعًا من خلال تشغيلهم بعض الأحيان بطريقة غير شرعية، بحيث يندرج عندها فعلهم ضمن إطار نص المادة 586 من قانون العقوبات اللبناني تحت عنوان الإتجار بالبشر.

وعلى الرغم من تعدّد أسباب ظاهرة الهجرة غير الشرعية، إلاّ أنه يكمن السبب الرئيسي وراء هذه الظاهرة هو غياب القواعد القانونية الموضوعية والإجرائية والتي تهدف الى مكافحتها أو بالأحرى عدم تفعيل القوانين القائمة لردع هذه الظاهرة، لذلك سنخصّص الفصل الثاني من هذا البحث لمعالجة الإطار التشريعي لهذه الظاهرة.

الفصل الثاني:الاطار التشريعي للهجرة غير الشرعية

تم تكريس مكافحة الهجرة غير الشرعية على المستوى الدولي بما نصت عليه منظمة الامم المتحدة،اضافة الى الاتفاقيات الثنائية والدولية بين الدول،فضلاً عن مساعي المنظمات المتخصصة في هذا الاطار.ولكن، تبقى الجهود الدولية غير كافية في حال لم تعزز بجهود وطنية عبر نصوص تشريعية وضعية تسهم في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

وعليه، سنبحث في المبحث الاول أهم صور تجريم الهجرة غير الشرعية المتمثلة بجريمة تهريب المهاجرين على أن نخصص المبحث الثاني لدراسة جريمة تسهيل تهريب المهاجرين وجريمة التمكين من الاقامة غير الشرعية.

المبحث الأول : جريمة تهريب المهاجرين

تنص الفقرة أ من المادة الثالثة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين عن طريق البر والبحر والجو المكمّل لإتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية عام 2000، على أنه يقصد بتعبير تهريب المهاجرين تدبير الدخول غير المشروع لأحد الأشخاص الى دولة طرف ليس ذلك الشخص من مواطنيها أو من المقيمين الدائمين فيها، وذلك من أجل الحصول بصورة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مالية أو منفعة مادية أخرى.

وأوضحت الفقرة ب من المادة عينها، أنه يقصد بتعبير الدخول غير المشروع عبور الحدود دون التقيّد بالشروط اللازمة للدخول المشروع الى الدولة المستقبلة.

كذلك، فإنه، ووفقًا للمادة السادسة من البروتوكول المذكور، يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد ما قد يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لتجريم الأفعال التالية:

1. تهريب المهاجرين

لقد نصت المادة 32 من القانون رقم 5 الصادر بتاريخ 10-7-1962 والمتعلق بالدخول الى لبنان والإقامة فيه والخروج منه على أنه يعاقب بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات إضافة الى الغرامة، كل أجنبي يدخل الأراضي اللبنانية دون التقيّد بأحكام المادة السادسة من هذا القانون.

بدورها، تنص المادة السادسة من القانون عينه على أنه لا يجوز لغير اللبناني الدخول الى لبنان إلاّ عن طريق مراكز الأمن العام وشرط أن يكون مزوّدًا بالوثائق والسمات القانونية وأن يكون حاملاً وثيقة سفر مرسومة بسمة مرور أو بسمة إقامة ممثل لبنان في الخارج أو من المرجع المكلّف رعاية مصالح اللبنانيين أو من الأمن العام.

كذلك، فقد نصت المادتان الأولى والثانية من القرار رقم 2115 الصادر بتاريخ 14-8-1923 المتعلق بتهريب المسافرين الى المراكب، على معاقبة كل شخص يدخل خفية الى أحد المراكب بقصد القيام بسفرة طويلة أو بسفرة على السواحل الدولية، وكل شخص يساعد على ظهر المركب أو على البر في إنزال مسافر شخصي الى المركب أو منه أو يخبئه أو يقدم له مأكلاً بدون علم القبطان، بالحبس من ستة أيام الى ستة أشهر وبالغرامة أو بإحدى هاتين العقوبتين.

وعليه، فإن جريمة تهريب المهاجرين تفترض كغيرها من الجرائم توافر ركنيها المادي والمعنوي. ولهذا سنتناول في المطلب الأول الركن المادي لهذه الجريمة على أن نخصّص المطلب الثاني للركن المعنوي.

المطلب الأول: الركن المادي لجريمة تهريب المهاجرين

يتمثل الركن المادي لجريمة تهريب المهاجرين بأفعال مادية يقوم بها الفاعل، تهدف الى عبور شخص لحدود دولة – ليس من مواطنيها ولا من المقيمين الدائمين فيها – دون التقيّد بالشروط اللازمة المفروضة من قبل الدول المستقبلة للدخول المشروع إليها.

وقد اشترط المشرّع اللبناني في نص المادة السادسة من القانون رقم 5 الصادر بتاريخ 10-7-1962، وكما ذكرنا أعلاه، الدخول الى لبنان عن طريق الأمن العام على أن يكون مزوّدًا :

1. بالوثائق والسمات القانونية.
2. أن يكون حاملاً وثيقة سفر مرسومة بسمة مرور أو بسمة إقامة ممثل لبنان في الخارج أو من المرجع المكلّف رعاية مصالح اللبنانيين أو من الأمن العام.

وعليه، يتبيّن ممّا تقدم أن القيام بأي تدبير معيّن من قبل شخص ما لعبور شخص أجنبي الحدود اللبنانية، دون اتباع الشروط المنصوص عنها في المادة 32 السالفة الذكر، تطبق عليه أحكام جريمة تهريب المهاجرين المنصوص عنها في نص المادة الثالثة والسادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين، ويعاقب وفق المبادىء التي ترعى المساهمة الجرمية المنصوص عليها في قانون العقوبات اللبناني لا سيما لجهة التدخل في جرم الدخول خلسة أو التحريض عليه المنصوص عليها في قانون العقوبات اللبناني معطوفة على نص المادة 32 أجانب.

وبذلك، يكون التشريع اللبناني قد طبق البند ج من الفقرة الثالثة من نص المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين والتي نصت على أنه :

يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد أيضًا ما قد يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لتجريم :

ج (تنظيم أو توجيه أشخاص آخرين لإرتكاب جرم من الجرائم المقرّرة وفقًا للفقرة 1 من هذه المادة

ويلاحظ بالتالي من خلال نص المادة الثالثة أن مفهوم الفاعل في جريمة تهريب المهاجرين هو مفهوم مطلق، ويترتب على ذلك مساءلة كل شخص طبيعيًا كان أو معنويًا ثبت قيامه بفعل التهريب.

فلما كان الهدف الأساسي من وراء وضع البروتوكول هو تجريم التهريب المنظم العابر للحدود، فإن إتفاقية باليرمو تشير الى ضرورة اعتبار الشخص المعنوي مسؤولاً سواء جنائيًا أو مدنيًا أو إداريًا، وذلك لأن جرائم العصابات المنظّمة العابرة للحدود تتم غالبًا تحت غطاء الشخص المعنوي[22].

والسؤال الذي يُطرح : هل يمكن المساءلة على محاولة تهريب المهاجرين وفق التشريع اللبناني ؟

يتبيّن من العودة لنص المادتين 200 و 201 ق.ع.، أن التشريع اللبناني يعاقب على محاولة ارتكاب الجناية وليس على الشروع في ارتكاب الجنحة التي تتطلب نصًا خاصًا لذلك، وهذا يعني أنه لا يعاقب على محاولة تهريب المهاجرين سندًا لعدم وجود نص خاص يقضي بذلك نظرًا لأنها تدخل في عداد الجنح. كما يلاحظ عدم وجود تطابق بين القانون اللبناني والبند أ من الفقرة الثانية من نص المادة السادسة من

بروتكول مكافحة تهريب المهاجرين التي تنص على أن تعتمد كل دولة طرف ما يلزم من تدابير تشريعية لتجريم الشروع في تهريب المهاجرين.

انطلاقا مما تقدم، يتبيّن أن القانون اللبناني يقتصر على تجريم الدخول خلسة بموجب نص محصور بتعابيره ونطاقه وتوصيفه الجنحي، ولا يشمل التجريم الحالات الأخرى التي تخرج عن إطار هذا النص وتدخل في مفهوم تهريب المهاجرين، وذلك خلافًا لما فعله المشرّع المصري عندما نص في الفقرة الثالثة من المادة الأولى من القانون رقم 82 لسنة 2016، على تجريم كل تدبير يرمي الى انتقال شخص أو أشخاص بطريقة غير مشروعة من دولة الى أخرى من أجل الحصول بصورة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مادية أو معنوية أو لأي غرض آخر.

المطلب الثاني : الركن المعنوي لجريمة تهريب المهاجرين

وفقا لنص المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين فانه يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد ما قد يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لتجريم أفعال معيّنة في حال ارتكابها عمدًا ومن أجل الحصول، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على منفعة مالية أومنفعة مادية أخرى.

يتبين لنا من خلال الفقرة المذكورة أعلاه،ومن ناحية أولى، أن جريمة تهريب المهاجرين هي جريمة عمدية أي تتطلب قصدًا عامًا يتمثل في علم الفاعل بأن ما يقوم به من سلوك يشكّل فعلاً معاقباً عليه في القانون، كما يشترط أن تتوجّه إرادة الفاعل للقيام بالفعل وبتحقيق النتيجة الجرمية المتمثلة في عبور الشخص حدود الدولة.

من ناحية ثانية، اشترطت المادة المذكورة أن يتم الفعل عمدًا أولاً، ومن أجل الحصول على منفعة مالية أو مادية. وهذا يعني أنه يُشترط توفر القصد الخاص لاكتمال جرم تهريب الأشخاص والمتمثّل بقيام الفعل بهدف الحصول على منفعة سواء كانت مالية أو مادية، بمعنى آخر، لا يكتمل الجرم في حال تمّ إرتكابه دون الحصول على منفعة.

عمليًا، إن اشتراط توافر القصد الخاص يعني أن يُلقى على عاتق النيابة العامة عبء إثبات الحصول على المنفعة المالية أو المادية، ويستتبع ذلك إمكانية عدم إثبات أن مرتكب الفعل قد حصل على أي منفعة لقاء فعله، بل ومن الممكن إثبات أن الدافع وراء فعله هو مساعدة المهاجر ليس إلاً.

جدير بالذكر،أنه يشترط ألاّ يكون المهاجر من رعايا تلك الدولة أو من المقيمين الدائمين فيها.

تجدر الاشارة الى أنه ما لفت إنتباهنا، هو الحكم الجزائي[23] الصادر بتاريخ 2017/3/11 والمتعلق بتهريب أشخاص عبر الحدود من سوريا الى لبنان، حيث قُضي بالإعلان عن عدم اختصاص القاضي المنفرد الجزائي للنظر في الدعوى بعدما قام بتغيير وصف الجرم المدعى به من تدخل في جرم دخول الأشخاص المهرّبين خلسة وهو جنحة، الى جرم الإتجار بالبشر، وهو جناية والذي بطبيعة الحال يخرج عن إختصاصه.

ومن الواضح أن الهدف من ذلك هو التشدّد في قمع تهريب الأشخاص عبر الحدود السورية اللبنانية بالنظر الى المخاوف الناتجة عن تفاقم هذه الظاهرة وازدياد عدد اللاجئين في لبنان.

وبموجب الحكم المذكور، فإنه يكفي للإدلاء بجرم الإتجار بالبشر توفّر الركنين المادي والمعنوي للجريمة دون الحاجة لتحقّق النتيجة الجرمية المتمثلة بالإستغلال[24].

والسؤال الذي يُطرح، هل يعود للقاضي الحق أن يعطي للفعل وصف الإتجار بالبشر عند توفر موافقة لدى الأشخاص المهرّبين على فعل التهريب حتى لو لم يتوفر لدى الفاعل نيّة لاستغلال الأشخاص الذين يتم تهريبهم الى داخل لبنان في أعمال مخالفة للقانون بعد عملية التهريب ؟

هذا، وفي ظل أحداث الهجرة غير الشرعية التي حصلت مؤخّرًا من شمال لبنان الى قبرص عبر قوارب لا تتمتع بمواصفات السلامة، هل يحق إعادة إرسال المهاجرين غير الشرعيين القادمين الى لبنان؟[25]
لا بدّ من الإشارة هنا الى أنه،من ناحية أولى، يرتبط كل من لبنان وقبرص بإتفاقية تنص على إعادة إرسال المهاجرين غير الشرعيين الى البلد الذي انطلقوا منه ما يتيح للسلطات القبرصية إعادة اللبنانيين الى بلادهم دون أن يعرضها ذلك لأي مساءلة دولية.فالقانون رقم 531 الصادر بتاريخ 20-10-2003 أجاز للحكومة ابرام اتفاق بين حكومة الجمهورية اللبنانية وحكومة جمهورية قبرص حول اعادة قبول الاشخاص المقيمين بشكل غير رسمي.

من ناحية ثانية، تدعم مفوضية الأمم المتحدة للاجئين جهود السلطات القبرصية لإعادة أولئك الذين لا يتبيّن أنهم بحاجة إلى الحماية الدولية، ولكن فقط بعد تقييم رسمي وفردي لطلب اللجوء الخاص بهم إذا طلبوا اللجوء... مع الإشارة الى أن الممارسة المتمثلة في صد القوارب تتعارض مع القانون الدولي، ويجب أن يُقبل أولئك الذين يرغبون في طلب اللجوء في الإقليم على الأقل على أساس مؤقت لفحص طلبات اللجوء الخاصة بهم، وهذا منصوص عليه في القانون الدولي، وإلاّ يصبح الحق في اللجوء ومبدأ عدم الإعادة القسرية لا معنى لهما. وليس لدى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين معلومات عن

الأسباب التي دفعت للسفر من كانوا على متن القوارب التي وصلت مؤخّرًا إلى قبرص ولا تعرف ما إذا كانوا مهاجرين أم طالبي لجوء. فالتقييم الفردي ضروري دائمًا، ولا يمكن إجراؤه في عرض البحار[26].

المبحث الثاني: جريمتي تسهيل تهريب المهاجرين والتمكين من الاقامة غير الشرعية

نصت الفقرة الاولى من المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين في البندين "ب" و"ج" منها على هاتين الصورتين،وبالتالي سنتناول جريمة تسهيل المهاجرين في المطلب الاول على أن نخصص المطلب الثاني لجريمة التمكين من الاقامة غير الشرعية.

المطلب الاول:جريمة تسهيل تهريب المهاجرين

نصت المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين على أنه يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد ما قد يلزم من تدابير تشريعة وتدابير أخرى لتجريم الأفعال التالية في حال ارتكابها عمدًا ومن أجل الحصول بصورة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مالية أو منفعة مادية أخرى :

أ. ....

ب. القيام بغرض تسهيل تهريب المهاجرين :

1. إعداد وثيقة سفر أو هوية إنتحالية.
2. تدبير الحصول على وثيقة من هذا القبيل أو توفيرها أو حيازتها.

كذلك، فقد نصت المادة 32 من قانون تنظيم الدخول الى لبنان والإقامة فيه والخروج منه الصادر بتاريخ 1962/7/10 على أنه يعاقب بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات وبالغرامة وبالإخراج من البلاد :

- ......
- كل أجنبي يدلي بتصريح كاذب بقصد إخفاء هويته أو يستعمل وثائق هوية مزوّرة.

من جهتها، نصّت المادة 463 ق.ع. على أنه من أقدم بأي وسيلة مادية أو معنوية من الوسائل المنصوص عليها في المادتين 456 و 457 ق.ع، على تزوير تذكرة هوية أو شهادة إخراج قيد أو جواز سفر أو سمة دخول يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات.

كما نصت المادة 469 ق.ع. على أنه من تقدم إلى سلطة عامة بهوية كاذبة قصد جلب المنفعة لنفسه أو لغيره أو بنية الإضرار بحقوق أحد الناس، عوقب بالحبس من شهرين إلى سنتين فضلاً عمّا قد يتعرض له من العقوبات الجنائية في حال تواطئه مع موظف عام.

وعليه، يكون البروتوكول قد حصر فعل التسهيل لتهريب المهاجرين في صورتين : الأولى تتمثل في إعداد وثيقة سفر مزوّرة أو هوية إنتحالية، والثانية في المساعدة في الحصول على وثيقة مزوّرة أو حيازتها.

ولإبراز ماهية هذه الجريمة، لا بدّ لنا من تبيان ركنيها المادي (الفقرة الاولى) والمعنوي (الفقرة الثانية).

الفقرة الاولى : الركن المادي

عرّفت المادة 453 ق.ع. التزوير على أنه تحريف متعمد للحقيقة، في الوقائع أو البيانات التي يثبتها صك أو مخطوط يشكّل مستندًا، بدافع إحداث ضرر مادي أو معنوي أو إجتماعي.

فتغيير الحقيقة هو النشاط الإجرامي الذي يقوم به التزوير، وإذا انتفى هذا النشاط الإجرامي انتفى التزوير تبعًا لذلك.

وقد حدّدت المادتان 456 و 457 ق.ع. طرق التزوير على سبيل الحصر بحيث تناولت المادة 456 طرق التزوير المادي، بينما نصت المادة 457 على طرق التزوير المعنوي.

وعليه،يفترض الركن المادي لهذه الجريمة،من ناحية أولى،أن نكون أمام تحوير مادي من قبل شخص غير الشخص المخوّل قانونًا من الدولة إصدار وثيقة السفر أو الهوية.

من ناحية ثانية، أن يكون قد تمّ الحصول على وثيقة السفر أو على الهوية من خلال الإحتيال أو أي طريقة غير مشروعة أخرى.

من ناحية ثالثة، أن يتم إستخدام وثيقة السفر أو الهوية من قبل شخص غير صاحبها الأصلي.

وقد قضي في هذا الإطار أنه يعتبر شريكًا بجرم التزوير، الأجنبي الذي دخل بجواز سفر يعلم أنه مزور[27].

كذلك، قضي أنه إذا إستعمل جواز سفر لشخص آخر دون أن يعدّل في مندرجاته، فلا يكون هناك تزوير بل إنتحال لهوية كاذبة[28].

كما اعتبر متدخلاً ويعاقب وفقًا للمادة 463 ق.ع. من قام بتسليم وتأمين جواز سفر ولصق صورة شمسية عليه[29].

وفي هذا الإطار، قضي أن لصق صورة شمسية على جواز سفر يؤلّف جنحة التزوير المنصوص عنها في المادة 463 ق.ع. وان الإقدام على استعمال جواز سفر مزوّر من أجل السفر الى الخارج، يؤلّف جنحة إستعمال المزوّر مع العلم بالأمر والمنصوص عنها في المادة 463 ق.ع. معطوفة على المادة 454 ق.ع.[30].

الفقرة الثانية : الركن المعنوي

يتوافر الركن المعنوي لهذه الجريمة من خلال القصد العام المتمثل بإدراك الفاعل بأنه يغيّر الحقيقة في الصك بإحدى الطرق المنصوص عليها في القانون وباتجاه إرادته الى إرتكاب ذلك السلوك المكوّن للجريمة والنتيجة المترتبة عليه أي الى فعل تغيير الحقيقة والى أثره المتمثل في اشتمال الصك على بيانات مخالفة للحقيقة.إضافة الى علم الفاعل على وجه اليقين بأنه يغير الحقيقة، يشترط أن يقترن هذا العلم بنيّة غش الغير وحملهم على الإعتقاد بأن هذه البيانات صحيحة[31].

كما، تتطلب هذه الجريمة، إضافة الى القصد العام، ووفقًا لنص المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين، توافر القصد الخاص المتمثل بالحصول على منفعة سواء كانت مالية أو مادية أخرى.
بناءً على ما سبق بيانه، وحتى نكون إزاء سلوك مجرّم، ينبغي توافر الشروط التالية :

1. إعداد وثيقة سفر أو هوية إنتحالية.
2. تدبير الحصول على وثيقة من هذا القبيل أو توفيرها أو حيازتها.
3. تحقيق منفعة مالية أو مادية أخرى.

المطلب الثاني : التمكين من الإقامة غير الشرعية

نصّت المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين على أنه يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد ما قد يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لتجريم الأفعال التالية في حال ارتكابها عمدًا ومن أجل الحصول بصورة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مالية أو منفعة مادية أخرى:

......

ج – تمكين شخص، ليس مواطنًا أو مقيمًا في الدولة المعنية، من البقاء فيها دون تقيّد بالشروط اللازمة للبقاء المشروع في تلك الدولة، وذلك باستخدام الوسائل المذكورة في الفقرة الفرعية ب من هذه الفقرة أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة.

يتبيّن ممّا تقدم، أنه، وللإعتداد بهذه الجريمة، يشترط :

1. أن يتواجد الشخص في الدولة.
2. ألاّ يكون هذا الشخص مواطنًا أو مقيمًا في الدولة المعنية.

بناءً عليه، سنعرض الركن المادي لهذه الجريمة في الفقرة الاولى، على أن نتناول الركن المعنوي في الفقرة الثانية.

الفقرة الأولى : الركن المادي

يتمثل الفعل المادي لهذه الجريمة بالقيام بسلوك معيّن بهدف تمكين الشخص من البقاء داخل دولة غير دولته، على أن يتم ذلك بطريقة غير مشروعة ودون الإعتداد بالشروط التي تستوجبها تلك الدولة[32].
يتبيّن لنا وفق الفقرة "ج" المذكورة أعلاه أنه يفترض أن يكون هذا الشخص قد دخل الأراضي اللبنانية بطريقة مشروعة، إلاّ أن بقاءه فيه هو الذي يعدّ غير مشروع، على أن يكون هذا البقاء مرهونًا بوسيلة غير مشروعة بفعل شخص معين.

وعليه، تبدأ هذه الجريمة من تاريخ إنتهاء صلاحية إقامة الأجنبي في لبنان – باعتبار أن دخول الأجنبي الى الأراضي اللبنانية والبقاء فيه محدّد بشروط منصوص عليها في قانون تنظيم الدخول الى لبنان والإقامة والخروج منه الصادر بتاريخ 1962/7/10 والمعدّل بموجب القانون رقم 173 الصادر بتاريخ 2000-/2/14، وقيام الفاعل بسلوك غير مشروع يخوّل الأجنبي البقاء داخل الإقليم اللبناني.

يلاحظ ممّا تقدم أن الفقرة "ج" قد أشارت الى استخدام إمّا الوسائل المذكورة في الفقرة الفرعية ب من الفقرة 1 من المادة السادسة أو أية وسيلة أخرى.

هذا ورغم أن الفقرة "ب" قد أشارت الى إعداد وثيقة سفر أو هوية إنتحالية والى تدبير الحصول على وثيقة من هذا القبيل أو توفيرها أو حيازتها، إلاّ أنه من الملاحظ أن الجريمة المنصوص عليها في الفقرة ب، وكما أوضحنا سابقًا، هي جريمة تسهيل تهريب المهاجرين، ما يعني إدخال أشخاص بطريقة غير مشروعة الى لبنان أو إخراجهم منه بقصد تهريبهم من خلال هذه الوسائل المذكورة.

أما فيما يتعلق بالفقرة "ج"، فهي تتناول الوسائل المذكورة في الفقرة "ب"، كوسيلة لتأمين البقاء غير المشروع للأشخاص الذين يتواجدون داخل الإقليم اللبناني والذين دخلوا بطريقة مشروعة، إنما إنتهت صلاحية إقامتهم وبات بقاؤهم غير مشروع، فيتمّ إستخدام هذه الوسائل المذكورة في الفقرة "ب" أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة لتأمين بقائهم.

إذاً، يُشترط، من ناحية أولى، أن يكون الشخص قد دخل الأراضي اللبنانية بطريقة مشروعة أي وفق الشروط اللازمة والمحددة في قانون تنظيم الدخول الى لبنان والإقامة والخروج منه المذكور سابقًا. ومن ناحية ثانية، أن تكون صلاحية الإقامة في لبنان قد انقضت.ومن ناحية ثالثة، أن يتم إستخدام وسيلة من الوسائل المحدّدة في الفقرة "ب" أو أية وسيلة غير مشروعة للبقاء في لبنان.

ومن ناحية رابعة، أن يكون بقاؤه في لبنان هو نتيجة لهذه الوسائل غير المشروعة لأنه لولا هذه الوسائل لكان قد أعطي مهلة معيّنة للمغادرة أو لكان قد تم ضبطه ليصار الى ترحيله.بمعنى آخر، يُشترط تحقّق النتيجة الجرمية المتمثلة بتمكين الشخص محلّ الجريمة من البقاء داخل الأراضي اللبنانية دون التقيّد بالشروط اللازمة للبقاء في لبنان.

الفقرة الثانية : الركن المعنوي

يتحقّق الركن المعنوي لهذه الجريمة من خلال القصد العام المتمثل بعلم الفاعل بأن ما يقوم به من أفعال إنما هي غير مشروعة، وأن تتجه إرادته الى تحقيق النتيجة الجرمية لهذه الأفعال والمتمثلة ببقاء هذا الشخص داخل إقليم الدولة.

هذا، ويتبيّن وفقًا للمادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين، أنه يُشترط أن يُرتكب هذا الفعل غير المشروع المتمثل بالوسائل المحددة في الفقرة "ب" أو بأي وسيلة أخرى غير مشروعة بغية الحصول بصورة مباشرة أو غير مباشرة على منفعة مالية أو منفعة مادية أخرى؛بمعنى أنه لا يكتمل هذا الجرم إلاّ بتوافر القصد الخاص المتمثل بتحقيق المنفعة المالية أو المادية الأخرى.

بناءً على ما سبق، وبالعودة الى نص المادة 219 ق.ع. الذي يعرف المتدخل في الجريمة، والى نص المادة 220 ق.ع. الذي ينص على أن المتدخل الذي لولا مساعدته ما ارتكبت الجريمة يُعاقب كما لو كان هو نفسه الفاعل.وبالرجوع الى البند الثاني من نص المادة 32 من قانون تنظيم الدخول الى لبنان والإقامة فيه والخروج منه الصادر بتاريخ 1962/7/10 والمعدّل بموجب القانون رقم 173 الصادر بتاريخ 2000/2/14 الذي يعاقب بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات وبالغرامة وبالإخراج من البلاد كلّ أجنبي يدلي بتصريح كاذب بقصد إخفاء حقيقة هويته أو يستعمل وثائق هوية مزورة،كما وبالعودة الى نص المادة 33 من القانون عينه على أنه يعاقب بالحبس من أسبوع الى ثلاثة أشهر وبالغرامة أو بإحدى هاتين العقوبتين كلّ أجنبي لا يغادر الأراضي اللبنانية بعد إبلاغه رفض تمديد إقامته.

وبما أن بقاء الشخص محلّ الجريمة في لبنان هو نتيجة لتصرفات الفاعل كما بيّنا سلفًا، أي أنه لولا مساعدة الشخص لما تمّ بقاؤه داخل الإقليم اللبناني، فإن هذا يعني، ووفقًا لما سبق، مساءلة الشخص الذي مكّن الشخص محلّ الجريمة من البقاء على الأراضي اللبنانية، بجرم التدخل في الإقامة غير الشرعية سندًا للمواد التي تمّ ذكرها أعلاه.

الخاتمة

في ختام البحث في موضوع الحماية القانونية للهجرة غير الشرعية، نأمل أن نكون قد حقّقنا الهدف المتمثل في إلقاء الضوء على هذا الموضوع، وذلك للأهمية التي يتمتع بها، إذ أن الهجرة غير الشرعية تعدّ من المشاكل الخطيرة التي تواجه المجتمع الدولي في الوقت الراهن.

هذا، وسوف نختم بحثنا بتبيان أهم النتائج التي تمّ التوصل إليها والتوصيات التي نقترحها.

فمن خلال دراستنا لموضوع المكافحة القانونية للهجرة غير الشرعية، تبيّن لنا في المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث، أن الهجرة غير الشرعية تعني عبور أشخاص حدود دولة ما دون التقيّد بالضوابط المفروضة من قبل دولة الأصل أو دولة العبور أو دولة الإستقبال. كذلك فقد عمدنا الى التمييز بين الهجرة غير الشرعية وغيرها من التحركات السكانية، حيث اتضح لنا من ناحية أن كل لاجئ هو مهاجر ولكن العكس غير صحيح، وأنه، من ناحية أخرى، يُشترط أن يطلق مصطلح النزوح على حركة الفرد أو المجموعة من مكان الى آخر داخل حدود الدولة على عكس اللغط الذي نشهده في الوقت الحالي.
وقد أوضحنا في المبحث الثاني من الفصل الأول، أن الهجرة غير الشرعية تندرج في إطار الجرائم المنظّمة عبر الوطنية، فضلاً عن محاولتنا تبيان ما يميّز الجريمة المنظّمة عبر الوطنية عن الجريمة المنظّمة.

أمّا الفصل الثاني من هذا البحث، فقد خصّصناه لصور تجريم الهجرة غير الشرعية، حيث تبيّن لنا أن نص المادة السادسة من بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين عن طريق البر والبحر والجو الملحق لإتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية، نصّ على حالات التجريم مشترطًا أنه يتعيّن على كل دولة طرف أن تعتمد ما يلزم من تدابير تشريعية وتدابير أخرى لتجريم الأفعال المنصوص عنها في نص المادة المذكور.

وعلى الرغم من أن قانون العقوبات اللبناني والقانون المتعلق بالدخول الى لبنان والإقامة فيه والخروج منه قد تضمّنا نصوصًا تجرّم عدم الإلتزام بالضوابط المفروضة عند دخول الأراضي اللبنانية أو الإقامة فيها، إلاّ أننا لاحظنا عدم التزام التشريع اللبناني بما نصت عليه الفقرة الأولى من نص المادة السادسة من البروتوكول المذكور أعلاه. فضلاً عن أن أكثر ما لفت إنتباهنا، هو اشتراط البروتوكول توفّر القصد الخاص للتجريم والمتمثل بتحقيق منفعة مالية أو مادية أخرى ؛وبالتالي كيف يمكن عدم مساءلة الشخص المرتكب لأحد الأفعال المنصوص عنها في نص المادة السادسة، في ظلّ عدم ثبوت إستحصاله على منفعة ؟

تأسيسًا على ما تقدم، ولمواجهة ظاهرة الهجرة غير الشرعية، وللحدّ من تأثير هذه الظاهرة على المجتمع، لا بدّ من ناحية أولى من تعزيز إمكانيات ضبط الحدود البرية والبحرية لمواجهة جماعات الهجرة غير الشرعية على الحدود.

من ناحية ثانية، ينبغي تأمين التعاون المشترك بين الوزارات المعنية للعمل على توعية الشباب على مخاطر الهجرة غير الشرعية.

من ناحية ثالثة، نطالب بضرورة الرقابة الفعالة على الإنتهاكات الحاصلة لحقوق العمال والسعي لوضع حدّ جازم لها، إذ قد تكون السبب لإحدى صور الهجرة غير الشرعية.

من ناحية رابعة، نوصي بضبط سياسة التعليم والتوظيف تبعًا لحاجات سوق العمل الوطنية والعربية.

بقي أن نشير الى ضرورة تعديل وتدعيم التشريع اللبناني بشكل يتناسب مع بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين، وذلك عملًا بنص المادة السادسة من البروتوكول المذكور، مع ضرورة توفير الحماية للمهاجرين غير الشرعيين وإلزامية مساءلة كل من له دور في ارتكاب أي فعل من أفعال الهجرة غير الشرعية.

ختامًا، أرجو أن أكون قد وفّقت في عرض هذا الموضوع خاصة في ظلّ قلة المراجع المحلية المتخصصة في هذا المجال.

والله ولي التوفيق

الهوامش

1 www.ilo.org تاريخ زيارة الموقع 9-10-2020

2 Diana draganova,la migration irreguliere:portrait de la situation actuelle,universite de montreal,centres d'etudes et de recherches internationales,juillet 2007.
تاريخ زيارة الموقع 30-10-2020 www.umontreal.ca

3 parlement europeen,politique d'immigration,fiche technique sur l'uninon europeen 2016.
www.europarl.europa.eup تاريخ زيارة الموقع 15-10-2020.

4 محمد عربي، الهجرة غير الشرعية في منطقة البحر الابيض المتوسط،المخاطر واستيراتيجية المواجهة،الطبعة الاولى،دار الرافد ناشرون،بيروت 2014،ص 23.

5 عبد الكريم علوان،الوسيط في القانون الدولي العام،ط1،دار الثقافة للنشر والتوزيع،عمان،2014 ص 220.

6 بيار فرنسيس،الهجرة غير المشروعة،ورقة علمية مقدمة الى المركز العربي للبحوث القانونية والقضائية.
www.carjj.org تاريخ زيارة الموقع 27-9-2020.

7 www.ec.europa.eu.immigration تاريخ زيارة الموقع 23-8-2020.

8 www.unrwa.org تاريخ زيارة الوقع 3-9-2020.

9 تجدر الاشارة الى انه تجاوز عدد الاشخاص الفارين من الحروب والاضطهاد والنزاعات حاجز ال 70 مليون شخص في عام 2018 وهو اعلى مستوى تشهده المفوضية منذ ما يقارب 70 عاما على تاسيسها.
www.unhcr.org. تاريخ زيارة الموقع 6-9-2020.

10 المفوضية السامية للامم المتحدة لشؤون اللاجئين،"لاجئ ام مخهاجر-ايهما الاصح؟وجهة نظر المفوضية".مقال منشور بتاريخ 27-8-2015.
www.unhcr.org تاريخ زيارة الموقع 7-9-2020.

11 ابراهيم الدارجي،اللجوء والنزوح والهجرة.
www.arab-engy.com.sy تاريخ زيارة الموقع 23-10-2020.

12 محمد بلمديوني،وضع اللاجئين في القانون الدولي،مجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية،جامعة حسيبة بن علي بو الشلف،العدد السابع عشر،الجزائر،2017،ص 164.

13 جدير بالذكر ان النزوح يختلف عن الهجرة من ناحية انه يتم قسرا دون رغبة واختيار من الفرد والجماعة بينما تتم الهجرة عن سابق تصور وتصميم وقد تكون فردية ام جماعية.

14 منظمة العفو الدولية،مدفوعون الى الحافة:اللاجئون السوريون يواجهون قيودا متزايدة في لبنان،منشورات منظمة العفو الدولية،الطبعة الاولى،2015،ص 11

15 اعمال الندوة التي عقدتها المنظمة الدولية للهجرة بالاشتراك مع وزارة الخارجية المصرية بالمعهد الدبلوماسي بالقاهرة ما بين 26-27 حزيران 2005.

16 مصطفى ابراهيم عبد الفتاح،الجريمة المنظمة عبر الوطنية،مركز بحوث الشرطة،عدد 72 ،الشارقة،دون تاريخ نشر،ص 182.

17 محمود شريف بسيوني،الجريمة المنظمة عبر الوطنية ماهيتها ووسائل مكافحتها عربيا ودوليا،دار الشروق،مصر 2004 ص 28.

18 www.interpol.int تاريخ زيارة الموقع 22-9-2020.

19 www.un.org تاريخ زيارة الموقع 22-9-2020.

20 مصطفى ابراهيم عبد الفتاح،مرجع سابق ،ص 185.

21 محمود شريف بسيوني،مرجع سابق ،ص 114.

22 كريمة الطاهر ،معالم سياسة الامم المتحدة في مكافحة تهريب المهاجرين،مجلة البحوث القانونية،العدد الثاني، جامعة مصراتة،2015،ص 146.

23 حكم صادر عن القاضي الجزائي في جب جنين،حكم غير منشور .موجود لدى جمعية كفى غير الحكومية.

24 نصت المادة 586 ق.ع على أن الاتجار بالاشخاص هو اجتذاب شخص أو نقله أو استقباله أو احتجازه أو إيجاد مأوى له، بواسطة التهديد بالقوة أو استعمالها، أو الاختطاف أو الخداع، أو استغلال السلطة أو استغلال حالة الضعف، أو إعطاء أو تلقي مبالغ مالية أو مزايا، أو استعمال هذه الوسائل على من له سلطة على شخص آخر وذلك بهدف استغلاله أو تسهيل استغلاله من الغير . ولا يعتدّ بموافقة المجني عليه في حال استعمال أي من الوسائل المبيَّنة أعلاه.

25 وصلت إلى السواحل الجنوبية والشرقية لجزيرة قبرص أربعة قوارب تقل مهاجرين لبنانيين وسوريين خلال عطلة نهاية الأسبوع الماضية، جميعها انطلقت من لبنان.وحسب السلطات القبرصية، كان على متن القوارب 123 مهاجرا، بينهم ثلاث سيدات وتسعة أطفال نقلوا من القارب الذي كانوا على متنه إلى المستشفى كإجراء احترازي.ونقل 51 مهاجرا، 35 رجلا وخمس سيدات و11 طفلا، بعد أن وصلوا إلى شاطئ صخري السبت على الساحل الشرقي للجزيرة ضمن المنطقة العازلة الواقعة تحت سيطرة الأمم المتحدة والفاصلة بين شمال الجزيرة الخاضع للسيطرة التركية وجنوبها القبرصي، إلى مركز استقبال.وقالت الشرطة إن 20 مهاجراً سوريا آخرين نقلوا إلى مركز استقبال بعد أن وصلوا صباح الأحد قرب المنطقة العازلة غربي العاصمة نيقوسيا.كما نقل 21 مهاجرا، 19 رجلا وامرأة واحدة وطفل، جرفت المياه قاربهم نحو الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة نتيجة عطل أصاب محركه، إلى مركز الاستقبال في الجزيرة.
إعادة أكثر من 30 مهاجرا إلى لبنان واعترضت الشرطة قاربا على بعد 22,5 كلم جنوبي الجزيرة، يحمل 33 مهاجرا، تم نقلهم إلى سفينة أخرى استأجرتها السلطات لإعادتهم إلى لبنان.وشوهد القارب الذي كان يقل 33 مهاجرا، 30 لبنانيا وثلاثة سوريين، قبالة ليماسول بعد ظهر السبت. وبعد مشاورات مع السلطات اللبنانية، تقرر إعادة المجموعة إلى لبنان.وارتأت السلطات نقل المهاجرين إلى سفينة أخرى استأجرتها لإعادتهم إلى لبنان، نظرا لأن القارب الذي كانوا على متنه كان في حالة سيئة للغاية.

26 https://www.infomigrants.net/ar/post/ تاريخ زيارة الموقع 10-10-2020.
376507/29/09/https://www.hrw.org/ar/news/2020 تاريخ زيارة الموقع 11-10-2020.

27 محكمة التمييز الجزائية،قرار رقم 44 صادر بتاريخ 8-3-1994.
الجامعة اللبنانية،مركز الابحاث والدراسات في المعلوماتية القانونية.
www.legallaw.ul.edu.lb تاريخ زيارة الموقع 12-11-2020.

28 محكمة الجنايات في بيروت،قرار رقم 34 صادر بتاريخ 9-4-1996.
الجامعة اللبنانية،مركز الابحاث والدراسات في المعلوماتية القانونية.

www.legallaw.ul.edu.lb تاريخ زيارة الموقع 13-10-2020.

[29] محكمة التمييز الجزائية،قرار رقم 58 صادر بتاريخ 10-3-1994.
الجامعة اللبنانية،مركز الابحاث والدراسات في المعلوماتية القانونية.
www.legallaw.ul.edu.lb تاريخ زيارة الموقع 9-10-2020.

[30] محكمة جنايات جبل لبنان،قرار رقم 473 صادر بتاريخ 14-6-2001.موسوعة القضايا الجزائية ،للمحامي بدوي حنا،ج1،ط3،منشورات زين الحقوقية،بيروت 2012،ص 166.

[31] محمد مصباح القاضي،قانون العقوبات "القسم الخاص"،ط1،منشورات الحلبي الحقوقية،بيروت 2013 ،ص 256.
.M-C Sordino,droit penal des affaires,Breal,Paris,2012,p 368

[32] احمد رشاد محمود،الهجرة غير المشروعة في القانون المصري،دراسة في اطار فقه القانون الدولي،المجلة المصرية للقانون الدولي،عدد 67،مصر 2011،ص 286.

المراجع

أ. الكتب:

1. عبد الكريم علوان ، الوسيط في القانون الدولي العام ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2014 .
2. محمود شريف بسيوني ، الجريمة المنظمة عبر الوطنية ، ماهيتها ووسائل مكافحتها عربيًا ودوليًا ، دار الشروق ، مصر ، 2004 .
3. محمد غربي ، الهجرة غير الشرعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، المخاطر وإستيراتيجية المواجهة ، الطبعة الأولى ، دار الرافد ناشرون، بيروت ، 2014 .
4. محمد مصباح القاضي ، قانون العقوبات (القسم الخاص) ، الطبعة الأولى ، منشورات الحلبي الحقوقية ، بيروت ، 2013 .

ب. الأبحاث والدراسات :

1. أحمد رشاد محمود ، الهجرة غير المشروعة في القانون المصري ، دراسة في إطار فقه القانون الدولي ، المجلة المصرية للقانون الدولي ، العدد 67 ، مصر ، 2011.
2. بيار فرنسيس ، الهجرة غير المشروعة ، ورقة علمية مقدمة الى المركز العربي للبحوث القانونية والقضائية ، 2011 .
3. كريمة الطاهر ، معالم سياسة الأمم المتحدة في مكافحة تهريب المهاجرين ، العدد مجلة البحوث القانونية ، جامعة مصراتة ، 2015 .
4. محمد بلمديوني ، وضع اللاجئين في القانون الدولي ، مجلة الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية ، جامعة حسيبة بن علي بو الشلف ، العدد السابع عشر ، الجزائر ، 2017 .
5. مصطفى إبراهيم عبد الفتاح ، الجريمة المنظمة عبر الوطنية ، مركز بحوث الشرطة العدد رقم 72 ، الشارقة ، دون تاريخ نشر .

ج. الاتفاقيات والمعاهدات الدولية:

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام 1948 .
- إتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بوضع اللاجئين لعام 1951 والبروتوكول اللاحق بها لعام 1967.
- إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية لعام 2000 .
- بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين عن طريق البرّ والبحر والجوّ المكمّل لإتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظّمة عبر الوطنية لعام 2000 .
- إتفاق بين حكومة الجمهورية اللبنانية وحكومة جمهورية قبرص حول إعادة قبول قبول الأشخاص المقيمين بشكل غير شرعي بموجب القانون رقم 531 الصادر بتاريخ 2003/10/20 .

د. المراجع التشريعية:

- قانون العقوبات اللبناني لعام 1943 .
- القانون رقم 5 الصادر بتاريخ 1962/7/10 المتعلق بالدخول الى لبنان والإقامة فيه والخروج منه.

هـ. المراجع باللغة الفرنسية:

Diana Draganova,la migration irreguliere,portrait de la situation actuelle,universite de Montreal,centre d’etudes et de recherches internationals,juillet 2007.
M.C Sordino,droit penal des affaires,Breal,Paris 2012.
Parlement europeen politique d’immigration,fiche technique dul l’onion europeen 2016.

و. عناوين المواقع الإلكترونية:

1 – www.arab-engy.com.sy
2 – www.carjj.org
3 – www.ec.europa.eu.immigration
4 – www.europarl.europ.eup
5 – www.hrw.org
6 – www.ilo.org
7 – www.infomigrants.net
8 – www.interpol.int
9 – www.legallaw.ul.edu.lb
10 – www.umontreal.ca
12 – www.unhcr.org
13 – www.unrewa.org

مئة عام على الهجرة الروسية إلى لبنان:
التفاعل الثقافي والإنساني

عماد الدين رائف
صحافي

دفعت هزيمة الحرس الأبيض في المرحلة الثانية من الحرب الأهلية الروسية (1918 – 1920) نحو مئتي ألف من الجنود والضباط إلى الفرار مع أسرهم، من شبه جزيرة القرم إلى غاليبولي قرب اسطنبول، حيث تجمعت فلولهم. غزت الدعاية الفرنسية المغرية معسكرات اللاجئين، فانخرط آلاف منهم في "الفيلق الفرنسي الأجنبي"، ليخدموا خمس سنوات، كفيلة بحصولهم على الجنسية الفرنسية وحق العمل في فرنسا. تقاطر ضباط وجنود الحرس الأبيض إلى بيروت، بعيد إعلان دولة لبنان الكبير، وانضم إليهم المدنيون، الذين خدموا، في إدارة الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا، مهندسين، وطبوغرافيين ومساحي أراض، وراسمي خرائط وميكانيكيين... وكان سلاحهم اللغة الفرنسية المتينة التي حرصت النخب في العهد القيصري على إتقانها دليلا على الثقافة العالية.

على الرغم من أن لبنان كان محطة لمعظم الوافدين إليه للخدمة في الإدارة الانتدابية، إلا المهاجرين بنوا مجتمعهم الصغير، في عشرينيات القرن العشرين في بيروت (جمعيات عسكرية وتقنية، مكتبة عامة، حلقات ومحاضرات أدبية وعلمية، مدرسة للغة الروسية، دورات لتعليم الموسيقى، الخدمة الكنسية الأرثوذكسية في الأشرفية ورأس بيروت)، ومئات منهم اختاروا البقاء في لبنان، وباتوا جزءا من النسيج الاجتماعي المحلي.

نلقي الضوء في هذا البحث على التفاعل الإنساني مع المجتمع المحلي والأثر الثقافي الذي تركه المهاجرون من روسيا القيصرية في لبنان بشكل عام، مخصصين الحديث عن:

• فن الرسم التطبيقي عبر أعمال بافل كوروليوف، فلاديمير بليس، ميخائيل وسابينا بورادا (الخرائط، الطوابع البريدية والمالية، العملات الورقية والمعدنية، الرسوم التوضيحية في الكتب والقواميس، شهادات الأوسمة، أوراق اعتماد السفراء...)، مع إسهام الأولين في تطوير رسم الأرزة اللبنانية.

• الموسيقى وفنون الغناء عبر أعمال أركادي كوغل وتأسيسه المعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت، ونيقولاي دال وتطوير الكونسرفاتوار، الذي عمل فيه عشرات الأساتذة الموسيقيين الروس (ميخائيل شيسكينوف، ألكسي كورنأوكوف، إيليا لازاريف، يلينا سافرانسكايا، إيراست بيلينغ...)، وبقيت آثارهم حية في أعمال تلامذتهم الموسيقيين والمغنين اللبنانيين.

يعتمد هذا البحث على أعمال تاتيانا كوفاشيفا بحر، سيرغي فرابيوف، إيهور أوستاش، نيقولاي ويلينا سوخوف، وعلى مكتبتيْ "بيت المغترب الروسي" و"معهد الإستشراق"، وعلى تتبعي لموضوعاته (بحوث منشورة أو مذاعة). كما يكشف البحث صفحة مطوية من تاريخ لبنان، كان أبطالها مهاجرون وفدوا إليه حين كان أبناؤه يهاجرون منه.

مقدمة: الروس ولبنان

انعكست أحداث الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) والحرب الأهلية الروسية (1918 – 1921) على الوجود الروسي في لبنان. ويحسن قبل البدء في الحديث عن التفاعل الثقافي والإنساني لهذا الوجود أن نضيء على مصطلح "الهجرة الروسية" نفسه، عبر النقاط الثلاث الآتية:

أولا، مصطلح "الهجرة" هنا، لا علاقة عضوية له بالوجود الروسي في لبنان خلال الحقبة العثمانية. ذلك الوجود الذي سبق نشوب الحرب العالمية الأولى قديم، بدأ مع رحلات الحج الأولى إلى الديار المقدسة، واستمر بوتائر متفاوتة القوة بين زمن وآخر تبعاً لمدى توتر العلاقات السياسية بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية؛ إلى أن تمأسس هذا الوجود في القرن التاسع عشر بأشكال، منها:

• تنظيم رحلة الحج إلى الديار المقدسة، حيث كان أحد أهداف "الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية" (يشار إليها بـ"الجمعية الفلسطينية" عادة). أنشئت في العام 1882 لمواكبة الحجاج الروس ودراسة تلك النواحي، ومساعدة السكان المحليين، حيث افتتحت في فلسطين ثم سوريا ولبنان العديد من المدارس والمرافق الصحية. وأتى إنشاء الجمعية، وفق أسد رستم[1] "بعد زيارة حج الأمراء الروس سيرجيوس (سرغي) وبولس (بافل) وقنسطنطين إلى فلسطين في العام 1881، ولدى عودتهم إلى روسيا انتظم أصدقاء فلسطين في جمعية برئاسة سيرجيوس وعطف القيصر ألكسندر الثالث[2]".

• المؤسسات التعليمية: نظر السكان المحليون، لاسيما الفقراء منهم، بإيجابية تجاه "الجمعية الفلسطينية"، وعزا أسعد داغر النجاح السريع والانتشار الواسع للمدارس الروسية في سوريا وفلسطين إلى أربعة أسباب: القدرة والنفوذ وعطف القيصر، مجانية التعليم، العلاقة الجيدة بين الجمعية والطائفة الأرثوذكسية المحلية ورؤسائها الروحيين، وطرق التعليم النموذجية[3]. فبين عامي 1887 و1914، عملت 48 مدرسة تحت رعاية الجمعية المذكورة (على الأراضي التي تشكل منها لبنان الكبير لاحقاً[4])، ووفق تقارير 1912 – 1913، مثلا، درس في هذه المدارس 5750 تلميذ وتلميذة، وزاد عدد المعلمين والمفتيشين التربويين عن 180 شخصًا، وخريجات وخريجو هذه المدارس يُقدر بعشرات الآلاف[5].

• البعثات العلمية الجغرافية والانثربولوجية واللغوية، التي أوفدتها المؤسسات الجامعية والبحثية الروسية القيصرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، وذلك مع توسع روسيا القيصرية جنوباً عبر حروب تليها اتفاقات ومعاهدات مع الدولة العثمانية، وتنامي الاهتمام الروسي سياسياً ببلاد الشام[6].

وهكذا، حين أعلن آخر قياصرة الروس نيقولاي الثاني[7] الحرب على السلطنة العثمانية في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، رُحّل جميع رعايا روسيا القيصرية من لبنان، وهم موظفو القنصلية الروسية في بيروت وموظفو ومفتشو ومعلمو مدارس "الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية". والسيدة الروسية الوحيدة التي بقيت في بيروت كانت المربية ماريا تشيركاسوفا، المعروفة بـ"الماما المسكوبية"[8]، والتي يحمل شارع بيروتي اسمها[9]. وقد انتهت بهذا الترحيل الجماعي حقبة كان الحضور الروسي فيها كثيفًا على الأراضي اللبنانية.

ثانيًا، الهجرة الروسية في المصطلح لم تكن هجرة طوعية، بل كانت عبارة عن نزوح قسري لأسباب سياسية وفرار جماعي لدوافع أمنية. فقد انتهت الحرب الأهلية الروسية رسميًا في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920، حين لم تستطع فرق الجيش القيصري الأبيض أن تصد هجوم الجيش البلشفي على سيفاستوبل، آخر معاقل روسيا في القرم، ولم يكن بمستطاع فلول الجيش الأبيض الصمود، وكان البحر هو ملاذهم الوحيد. وقع القائد الأعلى للجيوش الروسية اللفتينانت جنرال البارون فرانغيل بين خيارين، إما المواجهة والموت أو أن يعلن بدء عملية الإخلاء المعدّة سلفاً، وبالتالي خسارة الوطن. وهكذا حملت سفن الأسطول القيصري التي زاد عددها عن مئة وخمسين، نحو مئة وستين ألفاً من العسكرين والمدنيين، وكان بينهم نحو سبعة آلاف طفل. كانت عملية الإخلاء هذه كبرى موجات الهجرة الروسية الجماعية، وقد زاد مجموع المهاجرين الذين تفرقوا في شتى أنحاء العالم بين 1918 و1923 عن نصف مليون شخص[10].

ثالثاً، في مصطلح "الهجرة الروسية" يدخل جميع أبناء وبنات الشعوب والقوميات التي كانت تحت سلطة روسيا القيصرية وضمن حدودها في قسميها الأوروبي والآسيوي، ما يعني أن المهاجرين كانوا من قوميات وشعوب مختلفة. وقد تمايز الأوكرانيون إلى حد ما عن اللاجئين الآخرين من روسيا القيصرية في دول الشتات[11]. في سوريا ولبنان، عينت "الجمهورية الشعبية الأوكرانية" (1918–1923) البروفيسور ألكسي هريهوروفيتش بوهوليوبسكي في كانون الأول/ ديسمبر 1922 قنصلا فخرياً لدى إدارة الإنتداب الفرنسي، ليرعى شؤون اللاجئين الأوكرانيين. وقد أرسل بوهوليوبسكي رسائل إلى وزير خارجيته يان توكارجيفسكي – كاراشيفيتش، إحداها بتاريخ 7 شباط/ فبراير 1923، تتضمن معلومات قيمة عن حياة اللاجئين في بيروت. مما جاء فيها: "مدينة بيروت أبرز نقطة لتواجد المهاجرين الأوكرانيين... في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام الماضي (1922)، كان يتواجد في بيروت أكثر من مئة أوكراني... يعانون من أوضاع صعبة

ومرهقة للغاية، وذلك بسبب الافتقار إلى الوظائف ومصادر الدخل، لأن جميع الوظائف القليلة الخاصة بالمثقفين كانت مشغولة بالفعل، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الحرف، وهي غير متيسرة أبدًا للأوكرانيين، لأن جميع هذه الحرف يشغلها الأرمن اللاجئون من الأناضول، والذين يعملون في سوريا بأعداد كبيرة جدًا ولمدة 13 ساعة في اليوم مقابل أجر زهيد للغاية، فهم يتقاضون من 25 إلى 30 قرشا سوريا عن اليوم الواحد... يعيش معظم اللاجئين الأوكرانيين على أموال المواطنين الأرثوذكس العرب والبطريرك الأنطاكي غريغوريوس الرابع، في الوقت عينه فإن الأرثوذكس العرب شعب فقير، وهم يهاجرون إلى أميركا، مثلهم مثل السوريين عمومًا. يوجد عدد قليل من المهاجرين الأوكرانيين ممن يعملون مع الفرنسيين، كسائقين وعمال مطابع، وما إلى ذلك..."[12].

* *

وهكذا، بدعوة من سلطة الانتداب الفرنسي استقر المئات من لاجئي روسيا القيصرية في سوريا ولبنان، فقد وفدوا من اسطنبول وعملوا في إدارات المساحة والسجلّ العقاري مهندسي مساحة، وراسمي خرائط[13]. وكان موظفّو إدارة المساحة بمعظمهم من ضبّاط الجيش القيصري الروسي والبحرية، وشكّل أعضاء أسرهم العمود الفقري للجالية الروسيّة، في عشرينيات القرن العشرين[14]، إلى أن أنشأوا "الجمعية الفنيّة التقنية الروسية سنة 1929، التي تضمنت صندوقًا للخدمات المتبادلة ومكتبة روسية عامة.

كما أسست الجالية الروسية ورشة تدريب مسرحيّة وفرقة المسرح الروسي بين العامين 1930 و1935. بالإضافة إلى "مدرسة الخميس للأطفال" في بيروت[15].

في موازاة عمل المدنيين لدى سلطات الانتداب الفرنسي، غزت الدعاية الفرنسية المغرية معسكرات اللاجئين الروس في غاليبولي قرب اسطنبول، فانخرط آلاف منهم في "الفيلق الفرنسي الأجنبي"، ليخدموا خمس سنوات، كفيلة بحصولهم على الجنسية الفرنسية وحق العمل في فرنسا. وقد خدم هؤلاء في أماكن بلدان الحماية والانتداب الفرنسيين: سوريا ولبنان وتونس والمغرب[16]. وتضم المدافن الفرنسية في بيروت نحو ستة وثلاثين ضريحًا تحمل شواهدها أسماء عائلات تعود لشعوب روسيا القيصرية، وهي لمقاتلين قضوا في الحملات التي خاضها الانتداب الفرنسي ضد مقاوميه على الأراضي اللبنانية[17].

في لبنان، توزع العسكريون البيض السابقون على وحدات عسكرية مستحدثة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وهي: تجمع ضبّاط البحرية القيصريّة السابقة في بيروت، فرقة بيروت القوزاقية، وحدة الانضباط الروسية المنظّمة في سوريا ولبنان وجبال العلويين، وحدة ضبّاط المدفعيّة الروسية في سوريا ولبنان، المجموعة اللبنانية المتفرّعة من وحدة غاليبولي في آسيا الصغرى، فرع الاتحاد الروسي العسكري العام في سوريا ولبنان. ثم ما لبث المهاجرون الروس أن توحّدوا تحت راية رعيّة بيروت لدى "الكنيسة الروسيّة الأرثوذكسيّة في المهجر"، التي تأسست في العام 1927 [18].

أدت حال الاستقرار التي عاشها اللاجئون الروس في ظل سلطة الانتداب الفرنسي إلى استقطاب مهاجرين جدد من ذوي الاختصاصات المختلفة، طيلة العقد الثاني من القرن العشرين، وكانوا متسلحين باللغة الفرنسية التي تجيدها الطبقات المتعلمة في روسيا القيصرية.

عمل هؤلاء المهاجرون في بلدية بيروت، ودرسوا في الجامعات والمدارس، والمستشفيات والعيادات الخاصة، وافتتح الميسورون منهم شركات تجارية، وصالونات الأزياء والمطاعم[19]. ومن الملفت، وهو ما سنركز عليه في هذا البحث، الأثر الذي تركه المهاجرون الروس في الحقلين الفني والموسيقي.

أولا، فنون الرسم

حاول المهاجرون الروس الحفاظ على عناصر الثقافة الروسية في عائلاتهم وتجمعاتهم إذ كانوا على تواصل دائم مع بعضهم البعض. وكانت فنون الرسم منتشرة بينهم، كما أحيوا العديد من الفنون ومنها الغناء والرقص، فنظمت الجالية الروسية في ثلاثينيات القرن العشرين في بيروت حفلا سنوياً راقصاً.

من بين الضباط الروس المهاجرين الذين فروا من البلاشفة عائلة **غيورغي ألكسندروفيتش سيروف**، وهو حفيد الرسام الروسي الشهير فالنتين سيروف. لا تزال عائلة سيروف تعيش في المبنى القديم نفسه في بيروت منذ أربعينيات القرن الماضي. درّس سيروف العمارة في الجامعة الأميركية في بيروت، واشتهر بلوحات الأكواريل[20].

ومن أبرز الرسامين الروس في بيروت **أولغا ميخائيلوفنا ليمانسكايا (ليمانسكي)**، التي ولدت في مدينة مالو أرخانغلسك الروسية سنة 1903، في أسرة موظف حكومي. انتقلت عائلتها إلى العاصمة سان بطرسبورغ في العام 1908، قبل أن تنزح إلى مدينة كييف إثر الثورة البلشفية. في العاصمة الأوكرانية قضت ثلاثة أعوام، ومع اشتداد وطأة الحرب الأهلية نزحت العائلة إلى اسطنبول عبر ميناء سيفاستوبل، ثم انتقلت بعد سنتين على متن الباخرة "تروفور" إلى بيروت، ومنها نحو دمشق، قبل أن تعود إلى بيروت أستاذة للفنون الجميلة[21].

تنتمي ليمانسكي إلى جيل الرائدات في الرسم التشكيلي في لبنان. إلى جانب عملها على رسم البورتريهات، وخاصة وجوه الأطفال، رسمت القرى والطبيعة الجبلية والزهور والحدائق بألوان زيتية ومائية، مجسّدة عبر عشرات اللوحات الأماكن والناس. انعكس إبداع أولغا في إخراج الفرح من عناصر اللوحات. وهي عشقت المدينة، فجالت بريشتها في الأزقة وعلى الأرصفة وفي واجهات المحال التجارية، كما في لوحة الأكواريل الموقعة في العام 1986، التي تصوّر "جادة الإفرنسيين" (من مجموعة سمير مبارك). نظمت أولغا أول معارضها الخاصة سنة 1962، ثم تتالت المعارض بين فرنسا ولبنان في صالات وقاعات ثقافية ومتاحف مختلفة واستمرت هذه الفترة من حياتها نحو عقد من الزمن، انتهت مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في العام 1975.

ومن أبرز الرسامين كذلك **بوريس ليونيدوفيتش نوفيكوف** (1888–1966). ولد في تفليس (الآن تبليسي عاصمة جورجيا)، وشارك في الحرب العالمية الأولى في سلاح مشاة البحرية برتبة ضابط، ثم في الحرب الأهلية الروسية، حيث ترقى ليغدو قائد مدمرة. بعد مغادرة الأسطول الروسي، كانت مدمرته جزءًا من السرب البحري الذي رسى في ميناء بنزرت التونسية. مكث هناك حتى حُلّ هذا السرب في العام 1925 [22]، فانتقل إلى بيروت حيث عمل طبوغرافيًا في دائرة المساحة في بلدية بيروت، وترقى ليغدو رئيسًا لهذه الدائرة. خلال السنوت الأربعين اللاحقة من حياته كرس نفسه لرسم المناظر الطبيعية البحرية والجبلية والآثار التاريخية والمعمارية اللبنانية إلى جانب موضوع الحنين إلى روسيا. بدأ يشارك منذ منتصف عشرينات القرن العشرين في المعارض في لبنان والخارج، حيث عُرضت لوحاته في الجناح اللبناني في المعرض العالمي لعام 1939 في نيويورك، وفي المعرض المتجول للفنانين اللبنانيين في أوروبا، وغيرها. درّس نوفيكوف فنون الرسم لسنوات عديدة في "الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة – ألبا". نال سنة 1963 وسام الأرز الوطني من رتبة فارس، ومُنح بعد وفاته وسام الاستحقاق. تُعرض أعماله في متحف سرسق في بيروت، والمتحف الوطني في دمشق... في العام 1993، قُدمت لوحته "قلعة الصليبيين في صيدا" إلى البابا يوحنا بولس الثاني هدية، وهي اليوم محفوظة في الفاتيكان[23].

الرسم التطبيقي

من الأمور المدهشة في أعمال الرسامين الروس في لبنان أن الرسوم التطبيقية التي تركوها يعرفها جميع اللبنانيين منذ الاستقلال، فكانت رسومهم على الأوراق النقدية والعملات المعدنية وأوراق اليانصيب، وفي الكتب المدرسية والقواميس، ومنشورات الوزارات المختلفة، إلا أن الرسامين أنفسهم لم يكونوا مشهورين. نذكر هنا أبرزهم:

1. **بافل بروكوفيفيتش كوروليوف (بول كوروليف):** ولد في مقاطعة سان بطرسبورغ سنة 1896، وتوفي في بيروت سنة 1992. ينتمي إلى عائلة فلاحين. درس في "المعهد المركزي للرسم التقني"، ومن ثم في "أكاديمية الفنون" في مدينة سان بطرسبورغ. شارك في الحرب العالمية الأولى برتبة ضابط صفّ. بعد الثورة انضم إلى حركة الروس البيض. في العام 1920، كان في عداد جيش الجنرال فرانغيل فأجلي معه من القرم إلى الأراضي التركية. ثم انتقل بعدها إلى مملكة الصرب والكروات والسلاف. عاش في سراييفو، حيث مارس فن الرسم والتصاميم، وفتح مشغله الخاص به. في 6 كانون الثاني/ يناير 1929 انتقل إلى بيروت للعمل بصفة رسام رسمي لدى إدارة سلطة الانتداب الفرنسي في سوريا، كما تلقى حجوزات وطلبات خاصة. عمل بشكل خاص على تصاميم الغرافيك، ورسم بروفات العملات الورقية، ورسومات للأغلفة، وللأوراق البنكية إلخ. وحصل على شهرة خارج حدود لبنان وسوريا في العربية السعودية، العراق، إيران، الأردن، والإمارات العربية.

بدأ سنة 1942 برسم بروفات الطوابع البريدية والمالية في لبنان وسوريا، وخلال عقدين من الزمن استطاع أن ينجز نحو 80 مشروعاً للطوابع البريدية وبلوكات الطوابع. وعلى الطوابع التي صممها ظهرت مشاهد طبيعية، وبورتريهات زعماء. ومن العام 1943 بدأ كوروليوف يرسم بروفات بطاقات اليانصيب الوطني اللبناني.

أنجز بضع مجموعات من العملات الورقية لسوريا ولبنان. ورسم أول مشروع لعملة النيكل المعدنية من فية ليرة واحدة، الصادرة بموجب مشروع التعاون بين الدولة اللبنانية ومنظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة (الفاو)، ورسم الخرائط والرسوم التوضيحية للقواميس والكتب المدرسية وأدلة وزارة السياحة. إلى جانب الرسم التطبيقي، عمل كوروليوف في الرسم الفني، وكانت مواضيع لوحاته مستمدة من الطبيعة اللبنانية والروسية، وكثيرا ما كان يرسم نسخاً طبق الأصل للوحات الفنانين الروس الكبار. وفي خمسينيات القرن الماضي حافظ على الروابط مع السفارة السوفياتية في بيروت، وسافر إلى الاتحاد السوفياتي، لكنه عاد إلى لبنان مجددًا[24].

كان بيت ب. كوروليوف في بيروت مركز جذب للمثقفين اللبنانيين. وتمتع الفنان بسمعة جيدة فنياً، فاعتبر كبير رسامي المناظر الطبيعية والغرافيك في لبنان. ومع ذلك، في نهاية حياته كان يعيش ظروفاً مادية صعبة جداً، وقد اضطر إلى بيع مجموعته الفنية الشخصية، التي كانت تضم مشاريع أعماله ومخططاتها وبروفات اللوحات، والمسوّدات التجريبية، بالإضافة إلى بروفات الخرائط الجغرافية والطوابع البريدية والعملات والسندات[25].

في العام 1968، رفع كوروليوف طلبًا للاستحصال على الجنسيّة اللبنانية. يعدد كوروليوف في هذا الطلب خدماته الكثيرة التي قدّمها للبنان، ومنها: عشرات مجموعات الطوابع البريدية والمالية، ليس فقط للبنان، بل لسوريا والكويت والأردن كذلك، والسندات المالية اللبنانية، وعشرات التصاميم لأوراق اليانصيب اللبنانية والسورية، ودفاتر الشيكات لمصارف مختلفة، والرسوم التوضيحيّة لأكثر من 150 كتابًا مدرسيًا، وبروفات العملات الورقية اللبنانيّة والسوريّة، تصاميم العملات المعدنيّة الصادرة عن مصرف لبنان (استمر في رسمها حتى العام 1981)، وأوراق اعتماد السفراء اللبنانيين في الخارج، والخرائط اللبنانية المختلفة.

وعلى الرغم من أن كوروليوف كان فارسًا مقاتلًا في الجيش الروسيّ الأبيض، إلا أنّه، ومنذ انسحابه طواعية من فوجه لم يلتحق بأي من المجموعات العسكرية الروسيّة في لبنان. وقد بقيت علاقته جيّدة مع أعضاء الفرق العسكريّة الروسيّة البيضاء، والدليل على ذلك تعاونه مع الجنرال الروسيّ غيورغي ألكسندروفيتش علييف (1887–1873)، وهو رسام أيضًا، صمّم مع كوروليوف مجموعات طوابع بريدية لإمارة دبي سنة 1964 [26].

2. **فلاديمير فلاديميروفيتش بليس** (1897–1974): ضابط عسكري انسحب مع فرق الجيش الأبيض من القرم إلى غاليبولي التركية، ثم هاجر إلى بلغاريا، قبل أن ينتقل إلى بيروت في العام 1934. عمل رسّامًا محترفًا للخرائط لدى سجلّ مسح الأراضي في لبنان وسوريا وكان عضوًا في الجمعية التقنية الروسية. بين العامين 1953 و1961 أنشأ تصاميم عشر مجموعات الطوابع البريدية في لبنان. كما عمل على عدد من المجموعات البريدية السورية[27].

3. **الزوجان سابينا وميخائيل بورادا:** ينمّ الأثر اللطيف الذي يتركه سحر الخطوط والألوان في الرسم التطبيقي عن حسّ فنيّ مرهف، يتجسّد في لمسة من الجمال الأنثوي تركتها سابينا دوبروفولسكايا بورادا في لبنان، قبل أن يغدرها اندلاع الحرب الأهلية لتهجره قسرًا إلى فرنسا مع زوجها ميخائيل. صمّم الزوجان بورادا خلال سبع سنوات، بين العامين 1968 و1975 اثنتي عشرة مجموعة من الطوابع البريدية اللبنانية، قد تكون بعضها الطوابع الأكثر جمالًا على صعيد الرسم التطبيقي.

وكان يفغيني بورادا والد ميخائيل أحد المهاجرين الروس الأوائل، وأرسل ابنه ميخائيل (مواليد بيروت، 1934)، اللبناني المولد والجنسية، لمتابعة دراساته العليا في الهندسة المعمارية في "معهد موسكو الحكومي للعمارة"، بعد تخرّجه من "الأكاديمية اللبنانية للفنون الجملية – ألبا". في العاصمة السوفياتيّة، تعرف ميخائيل بالشابة الجميلة سابينا هنريخوفنا دوبروفولسكايا، الآتية من العاصمة الأوكرانية كييف للدراسة في موسكو، والتي كانت قد تخرجت من "معهد موسكو الحكومي للعمارة" سنة 1967، وعملت مساعدة لعميد كلية الوسائل التقنية للعمارة في المعهد.

تزوج سابينا وميخائيل وسافرا إلى لبنان، فعملت سابينا في "وكالة سيروف – بورادا" للهندسة المعمارية في بيروت، إلى جانب زوجها، وعاشا في ربوع لبنان سبع سنوات، وخلال رحلة الفصح الربيعية إلى فرنسا اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية في نيسان/ أبريل 1975، فحالت دون عودتهما وهكذا بقيا في فرنسا، تاركين وراءهما أملاكهما من دون أمل في العودة إلى بيروت. في باريس نشر الزوجان بورادا مجموعة مقالات لعلماء سوفيات في حقل أنظمة التصميم الهندسية المؤتمتة. وبدءًا من العام 1976 عملا في مركز أبحاث المعلوماتية المنهجية للهندسة المعمارية (CIMA). وتمحورت المواضيع الرئيسة لأعمالهما البحثية حول تطوير الوسائل التقنية في العمارة، وتحفيز التفكير الإبداعي في مرحلة التصميم الأوّلي للمشاريع. وشاركا في المسابقات الدولية للفنون العمارة، مواصلين نشاطاتهما الإبداعية. كما عمل ميخائيل بورادا أستاذًا محاضرًا في كلية التصميم المعماري، في المعهد الوطني العالي للعمارة – باريس كونفلان (ENSA Paris Conflans)، أما سابينا فعملت أستاذة محاضرة في كلية الفنون الجميلة في معهد فرساي العالي للعمارة (ENSAV). وسجّلت باسمها براءة ابتكار النظام الثلاثي الأبعاد للبثّ التلفزيوني لأوبرا بوف (الخادمة – السيّدة) لـ ج.ب. بيرغوليزي (FR3, 1985)، وكذلك إنشاء أفلام الرسوم المتحركة

الثلاثية الأبعاد. ولا يزال الزوجان بورادا يعيشان حتى اليوم في فرنسا، بوقد سجّلا باسمهما عددًا كبيرًا من التصاميم الفنيّة، باستخدام التقنيات التقليدية (الرسم المائي، الزجاج الملوّن، التصوير الفوتوغرافي) إلى جانب تقنيات الكومبيوتر. وهما عضوان في جمعيات واتحادات فنية، وشاركا في عدد كبير من المعارض الفردية والجماعية[28].

إلى جانب مجموعة "خطف أوروبا – 1971"، و"الجمعية الدولية للمتاحف – 1969"، رسم الزوجان بورادا عشرة مجموعات طوابع بريدية، وهي: الاتحاد البريدي العالمي، سنة 1971، جامعة الدول العربية، سنة 1971، السنة الدولية للتربيّة، سنة 1971، مصحّ ضهر الباشق، سنة 1971، مئة عام على ولادة لينين، سنة 1971، اليوبيل الفضي للأمم المتحدة، سنة 1971، دورة الألعاب الأولمبية في نيومكسيكو – المكسيك، سنة 1968، ذكرى مرور مئة عام على تأسيس أول مجلس بلدي، 1968، اليوبيل الفضّي للصليب الأحمر اللبناني 1945–1970، البطولة الدولية العاشرة للمبارزة، سنة 1971 [29].

ثانيًا، الموسيقى

يعود الفضل في الكشف عن الأثر الموسيقي – الغنائي الروسي في التاريخ اللبناني الحديث إلى الباحثة تاتيانا كوفاشيفا بحر، ويضم "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي" في موسكو بفضلها عددًا كبيرًا من نسخ الوثائق، التي باتت مفقودة في لبنان. تقول بحر: "أواخر تسعينيات القرن الماضي، تشرّفت بالتعرّف إلى الفنان زكي ناصيف، وعندما علم أنني روسية قال لي إن أساتذته في الموسيقى كانوا من الروس وذكر لي عدداً من الأسماء، كان يذكرهم على مهل واحداً تلو الآخر وينتظر ردة فعل مني... شعرت بالحرج من جهلي، وشعرت في المقابل بتقديري للموسيقي اللبناني الكبير الذي يحافظ على ذكرى أناس باتوا منسيين تماماً في روسيا". وتستشهد بحر بما قاله زكي ناصيف "لقد أدركنا أن الملحنين الكبار في جميع أنحاء العالم لم يحققوا الشهرة إلا بعدما نهلوا من فلكلور بلدانهم، إن تشكل ذلك الوعي لدينا جعلنا أكثر اهتمامًا بالفلكلور اللبناني في الأرياف. لقد تعلمنا كذلك أنّ الفلكلور الروسي أنشأ الموسيقى والأوبرا الروسيتين، وليس العكس. فالفلكلور هو الذي يملأ روح الموسيقى الكلاسيكية والغناء".

لذلك عملت الباحثة على التنقيب في وثائق الأرشيفات لإعادة تجسيد نحو نصف قرن من عمل الأساتذة الروس مع طلابهم في مختلف المؤسسات الأكاديمية الموسيقية في لبنان. تضيف: "الآن بتُّ أعلم أن أحد أساتذة زكي ناصيف في معهد الموسيقى التابع للجامعة الأميركية في بيروت كان خريج المعهد المسكوبي العالي للموسيقى ومغنّي الأوبرا ألكسي كورنأوكوف (1889 – 1987)... كما أن "عصبة الخمسة"، التي أسسها زكي وكان في عدادها زميله في المعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية توفيق الباشا، شكلت فريقًا متجانسًا لصناعة موسيقى لبنانية جديدة، استمدت اسمها من النظير الروسي "القبضة

الجبارة"، أو حسب التقليد الفرنسي "الخماسية الروسية"، وهي عبارة عن رابطة من الملحنين (ضمت كذلك الأخوين رحباني وحليم الرومي وفيليمون وهبة) هدفت إلى الخروج من الغناء الشائع إلى محاولة اكتشاف لون من الغناء المحلي الذي يستمد من الفولكلور جمله اللحنية، وذلك سمة ظاهرة في أثر الأساتذة الروس، الذين لم يدرّسوا تلامذتهم العزف على الآلات الموسيقية فحسب، بل اتباع المثل الجمالية ذات الأصول المحلية وغرسوا فيهم بناء احترام الفولكلور الذي يضم خامات فنية قابلة للصقل والتطوير لإنتاج موسيقى حديثة"[30].

1. أركادي كوغل

كان المدير المؤسس للمعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت عازف البيانو والموسيقار أركادي كوغل (1896 – 1985)، وهو خريج المعهد العالي الموسيقي في سان بطرسبورغ. درس زكي ناصيف وزملاؤه على يدي الموسيقار أركادي كوغل، مؤسس ومدير المعهد الموسيقي في الجامعة. "كان كوغل قد لجأ مع زوجته وشقيقه رودولف إلى لبنان، وكان من حظ الشاب زكي أن درس في المعهد أيضًا عزف آلة البيانو على يد زوجة أركادي وعزف آلة التشيلو على يد شقيقه".[31] قبل تأسيس المعهد، عندما وصلت عائلة كوغل إلى بيروت، كان أركادي قد بدأ بإعطاء دروس خصوصية وتنظيم الحفلات الموسيقية في الجامعة. خريف 1928، حصل كوغل على إذن حكومي لبدء معهد موسيقي خاص، لكنه آثر أن يقام هذا المعهد ضمن الجامعة الأميركية في بيروت، وافتتح المعهد عام 1929... لقد وفّر معهد الموسيقى في الجامعة ومديره كوغل الأجواء المناسبة لتقبل الموسيقى والتفاعل معها في الربع الثاني من القرن العشرين[32] وحتى منتصفه، أي قبل الانطلاق الرحب لناصيف وزملائه الذين عملوا على تشكيل هوية الموسيقى اللبنانية المعاصرة اعتبارًا من بدايات النصف الثاني من القرن العشرين" . اتسمت فترة إقامة أركادي كوغل في لبنان بالإنتاج الموسيقي الغزير، ومما لا شك فيه كانت أعماله مثالا يحتذى لدى الموسيقيين اللبنانيين الشباب. وتحظى الأعمال التي أنتجها أركادي كوغل في لبنان باهتمام خاص من متذوقي الموسيقى الكلاسيكية، ومنها: تنويعات على الثيمة العربية للبيانو (1927)، رقصة السيف العربية: مقطع من باليه "أحلام راع" للبيانو (1929)، انطباعات دمشقية: جناح شرقي لأوركسترا سيمفونية كبرى (1930)، الرقص الشرقي للكمان والبيانو (1932)، رقصة البدو للتشيلو والبيانو (1932)، رقصة الأكراد للبيانو (1936)، رابسودية التتار للبيانو مع الأوركسترا (1937)، الفولغا، ملحمة سيمفونية للأوركسترا الروحية (1938)، صفحتان من ألبوم الرقص الأرمني (أواخر الثلاثينيات)[33]. تتبع كوغل في مؤلفاته تدرّجًا متسقًا مبنيًا على التفسير الثقافي الجمالي للألحان الشعبية. وقد "حظيت المؤلفات الموسيقية ذات الطيف القومي المتنوع بالانتشار بين الموسيقيين اللبنانيين والأجانب على حد سواء، وبثت عبر راديو الشرق. فعملت على الارتقاء بالذائقة الموسيقية لدى الجمهور بشكل عام، ولدى الملحنين اللبنانيين الشباب، الباحثين عن طرقهم الخاصة في صناعة الموسيقى"[34].

2. نيقولاي دال

لعب ألكسي بطرس دورًا مهمًا في نشر الموسيقى الكلاسيكية، وكان موسيقيًا هاويًا، وعضوًا في الأوركسترا السيمفونية لدى الجامعة الأميركية في بيروت، وتلقى دروسًا في التشيلو على يدي رودولف كوغل. فبمساعدة قوية من الموسيقيين الروس ورابطة الموسيقيين الهواة نمت المدرسة الموسيقية وهي أولى كليات الأكاديمية اللبنانية للفنون (ألبا).

كان ألكسي كورنأوكوف أوّل قائد لجوقة هذه الرابطة، التي حظيت بشهرة عالمية فيما بعد. أما أول مدير لمدرسة ألبا الموسيقية فكان نيقولاي نيقولاييفيتش دال (1891–1964) الذي كان محاميًا وموسيقيًا. عاش دال في بيروت وكان عضوًا في أوركسترا الجامعة الأميركية السيمفونية ومن أصدقاء عائلة كوغل. بعد وفاة دال الابن، تأسست جائزة نيقولاي دال في الأكاديمية اللبنانية للفنون (Dale Prix)، والتي سمحت للشباب اللبناني بمواصلة التعلم الموسيقي في الخارج.

كما ساهم الأساتذة الوافدون من روسيا إسهامًا كبيرًا في تشكيل وتطوير المعهد العالي للموسيقى "الكونسرفتوار"، ففي مراحل مختلفة عمل في التدريس هناك كل من ميخائيل شيسكينوف، ألكسي كورنأوكوف، يلينا لازاريفا، يلينا سافرانسكايا، ماريا كوسفيتسكايا دورمون، تينا مانتيفيل، إيراست بيلينغ. وكان مدير المعهد الوطني العالي للموسيقى "الكونسرفاتوار" نيقولاي دال بين العامين 1961 و1964 [35].

3. عائلة بيلينغ

روسي آخر كان أحد ضباط اللحن الأربعة في أوركسترا البلاط القيصري الروسي، البارون إيراست بيلينغ، الذي تتلمذ على يدي ريمسكي كورساكوف، وكان عازفًا موهوبًا على الكمان وعازف بيانو، وملحنا. استقرت عائلة البارون بيلينغ المهاجرة في دمشق، فعلّم البارون البيانو وألف في الموسيقى، وعملت زوجته المغنّية الروسية ساندرا بيلينغ في صناعة الدمى التذكارية وأنشأت ورشة لإنتاجها سمّتها "بارون بيلينغ"، أما انتهما تمارا فدرّست الباليه الكلاسيكي ورقصت في حفلات الكونشيرتو. في العام 1948، دعيت إلى بيروت كرئيسة لقسم الرقص في الأكاديمية اللبنانية للفنون (ألبا)، لاحظ أنّها كانت المحاولة الأولى لتعليم الباليه الكلاسيكي على أساس أكاديمي في لبنان. بين طلاب البارون بيلينغ نجد الملحن السوري الشهير وليد الحجار. وتتلمذ على يديه في بيروت المؤلفان الموسيقيان بوغوص جلاليان (1927–2011) وجورج باز (1926–2012)[36].

4. ليديا ليبكوفسكا

بدعوة من "الأكاديمية اللبنانية للفنون – ألبا" وصلت مغنية الأوبرا العالمية الأوكرانية الأصل ليديا ليبكوفسكا إلى بيروت لتنضم إلى أساتذة الأكاديمية، بعد حياة فنية حافلة، غنت فيها ليديا على معظم المسارح العالمية المرموقة. أمضت ليديا السنوات الأخيرة من عمرها في بيروت، وتحتفظ الأكاديمية في

أرشيفها بوثيقة، هي عبارة عن رسالة من رئيس الأكاديمية ألكسي بطرس إلى وزير التعليم اللبناني، مؤرخة في 4 أيلول/ سبتمبر 1952، بشأن دعوة ليديا ليبكوفسكا للعمل في منصب بروفيسور أكاديمية الفنون بدءًا من العام الجامعي 1952 – 1953. كما تضمنت هذه الرسالة أن تاريخ ميلادها 28 نيسان/ أبريل 1884، وفق جواز سفرها الفرنسي.

تفيد مصادر مختلفة بأن تاريخ وفاتها في بيروت هو 22 آذار/ مارس 1958، أي أنها قضت السنوات الخمس الأخيرة من حياتها في الأسرة التعليمية للأكاديمية. وقد تمكن البروفيسور إيهور أوستاش بعد بحث طويل من العثور على ضريح هذه الفنانة في مدافن كنيسة السيدة في حي الأشرفية البيروتي[37].

5. وثائق للباحثين

نجد على الموقع الرسمي للمعهد الوطني العالي للموسيقى – الكونسرفاتوار: خلال الحرب اللبنانية (1975–1991) تكبد المعهد الوطني أضرارًا مادية كبيرة، حيث تم نهب جميع الآلات والوثائق وخزائن الكتب أو أحرقت. كما نقرأ عن أرشيف عائلة دال: في العام 1983 نهب أرشيف عائلة دال وأحرق[39].

إلا أن أرشيف الدولة في مقاطعة تفير الذي يحتفظ بمحفوظات ألكسي كورنأوكوف وزوجته عازفة البيانو والأستاذة الموسيقية يلينا لازاريفا، اللذين عادا من لبنان إلى الوطن سنة 1967. وتشمل الوثائق مجموعات من الصور الفوتوغرافية والملصقات وبطاقات الدعوة وقصاصات من الصحف والمجلات، وسجلات الامتحانات وقوائم الطلاب والبرامج التدريبية للمعهد الموسيقي في الجامعة الأميركية في بيروت، وكلية الموسيقى في الأكاديمية اللبنانية للفنون (ألبا)، والمعهد الوطني العالي للموسيقى – الكونسرفاتوار، بين ثلاثينيات وستينيات القرن العشرين[39].

[1] كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، أسد رستم (بيروت، المكتبة البوليسية، ط1: 1988) ج3، ص –224 225.

[2] ألكسندر رومانوف الثالث (1845–1894)، قيصر روسيا السابع عشر (1881–1894)، خلفاً لأبيه ألكسندر الثاني بن نيكولاي الأول بن بافل الأول بن بيتر الثالث بن الأمبراطورة آنا إيفانوفنا بنت القيصر بطرس الأكبر. لم تخض روسيا في عهده حروباً كبيرة وعرف بصانع السلام.

[3] المدارس الروسية في سوريا، مجلة المقتطف، أسعد داغر، عدد تشرين الأول/ اكتوبر 1901، ص 901 وما بعدها.

[4] لبنان الكبير، أو الأراضي الحالية للجمهورية اللبنانية كانت تابعة لثلاثة تقسيمات إدارية عثمانية: (1) بيروت كانت مركزاً لولاية كبيرة تزيد مساحتها عن ثلاثين ألف كيلومتر مربع، وتضم ألوية: بيروت، عكا، طرابلس، اللاذقية، ونابلس. وزاد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة. انظر: ولاية بيروت، رفيق التميمي ومحمد بهجت (بيروت: منشورات لحد خاطر، 1979) ص 7. (2) البقاع الغربي (دعي جنوب سوريا في مدونات الجمعية الفلسطينية) وأراضي بعلبك والهرمل كانت تابعة لولاية دمشق. (3) متصرفية جبل لبنان. أما مصطلح سوريا، في كتابات الرحالة والبعثات العلمية ومذكرات ورسائل مستشرقي المدرسة الروسية فهي ولاية دمشق بالإضافة إلى برّ الشام كله، حيث ولاية بيروت والمتصرفية. والسوريون هم سكان المنطقة من بدو وحضر. وفي رسائل كريمسكي كما في توقيعه لقصصه يضيف بيروت إلى سوريا، فيقول مثلاً "بتاريخ (كذا) بيروت في سوريا". واللبنانان – لبنان الغربي والشرقي: سلسلتا جبال لبنان الغربية والشرقية (ليبانوس وأنتي ليبانوس). وإذا ما أطلق لفظ لبنان فمعناه سلسلة جبال لبنان الغربية، أو متصرفية جبل لبنان حصراً. انظر: قصص بيروتية، أغاتانغل كريمسكي (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2017)، القسم الأول.

[5] المدارس المسكوبية في لبنان 1887–1914، تاتيانا كوفاشيفا بحر وبيوتر فيدوتوف (بيروت – سان بطرسبورغ: المتحف الوطني للتاريخ الديني، 2012) – الملاحق.

[6] العالم اللغوي والمستشرق أغاتانغل كريمسكي (1871–1942) أحد ممثلي هذا الشكل من الوجود القيصري في بلادنا، حيث عاش في بيروت وجبل لبنان بين العامين 1896 و1898. وكتب فيها مجموعته "قصص بيروتية"، وديوانه الشعري "سعف النخيل". ومن أبرز ممثلي هذا الشكل كذلك: (1) ألكسندر ن. مورافييف (1806 – 1874)، وكانت رحلته إلى بلادنا سنة 1829، وقد وثّقها في كتابه "رحلة إلى الأماكن المقدّسة"، الذي صدر في سان بطرسبورغ سنة 1835، وروى فيه عن زيارته إلى بيروت العثمانية. كما روى في كتابه "رسائل من الشرق"

سنة 1851 عن زيارته إلى مدينة بعلبك. (2) وليم ف. ديتيل (1816 – 1848)، وقد عرض رحلته التي دامت ثلاث سنوات (1842 – 1845)، في مجلة وزارة المعارف الوطنية التي كانت تصدر في سان بطرسبورغ سنة 1847. كما عرض جانبًا من الرحلة على صفحات مجلة "بشير الجمعية الجغرافية" سنة 1851. (3) نيقولاي ف. بيرغ (1823 – 1884)، وقد كانت رحلته بين العامين 1860 و1862، وقد عرض رحلته في مقالات على صفحات مجلة "سوفريمينِّك"، سنة 1863. (4) ميخائيل ن. دوختروف (1788–1865)، وكانت رحلته سنة 1862 إثر الأحداث الأليمة التي حلّت بلبنان. وقد دوّنها في كتابه "رحلة إلى الشرق" الذي صدر في سان بطرسبورغ سنة 1863، وتناول فيه جوانب سياسية ولقائه باللجنة الأوروبية المحققة بالقلاقل. (5) نيقولاي ب. كونداكوف (1844 – 1929)، الذي دوّن رحلته في كتاب "رحلة آثارية في سوريا وفلسطين"، الذي صدر سنة 1904، وتحدث فيه عن زيارته إلى شتورة وبعلبك. انظر: من بيروت وعنها – أوراق أوراسية في التفاعل الحضاري، عماد الدين رائف (بيروت: دار المصور العربي، 2018) ص 126 وما بعدها.

7 نيقولاي الثاني، نيقولاي ألكسندروفيتش رومانوف (1868–1918): آخر قياصرة الأمبراطورية الروسية (1894–1918)، تميزت إدارته بالتطوير الاقتصادي والتناقضات الاجتماعية والسياسية والثورات. بعد ثورة أكتوبر، في 17 تموز 1918، أعدمه البلاشفة مع أفراد أسرته وحاشيته رمياً بالرصاص في مدينة يكاتيرنبورغ.

8 ماريا ألكسندروفنا تشيركاسوفا: نبيلة روسية من محافظة نوفغورد، كرست نفسها للتربية، فقامت في سبعينات القرن التاسع عشر بفتح مدرسة في ملكيتها الخاصة في منطقة بوروفيتشك لتدريس ابناء الفلاحين المحليين، وتطوعت في سبيل ذلك لسنوات. قبل وصولها إلى بيروت عملت ضمن الإرساليات الأرثوذكسية في اليابان لثلاث سنوات، وعادت بقرار طوعي مارة بالأراضي المقدسة، حيث التقت بسكرتير الجمعية الفلسطينية نيقولاي خيترفو. توفيت ودفنت في بيروت سنة 1918. استمرت مدارسها في عملها حتى تشرين الأول 1914، فقبيل انطلاقة شرارة الحرب العالمية الأولى، والأعمال الحربية بين روسيا القصيرية والسلطنة العثمانية، أوقفت الجمعية عمل المدارس، وتسلمت الهيئات الكنسية المحلية إداراتها من الجمعية. انظر: المدارس المسكوبية في لبنان 1887 1914–، – مرجع سابق، ص 30. وعن إيقاف الجمعية العمل في مدارسها وليس إقفالها من قبل السلطات العثمانية، انظر الوثائق المرفقة ببحث الدكتورة جولييت الراسي ضمن: لبنان في الحرب العالمية الأولى، مجموعة مؤلفين (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1: 2012) ج1.

9 الشارع بين مدرسة الأم المسكوبية في وطى المصيطبة (مبنى سفارة روسيا الاتحادية حالياً) ومنزلها. راجع: برنامج "حديث روسيا" – إذاعة صوت الشعب، الحلقة 58، بتاريخ 14 تموز/ يوليو 2012: الماما ماريا تشيركاسوفا وتسمية شارع باسمها في بيروت. كذلك: شجرتا الماما، عماد الدين رائف، جريدة "السفير" 19 آب/ أغسطس 2014.

10 مقابلة مع المؤرخ بيوتر بازيليفسكي، "سفر الخروج الروسي الكبير"، فيلم وثائقي للمخرج دانيل سيريخ، قناة "بروفي تي في"، 1991. نسخة على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=2tMERF4PhAg

11 قارن: قرن على لجوء الأوكرانيين إلى مصر، عماد الدين رائف، السفير العربي، 20 آب/ أغسطس 2020. على الرابط: https://bit.ly/2QFWTS7

12 الأوكران ولبنان، إيهور أوستاش، ترجمة عماد الدين رائف (كييف: دار دوليبي، 2019) ص 224–225.

13 المهندسون والمسّاحون الروس في لبنان، أديب فارس. ضمن: الروس في لبنان – مجموعة مقالات، إعداد سيرغي فرابيوف (بيروت: 2010). ص 142 وما بعدها. يتضمن البحث لائحة إسمية تضم عشرات أسماء عشرات المهندسين والفنيين، وما تضمنته إضبارات عملهم من معلومات عنهم، من أماكن عملهم في لبنان وتواريخ الوفاة.

14 لبنان مطلع خمسينيات القرن العشرين بعيون المهاجرين الروس المناهضين للسوفيات، أ.ف. أنتوشين وأ.ف. سارابييف، دورية "فوستوك" (الشرق)، العدد 4، 2015. ص 60.

15 "الروس في لبنان" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2015.

16 تاريخ الهجرة الروسية إلى المغرب في القرن العشرين، نيقولاي سوخوف (موسكو: معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، 2018) المقدمة.

17 جولة ميدانية للباحث، ربيع 2015.

18 "الروس في لبنان" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر – مرجع سابق.

19 المرجع نفسه.

20 الشتات الروسي في لبنان، ألكسي سارابييف، مجلة "روسكي فيك" (العصر الروسي)، العدد 9، 2012. كذلك: سيروف غيورغي ألكسندروفيتش، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/places/1804990812/1805324496.html

21 ليمانسكايا (المولودة فيليبتشينكو) أولغا ميخائيلوفنا، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/1805326286.html

22 راجع: كيف صار المغرب ملاذ المهاجرين الروس، عماد الدين رائف، السفير العربي، 24 نيسان/ أبريل 2020. على الرابط: https://bit.ly/3nAlu7c

23 نوفيكوف بوريس ليونيدوفيتش، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/places/1804990812/1805052103.html

24 "فنانون روس رسموا لبنان: كوروليوف، بليس، بورادا" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة) وخليل برجاوي (مؤلف مشارك) وعماد الدين رائف (مؤلف مشارك)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2017. ضمّ المعرض المجموعات الأصلية للفنانين (نحو 470 قطعة). جميع المعروضات من مجموعة المؤلف المشارك خليل برجاوي: طوابع بريدية ومالية وضريبية وأغلفة وأوسمة وميداليات تذكارية وعملات ورقية ومعدنية ولوحات، وغيرها من الرسوم والتصاميم.

كذلك: الأرزة اللبنانية بتصميم روسي، مجلة "فيلاتيليا"، فلاديمير شليفيف، العدد 6، 1996. ص ص 23–24. ترجمة المقال على الرابط: https://bit.ly/3aM0buc

25 مقابلة خاصة مع الفنان اللبناني شربل فارس في محترفه في بلدة صربا – جنوب لبنان، 24 شباط/ فبراير 2015. وكان شاهد عيان على تلك المرحلة من حياة كوروليوف.

26 فنانون روس رسموا لبنان: كوروليوف، بليس، بورادا" – معرض وثائق، – مرجع سابق.

28 المرجع نفسه.

27 فيديو مسجل ربيع 2017، يتحدث فيه الزوجان بورادا عن عملهما في لبنان، بثّ خلال حفل افتتاح معرض "فنانون روس رسموا لبنان"،

29 موسكو، 27 نيسان/ أبريل 2017.

30 فنانون روس رسموا لبنان: كوروليوف، بليس، بورادا – معرض وثائق، – مرجع سابق.

مقابلة خاصة مع الباحثة الروسية اللبنانية تاتيانا كوفاشيفا بحر، بتاريخ 13 حزيران/ يونيو 2019، نشرت أجزاء منها تحت عنوان "تاتيانا بحر

31 تعيد تجسيد تاريخ لبنان الموسيقي"، الميادين – الثقافة، بتاريخ 1 أيلول/ سبتمبر 2019، على الرابط: https://bit.ly/3eKn6ar

كلمة كفاح فاخوري خلال حفل إطلاق كتاب "من أوراق زكي ناصيف" في الجامعة الأميركية في بيروت، 2014. والحديث ينقله فاخوري عن رئيس الجامعة الأميركية الأسبق ستيفن بنروز عن سلفه ستيفان دودج. على الرابط: https://www.aub.edu.lb/fas/znmp/

32 documents/kifahfakhouryspeech.pdf

33 المرجع نفسه.

"الموسيقيون الروس في لبنان: تنويعات في الثيمة العربية" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب

34 الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2019.

35 مقابلة خاصة مع الباحثة الروسية اللبنانية تاتيانا كوفاشيفا بحر، بتاريخ 13 حزيران/ يونيو 2019، – مرجع سابق.

36 إنزال موسيقي بطرسبورغي في الشرق الأدنى، تاتيانا كوفاشيفا بحر، دورية "سكريبيتشني كلوتش"، العدد 4 (73)، 2019. ص 28 – 36.

بيلينغ (اسم عائلتها قبل الزواج نيفتونوفا) ألكسندرا ألكسندروفنا، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"،

37 على الرابط: html.1805335335/https://artrz.ru/places/1804990812

38 الأوكران ولبنان، إيهور أوستاش، – مرجع سابق، ص 238 وما بعدها.

39 الموقع الرسمي للكونسرفاتوار، على الرابط: https://www.conservatory.gov.lb/history

"الموسيقيون الروس في لبنان: تنويعات في الثيمة العربية" – معرض وثائق، – مرجع سابق.

مراجع

أولا، الوثائق

• "الروس في لبنان" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2015.

• "فنانون روس رسموا لبنان: كوروليوف، بليس، بورادا" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة) وخليل برجاوي (مؤلف مشارك) وعماد الدين رائف (مؤلف مشارك)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2017. ضمّ المعرض المجموعات الأصلية للفنانين (نحو 470 قطعة). جميع المعروضات من مجموعة المؤلف المشارك خليل برجاوي: طوابع بريدية ومالية وضريبية وأغلفة وأوسمة وميداليات تذكارية وعملات ورقية ومعدنية ولوحات، وغيرها من الرسوم والتصاميم.

• "الموسيقيون الروس في لبنان: تنويعات في الثيمة العربية" – معرض وثائق، تاتيانا كوفاشيفا بحر (مؤلفة)، "بيت ألكسندر سولجنيتسين للمغترب الروسي في موسكو"، نيسان/ أبريل 2019.

ثانيًا، الكتب

• المدارس المسكوبية في لبنان 1887–1914، تاتيانا كوفاشيفا بحر وبيوتر فيدوتوف (بيروت – سان بطرسبورغ: المتحف الوطني للتاريخ الديني، 2012).

• قصص بيروتية، أغاتانغل كريمسكي (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2017).

• كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، أسد رستم (بيروت، المكتبة البوليسية، ط1: 1988).

• لبنان في الحرب العالمية الأولى، مجموعة مؤلفين (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1: 2012).

• من بيروت وعنها – أوراق أوراسية في التفاعل الحضاري، عماد الدين رائف (بيروت: دار المصور العربي، 2018).

• ولاية بيروت، رفيق التميمي ومحمد بهجت (بيروت: منشورات لحد خاطر، 1979).

ثالثًا، المقالات

• الأرزة اللبنانية بتصميم روسي، مجلة "فيلاتيليا"، فلاديمير شليفيف، العدد 6، 1996.

• الشتات الروسي في لبنان، ألكسي سارابييف، مجلة "روسكي فيك" (العصر الروسي)، العدد 9، 2012.

• المدارس الروسية في سوريا، مجلة المقتطف، أسعد داغر، عدد تشرين الأول/ اكتوبر 1901.

• إنزال موسيقي بطرسبورغي في الشرق الأدنى، تاتيانا كوفاشيفا بحر، دورية "سكريبيتشني كلوتش"، العدد 4 (73)، 2019.

• قرن على لجوء الأوكرانيين إلى مصر، عماد الدين رائف، السفير العربي، 20 آب/ أغسطس 2020. على الرابط: https://bit.ly/2QFWTS7

• كيف صار المغرب ملاذ المهاجرين الروس، عماد الدين رائف، السفير العربي، 24 نيسان/ أبريل 2020. على الرابط: https://bit.ly/3nAlu7c

• لبنان مطلع خمسينيات القرن العشرين بعيون المهاجرين الروس المناهضين للسوفيات، أ.ف. أنتوشين وأ.ف. سارابييف، دورية "فوستوك" (الشرق)، العدد 4، 2015.

رابعًا، مقابلات وكلمات

• مقابلة خاصة مع الباحثة الروسية اللبنانية تاتيانا كوفاشيفا بحر، في مدينة صور، بتاريخ 13 حزيران/ يونيو 2019.

• مقابلة خاصة مع الفنان اللبناني شربل فارس في محترفه في بلدة صربا – جنوب لبنان، 24 شباط/ فبراير 2015.

• كلمة كفاح فاخوري خلال حفل إطلاق كتاب "من أوراق زكي ناصيف" في الجامعة الأميركية في بيروت، 2014. على الرابط: https://www.aub.edu.lb/fas/znmp/documents/kifahfakhouryspeech.pdf

• فيديو مسجل ربيع 2017، يتحدث فيه الزوجان بورادا عن عملهما في لبنان، بثّ خلال حفل افتتاح معرض "فنانون روس رسموا لبنان"، موسكو، 27 نيسان/ أبريل 2017.

خامسًا، المواقع الالكترونية

• الموقع الرسمي للكونسرفاتوار، على الرابط: https://www.conservatory.gov.lb/history
• الموسوعة البيوغرافية الكبرى، على الرابط: https://rus-big-biography-enc.slovaronline.com/
• موسوعة الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي:
o بيلينغ (اسم عائلتها قبل الزواج نيفتونوفا) ألكسندرا ألكسندروفنا، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/places/1804990812/1805335335.html
o سيروف غيورغي ألكسندروفيتش، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/places/1804990812/1805324496.html
o ليمانسكايا (اسم عائلتها قبل الزواج فيليبتشينكو) أولغا ميخائيلوفنا، تاتيانا كوفاشيفا بحر، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/1805326286.html
o نوفيكوف بوريس ليونيدوفيتش، مقالة في موسوعة "الفن والعمارة لدى الاغتراب الروسي"، على الرابط: https://artrz.ru/places/1804990812/1805052103.html

أضواء على الهجرة من جبل لبنان خلال عهد المتصرفية (1861 - 1918)

د. غازي زهر الدين
كلية التربية / الجامعة اللبنانية

مقدمة

الهجرة، اسم مشتق من فعل هَجَرَ، وهي ظاهرة إنسانية لافتة تعني الخروج من أرض الوطن إلى أرض أخرى[1]. تشكل الهجرة ظاهرة اجتماعية تراكمية معقدة ترتبط بتطور المجتمعات البشرية، وتتأثر بعوامل نموها وتقدمها أو تراجعها.

ارتبطت الهجرة بتاريخ لبنان منذ القدم، يوم أسس الفينيقيون مدناً على شواطىء البحر الأبيض المتوسط نافست مستعمرات كبرى أقامها الإغريق والرومان. وبسبب ضيق سهولهم الساحلية، وإكتشافهم لصدفة "الموركس"، وإحتكارهم للصباغ الأرجواني، وصعوبة عبور المسالك الجبلية نحو الداخل، تطلعوا صوب البحر وجعلوا من التجارة رسالة حرف وحضارة، ومنذ ذلك الوقت يهاجر اللبناني نحو المجهول لشعور فطري في تكوينه كأسلافه، قدموس وأليسار، وحنّون، وجبران، وغيرهم بغية تأسيس ممالك وحضارات وتجارة[2]. وفي العقد السادس من القرن التاسع عشر، بدأت الهجرة الحديثة سنة 1854، مع المهاجر اللبناني الأول أنطونيوس البشعلاني، واستمرت خلال عهد المتصرفية، وأصبحت مرضاً معدياً أصاب الآلاف من أبناء جبل لبنان؛ بدأت من الفرد إلى أفراد العائلة، فالأقارب ومن ثم إلى أهالي القرية فالمنطقة[3]، وراجت في مطلع القرن العشرين "أيما رواج، وغدا المهاجرون بعد العشرة، يعدون بالمئات والألوف"[4]، ولم يبق بالتالي مدينة أو قرية من مدن المتصرفية وقراها، إلاّ وهاجر من أهلها العدد الوفير، توزعوا على أرجاء الأميركيتين الشمالية والجنوبية، وبخاصة البرازيل، والأرجنتين، والتشيلي، وكذلك على القارة السمراء (أفريقيا).

غير أن تلك الحركة العفوية سرعان ما تطورت وتحولت إلى جرح في جسم "الوطن" ومع الوقت دخلت الهجرة في الوعي اللبناني، وغدت بسلبياتها وإيجابياتها إشكالية كثرت حولها الدراسات، والأبحاث، والندوات، والمؤتمرات. فهل هجرة اللبناني إلى جنبات الأرض، سببها شعور فطري متوارث؟ أم رغبة في تأسيس ممالك وحضارات وتجارة؟ أو هرباً من عسف حكم جائر، وأرض ضيقة جرداء؟ أو لنزعة عامة بطلب الحرية بمختلف وجوهها، كحرية الرأي والمعتقد، أوغِيرة من المهاجرين الأوائل بغية الانعتاق من الفقر والعوز؟ وفي هذا البحث نعرض بإيجاز لأسباب الهجرة، وطبيعتها، ولأعداد المهاجرين، وفئاتهم، وأعمارهم، وأعمالهم، ولتداعيات الهجرة وآثارها.

أولاً: أسباب الهجرة

تولدت الهجرة عن أسباب عديدة منها: اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، ودينية، وديموغرافية، وثقافية، ومنها ما له علاقة بعوامل خارجية أغوت المهاجرين عارضة عليهم شروط عمل وحياة أفضل[5].

1- الأسباب الاقتصادية

إستناداً لأبرز الشهادات التي دونها من عرف عهد المتصرفية، وعايش الهجرة وخبرها أو ارتبط بها، فإن السبب الاقتصادي كان من أبرز العوامل والدوافع التي حفزت الهجرة وطورتها. ومن تلك الشهادات:

- اعتبر المؤرخ فيليب حتي[6]، أن الدوافع الاقتصادية تقدمت على ما عداها من الدوافع، واعتبر أن طلب المال يأتي في الدرجة الأولى، ورأى في رسائل المهاجرين إلى أهلهم، ودور المبشرين الأجانب، ومظاهر الترغيب والتشويق المعتمدة حفزت الهجرة بشكل كبير[7].
- ورأى المختص في شؤون الهجرة، يوسف السودا(1888– 1970)[8]، أن " بتر السهول واقتطاع المدن" وحصر مساحة المتصرفية في نجاد جرداء، أدت إلى ضيق سبل عيش اللبنانيين فإضطروا للهجرة طلباً للرزق[9].
- وعلقت جريدة المرسل[10]،على الخلفية الاقتصادية للهجرة، الناتجة عن أراضي المتصرفية الوعرة، وضيق مساحتها، وكتبت في إحدى صفحاتها:" ولد لبنان – المتصرفية فقيراً فأتى بأبناء فقراء"، بسبب تضائل الموارد واقفال أبواب الرزق في الولايات العثمانية المجاورة.

ومن العوامل الاقتصادية الدافعة للهجرة، تحول اقتصاد جبل لبنان تدريجياً من الاكتفاء الذاتي إلى اقتصاد السوق، وقد استتبع ذلك حركة استيراد وتصدير لمختلف أنواع السلع الاستهلاكية غير المنتجة محلياً ما زاد الحاجة إلى المال النقدي، وكان الحصول عليه يتم من عائدات بيع انتاج الحرير المُعد للتصدير وهو عماد الاقتصاد الجبلي آنذاك، والذي وصل إنتاجه في نهاية القرن التاسع عشر إلى ما يقارب أربعة ملايين كيلوغرام، بدخل سنوي بلغ 62,999,970 قرشاً، من مجموع ايرادات المنتوجات الرئيسية في جبل لبنان البالغة 117,999,860 قرشاً، هذا الانتاج أصيب بنكسة نتيجة انخفاض سعر إقة الحرير من 45 قرشاً إلى 19 قرشاً سنة 1890، وأمام الحاجة الملحة للمال تم تسييل قسم من الملكيات الصغيرة إلى أموال بغية النزوح أو الهجرة إلى الخارج بحثاً عن موارد رزق جديدة[11].

2- الأسباب السياسية

على أثر ثورة الفلاحين التي قادها طانيوس شاهين سنة 1858، والأحداث الطائفية التي وقعت بين الدروز والمسيحيين سنة 1860، اضطرب الأمن وكثرت القلاقل في جبل لبنان بشكل كبير، ما استدعى التئام لجنة دولية في بيروت بتاريخ 10/5 /1860 مثلت كل من فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وبريطانيا

والدولة العثمانية، وتم بنتيجتها صدور نظام جديد عرف ببروتوكول 9 حزيران 1861، بإتفاق دولي وإقرار عثماني جاعلاً من جبل لبنان، "متصرفية ممتازة"[12]، رسخ الامتيازات الأجنبية في لبنان رغم إرادة الدولة العثمانية. وبنتيجته تم تضييق حدود المتصرفية بعد سلخ سهل البقاع واقتطاع المدن الساحلية، فعانت الزراعة وكذلك الصناعة والتجارة من ضيق المساحة الجغرافية، وهذا أدى إلى توجه قسم من أبناء الجبل نحو الولايات العثمانية وبخاصة بيروت، فيما يعرف بالنزوح من الريف، وقسم أخر رأى في ركوب البحر خلاصاً له، كما هاجر كثر من الدروز إلى حوران هرباً من الملاحقات وقدر عددهم آنذاك بحوالي الألفي شخصٍ[13]، ومنهم من هاجر إلى الأرجنتين، ونحو مصر لمن كان يلم بأعمال الزراعة. وعلى أثر طغيان السلطات التركية وقرارها الذي فرض التجنيد الاجباري على الشباب في متصرفية جبل لبنان، عادت وثيرة الهجرة للارتفاع ما دفع قسماً كبيراً من الشباب لترك بلادهم وأهلهم وعيالهم والهجرة إلى أقاصي الأرض.

3- الأسباب الاجتماعية

تضمنت المادة الخامسة من نظام المتصرفية المعدل سنة 1864، مساواة الجميع أمام القانون والغاء كل الامتيازات ولا سيما امتيازات اصحاب المقاطعات[14]. كما حُجِم دور الزعامات التقليدية على صعيد سياسة الجبل العامة، ولا سيما أن أعضاء مجلس الإدارة، وكما تبين من إنتماءاتهم العائلية كانوا بداية من العائلات النافذة، ولكن فيما بعد عادت ودخلت العائلات الاقطاعية، كآل جنبلاط، وآل أرسلان، وآل تلحوق، وآل الخازن، وغيرهم في هيكلية مجلس الإدارة، وسعوا للمشاركة في وظائف المتصرفية مباشرة، فإستمر تأثيرهم في الهيكلية الاقتصادية والإدارية لمتصرفية الجبل، وهذا في السياسة له مفهومه الوازن ولاسيما في استعادة النفوذ الاقتصادي والسياسي. ما يعني أن النظام الاقطاعي بقي سائداً من الناحية العملية، ونتيجة لذلك، انقسم السكان بين طبقة ثرية تضم العائلات الارستقراطية(الميسورة)، وكبار موظفي حكومة المتصرفية، وطبقة فقيرة تضم بقية الأهالي الذين كانوا يعيشون في حالة فقر وعوز[15].

ونظراً لانعدام العدالة الاجتماعية، وعدم تكافؤ الفرص، وارتفاع البطالة، بالاضافة إلى تدني مستوى الخدمات، وانعدام الضمانات الاجتماعية، وتدني المستوى المعيشي للسكان، ارتفع منسوب الهجرة من جبل لبنان[16].

4- الأسباب الدينية

كان لتعدد الأديان والمذاهب صفة تتحكم في هشاشة الواقع البنيوي لجبل لبنان، إضافة إلى ما زرعه العثمانيون من بذور التفرقة بين الطبقات الاجتماعية والمذاهب الدينية، إذ أصبح الجبل مسرحاً للمذابح والفتن الطائفية، وساهمت الدول الغربية بتغذية الانقسامات بين أبناء الجبل الواحد، فقد ساندت فرنسا الموارنة (وأصبحت الأم الحنون لهذه الطائفة)، ودعمت بريطانيا طائفة الدروز، وتذكرت روسيا تعلقها

بجذورها الأرثوذكس فدعمت الروم، وطبعاً ساندت الدولة العثمانية أهل السنة، وحرضت الطوائف على بعضها لاستمرار سيطرتها. وكما أشرنا أدت الأحداث الطائفية سنة 1860 إلى ولادة نظام جديد لجبل لبنان، قضى بتعيين متصرف مسيحي عثماني غير لبناني على متصرفية جبل لبنان، يعاونه مجلس إدارة توزع أعضاؤه على الطوائف، وبذلك أصبحت الطائفية أساساً في نظام الحكم.

علماً أنه كان هناك شعور بعدم الانتماء إلى وطن في العهد العثماني، نظراً للتمييز الطائفي لصنوف السكان فعندما كان اللبناني يفتح عينيه على الحياة، كان يرى أنه ينتمي إلى مذهب وليس إلى وطن، وبناءً على هذا الانتماء، فهو مسيحي أو مسلم أو درزي... وكانت تذكرة النفوس التي يحملها المواطن اللبناني تقوي شعوره بالغربة عن الدولة العثمانية، فهو عثماني التبعية وليس عثماني الجنسية[17].

5- الأسباب الديموغرافية

إن تطور الحركة الديموغرافية والضغط والكثافة السكانية تشكل أكثر العوامل ثباتاً وارتباطاً بالتركيب الاقتصادي والاجتماعي للبلد. وتزايد عدد السكان هو سبب حقيقي خفي يؤدي عادة إلى الضيق الاقتصادي، ساهم في ازدياد حدة العوز والحاجة، بخاصة إذا علمنا أن الأسر اللبنانية كانت تتألف من عشرة أشخاص أو أثني عشر شخصاً، وبعضها يتألف من خمسة عشر شخصاً، وهذا يسبب شرخاً في التوازن بين عدد السكان وانتاج الأرض، وقد وجد هذا التضخم السكاني منفذاً له عبر البحر إلى بلاد الاغتراب[18].

6- الأسباب الثقافية

إن ارتفاع عدد المدارس في جبل لبنان، وارتفاع نسبة الوعي، أدى إلى ظهور فئات متنورة ومتعلمة أخذت تسعى لتحقيق ذاتها ومستقبلها، بعيداً عن شقاوة العمل في أرض آبائها، " فقلما تجد ابن فلاح تعلم فعكف على زراعة أبيه" ساعدها في ذلك دور المبشرين والسياح الذين كانوا يحضونهم على اكتشاف المدنية الغربية، وبالتالي حثهم على السفر بقصد تحسين ظروف العمل والحياة والافادة من الغرب وعلمه وخبراته[19].

وبالاضافة إلى ما تقدم فقد كان لنجاح المهاجرين الأوائل، وتحويلهم الأموال إلى ذويهم، وشرائهم الأراضي، وبناء القصور، وحياة البذخ، والغيرة، ما شجع الكثيرين على خوض غمار التجربة الاغترابية، بغية الاثراء السريع والعودة إلى العيش بطريقة أفضل في الوطن الأم بعد عدة سنوات. ولا نغفل دور سماسرة الملاحة في تعزيز الهجرة، وكانوا يجوبون القرى بهدف اقناع أكبر عدد ممكن من الشباب بالسفر عارضين عليهم الكثير من التسهيلات.

ثانياً: أضواء على طبيعة الهجرة

بعد أن قدمنا لأسباب الهجرة لا بد من القول، أنه لا يمكن لأنسان أن يقوم بتوضيب أمتعته ويبحث عن وطن بديل، إذ لم يكن قد بلغ ذروة اليأس[20]، فأصبح مستعداً لهجرة وطنه وعائلته وأرضه مرغماً فكلٌ يتمنى أن يجد على أرض موطنه إمكانية العيش المستور، لكن البحث عن العمل أو الحرية في محيط مختلف خيار انساني حتمي مبرر، والمهاجر بحسبLuis Varlez ، هو كل شخص يترك بلده ليستقر في الغربة، بصورة ظرفية أو دائمة، ذلك كي يشبع حاجات ضرورية وأساسية[21]، وقد قال في هذا السياق الأمير الشاعر أمين آل ناصر الدين:

لم يهجروك إختياراً غير أنهُم   ضاقت بهم جنباتُ العيش فإرتحلوا

ولأن من أهم الأسباب الأساسية لتطور الشعوب، يكون بمدى استجابتها للتحديات المطروحة عليها، وفق نظرية التحدي والاستجابة التي أطلقها المؤرخ الأنكليزي أرنولد توينبي، إنتفض اللبنانيون وتحدوا واقعهم الصعب من خلال الهجرة[22].

فما هي صفات ذلك المهاجر؟ وكيف سلك طريقه إلى بلاد الغربة؟ وكم عانى في سبيل تحقيق مبتغاه؟

1- شخصية المهاجر؟

المهاجر اللبناني بشكل عام، هو ذاك الجبلي العنيد، الذي ابتعد عن أرضه، وبيئته، ومجتمعه، وأهله، وأحبائه، هو ذاك المغامر الطموح المفعم بالعنفوان الثائر على نفسه وعلى الحاله التي كان يتخبط فيها، هو ذاك الذي انفتحت عيناه على ضياء الحياة الكريمة والحرية، فأصلح أموره وحسن حاله وهذب نفسه وثقف أخلاقه[23]. وهو ذاك الإنسان المتواضع، المتجلد الصبور الذي تحمل مشقات الغربة ومفاجأت العالم المجهول، وهو ذاك العامل النشيط، والتاجر الحريص، والزارع المُجد، فهو لم يخجل من عمل يعود عليه بالفلاح، ولم يخش خطراً، بل كد وجد واجتهد وسهر وتعب، غير آبه بساعات العمل، غير عابىء ببردٍ أوٍ حرٍ، بل عمل بلا هوادة دون تذمر أو تكدر، فحول صندوق الكشة الصغير الذي كان مخزنه، إلى متجر ومخزن ومصنع ومصرف.

2- طريق الهجرة

كانت الهجرة عبر البحر السبيل الوحيد أمام المهاجرين، وكان مرفأ بيروت بخاصة محط القوافل الذاهبة والعائدة. وقد سلكت الهجرة طريقين(هجرة شرعية وهجرة غير شرعية)، وسنعرض بشكل مختصر للطريقين.

أ – الهجرة الشرعية

وتتم عبر المرافىء الشرعية وعبر القنوات الرسمية، من مرفأي بيروت وطرابلس وسائر الموانىء العثمانية الرسمية. فكان يرفع المسافر إلى إدارة المتصرفية طلباً يلتمس فيه الحصول على تذكرة المرور أو"الباسبور"، ويدفع الرسم القانوني وقيمته عشرة غروش صاغ، ومن وفق ونال الإذن بالسفر وفق الشروط الحكومية، يدفع كفالة بقيمة مائة ليرة عثمانية (500 دولار)، وبعد ذلك ينطلق المسافر المحظوظ على متن البواخر إلى مرفأ يافا الفلسطيني، ومن بعدها إلى مرفأ بور سعيد في مصر، ومن ثم إلى مرفأ مرسيليا في فرنسا علماً أن المدة بين بيروت ومرسيليا حوالي الأسبوعين[24].

وبعد الوصول إلى مرسيليا يتوجب على المسافرين الانتقال إلى البواخر الكبيرة القادرة على عبور المحيطات التي تقلهم إلى القارة الأميركية الموعودة.

ومن المهاجرين من كان يتوجه مباشرة نحو البرازيل، وكانت الرحلة تستغرق 22 يوماً، أو إلى الأرجنتين. وبعضهم ترك مرسيليا بإتجاه أفريقيا الغربية لعجزهم عن دفع أجرة الرحلة إلى أميركا، وتردد أن بعض المهاجرين القاصدين أميركا ولجهلهم تُركوا على الشواطىء الأفريقية بعد إيهامهم أنهم قد وصلوا إلى وجهتهم الأصلية[25].

ب– الهجرة غير الشرعية

وكانت تتم بعيداً عن أجهزة الرقابة، وارتفعت وتيرتها عندما شددت السلطات العثمانية من إجراءاتها لتخفيف أعداد المسافرين. وكانت هذه الهجرة تتم برشوة موظفي الدولة عند المرافىء فيغضون النظر عن دخول المسافر إلى الباخرة حيث يقوم أحد العاملين فيها بإخفائه في عنابرها حتى يصل إلى المرافىء الأوروبية؛ أو تتم عن طريق بعض المراكب الشراعية الصغيرة التي تقلع من شواطىء بيروت بإتجاه البواخر الكبيرة الراسية وسط البحر.

3– معاناة المهاجر

عانى المهاجرون الكثير من الصعاب في هجرتهم نحو المجهول، فلا دولة تحميهم، ولا سفارة ترعى حقوقهم، وكان عليهم التأقلم في مجتمعات جديدة يجهلون لغتها، وعاداتها، وتقاليدها، وقوانينها، وكان على بعضهم ضرورة تخطي العائق الديني فيها، إضافة أن السفر بالبواخر بحد ذاته معاناة وغير مريح، وكان المهاجرون معرضون لتقلبات الطقس، ولسؤ معاملة البحارة، وللأوبئة والأمراض، والسرقة من قبل اللصوص والسماسرة، الذين يسلبون القروش القليلة في جيوبهم ويتركوهم لقدرهم عرضة للتشرد والتسول في بلاد غريبة. علماً أن كُثراً منهم إستدان قيمة "الناولون" للسفر. وقد جسدت بعض الجرائد الاغترابية معاناة

بعض المهاجرين، والتي وصلت إلى حد القتل، وكثيراً ما كانت تتصدر عناوين الصحف أخبار القتلى وهم بالآلاف. هذا الواقع دفع البطريرك الماروني الياس الحويك، إلى تسطير إعلام خاص بالكهنة الموارنة يحثهم فيه على الطلب من أبناء الرعية عدم السفر والمهاجرة ما لم يكن لديهم ما يقوم بأسباب معيشتهم، نظراً للمعاناة الكثيرة[26]. بالاضافة إلى ذلك فقد عانى المهاجر الوحشة للأهل والأحبة، والرسائل لا تصل إلاً بعد أشهر أو سنة، وتشير رسالة بعث بها أحد أبناء قرية عماطور في قضاء الشوف إلى زوجته يصف فيها شوقه، معاتباً إياها على عدم الرد على رسائله منذ مدة، ومما جاء في رسالته: "**عن ديتريت مشكن (ديترويت ميشيغان) في 20 أيلول 1916.**

" حضرة الست الجليلة ابنة عمنا المحترمة دام بقاها

غب إهدائي وافر السلام مع بث تمنيات لمشاهدتكم عساكم بكامل الصحة والعافية التي أرغبها لكم، وان جيت أشرح ما عندي من الشوق لرؤياكم من لازم عبارة فيكون تعرفي من الضمير فأنا كل جمعة عمال بكتب لكم مكتوب وأنا صرلي سنة لم حصلت على شيء يطمني عنكم وعن أحوالكم فصار عندي شغلة بال من نحوك... والذي هاممني شغلة البال فيكم بكون عرفنا كيف أحوال الوطن فأطلب من الله أن يهدأ البال ونرجع نشاهدكم بسنين الإقبال، فأنا ساهر على العازة الذي مرت في هذه السنة، ولكن أرسلت لكم دراهم لم عرفت لحد الآن إن كان وصلوا أم لا فنسأل الإفادة عن وصولهم، فعلمي في بيتنا عيلة، تخمين ما بقاش في منهم أحد يجاوبني على المكتوب فهون حلت بي المصيبة واشغال البال بزيادة بكون قبل كانت المكاتيبة من بيتنا ومن بيت عمنا فتخمين ما في قرش وربع معهن حق ورق بول، فأنا راسل ورق من عندي ضمن تحريره يكفي سنة ولا كن بظن ما وصلوا فاليش(أي لماذا) بدي إعمل بعد في الزمان فكل ما كتبت مكتوب بقول هذاك ما وصل هذا بيصل فبيشبه كلهم ما وصلوا بس بتعب في كتابتهم فبدي ظل أكتب حتى يجيني الجواب..."[27]. وفي السياق ذاته، نشير أن التجنيد الألزامي(سفر برلك)، الذي فرضه جمال باشا على متصرفية جبل لبنان، مع بداية الحرب العالمية الأولى، كان بمثابة هجرة قسرية، غير محددة بمكان وزمان عانى خلالها الشباب اللبناني من الظلم والقهر الكثير، وهذا ما عبر عنه الجندي اللبناني سليم سليم لطوف(52 سنة)، وكانت غريمته(خدمته الالزامية) في الاسكندرية عام 1916؛ إذ كتب على الورقة الأخيرة من جواز سفره العثماني، الذي حمل عمومي نمرو 690، وخصوصي نمرو 58، العبارة التالية:

" ... توفي المرحوم سيدي الوالد في 23 اغستوس 1332 شرقي، الموافق في 6 أيلول 1916 غربي، الله يظلم الزين (الذين) ظلموني كونهم حرموني مشاهدتو قبل وفاتو لم اقول اكثر من ذلك والله قادر على كل شيء قدير"[28].

وما زاد من المعاناة أكثر، أن معظم الغربيين نظروا باستكبار واستعداء إلى القادمين من الشرق، وقد أطلقوا عليهم لقب" توركو" أي القادمين من تركيا، وكانت هذه اللفظة تفيد الإهانة والاحتقار، والازدراء والسخرية، بما يشبه التمييز العنصري والاجتماعي.

هذا، ولم تكن معاناة الأهل أقل مرارة من معاناة المهاجر نفسه، ولعل أصدق تعبير عن تلك المعاناة ما وثقه، الأستاذ جرجي باز من مشاهد الوداع في شهر شباط عام 1907، أثناء وجوده في مرفأ بيروت. ومما كتبه : "عصر الأثنين في الخامس من تشرين الثاني الماضي، ذهبت لأودع صديقاً لي... فوقفت على السلم أتأمل هذا المشهد السار المسيىء والمفرح والمحزن، أمعنت النظر في هذا المشهد فرأيت ما يستجلب الانتباه ويستوعب الفكر كانت أسارير الأمل منبسطة على الجباه يتنازعها انقباض اليأس ودلائل الحزن مسطرة عليها والدموع تترقرق في العيون... ونظرت المناديل تلوح في أيدي المسافرين والمودعين حين تتوارى الزوارق بين المراكب... وسمعت التنهدات ورنين القبل والأدعية والوصايا... كل ذلك لأجل الفراق[29].

ثالثاً: أعداد المهاجرين، فئاتهم، أعمارهم، أعمالهم

1- أعداد المهاجرين

حتى مطلع القرن العشرين، كانت أعداد المهاجرين اللبنانيين تقديرية مشوشة وغير دقيقة، نظراً للإرباك والمنع والقمع الذي مارسته الحكومة، وللهجرة غير الشرعية الكثيفة وقد أشرنا إليها سابقاً. وبناءً على ما أورده القنصل الفرنسي في بيروت الكونت دي سيرسي(Le Conte De Sercey) بتاريخ 26 شباط 1903، حول أعداد المهاجرين من جبل لبنان، تبين وجود 80000 ألف مهاجر من مختلف الطوائف، توزعوا على الولايات المتحدة الأميركية، وأميركا الجنوبية والمكسيك، والأنتيل، وأستراليا، والكاب(كانت من أكبر المقاطعات في جنوب أفريقيا). ويوضح الجدول التالي أعدادهم وجهتهم الاغترابية[30].

الجدول رقم 1، أعداد المهاجرين، ووجهتهم الاغترابية

بلاد المهجر	عدد المهاجرين
الولايات المتحدة الأميركية	40,000 مهاجر
أميركا الجنوبية والمكسيك	27,000 مهاجر
الأنتيل وأستراليا والكاب	13,000 مهاجر
المجموع	80,000 مهاجر

وجاء توزعهم الطائفي كالآتي: موارنة(55,000)؛ أرثوذكس(12,000)؛ كاثوليك(9,000)؛ دروز ومتاولة(4,000).المجموع 80,000 مهاجر، ويلاحظ عدم ذكر لمسلمين مهاجرين من المذهب السني؟

ولكن استناداً إلى الإحصاء الرسمي الأساسي الذي أجرته حكومة المتصرفية بين سنة 1913 و 1914، والذي شمل 45 ناحية موزعة على مختلف أقضية المتصرفية السبعة بالاضافة إلى مديرية دير القمر، تبين وجود 407,750 مقيماً، و100,837 مهاجراً، أي بحدود 24.73 %، توزعوا وفق الجدول التالي[31]:

الجدول رقم 2، يبين عدد سكان أقضية متصرفية جبل لبنان، وعدد المهاجرين من كل قضاء.

القضاء	مجموع سكان القضاء	عدد المهاجرين
مديرية دير القمر	8,455	2,332
قضاء زحلة	12,658	5,327
قضاء الكورة	24,063	7,024
قضاء جزين	24,593	8,061
قضاء كسروان	63,147	14,895
قضاء الشوف	101,938	17,321
قضاء المتن	89,676	19,853
قضاء البترون	83,220	26,024
8	407,750	100,837

يتبين من الجدول أعلاه: أن الهجرة طالت مختلف أقضية المتصرفية ولو بنسب متفاوتة، كما مختلف الطوائف، والفئات العمرية، والطبقات وكل ذلك طمعاً بحياة أفضل.

2- فئاتهم

انحصرت الهجرة في بداياتها بمجموعة من الشباب المغامر، ولكن سرعان ما طالت فئات الشعب اللبناني وعناصره. فهاجر عندئذ الفتى والشاب والرجل، وأحياناً العائلة بأكملها، وحتى المرأة ابتليت بداء الهجرة أيضاً. ونشير إلى أن معظم المهاجرات كنّ من المسيحيين، فهجرة أو سفر المرأة المسلمة والدرزية آنذاك شبه معدومة، مخافة توطد العائلات في بلاد الاغتراب. علماً أن كُثر من المهاجرين المسلمين أسسوا عائلات وتوطنوا في المغترب. وبشكل عام فان رواد الهجرة لم يكونوا من طبقة واحدة، أو بيئة واحدة، أو طائفة واحدة، لأن الحلم بالثروة وكسب المال أغرى الجميع وإستحق المغامرة[32].

3- أعمارهم

وفق احصاءات مكتب الهجرة الاميركي سجل وصول 69,595 مهاجراً من اللبنانيين والسوريين إلى الولايات المتحدة بين 1895 و1914، توزعوا على الفئات العمرية التالية:

العدد	العمر	النسبة المئوية إلى المجموع
12,924	دون 14 سنة	18,57
53,115	بين 15 و 45 سنة	76,32
3,556	فوق 45 سنة	5,11
المجموع 69,595		100%

هذا العدد بين وجود نسبة عالية من القاصرين الوافدين اللبنانيين الأمر الذي أقلق المراجع الدينية المارونية آنذاك، وبخاصة عندما أدركت أن هؤلاء يسلكون طريق الهجرة للعمل بالبيع المتجول المضني، فإبن 14 سنة عليه أن يكون إلى جانب عائلته، وليس بلا علم، بعيداً عن أهله مشرداً وعرضة للأستغلال. هذا الأمر دفع البطريرك الماروني إلى اصدار منشور رعوي حذر فيه من مغبة تسفير القاصرين وعممه على جميع الأبرشيات[33]. علماً أن الحكومة السنية وأمام معاناة المهاجرين كانت قد نبهت "السوريين واللبنانيين الراغبين بالهجرة بضروة " أن يبرهنوا قبل السفر بأن لديهم ما يقتدرون به تعاطي تجارة..."[34].

4- أعمالهم

وصف فيليب حتي، البدايات الأولى للاغتراب اللبناني قائلاً:" معظم المهاجرين أناساً فقراء أميين يجهلون لغة البلاد التي يأتونها، وكانوا يلاقون ضروباً من الشقاء، ويكابدون شظف العيش، وكان الواحد منهم يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً فيه طرائف وبضائع من البلاد المقدسة وقطع قماش مطرزة، وهذا الصندوق الصغير يسمونه "الكشة" وبائعو " الكشة"، يعلقون كشتهم بسير من الجلد في الرقبة ويسيرون بها آلاف الكيلومترات، ومنهم ممن تحسنت أحوالهم حملوها على ظهور الحمير[35].

وفور وصول المهاجر إلى تلك البلاد كان يستقبله "أحد أولاد العرب" من تجار الجملة بالترحاب، ويسلمه ما يريد من البضائع " بربح القرش قرش" لأن الوافد الحديث " غشيم ومفلس" ، ويقوم بتعليمه منهجية البيع وطريقة التعامل مع الناس ويطلب منه تغيير اسمه وزيه، وحفظ بعض العبارات التي تساعده في عملية البيع، ومنها:

" فيف تشلدن يا ليدي Five children my lady"، أي " عندي خمسة أولاد يا ست".

"بورمان يا ليدي Poor man my lady"، أي " أنا رجال فقير يا ليدي".

" فرام جيروزاليم يا ليدي" From Jeruzalem"، حضرت من أرض القدس".

وكان الكشيش يحفظ العبارات جيداً ويتدرب على لفظها لأنها تفتح له طريق البيع[36].

وبعض المهاجرين عملوا في المعامل، والمصانع، وسكك الحديد، ومنهم من تعاطى أعمال الزراعة وحراثة الأرض، أو مارسوا أعمالاً حرفية بسيطة.

ونشير إلى أن المرأة قلدت الرجل فحملت الكشة و" البقج والصرر" وسارت في المسالك وتفوقت على الرجل في بعض الأحيان بجني الأموال، كونها تدخل البيوت بسهولة وتستثير العواطف والاحسان[37].

رابعاً: تداعيات الهجرة بين السلبيات والايجابيات

أغوت الهجرة ألآف اللبنانيين ورمت بهم عبر البحار في مشارق العالم ومغاربه، "حيث لا أمهات لهم ولا عمات" كانوا غير عابئين بالمشاق والمخاطر، تركوا خلفهم "أرامل لم يمت رجالهن بل هاجروا، ثكالى لم يمت أبناؤهن بل هاجروا... أيامى لا رجال لهن لأنهم هاجروا ... تركوا الأرض بوراً والفوضى تدور[38]"، تركوا مدناً وقرى بعهدة شيوخ عجزة وأحداث قاصرين، وتركوا تداعيات على مختلف الصعد الاجتماعية، والديموغرافية، والاقتصادية، والسياسية.

1- السلبيات

تعددت سلبيات الهجرة ومنها:

أ- السلبيات الاجتماعية

أحدثت الهجرة تناقصاً سكانياً ملحوظاً حتى باتت بعض القرى تقتصر على عدد من المسنين، نظراً لرحيل الشبان وبقاء الفتيات، ولا يخفى أن في هجرة الشباب الكثيفة وخروجهم إلى الحرية في الغرب فقداناً للأنسال وضياعاً للأنساب، وتشتت للعائلات وتعدد حالات الزواج من أجنبيات. كما أن تآلف بعض الشبان في حياة المغترب، يجعل عودتهم إلى حضن الوطن شبه مستحيلة. وحتى بعض العائدين الأغنياء فقد تغيرت طباعهم، ومنهم فقدوا الكثير من سلامة الطوية وأصابهم الغرور والتكبر والشك ببعض المعتقدات والعادات المتبعة، وبالأفكار السياسية نتيجة الاحتكاك بالغرب. إضافة أن الهجرة أخذت عدداً لا بأس به من أفراد الطبقة الوسطى التي تعتبر المحرك للحياة وللاقتصاد في المجتمع. كما حملت الغربة إلى الجبل عدم الرضا والقناعة، وحرمت الكثيرين هناءة العيش، إضافة إلى أمراض جديدة لم تكن معروفة سابقاً، كفقر الدم، والسل، وبعض الأمراض الجلدية والزهرية (بالعدوى).

ب-السلبيات الديموغرافية

إن الأثر الديموغرافي لغلبة عنصر الإناث على الذكور يؤدي إلى خلل واضح، بحيث أن فائض الإناث اللواتي هن في سن الزواج والانجاب يؤدي إلى ارتفاع في نسبة العزوبة بين الاناث أو ارتفاع في سن زواجهن، ما يؤدي إلى انخفاض معدل الخصوبة، وبالتالي انخفاض معدل الولادات. وفي مقابل ذلك فان معدل الوفيات عند الذكور نتيجة التجنيد الاجباري والحروب والهجرة، وظروف العيش أدى إلى خلل ديموغرافي حرم لبنان من طاقات انتاجية كبيرة، تشكل رافعة للاقتصاد الوطني.

ج- السلبيات الاقتصادية

يمكن حصر السلبيات الاقتصادية للهجرة على الاقتصاد اللبناني، بتدني القوى المنتجة، نتيجة التراجع الديموغرافي بسبب الهجرة وخسارة الراسمال البشري المنتج.

د- التداعيات السياسية للهجرة

على الصعيد السياسي نالت الهجرة اهتمام القنصل الفرنسي في بيروت، فكتب إلى وزارة الخارجية الفرنسية عارضاً أرقام الهجرة، منبهاً من ارتفاعها أكثر بخاصة في صفوف الموارنة ما ينعكس على النفوذ الفرنسي في الجبل. علماً أن القنصل لا يخفي المردود المادي الهائل للهجرة على شركات السفن الفرنسية، والتي وصلت أرباحها إلى 18,000,000 فرنك على الأقل، فضلاً عن نفقات المهاجرين في محطة مرسيليا[39].

2- إيجابيات للهجرة

للهجرة إيجابيات عديدة نذكر منها:

أ- الايجابيات الاقتصادية

كسب معظم المهاجرين أموالاً وفيرة، رفعت من مستوى حياتهم وغيرت في أنماطها. فأقدموا على شراء الأملاك وشيدوا الحارات والقصور وتوجوها بالقرميد الأحمر، فتساووا بذلك مع رجال الاقطاع التقليديين الذين تحكموا بحياتهم ومجتمعاتهم لعقود وأجيال، كما ساهمت أموال المغتربين في تفكيك ملكيات الاقطاعيين الذين فقدوا الكثير من سطوتهم على فلاحيهم نتيجة المساواة التي فرضها النظام الجديد، وخسروا العائدات التي وفرتها أيادي الفلاحين لهم، وحفاظاً على حياة الرفاه التي اعتادوا عليها، إضطروا لبيع الكثير من ملكياتهم إلى الميسورين الجدد وجُلهُم من التجار وكبار الموظفين والمهاجرين وحتى إلى بعض الشركاء الذين عملوا تحت أمرتهم. وقد أظهرت رسالة مؤرخة بتاريخ 3 كانون الثاني 1922 وموجهة من أحد أبناء قريتي كفرفاقود ويدعى محمود سعيد محمد نصر، إلى شقيقه المهاجر داوود، يحثه فيها على شراء أخر منزل للنكديين في القرية، ولترغيبه بالشراء كتب له العبارة التالية: "ما عدش في عمار غيرها منشان البيع والشراء"[40]. وهذا يؤشر إلى تفتت تدريجي ومن ثم ضياع ملكيات الاقطاعيين في جبل لبنان نتيجة أموال المغتربين وغيرها.

كما أن أموال المغتربين رفعت سعر الملكيات العقارية، وروجت حركة العرض والطلب، علماً أنها اقتصرت على شراء الأراضي كسلعة تجارية، دون استثمارها واستغلالها، ما أدى إلى بوار مساحات كبيرة من الأراضي الجبيلة المنتجة، كما ولم تستثمر الأموال في بناء المصانع والمعامل. في المقابل راجت الأعمال التجارية بسلع جديدة مستوردة من الخارج.

تجدر الاشارة أن الكونت دي سيرسي قدر سنة 1903، مبالغ المغتربين الواردة بأربعة ملايين فرنك سنوياً. ويكفي أن نشير إلى ما قاله يوسف السودا، " إن لبنان ما ثبت على ضيقه وفقره وحاجته إلاً بجهود أبنائه المهاجرين"[41].

ب- صورة المهاجر اللبناني

من الأمثلة المعبرة عن سلوك اللبناني في المغترب تصريح لرئيس الجمهورية الفضية(الأرجنتين) الذي قال: " ان اللبناني المهاجر نشيط أنوف... واللبنانيون يتحملون مشاق الأسفار ويأتون إلى هذه البلاد بقلوب قوية، مصممين على العمل والكد حتى اننا لا نرى منهم رجلاً واحداً تقريباً يتعاطى مهنة غير شريفة"[42].

كان المهاجر اللبناني سفيراً لبلاده حمل معه همومها، ولواء الدفاع عنها في كل المحافل، ونقل عاداتها وبعض تقاليدها في المأكل والمشرب والعلاقات الاجتماعية، منها على سبيل المثال " شرب العرق والكبة النيئة"... وشجع سكان البلاد على زيارة بلاده ما شجع على السياحة ولو بحدود بسيطة. كما أظهر احتراماً لقوانين البلاد التي عاش فيها، وشاركها أعيادها الوطنية، وقدم المساعدات لجمعياتها الخيرية والعمومية .... ونقل إلى بلاده منها الكثير من العادات والتقاليد، على سبيل المثال لا حصر نذكر نبتة "المتي" الذي نقلها من الأرجنتين وراج استعمالها كمشروب ساخن في لبنان.

الخاتمة

منذ اواسط القرن التاسع عشر، وانسجاماً مع نبض دمٍ مغامر يجري في العروق، وهمة عنيدة وطموح لا حدود له، وسيراً على خطى الأجداد، تطلع اللبنانيون صوب البحر وركبوا أمواجه، ضاربين مناكب الأرض كل مضرب، ساروا بجيوب خاوية إلاً من بعض دريهمات لا تكفي لأيام، وبأيادي فارغة إلاً من زوادة سفر بسيطة من الكشك المجبول، وبعض أرطال من الخبز المهلول، وقطعة من الجبن، ولفة من قمر الدين، وبعض من علب السردين، غير آبهين بعواقب وشدائد، متسلحين بإيمانهم، ودموع ودعاء أهاليهم، وسواعدهم المفتولة.

وصلوا إلى بلاد غريبة حاملين مهانة لقب فرض عليهم فرضاً، وأصبح مدعاة سخرية تحملوها، وهو "توركو" أو " توركس" وهي صفة لازمت كل مشرقي(لبناني- سوري- فلسطيني..) رزح تحت الحكم التركي، عملوا بكدٍ وجدٍ، وتحملوا صلف العيش، ولم يمنعهم قَرٌ أو حرٌ، ولم يتكبروا على وضائع الأعمال، حملوا الكشة وتنقلوا بها سيراً على الأقدام، ومع الوقت الكشة تحولت متجراً، وتطورت مصنعاً ومعملاً منتجاً عاد على بعضهم بالأموال الوفيرة، فأصبحت بذلك الهجرة مرضاً معدياً جرفت إلى بلاد الغربة ما يزيد عن مئة ألف لبناني، من طوائف، ومذاهب، وبيئات، وفئات مختلفة.

وعلى الرغم من الوسط الحضاري والمختلف الذي إنتقل إليه المهاجر، فقد تكيف في المجتمعات الجديدة، وشارك أهلها مناسباتهم الوطنية، وهذه ميزة من مزايا اللبناني، جعلته "رجلاً عالمياً، ففي مصر، أصبح مصرياً، وفي فرنسا، فرنسياً، وفي أميركا، أميركياً"[43]، ورغم إندماجه لم تخمد في نفسه العاطفة والعصبية الوطنية، فقد دافع عن حقوق بلاده، وأوصل صوتها إلى المحافل الدولية، كذلك لم ينس الحنين الذي حمله معه يوم الاغتراب، ولم ينس إخوانه البعيدين عنه، بل قدم لهم كل دعم وعون، وقد عبر أوغست أديب قائلاً: "إن المهاجرة قد أفادت لبنان فائدة كبرى بالأموال الجسيمة التي كان يرسلها المهاجرون إلى أهلهم"[44]، وساهمت في سد عجز إيراداتهم ووقت بعضهم شر المجاعة التي اجتاحت لبنان سنة 1914.

كما ساهمت أموال المغتربين المرسلة في دعم الاقتصاد الوطني، وإعمار البلاد، ورفع المستوى الحضاري، والاقتصادي والاجتماعي، كذلك سعى المغترب العائد إلى شراء الأملاك وبناء المنازل والقصور التي ضاهت قصور الاقطاعين، الذين تفككت ملكياتهم العقارية مع الوقت لأسباب عديدة.

ومن العلامات المضيئة ذلك التلاقح الحضاري الذي حصل بين لبنان وبلاد الاغتراب، فالمهاجر اللبناني كان سفيراً لبلاده في المغترب، ونال شهادات الكثير من مسؤوليها، كما حمل إليها عاداته وتقاليده، وأفكاره، ومطبخه، وأسس المطابع، والجرائد، والمجلات، والجمعيات، والأحزاب[45]، وعاد منها بالعديد من التقاليد والأعراف والرؤى التحررية ومظاهر التقدم.

ورغم كل ذلك فلقد تركت الهجرة جروحاً في جسد الوطن الصغير، فلقد أحدثت فيه تناقصاً سكانياً ملحوظاً وتصدعاً عائلياً أدى إلى تراجع اليد العاملة، وافرغ القرى من عنصر الشباب، وحول بعضها إلى ملجأ للعجائز، فبارت الأرض وتراجع الاقتصاد، وارتفعت نسبة العنوسة بسبب هجرة الشباب وتراجع النسل واختلت الديموغرافية، وحتى المهاجر العائد خلع ثوب شبابه في بلاد الغربة، وعاد مسناً أو كهلاً مريضاً. ومن المهاجرين غير المحظوظين بقي فقيراً فلم يعد، أو كان يخجل من العودة خالي الوفاض فإبتلعته الغربة وكأنه لم يكن.

هذه الصورة الشاملة والمبسطة بسلبياتها وايجابياتها، لما يسمى بملحمة الاغتراب من جبل لبنان بين 1861 و1918 تاريخ نهاية الحرب الكونية الأولى، أصبحت سمة ملازمة للشخصية اللبنانية وغدت من قضايا الوطن الأساسية، وهي مستمرة نزيفاً إلى يومنا هذا، ويكفي أن نقول: إن المهاجرين اللبنانيين اليوم في بلاد الاغتراب حوالي الستة عشر مليون نسمة وربما أكثر، فيما أبناء الوطن لا يتجاوز عددهم الستة ملايين.

وأخيراً قد تختلف الأراء بين مؤيدً ومعارضً لموضوع الهجرة أو الغربة، وقد تتعدد الأراء أيضاً حول أسبابها، بين هرب من استبداد عثماني، وصلف اقطاعي، وأحداث طائفية دامية، وفقر وعوز، إلاً أن الدافع الاقتصادي يبقى المحرك الأول لتنامي الهجرة، فالرغبة في حياة أفضل، والشوق إلى البحبوحة ورغد العيش، والغيرة من المهاجرين الأوائل وما جنوه من ثروات، جعلت من الهجرة بعامة خياراً مقصوداً، وفعلاً إرادياً محسوباً، وأقتبس خاتماً بمًا قاله الإمام الشافعي في هذا السياق:

تغرَّب عن الأوطانِ في طلب العلى وسافر ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ

تفـــرجُ هـمٍ، وإكتساب معيشةٍ وعلمٌ وأخلاقٌ وصحبة مـــاجدِ

فإن قيل في الأسفارِ: ذلٌ ومـحنةٌ وقطعُ الفيافي وإرتكاب الشدائدِ

فموت الفتى خيرٌ له من مقامـــه بدارِ هوانٍ بين واشٍ وحـــاسدِ

هوامش البحث

[1] – ابن منظور: لسان العرب، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1960، ص 251.

[2] – الأب أميل أدة، الفينيقيون واكتشاف أميركا، دار النهار للنشر، بيروت 1969، وجهاد عقل، فجر الهجرة، مآسي ونوادر، مكتبة الترات الأدبي، بيروت 2003، ص 17.

[3] –KARPAT, KERMAL: The Ottoman emigration to America,1860-1914, International Journal of Middle East Studies, Vol 17, No2, Cambridge, 1985 ; 175-209

[4] – عبد الله الملاح، الهجرة من متصرفية جبل لبنان(1861-1918)، إصدار خاص 2007، ص 6، نقلاً عن مجلة المحبة، عدد 187، تاريخ 12 تشرين الأول 1902، ص 57.

[5] – إيلي صفا، الأسباب التي هيات للهجرة اللبنانية، مجلة الفصول اللبنانية، رقم 2، 1980، ص 111-119، ومسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1986، ص 164.

[6] – من مواليد شملان، قضاء عالية – لبنان، عام 1886 توفي سنة 1978، هو أستاذ جامعي، ومؤرخ، وباحث، عاش مدة طويلة في الولايات المتحدة الأميركية، ترك العديد من المؤلفات التاريخية. الياس قطار، " فيليب حتي" مجلة المؤرخ العربي، العدد 52، 1995، ص 170-177.

[7] – عبد الله الملاح، الهجرة من متصرفية جبل لبنان(1861-1918)، المرجع السابق، ص 11.

[8] – من مواليد بكفيا، عاش فترة في مصر ثم عاد إلى لبنان، حيث أنشأ فرقة السباقة وحزب المحافظين، وأصدر جريدة الراية، شغل مناصب سياسية ولمع في المحاماة. جميل جبر، معجم أسماء العلم في لبنان، مطبعة شمالي وشمالي، بيروت 2003، ص 81.

[9] –عبد الله الملاح، المرجع السابق، ص 11.

[10] – أسسها الأب يوحنا غصن، المرسل اللبناني الماروني في الأرجنتين، مجلة اعلام توثيق، السنة السابعة، 1992، الجامعة اللبنانية، كلية الاعلام والتوثيق، الفرع الثاني، الفنار، ص 52.

[11] – غازي شكيب زهر الدين، الأرض والانتاج وأثرهما في تشكل البنى الاقتصادية والاجتماعية في قضاء الشوف بين 1861-1918، عماطور، بعقلين نموذجاً، أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية، بيروت 2018، ص 377.

[12] – أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، منشورات دار النهار، 1973، ص 35.

[13] – بولس نجيم، القضية اللبنانية، مترجم، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1995، ص 371. وبريجيت شيبلر، جبل الدروز– حوران من العهد العثماني إلى دولة الاستقلال 1850-1949، دراسة أنتربولوجية- تاريخية، دار النعار للنشر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط1، بيروت 2004، ص 118.

[14] – لحد خاطر، عهد المتصرفين في لبنان 1861-1918، دار لحد خاطر، ط2، بيروت 1982، ص 17.

[15] – غازي شكيب زهر الدين، المرجع السابق، ص 406.

[16] – دريد زهرالدين، الهجرة إلى الأرجنتين (1863 1975-)، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ الحديث، من الجامعة اللبنانية، بيروت 2017، ص 51.

[17] – المرجع نفسه، ص 50.

[18] – المرجع نفسه، ص 54.

[19] عبد الله الملاح، المرجع السابق، ص 15.

[20] – موقع جبلنا ماغازين، صدى الاغتراب اللبناني، تاريخ الهجرة اللبنانية: مراحلها وأسبابها ومعاناة المهاجرين الأوائل، نشر المقال في جريدة السفير، عدد 23 أيلول 2015.

[21] – ايلي صفا، الهجرة اللبنانية ، منشورات جامعة القديس يوسف، بيروت 1960، ص 4.

[22] – محمد مراد، المدارس التاريخية الكبرى، دراسات نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ. مكتبة فقيه، ط1، بيروت 1996، ص 280.

[23] – نعوم مكرزل، مختارات خواطر، ج1، مطبعة الهدى، نيويورك، 1932، ص 148-149.

[24] – ابراهيم الأسود، دليل لبنان ، المطبعة العثمانية بعبدا، ط1906،3 ص 91.

25 – إليكسا نف،Alixa Naff ، المغتربون، تجربة الهجرة الباكرة إلى أميركا، ترجمة فؤاد أيوب، تقديم ومراجعة محمد المحفل، دار دمشق للطباعة والنشر، 1988-1989، ص 93- 106.
26 – عبد الله الملاح، نقلاً عن محفوظات بكركي،" رساله من البطريرك الحويك إلى الكهنة بتاريخ 1902/12/23".
27 – جوزيف أبو نهرا، منذر محمود جابر، نايل أبوشقرا، مئة عام على الحرب الكبرى 1914-2014، الجزء الثاني، إشراف وتحرير، منشورات المركز الدولي لعلوم الانسان، ط 1، بيبلوس- جبيل لبنان، 2014، ص 13.
28 – غازي شكيب زهر الدين، المرجع السابق، ص 40. وصورة عن جواز السفر العثماني العائد لسليم لطوف، بتاريخ 1916، في مكتبتي الخاصة.
29 – عبد الله الملاح، المرجع السابق، ص 255، نقلاً عن جرجي نقولا باز، " على سلم المرفأ"، مجلة الشراع، عدد 338، تاريخ 1954/9/19.
30 – عبد الله الملاح، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا، إصدار خاص، ط1، 1985، ص 199.
31 – عبد الله الملاح، الهجرة من متصرفية جبل لبنان، المرجع السابق، ص 145.
32 – عبد الله سعيد، تطور الملكية العقارية في جبل لبنان في عهد المتصرفية، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت 1986، ص232.
33 – اليكسا نف، المرجع السابق، ص 200.
34 – عبد الله الملاح، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا، المرجع السابق، ص 203.
35 – فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت 1995، ص 196.
36 – ابراهيم نقولا الراعي، جراب الراعي، مطبعة زحلة الفتاة، لا تاريخ نشر، ص 36.
37 – اليكسا نف، المرجع السابق، ص129.
38 – نواف حردان، مهجريات، ط1،سان باولو- البرازيل، ص 19.
39 – عبد الله الملاح، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا،، المرجع السابق، ص 206.
40 – غازي شكيب زهر الدين، كفرفاقود بين 1920 و 2010 دراسة في تحولاتها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، اصدار خاص، 2014، ص 286. وصورة عن الرسالة المذكورة في مكتبتي الخاصة.
41 – عبد الله الملاح، المرجع السابق، ص 11 و 54.
42 – ميشال شبلي، المهاجرة اللبنانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1927، ص 18.
43 – فيليب حتي، لبنان في التاريخ، المرجع السابق، ص579.
44 – أوغست أديب، لبنان بعد الحرب، عربه الشيخ فريد حبيش، مطبعة المعارف، مصر، 1919، ص 103.
45 – من هذه الجمعيات: جمعية أرزة لبنان، وجمعية أرز لبنان والنهضة اللبنانية، والرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية، والجمعية الجزينية، والتحالف اللبناني في أميركا، وجمهية الاتحاد اللبناني في مصر، والجمعية اللبنانية في باريس...".

مكتبة البحث

الوثائق :

1- وثيقة، صورة عن رسالة موجهة من أحد ابناء كفرفاقود إلى شقيقه المهاجر، بتاريخ 1922/1/3 محفوظات خاصة.
2- وثيقة، صورة عن جواز السفر العثماني للجندي سليم لطوف، الصادر بتاريخ 1916، محفوظات خاصة.

الأطاريح الجامعية

1- دريد زهرالدين، الهجرة إلى الأرجنتين (1863 1975-)، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ الحديث، من الجامعة اللبنانية، بيروت 2017.
2- غازي شكيب زهر الدين، الأرض والانتاج وأثرهما في تشكل البنى الاقتصادية والاجتماعية في قضاء الشوف بين 1861- 1918، عماطور، بعقلين نموذجاً، أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية.

لائحة المصادر والمراجع والمجلات

1- ابراهيم الأسود، دليل لبنان ، المطبعة العثمانية بعبدا، ط3، 1906.
2- ابراهيم نقولا الراعي، جراب الراعي، مطبعة زحلة الفتاة، لا تاريخ نشر.
3- إبن منظور: لسان العرب، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1960.
4- أوغست أديب، لبنان بعد الحرب، عربه الشيخ فريد حبيش، مطبعة المعارف، مصر، 1919.
5- أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، منشورات دار النهار، 1973.
6- أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، منشورات المكتبة البولسية، بيروت 1987.
7- الأب أميل إدة، الفينيقيون واكتشاف أميركا، دار النهار للنشر، بيروت 1969.
8- إليكسا نف، المغتربون، تجربة الهجرة الباكرة إلى أميركا، ترجمة فؤاد أيوب، تقديم ومراجعة محمد المحفل، دار دمشق للطباعة والنشر، 1988-1989.
9- إيلي صفا، الأسباب التي هيأت للهجرة اللبنانية، مجلة الفصول اللبنانية، رقم 2، 1980.
10- بريجيت شيبلر، جبل الدروز- حوران من العهد العثماني إلى دولة الاستقلال 1850-1949، دراسة أنتربولوجية- تاريخية، دار النعار للنشر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط1، بيروت 2004.
11- بولس نجيم، القضية اللبنانية، مترجم، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1995.
12- جهاد عقل، فجر الهجرة، مآسي ونوادر، مكتبة الترات الأدبي، بيروت 2003.
13- جوزيف أبو نهرا، منذر محمود جابر، نايل أبوشقرا، مئة عام على الحرب الكبرى 1914-2014، الجزء الثاني، إشراف وتحرير، منشورات المركز الدولي لعلوم الانسان، ط 1، بيبلوس- جبيل لبنان، 2014.
14- جميل جبر، معجم أسماء العلم في لبنان، مطبعة شمالي وشمالي، بيروت 2003.
15- عبد الله الملاح، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا، إصدار خاص، ط1، 1985.
16- عبد الله الملاح، الهجرة من متصرفية جبل لبنان(1861- 1918)، اصدار خاص، 2007.

17- عبد الله سعيد، تطور الملكية العقارية في جبل لبنان في عهد المتصرفية، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت 1986.
18- غازي شكيب زهر الدين، كفرفاقود بين 1920 و 2010 دراسة في تحولاتها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، اصدار خاص، 2014.
19- فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت 1959.
20- لحد خاطر، عهد المتصرفين في لبنان 1861-1918، دار لحد خاطر، ط2، بيروت 1982
21- محمد مراد، المدارس التاريخية الكبرى، دراسات نظرية في مناهج البحث التاريخ، مكتبة فقيه، ط1، بيروت1996.
22- مسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1986.
23- ميشال شبلي، المهاجرة اللبنانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1927.
24- نعوم مكرزل، مختارات خواطر، ج1، مطبعة الهدى، نيويورك، 1932.
25- نواف حردان، مهجريات، ط1،سان باولو- البرازيل.
26- KARPAT, KERMAL: The Ottoman emigration to America, 18601914-, International Journal of Middle East Studies, Vol 17, No2, Cambridge, 1985.

المجلات

1- مجلة اعلام توثيق، السنة السابعة، 1992، الجامعة اللبنانية، كلية الاعلام والتوثيق، الفرع الثاني، الفنار.
2- صدى الاغتراب اللبناني، تاريخ الهجرة اللبنانية: مراحلها وأسبابها ومعاناة المهاجرين الأوائل، نشر المقال في جريدة السفير، عدد 23 أيلول 2015.
3 -الياس قطار، " فيليب حتي" مجلة المؤرخ العربي، العدد 52، 1995.
4- إيلي صفا، الأسباب التي هيأت للهجرة اللبنانية، مجلة الفصول اللبنانية، رقم 2، 1980.

الهجرة في أعماق اللبناني (تحليل مبحثي)

د. توفيق عبدالله سلّوم
قسم علم النفس/الجامعة اللبنانية

بلغ الحديث عن الهجرة مؤخّرًا، في المجالس الخاصّة وفي الإعلام حدًّا يجعل الفكرة مسيطرة على الذهن، لكن الأمر لم يقتصر على الحديث فقط، بل تعدّاه إلى السعي الدؤوب ليسجّل الكثيرون أسماءهم في قائمة طالبي الهجرة على أنواعها. وهو وإن برز في هذه الفترة على الصعيد اللبناني، لكنّه كان موضع اهتمام الدول والمنظمات الدولية قبل ذلك؛ ففي 4 كانون أوّل سنة 2000 أعلنت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة يوم 18 كانون أوّل يومًا دوليًا للمهاجرين، آخذين بالاعتبار تزايد أعدادهم في العالم (القرار رقم 55/ 93)[1]. والمفارقة أنّ خطّة التنمية المستدامة لسنة 2030 اعترفت، لأوّل مرّة، بمساهمة الهجرة في التنمية المستدامة ويتبيّن من مراجعة الخطة احتواء 11 هدفاً من أصل 17 هدف على أهداف ومؤشّرات تتّصل بالهجرة. واعتُبر الهدف 10.7 (تسهيل الهجرة والتنقّل المنظّم) المرجعيّة المركزيّة لتلك الأهداف.

فما هو واقع الهجرة والمهاجرين في العالم عموماً، ولبنان خصوصاً في حدود حاجة هذه الدراسة؟

المفهوم

أشارت المنظّمة الدوليّة للهجرة إلى أنّ "الهجرة تعني التحرّك"[2]، وأنّ "المهاجر هو الشخص الذي هاجر لسبب أو أكثر"، وبالنسبة للأمم المتّحدة هو "شخص أقام في دولة أجنبيّة لأكثر من سنة، بغضّ النظر عن الأسباب سواءً كانت طوعيّة أو كرهيّة، وبغضّ النظر عن الوسيلة المستخدمة للهجرة، سواءً كانت نظاميّة أو غير نظاميّة"[3]. كذلك قدّمت تصنيفات متعدّدة للهجرة منها:

أ – **من حيث المقصد:** (1)الهجرة الداخليّة: ضمن حدود البلد الواحد؛ (2) الهجرة الخارجيّة: خارج حدود بلد الأصل.

ب – **من حيث طول المدّة:** (1) الهجرة الدائمة: الاستقرار النهائي في البلد المضيف، فيصبح الوطن البديل؛ (2) الهجرة المؤقّتة: إنتقال المهاجرين إلى المنطقة التي تستقبلهم لبضعة أشهر أو سنوات، ثمّ يعودون ثانية إلى بلادهم، ويقال لها أيضاً "الهجرة الدائريّة"[4].

ج – **من حيث الدافع:** (1) الطوعيّة (وهو تصنيف نسبي)؛ (2) القسريّة. (بما فيها اللجوء تحت ضغط الظروف الخاصة).

ويتّصل بمفهوم الهجرة مجموعة من المفاهيم منها: التهجير، الشتات، اللجوء، والنزوح. وبالنّسبة للمفهوم الذي يستهدفه البحث فهو الهجرة الخارجيّة الدائمة، بالإضافة إلى الهجرة المؤقتة التي تصل إلى سنوات. تبقى الإشارة إلى أنّ الهجرة الدائمة انتجت تصنيفًا خاصًا بالمهاجرين تِبعًا لمركز ولادتهم وولادة آبائهم وأجدادهم، فأطلقت على الذين وُلِدوا من أهل مهاجرين تسمية "الجيل الثالث"[5].

التّاريخ والواقع العالمي

وِفقًا لإحصاءات الأمم المتّحدة والمنظّمة الدوليّة للهجرة، فإنّ أعداد المهاجرين في تزايد مستمر، حيث بلغت سنة 1990 (153) مليونًا، فيما بلغت سنة 2017 (258) مليون. وسنة 2019 (272) مليون، أي ما نسبته 3.5 % أو 1/ 30 ، مع تراجع في نسبة الأطفال المهاجرين وثبات في نسبة المهاجرين من عمر 65 سنة وما فوق ضمن نفس الفترة[6]. ويشير جدول (1) إلى إحصاءات متعدّدة المصادر من بينها المنظمات الدولية وما أورده كاستلز وميللر[7](2013)، ومن المفيد الإشارة إلى أنّهما أبديا تحفّظًا على تلك البيانات، خاصّة وأنّها تختلف حتّى بين الوكالات المتعدّدة داخل الدولة الواحدة؛ واعتبرا أنّ تقصّي الأعداد سيكشف لنا أنّنا في ما يمكن أن نطلق عليه "عصر الهجرة".

جدول1

أعداد المهاجرين بين سنة 1960 و سنة 2019.(الأعداد بالملايين)

السنة	1960	1970	1980	1990	2000	2005	2015	2017	2019
العدد	76	81	99	155	177	191	224	258	272

يظهر في الجدول (1) تزايد ملحوظ في أعداد المهاجرين. وتشير الأمم المتّحدة إلى أنّ أغلبهم هاجر بسبب الضرورة، وأنّ هذه الأرقام لا تشمل أعداد المشرّدين أو طالبي اللجوء أو حتّى اللاجئين. وثمّة مجموعة من الدراسات التي تدعم تصوّر الدول والمنظّمات الدولية حول نزوع الشباب إلى طلب الهجرة، من بينها ما أوردته زواني ووندلوس وكهينة (2019) من أنّ الهجرة في الماضي اقتصرت إلى حد ما على الذكور، فيما أصبح الإناث ضمن قائمة الراغبين بترك بلادهم طمعًا في حياة أفضل. (p. 207) وكذلك دراسة بوساحة (2000)[8]. وعلوان وميتو (2018)[9]، التي وجدت اتّجاهات إيجابيّة مرتفعة لدى الطلبة نحو الهجرة. هذا على مستوى العالم عمومًا والعالم العربي خصوصًا، فما هي وقائع الحالة اللبنانيّة؟

اللّبنانيّون والهجرة

أفادت مصلحة الأبحاث والدّراسات في مجلس النواب اللبناني (2020) أنّ أعداد المهاجرين اللبنانيّين تتزايد، كما هو حال المهاجرين في العالم؛ وفي مراجعة تاريخيّة للواقع اللبناني في علاقته بالهجرة يتبيّن

أنّها ظاهرة تعود لثمانينيّات القرن الماضـي. كذلك نقلت عجروش (Ajrouch, 2000) عن سليمان (Suleiman, 1999) أنّ هجرة اللبنانيّين إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة بدأت في بدايات سبعينيّات القرن التاسع عشر، ولكنّهم صُنِّفوا حينذاك سوريّين أو أتراك أو حتى يونانيّين. وتحدّث لايتون[10](1993) عن استمرار هجرة اللبنانيّين إلى سيراليون منذ سنة 1893، وأنّ أعدادهم تضاعفت في ستّينيّات وسبعينيّات القرن الماضي، وورد أيضا في دراسة أوبي(Obi, nd).

حول هجرة العرب إلى أوروبا، استنتج فارغس (Fargues, 2004) أنّ السيناريو المرجّح للسّنوات المقبلة هو زيادة هجرة العرب إليها، ويعود ذلك إلى عدّة أسباب أهمّها، برأيه، تغيّر شكل العائلة في البلاد العربيّة. فارغس اعتبر لبنان حالة بذاتها تتميّز عن باقي الدول العربيّة، ليس لأنّها أقدمهم في سلوك أبنائها طريق الهجرة، بقدر ما هو استمرارها في كونها دولة تصدير مهاجرين؛ إذ بلغ عدد الّلبنانيّين في المهجر نحو 12 مليون شخص وفقًا لفارغس وما نقلته بيضون Beydounعن القنصليّة العامّة في لبنان، ما يعني ثلاثة أضعاف المقيمين.

ووفق مصلحة الأبحاث أيضًا، 83% من المهاجرين هم من الشباب، 46% منهم متخرّجون جامعيّون. ونقلت عن مسحٍ أجرته وزارة الشؤون الاجتماعيّة بين سنتَي 1997 و 2004 بلوغ عدد المهاجرين 44 ألف مهاجر سنويًّا، ارتفع سنة 2005 ليصل إلى 60– 65 ألف مهاجر سنويًّا، وعن دراسة لبكي هجرة 820 ألف لبناني منذ سنة 1991. ووصل العدد بالنسبة لفارغس إلى ما يقارب مليون شخص بين سنتَي 1990 و 2000.

أسّس اللبنانيّون لأنفسهم ركائز جعلت من الهجرة أمرًا مرغوبًا به، بل إنّهم في بعض الحالات لعبوا دوراً مهمًّا في التحليل الاقتصادي الاجتماعي في تلك البلدان[11]، كما هو حالهم في أفريقيا؛ حيث حقّقوا رساميل ضخمة لا يمكن لبلد صغير مثل لبنان أن يوفّرها؛ ففي نيجيريا مثلًا، بلغ تعداد اللبنانيين المسجّلين سنة 2008 (30) ألف لبناني، العديد منهم من الجيل الثالث ممّن يحملون جوازات سفر نيجيريّة. وفي سيراليون يفضّل اللبنانيّون الذين وُلِدوا هناك بقاء أولادهم فيها، بل إنّ العديد منهم يرون سيراليون بلدهم الذي ينبغي أن يترعرع أولادهم فيه، حتّى أنّ بعضهم، كما ذكرت بيضون (Beydoun, 2013)، لم يسجل أولاده في السفارة اللبنانيّة لأنّهم يرون أنفسهم سيراليونيّين؛ وفي المقابل اعتبر همفري (Humphry, 2004) أنّ الهويّة اللبنانيّة موجودة وراسخة بفعل التزاور وبفعل ملايين الاتصالات والرّسائل بين من هم في الوطن (لبنان) ومن هم في المهجر. وانطلاقًا من ذلك رأى أنّ العديد من الدراسات التي اعتمدت مصطلح الشتات عند حديثهم عن المهاجرين اللبنانيّين لم يعبّروا بما يتناسب مع واقع اللبنانيّين، إذ يضعهم في خانة المهجّرين قسرًا أو الهاربين، فيما الكثيرون منهم اختاروا طريق الهجرة في ظروف طوعيّة.

وافقت عبد الهادي (Abdelhady, 2006) همفري، حيث تحدّثت عن الروابط بين لبنانيّي الشتات، وتحفّظت على مصطلح الشتات حيث وجدت فيه إشارة إلى حدّة وقساوة الهجرة، ووصفت حال اللبنانيّين في كندا بأنهم يعملون دائمًا على بناء روابط اجتماعيّة في المهجر، في الوقت الذي لا يقطعون روابطهم واهتماماتهم في لبنان، ولا يجدون في ذلك تناقضًا.

ويبدو أنّ مسألة الهجرة لم تعد بالمشكلة العالمية التي ينبغي معالجتها، فقد ذكر كاستلز وميللر، أنّ الأيّام الحاليّة تشهد منافسة عالميّة لجذب رأس المال البشري، ووُضِعَت نُظُم داعمة لعمليّة انتقال ذوي المهارات في مجال الإدارة، الهندسة، تكنولوجيا المعلومات، التعليم والممارسة الطبيّة، ويدعم هذه النتيجة ما كشفه عقل ومارون ورحباني وهاغوبيان (Akel et al., 2012) من أنّ عمداء الجامعات والكلّيّات الطبّيّة في لبنان يرون في هجرة الأطبّاء فرصة في سياق عولمة المهنة، وهي فرصة إقتصاديّة؛ حيث يجد متخرّجو كلّيات الطب فرصًا متاحة مقابل أجور عالية في كل من دول الخليج، بريطانيا، كندا، الولايات المتّحدة وأستراليا.

دوافع الهجرة ونتائجها

وفقًا للمنظّمة الدوليّة للهجرة فإنّ غالبيّة المهاجرين تركوا بلادهم لأسباب البحث عن عمل، الانضمام إلى عائلاتهم في المهجر، متابعة الدراسة، وآخرون لأسباب مأساويّة أو نزاعات عنفيّة أو كوارث أو اضطهاد ثقافي أو سياسي، أو كما ذكرت أولانيي، سعيًا وراء تحقيق ثروات طائلة، وهو ما ذكرته أيضا دراسة أوبي؛ خاصة كما أفاد السرياني عن انتشار صور النجاح الاجتماعي التي ينقلها المهاجر[12]، بالإضافة إلى ما يقدّمه الاعلام المرئي من صور متفائلة عن الشخص المهاجر[13]، إذ تُسلَّط الأنظار دون هوادة على النماذج الناجحة[14]، بهدف استقطاب المزيد من الكفاءات، وهو ما يمكن التعبير عنه بمصدر التوقّعات المتفائلة. وذكر فكرون والجدّ[15] (2017) أنّ أحد الأسباب وراء الهجرة غير الشرعيّة هو الحريّات الدينيّة والسّياسيّة، وهو سبب لا يمكن استبعاده، اعتباطيّاً، من قائمة أسباب هجرة اللبنانيين وإن بنسبة محدودة. سبب أخر ظهر في دراسة علم الدين وخرّوبي وزملائهما (Alameddine, Karroubi,et al., 2020) عن الممرّضين، وهو سعيهم لتحقيق نمو مهني أفضل لا يوفره لهم لبنان.

هذا في الدوافع، فماذا في النتائج؟

بحث فيركوتين (Verkuyten, 2017) في مسائل الهجرة التي تشكّل نوعًا من نتائجها، وخلص إلى مجموعة منها أهمّها: إطار الأقلّيّة والأكثريّة، ثنائيّة الوطن، مسألة الانتماء Belonging، المواطنة Citizenship، التعصّب والتهديد. وقد أُجرِيَت حول هذه المسائل منفردة بحوث عديدة منها ما يلي:

إطار الأقلّيّة والأكثريّة: بيّنت دراسة نيلسن (Nielsen, 2017) وجود هشاشة لدى المهاجرين المسنّين، حيث كافحوا لتحقيق رؤية واضحة لدورهم كأقلّيّة في بلد أجنبي، بالإضافة إلى الصعوبات في التعامل مع النظام الصحّي في الدانمارك، بسبب إخفاقه في فهم ظروفهم النفسيّة. كذلك أشارت دراسة غوزدر

(Guzder, 2013) إلى وجود نقص في الخدمة الطبّيّة ومعوّقات بسبب اللغة، خاصّة فيما يتعلّق بالعناية الطبيّة بالأطفال، نتيجة نقص الدعم المجتمعي. ودراسة رنزاهو (Renzaho, 2013) للحاجات الصحيّة للأمّهات المهاجرات إلى أستراليا حيث ظهرت لديهم حاجة لربطهم مع النظام الصحّي وللدّعم المجتمعي الذي تفتقدنه كأقليّات ، بسبب عدم وجود سياسات ملائمة لحاجاتهن، ومثلها دراسة ويتكوسكي (Wittkowski, 2016) التي وجدت أنّ النساء أصِبنَ باكتئاب ما بعد الحمل بفعل غياب الدعم المجتمعي لهنّ. ودراسة غوديت التي بيّنت وجود تمييز عنصري جماعي بين المجموعات في كندا، ترافق مع تدنّي مستوى تقدير الذات. وقد عبّرت عن ذلك نتائج عجروش أيضاً، حيث وجدت أنّ المراهقين المهاجرين في الولايات المتّحدة يعيشون حالة من القلق بسبب تعدّد الهويّات حيث هم، وبالتالي لا يجد المراهق المهاجر نفسه محاطًا بالأقارب وبمن يفهمه ويدعمه عند الحاجة.

ثنائيّة الوطن: اعتبر كوريا (Correa,1998) أنّ المهاجرين غالبًا ما يتجنّبون الظهور غير موالين أو أوفياء لوطنهم الأصلي، ولذلك قد يشعرون بأنّهم ممزّقون بين الوطن الأصلي وموطن الإقامة (المهجر)، ولذلك يمارسون سياسة البَين بين[16]، وقد حصل أن واجهوا انتقادات لاذعة من مواطني البلد الأصلي المقيمين في المهجر. ومثله وجدت رنزاهو وأولدرويد (Renzaho & Oldroyd, 2013) حاجة للتدخّل لمساعدة الأمّهات بسبب ما يعِشنه نتيجة التعامل بهويّات لثقافتين، وكشفت دراسة غوديت (Gaudet, 2005) أنّ حصول الكثيرين على الجنسيّة الكنديّة انعكس سلبًا عليهم من الناحية النفسيّة.

مسألة الانتماء: المهاجرون من الناحية القانونيّة والعرفيّة، هم ليسوا في بلادهم ولا هم ينتمون إلى البلد المضيف[17]، كما خلص إليه شاك (Schuch, 1998)، وحتّى وإن تحوّلوا، بالمعنى القانوني، إلى مواطنين هم وأولادهم، سيبقون في نظر أنفسهم ونظر الآخرين وافدين. ورأى أنّ المشكلة تزداد حين يمتلكون جنسيّة البلد المضيف، إذ يخلق ذلك في أنفسهم تذبذبًا في الانتماء.

الانفتاح على الثقافات: وفق فيركوتن، هناك فيض من أدبيّات البحث السياسي في مسألة التسامح والانفتاح في إطار الهجرة، وفي المقابل هناك حاجة في البحث النفسي لدراسات في هذا الموضوع. في هذا الإطار أظهرت دراسة أريدوندو (Arredondo, 1984) زيادة في إحساس المهاجرين بالاندماج النفسي وقبول الحياة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. ولاحقًا دراسة برّي (Berry, 2001) حيث وجد استمرار بروز مشكلات أساسيّة نتيجة الهجرة، إحداها مشكلة الاندماج الثقافي مع المجتمع المضيف. ورأى أنّ للهجرة بُعدان في هذا المجال؛ الأوّل تماهي الشخص مع ثقافته، والثّاني تماهيه مع الأغلبيّة الأصليّة في بلد المهجر، ويتقاطع هذا مع مسألتي ثنائيّة الوطن والانتماء. وفي دراسة عجروش صرّحت إحدى المشاركات "أنّها لا تستطيع قبول إحالة المسنّين إلى المأوى، ولا يمكنها تصوّر ذلك، فقد أمضوا حياتهم يهتمّون بك ثمّ تتخلّى عنهم وتوكِلهم أنت إلى الممرّضين أو الممرّضات!"[18]. ومشارِكة أُخرى رأت أنّ الشيء القبيح الذي تجده في المجتمع العربي (في المهجر حيث هي) هو الثرثرة والنميمة[19]. وبخصوص اللبنانيّين بالتحديد،

وجدت جوزف (Joseph, 2009) أنّ تغيّرات عدّة حصلت في العائلة اللبنانيّة، لكنّهم حافظوا على التزام الأفراد بشبكة العلاقات الاجتماعيّة المحيطة بهم، مع وجود تغيّر في أساليب التعبير.

التّعصّب والتهديد: التعصّب والشعور بالتّهديد هما من المشكلات التي يواجهها المهاجرون، وقد وضعها فركوتين في إطار حديثه عن القوميّة أيضاً. وفي إطار علم النفس، درس تاجفيل[20]هذه الظاهرة وتوصّل إلى أنّ هناك، عمومًا، تفضيلاتٍ بين المجموعات تميل إلى إعطاء الأشخاص من نفس المجموعة ترتيبًا مرجّحًا على الآخرين. مثال أنّهم ودودن، أذكياء، موثوقون أكثر من غيرهم. وكذلك أشارت دراسة فور (Faur, 2007) إلى أنّ الطلّاب الوافدين يواجهون مشكلات عدة منها تدنٍ في تقدير ذواتهم، والتمييز العنصري أو العرقي. وقد فسّر بروك وأتكنسون الميل نحو المجموعات المثلية بأنّه يجعل الوطنيّة نتيجة محتّمة في علاقة المجموعات مع الآخرين، وعزى ذلك إلى قلّة المصادر والحاجة إلى مجموعات حماية لتلك الموارد، وذلك تبعًا لنظريّة النزاع؛ والحاجة إلى تقدير ذات عال، تبعًا لنظريّة الهويّة الاجتماعيّة، وقد ورد سابقًا أنّ هناك من عانى من تدنٍ في تقدير الذات بسبب كونه من أقليّات متفرّقة؛ بالإضافة إلى الحاجة للانتماء والحاجة للهويّة، تبعًا لنظريّة التمييز الأمثل، التي ترى فيه مورد لتحصيل القوّة، والحاجة إلى المعنى، من خلال إطار مرجعي فلسفي يُشبِع الحاجة الوجوديّة.

المواطنة Citizenship : ذكر فيركوتين أنّ المواطنة هي "قوّة العدالة، المساواة، والتماسك الوطني، ... ومن خلالها يحصل كلّ مواطن على حقوقه بالتّساوي مع الآخرين"[21]. ومن هذا المنطلق لاحظ أنّ الدول تطلب أن يصبح المهاجر "مواطناً صالحًا" وليس "مواطنًا" فقط، وهذا يجعله مواطنًا من الدرجة الثانية، مما سيؤثّر سلبا في شعوره بالرّاحة النفسيّة، ويجعله أقلّ اهتمامًا بحال البلد، وهو "بطبيعته نقص في المواطنة". وإذا كانت المواطنة كما ذكر بولوك، تعني المساواة في الحقوق لجميع المواطنين، وإذا كانت الدولة "منظّمة قانونيّة سياسيّة لها من القوّة ما يجعلها تتطلّب الطاعة والولاء من مواطنيها"[22]، بالإضافة إلى أنّها مجموعة من الناس يرتبط أعضاؤها بشعور من التضامن والتكافل والثّقافة المشتركة، والوعي الوطني"؛ فهل هذا يعني أنّ الوطن لا يرتبط بالولادة؛ بل هي حيث يجد الفرد، أو الأسرة، الراحة النفسيّة والمساواة وتحصيل الحقوق والخدمات التي تقدّمها الإدارة العامّة للجميع؟ وهل لأجل ذلك، يسعى المهاجرون لبناء أوطان بديلة، ويحاولون تطوير مفهوم مرن عن المواطنيّة[23] يسمح لهم بذلك كما ذكر الحاج (2008)؟

ثمة نظريتان في تشكيل الحالة الوطنية: (1) أنّ الناس تدعم الوطنيّة عندما يجدوا لهم منها منافع ماديّة أو سياسيّة، وأنّ تعلّق الناس بأوطانهم هو سلوك انفعالي مؤقّت (على القطعة)، أو ثانوي نسبيًّا، ولا يمكن اعتباره من أساسيّات الوطنيّة. (2) أنّ المشاعر والتعلّق هما من أساسيّات الوطنيّة، وأنّ البشر يميلون بطبيعتهم إلى مقارنة مجموعتهم بغيرها من المجموعات (Hale, 2016)؛[24] لكن الملفت ما وجده تاجفيل Tajfel من أنّ الناس حين يجدون فرصة للإضرار بالمجموعات الأخرى لا يمانعون من أن يضحّوا بظروف مجموعتهم وإلحاق الضرر بها، إن كان ذلك سيساهم في جعل ظروف الآخرين أسوأ[25]. الجدير ذكره ما

وصل إليه هايل من أنّ الناس يفضّلون العيش بأمان على التواجد في ظروف نزاع عاطفي مميت.
بناءً على ذلك، أين يجد اللبناني نفسه، وفي أي إطار من الانتماء للوطن أو الالتزام بالمواطنة مقابل البحث عن الوطن البديل الدائم أو المؤقّت؟

هل يجدها في الإطار الانفعالي المرتبط بالحاجة إلى الانتماء لمجموعة حامية أم الإطار الإداري الخدماتي المرتبط بالحاجة إلى عيش كريم وشعور بتحصيل الحقوق ضمن توزيع يحترم المساواة والاستحقاق؟ هل هو تحت ضغط الظرف الحالي الذي لم يشهد له لبنان مثيلًا في حياة الأجيال الحيّة، أم أنّه يسير بخطى ثابتة نحو أهداف محدّدة بغض النظر عن الأحداث الآنية المتصاعدة؟ ما هي توقّعاته من الهجرة؟ ما هي علاقته بالهجرة؟ وما الذي أسسته في ذهنه؟

تسعى هذه الدراسة إلى استقراء معرفة أوّليّة بصِلَة اللّبنانيّين الشباب بالهجرة من دون الارتكاز على أي فرضيّات مسبقة، نظرًا لكون البحث من النوع الذي يرتكز على البيانات وليس على النظريّات، وذلك من خلال تعبير حرّ غير مقيّد بشروط أو بسؤال أو بمقياس؛ ويأتي ذلك بعد مجموعة الأحداث الهامّة التي مرّ بها لبنان، ولا يزال، على أن تشكّل النتائج قاعدة تنطلق منها أبحاث لاحقة.

أمّا الأسئلة التي توجّه الذهن في هذا البحث فهي:

1- ما الذي يمثّله مفهوم الهجرة في ذهن اللبناني، وما هي الأبعاد التي يطلقه ذكرها أمامه؟
2- ما هو حكمه أو حكمها على الهجرة، وهل غيّر الواقع الحالي في هذا الحكم؟
3- هل يرتاح لإعلان ميله للهجرة، أم يتحفّظ ويبرّر كي لا يجد نفسه مُدانًا؟
4- هل ثمّة ما يمكن اعتباره نقطة ارتكاز في القرار سلبًا أو إيجابًا؟
5- ما مدى توافق المعطيات التي ستنتج عن تحليل البيانات مع ما ورد في المقدّمة؟ وإذا كان ما ورد في المقدّمة هو ما يحصل في الخارج الواقعي للأفراد، فما الذي يحصل في الداخل النفسي لهم ربطًا بموضوع الهجرة؟
6- وما هي المسألة التي سيكشفها البحث في طبيعة علاقة اللبناني بوطنه؟

أهميّة الدراسة

تتمثّل أهميّة الدراسة بمجموعة من الأمور أهمّها:

1- اتصالها بالظّرف اللبناني الحالي الحَرِج، ما يعطي فهمًا علميًّا لمسألة علاقة اللبناني بفكرة الهجرة في هذه الظروف.
2- تعتمد طريقة حرة في تحصيل البيانات دون أي تدخّل أو توجيه أو حتى نقاش، ومنهج نوعي في معالجة البينات، ما يجعلها أكثر اتصالاً بالذات اللبنانية.
3- تأتي في إطار علم النفس وليس في إطار الإعلام أو العلوم السياسيّة، ما يدعم مكتبة عمل النفس بأبحاث حديثة تتعلّق بالهجرة من منظور نفسي يرتبط بالمجتمع اللبناني.

ملاحظات

- روعِيَ في البحث عدم التداخل بين السياسي والنفسي، ولذلك استُبعِد كل ما يتعلقّ بموارد السياسة والخصومات والنزاعات، ولم يكن لهذا الجانب في الأصل، مكانًا هامًّا في بيانات الدراسة.
- حصل تعديلات طفيفة على بعض الخصائص لحفظ سريّة الأفراد الذين طلبوا ذلك.
- المقدّمة هدفت إلى جعل القارئ على إلفة بموضوع الهجرة، ولذلك لم ترتكز على نظريّة محدّدة.
- بعض العبارات لم تكن ملائمة لإعادة ذكرها في البحث بسبب كونها شتم وسب أو إساءة موصوفة، لذلك استبعد بعضها من التقرير لعدم ارتباطه بالمطلوب، وجرى تعديل بعضها الآخر بعبارات ملائمة لا تشوّه المضمون الفعلي لها، وما تُرك من عبارات تُرك عن قصد لكونه أتى في سياق يسمح بذلك ويشكل دليلاً على ما حُذف.

المنهج

اعتمُدَ في هذه الدراسة، النوعيّة، التحليل المبحثي Themes Analysis، نظرًا لكونه يحقّق الحياد في جمع وقراءة البيانات، والتعمّق في الفهم النوعي لها في نفس الوقت.

الإجراءات

طُلِب من المشاركين أن يتحدّثوا لمدة 15 إلى 20 دقيقة تقريبًا، ودون أيّ تحضير مسبق، عن أيّ شيء يخطر ببالهم عند ذكر مسألة الهجرة أمامهم، وأن يسجّلوا حديثهم هذا، ويرسلونه دون أي مونتاج، ودون أي قطع للتسجيلات كي لا يذهب ذلك بالحالة الانفعالية عند التصريح. ولضبط مسألة الصدق Validity، طُلِب منهم أن: (1) لا يحضّروا أنفسهم ولا يستعدّوا مسبقًا؛ (2) يتحدّثوا بلغتهم اليوميّة؛ (3) أن لا يستفيدوا من أيّ نص. ولم يحصلوا على أيّ توجيه أو إيحاء أو تدخّل من أحد عند البدء بالتسجيل.
وصُمّمَ نموذج خاص يتضمّن مجالاً للبيانات الديمغرافية وجداول تصنيف كمّي للبيانات الخاصّة بكل حالة.

العيّنة

اعتُمِدَت عيّنة كرة الثلج مع مراعاة التوزّع المناطقي، لِما له في لبنان من اعتبارات عديدة، تشكّل تحريفًا للواقع فيما لو لم تؤخَذ بالاعتبار. بلغ عدد الذين استجابوا 44 مشارِكًا، لكن طبيعة المحتويات وشروط العيّنة لم تسمح سوى بقبول 40 مشارِكًا منهم، (26 إناث، و 14 ذكور)، تراوحت أعمارهم بين 18 و 50 سنة. ويبيّن جدول (2) توزّع أفراد العيّنة وفق العمر، الجنس، والمستوى العلمي، وتوزّعهم حسب الوضع الاجتماعي.

جدول 2

الخصائص الديمغرافية: الجنس، العمر، المستوى العلمي، الوضع الإجتماعي، وموقعه من الهجرة.

الخصائص	ذكور	إناث	المجموع
العمر			
18–32	6	5	11
24–30	3	3	6
31–40	3	12	15
فوق 40	2	6	8
المستوى العلمي			
ثانوي	1	2	3
جامعي	12	13	25
دراسات عليا	1	11	12
الوضع الاجتماعي			
عازب (ة)	12	12	24
متزوج (ة)	2	11	13
مطلّق (ة)	–	3	3
موقعه من الهجرة			
مهاجر	3	6	9
عائد	2	4	6
مقيم	9	16	25

ملاحظة: المجموع العام= 40؛ مجموع المشاركين الذكور = 14؛ مجموع المشاركين الإناث = 26.

مجموع الاقتباسات: بلغ مجموع الاقتباسات المفيدة للدراسة 277 اقتباساً، بعد فرزها وتصنيفها واستبعاد الاقتباسات المتكررة (مع الإبقاء على اقتباس واحد)، أمّا ما عُرض في قسم النتائج فهو عيّنة من الاقتباسات التي استخدمت كنماذج للاستشهاد بها في المناقشة، موزّعة وفق المباحث المصنّفة لها.

أساليب جمع البيانات

- جمع التسجيلات الصوتيّة وتفريغها بصياغتها.
- تصنيف المحتويات على مرحلتين:

المرحلـة الأولـى: فرزت الاقتباسات لتحقيق فهم كمّي غير محدّد مسبقًا، وإنّما مرتكز على المُدخلات. وقد أُعِدّ لهذا الغرض نموذج يتضمّن قسم لحاجات التصنيف الكمّي؛ البيانات الديموغرافيّة، وقسم يتضمّن خانات لتصنيف الأنواع الأوّليّة، تكراراتها، وسياقها.

المرحلة الثانية: استخراج الأنواع وتمييزها، ثم إعادة الاستماع لاستخراج الرموز الأوّليّة.

أساليب المعالجة:

- **المعالجة الكمّيّة:** اقتصرت المعالجة الكمّيّة على تكرارات الأنواع وترتيبها التنازلي لدى كل من الجنسين ولهما معًا.
- **المعالجة النوعيّة:** توجّهت المعالجة النوعيّة نحو اكتشاف المباحث التي يمكن اشتقاقها من البيانات، والبحث عمّا يوافقها من اقتباسات لدى المشاركين، ثم البحث عن الأنماط المستخلصة منها.

النّتائج

النّتائج الكمّيّة

برزت في المرحلة الأولى، 10 أنواع من الاقتباسات، يتعلّق كلّ منها بالأمور التالية:

التّواصل، القيمة الذاتيّة، الاقتصاد، المغامرة وعيش التحدّي، الاكتساب والتعلّم، خدمات الإدارة العامّة، السياسة، الخوف وانعدام الشعور بالأمن. بالإضافة إلى نوعين يتعلّقان بالحديث عن قرار الهجرة والشعور بالرّاحة النفسيّة، وهي عناوين متضمّنة في أنواع أخرى. يبيّن الجدول (3) التوجّه العام نحو الأنواع، وعدد الذين ذكروها ومقدار تكرارها وترتيبها لدى كل من الجنسين. (ترتيب الأنواع هو حصيلة قسمة عدد التكرارات على عدد المشاركين عمومًا).

جدول 3

توزّع أنواع اقتباسات عيّنة الدراسة وفقًا لتحليل المرحلة الأولى.

	النّوع	تكرار الأنواع			ترتيب الانواع			عدد المشاركين		
		مجموع	إناث	ذكور	مجموع	إناث	ذكور	مجموع	إناث	ذكور
1	التّواصل	148	113	35	3.7	4.36	2.5	35	24	11
2	القيمة الذاتيّة	124	88	36	3.1	3.38	2.57	37	24	13
3	الاقتصاد	121	86	35	3.02	3.31	2.5	37	24	13
4	المغامرة وعيش التحدّي	113	74	39	2.83	2.82	2.78	35	23	12
5	الاكتساب والتعلّم	86	58	39	2.15	1.81	2.78	29	20	9
6	خدمات الإدارة العامّة	84	58	25	2.1	2.23	1.86	28	20	8
7	السّياسّة	83	52	25	2.07	2.23	1.78	23	16	7
8	الخوف وانعدام الشعور بالأمن	73	47	21	1.82	2.0	1.5	29	21	8

يتبيّن من الأعداد الواردة في الجدول 3 أن الاقتصاد والقيمة الذاتيّة حقّقا فارقًا عن غيرهما (13/ 14) لدى الذكور، وشكّلت السياسة الحد الأدنى لديهم (7/ 14). ولم تظهر فروق هامّة في بيانات الإناث.

دوافع الهجرة

يمكن اعتبار النتائج الكمّيّة مؤشّرًا على الدوافع وراء طلب الهجرة (الأسباب المعلنة)، وقد ظهر أنّها خمسة أسباب هي؛ الأسباب الاقتصادية، نقص الرفاهيّة، الشعور بالخوف وانعدام الأمن، السعي وراء الاكتساب والتعلّم (الأكاديمي والاجتماعي)، والشعور بالتّمييز بين المواطنين في التعامل الرسمي مع تفاوت في النتائج. يبيّن الجدول (4) أعداد الأشخاص الذين ذكروا كل سبب ومقدار تكرار هذا السبب في الاقتباسات.

جدول 4

دوافع الهجرة وأعداد المصرّحين بها، وعدد مرات تكرار الاقتباسات.

الدّافع	عدد الأشخاص	تكرار الاقتباسات
الأسباب الاقتصاديّة	37	121
نقص الرفاهيّة	28	83
الشّعور بالخوف وانعدام الأمن	29	73
السّعي وراء الاكتساب والتعلّم	28	86
الشّعور بالتّمييز بين المواطنين في التعامل الرسمي	4	13

لم تظهر فروق جوهريّة بين الجنسين في دافع الأسباب الاقتصادية، فيما دافع نقص الرفاهية لدى الإناث أتى أكثر من الذكور، وكذلك دافع الشعور بالخوف وانعدام الامن كان لدى الإناث أكثر من الذكور.

معوّقات السعي نحو الهجرة

صرّح المشاركون عن نوعين من المعوّقات التي تقف في وجه سعيهم للهجرة (مع كلّ حسناتها كما ذكروا) وهما: الحاجة إلى التواصل الاجتماعي الفعّال والسّليم، وبنسبة محدودة، التعصّب في بلاد المهجر. ويبيّن الجدول (5) تفصيل الاستجابات.

جدول 5

معوّقات السعي للهجرة وأعداد المصرّحين بها وعدد تكرار الاقتباسات

المعوّق	عدد الأشخاص	تكرار الاقتباسات
التّواصل الاجتماعي	35	146
التّعصّب	4	6

النّتائج النوعيّة

تشكّلت مجموعة من المباحث بلغ عددها تسعة (9) مباحث (Themes) هي: مسألة الانتماء، المواطنة Citizenship، ثنائيّة الوطن، الحنين والشوق والفقدان، القيمة الذاتيّة، التوقّعات، القواعد، الانفتاح على الثقافات، حسّ المواجهة والتحدّي، التعصّب والتهديد. فيما يلي عرض لنماذج من الاقتباسات المتّصلة بها: (ملاحظة: حرف F يدل على المشاركين الإناث، وحرف M يدل على المشاركين الذكور)

جدول 6

نتائج مبحث1: مسألة الانتماء (الاقتباس ورمزه)

	الاقتباس	الرمز
1	**التّعلّق بالوطن أساسي ولكن بالنّهاية الوطن مطرح ما عايش منيح**	F. 1
2	**أبدًا مش متل لمّا تكون عايش ببلدك**	F. 7
3	**مستعدة أترك أهلي وبلدي تَهاجِر وساعِد عيلتي**	F. 8
4	**رغم إنو بدها تكون الأوضاع قاسية، بدنا نعيش هون، إذا لازم عيش التحدّي والمواجهة بعيشها ببلدي، ليش برّا؟**	F. 16
5	**بعد أشهر اشتقت لبيروت وللسّواقة بالعجقة، قد ما عملت رفقة واشتغلت، بِضَل في شي ناقص، حتى بعد ست سنين، ما بشوف حالي انتميت لهون (بلد المهجر)**	F. 22
6	**جبران (الأديب) بقي برّا وحِكي عن لبنان وهو برّا (مقيمة)**	F. 23
7	**أنا بلبنان متل السمكة بالمي**	F. 25
8	**لما بدو الواحد يهاجر بِعيش عقدة الإنسلاخ (الانفصال/عائدة، مقدّمة طلب)، صح كوّنت علاقات هون، بس هيدا المجتمع منّو بيئتي (عن المهجر)، لما شوف ناس بتشبهني بالعادات والتقاليد بحس بالأمان**	F. 27
9	**بلدي حلو(لبنان)، والعالم فيه لذيذين، ..... لو بلدي في مستقبل ما كنت هاجرت**	M. 30
10	**الحمدلله اولادي ما عندهم هيدي العلاقة العميقة مع البلد (غضب المنتمي)**	M. 34

جدول 7

مبحث 2: المواطنة

	الاقتباسات	رمز
1	مضطهدين من قبل الدولة كمواطنين، الهجرة هي إنّو تبعد عن الدولة المضطهدة لشعبها ومهملة	F. 2
2	قبل كانوا اللبنانيين بقولوا إشياء (عن الفساد والإهمال) وهلّق نفس الشي ونفس الأشخاص، أنا عم أدرس تمريض وعمري 45 سنة (والدولة عم تساعدني)	F. 10
3	ليش بدّي ضيّع حياتي على أمل "وطن"؟ (مقيمة)، تعا عيش هون وبعدين افقعني نظريّات	F. 23
4	الواحد اللي عم يعيش صعوبات، بروح عبلد تاني	F. 27
5	بالغربة حياة كريمة، كهربا ومي وقانون، أحسن شي استفدت أخدت الجنسيّة	F. 29
6	مستقبل أولادي أهم، وأمانهم أهم	F. 32
7	(أريد) بلد أحصل على جنسية أفضل ومستوى أفضل، وبتوقّع البلد يقدّر خبرتي ومهارتي	F. 36
8	المعيشة بالأرض، أتعس أيامنا بأحلى أعمارنا، لبنان بلد مميت لفئة الشباب وللمشاريع، ما لازم كون بمدفن وإندَفَن،	M. 3
9	نحنا بلبنان مش عايشين كبني آدمين، ما بيتوافق لبنان معاي، مهاجر، وعتب على يلّي بيرجع على لبنان.	M. 5
16	لبنان كوطن انتهى	M. 34

جدول 8

مبحث3: ثنائية الوطن

	الاقتباسات	رمز
1	القلب بمحلّين	F. 1
2	لأنّي عم اندمج بالثّقافة المحلّيّة عم إخسر شي من نفسي	F. 7
3	واجهت صعوبة تأقلم بمكانين، عكس هون، بلبنان فيك تبني صداقات بالشّغل	F. 22
4	كلّما عارضت الثقافة عانيت	M. 15
5	اللبنانيين بأفريقيا كأنهم بلبنان، عادات ولغة، لا أفكّر بالعودة للبنان في المدى المنظور، مفهوم الغربة تبدّل، كان موت وانقطاع، اللبنانيين هون استغنوا عن دولتهم، وحتى عن سفارتهم، ما عدا الأمور الإداريّة، وهنّي وسطاء بين المسؤولين ونظرائهم بلبنان	M. 19
6	لما يهاجر بكون عم يختار، مش متل لما يخلق ببلد	M. 30

جدول 9
مبحث4: الحنين أو الشوق أو الفقدان

	الاقتباسات	رمز
1	بعد أشهر اشتقت لبيروت وللسواقة بالعجقة	F. 22
2	لما واحد بده يهاجر بعيش عقدة الانسلاخ (عائدة ومقدمة طلب هجرة)	F. 27
3	قرار الهجرة دمّرني، أسبوعين حسيت حالي مشلوعة شلع ومشلوخة شلخ	F. 32
4	لما يهاجر الواحد رح يتفاجأ أول شي بالحنين، مرحلة كتير صعبة	M. 15
5	أول مرة كانت المناحة بالوداع	M. 19
6	بلدي حلو والعام فيه لذيذين (مقدم طلب هجرة)	M. 30

جدول 10
مبحث5: القيمة الذاتية

	الاقتباسات	رمز
1	الناس هون بلا هدف	F. 8
2	(هون) قيمتنا رخيصة	F. 32
3	نحنا مضطهدين ببلدنا، الشعب متل القطيع (بالنسبة للدولة) عم نتبهدل	F. 35
4	شوي وبتخرج وبعلّق شهاديت عالحيط، الشهادة من برا بيرفعولوا القبعة، ما بيحترموا الشاب المتعلم	M. 4
5	نحنا بلبنان مش عايشين كبني آدمين (بشر)، الهجرة يعني عيش باحترام (المعنى التطبيقي للاحترام) (ما بيحترموا علم)	M. 5
6	هون الضحية حمار	M. 6
7	برا لازم تنتبه لصورتك، لباسك، جسمك	M. 15
8	الغربة سترتني مع عيلتي ..... في ناس هون (بالمهجر) فقرا ولكن مستورين، بخافوا يرجعوا (ويخسروا السترة)	M. 19
9	لازم نخلص من لوثة لبنان (إعلامي)	M. 34

جدول 11
مبحث6: الانفتاح على الثقافات

	الاقتباسات	رمز
1	أول سنتين صعوبة بعدين بندمج	F. 36
2	كلّما عارضت الثقافة عانيت، لازم تتقبل تغيّر بحالك وتطوّر شخصيتك	M. 15
3		

جدول 12
مبحث7: التوقّعات Expectation

	الاقتباسات	رمز
1	تعا عيش هون (بلبنان) وبعدين افقعني نظريات بالمواطنة (توقعات غير مباشرة بأن العيش خارج لبنان أفضل هو تحصيل حاصل)؛ بعظّموا صعوبات الهجرة مع إنهم بيبقوا عايشين برّا (توقعات ضمنيّة/ مقيمة)	F. 23
2	برّا بيعبد ربّه أفضل (الإنسان)	F. 25
3	الهجرة بالنسبة إلي حلم... الهجرة فيها عذاب (عائدة، مقدمة طلب هجرة)	F. 29
4	أول سنتين صعوبة، وبعدين بندمج (مقدمة طلب هجرة)	F. 36
5	من حقّي عيش (في المهجر) وحقّق أحلامي وفرّح أهلي فيّي	M. 3
6	شوي وبتخرّج وبعلّق شهادتي عالحيط (توقعات داخلية)، بيتعب وبالآخر ما بلاقي شي، متل ما صار مع أهلنا (توقعات داخلية)، الهجرة طوق النجاة، برّا بيحترموا الشب المتعلّم.	M. 4
7	يهاجر حتى ما يموت عباب مستشفى (داخلية/ خارجية)	M. 5
8	الهجرة شي إيجابي	M. 15

جدول 13
مبحث8: القواعد

	الاقتباسات	رمز
1	الوطن مطرح معايش منيح	F. 1
2	البقاء حيث لا أمل في التغيير ضياع للعمر، الصعوبات أمر طبيعي، لذا لا ضرورة للدراما	F. 23
3	كلما عارضت الثقافة عانيت	M. 15

جدول 14
مبحث9: التعصب والتهديد

	الاقتباسات	رمز
1	(هون) كل يوم بذكّروني العالم حواليي إني منّي وحدة منن، أنا وحدة مهاجرة (مهاجرة)	F. 7
2	أبناء غير طائفة (تكررت عدة مرّات)	F. 25
3	للأسف هون في حدا دمّه غالي، وحدا دمّه رخيص (تعصّب في الوطن)	F. 35
4	إذا مات بتتشرّد عيلته (تهديد في الوطن)	M. 4
5	بهاجر حتى ما موت عباب مستشفى (تهديد في الوطن)	M. 5
6	بلدنا معرض للحروب (تهديد في الوطن)	M. 30

المناقشة

انتهت الدراسة إلى مجموعة من المعطيات جاءت تحت عنوانين: النتائج الكميّة والنتائج النوعيّة.

النتائج الكمّيّة

تبيّن أنّ المتحمّسين للهجرة هم من مختلف الأعمار الشبابيّة، فمن هم دون 25 سنة يحاولون الهروب (بجلدهم) من المعاناة قبل أن تطالهم عند بدء تحمّلهم المسؤوليّة مع نهاية الدراسة (20 سنة)، ومن هم فوق 30 سنة ينشدون الخلاص من المعاناة التي رافقتهم طيلة حياتهم (32 سنة ، M. 30)، والمعاناة تشمل العجز الاقتصادي، ونقص الرفاهيّة، والشعور بالخوف وانعدام الأمن. وهنا مجموعة من الملاحظات التي يجدر الانتباه لها:

فبالنّسبة للأسباب الاقتصاديّة، أتت في أوّل دوافع الهجرة من حيث الذين ذكروها، وعدد تكرار الاقتباسات، وهو أمر طبيعي في ظروف لبنان الحاليّة، إذ لبنان يبدو آمنًا إلا ما قيس بضغط الاقتصاد ونقص الخدمات، ولم تتبيّن فروق جوهريّة بين الجنسين في هذا الدافع، وهذا يدلّ على مجموعة من الأمور، أهمّها: أنّ المرأة في لبنان أصبحت معنيّة بقوّة في حمل المسؤوليّة الاقتصاديّة؛ ممّا يفتح الباب للبحث في تشريع قوانين خاصّة تساعدها على حمل المسؤوليات الثلاث: الاتمام بالمنزل، تّربية الأولاد، و المسؤوليّة الماليّة.

كذلك برّر آخرون ميلهم للهجرة (مثال: F25 –35 :F) لشعورهم بتعرّضهم للتمييز من قبل السلطة، وهذا لم يذكره سوى 4 أشخاص، لكن هل هذا يعني أنّنا أمام حالة تصاعديّة، أم أنّها حالة محدودة نقُصت نتيجة لسنوات من تطوير الأداء الرسمي والاجتماعي؟

وكما يبدو من نوع الأسباب أنّها توافق ما ورد في معطيات الأمم المتّحدة والمنظّمة الدولية للهجرة، وإذا عدنا إلى زواني وزميلاتها (2019)، من أنّ الإناث أصبحن ضمن قائمة الراغبين بترك بلادهم طمعًا بحياة أفضل نجده واضحًا في زيادة مطلب السعي نحو الرفاهيّة والعيش الكريم (المواطنة F. 2, F.10, F. 29, F.36 وغيرهنّ).

بالنّسبة للمعوّقات، هذا التعبير "معوّقات"، يحمل في طيّاته إعتبار الهجرة نموًّا، وإلاّ كان الوصف باتّجاه حُسنُ الحظّ؛ لكنّ الحقيقة أنّ الذين تحدّثوا عن أسباب عدم سعيهم للهجرة أو رفضهم لها، كانوا يصفونها بما يشير إلى أنّها معوّقات. (لمّا بدّو الواحد يهاجر بعيش عقدة الإنسلاخ F. 27).

أمّا السياسة، فلم تبدُ عنصرًا جوهريًّا في الاقتباسات؛ حيث اقتصرت على عدد محدود، وبدا المحتوى استقطابيًّا أكثر منه ارتباطًا بالهجرة.

النّتائج النوعيّة

لم تظهر كلّ المباحث التي ذكرها فيركوتن في دراسته، واقتصرت المباحث المشتركة على: مسألة الانتماء، المواطنة، ثنائيّة الوطن، الحنين والشوق الفقدان، القيمة الذاتية، الانفتاح على الثقافات، التوقعات، القواعدالذهنية، والتعصّب والتهديد.

مبحث1: مسألة الانتماء

لدى الإناث المواطنة والانتماء متداخلان، وبالعودة إلى فيركوتن حيث المواطنة تعني الحقوق وقوّة العدالة والمساواة والتماسك الوطني، كما في دراسة هاشتر ولايتن، أّن دعم الوطنيّة يحصل عندما يجد الناس لهم منافع ماديّة أو سياسيّة، وهو ما يَصدُق كل اقتباسات الذكور أكثر ممّا يَصدُق على اقتباسات الإناث، حيث بخلاف هاشتر ولايتن، الوطنيّة سلوك انفعالي، وتبقى "عجقة السير" في بيروت محل اشتياق كما في حالة F. 22.

ما لفت في الأشخاص الذين أعطوا السياسة مجالًا في تسجيلاتهم بدوا كأنّهم يطبّقون نظريّة تاجفيل، من أنّهم لا يمانعون من أن يضحّوا بظروف مجموعتهم وإلحاق الضرر بها إن كان ذلك سيساهم في جعل ظروف الآخرين أسوأ.

مبحث2: المواطنة

الدولة المضّطهدة، الشعب الذي لا يتعلّم، المكان الذي تركض فيه طوال عمرك لتحصيل لقمة العيش في حدّها الأدنى، حيث لا خدمات عامّة لائقة، ولا أمل بالتحّسن يصبح الوطن مدفن (M. 3)، ولا يتوافق مع أبنائه (M. 5)، هو لدى بعضهم المكان الذي يجب أن لا تعود إليه إن غادرته. ويمكنك العيش من دونه إن أردت تحقيق أحلامك؛ القانون لا يحمي المغفّلين، واللبنانيّون بالإجمال مغفّلون(بنظرهم)، ولذا لا تجد الدولة واجبًا في حمايتهم. هذا مجمل مضمون الاقتباسات عند ذكر لبنان كوطن. لكن السؤال هو: هل هذا تقييم ارتدادي نتيجة الظروف، وهل الظروف إن دامت لهذا الجيل بغير ما هي عليه ولو بنسب متفاوتة سيكون تقييمه مختلفاً؟

مبحث3: ثنائيّة الوطن

ظهر لدى الإناث أنّ الوطن هو العلاقات الاجتماعيّة، وبالنّسبة للذّكور هو اللغة والانتماء الإداري والسياسي للمجتمع الأصلي. وما يلفت هو ما ذكره M. 30 من أنّ الهجرة تترك للشّخص حريّة اختيار الوطن بدل اعتباره إرث اجتماعي. بتعبير آخر، المنافع والمضار كانت أهم لدى الذكور، والتعوّد والمشاعر لدى الإناث. من المفيد الإشارة إلى أنّ إطار الأقلّيّة والأكثريّة الذَي ورد سابقًا، يبيّن لنا أنّ الهجرة ليست خالية من

المعاناة، بل أنّ شعور الآخرين بأنّهم غير محسوبين في المستوى ذاته للمواطنين الأصليّين نتيجة اعتبارهم غرباء من جهة وأقلّيّة لا تؤثّر في الرأي العام من جهة أخرى. هذا المبحث الذي تحدّثت عنه دراسة فيركوتين وأيّدته دراسة كل من نيلسون، كوردر، رنزاهو، وويتكوسكي حول مقدار القلق والشعور بنقص الخدمات التي يقدّمها لهم الوطن البديل.

مبحث4: الحنين والشوق والفقدان

صرّح المشاركون من المهجر بحنينهم وشوقهم، ومن عادوا تحدّثوا عن انسلاخ الولد عن أمّه، وانشلاعهم عن أصولهم، والواضح فيما ذكروه أنّ الناس (الأهل والأصدقاء) هم مصدر هذا الشعور، ولذا قال البعض أن لو تذهب عائلتهم معهم تصبح هناك الجنّة التي يحلم بها كل إنسان. قلق الانفصال لدى المقيمين والعائدين، وحرقة الشوق والحنين لدى المهاجرين تبقى بالنسبة لأغلب المشاركين العثرة التي حمد الله أحدهم على غيابها عند أولاده (أولادي ما عندهم هيدي العلاقة العميقة مع البلد). ورغم هدوئه في التعبير، ظهر جليًّا مقدار غضب المنتمي، العاتب على ما أُجبِر عليه من ترك المكان الذي له معه علاقة عميقة.

لكنّ الإنسان بطبعه، كلّما حصل على شيء تحسّر على ما لم يحصل عليه، وربّما ينطبق ذلك على الأوطان كما ينطبق على الأشياء. هنا نجد كيف أنّ بعض الذين حصلوا على الجنسيّة الكنديّة أُصيبوا بحزن وغمّ، وانعكس ذلك عليهم سلبًا من الناحية النفسيّة، كما ذكرت غوديت (2005).

مبحث5: القيمة الذاتيّة

ربط أغلب المشاركين (إناث وذكور) العيش في لبنان بأنّه مدعاة للشّعور بنقص القيمة (هون قيمتنا رخيصة F. 32) والعبثيّة (الناس هون بلا هدف F. 8)، وقد تبيّن أنّ الانطباع العام لدى الشباب بأنّ التعليم في لبنان لا يرفع من شأن المتعلّمين (بعلّق شهادتي عالحيط M. 4)، وفي المقابل التعليم في المهجر مدعاة للاحترام (برّا بيرفعولوا القبّعة... M. 4)، لكن "برّا" هذه بالتّأكيد تعني جزءًا من الكرة الأرضية ولا تعني كل ما هو خارج حدود لبنان، وهذا يدلّ على مقدار التعميمات التي ما زال يحتفظ بها الشباب اللبناني رغم تخرّجه من الجامعة. عبّر المشاركون عن نقصان القيمة بعبارات مهينة جدًّا، من بينهما "القطيع، حمار، مش بني آدمين، منتبهدل..."، إذا اعتبرنا أنّ هذه العبارات تحمل في طيّاتها شحنًا انفعاليًّا بقدرها، فهذا سيجعل النتيجة النهائيّة واحدة من ثلاثة: (1) فرار من الهلاك بالهجرة؛ (2) التماهي بالمعتدي أو الفاسد، وكما ذكر تاجفيل وزميله، لن يمانعوا من أن يضحّوا بظروف مجموعتهم وإلحاق الضرر بها في سبيل الإضرار بالآخرين وجعلهم في ظروف أسوأ، خاصّة وأنّ مراجعة تسجيلات الذين تحدّثوا بالسياسة وملحقاتها تشير إلى أنّهم يحمّلون الآخرين (من غير طائفة) مسؤوليّة ما لحق بهم من مهانة (في ناس بتعتقد ...... F. 16). ويلفت ما قاله أحد المشاركين (M. 15) "برّا لازم تنتبه لصورتك، ولباسك، وجسمك، ليكون إلك

قيمة." والمشارك الآخر من المهجر الذي ذكر عبارة تتضمّن القيمة الذاتيّة بحسرة "الغربة سترتني مع عيلتي" (M. 19). و(M. 34) "لازم نخلص من لوثة لبنان"، بسبب ما يلحقه من إهانات بشعبه؛ (3) هو الشعور بالخيبة والإحباط، وهو ما سيقود (أو ربّما قاد) نحو معاقرة الأدوية النفسيّة على أنواعها.

لم يكن متوقعًا أن يُذكَر لبنان كلوثة، وربّما لأنّ الشخص الذي ذكره يعمل في مجال الإعلام، حيث الصورة غالباً "مُزَخّمة"، أو ربّما لأنّه بلغ نصف قرن من العمر، خمس سنوات منها فقط كانت لطفولته الأولى حيث تُغني قطعة الحلوى ولعبة صغيرة عن كلّ ما في الدنيا، ليعيش بعدها عمرا من النزاعات. هذا الوصف الذي يبدو روائيًّا هو وصف لحال الطفل في بدايته، هذه اهتماماته ولا يمكن أن يطلب من الوطن أن يقف هناك. وإذا وضعت هذه المشاركة مع المشاركات الكثيرة التي تحدّثت عن نقص في أساسيّات الحياة، كالماء والكهرباء والأمن، يظهر جليًّا حينها أنّ الوطن، في ذهن المواطن اللبناني لم يتجاوز الحاجات الأساسيّة التي تحدّث عنها ماسلو في هرمه.

الانتباه للتعصّب في المهجر جاء فقط ممن عاش في المهجر، وهذا ربّما يعود لأنّ الشعور بالاضطهاد والتمييز في بلد غريب يمكن تجاوزه مقابل الرفاهيّة، أمّا في الوطن فلا يمكن حمله لاعتبارين هما: (1) أنّ الوطن لا يعطي الرفاهيّة مقابل الإساءة؛ (2) أنّ الوطن فيه المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد، ولا يمكن تجاوز الشعور بالمهانة ونقص القيمة الذاتيّة في مجتمع الأقارب.

مبحث6: الانفتاح على الثقافات

اللبناني يقاوم ليحفظ هويته ولغته، ولكن المرونة والانفتاح سمة عقلانيّة، حيث من خلالها تخفّ المعاناة، "كلّما عارضت الثقافة عانيت" (M. 15). لكن الأداء الذي يقدّمه الفرد تجاه التغيير ليس هو الأداء الذي يقدّمه الجمع، "اللبنانيّين بأفريقيا كأنهم بلبنان، عادات ولغة" (M. 19). الواقع في هذا الوصف هو البقاء على ما هم عليه (عادات ولغة)، وهو حالهم في أفريقيا، أمّا في الولايات المتّحدة، فقد ذكرت جوزف (2009)، أنّ تغيّرات عدّة حصلت في العائلة اللبنانيّة هناك، وأنّ ما بقي هو التزام الأفراد بشكبة العلاقات الاجتماعيّة فيما بينهم مع تغيّر في أسلوب التواصل يتوافق مع الحياة هناك، هل هذا يرتبط بنظرة هؤلاء المتفاوتة للدّولة والمجتمع بين الدول الفقيرة والدول الغنيّة؟

مبحث7: التوقّعات

ظهر جليًّا من تسجيلات المشاركين أنّ الأرض في الجهة المقابلة من الجبل خضراء، وأنّ الحلم يتحقّق هناك، وأنّ الهجرة طوق نجاة، بل هي المكان الذي تصبح في عبادة الرب أفضل (F. 25، مع أنّها لم تهاجر من قبل)؛ هذا يعيدنا إلى ما أورده السرياني من انتشار صور النجاح التي ينقلها المهاجر، حيث تسلّط الأنظار دون هوادة على النماذج الناجحة كما أشار حفني. هل هذا أمر جيد، أم أنّه لا بد لوزارة التربية ووزارة الثقافة من إطلاق حملة تنقل الصورة كما هي، في لبنان وفي المهجر: خضراء حيث الخضرة، ويابسة حيث لا اخضرار.

مبحث8: القواعد

تشكّلت مجموعة من القواعد لدى المواطن اللبناني يمكن اختصارها بالمعادلة التالية: ما دامت الصعوبات ضمن الممكن فلا داعي للدراما، فإنّ تجاوزت الممكن فما أحلى النُقل؛ و"البقاء حيث لا أمل في التغيير ضياع للعمر" (F. 23)، "لأنّ الوطن مطرح ما عايش منيح". (F. 1).

مبحث9: التعصب والتهديد

الانتباه للتعصّب في المهجر جاء فقط ممن عاش في المهجر، وهذا ربّما يعود لأنّ الشعور بالاضطهاد والتمييز في بلد غريب يمكن تجاوزه مقابل الرفاهيّة، أمّا في الوطن فلا يمكن تحمله لاعتبارين هما: (1) أنّ الوطن لا يعطي الرفاهيّة مقابل الإساءة؛ (2) أنّ الوطن فيه المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد، ولا يمكن تجاوز الشعور بالمهانة ونقص القيمة الذاتيّة في مجتمع الأقارب. وقد ورد شعور الآخرين بأنّهم غير محسوبين في المستوى ذاته للمواطنين الأصليّين نتيجة اعتبارهم غرباء، عبّر عنه من هم في بلاد المهجر (مثال: كل يوم بذكّروني أنا وحدة مهاجرة F.7).

أما الشعور بالتهديد فلم يظهر من التسجيلات ما يمكن اعتباره جوهرياً من تهديد في بلاد المهجر، التهديد الذي ورد بكثرة مصدره داخلي. الخوف من الموت لم يكن الحاسم في هذه الدراسة، فقد كان الحاسم هو ثمن الموت؛ حيث ميّز المشاركون بين موت مشرِّف في مواجهة محتل، وموت رخيص "برصاصة طايشة". وهذا ينطبق على نتيجة الموت في الوطن "بتتشرّد عيلته"، والموت في المهجر، حيث تتولّى الدولة رعاية عائلته. والخوف تصاعدي في لبنان، لأنّ الموت فيه غير محدّد المصادر والأماكن والأساليب.

وُجدت مجموعة من الاقتباسات التي تتعلق بحس المواجهة والتحدّي، وما هو مثير للخصومة، لكنها محدودة جداً ولم يتم التعبير عنها سوى من عدد قليل وتكرارات محدودة. لكنها قد تقود باتجاه أعمال بحثية أُخرى.

الخلاصة

إنطلاقاً من مبدأ الاستناد إلى البيانات، سعت هذه الدراسة إلى تقصّي موضوع الهجرة؛ مفهومًا، قرارًا، وإجراءات. وتوصّلت إلى مجموعة من المعطيات التي بإمكانها أن تشكّل رافدًا في فهم هذا الموضوع من وجهة نظر اللبناني أو اللبنانيّة، ومؤشّرًا يستعين به المهتمّون في صناعة التربية في لبنان.

مجموعة من الاستنتاجات، من وجهة نظر المشاركين، خرجت بها هذه الدراسة، أهمّها:

- أنّ اللبناني المتعلّم يميل إلى الهجرة وترك البلاد.
- أنّ الذي ينتمي إلى حزب سياسي ويجد نفسه فيه عنصرًا فاعلاً، يميل إلى البقاء في لبنان، لا حبًّا به، بل بُغضًا بالآخرين. لكنّ هذا النوع لا يتضمّن الحزبيّين الذين يرون في المنفعة العامّة منفعة لهم.
- اللبناني يرى في اللبنانيّ الآخر صفات لا يجدها في شعوب الأوطان البديلة، خاصّة الودّ، وقابليّة الاعتماد عليه.

- اللبنـانـي يرتكـز فـي قراراتـه علـى المنافـع والمضـار علـى حسـاب العاطفـة والانتمـاء والتعلّـق، وهنـا يظهـر التنـازع بيـن العقلنـة والتعلّـق، بيـن "مطـرح مـا عايـش منيـح" و "إنسـلاخ الولـد عـن أمـه".

- الدولـة انتقلت فـي عقل اللبنانـي مـن مستوى الدولـة المهملـة أو العاجـزة، إلـى مستوى الدولـة المضطّهدة والكارهـة والرافضـة لأبنائهـا، بـل المميتـة والمدفن.

- الحصول علـى الجنسيّة هو الطريق الملكي لتحقيق الأحـلام، وضمان العيش الكريم والنمو، وهذا الأخير يصبّ في النقطـة الخامسة، حيث الدولـة تقف بوجه أبنائها. وهذا طبيعي إذا كان لبنان في أصلـه "مشروع فاشل".

- القيمـة الذاتيّـة في لبنـان تعود لصبر اللبنانـي وكفاحـه، ولا قيمـة خارجيّة لجنسيّته أو انتمائـه لهذا البلد.

- مازال في لبنان من يُعيب على الآخرين فقرهم وعَوَزهم، ولذا الهجرة "سترة".

- الشهادة الجامعيّة اللبنانية تحمل تقديرًا متدنٍ في أذهان الشباب.

- لبنان راسخ في نفوس أبنائـه، لأنّـه الشعب، لا التراب، ولا النظام السياسـي، ناهيك عن الخدمات العامّـة. لبنـان شعب فقط.

- يتّجه لبنان نحو فقد بناته بعد أبنائه من خلال تصاعد أرقام الراغبات في الهجرة والساعيات لها، وبالتالي نحن نتجه نحو ما سمّاه كاستلز وميللر: تأنيث الهجرة.

ثمّة في لبنان والمهجر، من يميل إلى تدريب أولاده على رفض التعلّق بلبنان، ورفض العودة إليه، فما الذي سيترتّب على هكذا قرار؟

اعتمد البحث عيّنة نوعيّة ومنهج نوعي، وبالتالي ما برز من نتائج يُعَدّ مؤشّرات تفتح الطريق للفحص الكمّي. وقد تولّد انطباع حول الحاجة إلى مقرّرات مدرسيّة وجامعيّة تساعد في الحدّ من التعميمات، التي هي سمة التفكير غير العقلاني، والمفارقة الأولى، وهي مفارقة فردية، أنّ الشاب اللبناني يُعَقلن تفكيره لتبرير الهجرة، ويجانب العقلنة في تقييمه للظروف في لبنان والخارج. أما المفارقة الثانية، وهي مفارقة اجتماعية، فهي أنّ اللبنانيين –وفق ما أظهرته الدراسة– مشتركون في فهمهم لمبررات الهجرة وأسلوب التعبير عن ذلك الفهم. بمعنى أنّ إخفاء هوية المتحدثين تجعل المستمع يظنّ أنهم من منطقة واحدة وخلفية واحدة.

بالخلاصة، انتهت الدراسة إلى استشعار النماذج النفسية التالية:

1. نموذج نزاع المنفعة مقابل قلق الانفصال.
2. نموذج نزاع الشعور بتدنّي تقدير الذات الوطنية مقابل الشعور بالاعتداد الشخصي.
3. نموذج الفرد المنفصل عن الشعب (كل شخص يتحدث عن الشعب كأنّه منفصل عنه).

محددات الدراسة

الدراسة نوعية، وبالتالي تزيد من فهم الواقع؛ لكنها ليست نتائج للتعميم، خاصة لجهة نوعية العيّنة. كذلك كان لابد من شيء من التحفّظ على بعض المحتويات السياسية وغير السياسية ممّا لا يغيّر في النتائج ولكنه يحرك الفضول غير العلمي. كون الدراسة أتت في ظل الظروف التي يشهدها لبنان خصوصاً، فإن النتائج تبقى ظرفية حتى تُجرى دراسة رديفة في ظروف مختلفة.

شكر وعرفان: أشكر جميع الذين ساعدوا في إنجاز هذا العمل، أخص بالذكر د. إلهام الحاج حسن التي دفعتني للقيام به؛ إدارة الفرع الأول في كليّة الآداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية لإتاحة الفرصة للسير في الدراسة من خلال تنظيمها مؤتمراً خاصاً بالهجرة، وبالتأكيد جميع الوسطاء الذين ساعدوا في جمع تسجيلات من مناطق مختلفة وبذلوا جهدا واضحا لتسهيل العمل.

[1] (موقع الأمم المتحدة، 2020).
[2] (موقع المنظمة الدوليّة للهجرة، 2020).
[3] (الأمم المتحدة، 2020).
[4] (كاستلز وميلر،2013، 171).
[5] (Olaniyi & Ajayi, 2014).
[6] (المنظمة الدولية للهجرة، 2020).
[7] (ص. 42).
[8] (في زواني وزميلاتها، 2019).
[9] (المصدر السابق).
[10] (Beydoun, 2013).
[11] Olaniyi & Ajayi, 2014
[12] .(خرفوش، وعلي، 2019)
[13] (زواني وزميلاتها، 2019)
[14] (حنفي، 2011)
[15] (خرفوش، وعلي، 2019)
[16] Verkuyten, 2017
[17] Verkuyten, 2017
[18] (p. 462- 463)
[19] (p. 346)
[20] (Brock & Atkinson, 2008)
[21] (p. 5)
[22] (Watson, 1997؛ في كاستلز وميللر، 2013؛ 117)
[23] (في: حنفي، 2011)
[24] (p. 1)
[25] (في: Hale, 2016; 2)

المراجع

1. حنفي، ساري (2011). إشكاليّة الرسوم الكاريكاتوريّة الدانمركية ضمن فضاءات الهجرة. مجلّة العلوم الاجتماعيّة. الكويت. مجلد 39، العدد 2.
2. خرموش، منى، وعلي، فارس (2019). الهجرة غير الشرعيّة في الجزائر: قراءة في واقع العوامل الجاذبة والطاردة من منظور سيكولوجي. ظاهرة الهجرة كأزمة عالمية. المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية. ألمانيا. صص -225 234.
3. زواني، نزيهة، ووندلوس، نسيبة، وكهينة، شلابي (2019). الشعور بالقلق الوجودي كمنبئ لاتّجاه الطلبة نحو الهجرة.: كتاب المؤتمر الدولي: ظاهرة الهجرة كأزمة عالمية. المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية. ألمانيا. صص 205 – 224.
4. كاستلز، ستيفن، وميللر، مارك (2013). عصر الهجرة. ترجمة منى الدروبي. المركز القومي للترجمة. القاهرة.

References

1. Abdelhady, D. (2006). Beyond Home/ Host Net Works: Forms of Solidarity among Lebanese Immigrants in a Global Era. Global Studies in Culture and Power, 13(3), 427- 453. https://doi.org/10.10801070289060083959 5/
2. Ajrouch, K. J. (2000). Place, Age, and Culture: Community Living and Ethnic Identity among Lebanese

American Adolescents. Small Group Research, 31(4), 447- 469. https://doi.org/10.117710464964000310040 4/
3. Akl, E. A., Maroun, N., Rahbany, A., & Hagopian, A. (2012). An emigration versus a globalization perspective of the Lebanese physician workforce: a qualitative study. BMC Health Services Research, 12(135). http://www.biomedcentral.com/1472135/12/6963-
4. Alameddine, M., Kharroubi, S., Dumit, N., Kassas, S., El- Harake, M., & Richa, N. (2020). What made Lebanese emigrant nurses leave and what would bring them back? International Journal of Nursing Studies. 103: 103497
5. Alamuddin, R. A., & Zebian, S. (2010). An exploratory assessment of cultural sensitivity in the practice of Lebanese researchers in the field of psychology: Implications for national development efforts. International Journal of Psychology, 45(5), 381- 389.
6. Arredondo, P. M. (1984). Identity Themes for Immigrant Young Adults. Adolescence, 19(76), 977. https://eric.ed.gov/?id=EJ311149
7. Berry, J. W. (2001). A psychology of Immigration. Journal of Social Issues, 57(3), 615- 631.
8. Beydoun, L. (2013). The Complexities of Citizenship among Lebanese Immigrants in Sierra Leone. African Conflict and Peace building Review, 3(1), 112- 143. http://www.jstor.org/stable/10.2979/africonfpeacrevi.3.1.112
9. Brock, G., & Atkinson, Q. D. (2008). What Can Examining the Psychology of Nationalism Tell Us About Our Prospects for Aiming at the Cosmopolitan Vision? Ethic Theory Moral Practice, 11: 165- 179. DOI: 10.1007/s106771-9087-007-
DOI: 10.1002/cpp.2010
DOI: 10.1016/j.ijnurstu.2019.103497
10. Fargues, P. (2004). Arab Migration to Europe: Trends and Policies. The International Migration Review, 38(4), 1348- 1371. http://www.jstor.com/stable/27645449
11. Faur, A. M. A. (2007). A Qualitative Analysis of Cultural Discrimination Stress. (Doctoral dissertation, University of Toledo, Ozazaki & Utesey, 2004).
12. Gaudet, S., Clément, R., & Deuzeman, K. (2005). Daily hassles, ethnic identity and psychological adjustment among Lebanese- Canadians. International Journal of Psychology, 40(3), 157- 168. https://doi.org/10.108000207590444000267/
13. Guzder, J., Yohannes, S.,& Zelkowitz, P. (2013). Help seeking of Immigrant and Native Born Parents: A Qualitative Study from a Montreal Child Day Hospital. Journal of the Canadian Academy of Child and Adolescent Psychiatry, 22(4), 275- 281. PMCID: PMC3825467
14. Hale, H. E. (2015). Psychology of Nationalism. Wiley Online Library. DOI: 10.10029781118663202/.wberen129 http://www.jstor.com/stable/24768945
15. Humphrey, M. (2004). Lebanese Identities: Between Cities, Nations and Trans- Nations. Pluto Journals, 26(1), 31- 50. http://www.jstor.com/stable/41858471
16. Joseph, S. (2009). Geographies of Lebanese Families: Women as Transnationals, Men as Nationals, and Other Problems with Transnationalism. Journal of Middle East Women's Studies, War and Transnational Arab Families, 5(3), 120- 144. https://www.jstor.org/stable/10.2979/mew.2009.5.3.120
17. Nielsen, D., Minet, L., Zeraiq, L., Rasmussen, D. N., & Sodemann M. (2017). Older migrants in Exile : The past holding hands with the present- a qualitative study. Scandinavian Journal of Caring Science, 31(4), 1031- 1038. https://doi.org/10.1111/scs.12428
18. OBI, I.U. (2008). Immigrant- Host Relationship: A Review of Anti- Lebanese Attitudes in Twentieth Century West Africa. African Journals Online, 16(2), 226- 241. DOI: 10.4314/ifep.v16i3.23790
19. Olaniyi, R. O., & Ajayi, O. M. (2014). The Lebanese in Ibadan. Nigeria, 1986- 2012. Journal of the Historical Society of Nigeria. 23, 131- 179.
20. Renzaho, A. M. N., & Oldroyd, J. C. (2013). Closing the Gap in Maternal and Child Health: A Qualitative Study Examining Health Needs of Migrant Mothers in Dandenong, Victoria, Australia. Matern Child Health J, 18: 1391- 1402. DOI: 10.1007/s109957-1378-013-
21. Riggs, E., Gibbs, L., Kilpatrick, N., Gussy, M. Gemret, C. V., Ali, S. & Waters, E. (2015). Breaking down the barriers: a qualitative study to understand child oral health in refugee and migrant communities in Australia. Ethnicity & Health, 20(3), 241- 257. http://dx.doi.org/10.108013557858.2014.907391/
22. Ryan, G. W., & Bernard, H. R. (2003). Techniques to Identify Themes. Sage Journals. https://doi.org/10.11771525822/X02239569
23. Verkuyten, M. (2017). The benefits of studying immigration for social psychology. DOI: 10.1002/ejsp.2354
24. Willkowski, A. & Patel, S., & Fox, J. R. (2017). The Experience of postnatal Depression in Immigrant Mothers Living in Western Countries: A Meta- Synthesis. Wiley Online Library. Clinical Psychology and Psychotherapy, 24, 411- 424.

تفكيك الهُويّة اللغويّة في ذهن المهاجر العربيّ المعاصر

د. بسام عيسى
قسم اللغة العربية
جامعة AUL

إشكالية البحث: يحمل العربيّ معه إلى بلاد المهجر هويّته اللغويّة، ثمّ لا يلبث أن يعيش أزمة صراع وجوديّ بين لغتين. حول هذا الصراع نشأت إشكاليّة فكريّة تتمحور حولها استفهامات عدّة:

- ما العلاقة بين الفكر واللغة؟
- هل يمكن التفكير بالعربيّة والتعبير بلغة أخرى مفروضة؟
- ما دور الترجمة في البناء اللغويّ – الفكريّ؟
- كيف تموت اللغة في ذهن العربيّ بالمهجر؟

للإجابة عن هذه الإشكاليّات، يتمحور البحث حول أربعة عناوين فرعيّة.

أوّلًا: تمهيد تأصيليّ في مصطلحات البحث

1 – التفكيك: لا يقتصر التفكيك على مفهوم متّفق عليه، بل إنّ لكلّ عصر ولكلّ فيلسوف أو أديب وجهة نظر مختلفة. وفي توظيف هذا المفهوم، نجد اختلافًا في تحديد تعريفه أو ضبطه، حتى أنّ بعض الموسوعات قصرت عن أن يكون لديها حدّ شامل يتّسم بالدقّة والوضوح، فنجد مثلًا: " يتّخذ التفكيك مظاهر عديدة، فمرّة يبدو موقفًا استراتيجيًّا، ومرة فلسفيًّا أو سياسيًّا أو فكريًّا، ومرّة نجده طريقة في القراءة" [1].

لا بدّ في هذا المجال من التعريج على التفكيكيّة عند جاك دريدا[2] (Jacques Derrida) إذ تشكّل عنده نقطة محوريّة ارتكز عليها في فلسفته، والتفكيك حسب دريدا: " ليس منهجًا، ولا يمكن تحويله إلى منهج، وهو ما أدّى إلى سجال في الأوساط الأكاديميّة والثقافيّة "[3]. أي أنّ التفكيك عنده لا يمكن أن يخرج عن دائرة التأويل، فيقول: " كنت راغبًا في أن أترجم، وأكيّف لمقالي الخاصّ المفردة الهايديغرية[4]، الدالّة في هذا السياق على عمليّة تمارس فيها البنية أو المعمار التقليديّ للمفهومات المؤسّسة للأنطولوجيا على هدم بما هو تصفية واختزال سلبيّ، ربّما كان أقرب إلى الهدم لدى نيتشه، ممّا أدى إلى التفسير الهايدغري ونمط القراءة الذي كنت أقترحه فاستبعدتها"[5]. ودريدا لا يقصد بذلك الهدم والتخريب، وإنّما إعادة ترتيب عناصر الخطاب على طريقة هايدغر (Martin Heidegger) الوجودية، ذلك أنّ عبارات (هدم – تصفية – اختزال)

يراد بها خلخلة تركيب الجملة لبيان الطابع الاتّفاقيّ البحت للعلاقة بين التركيب اللغويّ ومرجعيّته، ففي قصيدة الشعر أو في الخطاب الفلسفيّ مثلًا، لا تخضع الجملة لمنطق المرجع الخارجيّ، وإنّما لضرورات الصياغة الشعريّة أو الفلسفيّة، وتبرز عمليّة التفكيك بوضوح عند ترجمة الفكر من لغة إلى لغة، أو عند محاولة نقل الأعمال الأدبيّة.

نستشفّ أيضًا من كلام دريدا أنّ مصطلح التفكيكيّة ليس أداة تحليليّة أو نقديّة، ولا هو منهج، ولا عمليّة، ولا فعل يُنْجز على النصّ بواسطة الذات، بل هو على الأصحّ مصطلح يقاوم أيّ تعريف وأيّ ترجمة. ويرى أنّ التفكيك ليس هدميًّا ولا تقويضيًّا، فالتفكيكيّة تهاجم الصرح الداخليّ، سواء الشكليّ أو المعنويّ للوحدات الأساس للتفكير الفلسفيّ، وتركّز نقدها على ظروف ممارسته الخارجيّة؛ أي الأشكال التاريخيّة، والبنى الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للنسق الخاصّ بهذا الصرح. " فالتفكيك يضع مسلّمة البناء الشكلانيّ مقدّمًا، ثمّ يضع مسلّمة (الشكل – الصورة)، ويحاول العثور على العلاقات التي تشدّ البناء؛ ليُعاد ترميمه وإنشاؤه" [6].

2 – الهُويّة: هي مصطلح معاصر، شاع تداوله في مرحلة ما بعد الحداثة، عن طريق عدد من البحوث في مجالات علم النفس والاجتماع والسياسة[7]. وفي تحليل الماهيّة، تخضع الهويّة المتداخلة في ذاتها لحركة الشعور في انتقاله من جهة إلى أخرى، ومن قطب إلى آخر. فالهويّة البحتة المنغلقة على ذاتها، والتي تكوّن وحدة منطقيّة، لا يمكن أن تكوّن في أساسها مبدأً للفكر وللمفكَّر فيه معًا. فالفكر الذي يفكّر ذاته، أي الفكر الذي ينعكس على ما فيه، لا يمكن أن يبدأ من هويّة بحتة، إذ هو فكر منقسم منذ البداية، وهو بعودته إلى ذاته يكون متعدّدًا لا وحدة فيه؛ لأنّ الموضوع الذي يقصده يكوّن خارجيّته من حيث ما له من تصوّرات نظريّة.

يقودنا هذا الحديث عن ماهيّة الهُويّة، إلى التعمّق في مفهومها على النحو الذي أضحى المهاجر المعاصر يتمثّلها ويتبيّنها. وممّا لا شكّ فيه أنّنا نستطيع أن ندعو عصرنا باسم " عصر الهويّات" [8]، ليس لأنّ الهويّة باتت العنصر الأساس في كيان الفرد فحسب، بل لأنّها أمست تمثّل النقيض الكامل لِما كان في الماضي جوهر الهويّة الفرديّة خصوصًا. قبلًا كان الإنسان يتحرّر من ذاته ومن خصوصيّاته الفرديّة؛ لكي يمارس هويّة يشارك فيها شموليّة المجتمع الذي ينتمي إليه من العشيرة إلى الوطن. أمّا اليوم، فقد ظهرت الصيغة الجديدة للهويّة، وكأنّها انقلاب على الهويّة القديمة، وأصبحت نقطة الارتكاز في تحديد الهويّة داخل الفرد وليس خارجه، بمعنى أنّ الأنا الذاتيّ هو الذي يحدّد ذاته من خلال انتماءاته إلى المجموعة.

3- **الهويّة اللغويّة:** ليس المهمّ هنا الطرح المفاهيميّ والنظريّ المجرّد لعلاقة الهويّة باللغة، إنّما تأسيس علائق مع اللغة في إطار إشكاليّتنا البحثيّة. إنّ كلّ هويّة لها مسلّماتها وسطوتها وسعيها إلى اجتياح الذات وحبسها في نطاقها؛ ما يعني أنّ ثمّة صراعًا معلنًا أو ضمنيًّا بين الهويّتين: الفرديّة والجماعيّة، والغلبة تختلف من وضع إلى آخر، لعوامل تعود إلى الشخص نفسه، وإلى ثقافة المجتمع عمومًا، وذلك عند وجود فجوة بين المدخلات والمغذّيات اللغويّة لكلّ هويّة.

ثمّة تحاشد في آراء الباحثين لبرهنة أنّ اللغة هويّة، لا مجرّد أداة للتواصل، فضلًا عن مقولات ذات دلالات باذخة في هذا المستوى، من قبيل أنّ " هويّة كلّ مجتمع تتأسّس على لغته" [9]. وفي الفضاء العربيّ، تمثّل اللغة طبقات الهويّة من جهة الترسيخ والثبات، وليس الدين أو الدولة؛ لأنّها بالنسبة إلى العربيّ هي ركيزة إدراكه لذاته، وتشكّل تداخلًا مع ذاته العميقة، وتصنع مشاعره. ولا نقصد باللغة هنا مجموع الأصوات والمفردات، بل الثقافة بكلّ تراكماتها وروافدها ومكوّناتها؛ لذلك فإنّ " اللغة ليست معادلًا تامًّا للهويّة، ولا تستقلّ عنها، بل هي جزء منها، وأهمّ أركانها وأنحائها الكبرى، فهي ليست مجرّد أداة تواصليّة محايدة وسلبيّة، بل هي كائن إيجابيّ وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهويّة، وتطويرها، أو تدهورها وتحلّلها" [10].

حين تسطو على الفكر حال من ازدواجيّة اللغة، فإنّ الهويّة اللغويّة هنا لا تعني التساوي المطلق ولا التطابق الكلّي بين اللغتين، فعندما ندلي مثلًا بأنّ التعبير بالألمانيّة بات في ذهن المرء يساوي التعبير بالعربيّة، فذلك لا يعني التطابق ولا المساواة الرياضيّة؛ إذ التساوي يفترض حدّين: العربية – الألمانية (أو أيّ لغة أخرى تكون على تماسّ مع المهاجر)، والتساوي هو علاقة ذهنيّة بين هذين الحدّين، تخضع لتعريف يأتي من خارجهما. بمعنى أنّ التساوي ليس علاقة مطلقة سابقة على وجود اللغتين في الذهن، ولا قانونًا فكريًّا سابقًا على الفكر ذاته. كذلك فإنّ هذا التساوي ليس تطابقًا مكانيًّا – زمانيًّا يخضع للاتّجاهات المكانيّة والاتّجاهات الزمانيّة، بل هو علاقة تخضع بدورها لتعريف منطقيّ، فالتساوي لا يتساوى مع ذاته، ولكن يكوّن مجموعة متعدّدة من التساويات، فهو ليس بشيء مطلق خارج عن نطاق المنطق، وفي الوقت نفسه متعدّد بتعدّد التعريفات الممكنة. فهو يمكن أن يكون بتشابه اللفظ بين كلمتين، أو بتشابه الوزن، أو بتشابه المدلولات... وعلى ذلك فإنّنا لا نستطيع أن نأخذ التساوي مبدأً مطلقًا؛ إذ إنّه يخضع لمقولة العلاقة التي يمكن اختيارها بطريقة انتقائيّة.

اللغة والهويّة إذن موضوعان مترابطان، يتفاعلان في السلوك الفرديّ والاجتماعيّ داخل الأوطان، وبهما يعرف الناس ذواتهم أو أمّتهم، ويتّخذان العرق والثقافة والدين أشكالًا لهما. وكثيرًا ما تحدّث الإنسان عن تعلّقه بهويّته اللغويّة، وعدّ التفريط فيها نوعًا من التفريط في إنسانيّته، كذلك تغنّى الفلاسفة والحكماء والشعراء بلغاتهم، وعقدوا الصلة بين اللغة والميتافيزيقا، " فعلاقة اللغة بالهويّة معقّدة، يؤثّر كلّ منهما في الآخر قوّةً وضعفًا؛ فإذا قويت الهويّة قويت اللغة، وإذا ضعفت الهويّة ضعفت اللغة" [11].

اعتمادًا على ما تقدّم، فإنّ أيّ تعريف للّغة لا يعترف بمحوريّة الهويّة يعدّ ضربًا من اللغو المفاهيميّ الذي لا قيمة كبيرة له، كما أنّ أيّ تعريف للهويّة لا يراعي اللغة هو تعريف مجتزأ، وهذا ما يدعو إلى اقتراح تعريف جديد للّغة لا يكون صناعيًّا ولا من وضع التكلّف الأكاديميّ الناتج من ممارسة تركيب الكلمات ورصفها لمجرّد الخلوص إلى ادّعاء جدّته، إنّما هو تعريف صلب نابع من حيثيّات موضوعيّة صرفة. وقولنا إنّ التعريف الجديد يتمحور حول الهويّة، لا يعني أنّنا نتوجّه إلى الإزالة التامّة لفكرة أنّ اللغة هي أداة التواصل، إنّما إلى إبقائها في دائرة التعريف، ولكن بحضور أقلّ مع إيلاء الأهميّة الكبرى للهويّة، لنقل مثلًا: إنّ اللغة هي رموز وإشارات وأصوات تعتمدها الذات لنقل أفكارها ووجدانيّاتها في قالب يتشاكل مع هويّتها.

ثانيًا: العلاقة الوجوديّة بين اللغة والفكر

تشغل مسألة العلاقة بين اللغة والفكر موقعًا تقليديًّا في فلسفة اللغة؛ ما يثير أكثر من سؤال على هذا المستوى: هل بإمكان الإنسان أن يفكّر من دون لغة؟ وهل للّغة وجود خارج إطار الذهن؟ بأيّ لغة في المهجر يفكّر الإنسان العربيّ الواقع تحت تأثير الثنائيّة اللغويّة؟

لا شكّ أنّ الأعمال البشريّة تصدر عن قدرة موجودة داخل الفكر الإنسانيّ؛ لذا فالسؤال المتبادر هنا: ما طبيعة التفكير؟ التفكير وظيفة عمليّة متّكلة معتمدة على ما هو قارّ داخل النفس البشريّة، ثمّ إنّ الإحباطات الخارجيّة أمر يدفع الذاكرة إلى نسيان الموقف وتحويله إلى لغة صامتة. إنّ التفكير يحاول أن يغتني بتمثّل ما يمكن أن يكوّنه الكلام بشكل عامّ. وحين نقول (عامّ) نعني ما ينطبق على كلّ شيء، وهو ما نطلق عليه اسم الجوهر. فالفكر حسب اليقين الشائع، هو أن نتمثّل بصورة عامّة ما هو شموليّ، أو على الأقلّ تلك هي السمة الأساس للتفكير. وأن نتناول الكلام بالتفكير، يعني إذن: " اقتراح تمثّل جوهر الكلام، وتحديد هذا التمثّل تحديدًا كافيًا في صلته بالتمثّلات الأخرى، وفي نسبته إليها" [12].

لكن هل يمكن أن يستمرّ التفكير دون أن تكون بجانبه اللغة؟ لا شكّ أنّ التفكير لا ينقطع عن اللغة؛ فاللغة مصاحبة له، نستطيع أن نحكم على الفكر بأنّه عمل كينونيّ وإن انقطعت علاقته مع الأنشطة الخارجيّة، وهذا محسوب بفروقات زمنيّة؛ أي أنّ العكوف على ما يوجد في أذهاننا من خلال صبّ اهتمامنا على كلّ ما يحدث فيها، إنّما يكون لفترات محدودة، وبالتالي نكون قد أطّرنا الفكر نفسه بدليل يثبت أنّه مستمرّ ولن يتوقّف، والذي يساهم في نقل هذه الاهتمامات هو التفكير اللغويّ الذي صيغت عليه.

إنّ التفكير باللغة يؤدي بنا إلى التساؤل: ما الذي يحدث في أدمغتنا إن غابت المعاني والأفكار؟

إذا كان التفكير هو الفلسفة الوحيدة المعوّل عليها لحلّ المشكلات، فإنّ اللغة تعدّ استفاضة فكريّة وكمّية لبناء هذا الفكر، فكلّ ما يجري في هذا العقل من تصوّرات، مصدره اختياريّة اللغة التي جلبت الواقع الإنسانيّ. وهذا ما ذهب إليه ميرلوبونتي[13] (Maurice Merleau-Ponty)، في كتابه ظواهرية الإدراك الذي يقول فيه: " ليس الكلام إشارة للفكر، إذا فهمنا من ذلك ظاهرة تعلن أخرى كما يعلن الدخانُ النار. فالكلام والفكر لا يقبلان بهذه العلاقة الخارجيّة، إلّا إذا كانا معطيين موضوعيًّا: إنّهما في الحقيقة يغلّف واحدهما الآخر؛ فالمعنى يؤخذ من الكلام، والكلام هو الوجود الخارجيّ للمعنى" [14].

الفكر تجسّدٌ داخليّ وتجارب متراكمة، تشكّل اللغة إحدى تمثّلاته التي تكيّف مجمل الفكر في نتاجه الاجتماعيّ، بحيث يمكن تطبيقه على المعاني المجرّدة للسياقات الذهنيّة الخاصّة قبل أن تكون لغة لوصفها، فالتعابير التي نستعملها في ما نفكّر فيه من تجاربنا الذهنيّة، هي في الأصل استحضار لوصف وقع انفعاليّ خاصّ يعود بالضرورة إلى ما نشعر به، ثمّ تتطوّر الأنظمة اللغويّة، وتتفاعل، وتتوسّع المعارف بالمعاني المجرّدة المرتبطة بالكلمات والعبارات، في حين يتبوّأ التفكير عمليّة ذهنيّة يجريها العقل على الموضوع الذي يشغله، ومن ثمّ يجب أن تتشكّل الدلالة المفهوميّة بالاقتطاع من الدلالة الإيمائيّة التي هي ملازمة للكلام. " وكما في بلد أجنبيّ، نبدأ بفهم معنى الكلمات من مكانها في سياق الحركة وبالمشاركة في الحياة العامّة"[15]. وغالبًا ما يكون الفكر منظّمًا ومكرّسًا لتحقيق غايات مقصودة ومتعلّقة بالحياة الواقعيّة، وهذا ما يثير الآليّات الدماغيّة التي تولّد ملكة التخطيط الجديرة بالاهتمام عند دراسة قواعد الفكر الفيزيولوجيّة.
عودًا إلى الوجود في بلد أجنبيّ، يقوم الإنسان بتحليل العالم من حوله، ويبدأ بتقسيمه أجزاء يمكن عزل بعضها عن البعض الآخر أمام العالم الخارجيّ، ذاك العالم الذي يقدّم نفسه إلى حواسّه بصورة متواصلة ومتتابعة كأنّه سلسلة متجانسة. ولكن المهاجر الذي بات مقيمًا جديدًا، لا يمكن أن يحصّل ذلك التحليل الذهنيّ إلا بوساطة اللغة ومن خلالها، وهو حين يبدأ بإدراك عالمه الخارجيّ من خلال التصوّرات الذهنيّة، فإنّه في البداية لا يدركه متواصلًا، وكما هو في الحقيقة، بل يتلقّاه وكأنّه سلسلة من الوحدات المتمايزة التي تعبّر عنها مفردات اللغة وتراكيبها.

اهتمّ الفلاسفة وعلماء النفس قديمًا وحديثًا بمسألة طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر، هل هي علاقة التقاء أم افتراق؟ هل اللغة انعكاس لإجراء محدّد عميق الارتباط بالتفكير البشريّ؟ وفي أيّ المجالات والمستويات يكمن التفاعل بينهما؟

لا شكّ أنّ صناعة المعنى هي من أبرز المهمّات التي يقوم بها الفكر، وهذه المعاني المولّدة لا يمكن تعرّفها خارج إطار اللغة. وهذا ما عبّر عنه فتغنشتاين[16] (Wittgenstein) بقوله: " فنحن لا نعرّف الفكر في حدّ ذاته لأنّه لا وجود لفكر مجرّد، ومن ثمّ لا يوجد فكر إلّا حيثما يوجد تعبير عن الفكر. فرسم

الحدود بين ما يمكن التفكير وما لا يمكن التفكير فيه، هو في حقيقته رسم لما يمكن التعبير عنه"[17]. وهكذا من أجل أن يستبعد فتغنشتاين كلّ نزعة نفسيّة في تفسير الفكر وضمان موضوعيّته، فقد وحّد مشكلتي المعنى والفكر في مشكلة واحدة، وجعل علاقتهما باللغة علاقة واحدة، أو هي العلاقة نفسها. ومن جهة أخرى، فالقضيّة ذات المعنى التي يُردّ إليها الفكر، هي تحديدًا تلك التي ترسم واقعة ممكنة من وقائع العالَم، حيث تكمن ماهيّة اللغة في وظيفة رسم الوقائع، وهكذا فإنّ كلّ فكر لا يرتبط بالواقع بوظيفة الرسم المنطقيّ، لا يمكنه أن يكون فكرًا.

نستنتج ممّا تقدّم، أنّ ما تمتاز به المسألة ذات المعنى، هو أنّها مركّبة وفق قواعد التركيب المنطقيّ؛ أي أنّ لها صورة منطقيّة تؤهّلها لأن تكون رسمًا ممكنًا لواقعة أوّلية؛ وفي ذلك استدلال على أنّ المعاني تتطلّب عوالم من الإمكانات، لا أشياء أخرى عداها. والملاحظ أنّ الوقائع تتدرّج في ذهن المهاجر من لحظة تواجده في الوطن الجديد، أبسطها حين ينزل إلى السوق ويقابل مجموعة كبيرة من التسميات التي تخالف ما ركن في ذهنه من اصطفافات بيانيّة مسندة إلى كلّ منتج زراعيّ اعتاد أن يسمعها في بلده من أفواه الباعة، وهو وإن أدرك هذه التسميات كلّها وحلّت في ذهنه إلى جانب مقابلاتها العربيّة، لا يكون بذلك قد صنع فكرًا، ولا تعلّم لغة.

يستلزم عبور الفكر اللغويّ من فرد إلى آخر أو من جيل إلى آخر، اعتماد أدوات إجرائيّة قادرة على نقل تلك الأفكار والصيغ، وهذه الأدوات تنحصر في اللغة، ولا يقتصر مفهومها على مجرّد استعمال الكلمات والتراكيب، بل هي وسيلة للتعبير صالحة لنقل معنًى ما إلى الآخر. والقدرة على التفكير، هي التي أتاحت للإنسان أن ينشئ الحضارات، ويخوض سبل أغوار الحياة. ولكن مجرّد الرغبة في التفكير لا تكفي على رغم أهميّتها في ذاتها، إذ ينبغي أن نعرف كيف نفكّر، ولتحقيق هذه المعرفة يجب أن نبحث عن البناءات التعبيريّة وطرق الأداء التي تساعدنا على التفكير بأصالة وإبداع.

ولمّا كانت طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر قد شغلت حيّزًا واسعًا من البحوث اللغويّة النفسيّة، فإنّنا نستنتج أنّ اللغة تؤدّي المعنى الكائن في الفكر، كما يقول روسو[18] (Rousseau): " اللغات حين تغيّر في إشاراتها، تغيّر بذلك الأفكار التي تعبّر عنها. إنّ العقول تتشكّل بشكل اللغات، والأفكار تصطبغ بصبغة العبارات اللغويّة"[19]. فالمفهوم المتداول لنظرة روسو في العلاقة بين اللغة والتفكير، أنّهما مترابطان في التشكّل والتغيّر، ولا يمكن التفريق بينهما في الأداء. ويمكن الاستدلال على هذا التلازم الوجوديّ بينهما، بقول فندريس[20] (Vendryes): " اللغة والتفكير – وكلاهما مرتبط بالآخر تمام الارتباط – إنّما يترجمان عن الإنسان حين يصنّف الأشياء، ويقرّر ما بينهما من روابط" [21].

نحن إذن نستخدم اللغة بأدواتها ووسائلها وأساليبها كي نعبّر بها عمّا يدور في تفكيرنا، وذلك باستعمال مفردات أو عبارات أو جمل ذات معانٍ واصفة. فلا وجود للّغة من دون تفكير، ولا تفكير من دون لغة. فاللغة من خلال هذه الأطروحات والتحليلات، تبدو وكأنّها وعاء يحمل الفكر، وهي في الوقت نفسه تمثّل له، من دون توصيفها بأنّها معزّز للفكر، وهذا ما توصّل إليه سابير[22] (Sapir) في فرضيّته المثلى: " تحدّد اللغة نمط الفكر، فقد صيغ بناءً على مادّة لغويّة مقارنة، تظهر أنّ اللغات تختلف في عدد المصطلحات، ويستخدم الكائن البشريّ عقله في محاولة فهم العقول الأخرى؛ كي يفهم اللغات الأخرى"[23]. وهنا يبدو التداخل بين التفكير واللغة واضحًا وجليًّا.

فاللغة وفاقًا لهذا المنظور، تتيح للتفكير أن يتقدّم ويتطوّر، فهي الوساطة والأداة التي بها يعبّر الإنسان عن طبيعته البشريّة بلحاظه كائنًا متحكّمًا في لغته وفي عباراته، وقادرًا على التعبير عن خلجات وجدانه تصريحًا أو تلميحًا، بأسلوب قد يستقلّ به ويكشف عن مكنوناته، وفي هذا التوجّه تأكيد لمقولة ديكارت[24](Descartes) الشهيرة: " أنا أفكّر، إذن أنا موجود" [25].

نستخلص ممّا تقدّم، أنّ الإنسان كائن يسعى دائمًا إلى التواصل مع الآخر، وذلك بدافع ذاتيّ منه لمعرفة ما توصّل إليه حضاريًّا، ولا يستطيع ذلك ما لم يتعلّم لغة هذا الآخر، وعن طريقها بإمكانه الدخول في عالمه. وفي ذلك يقول وورف[26] (Whorf): " إنّ اللغة التي تستخدم للوظيفة الثانية، ألا وهي الاتصال الاجتماعيّ، مسيطرة على الوظيفة الداخليّة للفكر"[27].

بحسب هذه الرؤية، فإنّ الوظيفة الأولى هي كيفية تأثير اللغة في التفكير، ويتّخذ وورف هنا موقفًا متطرّفًا يقول إنّ الفكر يعتمد على اللغة، ومن ثمّ هي التي تحدّده. بالمقابل يمكن من خلال تحليل المنطوق، الإدلاء بأنّ الفكر في أحد الجوانب قد يكون وليد عمليّات إدراكيّة واعية، فكثير من التحديدات التي يصنّفها المجتمع، إنّما تتوارث عبر الأجيال المتلاحقة من خلال المفاهيم التي تصلهم متمثّلة في لغتهم الخاصّة. وبذلك تكون اللغة هي الكاشف عن جوهر الخيال، والعاكس له على مرآة الوجود، بعد أن كان حبيس العدم، ولولاها لبقيت المعاني في الذهن، ولم نتمكّن من التعبير عنها. " إنّ الصور الذهنيّة التي تنطلق من الخيال أو من الذاكرة، أو الصورة الفجائيّة التي تدخل الوعي، هي أشباح صور... فهي لا تعبّر عن شيء قبل أن يدخل فيها عنصر مهمّ هو عنصر إشاريّ ورمزيّ؛ فالإشارة شيء ضروريّ لخروج الخيال من ذاته، من العدم إلى الوجود"[28].

ثالثًا: إشكالات ترجمة الواقع والحياة

تقوم الترجمة بالنسبة إلى الحياة اليوميّة للمهاجر بدور ثنائيّ الأبعاد: لغويّ، ومعرفيّ، وهما بُعْدان مترابطان في حلقات متكاملة. فالدور اللغويّ لا تنحصر مهمّته في مقابلة مفردات غربيّة لمفردات عربيّة فحسب، بل تتعدّاه إلى التأثير في تطويع اللغة دلاليًّا وتركيبيًّا. أمّا الدور المعرفيّ، فيتمثّل في نقل المعارف ونتاج الفكر عن اللغات الأخرى. ولا تستقي الترجمة عند المهاجر أهمّيتها من كونها تعرّفه تسميات جديدة للحياة اليوميّة، وإنّما لكونها ناقلة للمفاهيم عن طريق شرح دلالات تلك التسميات، وإدراج مدلولاتها في المنظومة الفكريّة – اللغويّة عنده. فاستيعاب التسميات والتراكيب الجمليّة الجديدة، ورصفها إلى جانب مقابلاتها العربيّة، كلّ ذلك يؤدّي إلى رفد المهاجر بممارسات لغويّة كانت مغيّبة عنه؛ وإيجاد واقع فكريّ وسلوكيّ يدفعه شيئًا فشيئًا إلى التخلّي عن لغته الأمّ.

يرى سابير أنّه لا يمكن مقابلة أيّ لغة إلا ضمن ثقافة، غير أنّه يعتقد أنّ اللغات لا تتشابه في تمثيل الواقع نفسه، ويقول: " إنّ الواقع يُبنى بدرجة عالية وبطريقة غير واعية من خلال عادات الجماعة اللغويّة. ولا يمكن للغتين أن تكونا متشابهتين بما فيه الكفاية ليُقال عنهما إنّهما تمثّلان الواقع الاجتماعيّ نفسه. إنّ العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة هي عوالم متمايزة في ما بينها، وليست العالم نفسه بسمات مختلفة" [29]؛ لذا، لا ينبغي للمهاجر أن يبحث عن مقابل ثقافيّ لكلمةٍ ما في لغة أخرى، بل عليه أن يعيد بناء قيمة هذه الكلمة في أطر ثقافة اللغة الجديدة، وبناءً على ذلك، يبدو تطابق الأنظمة اللغويّة المتعدّدة أمرًا شبه مستحيل. " فاللغة ثقافة فكر وسلوك، وليست على الإطلاق جداول كلمات تتطابق دومًا مع حقائق ثابتة وموجودة، ولو كان الأمر كذلك، لاستطعنا نهج الترجمة كلمة بكلمة"[30]. ومن المسلّمات أنّ كلّ اللغات تملك أنظمة تصنّف بها الواقع، وهذه الأنظمة مختلفة في ما بينها أشدّ الاختلاف، وهي تعبّر بالتالي عن شكول متمايزة جدًّا من المعرفة المثبتة في اللغة، " والترجمة ليست فقط المرور من لغة إلى أخرى، فهو مرور من خلال عادات ثقافيّة"[31]؛ لذا فإنّ الترجمة ليست عمليّة لسانيّة فحسب، بل تؤخذ بكلّيتها في إطار مجموعة علاقات بينيّة اجتماعيّة وثقافيّة. " إنّ وظيفة الثقافة تتحقّق بكونها موجّهًا لتأويل النصّ قبل أيّ عنصر آخر، ما يعني أنّ الثقافة في الترجمة توجّه وتشكّل تأويل النصّ الأصليّ؛ أي أنّه لا يمكننا الإحاطة بموضوع الترجمة من دون المرور بالثقافة التي تحدّده"[32]. وتبرز إشكاليّة ترجمة الثقافة في النقاط الآتية:

1– حضور المفردات الثقافيّة: إنّ المفردات ذات الخصوصيّة الثقافيّة، " هي تلك الكلمات التي تشكّل وظيفتها أو دلالتها في النصّ المصدر، مشكلةً ترجميّة عند نقلها إلى اللغة الهدف، سواء تمثّل المشكل في غياب مقابل لها، أو وضعها المختلف ضمن المنظومة الثقافيّة لدى قراءة النصّ المستهدف"[33]. وممّا ورد في محاولات تعريف المفردات الثقافيّة ذات الدلالة الخاصّة ببيئتها، أنّها " المفردات التي تشير إلى مفاهيم خاصّة بثقافة معيّنة"[34]. كما أنّ " معنى (المفردات الثقافيّة) في الترجمة، يدلّ على المفردات الخاصّة بثقافة لغة معيّنة، التي لا وجود لمكافئ لها في لغة أخرى"[35].

2- صعوبة الترجمة في التثاقف (Acculturation): مصطلح (التثاقف) هو من المصطلحات الدالّة على أوجه التبادل الثقافيّ بين الحضارات البشريّة المتعدّدة، وهو اتّجاه يسعى لأن يكون وسطًا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الذوبان في ثقافة الآخر، وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال عن الآخر وعن العالم معًا. وقد " ظهر هذا المصطلح سنة 1880م على يد عالم الأنثروبولوجيا الأميركيّ جون ويزلي باول[36] (John Wesley Powell) لوصف تحوّل أنماط حياة المهاجرين وفكرهم في تماسّهم مع المجتمع الأميركيّ"[37]. ولا يعني هذا المصطلح بنشأته الأميركيّة هدم الثقافات، غير أنّ الوجه السلبيّ له غلب على فكر الكثير من الباحثين على الوجه الإيجابيّ. " ولمّا كانت المثاقفة لا تواجه في ما بين ثقافتين فحسب، بل تجعل الثقافة في صراع مع ذاتها، وتجعل اللغة بحاجة إلى تأويل وترجمة كي تعبّر عن نفسها، كانت الترجمة أداة للتثاقف"[38].

إذا كانت الترجمة هي الإجراء اللغويّ الأوّليّ الذي ينهض على أساسه الحوار العالميّ، والتبادل الحضاريّ، والتفاعل بين الثقافات؛ فإنّها تُعدّ في الوقت نفسه محطّة انطلاق لإجراء أشدّ تعقيدًا وأعمق نفاذًا في المجتمعات الإنسانيّة، وهذا الإجراء مرتبط بدرجة تقبّل معارف الثقافات الأخرى واستيعابها، وهو ما أطلِق عليه مصطلح (التثاقف).

ينتج من ذلك أنّ التعبير الثقافيّ أو المجازيّ المُراد فهمه باللغة الأمّ، لا يمكن التقاطه إلا بفعلٍ من نمط خاصّ جدًّا هو الإدراك الداخليّ له، أي عن طريق الاستبطان الذي يختلط فيه الموضوع والذات بالمعرفة. فالعودة إلى معطيات وعي المهاجر العربيّ بثقافة الآخر، تصبح عندئذٍ عمليّة صعبة ومعقّدة؛ لأنّ النظرة الوجدانيّة تعمل لأن تكون ما لا تستطيع رؤيته، والصعوبة لا تكمن فقط في هدم الحكم المُتخيّل من الخارج، ولا في محاولات وصف الثقافة بمفردات مصنوعة للتعبير عن الأشياء، بل الصعوبة أعمق من ذلك؛ لأنّ الباطن المعرَّف بالانطباع، يفلت مبدئيًّا من أيّ محاولة للتعبير، فليست فقط في إيصال أشكال الحدس الثقافيّ للآخرين، والمهاجر لا يستطيع أن يتبيّن ما يراه في اللحظة؛ لأنّ عليه أن يفكّر فيه، ويجتاز العمليّات الإدراكيّة ليصل إلى النتيجة الغائيّة.

في حديث الهويّة الثقافية للترجمة، " فإنّ موطن المعنى ليس هو النصّ المراد ترجمته، بقدر ما هو الوسط الثقافيّ الذي يستدعي الترجمة، ويعلن الحاجة إليها"[39]. وعند ترجمة كلمة أو عبارة لغويّة من درجة أعلى وتركيب أشمل، الجملة مثلًا، ربّما يتبادر إلى الذهن وصف هذه العمليّة بأنّها مجموعة من الإشارات (signs) ذات دلالة خاصّة، ولكن ما دلالة الجملة هنا؟ هل هي الحال الذهنيّة للشخص الذي يتلفّظ بها في لغته؟ أم هي أحوال لأشياء أخرى؟ أم هي قيمة حقيقيّة بذاتها؟ أم هي مجموعة الظروف التي تتيح تأسيس هذه القيمة؟ هذا ما يطرح تماسًّا يتعلّق بعلم الأنطولوجيا بعدّ الأصوات رموزًا للحالات النفسيّة التي تشكّل بدورها تمثيلات للجوهر، وتقيم الصلة مع الواقع الخارجيّ؛ لذا: " يُنظر في المقاربات الخاصّة بترجمة الثقافة على أنّها عائق"[40].

3- ترجمة مفردات الثقافة: انطلاقًا من النظر إلى اللغة على أنّها هويّة، فقد تعدّدت الهويّات في العالم بتعدّد اللغات، وكثيرًا ما تؤدّي هذه التعدّدية وما تستتبع من اختلاف ثقافيّ، إلى انعزال الأمم المتجاورة عن بعضها، لكن مع إغماض العين عن علاقة اللغة بالثقافة ما إذا كانتا جوهرًا واحدًا أو عنصرين متكاملين أو منفصلين، فإنّ الثقافة تعدّ أسًّا في عمليّة الترجمة ونقل التجارب بين الأمم، فضلًا عن وجود أهمّية متماثلة على الاختلافات في ثقافة اللغتين االمنقول منها والمنقول إليها، إلا أنّ تلك الفروقات تكشف تعقيدات أكثر نفاذًا في عمق المجتمع من التباينات اللغويّة؛ لذا لا يكفي المهاجر أن يترجم المعنى اللغويّ المباشر لأيّ مفردةٍ خارج سياقها المجتمعيّ؛ لأنّ ذلك قد يوقعه في خطأ الفهم والإدراك، فالمفردات المشبعة بالمحمولات الثقافيّة هي ذات أهميّة كبرى لا تقلّ شأنًا عن الملامح اللغويّة. وعلى ذلك، لا يمكن التعامل مع هذا النوع من المفردات بمعزل عن الثقافة والبيئة التي أنتجتها، وعمّا ترمز إليه من مفاهيم؛ أي: " لا يمكن فهم الكلمات بطريقة صحيحة إذا ما كانت منفصلة عن الظواهر الثقافيّة المتمركزة التي ترمز إليها"[41].

لعلّ من أكثر الصعوبات التي تواجه المهاجر حين يريد أن يترجم إلى لغته ليفهم المعنى، هي صعوبات ترجمة الثقافة، فالتقاليد الاجتماعيّة كاللباس والطعام، حتى المعتقدات الدينيّة في لغة المجتمع الحاضن، قد لا تكون واضحة بالنسبة إلى متلقّي الترجمة لكي يستطيع فهم الملفوظات، " يجب أن نكون أوّلًا باحثين في خصائص الشعوب"[42]. وكلّ مهاجر لا يتعمّق في خصائص المجتمع الذي يعايشه ويترجم عنه لا يعدّ متفاعلًا كاملًا، " عليه ترجمة النصّ الأجنبيّ بشكل يجعلنا لا نشعر أنّنا أمام ترجمة، بل يعطينا انطباعًا وكأنّ المعنى الأصليّ سيؤدّي الشيء نفسه في لغة الترجمة"[43]؛ لذلك فإنّه " من الصعب جدًّا فهم المفردات الثقافيّة في معزل عن الظواهر الثقافيّة التي ترمز إليها"[44].

رابعًا: الاستغراب الفكريّ والتخلّي عن اللغة

يبدو صعبًا جدًّا أن تفلت اللغة من ذهن المهاجر العربيّ الذي أمضى سنوات طويلة من عمره وهو يتعاطى العربيّة ويعبّر بمدلولاتها. ولكن ممّا لا شكّ فيه، أنّ صراع لغتين في ذهنه أمر حتميّ، خصوصًا عند الجيل التالي من أبناء المهاجرين، وهذا ما سيفضي حتمًا إلى تخلّيهم عن لغتهم الأمّ ولو بعد حين؛ وسوف تطغى لغة المهجر بثقافتها ومفرداتها حتى لا تترك في اللغة الأصيلة إلا كلمات قليلة، ربّما يورثها للجيل الثاني من الأبناء.

يظهر هذا الصراع بداية في تغيير مخارج الحروف، ومقاربة نطقها بلهجة أهل البلد، فتتسرّب بذلك أصوات اللغة الحاضنة إلى اللسان، ثمّ لا تلبث أن تفرض عليه قواعدها اللسانيّة وقوانينها البنائيّة.

فالنشاط اللغويّ – الذي هو أساس كلّ علاقة – يمكن أن يعطي معنى لكلّ ما نتحّدث أو نقوم به من أفعال لبناء حياتنا الاجتماعيّة وأنشطتنا اليوميّة، كما يمكن أن يقوّضها من الأساس، لذلك أجمعت الدراسات السوسيو – لغويّة على أنّ اللغة هي إحدى أبرز مكوّنات الهويّة، " وتتحوّل الهويّة إلى اغتراب عندما تنقسم الذات على نفسها بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون؛ فقد تكون اللغة متعدّدة في الوطن الواحد فتهدّد وحدته، وقد تمتدّ التعدّديّة اللغويّة إلى مستوى الثقافة، فتصبح التعدّدية الثقافيّة أساسًا ومقدّمة لتفتيت الأوطان"[45]، وذلك في حالات متعدّدة من العصبيّة والتطرّف.

1- مراحل الانحسار اللغويّ: يبدأ دور اللغة الأمّ بالتقلُّص في حياة المتحدّثين بها عندما تفقد اعتبارها لديهم؛ لأنّها فى نظرهم تتمركز خارج السلطة وخارج الحياة، وهى مَدْعاة للتهميش والإبعاد عن النجاح، ولا شكّ أنّ أيّ شعب يتوقّف عن استعمال لغته في الأنشطة الحيويّة ويستبدل بها لغةً أخرى، فإنّه قد دقّ أول مسمار فى نعشها، وعندما تستوعب ثقافة ما ثقافة أخرى، فهي تسلسل الأحداث التي تؤثّر في اللغة المهدّدة بالتخلّي. ويدلّنا الاستقراء على أنّ لغة الثقافة المهَيْمَن عليها تمرّ بأربع مراحل رئيسة فى رحلتها نحو الانحسار والزوال، وهذا يَنْطَبِق على كلّ اللغات في كلّ مكان:

المرحلة الأولى: تبدأ بضغط هائل على المهاجر اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا وربّما سياسيًّا أيضًا؛ لكي يتخلّى عن لغته ويتحدّث بلغة أهل البلد المهيمنة، " وربّما يكون من الأعلى إلى الأدنى في شكل حوافز أو توصيات أو قوانين مقدّمة من الحكومة أو المؤسّسات الوطنيّة، وربّما يكون من الأدنى إلى الأعلى في صور توجّهات حديثة أو مجموعات ضغط من داخل المجتمع، وقد لا يكون لها أيّ توجّه واضح، وإنّما تظهر نتيجة تعاملات وتفاعلات بين العوامل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يمكن تعرّفها بصورة جزئيّة"[46].

وقد يتَّخذ هذا النوع من الضغط أشكالًا عِدَّة منها:

أ) الحثّ والتحفيز على التحدّث باللغة المهيمنة، وإصدار توصيات بهدف تعزيز هذا التوجّه، أو فى شكل قوانين ملزمة تسنّها الحكومة أو إحدى الهيئات الوطنيّة أو القوميّة.

ب) الضغط من داخل المجتمع نفسه الممثّل في التيّارات والتوجّهات التي تنادي بضرورة الانخراط في الحياة العامّة ومن ضروراتها اللغة، " فضلًا عن التأثير الذي يمكن أن تمارسه جماعة الأقران فى هذا الشأن"[47]. فمقياس المواطنية يحدّد المواطن بأنّه " الذي يُجيد لغة أهل البلد ويتقنها"[48].

ج) الضغط غير واضح الاتّجاه أو النزعة؛ فقد يكون نتيجة لتفاعل مجموعة من العوامل المتداخلة اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، بحيث لا يمكِن تحليلها أو تفسيرها بشكلٍ واضح.

وهكذا تبدأ معالم الاحتضار؛ فتطغى مفردات اللغة المنتصرة، وتحلّ محلّ اللغة المتراجعة شيئًا فشيئًا، " وتكثر هذه الكلمات أو تقلّ تبعًا للمقاومة التي تبديها اللغة المهزومة"[49].

المرحلة الثانية: يحدث في هذه المرحلة تغيّر في مخارج الأصوات؛ فيقترب النطق بها من النطق بأصوات اللغة الجديدة تدرّجًا، حتى تصبح على صورةٍ تُطابِقُ أو تُقارِبُ الصورة التي هي عليها في اللغة المنتصرة. " وذلك بأنْ يتصرّف المغلوب تصرّف الغالب في النطق بالأصوات، فتتسرّب بذلك أصوات اللغة الغالبة إلى المغلوبة، في نُطْقِها ونبرها ومخارجها، فينطق أهل اللغة المغلوبة ألفاظهم الأصليّة، وما انتقل إلى لغتهم من كلمات دخيلة، متّخذين المخارج نفسها، والطريقة نفسها التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة"[50]. وهكذا يبدأ بروز الازدواجيّة في لسان المهاجر، ويتبنّى اللغة الجديدة بكفاءة، ولكنّه يحتفظ في البداية بلغته القديمة، ثمّ تبدأ هذه الثنائيّة بالاضمحلال السريع، وتتلاشى اللغة القديمة من لسانه مفسحة الطريق للّغة الجديدة، خصوصًا في أبناء الجيل الثاني ومَن بعدهم.

المرحلة الثالثة: تفرض فيها اللغة الغالبة قواعدها وقوانينها اللغويّة الخاصّة بالجمل والتراكيب؛ وحينئذٍ " تبدأ اللغة المنتصرة في إحلال أخيلتها واستعاراتها ومعانيها المجازيّة محلّ نظيراتها في اللغة القديمة، التي تموت شيئًا فشيئًا، وفيها يصبح الجيل الشابّ ماهرًا بصورة متزايدة في استخدام اللغة الجديدة، متميّزًا بها، ويجد لغة آبائه غير مناسبة لاحتياجاته الجديدة"[51]، وهذا في الغالب يكون مصحوبًا بفعل لاشعوريّ، بحيث يقصر تواصله بلغته الأصيلة على عائلته، ويستوي في ذلك الآباء والأبناء، فيقلّل الآباء من استخدام لغتهم التي نشأوا عليها، وعندما يكثر المواليد في المجتمع الجديد، لا يجد الكبار فرصًا لاستخدام تلك اللغة مع هؤلاء الجدد. " وهكذا خلال جيل أو أحيانًا خلال عقد من الزمان، تنزلق الثنائيّة القوميّة داخل العائلة، إلى أن تتحوّل لغةً وسطًا بين هذه وتلك بما يشبه الثنائيّة"[52]، ومن ثمّ يزداد الأثر أكثر نحو سيطرة الأحاديّة اللغويّة على الثنائيّة، وهذا الانزلاق يضع اللغة الأولى في مصافّ التراث المنسيّ.

وبمعزل عن الحوادث الكارثيّة على مستوى الهويّة اللغويّة، فإنّ التخلّي عن اللغة متدرّج ومتنوّع، مع توجّهات عامّة تؤثر في مختلف الأفراد أو القطاعات في مجتمع معيّن بطرق مختلفة، وهذا بسبب غفلة المهاجر عن أنّ لغته في خطر إلى فوات الأوان. " ويرى بعضهم أنّ الطريقة الوحيدة التي تضمن للّغة الصغيرة البقاء على قيد الحياة، هي أن يظلّ الناطقون بها في منأى عن غيرهم، وهو خيار نادر الحدوث في العصر الحاليّ"[53].

المرحلة الرابعة: يتزايد إتقان جيل الشباب للّغة الجديدة واندماجهم فيها لدرجة تجعلهم ينظرون إلى لغتهم الأولى على أنّها عاجزة حتى عن التواصل العائليّ، فلا تُناسب احتياجاتهم، ولم يعودوا قادرين على التعبير بها، وعادة ما يكون ذلك مصحوبًا بشعور باللامبالاة حيال استعمالها، سواء من جانب الآباء أو الأبناء. ويَقِلّ تدريجيًّا استخدام الآباء للغتهم القديمة فى التواصل مع أبنائهم أو حتى فى التحدُّث بها أمامهم؛ وعندما يُولَد جيل آخَر من الأبناء يجد الجيل الذى يسبقه من البالغين الراشدين، أنّ فُرص استخدام اللغة الأمّ فى التواصل مع الجيل الجديد أصبحت أقلّ، أمَّا الأُسَر التي لم تتوقّف عن استعمال اللغة القديمة، فلا تجد مَنْ تتواصل معه من الأُسَر الأخرى باللغة نفسها.

قد يؤدّي هذا الوضع إلى استخدام طبقة معيّنة من المسنّين المهاجرين للغتهم استخدامًا خاصًّا بها دون غيرها؛ ما يُسْهِم في نشوء ما يسمّى " اللهجات الأُسَرِيَّة" Family Dialects فالأبناء خارج المنزل لا يتحدَّثون إلى بعضهم إلّا باللغة الحاضنة، وعلى مدى جيل أو أكثر يدور صراع غير متكافئ داخل الأسرة بين لغة قوميّة مهاجرة تلقى صنوف الإهمال والتهميش، ولغة أخرى تفرض نفسها بكلّ سطوتها الثقافيّة وقوّتها الحضوريّة، فتنحسر الأولى أمام الثانية مفسحة لها المجال لبسط نفوذها وفَرْض هيمنتها. " وهنا تَهْوي الثنائيّة اللغويّة التي من المفترض أنّها ظاهرة صحّيّة وضرورة يستدعيها الانفتاح على الثقافات الأخرى"[54].

2- التغيّر اللغويّ بين الأجيال: تتمثّل هذه الظاهرة في تهجين أفراد الجماعة اللغويّة لغتهم المحكيّة أو المكتوبة بكلمات ومفردات تنتمي إلى اللغة الأخرى، وتتمّ هذه الظاهرة بشكلٍ واعٍ ومتعمَّد عن طريق المحاكاة، أو بشكل غير واعٍ وغير مُتعمَّد، ويعتقد مَنْ يمارسها بأنّها نوع من الاندماج في المجتمع.

حين تكون مفردات اللغة في حال تغيّر مستمرّ بين جيل الكبار وجيل الشباب، فإنّ التوصيف الرسميّ للّغة المقبلة على الزوال، يوجب معرفة سمات التغيير (إن وجدت) التي ترتبط به بصورة غير واضحة. " متى تكون بداية فقدان بنية اللغة؟ أو متى تكون بواكير بداية اختلاط اللغة؟ ومتى يحدث فيها تغيير مردّه احتكاك اللغات؟ ومتى يكون ذلك سمة للتدهور"[55]؟ قد يشمل التغيّر في اللغة أيضًا جوانبَ أخرى فونولوجيّة ونحويّة نتيجة الاقتراض من اللغات الأجنبيّة، إلّا أنّ هذا التغيير يكون محدودًا؛ لأنّه معقّد ويؤدّي إلى خلخلةٍ ما في النظام اللغويّ. وأبسط مثال لهذا التغيير، هو ظهور كلمات جديدة على لسان المهاجر العربيّ وتراجع كلمات أخرى، ومثل هذه الظاهرة قد تحدث في غضون عقود من الزمان.

يواجه اللسانيّون عادة فكرة النقاء القائلة: " إنّ التغيير اللغويّ تدهور" ، وبتطبيق ذلك على اللغة المهدّدة بالتراجع ثمّ التخلّي، تتّضح أنماط التغيّر التي تحدث أثناء تدهور هذه اللغة المهدّدة، فتكون مختلفة عن تلك التي تحدث في اللغة المضيفة القويّة، فهي مختلفة في أبعادها ومداها ونسبة استعمالها ونوعيّتها؛ فعند تراجع اللغة، تتأخّر عدّة مكونات فيها بصورة متزامنة، ويكون الأثر في أكثر من جانب من جوانب اللغة، مثلًا: قواعد مختلفة، أو حقول لغويّة أو دلاليّة مختلفة، " وتكون أحيانًا سرعة التغيير قويّة جدًّا يترتّب عليها انتقال سريع ومفاجئ مع تدخّل لغويّ محدود، في ما يسمّى تغيير كارثيّ أو جذريّ"[56].

ختامًا، لو أنّ عربيًّا في المهجر، تعمّد فقد لغته بغية التخلّص من ذاته العربيّة، فإنّه يعيش في مرحلة يمكن نعتها بالهويّة الباهتة، فعربيّته منقوصة من جهة الأفكار واللسان؛ ما يجعله يعيش وضعًا لا يتوفّر على تمثيلات عقليّة ونفسيّة تكفي لإكمال ذاته العربيّة في المهجر، ولكنّه في الوقت نفسه لا يطيق الانفكاك عن كونه عربيًّا، فالثقافة العربيّة مهاجرة معه ومحيطة به، وقادرة على إيجاد تمثّلات كافية لربطه بهويّة لغته التي يريد هو أن يهرب منها، وهذا الاندماج ظاهر جليّ في نفسه. أمّا إذا انعدمت الثقافة العربيّة تمامًا في ذهن الإنسان العربيّ الذي يعيش في المهجر، حينئذٍ يمكن القول إنّ هويّته العربيّة تلاشت أمام هويّته الجديدة التي صنعتها الثقافة التي تلقّفته تربيةً ونطقًا.

خامسًا: توصيات البحث

استنادًا إلى ما تقدّم، يمكن التقدّم بالتوصيات الآتية للحفاظ على الهويّة اللغويّة في المهجر:

1) توعية المهاجرين على ضرورة التكلّم الدائم بلغتهم الأمّ، ونقلها إلى أبنائهم عن طريق المشافهة اليوميّة، وتشجيع الأطفال على قراءة القصص بالعربيّة.

2) نشر الكتب والصحف والمجلات الثقافيّة باللغة العربيّة.

3) إنشاء جمعيّات أو أندية ثقافيّة في بلاد المهجر يكون من مهمّاتها المحافظة على الهويّة اللغويّة.

4) إقامة الندوات التثقيفيّة التي تعالج قضايا المجتمع في المهجر باللغة العربيّة.

5) التواصل الدائم بين المهاجر وأقاربه المقيمين في الوطن.

6) دعم أجهزة الحاسوب بخيارات اللغة العربية وتطبيقاتها.

هوامش البحث

1 جوناثان، كوللر؛ وأخرون. البنيوية والتفكيك مداخل نقدية. (ترجمة حسام نايل. عمّان: دار أزمة، الطبعة الأولى، 2007م). ص147.

2 جاك دريدا (1930 – 2004) Jacques Derrida : فيلسوف وناقد أدب فرنسي، هو أول من استخدم مفهوم التفكيك بمعناه الجديد في الفلسفة، وأول من وظفه فلسفيًّا بهذا الشكل. أبرز اعماله: (الكتابة والاختلاف)، و(هوامش الفلسفة). انظر: طرابيشي، جورج. معجم الفلاسفة. (بيروت: دار الطليعة، الطبعة الثالثة، 2006م). ص238

3 دريدا، جاك. استراتيجية تفكيك الميتافيزيقيا. (ترجمة عزّ الدين الخطابي، المغرب: إفريقيا الشرق، 2013م). ص5.

4 الهايدغرية نسبة إلى الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر (1889 – 1976) Martin Heidegger

5 دريدا، جاك. الكتابة والاختلاف. (ترجمة كاظم جهاد. المغرب: دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 2000م). ص58.

6 أدهم، سامي. المعتقد المهيمن. (بيروت: دار كتابات، 1999م). ص18.

7 انظر: ولد خليفة، محمد العربي. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. (الجزائر: منشورات ثالة، 2007م). ص105 – 106.

8 غوشيه، مارسيل. الدين في الديمقراطيّة. (ترجمة شفيق محسن. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، 2007م). ص113.

9 حيدر، أحمد. إعادة إنتاج الهويّة. (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1997م). ص136.

10 جبرون، محمد. انشقاق الهوية، اللغة والهوية في الوطن العربي. (بيروت: المركز العربي للأبحاث، دراسة السياسات، ط1، 2013م). ص52.

11 حنفي، حسن. "الهوية والاغتراب في الوعي العربي"، مجلة تَبَيُّن للدراسات الفكرية والثقافية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، صيف 2012م). المجلد1، العدد1، ص9.

12 هايدغر، مارتن. إنشاد المنادي. (ترجمة بسام حجار. بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1994م). ص8.

13 موريس ميرلوبونتي (1908 – 1968) Maurice Merleau-Ponty: فيلسوف فرنسي تأثر بفينومينولوجيا هوسرل وبالنظرية القشتالية التي وجهت اهتمامه نحو البحث في دور المحسوس والجسد في التجربة الإنسانية بوجه عام وفي المعرفة بوجه خاص. من أهم كتبه: بنية السلوك (1942م) وفينومينولوجيا الإدراك (1945م). انظر: طرابيشي. معجم الفلاسفة. ص658 – 660.

14 ميرلوبونتي، موريس. ظواهرية الإدراك. (ترجمة فؤاد شاهين. بيروت: المعهد العربي للإنماء). ص155.

15 ميرلوبونتي. م. ن. ص154.

16 لودفيغ فتغنشتاين (1889 – 1951) Ludwig Wittgenstein: فيلسوف نمساوي. أهمّ أعماله: كتاب (مصنف منطقي فلسفي) الذي يحتوي على مقاربة للفلسفة تنسف إمكانية التفلسف وتعيدها إلى نقطة الانطلاق وتدعو للسكوت عمّا لا ينبغي قوله. وكتاب (تحقيقات فلسفية). انظر: طرابيشي. معجم الفلاسفة. ص455 – 457.

17 حمود، جمال. فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين. (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1430هـ/ 2009م.) ص277.

18 جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (1712 - 1778): كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهمّ كتّاب عنصر التنوير، ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسيّة حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. أبرز أعماله: (العقد الاجتماعي). انظر: طرابيشي. معجم الفلاسفة. 328 - 332.

19 أورو، سيلفان؛ ديشان، جاك؛ كولوغلي، جمال. فلسفة اللغة. (ترجمة بسام بركة. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، الطبعة الأولى، 2012م). ص268.

20 جوزيف فندريس Joseph Vendryes (1845 - 1960): لغوي فرنسي، أسس مجلة (Études Celtiques).

21 فندريس، جوزيف. اللغة، (تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1370هـ/ 1950م). ص11.

22 إدوارد سابير Edward Sapir (1884 - 1939): عالم إنسانيات لغويّ أميركيّ وأحد أهمّ الشخصيات في التطور المبكر لعلم اللغويات. كان أول من أثبت أن مناهج المقارنة في علم اللغويات كانت صالحة للتطبيق على اللغات الأصلية.

23 بوردن، جلوريا؛ هاريس، كاثرين. أساسيات علم الكلام. (ترجمة محيي الدين حميدي. بيروت: دار الشرق العربي، الطبعة الأولى، 1990م). ص22.

24 رينيه ديكارت René Descartes (1596 - 1650): فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي، يلقّب بأبي الفلسفة الحديثة. أهمّ أعماله: (تأمّلات في الفلسفة الأولى)؛ و(مبادئ الفلسفة). انظر: طرابيشي. معجم الفلاسفة. ص298 - 304.

25 هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. (ترجمة أحمد الصادقي. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م). ص92.

26 بنيامين لي وورف Benjamin Lee Whorf (1897 - 1941): عالم لسانيات أميركيّ، ومهندس مكافحة الحرائق، يشتهر بتبنّيه لنظرية أن اختلاف النحو بين اللغات يجعل وفهم العالم مختلفا عند كل مجموعة لغوية، ويُعرف بأنه المؤيّد الرئيس لما أسماه مبدأ النسبية اللغوية.

27 جرين، جوديث. التفكير واللغة. (ترجمة عبد الرحيم جبر. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م). ص130.

28 أدهم، سامي. "الإبداعي الخيالي". مجلة الفكر العربي المعاصر. (بيروت: مركز الإنماء القومي، العدد 64، 1989م). ص50.

29 Mandrlbaum, D. G. The Selected Writing of Edward Sapir. Berkely, University of California Press, 1951, p162.

30 خليل، نصر الدين. "الفعل الترجمي بين الممارسة اللسانية والتلقّي". مجلّة المترجم. (العدد 1، يناير - جوان، 2001م). ص115.

31 Meschonnic, H., Poétique du traduire, Paris, Verdier, 1999, p436.

32 Brisset, Annie, En réponse à Antoine Berman, PALIMPSETES, N11, Traduire la culture, Université PARIS IIIPresse de la Sorbonne Nouvelle, 1998. p34.

33 Aixela, J. F. Culture-Specific Items in Translation. In Álvarez, R & Vidal, C. Translation, power, subversion. Cleveland/Bristol/Adelaide: Multilingual Matters. Ltd. 1996. p58.

34 Harvey, Keith.. Translating Camp Talk: Gay Identities and Cultural Transfer. In Venuti, Lawrence (ed.) The Translation Studies Reader. London and New York: Routledge, 2000, pp 446–467.

35 JAMOUSSI, Rafik, Cultural Words Revisited, Traduire la langue Traduire la culture, 2113. p109.

36 جون ويزلي باول John Wesley Powell (1834 - 1902): جيولوجي أميركي متخصص في علم الأجناس. أهم منشوراته: (استكشاف نهر كولورادو في الغرب وروافده).

37 كوش، دنيز. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. (ترجمة منير السعيداني. المنظّمة العربية للترجمة، 2007م). ص92.

38 بن عبد العالي، عبد السلام. في الترجمة. (ترجمة كمال التومي. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2006م). ص33.

39 Brisset, Annie, L'identite Culturelle de la Traductiom, En réponse à Antoine Berman. Universite Paris III, Sorbonne Nouvelle, press de la Sorbonne Nouvelle, 1998, p34.

40 Jeon, Mi-youn (2014), Functional theoretical concept and translator training, Conference Interpretation and Translation, 6 (1), pp. 179200-.

41 شريم، جوزيف ميشال. منهجية الترجمة التطبيقية. (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات مجد، 1982م). ص104.

42 Lederer, Marianne. La Traduction Aujourd'hui: le Modèle Interprétatif, Paris, Hachette, 1994. p122.

43 Berman, Antoine, La traduction et la lettre, ou l'auberge du lointain, Seuil, Paris, 1999, p35.

44 Mounin, George: Les Problèmes Théoriques de la Traduction, Paris, Gallimard, 1976. p207.

45 حنفي، حسن. "الهوية والاغتراب"، م. س. ص15.

46 كريستال، ديفيد. موت اللغة. (ترجمة فهد اللهيبي. السعودية: جامعة تبوك، 2006م). ص139.

47 Crystal, Davib, Language Death, Cambridge University Press, 2000. P78.

48 قاروني، سرور. "فهم ثقافة الاخر من خلال لغته وأهميّته في التواصل الإنساني". ورقة مقدّمة إلى المؤتمر الدولي الأوّل: الطفل بين اللغة الأمّ والتواصل مع العصر. (قطر، الدوحة، 21 - 23 فبراير/ شباط، 2007م).

49 عبد التواب، رمضان. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي. (القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1417هـ/ 1997م). ص175.

50 عبد التواب. م. ن. ص175.

51 عبد التواب. م. ن. ص175.

52 كريستال. موت اللغة. ص140.

53 كريستال. م. ن. ص154.

54 Crystal, op. cit., p79, (England, Nora C. 1998).

55 بوكوس، أحمد. مسار اللغة الأمازيغية الرهانات والاستراتيجيات. (الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، طوب بريس، 2013م). ص94.

56 Crystal, ibid. p46.

مصادر البحث ومراجعه

أولا: الكتب المنشورة باللغة العربية

1) أدهم، سامي. المعتقد المهيمن. (بيروت: دار كتابات، 1999م).
2) أورو، سيلفان؛ ديشان، جاك؛ كولوغلي، جمال. فلسفة اللغة. (ترجمة بسام بركة. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، الطبعة الأولى، 2012م).
3) بن عبد العالي، عبد السلام. في الترجمة. (ترجمة كمال التومي. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2006م).
4) بوردن، جلوريا؛ هاريس، كاثرين. أساسيات علم الكلام. (ترجمة محيي الدين حميدي. بيروت: دار الشرق العربي، الطبعة الأولى. 1990م).
5) بوكوس، أحمد. مسار اللغة الأمازيغية الرهانات والاستراتيجيات. (الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، طوب بريس، 2013م). ص94.
6) جبرون، محمد. انشقاق الهوية، اللغة والهوية في الوطن العربي. (بيروت: المركز العربي للأبحاث، دراسة السياسات، ط1، 2013م).
7) جرين، جوديث. التفكير واللغة. (ترجمة عبد الرحيم جبر. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م).
8) جوناثان، كوللر؛ وأخرون. البنيوية والتفكيك مداخل نقدية. (ترجمة حسام نايل. عمّان: دار أزمة، الطبعة الأولى، 2007م).
9) حمود، جمال. فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين. (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 1430هـ/ 2009م).
10) حيدر، أحمد. إعادة إنتاج الهويّة. (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1997م).
11) دريدا، جاك. استراتيجية تفكيك الميتافيزيقيا. (ترجمة عز الدين الخطابي، المغرب: إفريقيا الشرق، 2013م).
12) دريدا، جاك. الكتابة والاختلاف. (ترجمة كاظم جهاد. المغرب: دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 2000م).
13) شريم، جوزيف ميشال. منهجية الترجمة التطبيقية. (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات مجد، 1982م).
14) طرابيشي، جورج. معجم الفلاسفة. (بيروت: دار الطليعة، الطبعة الثالثة، 2006م).
15) عبد التواب، رمضان. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي. (القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1417هـ/ 1997م).
16) غوشيه، مارسيل. الدين في الديمقراطيّة. (ترجمة شفيق محسن. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، 2007م).
17) فندريس، جوزيف. اللغة. (تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1370هـ/ 1950م).
18) كريستال، ديفيد. موت اللغة. (ترجمة فهد اللهيبي. السعودية: جامعة تبوك، 2006م).
19) كوش، دنيز. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. (ترجمة منير السعيداني. المنظّمة العربية للترجمة، 2007م).
20) ميرلوبونتي، موريس. ظواهرية الإدراك. (ترجمة فؤاد شاهين. بيروت: المعهد العربي للإنماء).
21) هايدغر، مارتن. إنشاد المنادي. (ترجمة بسام حجار. بيروت: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1994م).
22) هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. (ترجمة أحمد الصادقي. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م).
23) ولد خليفة، محمد العربي. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. (الجزائر: منشورات ثالة، 2007م).

ثانيًا: الدوريات

1) أدهم، سامي. "الإبداعي الخيالي". مجلة الفكر العربي المعاصر. (بيروت: مركز الإنماء القومي، العدد 64، 1989م).
2) حنفي، حسن. "الهوية والاغتراب في الوعي العربي"، مجلة تَبَيُّن للدراسات الفكرية والثقافية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، صيف 2012م، المجلد1، العدد1).
3) خليل، نصر الدين. "الفعل الترجمي بين الممارسة اللسانية والتلقّي". مجلّة المترجم. (العدد 1، يناير – جوان، 2001م).

ثالثًا: المؤتمرات

1) قاروني، سرور. "فهم ثقافة الاخر من خلال لغته وأهميّته في التواصل الإنساني". ورقة مقدّمة إلى المؤتمر الدولي الأوّل: الطفل بين اللغة الأمّ والتواصل مع العصر. (قطر، الدوحة، 21 – 23 فبراير/ شباط، 2007م).

رابعًا: كتب اللغات الأجنبية

1) Aixela, J. F. Culture-Specific Items in Translation. In Álvarez, R & Vidal, C. Translation, power, subversion. Cleveland/Bristol/Adelaide: Multilingual Matters. Ltd. 1996.
2) Berman, Antoine, La traduction et la lettre, ou l'auberge du lointain, Seuil, Paris, 1999.
3) Brisset, Annie, En réponse à Antoine Berman, PALIMPSETES, N11, Traduire la culture, Université PARIS III. Presse de la Sorbonne Nouvelle, 1998.
4) Brisset, Annie, L'identite Culturelle de la Traductiom, En réponse à Antoine Berman. Universite Paris III, Sorbonne Nouvelle, press de la Sorbonne Nouvelle, 1998.
5) Crystal, Davib, Language Death, Cambridge University Press, 2000.
6) Harvey, Keith.. Translating Camp Talk: Gay Identities and Cultural Transfer. In Venuti, Lawrence (ed.) The Translation Studies Reader. London and New York: Routledge, 2000.
7) Jamoussi, Rafik, Cultural Words Revisited, Traduire la langue Traduire la culture, 2113.
8) Jeon, Mi-youn (2014), Functional theoretical concept and translator training, Conference Interpretation and Translation, 6 (1).
9) Lederer, Marianne. La Traduction Aujourd'hui: le Modèle Interprétatif, Paris, Hachette, 1994.
10) Mandrlbaum, D. G. The Selected Writing of Edward Sapir. Berkely, University of California Press, 1951.
11) Meschonnic, H., Poétique du traduire, Paris, Verdier, 1999.
12) Mounin, George: Les Problèmes Théoriques de la Traduction, Paris, Gallimard, 1976.

تجليّات ظاهرة الاغتراب في أدب المهجر اللّبنانيّ
شعراء المهجر الأفريقيّ – الأسيويّ أنموذجًا

د. درّيّة كمال فرحات
قسم اللغة العربية وآدابها
الجامعة اللبنانية

المقدمة

منذ أن بدأ الإنسان يستقرّ على وجه البسيطة وهاجس البحث عن الحياة الأفضل يلاحقه، فكان ينشد حياة جديدة ساعيًّا إلى التّخلّص من واقع غير مرغوب، أو مواجهًا الطّبيعة متغلّبًا على أخطارها، ومحافظًا على وجوده في الحياة. ومن وسائل الحماية التي لجأ إليها الابتعاد عن موضع الخطر سواء أكان من البشر أم من الطّبيعة، فاتّخذ من السّفر والتّرحال من أرض إلى أرض بحثًا عن الأمان، وطلبًا للرّزق. ولعل ابن البيئة العربيّة في شبه الجزيرة العربيّة خير مثال على ذلك، فذاقت تلك البيئة البدويّة مرارة الغربة، بحثًا عن الكلأ والماء، وتعوّد التّرحال من موضع إلى آخر، وربما في ترحاله هذا يعاني فقد الأحبة، أو يترك البقعة التي عاش فيها ردحًا من الزّمن، فنراه يصف هذا المكان متألّمًا، وبتنا نعرف ما يسمّى بالوقوف على الأطلال في التّراث العربيّ، فهذا الشّنفريّ يقول:

فـي الأرضِ مَنْـأى للكريـمِ عـنِ الأذى وفيهــا لمَــنْ خــافَ القِلَــى مُتعَــزَّلُ
لَعمْرُكَ ما بـالأرضِ ضِيقٌ على امرئٍ سَـرى راغبًـا أو راهبًـا، وهـو يَعقـلُ[1]

وهذا التّرحال جعل شعراء العرب يبكون الأطلال، والتّحسر على رحيل الأحبة من موطنهم، فعنترة يذكر الدّار قاصدًا وطن محبوبته:

هَــلْ غَــادرَ الشُّعــراءُ مــنْ مــتردّمِ أمْ هَــلْ عَرَفْــتَ الــدَّارَ بَعــدَ توّهــم
يــا دارَ عبلـــةَ بالجــواءِ تكلّمـــي وعِمـي صباحًـا دارَ عَبـلةَ واسْـلَمي[2]

أما طرفة بن العبد فيقول :

لِخَولــة َأطْــلالٌ بِبُرقَــة ثَهمَـدِ، تلـوح كباقـي الوشـم فـي ظاهـر اليـدِ[3]

وابن الرومي ينهج هذا المعنى، فيقول:

ولـــي وطـــنٌ آليــتُ ألاّ أَبيعــهُ وألاّ أَرَى غيـري لَـهُ مِـن الدّهـرِ مَالِكـا
وحبّــب أَوْطَــانَ الرّجــالِ إِلَيْهــم مَـآربُ قَضَّاهَـا الشَّبـابُ هُنَالِكَـا
إِذَا ذَكَــرُوا أَوْطَانَــهُم ذَكَرْتَهمُــو عُهُود الصّبَـا فِيهـا فَحنّـوا لِذَلِـكَا[4]

ويستمر التّرحال عبر العصور، يعبّر الشّعراء في شعرهم عن معاناتهم، ويصفون حالهم في غربتهم،

متحدّثين عن أسباب هجرتهم. فقد يهرب المرء من واقع سياسيّ أليم، لذلك يختارُ الهجرة إلى دولٍ وأماكنٍ جديدة تُساعده على تحسين مُستوى حياته وتغيير ظروف واقعه، فينتشر في هذا العالم ويعيش حياة الاغتراب، ولم يكن اللّبنانيّ بعيدًا من هذا التّرحال والهجرة والاغتراب. وترتبط الهجرة بعوامل عديدة، منها ما يرتبط بالعوامل السّياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة.

هذه الهجرة لم تتوقّف عند اللّبنانيّ على مرّ الزّمن، وقد تعدّدت وجهة المكان الذي كان مقصدًا للبنانيّ باحثًا فيها عن حياة جديدة يحقّق فيها طموحه وغاياته. ولم يكن الشّعراء بعيدين من نشدان الهجرة سعيًّا لتحقيق المراد، وقد عرف الأدب العربي ظاهرة الهجرة التي أنتجت لنا الرّابطة القلميّة وعصبة الأندلس، فبات مصطلح الأدب المهجريّ مصطلحًا نَسِم به هذه المرحلة المهمّة في الأدب العربيّ.

وتبقى المسألة المطروحة هي:

- هل اقتصرت الهجرة على تلك المرحلة؟
- ما أسباب هجرة الشّعراء؟
- ما هي الأماكن الأخرى التي قصدها الشّعراء؟
- ما طبيعة الأدب الذي نتج عنهم في بلاد الاغتراب؟
- ما هي تجليّات الاغتراب في شعرهم؟
- ما موقفهم من قضايا مجتمعهم وقضايا الأمة العربيّة؟

لهذا يهدف هذا البحث إلى دراسة الحقبة الزّمنيّة الحديثة للهجرة، وهي التي تشكّل جيل الشّعراء المهجريّين الجدد، وتحديدًا ما بعد منتصف القرن العشرين إلى بدايات القرن الحالي، وتشمل هذه الدّراسة الشّعراء اللّبنانيّين الذين قصدوا أفريقيا وآسيا، وأيضًا تشمل الذين عاشوا سنوات من الزّمن ثمّ عادوا إلى وطنهم الأمّ، فالشّاعر المهجريّ هو كلّ من ترك بلده طوعًا أو قسرًا لمدّة محدودة أو طويلة والمتعلّقة بظروف مكانيّة وزمنيّة.

ونسعى في هذه الدّراسة إلى تبيان خصائص هذا النّتاج الأدبيّ، وتبيان سمات الغربة والحنين في أدب الشّعرا، وتحديد الموضوعات التي برزت في شعرهم، والقضايا الاجتماعيّة التي تفاعلوا معها وسعوا إلى تقديم العون لبلادهم عبر طرح هذه القضايا، وإبراز تجلّيات الاغتراب في شعرهم. كما تهدف هذه الدّراسة إلى تحديد تأثير المكان على الشّعراء، وطبيعة هذه الهجرة إلى أماكن متعدّدة، وما نتج عنها من روابط أدبيّة في بلاد الاغتراب، ومنها الجامعة اللّبنانيّة الثّقافيّة.

وتعتمد هذه الدّراسة المنهج التّاريخي الذي يرصد المسار الزّمني التّاريخي لكلّ تغيّراته، ويقترن معه اعتماد المنهج التّحليلي القائم على تحليل المعطيات والمعلومات المختلفة، واستخلاص ما فيها من فائدة، كما يعتمد البحث على التّحليل النّفسيّ، وقد حرصت في دراستي للنّصوص على الكشف عن النواحي الفنيّة الوثيقة الصلة بهذه النّصوص، مع وضع كلّ شاعر في الإطار الذي عاش فيه.

الكلمات الدّالة:

الاغتراب – تجليّات– الاغتراب الأفريقي– الاسيوي – المهجريّون الجدد

أوّلًا: الهجرة في لبنان

الهجرة ظاهرة بشريّة منذ وجود الإنسان، وتتعدّد أسباب الهجرة، وترتبط بعوامل عديدة منها: السّياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ والعلميّ. وقد يرتبط عامل الهجرة بالطّبيعة البشريّة التي تبحث عن الجديد أو حبّ المغامرة والاكتشاف. وقد "تُشكّلُ الهجرة مجموعةً من الآثار على المهاجرين والدّول التي يتوجّهون لها، فتُوثِّرُ الهجرةُ على بعضِ الأفراد من خلال صعوبة تأقلُمِهم مع طبيعةِ الحياة في البلد الجديد، وخصوصًا مع ظهور الاختلافات الثّقافيّة والاجتماعيّة، وكل ذلك يساعد في الانخراط بعالم جديد والوصول إلى إبداعات قد تكون علميّة أو أدبيّة، فكم من مهاجر تألّق وأبدع في بلاد الاغترب"[5].

واللّبنانيّ فرد من أفراد هذة الإنسانيّة، انتشر في ربوع الأرض مشرّقًا ومغرّبًا باحثًا عن الجديد، ساعيًا إلى معيشة أفضل، وإذا تعدّدت أسباب الهجرة عند اللّبنانيّ، فإنّ طموحه وسعيه إلى المغامرة يعدّ من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى هجرته، واندماجه في الغربة فبات مغتربًا في بلاد الله الواسعة، واللّبنانيّون هم الذين الذينَ حَمَلوا الحَرفَ إلى العالمِ، ودأبَ الذين هاجروا إلى أصقاعِ العالمِ على مصاحبةِ الكتابِ. فهو سرٌّ يلازمُهمْ. لهذا قال حافظ ابراهيم عنهم:

ما عابَهُم أنّهُم في الأرضِ قد نُثِرُوا فالشُّهبُ مَنثُورَة مُذْ كانت الشُّهُبُ
ولَمْ يَضِرْهُمْ سُرَاءَ في مَناكِبِها فكلّ حَيّ له في الكَوْنِ مُضْطَرَبُ
رَادُوا المَناهِلَ في الدُّنْيا ولو وَجَدُوا إلى المَجَرَّة رَكبًا صاعِدًا رَكِبُوا[6]

هذا اللّبنانيّ الذي جاب العالم، فأصبحت هجرته هجرة معرفة انطلق روّادها إلى كلّ مكان، وتعدّدت هذه الهجرات واختلفت مراحلها، وقد قسّمها نديم شحادة وألبرت حوراني في كتابهما "اللّبنانيّون في العالم – قرن من الهجرة"، إلى عدّة أقسام ومراحل:

– **المرحلة الأولى:** من القرن السّابع عشر حتى منتصف القرن التّاسع عشر سافر خلالها عدد محدود من اللّبنانيّين والسّوريين الى مصر وإلى أبرز المدن التّجاريّة بين أوروبا والشّرق الأدنى.

- **المرحلـة الثّانيـة:** "مرحلـة المتصرفيّة" من منتصـف القرن التّاسـع عشر حتـى السّنوات الأولـى من القرن العشرين، سـافر خلالها عدد غير محدود الى الأميركيتين الشّماليّة والجنوبيّة على الرّغم من محاولة الامبراطوريّة العثمانيّة الحؤول دون السّفر بسبب الحاجة الى عناصر شابة تخدم في الجيش العثماني.

- **المرحلـة الثّالثـة:** مرحلة الانتداب بعد الحرب العالميّة الأولى، فقد انغلقت أبواب الولايات المتحدة وبعض البلدان الاخرى في وجوه الوافدين الجدد وانفتحت أبواب أخرى في المستعمرات الأفريقيّة التي كان يديرها البريطانيون والفرنسيّون وكانت تحتاج الى عناصر جديدة. ومعظم المهاجرين كانوا من قرى الجنوب اللّبنانيّ بعد أن ضاقت بهم محدوديّة الحالة الاقتصاديّة في جنوب لبنان ونادتهم الفرص المتاحة في البلدان الافريقية.

- **المرحلـة الرّابعة:** "اللجوء إلى دول النّفط" مع نمو الاقتصاد في دول الخليج العربي في الستينيات، واندلاع حرب لبنان عام 1975، مع هجرة الكثيرين إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة ملتحقين بأهل لهم هناك أو متّكلين على كفاءاتهم الشّخصيّة[7].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المراحل قد تكون متداخلة مع بعضها البعض، ما يؤدّي إلى تداخل خصائصها ونتائجها. وقد كان هذا الاغتراب هو الصّوت الصّارخ في المنافي كافة يبشّر بلبنان الحضارة، ويقدّم للبنان الكثير من الخدمات، فهذا الاغتراب قد أسهم في الثّراء الاقتصاديّ في لبنان، وقد قال جبران خليل جبران عن أبناء لبنان بأنهم "الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم ويعودون إليه وخيرات الأرض في أكفهم وأكاليل الغار في رؤوسهم، هم الذين يتغلّبون على محيطهم أينما كانوا، ويجتذبون القلوب إليهم أينما حلّوا وهم الذين يولودون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم"[8]. ومن أبرز ما نتج عن هذه الهجرة ظهور ما سمّي بأدب المهجر، وهو قد ارتبط بالأدب الذي أنتجه الشّعراء الذين هاجروا إلى الأمريكتين من منتصف القرن التّاسع عشر وحتّى مطلع القرن العشرين. وقد كان هذا النّتاج غنيًّا بشعرائه وأدبائه وبالجمعيّات الأدبيّة التي أنتجها وأبرزها الرّابطة القلميّة وعصبة الأندلس.

ولم يتوقّف الانتشار اللّبنانيّ عند مرحلة الهجرة إلى الأمريكتين، بل تواصلت الهجرات وتعدّدت أسبابها، ومن هذه الهجرات كانت إلى أفريقيا ودول أسيا، وخصوصًا الدّول النّفطيّة.

1- هجرة اللّبنانيّين إلى أفريقيّا

1-1 مواضع الهجرة في أفريقيا

إنّ أسباب هجرة اللّبنانيّين إلى أفريقيا لم تختلف في كثير من تفاصيلها عن أسباب هجرة اللّبنانيّين إلى المناطق الأخرى، فمن الأسباب الطّاردة من البقاء في لبنان مثل جدب الأرض والفقر وضيق الحال، إلى انتشار المجاعة، إلى الهرب من الأوضاع الأمنيّة الصّعبة بسبب الاضطهاد العثمانيّ أو الانتداب الفرنسيّ، كلّها أسباب دفعت اللّبنانيّ إلى البحث عن مكان آخر يحقّق فيه آماله وأهدافه. ولعلّ الأصداء التي جاءت من المغتربين وقدرتهم على تحسين أوضاعهم دفعت الآخرين إلى تجربة فكرة الهجرة.

وكانت أفريقيا مقصدًا لهؤلاء المهاجرين "مع نهاية القرن التّاسع عشر حوّل التّشدد في الشّروط الصّحيّة المطلوبة للدّخول إلى الولايات المتحدة الأميركية مسار الهجرة اللّبنانيّة (التي نشطت إلى العالم الجديد منذ سنة 1863)، ودفعه عن طريق مرسيليا نحو أفريقيا الغربيّة بخاصة السنغال الذي اعتبر بوابة عبور اللّبنانيّين إليها"[9]. وكان تشجيع الانتداب الفرنسيّ للهجرة إلى أفريقيا بقصد تنيمة العمل في قطاع المحاصيل الزّراعيّة، فسّهلت هذه السّلطات السّفر في مقابل استحسان اللّبنانيّين هذه الفرصة لتحسين أوضاعهم، وقد مارست السلطات الفرنسيّة أنذاك سياسة المنع والموافقة فنراها سرعان ما فرضت شروطًا مُشدّدة على الوافدين فانعكس ذلك على اللّبنانيّين، وظلّت تفرض القيود أو تلغيها وفقًا للمصلحة العليا[10]. وكان للمناطق الأفريقيّة الأخرى النّصيب المهم في هجرة اللّبنانيّين ومنها ساحل العاج.

2-1 المجلس القاريّ الأفريقيّ

ترسّخ وجود اللّبنانيّين في مناطق متعدّدة واستطاعوا أن يحققّوا النّمو الاقتصاديّ لهم ولمحبيهم في لبنان، وقد "ترك الاغتراب اللّبنانيّ بصماته المشرقة في العالم أجمع فكان المغتربون اللّبنانيّون رسل الخير إلى الشّعب كما سمّاهم حكيم أفريقيا رئيس ساحل العاج"[11]، ولم يتوقّف الأمر على البعد الاقتصاديّ، فقد بدأت فكرة إقامة نواة جامعة تحضن الجاليات المنتشرة في أفريقيا ولبنان، وتهتم بأمورهم وتحلّ مشاكلهم، فنشأت الجامعة الثّقافيّة في العالم، وقد ولد من رحم هذه الجامعة المجلس القاريّ الأفريقيّ" لتحقيق الغاية النّبيلة التي أسّست الجامعة من أجل تحقيقها، وفي مقدّمتها جمع شمل ورعاية مصالح المغتربين اللّبنانيّين، والسّهر على أمنهم واستقرارهم في البلدان المضيفة، وحثّهم على احترام القوانين والأنظمة في الدّول التي يقيمون فيها إلى جانب إقامة أمتن العلاقات مع شعوبها، وتعزيز وتمتين الرّوابط والتّواصل مع الوطن"[12]، وهكذا نشط هذا المجلس القاريّ الأفريقيّ بعقد المؤتمرات، وفي تحقيق أهدافه التي وُضع من أجلها، وفي توطيد العلاقات بين المغتربين ولبنان من الجوانب كافة وصولًا إلى الأوضاع الأمنيّة، وقد عمل رئيس المجلس القاريّ الأفريقي عباس فوّاز على تحقيق أهداف المجلس القاريّ الأفريقي والجامعة الثّقافيّة في العالم.

2- هجرة اللّبنانيّين إلى أسيا

2-1 الدّول النفطية العربيّة

حظيت الهجرة إلى الدّول العربيّة النّفطيّة باهتمام بالغ من اللّبنانيّين، فكانت الهجرة إلى هذه البلاد بعد أن "تبدلّت الصّورة الاقتصاديّة لدول الخليج مع بدء استخراج النفط"[13]، وكانت لهذه الهجرة تأثير إيجابيّ على لبنان من حيث إنعاش اقتصاده، وكان للتّحويلات النّقديّة من هذه البلاد دورها في تحسين المستوى المعيشي لأسر المهاجرين.

والكويت من أوائل دول الخليج التي قصدها اللّبنانيّون، وقد بدأت الهجرة منذ عقد العشرينيّات التي كانت نقطة بداية التواصل بين الطّرفين، وكانت هجرة اللّبنانيّ مصطفى منيب من مدينة طرابلس شمال لبنان أول مهاجر للعمل في الكويت العام 1915 في أثناء الحرب العالميّة الأولى، ويُذكر أنّه قد قصد الكويت بعد أن غادر مسقط رأسه أندونيسيا، إلى البصرة ومن ثمّ إلى الكويت[14]. وقد توالت الهجرة لاحقًا إلى الدّول الخليجيّة كلّها وكان للمغتربين هناك التأثير الإيجابيّ في فتح مسارات العمل، إضافة إلى إنشاء المنتديات الثّقافيّة والعمل على فتح المدارس والجامعات.

تواصل الانتشار اللّبنانيّ منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا، واذا كانت "الهجرة الى البلدان العربيّة والأوروبيّة والأفريقيّة قد تميزت بأنها هجرة مؤقتة، فإنّ الهجرة إلى أميركا الشّمالية والجنوبيّة قد اتخذت شكلًا آخرًا حيث اتسمت بصفة الهجرة الدّائمة"[15]، لكنّ ذلك لم يمنع من ظهور حالة اغترابيّة ولدّت الأدباء والشّعراء الذين عبّروا عن تجربتهم في الغربة، فما هي تجليّات الغربة في شعر المغتربين اللّبنانيّين إلى أفريقيا وأسيا؟

ثانيًا: تجليّات الغربة في شعر المغتربين اللّبنانيّين

كان للشّعر المهجريّ مكانة مهمّة في الأدب العربيّ، واستطاع أن يخطّ لنفسه نهجًا يميّزه، ويَسِم أدبائه، وترك ثروة من الشّعر الذي صنّفه النّقاد في أبواب محدّدة، وإذا كان هذا الأدب المهجريّ الذي كان في مرحلة سابقة قد اكتسب هذه المكانة، فإنّ دراسة شعر شعراء المهجر الجدد تفرض علينا التّنقيب فيه وتصنيفه وفق اتّجاهاته والموضوعات المتعدّدة البارزة، وربط ذلك بطبيعة البيئة الجديدة التي هاجر إليها الشّعراء.

1 مسوّغات الاغتراب

يهاجر الإنسان بحثًا عن واقع جديد هاربًا من واقعه الأليم، والشّعراء من هؤلاء المغتربين الذين اختلفت أسباب هجرتهم، وتشكّل مغادرة المكان الذي ينتمي إليه المهاجر الأزمة الأولى التي تواجه المغترب بشكل عام والشّاعر بشكل خاص، فتولّد في داخله تقديم المسوّغات التي دفعته إلى الهجرة، فتذكر الشّاعرة العامليّة زينب فواز:

شحطنا وما بالدّار نأي ولا شحط وشطّ بمن نهوى المزار ولا شطُّوا
أألحبابنا ألوت بحادثِ عهدنا حوادثُ لا عهدٌ عليها ولا شرطُ
لعَمرِكُم إنّ الزّمانَ الذي مضى يُشتّتُ جمع الشّملِ منّا لمشْتَطُّ[16]

ويتناغم الشّاعر محمد زينو شومان مع هذا الاتّجاه، فالوطن يدفع الإنسان إلى الغربة والهجرة:

أصبحت وحدي، هكذا يشقى الحمام
أصبحت وحدي ماثلًا أمام الفقر والحكام.
بئس الكلام إذًا، بئس الكلام
سنة وأحمل فاقتي وشمًا على زندي
يا غربتي وحدي يا غربتي وحدي[17]

فشومان يشقى في وطنه، بسبب الفقر والحكام، وهذا ما يشير إلى الغضب الدّاخليّ عند الشّاعر من وضع بلاده السّياسيّ، ما يدفعه إلى الهرب والهجرة، وإنّ كان ذلك سيسبب له الوحدة في غربته، ولا تتوقّف أزمة الشّاعر عند معاناته في الوطن واضطراره إلى الهجرة القسريّة، لأنّه في مقابل ذلك يواجه هجرة من نوع آخر، هجرة الجسد والرّوح، فالوطن يسكنه من الدّاخل، لكنّه يهرب منه، فيجد أنّه في صراع بين ذاته ووطنه:

وطنٌ يهاجرني ولا أجد البديل
أسألتني عن طائر الطّوفان يا وطني القتيل
أسألتني عما تلألأ من تباريحي على الزّيتون
هل هذا يمزّقني؟[18]

المعاناة مزدوجة، تتركه يواجه التّمزّق بسبب الهجرة القسريّة، وفي المقابل هو لا يجد بديلًا يغنيه عن هذا الوطن. وهذا ما ذكره الشّاعر سعيد فياض في غربته، فقد بات القلق مرافقًا له، محرومًا من صديق يؤانسه، وفي قلبه غصّة لأن هذا الوطن وقع في براثن تخلّي بنوه عنه، وعاثوا فيه فسادًا:

وآثاروا غريزة النّهب والسّلب فبزّ الصّغار فيها الكبارا
وغدا موطن النّضارة والسّلم جحيمًا ينفر الأطيارا
فانطوى الخيرون فيه على الذّعر واذكى الأشرار فيه النّارا [19]

ونتيجة لهذا الوضع المتردّي الذي واجهه الشّاعر في وطنه، ما أجبره على الاغتراب، يحمي نفسه ممّا رآه من تصرّفات أبناء وطنه، فدمروا لبنان بلد الجمال، لكنّ النّفس لم تهدأ، فبات يعاني من غربة أخرى:

غربتي غربتان يا ربّ فارح ضعف عبدٍ بك اهتدى واستجارا
غربة الجسم عن مهاد هواه في كياني مسَهّد أسماري[20]

إنّ الشّاعر يواجه غربتين، ما بين البعد المكانيّ عن الوطن، والبعد الرّوحي عنه، فهناك أسباب تدفعه إلى ترك الوطن، ومع ذلك لم يستطع أن يحصل على مراده في بلاد الاغتراب.

وتكتمل رحلة الشّعراء في تبيان أسباب غربتهم التي دفعتهم إلى هذه الهجرة، فيشير مروان قاسم نجم الدّين إلى ما واجهه لبنان من مأسٍ في العدوان عليه، ما دفعه إلى الهجرة وقلبه مكسور يتألم:

في الثّالث والثّمانين من قرن مضى
ودّعنا الثّانويّة واليم ابتدى
جاء العدو وعلى لبنان اعتدى
دخلوا بيروت، اجتاحو صيدا وصور
صار لبنان كلّه مأسور[21]

فالإشارة واضحة إلى الاجتياح الصّهيونيّ على لبنان، فبات بلدًا مأسورًا، يدفع الإنسان إلى البحث عن مكان آمن، ولعلّ هذا يتقاطع مع المهاجرين الأوائل الذين هاجروا إلى الأمريكتين هربًا من اضطهاد العثمانيين. ومن الأسباب التي تحفّز على الهجرة وأتى على ذكرها الشّعراء ما ذكره الشّاعر محمد رضا شرف الدّين في نقل حكاية المغترب بقصيدته "المهاجر":

ركب البحر باحثًا عن حياته تاركًا للخراب منبت غرسه
ليس يدري مصيره في غداته أهو يجري لغرسه أم لرمسه
عن رضاء تراه أو طيب نفس يركب الهول أو يخوض العبابا[22]

هي حكاية كلّ مغترب أراد أن يركب المجهول، بحثًا عن الأمل الذي فقده في وطنه، وسعيًا إلى حياة مختلفة، وفي هذا السّعي الدؤوب قد نراه يواجه طريقين إمّا لغرس مثمر منتج، أو إلى موت وخاتمة حياته، وما يلفت أنّ خوض هذه الحكاية هي عن طيب نفس وعن إصرار يقوده إلى مواجهة العقبات مهما كانت.

وإذا تجلّى في شعر المهاجرين الشّعراء الأسباب التي دفعتهم إلى خوض تجربة الاغتراب، فإنّنا نجد عند الشّاعر قيصر مصطفى دافعًا آخر، يحفّزه على خوض هذه التّجربة:

هجرت ولم أهاجر غير أنّي مللت أخي معاشرة الذّئاب[23]

ونتابع مع قيصر مصطفى في قصيدته ليتبين لنا أنّ هؤلاء الذّئاب ما هم إلّا الذين أساؤوا إلى الوطن فنشروا الخراب، وساهموا في نشر الفوضى، وهذا ما يجعله يعيش ما عاشه الشّاعر محمد زينو شومان، حيث يعيش انقسامًا بين البعد والقرب، البعد المكاني من الوطن والقرب الرّوحيّ منه، فتتحوّل الغربة إلى غربة أشدّ وأقسى:

وإن أجهدت نفسي في صلاح لأمرهم رموني بارتياب
فأرجع خائبًا أشكو همومي لنفسي بالأساة والإكتئاب
فإنّ النّاس جلّهم عدوّ لناصحه ويأنس بالسّباب
فلا تعجب إذا ما كنت تلقى على وجهي تقاسيم العذاب
فإنّي لا أبوح بسرّ نفسي لغير القلب أو طي الكتاب[24]

وإذا حرص الشّعراء على تبيان مسوّغات الهجرة، فإنّ الشّاعر عبد المنعم فحص يقدّم اعتذاره إلى الوطن، فالظّروف هي التي قادته إلى اتّخاذ هذا القرار:

ولقد هَجرْتُك مرغمًا يا وطني وذرفتُ دمعًا كالدّم المهراقِ[25]

هي الأحوال القاسية التي أرغمته على الهجرة، على الرّغم من تأثير ذلك عليه، وقد أورد الشّاعر كلمات ترتبط بالحقل المعجميّ للبكاء: ذرف– الدّمع– المهراق، وأحسن الشّاعر في استخدام كلمة مهراق ليدلّ على المبالغة في صبّ الدّمع، وإذا كان قد ربطه بالدّم فربما ليشير إلى الوضع الأليم، فبات الدّمع كمن تسيل دماؤه في السّاحات.

وإذا كان من تجليّات الاغتراب ذكر أسباب الهجرة وتقديم الاعتذار على ذلك، فإنّ السّفر قد يولّد أحاسيس ومشاعر متعدّدة ما بين الحنين والألم وإثارة الذّكريات، فكيف برز ذلك عند شعراء المهجر الجدد؟

2- الحنين والذّكريات

الهجرة تجعل المهاجر يقف أمام ذاته متحديًّا الظّروف التي سبّبت الغربة، ولذلك فإنّه يهاجر إلى مواطن الاغتراب حاملًا معه ذكرياته وطيف وطنه، ويخبئ في قلبه أحاسيس وذكريات، قد تربطه بما ترك، وقد تكون في جانب منها دافعًا لترسيخ فكرة الاغتراب لديه، فالشّاعر أميل جرجي رستم باز الذي نُفي إلى بر الأناضول "مع من نفاهم جمال باشا آنذاك، وكان في السّابعة عشرة من عمره، وفي هذا العمر ظهرت موهبته الشّعريّة وكانت كامنة في أعماقه"[26]، وفي منفاه يتذكّر هذا الوطن ويحنّ إلى الأيام الماضية بكلّ ما فيها:

لكِ الله يا أيامُ مضية عودي ويا نكبات الدّهر من دربها حيدي
فأبقى كبير النّفس دون تكبّر حفاظًا على تاريخ آبائي الصّيد

أَعــدلٌ أرانــي بيــن يــأس وغربــةٍ وغيـري بيـن الفـرح والـرّاح والعـودِ
فــلا عجــب أن يأســروني فطالمــا من الطّير لم يحبس سوى كلّ غريّدِ
فحتّى متى أبقى (بقبر شهرَ) مبْعدًا ومنزويًّـا فـي منزلـي غيـر مقصـودِ
غريــب لا أنــسَ ويلــوى ببلــدةٍ تُرى لغريب الدّار أوحش من بيدِ[27]

ينتقل الشّاعر في قصيدته من أشواق العودة إلى وطنه، داعيًا للنّكبات أن تبعد عنه، ومع ذلك فهو يفخر بهذا الوطن، لأنّ أبناءه هم الأسود الصّيد، ولا يغفل الشّاعر أن يفخر بأسره ونفيه فلا يؤشر إلّا كلّ طير غريّد، أي كلّ من كان صاحب مجد وعمل مثمر، وهو ينتظر أن ينتهي إبعاده لأنّه يشعر بغربة لا أنيس ولا سلوى في منفاه. معانٍ متعدّدة لكنّها ترتبط في سياق مترابط، له علاقة بالغربة والحنين والشّوق إلى الوطن، ولم تكن هذه الذّكريات القاسية التي تذكّره بظلم الأتراك عليه، تجعله ينسى الوطن، أي أنّها اتّسمت بأنّها شدّته أكثر إلى وطنه خصوصًا مع ما عاناه في غربته القسريّة.

وها هو محمد غبريس يعبّر عن ذكرياته وشوقه لوطنه في قصيدة بعنوان "لحن الكتابة"، ولم يجد إلّا لملمة الذّكريات التي اجتاحته في غربته:

هجــرتُ عيــونَ أوطانــي شــققتُ دروبَ أزمانــي
ورحْــتُ أُلملــم الذّكــرى لنفسـي بالأسـاة والإكتئـاب
دعــي حدقــاتِ أخيلــي تُعِــبُّ كــؤوس أحزانــي
دعــي قلبــي ينــزّ دمًــا إذا مــا الصّــدّ أبكانــي
لــكِ الأجفــانُ ضاحكــةٌ ولــي مــا هــدَّ بنيانــي
لكــم أبكــي ليالينــا هــي الذّكــرى بأحضانــي
حزيــنٌ أنــت يــا قلبــي ســجين بيــن نيرانــي[28]

يعيش الشّاعر غربته وهو أسير أحزانه وآلامه، لهذا كثرت في القصيدة ألفاظ دالة على البكاء والحزن، لأنّه يعيش هذه الأجواء الكئيبة في هجرته، فلم يجد إلّا الذّكريات تبعده عن هذه الأجواء التي يعيشها.

ويتّخذ الحنين عدّة أشكال عند الشّعراء، فنرى الشّاعرة زينب فوّاز التي اغتربت إلى مصر تحنّ إلى مسقط رأسها، فتتذكّر "تبنين وقلعتها" وتتذكّر "قلعة الشّقيف":

يــا أيّهــا الصّــرح إنّ الدّمــع منهمــل فهـل تعيدُ لنـا يـا دهـرُ مـن رحلـوا
أبكيــك يــا صــرحُ كالورقــاء نادبــة شـوقًا إليهـم إلـى أن ينتهـي الأجـلُ
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني إنّ الدّمـوع علـى الأوطـان تنهمـل
تبنين قد كنت في بعدي على حزن فعنـد قربـي الحشـا بالوجد يشـتعل[29]

تكررت الألفاظ الدّالة على البكاء في قصيدة الشّاعرة، فشكلّت حقلًا معجميًّا له بعده الدّلالي، ومن الملاحظ أيضًا أنّها اعتمدت النّداء وسيلة لتخرج ما في قلبها، وقد أحسنت الشّاعرة بتشبيه نفسها بالورقاء، هذه الحمامة التي تشبه النّفس، وهي تخاف أن يستمرّ شوقها الدّائم إلى مسقط رأسها بعد تركت لبنان وتنقلّت وهي يافعة بين الشّام ومصر.

ولم يقتصر شوق الشّاعرة إلى مسقط رأسها فقط، إنّما يمتدّ الحنين والشّوق إلى الرّفاق:

لو كنت تبصر حالتي أغنتك عن وصف اشتياقي
ركض الليالي إنّها قد أبعدتني عن رفاقي
ما كنتُ أنساكم ولو بلغت بي الرّوح التّراقي[30]

هذا الحنين إلى الرّفاق يكمل المشهد العام لذكرياتها، فهي لن تنسى ذكرياتها معهم في ربوع وطنها. وقد يكون مصدر الشّوق والحنين الأهل وخصوصًا الأمّ، فهذا الشّاعر مروان نجم الدّين يتحدّث عن هجرته وشوقه إلى أمّه وإلى الأحباب في الوطن:

بضع وعشرون عامًا
بعيدًا عن الأهل
حنانيك أمي
قد اشتقت إلى السّهل
إلى دعوةٍ من قلبك
المبتهلْ
إلى لمسة من كفّك
***
حنانيك يا أمّي
أنا في غربة بلا أمل
أنا في حلم لا يكتمل[31]

تمرّ السّنوات عليه مريرة في غربته، خصوصًا أنّه فقد أمّه في هذه الغربة، فيشتاق ويحنّ إلى عطايا الأمّ من دعوة أو لمسة، فهي التي قضت لياليها ساهرة على ابنها، لهذا فإنّه فقد الأمل من بعد فقدها، حتّى لو كانت هذه الغربة للعمل، ففقد الأمّ لا يعوض بكنوز الدّنيا.

ومن مظاهر الشّوق والحنين التي برزت عند شعراء المهجر أنّهم ربطوا بين مشاعر الحنين والطّبيعة، وإلى مشاهد حية في الذّهن باقية من الوطن، يقول محمد زينو شومان:

بيتي ودالية تمدّ شروشها
في القلب فاكهة الهوى
قد لوّحتها شمس غربتنا
ألم تضحك لنا تلك الهضاب
وقلبها معروق بالوجد
خافتة الحنين مدينة الشّعراء
من أين الطّريق إذا
إلى وطني

يرسم الشّاعر مشهدًا يربط بين صور قريته وطبيعتها وبين ألمه في غربته، فباتت صورة واحدة، ما يجمعها هو الحنين. وتخاطب الشّاعرة علا بدر الدّين الهزيم ينابيع بلادها التي تحنّ إليها في غربتها، فتقول:

يا ينابيع بلاد أخبرينا ... أو ما زلت تروين الحبيبا
أخبرينا يا حقول الرّابيات ... هل يوشى السّندس الحلو الحزونا
خفقة الجدول هل بحّ نداها ... أم أغانيها تثير السّامعينا
فتعالوا نتلاقى في البيادر ... نسبق الرّيح ونمضي مسرعينا
وصبايانا تنادي في حقول ... التّبغ عند الفجر تحمي القاطيفنا
وزهور النّرجس الحلو الجميل ... كفكفت عند الفجر تحمي القاطفينا[32]

تقدّم الشّاعرة مشهدًا فنيًّا يجمع بين الطّبيعة الجميلة في بلادها، وصورة الصّبايا اللواتي يذهبن إلى بيادر التّبغ، هذا التّبغ الذي يرمز إلى بيئة الشّاعرة في جنوب لبنان، فظلّت هذه الصّورة حيّة في ذهنها تحنّ إليها، وإلى الينبوع والجدول والنّرجس وإلى كلّ مظاهر الطّبيعة الخلابة في بلادها.

وانطلاقًا من تصوير المهجريّين الجدد في المهاجر الأفريقيّة والأسيويّة لمشاعر الحنين إلى الوطن، وإلى طبيعة البلاد، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى ذكر دواعي هذا الحنين، وقد يكون ذلك نابعًا من الوضع العام الذي يعيشونه في بلاد الاغتراب، فهل حقّقوا مبتغاهم؟ أم كانت الشّكوى هي السّائدة في شعرهم؟

3 الشّكوى ومعاناة المغتربين

إنّ المهاجر قد سعى إلى الخلاص من واقع مرير، ومن أحوال ضاغطة عليه، لكنّه مع وجوده في مواطن المهاجر وجد أنّه يهرب من عذاب إلى عذاب، أي أنّ الغربة لم تكن هي العزاء الذي عوّض له هجرته، وقد برزت هذه المعاني في شعر المهجريّين الجدد. ويعيش الشّاعر حالة من الضّياع، فنراها عند الشّاعرة دنيا فياض طعان المهاجرة إلى ساحل العاج، تقول:

أيّتها الرّاحلة في زمن القهر
لا تظنّي أنّك كأسراب السّنونو المهاجرة
إلى فضاء بلادك
وجناتها يومًا عائدة
لهفي عليك يا لؤلؤة
لفظتها المحارة الجائرة[33]

في هذا الخطاب الموجه إلى نفسها تعقد الشّاعرة بينها وبين طير السّنونو علاقة مشابهة، فكلاهما يهاجران موطنهما، لكنّها مع ذلك ترى أنّ السّنونو سيعود يومًا إلى موطنه، أمّا هي فقد كتب عليها القدر أن تعيش غربتها بكل ما فيها من مرارة، ونراها أيضًا تتماهى مع اللؤلؤة التي قدّر لها أن تبرز وهجها بعد أن تترك حضنها الآمن أي المحارة، وكأنّ الشّاعرة هنا توجّه لومًا مبطنًا إلى هذا الوطن الذي لم يستطع تأمين ما تحتاجه فبات جائرًا/ المحارة الجائرة، ومع ذلك فلم يكن وضعها اكثر راحة في بلاد المهجر التي تنقلّت فيها، لهذا تسرّبت الشّكوى إلى داخلها وأظهرتها في أبياتها.

وتعلن زينب فوّاز شكواها من هجرتها، وما تعانيه من ألم الفراق، فهي التي فارقت الأحبة والدّيار والرّفاق، فباتت تشكو ظلم الدّهر عليها، وتخاطب ربّها:

إلى الله اشكو جور دهر معاند   وقعت أسيرًا في يديه فجافاني
فيا قلب صبرًا لليالي وإن تشأ   فذب كمدًا ما بين خفقٍ ونيران
عسى الدّهر يرثي لي فيجمع شملنا   وينجز وعدي بعد مطل وأحزان[34]

إنّ شكوى الشّاعرة لا يتوقّف على ترك الوطن، فهي ترى أنّها وقعت أسيرة الدّهر الذي عاندها، ولكنّها تعود إلى هذا الدّهر راجية أن يجمع شملها بأحبتها، وكأنّها تداوي بالذي كان هو الدّاء. وتبرز الشّكوى عند الشّاعر أحمد محمد سعد الذي نراه يناجي حمامة كما فعل أبو فراس الحمداني في قصيدته المشهورة "أقول وقد ناحت..."، فيقول سعد:

أحمامةَ في الدّوح ما يشجيك هل   شطَّ النّوى بك أو جفاك خليل
أيقظتِ في قلبي بشجوكِ لوعة   أدمتْ فؤادي والفؤادُ عليلُ

هل أنتِ مثلي يا حمامة في الهوى تبكي الحبيب وما إليه وصول
تبكي حبيبك ما حييتُ وها أنا ما لي إلى كفّ الدّموع سبيل[35]

التّناص بارز في هذا النّصّ، فهو يتماهى مع أبي فراس الذي قضى مدّة زمنيّة طويلة في أسر الرّوم، فبات يشكو هذا السّجن، ويتذكّر الأحبة، وهنا الشّاعر أيضًا يشكو سجنه لكنّه سجن الغربة وما يعانيه في هذه الغربة، وقد تذكّر أيضًا الأحبة، لكنّ الحمامة هي نفسها التي أثارت شجون الشّاعرين.

وهذه الشّكوى التي برزت عند الشّعراء تتلاقى مع تذكّر لحظات الوداع التي آلمت المهاجرين، فما أقسى وداع الأهل، فيقول الشّاعر قيصر مصطفى:

عجبًا أعود مبعثر الخطوات
تقذفني الأزقة والشّوارع وتجرّني الأحلام
مشلولًا أخاف زمن المصارع
حذف الأسير تقوده الأسواط مرفوع اليدين
فيظلّ يسبح باكيًّا ما بين منهل المدامع
يا تلمسان..
غادرت أهلي والجروح مفتّقات
ودعتُ أهلي والعيون مقرّحات
ودّعتهم والدّمع والحسرات
تعشقها الوجوه[36]

إنّ هذا المقطع القصير هو من ديوان تلمسان الذي يُشكل قصيدة طويلة مترابطة، وما يلفت أنّنا نلاحظ فيه تواتر مفرادات يسودها جوّ قاتم الأجواء ملئ بالأسى والبكاء: تقذفني/مشلولًا/ المصارع/ السّواط/ باكيًّا/ المدامع/ مفتّقات/ مقرّحات/ ودّعت/ الدّمع/ الحسرات...، إنّ هذا المعجم الدّلالي المسيطر على النّصّ نقل لنا حالة الشّاعر الشّاكية من وضعه، وتذكّره للحظة وداع أهله والأحبة، فترسم لنا مشهدًا متكاملًا لما يعانيه المهاجر في الاغتراب، وتقدّم لنا صورة للطّريق الوعر الذي سيعيشه المهاجر.

وتودّع دنيا فيّاض طعان قريتها أنصار في جنوب لبنان، لكنّ أنصار لم تغادرها، بل ظلّت في فؤادها:

غادرتك يا أنصار وفي أجوائك تسري
بضعة من فؤادي
نشرت على رباك أجمل ذكرياتي
نقشتُ على صخورك رسوم طفولتي[37]

لحظة الوداع تظلّ باقية في ذهن المهاجر، يحملها معه مع ما يحمله من ذكريات وحكايات تعيده إلى الوطن في غربته كلّما ضاقت الحياة عليه. وهكذا حملت الشّاعرة وداع قريتها ورسوم طفولتها لتكون الزاد الذي يعينها، ومن الملاحظ أنّ الشّاعرة قد استخدمت هنا الأفعال الماضية: غادرت/نشرت/ نقشت، لأنّها ترسم صورة حدثت ومضت من حيث الزّمن، أمّا من حيث تأثير هذه اللحظة فهي باقية. أمّا محمد رضا شرف الدّين فقد حمل معه لحظة أخرى، وهي لحظة وداع أخته، فيقول:

أخيّتي ووشيك يغيب عنك عياني
ماذا أقول لدهر بالاغتراب رماني
أنا الغريب بعابي وبين نبعي وزاني
وموطني باغترابي وثمّ خمري وحاني
فيها هنا لي قلب ولي هنالك ثاني
أُخيّتي وفجيع إن ينأيا أخوان[38]

نراه في هذه الأبيات يشكو الدّهر الذّي رماه في موطن الاغتراب، وهو على وشك أن يغيب عن عيون أخته، ويشعر بلوعة الفراق والبعد عنها.

إنّ المهاجر يقف بين الشّاقوف والسّندان، فعلى الرّغم من سيطرة الحنين عليه، وشكواه من الغربة، فهو يعاني ضيق العيش، لذلك يسعى وراء رزقه في اغترابه، ومن هنا لا بدّ أنّه سيحيا حياة جديدة، وأمكنة مختلفة، يتعايش معها، ويحتك بها، وكلّ جديد يواجه الإنسان يردّ عليه بموقفين: إمّا قبولًا أو رفضًا، فيواجه أزمة جديدة، وهكذا هو المهاجر من وطنه، فقد يتكيّف مع الوطن الجديد، وقد يتأزّم وضعه، فتزداد شكوته، وهذا ما لمسناه من شكوى المهجريّين الجدد، لكن نقرأ للشّاعر قيصر مصطفى أبياته من قصيدة "ودّعتك الآن" التي يقول فيها:

أودع الآن والأشواق تلسعني كأنّني بين نيران ونيران
هذه تشدّ لأبقى وهو مضطرب وتلك ترمي به في بحر أشجاني
قلبي تمزّق من بالحبّ يلأمه وقد تباعد فهو الآن قسمان
قسم هناك وقسم صار مبتعدًا عن صنوه فهو في جنّات عدنان
ودّعتك الآن والآهات تمنعني عن الوداع وقلبي الآن قلبان[39]

فهو المهاجر إلى الجزائر، يعيش فيها، ويتأقلم معها ويحبّها، فهي وطن ليس بغريب عن هواه، وهو التّارك وطنه لأنّه ملّ من معاشرة الأشقياء[40]، ومن هنا فقد اضطربت مشاعره التي انقسمت بين نيرانين، بين الهنا والهناك، وتمزّق بين وطنين أوّلهما يشدّه إلى البقاء، والثّاني يشجيه. الشّاعر يعيش بين عواطفه لكّل من لبنان والجزائر، وإذا كان الشّاعر يعيش هذا الانقسام، فقد قام نصّه على هذه الثنائية بين أمرين ليصل في الختام إلى أنّ هذين الوطنين ما هما إلّا واحد، وما يبقى هو تأثير ذلك على نفسيّته، فبات مهاجرًا مرتين، وأصبح يعاني الحنين للاثنين:

كلاهما موطني والأرض تعشقني   في ذا وفي ذاك تحناني[41]

ونرى الموقف نفسه عند الشّاعر احمد محمد سعد المهاجر إلى أبيدجان في ساحل العاج، فنراه يجمع بين موطنه وموطن اغترابه:

أبيدجان إن كنت تسبيني فلا عجب   ففي مغانيك لي أهل وأخوان
ودعت أهلي في أمّ القرى وهنا   أهل وصحب واحباب وخلان
لبّيت داعي الهوى لما اهاب ضحى   وهل يجافي نداء القلب ولهان
أفنيت عمري في التّرحال واعجبا   لتائه دأبه بعد وهجران
يا ويح قلبي في الدّارين أزرعه   لي موطنان أبيدجان ولبنان[42]

تقاسم هذا المقطع من القصيدة حقلان معجميان أولهما الرّحيل: ودّعت/ التّرحال/تائه/هجران، وثانيهما الأحبة: أهل/ أخوان/ صحب/ أحباب/ خلان، ومن خلال هذين الحقلين يتبين أنّ الشّاعر أيضًا يعيش بين موطنين أحبهما، فما عدنا نميّز أيهما يرحل عنه، وأين يودّع الأحبّة. ويعيش أيضًا أزمة نفسيّة، فمتى ترك أحدهما حنّ إليه، إنّها أزمة المغتربين الذين يرون في موطن المهجر طيب الإقامة والأصحاب والخلان.

وإذا كانت الأحوال النّفسيّة للشّعراء المهاجرين دفعتهم إلى تبيان مسوّغات هجرتهم، وما سبّبته من حنين وشوق إلى الوطن، وما ينتج عنه من شكوى، لا بدّ أن يصل الشّعراء إلى الحديث عن الإياب والعودة إلى الوطن.

4 الدّعوة إلى الإياب

إنّ موضوع الغربة والحنين موضوع مهمّ تناوله الشّعراء المهجريّون، وكلّ صعود يقابله هبوط، لهذا يمكن أن يكون كلّ رحيل يقابله عودة، أو رغبة في العودة. يقول محمد زينو شومان:
أنا عائد كيف أنساك وفي قلبي حنين
وجراح ومواقد[43]

يجزم شومان أنّه عائد ففي قلبه يحمل مشاعر متعارضة بين الحنين والجراح، حنين إلى هذا الوطن المُهجَّر منه، ويحمل معه جراحًا آلمته في هذا الوطن، لكنّه عائد، فجاء استخدامه للأسلوب الخبري التّقريري الذي يحمل هذه المسلمة، فكان أسلوبًا خبريًّا ابتدائيًّا، ولم يلجأ إلى المؤكّدات كونه يسلّم بالعودة، ولا مجال للتّشكيك في ذلك، ويعقب هذا الأسلوب الخبري الاستفهام الاستنكاريّ، وفيه تعبير عن انفعال الشّاعر لتأزّم الحنين في قلبه. وتشارك الشّاعرة زينب فوّاز تسليم شومان بالعودة، فتقول:

حفظت لكم ما تعهدون من الهوى   ولستُ لسرّ بيننا بمضيع
وإن كتب الله السّلامة إنّني   إليكم وإن طال الزّمان رجوعي[44]

إنّها تجزم بعودتها مهما طال الزّمان، وهي قد جعلت ذلك عهدًا محفوظًا، ومهما سيطر على المغترب من تشاؤم أو شكوى فإنّ حلم الإياب والإصرار على العودة هما العزاء لما رأوه في بلاد الاغتراب.

أمّا الشّاعرة علا بدر الدين الهزيم التي دفعها زواجها من الكويتي عباس علي الهزيم إلى الانتقال بين الكويت ودبي والدّول الأوربيّة حيث يدرس أبناؤها، وحتى بعد فاته[45]، فإنّها تحنّ إلى العودة، فتقول في قصيدة لها بعنوان "أصوات من قرية النسيان":

إلى متى تئن يا نايُ
وهل يسمعك القصب
قُطعت من غابته،
ولم تزل تحنّ للرجوع
تحنّ للأصول
لغابك الذي أعطاك هذا اللحن والأنين
يا نايُ إنّ فيَّ ما فيك من الأنين والحنين
لقرية أحبّها[46]

النّصّ غنيّ متعدد الدّلالات، فهي تتماهى من النّاي الذي يحنّ دائمًا إلى جذوره، يحنّ إلى غابته، وما صوت النّاي إلّا أنينًا وحنينًا إلى هذه العودة، وهكذا هي الشّاعرة تئن كالنّاي، لهذا نراها تكرّر رغبة العودة:

هل يا ترى نعود، إليك يا بلدي
لملتقى الإخوان وفلذّة الكبد
هل يا ترى نعود، إليك يا لبنان
يا مرتع الجدود، ومربض الجنان[47]

تكثر الشّاعرة من الأساليب الإنشائيّة بين استفهام ونداء، وهذا يدلّ على تأجّج الحالة الانفعاليّة لديها، فبات حلم العودة هو المسيطر على تفكيرها، ويمتزج معه الحنين إلى كلّ ما في الوطن.

وتتنازع الشّاعر أحمد محمد سعيد أحوال مختلفة، فنراه في قصيدة يطلب العودة إلى وطنه، لأنّه رمز الإبداع والتّألق، وهو مصدر الإلهام:

عد بي إلى كوخي المشلوح فهو على صحائف الفنّ مسطور ومحفور
خذني إلى بيتي المعمور فهو على مشارف المجد مطبوع وممهور
عد بي إلى مهبط الإلهام في جبل قوامه الفنّ والإبداع والنّور[48]

إنّها أمنيات تختلط فيها أحاسيس الحنين والفخر والمجد لوطنه ولقريته معركة منبع الشّعر والفكر والمجد والعزّة، إنّها دفقات وجدانيّة تجسّد مشاعره، وتنقل اعتزازه بوطنه، لهذا نراه يُشير إلى عودته في نصّ آخر:

عدت والشّوق عائد في ركابي والهوى والحنين ملء إهابي
عدت أطوي السّحاب فوق الفيافي مفعم القلب والأماني العذاب
عدت أصبو إلى مراتع حبّي حيث أهلي وإخوتي وصحابي
إيه يا موطن الجمال سلام عابق بالعطور والأطياب
فأنا من ثراك قطرة طلّ تتلاشى من غيهب وعباب
وأنا من ثراك حلّة رمل تتناى في بلقع ويباب
من مغانيك نشوتي ونشيدي وباهليك معهدي وكتابي[49]

يقدّم الشّاعر في هذه الأبيات أسباب عودته، مع تكراره لعل العودة، فهو جزء من هذا الوطن، هو من ترابه، فكيف يمكن ألا يعود. ومن الملاحظ أنّ في هذه القصيدة تناصًا مع قصيدة إيليا أبي ماضي وقصيدته "وطن النّجوم"، فمن الواضح أنّ ما يمرّ به المهجريّون واحد ممّا يوحّد مشاعرهم، وإن انطلق كلّ منهم من تجربة ذاتيّة، فإنّ نتاجهم هو تعبير عن كلّ مهاجر، وهكذ تكون كلّ تجربة تحمل صبغتها الذّاتيّة والعامة في الوقت عينه، وربما لهذا نقرأ للشّاعر سعد موقفًا يحدّد فيه أحوال العودة، فيقول:

والفتى عاد حاملًا جعبة الكدّ والنّصب
لم يك العود أحمدًا لا شبابٌ وقد ذهب
لا كنوز ولا حِلى لا متاعٌ ولا ذهب
عاد شيخًا بعمة بلظى الشّيب تلتهب
حاملًا في يمنيه جوهر الشّعر والأدب[50]

يتحدّث الشّاعر هنا عن أحوال العودة وعن الغنائم التي عاد بها، ويرى أنّها عودة غير حميدة إذا قاسها بالمادة، لأنّه بذلك يكون قد خسر شبابه في الاغتراب، ولم يعد حاملًا الذهب والكنوز، لكنّها عودة حميدة إذا قاسها بما عاد به من شعر وأدب، ولعلّ الشّاعر هنا يرى أنّ غنيمة المغترب تكون في تفتّق موهبته الشّعريّة النّاتجة عن الغربة والحنين.

ويشدّد الشّعراء على أنّ الوطن أيضًا ينتظر عودة أبنائه الذين توزّعوا في بقاع الأرض، فهذا الشّاعر أميل جرجي رستم باز يوجّه كلامه إلى رفاقه في الاغتراب:

تعالــوا إليــه يــا رفــاق لعلّــه   بكــم يتعــزّى إن رآكــم حواليــا
يحــنّ إليكـم هـل تحنّـون أنتـم   إليـه فمـا هـذا الجفـا والتّنائيـا[51]

إنّه يوجّه صرخته إلى اللّبنانيّين المغتربين، يدعوهم إلى العودة، فلبنان يناديهم ويحنّ إليهم، فلماذا يجافونه ويبتعدون عنه، وفي هذه الدّعوة تسليم بأنّ الوطن لن يكون بخير مع ابتعاد أبنائه عنه، فلا بدّ من العودة إلى الجذور.

إنّ هذه الموضوعات المرتبطة بمسوغّات الهجرة، والحنين والشّكوى قد مثّلت الخط العام لموضوع الاغتراب، وإذا كان لها علاقة بشكل مباشر بمسألة الابتعاد عن الوطن، فإنّ التّعبير عن حبّ الوطن يعدّ موضوعًا مهمًّا، وأيضًا حبّ الدّائرة الأوسع، أي الوطن العربيّ.

5 البعدّ القوميّ وحبّ الوطن

إنّ الانتماء إلى أرض وإلى وطن يولّد عند الإنسان محبّة الوطن والفخر به، والدّعوة إلى الدّفاع عنه، وإلى تبيان ما فيه من مساوئ بغية الإصلاح، وإنّ "ارتباط المرء بقطعة أرض ولد فيها ارتباطًا يفوق ارتباطه ببقية قطع العالم الأخرى"[52]، ما يولّد الشّعور بالنّزعة الوطنيّة، وهي "أن يكون للمواطن حقّ مشروع في مجتمعات متشابهة لها هدف في مراقبة وطنها في مؤسساتها"[53]، ومن أقدر على التّعبير عن ذلك غير الشّعراء، فيعلن الشّاعر إميل جرجي رستم باز:

إذا كنــت فــي قومــي صغيــرًا فإنّنــي   بحــبّ بــلادي لا أعــدّ صغيــرًا[54]

إعلان واضح وصريح من الشّاعر بأنّه يكبر في حبّ وطنه، فهو الذي يمنحه العزّة والمجد. وهذا الحبّ للوطن يحفّز المرء إلى الفخر بوطنه، والاعتزاز بجماله، يقول الشّاعر أحمد محمد سعد:

لبنــان يــا نجــو الفــؤاد وطلعــة   الصّبــح السّــنيّ بنــوره وصفائــه
لبنــان يــا لحــن الجمــال وبهجــة   الــورد النّــديّ بعطــره وطلّائــه
يــا لوحــة الفنــان أبــدع صنعهــا   لمــا زهــت مــن قلبــه ودمائــه[55]

أبيات تعبّر عن إحساس وجدانيّ ويجسّد بعدًا وطنيًّا مفاخرًا بوطن الجمال والبهاء، فأصبح أبدع لوحة على وجه الأرض، وهي من صنع الخالق الذي أعطى لبنان الجمال:

رســم الإلــه جمالــه فتألّقــت   آياتــه فــي أرضــه وســمائه[56]

يمنح الشّاعر جمال وطنه بعدًا مقدّسًا فهو إبداع إلهي. ومن هنا يتولّد أيضًا الفخر بأبناء الوطن الذين بنوا مجده، وبمفكّريه وأدبائه:

من حمى الأحرار من أرض الفداء أجمل الألحان شدوًا وحداء
قادم من عاملَ من جبلٍ مهبط العلم ومهد الشّعراء
من ذرى عاملة من فتية رفعت للعرب أعلام الوفاء
قدّمت للمجد أزكى أنفس جعلتها فدية يوم الفداء[57]

ويتوافق الشّاعر عبد المنعم فحص مع الشّاعر سعد في تمجيد لبنان، وفي الإعجاب بسحر بلاده وجماله، وبروعة طبيعته، وبأهله:

للطّير والنّاي أسجاع وألحان شجيّة خصّها بالسّحر لبنان
وفي السّفوح شحارير يرقّصها في مطلع الفجر وزّال وريحان
وخالد الأرز منشور على قننٍ كأنّه في جنان الخلد تيجان
ذي ربّة الشّعر فوق الأرز يحملها عرش الجمال ولحظ السّحر وسنان
فأهله إن تلقوا الضّيف كلّهم بالبشر واللّطف والتّرحاب رضوان
وكلّ من ساحَ في لبنان مغتبط مرنّحٌ مرحُ الأعطاف جذلان[58]

صورة متكاملة عن لبنان بجماله وطيب أخلاق بنيه، وقدرتهم على حسن لقاء القادم إليه، فهو بلد سياحيّ جميل يجذب السّيّاح إليه. إنّها الصّورة المثاليّة التي تعوّد الجميع أن يسمَ بها لبنان، الصّورة الجميلة البهيّة التي تنقل الواقع من ظاهره، ومع ذلك فلم يمنع ذلك الشّاعر فحص في الإشارة إلى ما يعانيه وطنه الحبيب، ومن إبراز بعض هنّاته:

وطني متى تتوّحد الأحزاب ويصونك الوزراء والنّواب
ومتى ينال الشّعب بعض حقوقه فالحاكمون أراقم وذئاب
كم بين قولك نائب متعفف بعطي وقولك نائب سلّاب[59]

إنّ محبّة الشّاعر لوطنه دفعته أن يدعو أبناءه إلى الوحدة على الرّغم من تعدّد أحزابه، ويوجّه لومًا قاسيًّا لنوابه ووزرائه طالبًا منهم إعطاء الشّعب حقوقه، واللافت أنّ هذه القصيدة قد ألقاها الشّاعر "في السّنغال ضمن حفلة على شرف النّائب اللّبنانيّ أنذاك رشيد بيضون اقيمت في دار السّفارة اللّبنانيّة دكار سنة 1948" [60]، وكأنّ لبنان بوضعه السّياسيّ يعاني ما يعانيه منذ سنوات، ولم يتغيّر فيه الحال.

وانطلاقًا من حبّ الشّاعر فحص لوطنه، يعبّر عن انتمائه الكبير إلى وطنه الكبير، أي الانتماء إلى الوطن العربيّ والفخر بعروبته:

يا مدّعي حبّ العروبة اخرسوا كم مدعٍ هو خائن كذّاب
العروبة في فلسطين له تجري الدّماء وتنشر الألباب
واليعربيّ شعاره يوم الدّنى الموت شهد والحياة سراب
ينقضّ فوق بني اليهود كأنّما ينقضّ كم كبد السّماء عقاب[61]

إنّ الانتماء إلى الوطن الصّغير قد يتّسع ويشمل الوطن الأكبر الذي يتكوّن من وطنيّات عديدة أو دول تربط بينها عوامل مشتركة، ما يتولّد عنه مفهوم القوميّة التي تعني اصطلاحًا مجموعة أشخاص متيقظين اتّحدوا بروابط تاريخيّة، وعرقيّة وثقافيّة، ولغويّة، ودينيّة، وتعيش على أرض أو آراضٍ ما[62]. وهذا ما عبّر عنه الشّاعر، فيعلن شعاره الدّائم وهو الدّفاع عن القضية الجوهريّة أي قضية فلسطين، مهمّا تطلّب ذلك من بذل الدّماء، إنّ ابتعاد الشّاعر مكانيًّا عن وطنه وأمّته لم ينسه قضيته وأزمة أوطانه.

وقد تكرّر هذا الانتماء والتّعبير عن قضية فلسطين، عند كثير من شعراء المهجر الأفريقيّ والأسيويّ، فهذا الشّاعر إبراهيم حاوي المهاجر من الشّوف إلى السّنغال يلبّي نداء فلسطين:

ألف لبيك يا فلسطين إنّا عند بذل الأرواح لا نتردد
عاث صهيون في البلاد فسادًا وغزا أرضنا وفيها تمرّد[63]

يعلن الشّاعر هذه المشاعر الثّائرة بعد اغتصاب فلسطين من العدو الصّهيونيّ، فتثير في نفسه الحميّة لحماية هذه الأرض المقدسّة، ورفض هذا الكيان الجديد، وهو يدعو إلى بذل الغالي والنّفيس من أجلها، وقد ارتفعت هذه الدّعوة لأنّ لفلسطين رمز القداسة كما تقول علا بدر الدّين غانم:

ففلسطين الأبيّة سوف تبقى في العلاء
إنّها أرض النّبوة ومثاوي الشّهداء[64]

وقد تفاعل الشّعراء في مهاجرهم مع فلسطين وانتفاضتها ومقاومتها لهذا المغتصب، فكان الحديث عن كلّ أزمة تعيشها، وعن الاعتداءات الدّائمة على أرضها، فيوجّه الشّاعر محمد غبريس تحيّته إلى غزة المغتصبة، فيقول:

لغزّة قامة ضوء وعينان قدسيتان
لغزّة طفل يغطّي السّماء
ويفرش أهدابه ف طريق السّنونو

لغزّة زيتونتان معلّقتان
برسم الطّفولة والكبرياء
تسافر أغصانها في عميق الولادة
تثمر غيمًا وحنجرة للحقول[65]

إنّ غزّة في نظر الشّاعر رمز النّضال والصّمود والبقاء، ويربط ذلك بشجرة الزّيتونة المباركة التي تحوّلت إلى مدلول على الصّمود والبقاء، فهي قديمة راسخة في الأرض، تعطي الثّمر المبارك، وهكذا هي أرض غزّة/ فلسطين، إنّها راسخة وباقيّة في وجدان أبنائها يطالبون بعودتها لهم وعودتهم إليها مهما طال الزّمن. وهذه الحتميّة تشير إلى الطّريق الواجب اتّباعها للوصول إلى هذا المراد، لهذا لا بدّ من شدّ الهمّة لنستطيع طرد العدو، ولن يكون ذلك إلا عملًا جماعيًّا، فاسترجاع فلسطين ليس وقفًا على أبنائها، إنّما هو واجب مقدّس إلى كلّ منتمٍ إلى هذه الأمّة، وهذا المعاني كانت مشتركة عند أغلب شعراء المهجر، فلم يكن قرارًا فرديًّا أو خاصًّا.

والعودة تتطلّب بذل الدّماء والمقاومة، والتّضحية بالرّوح، ومهما بلغت التّضحيات، فلا بدّ من متابعة المسيرة لتحقيق العودة، ومن أقسى ما يمكن أن نقدّمه من تضحيات هو فقد الأبناء أمام أعين الآباء، لهذا تفاعل الشّعراء مع استشهاد الطّفل محمد الدّرة أمام ناظريّ والده، فيتأثر أكرم محمد الحلبي بهذا المشهد المأساوي، فيقول:

على أرض الجليل دمٌ يسيل ... ويغسل ما يدنّسه الدّخيل
ودرّةُ قد تعمّد فيه طهرًا ... وخاض به إلى العلياء جيل
ينازعه بحضن أبي شوق ... يكابده ويعجزه الدّليل
فأنت الطّفل يكبرنا اعتبارًا ... ويصغر دونك القدر الجليل[66]

ويؤلمه أن يكون هناك من يتصرّف بتخاذل مع هذه التّضحيّات، ويرون أنّ إعادة فلسطين بالتّباهي والعراضات الفارغة:

أيا أقصى فما أقسى هوانا ... ونحوك يرقص الطّرف الخجول
فهل أغناك يا قدس التّباهي ... وهل ردّتك يا أقصى الطّبول[67]

وإذا كانت قضية فلسطين هي قاسم مشترك بين الشّعراء، فإنّ قضايا الوطن العربيّ شغلت بالهم أيضًا، فنرى الشّاعر سعيد فياض يؤمن بعروبته ويعتزّ بالانتساب إليها:

قالوا انتسب، قلت العروبة أمّتي ... ورحابها وطني ثرى وفضاء
أمّتي هي موطني هي غايتي ... مهما تَبِنْ أو تقرب الأجزاء

عـــودوا إلـــى تاريـــخ عِـــزّ زاخـــر   يـــوم انتمـــت لجدودنـــا العليـــاء
فإلـــى متـــى تغريـــك فرقـــة إخـــوةٍ   وإلام تستشـــري بـــك الدّهمـــاء
ومتـــى تعـــود إلـــى النّهـــى فيقودنـــا   الإيمـــان حيـــث العـــزّ والنّعمـــاء[68]

يرتسم محور التّعارض في النّصّ الاعتزاز والفخر/ اللوم والعتاب، فتتبين حركة الدّلالة بفخر الشّاعر بهذه الأمّة وانتسابه إليها، فهي الغاية والمقصد، لكن لا يعني ذلك أن يقف صامتًاعندما تحيد عن الطّريق الصّحيح، فيخاطبها ناصحًا ومرشدًا إياها، لا بدّ من أخذ العبرة من مجد تاريخنا، والتّخلّص من هذا التّمزّق والتشرذم الذي تعيشه، وأن توصل إلى القيادة من هم على قدر المسؤولية القادرين على مواجهة الخطوب والمؤامرات التي تحاك لهذه الأمّة، يقول الشاعر سعيد محمد عبد الصّمد:

لـــولا الأجانـــب مـــا صرنـــا لتفرقـــة   هـــم فرّقونـــا بقصـــد كـــي يســـودونا
إيـــه بنـــي العـــرب لا هـــدّت لكـــم همـــم   ضحّـــوا بأرواحكـــم نبلـــغ أمانينـــا[69]

يعقد الشّاعر مقاربة بين الفرقة والسّيادة، فمتى وقع بنو العرب في شرك التّفرقة الذي حاكه لنا الغرباء، فإنّهم قادرون على سيادتنا والسّيطرة علينا.

ومن المواقف الجامعة أيضًا عند الشّعراء تمجيد شخصية جمال عبد النّاصر، هذه الشّخصيّة التي استطاعت أن تحقّق معنى العروبة عند المنتسبين إليها، فأكثر الشّعراء المهجريّون من رصد انجازات عبدالنّاصر بدءًا من إعلان ثورة 1952:

ســـرْ يـــا جمـــال إلـــى الأمـــام   وقُـــدِ الشّـــعوب إلـــى السّـــلام
ســـرْ يـــا مظفَّـــرُ بالشّـــعوب   إلـــى الأمـــام إلـــى الأمـــام
يـــا قائـــد الحـــقّ المنـــوّرِ   فـــي دياجيـــر الظّـــلام[70]

فيخاطب إبراهيم حاوي عبد النّاصر ويطلب منه أن يكمل مسيرته، ليقود هذه الشّعوب، فهو من حقّق النّصر، ومن الملاحظ تكرار كلمة (إلى الأمام)، فهي تؤكّد أنّ تحقيق نتائج الثّورة بيد القائد الذي اتّسم بالنّور في مقابل دياجيير الظّالمين. أمّا عبد المنعم فحص فيفخر بشهر يوليو، الشّهر الذي قامت به ثورة 1952:

ذا شـــهر يوليـــو خلّدتـــه ثـــورة   فبيـــارق تعلـــو وفجـــر يبســـم
ســـلبت فلســـطين وليـــس تردهـــا   إلّا حـــروب بالجماجـــم تضـــرم[71]

ويرى أنّ هذا الشّهر أصبح خالدًا مع هذه الثّورة، ويكرّر المعاني التي ذكرها شعراء المهجر وما له علاقة بفلسطين، ويتابع الشّاعر بذكر إنجازات عبد النّاصر، فيتحدّث عن بناء السّدّ العالي:

كنــز البــلاد وعزّهــا ونعيمهــا (وجمــال) بهجتهــا مــدى الأزمــان
ســدّ ترامــى البحــر فــي أنفاقــه فالبحــر أمســى اليــوم فــي خــزّان
يســقي بــه البيــد الظّمــاء فترتــوي ويفيــض فــوق مناكــب الكثبــان[72]

ومن الملاحظ تواتر الألفاظ: عزّ/ نعيم/ بهجة/ خزّان/ يسقي الظّماء/ ترتوي/ يفيض، التي شكّلت حقلًا دلاليًّا يعبّر عن الخير والنّعيم الذي ساد مع بناء السّد، ومن اللافت استخدام الشّاعر لكلمة البيد، ليدلّ على عظمة السّدّ في قدرته على مدّ الصّحراء بالمياه، هذه الصّحراء التي قضى العرب قديمًا أيامهم في حروب ومعارك بحثًا عن الكلأ والماء، ومن هنا تبرز أهمية ما قام به عبد النّاصر فهو بذلك قد قلب المقاييس.

وكان لشعراء المهجر في أفريقيا وأسيا مشاركة لهموم الدّول العربية الأخرى، وتمجيدًا لثورات البلاد، فيقول إبراهيم حاوي مادحًا الجزائر:

أمعلمــي الدّنيــا البطولــة ومخططــي سنن الرّجولــة
أســد الجزائــر أو مــلا ئكهــا المســوّمة المهولــة
تــالله يومًــا لــم تُخيــب أمّــة منهــا جميلــة
ولأمــة منهــا ابــن بلــلا فــي مفاخرهــا الأصيلــة[73]

فهذا البلد بثورته، ومواجهته للاستعمار الفرنسيّ، وبتضحيته بمليون شهيد استطاع أن يعلّم الدّنيا البطولة، فأبناؤه أسد، ويُشير إلى بطلة الجزائر جميلة بوحيرد، وإلى زعيمها أحمد بن بللا.

حفلت قصائد الشّعراء في أفريقيا وأسيا بقضايا أمّتهم، ولم يكونوا بعيدين من همومها وأمجادها، على الرّغم من بعدهم المكانيّ في أغلب الأحيان عن أمّتهم، وقد اختلط حبّ وطنهم لبنان بحبّ أمّتهم. ويتبادر إلى الذّهن هل توسّع الشعراء المهجريّون الجدد في الحديث عن قضايا إصلاحيّة وإنسانيّة؟

6 البعد الاجتماعيّ الإصلاحي

إنّ الاصلاح الاجتماعي يعني التّغيير إلى الأحسن، والسّعي إلى تقدّم المجتمع وتحديثه، وإذا اهتمّ علم الاجتماع بدراسة القضايا من زاوية موضوعيّة، فإن الأدباء الأجدر في الخوض بالقضايا الاجتماعيّة والدعوة إلى إصلاح المجتمع من خلال تحديد المشكلة في المجتمع، وطرح عللها وأسبابها، مع محاولة تقديم بعض الحلول، وإذا كان على عالم الاجتماع اتّباع الموضوعيّة في عرض المشكلة الاجتماعيّة وحلّها، فإن الأديب ينطلق من بعده الذّاتيّ، ومن وجهة نظره. ومن الطّبيعيّ أنّه كلما توسّعت تجربة الأديب كان قادرًا على كشف المستور، وشعراء المهجر كان لهم المجال واسعًا في تعرّف مجتمعات عديدة، ما يمنحهم تجربة مختلفة.

ومن الموضوعات التي أثارها الشّعراء ما له علاقة بالمال، فيعرض سعيد فياض لمسألة الطّمع وتأثيره على المجتمع، فيقول في قصيدة بعنوان "جشع":

يا كانز المال مهلًا وخف عليه الحسابا
لا تحسب المال درعًا يردّ عند العقابا
كم استبحت حرامًا وكم سلكت معابا
ماذا يفيدك مال ما كان للبر بابا
وليس ما جمعته يداك إلّا تبابا
وعندما تتناهى إلى التّراب مآبا
سيُنهب المال إرثًا وأنت تصلى العذابا[74]

هي دعوة صارخة من الشّاعر إلى كلّ من يكنز المال، وقد قام النّصّ على عرض موقفين متعارضين، أحدهما بارز في النّصّ، يبرز من خلاله حالة من يجمع المال، والآخر خفيّ يستنتجه المتلقي من تجربة ما يحدث لكانز المال، ولعلّ الدّعوة الإصلاحيّة تستدعي ذلك، فهذا النّصّ دعوة تهذيبيّة لأفراد المجتمع ومحاولة لتغيير النّفوس. وتبرز الدّعوة الإصلاحيّة عند عبد المنعم فحص، من خلال عرض قضية اجتماعيّة يواجهها الكثير من النّاس، وهي تعرض لموقف من يتستر باسم الدّين، ويرتكب الأخطاء:

قل لمن حجّ ولمّا يهتدِ ليته من حجّه لم يعُدِ
حجّة قد خدع النّاس بها فهو شرّ النّاس في ذا البلد
زاد في النّصب وفي النّهب ولم يتقِ الله ولم يسترشدِ
لو رأى فوق كنيفٍ درهمًا لهوى في همّة المستشهدِ
أو رأى في فم كلب عظمةً قتل الكلب بسيفِ الحسدِ
وغدًا يفنى ويفنى ماله ما الذي ياخذ منه في غدِ[75]

عرض الشّاعر لقضايا عديدة في نصّه هذا، فنراه يعرض لنماذج بشريّة ترى في أدائها لمناسك الحج ذريعة ليزداد طمعها، فتعتمد على اكتساب ثقة النّاس من خلال الدّين، والشّاعر يرى في ذلك خداعًا وزيفًا، ليختم النّص بالفكرة التي طرحها الشّاعر فيّاض من خروج الإنسان من هذه الدّنيا خاوي الوفاض، لا مال ينفعه ولا يقيه.

أمّا الشّاعر محمد عباس أبو شقرا، فيقدّم نقدًا اجتماعيًّا لإصلاح المجتمع، من خلال رفضه الاكتفاء بإصدار الشّرائع والقوانين من دون تطبيقها:

كم ينسجون شرائعًا أو ينسخون بلا وجوب
ويظلّ تنفيذ النّصوص مجمدا أو في رسوب
ناهيك عمّا للمفا سد في الزّوايا من جيوب[76]

ترتبط هذه النّظرة النّقديّة المهمّة بواقع الحال الذي نعيشه، فكم من قوانين صدرت، وكم من شرائع أُعلنت، لكنّها تبقى حبرًا على ورق طالما أنّها غير منفّذة، فتفقد قيمتها وحيثياتها، ويُشير الشّاعر إلى أسباب ذلك في البيت الثالث، ويرى أنّ السّبب في سوء استغلال المال وتقديم الرّشاوى، وبذلك إشارة إلى أكثر من قضية اجتماعيّة فمن عدم تطبيق القوانين إلى الفساد والرّشوة، وإلى غياب الضّمير عند النّاس. ونراه في قصيدة أخرى ينتقد قانون حماية الأطفال في لبنان، فيقول:

الطّفل والقانون في لبنان سيان في ضعف وفي سلطان
هذا رضيع في حضانة أمّه ترعاه فيما ذاك في الأكفان
فكلاهما لا ظفر يسعفه ولا ناب، ولا يعتدّ بالأسنان
في عالم ساد النّزاع دموعه والحقّ للأقوى على الأقران
العدل مرتبط بعهدة ضامن والضّامن المفجوع دون ضمان[77]

تواترت الكلمات القانون/ سلطان/ ظفر/ النّزاع/ الحقّ/ الأقوى/العدل/ الضّامن، وهي تشكّل في بعدها الدّلالي صورة متكاملة لواقع الحال الذي حرم الطّفل من حقّوقه، وبتنا نعيش في عالم البقاء فيه للأقوى، وينعى العدل الذي لا ضامن له، وهو بذلك يشير إلى شراسة هذا المجتمع الفاسد.

ولعلّ أهم قضية تواجه المجتمعات هي قضية العنصريّة والعبوديّة، ومن الطّبيعيّ أن يكون لشعراء المهجر الباع في عرض هذه القضية، خصوصًا بعدَ هجرتهم إلى أصقاع مختلفة وخصوصًا أفريقيا القارة التي غزاها المستعمر واستعبد بنيها. ومن وحي ذلك يصف الشّاعر سعيد فياض في قصيدة له بعنوان "أحرار لا عبيد" الظّلم الواقع على هذه الفئة، فيقول:

سموا عبيدًا لأن اللّيل شاركهم في صمته فاستزادوا الصّمت ألوانًا
والشّمس من وهجها زادتهم عبقًا فبادلوها العطا بالحبّ إدمانا
فبادلوها العطا بالحبّ إدمانا ترعى المودة أسرارًا وإعلانا
ما فرّقوا بين ذي أرض ومغترب وعايشوا الكلّ أصحابا وإخوانا [78]

ويطيل الشّاعر في قصيدته هذه من تعداد مزايا من يقال عنهم إنّهم عبيد، معتمدًا على التضاد بين الأبيض والأسود، ليقدّم جمالية تمتعهم بهذا اللون، ولينفي عنهم سواد القلب، أضف إلى ذلك أنّه لا يغفل مساوئ مستعمرهم:

لكنّ مستعمرهم بالغوا جشعًا   وأرهقوهم مذلات وخذلانا
لا تعذلوهم إذا ثاروا على عنتٍ   وفجروا من جمار الذّلّ بركانا
مستبشرين ولو أتوا له ضرمًا   ما دام يجعل صرح الظّلم قيعانا[79]

هي قضية جوهريّة، عالجها الكثير من الشّعراء، وعانى منها البعض، فحكاية الشّاعر الجاهليّ عنترة بن شداد حكاية يعرفها الجميع، وقد ظلّت هذه العنصرية على مدى عصور، وعانت أفريقيا من ظلم المستعمر لها، فتحمّلت أقسى ألوان العذاب، لذلك يقدّم الشّاعر المسوّغ لأبناء هذه القارة في الثّورة والاحتجاج.

ومع أهمية هذا الموضوع نرى أنّ البعض قد عالجها من زاويته ومن رؤيته الخاصّة الضّيقة، وهذا ما فعله الشّاعر محمد يوسف مقلد المهاجر إلى السّنغال، فنراه يقدّم صورة مغايرة، تنطلق من سخطه وغضبه على السّنغاليين:

حياتي في أفريقيا كيف تلطف   وفيها من الحالات ما ليس يوصف
أيا بيئة منكودة الحظّ ما بها   عشيرٌ يُرقى أو حياة تُشرّف
صحبت قرين السّوء السّوء لا عن جهالة   بها وغريب الأمر أنّي أعرف[80]

هي صورة تنطلق من معايشته الفعليّة لأبناء هذه القارة لكنّها تحمل في طيّاتها تعاليًا ونظرة عنصريّة لبيئة مختلفة عنه، ونراه يتابع في هذه القصيدة بوصف علاقته بزنجية ناعتًا إياها باقترافها المعايب، ويصل به الأمر إلى الدّعوة إلى عدم الهجرة إلى السّنغال:

ارحل عن السّنغال ولا تمكث بها   واستغن عنه بواسع الأقطار
تبًّا له بلدًا وحسبك أنّه   بلد دعوه بقاصف العمار
وابصق على المال الجميع به فما   أبقى الطّيابُ كرامة للنّار[81]

لعلّ الشّاعر انطلق من تجربته الخاصّة التي عاشها، وعانى منها، فكان غضبه بارزًا في قصائده، ويقصد الشّاعر بالطّياب الفرنسيّ والنّار هو الإنسان العربيّ بلغة السّنغال المحليّة، وينهي الشّاعر حياته في السّنغال ويعود إلى بلاده بعد غياب مرير[82]،

وبغض النّظر تفاصيل ما جرى معه، يمكن القول إنّ عرض الأمر يدفع إلى بحث القضية وطرح موضوع العنصريّة على الملأ للوصول إلى حلّ سليم، يتوافق مع قضايا الإنسانيّة.

الخاتمة

إنّ الإبحار في ما كتبه الشّعراء الذين عاشوا تجربة الغربة وخبروها تفتح أمامنا مصراعًا واسعًا، يؤكد أنّ الهجرة حكاية مكتوبة بسطور لا تمحى، ينقل لنا فيها الشّعراء تجربتهم ومعاناتهم، وينقلون مشاعرهم. وما تؤكّده أيضًا أنّ اللّبنانيّ عشق الهجرة، فكان مجذاف السّفر مرافقًا له دائمًا، يحث عن الأمل والحياة الجديدة، محاولًا تغيير مسار حياته ومتخلّصًا من مآسيه.

مرّ اللبنانيّ بهجرات متعدّدة، وبأوقات مختلفة، فإذا عرفنا ملامح الأدب المهجريّ في الأمريكتين، فإنّ الهجرة كانت إلى أمكنة أخرى في العالم ومنها آسيا وأفريقيا. ومن خلال الغوص في شعر الشّعراء الذين هاجروا إلى هاتين القارتين، نصل إلى:

- تعدّد الموضوعات التي تجلّت في شعر شعراء المهجريين فمنها ما له علاقة بمسوّغات السّفر الذي يستدعي الحديث عن الحنين والشّوق إلى الوطن، وإلى طلب العودة.
- أنّه لم يبتعد شعراء المهجر عن قضايا وطنهم وأمّتهم، فبرزت القضايا القوميّة والوطنيّة في قصائدهم.
- أنّ شعراء المهجر كانوا دعاة إصلاح ورغبة في تغيير المساوئ في مجتمعهم، وتطرقوا إلى قضايا إنسانيّة أهمّها العنصريّة.
- أنّ المفردات التي تواترت في شعر شعراء المهجر تنتمي في أغلبها إلى ما يمثّل الخط العام لمفهوم الغربة والحنين، والتّعبير عن الهجر ولعة الفؤاد وتذكّر الأوطان.
- أنّ مغادرة الوطن كانت الشّرارة التي أشعلت نار الهجرة، فجعلت الموهبة الشّعريّة تنطلق.
- أنّ الاغتراب ولّد الكثير من الآلام والمتاعب، ما شكّل ضغطًا على المهاجرين، وكان يتجاذبهم الرّغبة في العودة، فعاش المهاجر بين شاقوف المعاناة في الوطن، وسندان القهر في الاغتراب.
- أنّ ما يمرّ به المهجريون واحد، ما يؤدّي إلى توحيد مشاعرهم، لكن ينطلق كلّ منهم من تجربة ذاتيّة، ولهذا فإنّ شعرهم هو تعبير عن كلّ مهاجر، وقد تصل معاني شعرهم إلى التّعبير الإنسانيّ.
- أنّه من اللافت بروز شاعرات عبّرن عن الشّعر المهجريّ، وهو ما لم يكن بارزًا مع الشّعراء الذين هاجروا إلى الأمريكيتين.

وفي ختام هذه الجولة في نماذج من شعر شعراء المهاجر في أفريقيا وأسيا نرى أنّ البحث في قضايا الهجرة لا يتوقّف، مهما تشابهت القضايا بين التي كتب فيها الشّعراء وإن اختلفوا في المكان والزّمان، لكنّ اللافت أنّنا مع دخولنا الألفيّة الثّالثّة، ومع انتشار الوسائل التي جعلت من في المكان البعيد يعرف ما يحدث في الموقع الذي نسكن فيه قبلنا، فإنّ مفهوم الاغتراب سيأخذ منحى جديدًا، فالعالم بات قرية واحدة، ولعلّ الاغتراب سينطلق من الذّات ليعود إلى الذّات.

[1] الشّنفرى، ديوان الشّنفرى عمرو بن مالك، تحق. إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ط 2 ، 1996، ص 58-59.
[2] عنترة بن شداد، ديوان عنترة ، تحق. محمد سعيد مولوي، لا م، المكتب الإسلامي، لا ط، لا ت، ص 182.
[3] طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد البكري، شرح يوسف الأعلم الشنتمري، شالون، مطابع برطرند، لا ط ، 1900، ص 1.
[4] ابن الرومي. ديوان بن الرومي. شرح تحق. عبد الأمير علي مهنا، بيروت ، دار و مكتبة الهلال ، ط 1، 1991 ، مج الخامس ، ص 19.
[5] هيئة تكريم العطاء المميّز، الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم، كتاب مؤتمر البحث العلمي حول الاغتراب اللبنانيّ، بيروت، لا ن، 2019، لا ط، ص 690.
[6] حافظ ابراهيم، الدّيوان، شرحه وصحّحه أحمد أمين وآخرون، بيروت، دار العودة، لا ط ، لا ت، ص 270- 271.
[7] موقع الخيام، http://khiyam.com .
[8] جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، بيروت، دار صادر ناشرون، ط 2، 2020، ص 51.
[9] هيئة تكريم العطاء المميّز، الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم، كتاب مؤتمر البحث العلمي حول الاغتراب اللبّنانيّ، ص 136.
[10] المرجع نفسه، ص ص 137- 138.
[11] المرجع نفسه، ص 206.
[12] المرجع نفسه، ص 824.
[13] المرجع نفسه، ص336
[14] خليل أرزوني، الهجرة اللبنانيّة إلى الكويت (1915-1999)، قدّم له مسعود ضاهر، بيروت، مكتبة الفقيه، ط 1، 1994، ص 350.
[15] هيئة تكريم العطاء المميّز، الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم، كتاب مؤتمر البحث العلمي حول الاغتراب اللبنانيّ، ص 227.
[16] زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، جمع وتحقيق حسن محمد صالح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط 1، ، ص 182.
[17] محمد زينو شومان، أغمضت عشقي لأرى، بيروت، دار الفارابي، ط2، 2015، ص 17-18.
[18] محمد زينو شومان، الهجرة إلى وجعي القديم، بيروت، مكتبة الفقيه، ط1، 1992، ص 76.
[19] سعيد فياض، هتاف الواجدان، لا.م، دار الرّيحانيّن ط 1، 1994، ص 309.
[20] المصدر نفسه، ص 309.
[21] مروان نجم الدّين، قناديل الغربة، بيروت، مؤسّسة الرّحاب الحديثة، ط1، 2010، ص 95.
[22] محمد رضا شرف الدّين، أوزان، بيروت، منشورات المجلس الثّقافيّ للبنان الجنوبيّ ودار أقلام، ط1، 2001، ص 93.
[23] قيصر مصطفى، هذي الجزائر، لا م، الإشراف للكتاب العربيّ، ط 1 ، 2012، ص 75.
[24] المصدر نفسه، ص 75.
[25] عبد المنعم فحص، لفح الهجير، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ط1، 1967، ص 25.
[26] حسن جعفر نور الدّين، موسوعة شعراء المهجر، بيروت، منشورات رشاد برس، لا ط، 2014، ص 562.
[27] أميل جرجي باز، النّار والنّور، لا م، لا ن، ط 1، 2008، ص 55.
[28] محمد غبريس، فيض الأقحوان، اللاذقيّة، دار الحوار، ط 1، 2010، ص 45.
[29] زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 32.
[30] المصدر نفسه، ص 186.
[31] مروان نجم الدّين، قناديل الغربة، 132.
[32] علا بدر الدّين الهزيم، الدّيوان المخطوط، ج 1 ، ص 87.
[33] دنيا فياض طعان، مجامر الحنين، لا م، دار الرّيحاني، ط 1، 1993،
[34] زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 208.
[35] أحمد محمد سعد، هجرة وهجير، لا م ، دار الجزيرة، ط 2، 2002، ص 66.
[36] قيصر مصطفى، تلمسان، بيروت، دار آسيا، ط 1، 1985، لا ترقيم.
[37] دنيا فياض طعان، مجامر الحنين، ص 17.
[38] محمد رضا شرف الدّين، أوزان، ص 151.
[39] قيصر مصطفى، هذي الجزائر، ص 285.
[40] ورد ذلك في البحث عند الحديث عن مسوّغات السفر.
[41] قيصر مصطفى، هذي الجزائر، ص 287.
[42] أحمد محمد سعد، صدى الأعماق، لا م، دار الجزيرة، ط 2، 2020، ص 207.
[43] محمد زينو شومان، عائد إليك يا بيروت، دار الفارابي، ط2، 2017، ص 83.
[44] زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 20.
[45] حسن جعفر نور الدّين، موسوعة شعراء المهجر، ص 592.
[46] علا بدر الدّين الهزيم، هديل الغربة، بيروت، دار العودة، ط 1، 2015، ص 45- 46.
[47] علا بدر الدين الهزيم، الديوان المخطوط ،ج 1.
[48] أحمد محمد سعيد، عبير وزفير، لا م، دار الجزيرة، ط1، 2010. ص 185.
[49] أحمد محمد سعيد، هجرة وهجير، ص 161.
[50] أحمد محمد سعيد، عبير وزفير، ص28.
[51] أميل جرجي باز، النّار والنّور، لا م، ط 1، 2008، ص 152.
[52] إميل فاكه، حبّ الوطن، تر. ابراهيم نجار، بيروت، مطبعة الأداب، لا ط، 1928، ص 14.
[53] Le Nouveau Dictionnaire Encyclopedioue , Suisse , Edition N.D.E. , 1992 , volume 10, Page20042005 .
[54] إميل جرجي باز، النّار والنّور، ص 55.
[55] أحمد محمد سعيد، هجرة وهجير، ص 54.
[56] المصدر نفسه، ص 52.

[57] المصدر نفسه، ص 105.
[58] عبد المنعم فحص، لفح الهجير، ص 11.
[59] المصدر نفسه، ص 37.
[60] حسن جعفر نور الدّين، موسوعة شعراء المهجر، ص 772.
[61] عبد المنعم فحص، لفح الهجير، ص 39.
[62] Le Nouveau Dictionnaire Encyclopedioue , volume 10, Page 2005 .
[63] إبراهيم حاوي، مجلّة العرفان، مج 63، سنة 1949، ص 1087.
[64] علا بدر الدين الهزيم، المجموعة المخطوطة ،ج 2، ص 6.
[65] محمد غبريس، فيض الأقحوان، ص 15.
[66] أكرم محمد الحلبي، ديوان محمد الدّرة، الكويت، مؤسسة البابطين، جزء1، ص 152.
[67] المصدر نفسه، ص 154.
[68] سعيد فياض، هتاف الوجدان، ص 425.
[69] عادل عبد الصّمد، شعراء من عماطور، لا م، ط 1، 2006، ص 45.
[70] إبراهيم حاوي، مجلة العرفان، سنة 1959، ص 963.
[71] عبد المنعم فحص، لفح الهجير، ص 19.
[72] المصدر نفسه، ص 29.
[73] إبراهيم حاوي، مجلة العرفان، مجلد 49، ص 732.
[74] سعيد فياض، هتاف الوجدان، ص 134.
[75] عبد المنعم فحص، لفح الهجير، ص 79.
[76] عادل عبد الصّمد، شعراء من عماطور، ص 39.
[77] المصدر نفسه، ص 37.
[78] سعيد فياض، هتاف الوجدان، ص 173.
[79] المصدر نفسه، ص 173.
[80] حسن صالح، أنطولوجيا الأدب العامليّ المعاصر، بيروت، دار المجان، ط1، 1997،ج 2، ص 527.
[81] المصدر نفسه، ص 535.
[82] حسن جعفر نور الدّين، موسوعة شعراء المهجر، ج 2، ص 799.

المصادر والمراجع:

الكتب العربيّة

1- ابراهيم، حافظ، الدّيوان، شرحه وصحّحه أحمد أمين وآخرون، بيروت، دار العودة، لا ط ، لا ت، ص -270 271.
2- أرزوني، خليل، الهجرة اللبنانيّة إلى الكويت (1915-1999)، قدّم له مسعود ضاهر، بيروت، مكتبة الفقيه، ط 1، 1994.
3- باز، أميل جرجي، النّار والنّور، لا م، لا ن، ط 1، 2008.
4- جبران، جبران خليل، البدائع والطرائف، بيروت، دار صادر ناشرون، لا.ط ، 2020.
5- جمعة، هيثم، الهجرة اللبنانيّة واقع وآفاق، لا م، لا ن، ط 1، 2004.
6- الحلبي، أكرم محمد، ديوان محمد الدّرة، الكويت، مؤسسة البابطين، جزء1.
7- ابن الرومي. ديوان بن الرومي. شرح تحق. عبد الأمير علي مهنا. بيروت، دار ومكتبة الهلال، ط 1، 1991.
8- سعد، أحمد محمد، هجرة وهجير، لا م ، دار الجزيرة، ط 2، 2002.
9- صدى الأعماق، لا م، دار الجزيرة، ط 2، 2002.
10- عبير وزفير، لا م، دار الجزيرة، ط1، 2010.
11- ابن شداد، عنترة، ديوان عنترة، تحق. محمد سعيد مولوي، لا م، المكتب الإسلامي، لا ط، لا ت.
12- شرف الدّين، محمد رضا، أوزان، بيروت، منشورات المجلس الثّقافيّ للبنان الجنوبيّ ودار أقلام، ط1، 2001.
13- شومان، محمد زينو، أغمضت عشقي لأرى، بيروت، دار الفارابي، ط2، 2015.
14- الهجرة إلى وجعي القديم، بيروت، مكتبة الفقيه، ط1، 1992.
15- عائد إليك يا بيروت، بيروت، دار الفارابي، ط2 ، 2017.
16- الشّنفرى، ديوان الشّنفرى عمرو بن مالك، تحق. إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ط 2 ، 1996.
17- صالح، حسن، أنطولوجيا الأدب العامليّ المعاصر، بيروت، دار المجان، ط1، 1997.
18- طعان، دنيا فياض، مجامر الحنين، لا م، دار الريحاني، ط 1، 1993.
19- العبد، طرفة ابن، ديوان طرفة بن العبد البكري، شرح يوسف الأعلم الشنتمري، شالون، مطابع برطرند، لا ط، 1900.
20- غبريس، محمد، فيض الأقحوان، اللاذقيّة، دار الحوار، ط 1، 2010.
21- فاكه، إميل، حبّ الوطن، تر. ابراهيم نجار، بيروت، مطبعة الأداب، لا ط، 1928.
22- فحص، عبد المنعم، لفح الهجير، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ط1، 1967.
23- فوّاز، زينب، ديوان زينب فوّاز، جمع وتحقيق حسن محمد صالح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط 1، 2008.
24- فياض، سعيد، هتاف الواجدان، لا.م، دار الرّيحانيّن ط 1، 1994.
25- مصطفى، قيصر، تلمسان، بيروت، دار آسيا، ط 1، 1985، لا ترقيم.
26- هذي الجزائر، لا م، الإشراف للكتاب العربيّ، ط 1 ، 2012.
27- نجم الدّين، مروان، قناديل الغربة، بيروت، مؤسّسة الرّحاب الحديثة، ط1، 2010.
28- نور الدّين، حسن جعفر، موسوعة شعراء المهجر، بيروت، منشورات رشاد برس، لا ط، 2014.

29- الهزيم، علا بدر الدّين، الدّيوان المخطوط، ج 1/ ج 2.
30- هديل الغربة، بيروت، دار العودة، ط 1، 2015.
31- هيئة تكريم العطاء المميّز،الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم، كتاب مؤتمر البحث العلمي حول الاغتراب اللبنانيّ، بيروت، لا ن، لا ط، 2019.

الكتب الأجنبيّة

Le Nouveau Dictionnaire Encyclopedioue , Suisse , Edition N.D.E. , 1992 , volume 10, Page2004 2005.

المجلّات:

حاوي، إبراهيم، مجلّة العرفان، مج 63، سنة 1949، ص 1087.
مجلة العرفان، سنة 1959، ص 963.

المواقع الألكترونيّة

موقع الخيام، http://khiyam.com . أوّل زيارة بتاريخ 14/ 10/ 2020

فيزياء المكان بين نسبيّة "آينشتاين" وأسلوبيّة "خليل حاوي"؛ "المجوس في أوروبا" أنموذجًا.

د. رزق الله الياس قسطنطين
قسم اللغة العربية وآدابها
الجامعة اللبنانية والجامعة اللبنانية الأميركيّة LAU

1. في سبيل المقدمة

شكّل المكان في حياة الإنسان محورًا كبيرًا منذ زمن آدم وحوّاء، ولا يزال حتّى يومنا هذا، حتّى شغل بال العلماء والمفكّرين. وكان للفلسفة دور كبير في البحث عن صور المكان وتأثيره في حياة الإنسان، من "سقراط"، و"أرسطو" و"أفلوطين"، والقدّيس "أغسطين"، و"كانط" وغيرهم كثر. وفي العلم أيضًا، ظهرت النظريّات التي درست المكان، مثل "نيوتن" الذي صاغ نظريّة الجاذبيّة في المكان، واعتُبرت التصوّر الأهمّ في دراسة الكون، فهي برأي نيوتن قوّة تعمل بين جسمين، الأرض والشمس مثلاً، فكلّ جسم يشعر بتأثير الآخر عليه. لكنّنا نسأل، هل تبقى الجاذبيّة عندما يختفي جسم؟ طبعًا لا.

إلاّ أنّه، ومع ظهور النظريّة النسبيّة مع "ألبرت آينشتاين"، تجلّى في الأفق تصوّرٌ جديدٌ لدراسة هذا المكان، وتولّدت معها رؤية مغايرة للكون كلّه، أعادت النظر في مفاهيم العلم والفلسفة بعامّة، وفي تغيير معالم الفيزياء خصوصًا. فيقرّ "آينشتاين" "أنّه لا يوجد في الفضاء أيّ جسم يمكن أن يتّصف بالثبات المطلق"، ليُعدمَ بذلك في نظره ما يُسمّى بالأثير، وحينئذٍ لا وجود للمكان المطلق. كما يضيف آينشتاين أنّ المكان لا يوجد إلاّ بالأشياء الموجودة فيه، وهذا يعني أنّه يرفض وجود المكان الفارغ الذي تصوّره "نيوتن"، لكنّه في المقابل رجّح تصوّر "ديكارت" المتعلّق بالمكان. فيقول آينشتاين في نصّ يتوجّه فيه إلى "موريس سولغين" (Moris Sulgune): "إنّ "ديكارت" يحاجج تقريبًا بالطريقة الآتية: المكان متناه مع الامتداد: الامتداد مرتبط بالجسم، وبالنتيجة ليس هناك من مكان بدون أجسام، أي ليس هناك من مكان فارغ." فلا يمكن أن نتصوّر المكان إذًا إلاّ إذا سُبق بموضع؛ والموضع هو القطع الصغيرة من المسافة الأرضيّة. فلا يمكن اعتباره مستقلاً عن الشيء الماديّ، لأنّ الشيء الذي يخصّصه الموضع هو الجسم، لذلك لا يبقى هناك أيّ معنى للمكان الفارغ.

و"المجوس في أوروبا" قصيدة للشاعر خليل حاوي، من ديوان "نهر الرماد" يقدّم فيها تصوّرًا للمكان، وموعدًا آخر مع المجوس الذين نقلهم من مكان أوّل هو (الشرق) إلى مكان آخر هو (الغرب: أوروبا) للتفتيش عن الحضارة الجديدة في ظلّ التطوّر الحاصل.

لذلك ندرس في هذا البحث فيزياءَ المكان، ونعني بالفيزياء الأطر النظريّة التي تحدّد الأبعاد البحثيّة في نظريّة ما، حيث نستعين بمنهج علميّ للدراسة هو الأسلوبيّة، ونركّز في الأسلوبيّة التكوينيّة (Stylistique Génétique) التي عرض أطرها النظريّة الناقد "ليو سبيتزر" (Leo Spitzer) فنكشف أسلوبيّة "خليل حاوي" وندرس المكان في قصيدة "المجوس في أوروبا"، فنُبرز المكان النسبيّ–الأسلوبيّ، في خارطة جديدة للدراسة العلميّة النقديّة، تبدأ بدراسة الإيقاع الخارجيّ ودلالته في القصيدة، والمركّبات الصوتيّة الداخليّة فيها، وتصل إلى دراسة الأسس التركيبيّة التي أنتجتها البنى الصرفيّة والنحويّة، مقارنة مع ما أقرّته نسبيّة "أينشتاين" للمكان.

2. في إشكاليّة البحث وفرضيّاته

أن نطرح موضوع كائنات الطبيعة في شكلها الجزئيّ أو الكلّيّ أمر بديهيّ في موضوع المكان وفيزيائه، وهذا ما يتجلّى في استقراء العالم المحيط بنا. فالفيزياء بشكل عامّ هو العلم الذي يدرس وجود الأشياء أو الأنظمة في الطبيعة، والتي تتوافق مع ظواهر تتميّز في الطبيعة لذلك يمكننا عدّه العلم الذي يدرس الموجودات الطبيعيّة لأنّه يعتمد في الدراسة على نتائج القياس والتجربة فيها؛ أي المكان والزمان بشكل محدّد.

أمّا المكان، فالدراسات فيه كثيرة، لكننا سنراه من وجهة نظر النسبيّة؛ فهو مرتبط بالحركة دائمًا، لأنّه يحدّد بالنسبة إلى الحركة نحو المكان، فاليمين واليسار مفهومان نسبيّان لأنّهما يتغيّران عند تغيّر الحركة. لذلك فدراسة المكان من هذا المفهوم يفضي إلى معرفة الحركيّة والسرعة.

والمجوس هم بحسب المصادر من المنجّمين أو فئة كهنوتيّة من الماديّين أو الفرس، ولم يكن المجوس الثلاثة في الأصل ملوكًا ولا ثلاثة كما يشير الكتاب المقدّس، بل ذكر فقط أنّهم مجوس من الشرق. (باليونانية ἀνατολή). وفي قصيدة خليل حاوي، ينتقل المجوس من الشرق إلى أوروبا كما يدلّ عنوان القصيدة (المجوس في أوروبا). فهم في الشرق اهتدوا بالنجم للوصول إلى المخلّص، أمّا في الغرب فقد شدّهم نجم الحضارة والتطوّر. بناء عليه، أيسهم المكان في جذب الإنسان وتغيير مدار الكون وحركته، أمّ أنّه صورة واحدة يدور في فلكها العالم، ويستقي منها وجوده؟

فنطرح في سبيل ذلك الأسئلة التالية:

- **كيف تجلّت المركّبات الصوتيّة وفيزياء الصوت في فضاء القصيدة "الخليليّة"، وما هي الدلالات التي نتجت عنها؟**
- **إلى أيّ حدّ كان الإيقاع الخارجيّ للقصيدة يحاكي فيزياء المكان المزدوج (الشرق/الغرب) فيها؟**
- **لمّا كان المكان مرتبطًا بالجسم بحسب "آينشتاين"، متى اقتربت لغة الشاعر التركيبيّة من فيزياء المكان ومتى ابتعدت عنها؟**
- **وبالتّالي، فما هي الأطر النظريّة التي تربط نسبيّة المكان عند آينشتاين وأسلوبيّة المكان عند "حاوي"؟**

3. في منهج البحث

نعتمد في هذا البحث على منهج علميّ هو المنهج الأسلوبيّ التكوينيّ (Stylistique Génétique)، وهو منهج علميّ أو قل استراتيجيّة علميّة دقيقة في قراءة النّصوص الأدبيّة وفقًا لنظريات العالم الأسلوبيّ ليو سبيتزر (Leo Spizer).

تعود الأصول النظريّة للأسلوبيّة التكوينيّة إلى الفيلسوف الإيطاليّ بينيديتّو كروتشي (Benedetto Croce) والمثاليّ الألمانيّ كارل فوسلر (Karl Vossler). يؤسّس كروتشي شكلَين من أشكال المعرفة: المعرفة البديهيّة والمعرفة المنطقيّة؛ أي المعرفة عبر الخيال، والمعرفة عبر الذكاء. وعلى هذا الأساس يحدّد المؤلّف الألسنيّة والجماليّة، وبتعبير آخر اللغة والشعر. "أضف إلى ذلك، فهو يؤسّس للتطابق بين موقعَي المعرفة، حيث إنّ اللّغة مطابقة للشعر، وهذا الأخير في تطابق مع الخيال؛ إلاّ أنّ اللغة والخيال هما نفسيهما في تطابق وتماثل." وهنا يجعل سبيتزر عمله الأسلوبيّ مؤسّسًا على هذه المعارف السابقة إلّا أنّه يميل إلى جعل القراءة الأسلوبيّة تنطلق من النّصّ نفسه لتقرأ روح المؤلّف وتتعلّق بمراكز العاطفة عنده.

يسمّى هذا النوع من الاتجاهات الأسلوبيّة أيضًا بأسلوبيّة الفرد (Stylistique de L’individue)، لأنّه يدرس "الطرائق الأسلوبيّة الخاصّة بالفرد أو بكاتب معيّن أو بمجموعة كتّاب، من حيث القدرة أو الاختيار الذي قام به، والذي يتحدّد بعض منه عبر ثقافة الكاتب أو رؤيته إلى العالم وإلى مزاجه وطباعه"، فالعمل الأدبيّ لكاتب معيّن هو منطلق الدراسة التكوينيّة، مع العلم أنّ هذا المنحى الأسلوبيّ يتّجه في منظور مزدوج، حيث يدرس اللغة بكونها مميّزًا ألسنيًّا خاصًّا بالفرد، وحيث يدرسها بكونها عنصرًا لغويًّا لها موقعها وسياقها في النّصّ. فالفرد الذي يستخدم اللّغة هو غير ملزم بالتّقيّد بقواعد اللّغة المتعارف عليها، بل بإمكانه أن يتخلّص منها، وأن يبدعَ تركيبًا لغويًّا جديدًا يميّزه عن غيره، ويكون بمثابة أسلوب خاصّ به وحده، لذلك سُمّيت بأسلوبيّة الفرد.

يُعدّ ليو سبيتزر (Leo Spitzer) من أهمّ مصمّمي الأسلوبيّة التّكوينيّة ، وهو الذي قام بإرساء نقد مبنيّ على السّمات الأسلوبيّة للعمل، رافضًا التّقسيم التّقليديّ بين دراسة اللغة ودراسة الأدب. فقال: "حين قرأت الروايات الفرنسيّة الحديثة، اعتمدت أن أشير بخطّ إلى العبارات التي يستوقفني الانزياح الحاصل فيها بالنسبة إلى المعنى العامّ؛ وغالبًا ما تبدو المقاطع المشار إليها بخطّ متّحدة ومتماسكة. فتساءلت إذا كان من الممكن أن نعثر على قاسم مشترك بين هذه المختارات، أو إذا كان من الممكن أن نجد الأساس الروحيّ والجذر النفسيّ الخاصّين بملامح الأسلوب المختلفة التي تطبع الشخصيّة الفرديّة لكاتب ما.

فأسلوبيّة "سبيتزر" تبحث عن روح المؤلّف في لغته ، فهو يقول: "لقد قمنا بشقّ طريق تبدأ من اللّغة والأسلوب لتصل إلى روح المؤلّف وعصره"، فالأدب يكشف روح الشّعوب ، وبما أنّه أوّلاً وأخيرًا مكوّن من لغة، فنحن نستطيع عبر الأسلوبيّة دراسة اللغة الأدبيّة للوصول إلى روح مؤلّف ما، وبهذا نفهم كيف عَدّ "سبتزر" الأسلوبية، جسرًا بين الألسنيّات وتاريخ الأدب. فأسلوبيّة "سبيتزر" كما نلاحظ، ذات هدف نفسيّ تستهدف مرسل الرسالة وتوجّه عنايتها إليه.

وهنا، ينطلق "سبيتزر" من المراقبة ليؤسّس نظريّته، ويقترح في الغالب القيام بدراسة الأسلوب الخاصّ بالكاتب أو الكتّاب. فمنهجه يقوم على اعتبار الأثر الأدبيّ الخاصّ بكاتب معيّن وسيلة للولوج إلى نفسيّة مبدعه، من خلال المعجم الإفراديّ والمعجم التركيبيّ للّغة الحاملة للخطاب القابع في النصّ الأدبيّ؛ وذلك كي يتسنّى للباحثين في هذا الاتجاه الوصول إلى ذاتيّة الأسلوب، انطلاقًا من مضمون الرسالة ونسيجها اللغويّ في إطار النصّ المبدَع.

فالأسلوبيّة التكوينيّة تهتمّ بالذات المبدعة وخاصيّة الفرد الأسلوبيّة وانزياحها عن أسلوبيّة الآخرين، انطلاقًا من فرادتها في الكتابة، التي تختلف عن كتابات الآخرين داخل وسط اجتماعيّ يتطوّر ضمن السياق الاجتماعيّ الخاصّ. "مع سبيتزر Spitzer ، سنرى شخصية المؤلف مرتبطة بنظام من الانزياحات والاختلافات (نحويّ ، معجميّ ...) مقارنةً باللغة "المتوسطة Moyenne " في اللحظة الثقافيّة، ما يسهم في خلق مميّزات خاصة بالذّات المبدعة تبعًا لما تمليه الظّروف المختلفة. "فالأسلوب هو خصوصيّة شخصيّة في التعبير تتعرّف من خلاله إلى الكاتب، وذلك عبر عناصر متعدّدة تعمل على تكوين هذه الشخصيّة الذاتيّة" من خلال ذوات أخرى تحيا جنبًا إلى جنب معهم، في شكل جماعة تحكمها ظروف اجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة خاصّة. وهكذا، فالأسلوبيّة السبيتزريّة هي في حقيقتها انزياح شخصيّ مرتبط بمنظومة اللغة السائدة كوضع ثقافيّ زمنيّ معيّن، ويصحّ أن يحيل أحدهما إلى الآخر.

ومن منظور هذا الاتّجاه من الأسلوبيّة، نرى علم الأسلوب قادرًا على إدراك كلّ ما يتضمنه فعل الكلام من أساليب أصلية تتوفّر على عناصر الفرادة التي أوجدتها طاقة خلّاقة منبثقة من نفس مبدعة ومن تفرّده في الإلقاء، وقدرته على القول، وتمكّنه من التعبير. وهنا ينصبّ جهد البحث الأسلوبيّ على تتبّع التحوّلات اللغويّة، التي أحدثها المبدِع في خصوصيّته وفرديّته المتميّزة، انطلاقًا من دفقة شعوريّة يختصّ بها، وذلك بالاعتماد على استنطاق لغة النصّ وما تحمله من دلالات عديدة، كما نادت بذلك الألسنيّات الحديثة، والتي وُلدت الأسلوبيّة من رحمها.

يتميّز هذا المنهج بعدم الفصل بين الشكل والمعنى، فيعيد بذلك الحياة إلى العمل الأدبيّ. وفي الواقع، فالسّمة المميّزة له تكمن في انزياح أسلوبيّة الفرد، بمعنى آخر يشكّل جانبًا من الكلام المميّز الذي يحيد عن الاستخدام الحقيقيّ للّغة والتّعابير. وهكذا فإنّ كلّ انزياح عن القاعدة اللغويّة يشكّل انعكاسًا لانزياح في مجال عاطفيّ آخر. فالملمح المتميّز في الدراسة الأسلوبيّة عند "سبيتزر" هو الانزياح الأسلوبيّ الفرديّ عن الأنماط اللغويّة القياسيّة، إذ قرن بين هذا الانزياح الفرديّ والتحوّل التاريخيّ في نفسيّة عصر معيّن، انطلاقًا من أنّ الأثر ومنتجه شاهدان على ثقافة عصريهما، فيقول: "يجب أن تمثّل انزياحات الفرد الأسلوبيّة عن القاعدة العامّة خطوة تاريخيّة يقطعها الكاتب، ويجب أن ينمّ هذا الانزياح عن التحوّل في روح العصر، وهو تحوّل يعيه الكاتب وينقله في شكل لغويّ يكون بالضرورة جديدًا". ومعنى ذلك فإنّ بين الأثر وفترته التاريخيّة علاقة متبادلة، لأنّه وليدها الذي غذّته عبر مراحلها من جهة، وفي الآن نفسه يتجاوزها في ذاته وروحه المتفردتين من جهة أخرى. وهنا تُلحظ في الانزياح الأسلوبيّ عند "سبيتزر" غايتان تقود إحداهما إلى الأخرى، الأولى آنيّة تتمثّل في رصد الظاهرة الأسلوبيّة الجماليّة كممثل فرديّ شخصيّ، والثانية زمانيّة تتجاوز ماهو شخصيّ إلى حيث روح العصر الاجتماعيّ والثقافيّ والفلسفيّ.

4. جديد الدراسة

لمّا كان موضوع الدراسة هو المكان، نقدّم دراسة للمكان وفيزيائه بين نسبيّة آينشتاين وأسلوبيّة خليل حاوي. فالربط بين الفيزياء واللغة يُخرج البحث من الإطار الرّوتينيّ له، فيتمّ تقديم الفيزياء في مراحل المعرفة المختلفة على أنّها وصف موضوعيّ للعالم الطبيعيّ، حيث الصلة بين الفيزياء واللغة كبيرة، خصوصًا في عالم الكمّ والنوع.

إضافة إلى أنّنا سنعرض لفكر ليو سبيتزر (Leo Spitzer) في الدراسة الأسلوبيّة التكوينيّة أو كمّا تُسمّى أيضًا بأسلوبيّة الفرد، حيث سيكون العمل على اكتشاف النصّ المدروس من داخله من غير التطرّق إلى العوامل الخارجيّة التي رسمته، فنسكن القصيدة أي مركز العمل وليس خارجه.

سندرس الكاتب وأسلوبه عبر لغته المحمّلة فكره، فنقدّم العمل النقديّ بوصفه حالة ذهنيّة لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالحدْس واستخدام العاطفة، فنكشف الواقع النفسيّ للكاتب، ثمّ نسعى إلى إدراك روح الجماعة. وبالتّالي ندرس لغة الكاتب وأسلوبه الفريد من جهة في مقابل اللغة العامة من جهة أخرى. هذا عدا عن صورة المكان الواحد أو المتعدّد الذي يظهر في البحث، وعلاقته بالحركة الكونيّة الفاعلة فيه، لأنّ النّظرة إلى المكان من وجهة النظر "الآينشتاينيّة" تفرض معها دراسة الزمن عبر حركته، فنُخرج من "المجوس في أوروبا" الدّلالات الثّانية المرتبطة بالرؤيا غير المباشرة لها.

5. مركزيّة الكتابة وعموميّة الأسلوب

ننطلق في دراسة نصّ الشاعر خليل حاوي من توصيات الناقد ليو سبيتزر، الذي اعتبر أنّ القراءة الأسلوبيّة يجب أن تتّخذ لنفسها مركزًا فريدًا مميّزًا يتشظّى منه الهيكل العام للدراسة.

والشاعر يبدأ قصيدته من عبارة أساس هي: "يا مجوس الشرق" لتكون مركزًا للفكرة التي يريد الشاعر عرضها. هذه العبارة المركزيّة، تؤسّس للمكان الأوّل الذي يظهر في النصّ الشعريّ وهو الشرق – والشرق مهد الحضارات، والديانات كما هو معروف لدى الجميع – حيث يتشظّى المكان إلى أمكنة ثلاثة هي على التوالي: باريس، وروما، ولندن. هذه الأمكنة التي وصلها المجوس ليفتّشوا عن الحضارة الجديدة التي أبهرت العالم الحديث. فكيف كان أسلوب الشاعر وهيكل القصيدة ومركّباتها الصوتيّة، وما هي الدلالات التي نتجت عنها؟

1.5. التكرار: فعل واحد، حركات متعدّدة ومتتالية

لمّا كان التكرار من وجهة نظر المعرفة العامّة فائضًا من الكلام خاليًا من المعنى والمعرفة، يقود إلى الملل الرّوتينيّ، كان لا بدّ من إظهار ما له من قدرة على اكتشاف عمق الكاتب ومكنوناته النفسيّة. فمع ذلك، وبغضّ النظر عن هذه الاعتبارات الاجتماعيّة، فإن ظاهرة التكرار تنتشر على نطاق واسع وعلى أساس يوميّ، وفي العديد من المجالات، لأنّها متأصّلة في السلوك البشريّ؛ فنحن نكرّر أنماط الإيماءات، كما أنّنا ننشئ سلوكيّة معيّنة، وحتى في مجال اللغة، نحن نستطيع سماع كلمات مريحة مرّات متعدّدة.

فالتكرار في الدراسات الأسلوبيّة يُعدّ بمثابة إعادة تدوير للموادّ اللفظيّة التي تسمح حقًّا بالتفاعل، وبالتالي تسوّغ العلاقة الشكليّة مع أجزاء الخطاب كلّه. فالتكرار يمكن أن يكون في الوقت نفسه كلّيًا أو جزئيًّا أو جامعًا بين الاثنين، وذلك بحسب شكل التّعبير في النّصّ. فمن الضروريّ جدًّا، في أثناء التحليل، أن نحدّد إلى أي مستوى بنيويّ ولغويّ يعود شكل التكرار المدروس.

وفي قصيدة "المجوس في أوروبا" يلفتنا تكرار مهمّ جدًّا، بحيث يجمع بين مكانين متناقضين، الأول هو الشرق:

"مِن هنا الدَّربُ، هنا النَّجمُ

هنا زادُ المسافر!"

والتكرار الثاني اللافت في القصيدة يعود إلى الغرب وهو:

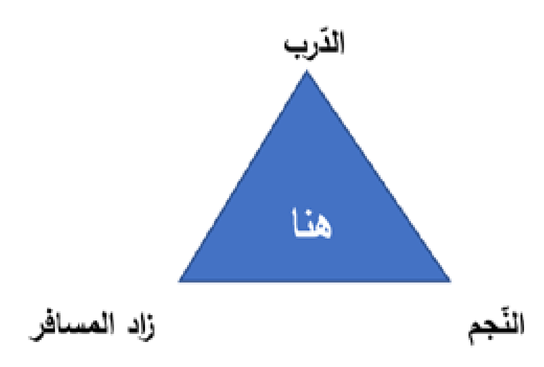
"جنةُ الأرضِ! هُنا لا حَيَّةً تُغْوي،

ولا ديَّانَ يَرمي بالحجارةْ

ها هُنا الوَرْدُ بِلا شَوْكٍ

هُنا العُرْيُ طَهارَةْ"

عند ملاحظة التكرار، والملاحظة عنصر مهمّ بالنسبة إلى الأسلوبيّة التكوينيّة من وجهة نظر سبيتزر، نعثر على مجموعتين من تكرار مؤشّر المكان "هنا" كما سبق ورأينا، ففي المجموعة الأولى كان التكرار ثلاثيّ الأضلع كما في الترسيمة التالية:



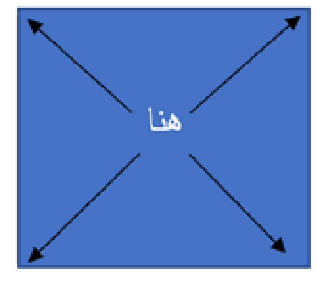
يثير المؤشّر المكانيّ "هنا" في القارئ شعورًا يعود إلى زمن ميلاد السيّد المسيح في مغارة في بيت لحم، حيث الهنا دلالة على الوعي لذاك الزمن الميلاديّ، فقد أَتبع في المكان والزمان مفرداتهما التي تؤكّد على ذاك الوعي، (الدرب، والنجم، والزاد). فالدرب بالنسبة إلى المجوس أساس لأنّه المكان الذي يتنقّلون عليه في الحياة الأرضيّة، والنجم هذه العلامة التي اهتدَوا بها للوصول إلى مهد المولود، والزاد هو وجه من أوجه الهدايا التي حملها المجوس إلى لقاء السيّد.

هذا بالنسبة إلى العلامات المحسوسة التي أدركناها بالقراءة العينيّة للتكرار. أمّا القراءة الدلاليّة لهذه العلامات النصّيّة، فتفضي إلى ثلاثيّة لاهوتيّة ميلاديّة تشير إلى كنه الإيمان المسيحيّ (الآب والابن والروح القدس) فالدرب هو الآب الذي نهتدي به في الحياة، التي نسير فيها على خطى الربّ، مُنشئ الكائنات وبارئ الكون. والنجم دلالة على الابن المولود في مغارة، النور الذي أنار العالم، والعلامة الأرض-سماويّة، عبرها اهتدى البشر إلى طريق الخير والصلاح، وبها أُعلن عن حياة أبديّة غيّرت الرؤيا إلى الموت. والزاد روح الإيمان والمعتقد، يتزوّد الإنسان بها، فيهتدي بإيمانه لحياة ترفعه إلى السماء حيث الهناء والسعادة الأبديّة.

هذه الثلاثية التي نقرأ فيها إيمان الشاعر خليل حاوي، جعلت المكان الأوّل، عنينا به الشرق، باعثًا للحياة بوجهها الإيمانيّ اللاهوتيّ. لكنّ هذه الإشارة لا تقع، في حدّ ذاتها، ضمن نظام المعالم الثابتة والزمانيّة المطلقة والشاملة. خصوصًا وأنّ النسبيّة تُظهر بمفهومها تعدّديّة الأمكنة، وتنفي المطلق فيها، حيث نرى وجهة نظر الشاعر أو المبدع، التي تشير إلى العالم وليس الكون، إلى الأفق الذي هو في كلّ مرّة، وحدة مفردة لمقولة: أنا – هنا – الآن، وبالتالي فهو متغيّر ومناسباتيّ. أما المؤشّرات التي تدلّ عليه فهي " فئة من الكلمات... يختلف معناها باختلاف الموقف". فتكرار كلمة "هنا" في محتواها المكانيّ – والزمانيّ – حيث لا مكان من غير زمان – هي التي تمكّننا من تحقيق فعل الخطاب في القصيدة، لأنّها على وجه التحديد تفتح اللغة الشعريّة على تجربة جديدة، فتفرّغها من مخزونها الدلاليّ، حيث لا يمكن تخزين اللغة الشعريّة في صورة واحدة على الإطلاق.

أمّا التكرار الثاني الحاصل في النّصّ فيتمثّل في جُمل أربع، محورها المكان هنا مع تغيّر هيئته وسنعرضه في الترسيمة التالية:

لا حَيَّةٌ تُغْوي لا ديَّانَ يَرمي بالحجارة



الوَرْدُ بِلا شَوْكٍ العُرْيُ طَهارَة

لا تقتصر ظاهرة التكرار على الوحدة التفاعليّة الصغرى في النّصّ، ولكن يكشف أيضًا مدى التطوّر والتفاعل المتسلسل. وبالتالي فإنّ مراقبة الموقع المتسلسل للتكرار يُعدّ إجراءً حيويًّا للتعامل مع هذه الظاهرة. ففي هذه القصيدة، راقبنا المثل الثاني لتكرار المكان فيها، ووجدناه يتناقض مع المكان الأوّل الذي تكلّمنا عليه سابقًا سواء أمن ناحية الشكل أم الدلالة. ولا نقصد بالشكل شكلَ الكلمة بل شكل الحضور. فالمكان "هنا" في هذه المرحلة من العرض يتكرّر أربع مرّات متتالية، كما أظهرنا في الترسيمة السابقة؛ والرقم أربعة "يدلّ على المادّة لأنّه يميّز الكون في كلّيّته".

والمقصود بذلك أنّ الرقم أربعة رمز للمادّة وعناصرها، أي معه يتعلّق الإنسان بالأرض والحياة الأرضيّة بمظاهرها التي تعنيه. فقد رأينا مع مجوس الغرب انبهارهم بالحياة الماديّة؛ فبعد أنّ كانت الخطيئة تغوي الإنسان فيبتعد عنها لكي لا يخالف التعاليم، أصبح إنسان –الحضارة لا يلتفت إليها، فلا خطيئة ولا حساب. وبعد أن رأينا في الكتب المقدّسة حسابًا يمنع الوقوع بالعيب، نرى مع إنسان –الحضارة أنّه لا

حساب ولا عيب عنده. وبعد أن قرأنا في التعاليم الموروثة أنّ لكلّ جانب جميل آخر سيّئًا، أصبحت القراءة في الحضارة الجديدة تدلّ على مكمن الجمال فقط (الوردة). ويختم إنسان –الحضارة الكلام بأنّ الحياة الجديدة لا تقيم حسابًا للعيب(العري طهارة).

هكذا وجدنا مدلولات المكان (هنا) في جانبها المادّيّ، مدلولات تُخرج إنسان الشرق من إنسانيّته، تغويه، تسحره وتبهره، فيقف مسمّرًا أمامها يدور في فلكها كما الأرض التي تدور في سرعتها المنتظمة، فتشدّ الإنسان إليها بفعل الجاذبيّة. إلاّ أنّ آينشتاين رفض هذا المفهوم، أي الجاذبيّة، وعرض مكانه فكرة اللا تغيير Invariant theory أو النظريّة النسبيّة الخاصة.

فالتكرار في ثلاثيّة المكان يمثّل ضوء العالم أي الروح، وهو في رباعيّته يمثّل المادّة أي الجسد. والضوء كلّما زادت سرعته اختفى، في منطق الفيزياء. والإنسان لا يرى الأشياء إلاّ الواضحة أمامه، فيما عدا المتنوّرين الذين يرَون ببصيرتهم، وبما أنّ الحياة التي نعيشها أصبحت سريعة إلى حدّ كبير، لدرجة أنّها أخفت الضوء، نور الإيمان وروح الولادة، رأينا المجوس ينتقلون مع الشاعر للتفتيش عن ولادة جديدة، ولادة المادّة، ونسَوا الروح، تركوها في الشرق مهد الإيمان.

2.5. التوازي: فضاء الأسلوب والمكان النفسيّ

اللّمسات الأسلوبيّة غالبًا ما تكون صعبة الدراسة ما لم يفكّك الباحث أجزاء النصّ ويحلّله، لأنّ حقيقة هذا المجال متنوّعة للغاية. لذلك كان علينا البحث عن مبادئ تسمح لنا بتنظيم مكوّنات التعبير إلى فئات لكي يتّضح الأساس. ويمكن تعريف علم التعبير (Science de l’expression) بأنّه الوجه اللّسانيّ أو اللغويّ لعلم نفس القيمة، أو قل سيكولوجيا القيمة (Psychologie de la valeur)، كيف لا، وعلم النفس على علاقة حتميّة بالحياة والعمل؟

والتوازي من أهم المكوّنات التي تساعد في إبراز أسلوب التعبير عند الكاتب أو المبدع، وهو "يتكوّن من اثنين من الأوصاف، فتكون إمّا متتالية أو مختلطة، فنتمكّن عبرها من مقابلة الواحدة بالأخرى، ضمن علاقاتهما الشكليّة أو المعنويّة. فالتوازيات تنتج إيقاعًا وانسجامًا صوتيًّا ونغمًا من اتّحاد المقاطع، أو النبر، أو اتفاق الفواصل، أو من طول الجُمل، أو التناسق الدقيق بين اللفظ والمعنى، أو التناسق الصوتيّ الداخل في تركيب الجُمل كلّها لتحقيق النغم الداخليّ فيها عبر القيم الصَّوتيّة الواردة فيها.

وانحدرْنا[أ] في الدهاليزِ[ب] اللعينهْ[ج]
=
واهتدَيْنا[أ] بسِراجٍ[ب] أحمرِ الضوءِ[ج]

أعينٌ[أ] ترتدُّ[ب] عنْ بابٍ لبابٍ،
=
أعينٌ[أ] نَسأَلها[ب]: أينَ المغارَهْ؟

إخلعوا[أ] هذي[ب] الوُجوهَ[ج] المستعارهْ[د]
=
"إخلَعوا[أ] هذي[ب] الوجوهَ[ج] المُستعارَهْ[د]

فاستحالَتْ[أ] عتَماتُ[ب] السَّقْفِ[ج]/ بلَّوْرًا ثُريَّاتٍ[د]،
=
واستَحالَ[أ] العَفَنُ[ب] الجَاري[ج] / (على الجُدرانِ) خَمرًا ذهَبًا[د]

يا[أ] إلهَ[ب] المتْعَبينْ[ج]
=
يا[أ] إلهَ[ب] الضائِعينْ[ج]
=
يا[أ] إلهًا[ب] هَارِبًا[ج]

يتَخَفَّى في[أ] المغارَهْ[ب]
في[أ] كُهوفِ العَالَمِ السُّفليّ[ب]

مثّل المكان في النصوص الأدبيّة كما في روح الكتّاب حيّزًا مهمًا من كتاباتهم، وذلك لأنّ المكان يسيطر على الإنسان ويأسره، ليخرج النصّ مشحونًا بالمكان/المكانات. والمكان في الفيزياء غير ثابت لأنّه يتغيّر بتغيّر سرعة الجسم بالنسبة إلى المراقب وهكذا يكون هذا المكان بالنسبة إلى عالم الفيزياء والفيزيائيين ذاتيًا لا واقعيًا، وهو كذلك بالنسبة إلى الناقد/ القارئ، لأنّ هذا الأخير يقرأ الدلالة التي من أجلها وضع المبدع المكان في نصّه.

وهذه التوازيات دلّت على أمكنة متعدّدة جاءت على الشكل التالي: (الدهاليز، المغارة، السقف، الجدران، كهوف). كلّها أماكن مغلقة بامتياز، فإنّ أدنى حركة إنسانيّة وإنّ أصغر شيء منفعل، يتحوّلان إلى مادّة خصبة للشاعر المبدع، حيث تتحوّل هذه المادّة إلى انغلاق في المكان وحيث الأشياء تنتج سجنًا داخليًّا مغلقًا.

تشكّل هذه الأمكنة التي ذكرها الشاعر في نصّه مَكمن الحضارة، لكنّها في انتزاعها من سياقها النصّيّ، تحمل رمز العودة إلى زمن الإنسان الأوّل الذي وصفه العلماء بالجهل، لأنّه سكن الكهوف

والمغارات والدهاليز. هذا الإنسان لا يمكن أن يرى الضوء والحقيقة، لا يمكن أن يرى إلاّ ظلّه المنعكس من خيوط الضوء المنسرب إلى الكهف المغلق.

ولمّا كان الضوء في علم الفيزياء أساسًا في الحركة نسبة إلى المكان ودراسته، فإنّه يشكّل في الديانات الإيمان. وهو عند الشاعر معدم لأنّ المجوس في تفتيشهم عن الحضارة الجديدة في الغرب، في باريس وروما ولندن، البلاد التي صنعت التطوّر، ضاعوا في غياهب الجهل، وانغمسوا فيه ؛ فمكان الثقافة جهل، ومكان الضوء والنور عتمة.

ولا بدّ أن ندرس في هذا السياق علاقة الضوء بالفراغ؛ أو قِصر طول الجسم في اتّجاه حركته (Length of Contraction). يُعرف طول جسم متحرّك بأنّه المسافة بين موضعَي بدايته ونهايته. فإذا افترضنا أنّ الطول الحقيقيّ (Proper Length) لجسم في حالة السكون هو "L_0"، وإذا تحرّك الجسم بسرعة مقدارها "u"، في اتّجاه المرور السينيّ فرضًا، فإنّ طوله الجديد "L" في اتّجاه حركته بالمحور السينيّ يُعرف بالعلاقة:

$$L = L_0 \sqrt{1-(u/c)^2}$$

حيث c هي سرعة الضوء في الفراغ، فنلاحظ أنّ طول الجسم المتحرّك L، والمقاس بوساطة ملاحظ خارجيّ يتقلّص مع زيادة السرعة في اتّجاه حركته فقط، وليس في اتّجاه آخر. وعندما تصل سرعة الجسم إلى سرعة الضوء، فإنّ الجسم ينعدم. فالمجوس في حركتهم في المكان المغلق، تنعدم الرؤيا لديهم ويتحوّلون إلى كائنات متعبة محمّلة بعفن الحياة الحضاريّة، حيث العتمة تبهر، والعفن يسكر، كيف لا، والعالم تحوّل بفعل الحركة الحضاريّة السريعة إلى منصّة يطلّ عبرها الإنسان على حياته من غير عيشها بكلّيّتها، فيتمسّك بشبه الضوء المغري، بلونه الأحمر الداعي إلى إغواء الإنسان في حياته الجسديّة والأرضيّة، في مقابل النور الموجود في الشرق، أرض الهيولى، أرض الإله المتجسّد.

3.5. التأثيرات الصوتيّة وسرعة التحوّل في السياق الأدبيّ

عندما نتكلّم على التنسيقات الصوتيّة من المنظور الأسلوبيّ، ومقاربته مقاربة ألسنيّة، يجب أن نبحث في فروع ثلاثة هي علم الصوتيّات (Phonétique)، والأصوات الكلاميّة من حيث وظيفتها اللغويّة (Phonologie) والأسلوبيّة. وعلم الأصوات هو تحليل ألسنيّ وجماليّ للأشكال المختلفة للتعبير الصوتيّ المستخدمة والهادفة إلى إنتاج انطباع يحدّده المتلقّي عند قراءته نصّ المؤلّف، سواء أكان النصّ مكتوبًا أم شفهيًّا. [] يتناول هذا التحليل الأنواع المختلفة للدراسة الأسلوبيّة الصوتيّة، بحيث تتعلّق دراستها بالتشفير المزدوج الذي يحمله الكلام: اللغة نفسها، واللغة بوصفها حالة حاملة للمحتوى، المخفيّة وراء الجانب الصوتيّ أو اللفظيّ للمقاطع الصوتيّة التي ندركها في النّصّ.

يتعلّق المستوى الصوتيّ بدراسة الثوابت الحسّيّة أو المادّيّة (Physique) المستخدمة لتحديث النظام الصوتيّ في المادّة المدروسة أو النّصّ. لذلك يتمّ دراسة وظيفة الأصوات في نظام اللغة، أي قدرتها على مقابلة الكلمات ذات المعاني المختلفة، من الناحية الصوتيّة التي يتمّ اكتشافها من تجاور المقاطع ضمن تنسيقات مختلفة، متّصلة أو منفصلة، أو مجموعة أو مفروقة. باختصار، هي دراسة الأصوات كوحدات مميّزة للمعاني، وخصائصها أو سماتها ووظائفها المختلفة.

1.3.5. التنسيق المتّصل

هنا زادُ المسافر ! /سَاقَنا النجمُ المغامرْ
سَ+اْ / سَ+اْ

سَاقَنا النجمُ المغامرْ
نَ+نْ/ نَ+جْ

في ضبابِ الفَحمِ في لُغْزِ التّجارهْ
بَ+اْ بِ+لْ

في ضبابِ الفَحمِ في لُغْزِ التّجارهْ
فِ+يْ فَ+حْ فِ+يْ

ليلةَ الميلادِ، لا نجمَ/ ولا إيمانَ أطفالٍ بطفلٍ ومغارهْ.
لَ+اْ لَ+اْ / لَ+اْ

أعينٌ ترتدُّ عنْ بابٍ لبابٍ،
تَ+رِ تَ+دْ

أعينٌ ترتدُّ عنْ بابٍ لبابٍ،
بَ+اْ بِ+نْ بَ+اْ بِ+نْ

واهتدَيْنا بسِراجٍ أحمرِ الضوءِ لبابٍ
بَ+اْ بِ+نْ

ولا ديَّانَ يَرمي بالحجارهْ
يَ+اْ يَ+رْ

إخلعوا هذي الوُجوهَ المستعارهْ
هَ+اْ هَ+لْ

نحنُ لم نخلعْ ولم نلبسْ وجوهْ
لَ+مْ لَ+عْ لَ+مْ

نحنُ لم نخلعْ ولم نلبسْ وجوهْ نَ+حْ نَ+خْ نَ+لْ
إخلعوا هذي الوُجوهَ المستعارهْ هَ+اْ هَ+لْ
ودَخَلْنا مثلَ مَنْ يَدخلُ مِ+ثْ مَ+نْ
في لَيلِ المقابِرْ، لَ+يْ لِ+لْ
أوقدَتْ نارٌ، وأجسامٌ تلوَّثْ، أَ+وْ أَ+جْ
رقصةُ النّارِ على ألحانِ ساحرْ، حَ+اْ حِ+رْ
بلَّوْرًا ثُريَّاتٍ، وزُرْقَهْ رَ+نْ رَ+يْ
واستَحالَ العَفَنُ الجَاري/ على الجُدرانِ خَمرًا جَ+اْ جُ+دْ
على الجُدرانِ خَمرًا... رَ+اْ رَ+نْ
"أنتُمُ في جَنَّةِ الأَرْضِ... أَ+نْ أَ+رْ
صَلاةً... إنَّ في الأَرْضِ السماءْ" إِ+نْ أَ+رْ
كَوَّرَ الجَنَّةَ مِنْ لَيْلِ المقابرْ لَ+يْ لِ+لْ
يا الهًا هَارِبًا مِنْ صَرْعةِ الشَّمْسِ هَ+نْ هَ+اْ
يتَخَفَّى في المغارَهْ فَ+ىْ فِ+لْ

في كُهوفِ العَالَمِ السُّفليّ
فِ+يْ فِ+لْ

2.3.5. التنسيق المنفصل

مِن هنا الدَّربُ، هنا النَّجمُ/ هنا زادُ المسافر!
هُ–نَ هُ–نَ هُ–نَ

شارعٌ يفرغُ... ضحكاتٌ حزينَهْ
رِ–عُ رَ–غُ

واستَحالَ العَفَنُ الجَاري/ على الجُدرانِ خَمرًا
عَ–فَ عَ–لَ

3.3.5. تنسيق مفروق

سَاقَنا النجمُ المغامرْ
مُ+لْ مُ–غَ

ثمَّ ضَيَّعناه في لندنَ، ضِعْنا/ في ضبابِ الفَحمِ في لُغْزِ التّجارهْ.
ضِ+عْ ضَ–بَ

ليلةَ الميلادِ،
لَ+يْ لَ–تَ

ليلةَ الميلادِ...
لَ+يْ لَ–تَ

وانحدرْنا في الدهاليزِ اللعينهْ،
دَ+رْ دَ–هَ

وانحدرْنا في الدهاليزِ اللعينهْ،
لِ+يْ لَ–عِ

أعينٌ نَسأَلُها: أينَ المغارَهْ؟
أَ+عْ أَ–لُ

ها هُنا الوَرْدُ بِلا شَوْكٍ
هَ+اْ هُ–نَ

نحنُ لم نخلعْ ولم نلبسْ وجوهْ
نَ+حْ نُ–لَ

نحنُ مِنْ بيروتَ، ماساةً، وُلِدْنا نَ+حْ نُ–مِ
ودَخَلْنا مثلَ مَنْ يَدخلُ خَ+لْ خُ–لُ
وَرَكَعْنا خُشَّعًا لِلكيمِياءْ/ وَلِساحِرْ لِ+لْ لِ–سَ
كَوَّرَ الجَنَّةَ مِنْ لَيْلِ المقابرْ مِ+نْ مَ–قَ

4.3.5. تنسيق مجموع

حُفِرَتْ فيه عِبَارَهْ: فِ–رَ فِ+يْ
"جنةُ الأرضِ! هُنا لا حَيَّةً تُغْوي نَ–تُ نَ+أْ
"أنتُمْ في جَنَّةِ الأَرْضِ... تُ–مُ تِ+لْ
"أنتُمْ في جَنَّةِ الأَرْضِ/ صَلاةً... إنَّ في الأَرْضِ السماءْ" ضِ–صَ ضِ+سْ

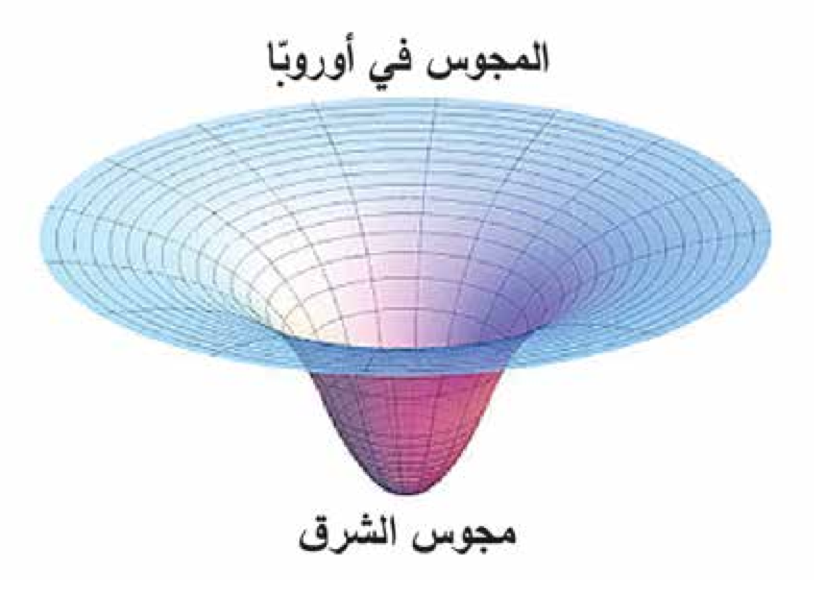
في قصيدة الشاعر حاوي العديد من التنسيقات الصوتيّة المختلفة، التي تَبرز لِتُوقّع النّصّ بإيقاعاتها الخفيّة إلاّ على العالم بشيفراتها الموسيقيّة، التي تدلّ القارئ، وبشكل غير مقصود، إلى عمق الكاتب وروح المؤلّف، وهذه السّمة الأبرز من السمات التي تضيئها الأسلوبيّة التكوينيّة أو أسلوبيّة الفرد.

واللافت أنّ الشاعر عن قصد أو غير قصد يُبرز الأصوات التي تدلّ تنسيقاتها على الاتّصال، كما يبيّن الجدول السابق (27 تنسيقًا متّصلاً) في مقابل (3 تنسيقات منفصلة) و(13 تنسيقًا مفروقًا) و(5 تنسيقات مجموعة). وفي العمليّة الإحصائيّة السابقة، يتبيّن أنّ الأصوات التي تدّل على الاتّصال تشكّل أكثر من خمسين بالمئة من الأصوات الموجودة في القصيدة كلّها، والأصوات التي تدلّ على التفرقة تشكّل تقريبًا 25% من أصوات القصيدة.

هذا في الواقع المسموع. أمّا من الناحية العمليّة، فنستند إلى دراسة تغييرات الصوت البشريّ، ونتعامل بشكل أساس مع الاختلاف الصوتيّ، وخصوصًا في حال نتجت عنه ردّة فعل أو تأثير على المستمع. فترتبط ردّة الفعل أو التأثير على القارئ بسرعة الإيقاع في النصّ، فلا يترك الكاتب فرصة للعين والأذن بتلقّي النصّ لأنّ الحركة متناهية إلى الروح، والأنفاس لاهثة متوتّرة تتعزّز بحركة التنسيقات المتّصلة التي لا تنفكّ تتناغم مع اتّصال المجوس بشرقهم، بمكانهم الأوّل، المكان الذي يشدّهم دائمًا إلى محوره كفعل فيزياء الحركة التي تشدّ الإنسان إلى محوريّة الكوكب.

والسرعة في الإيقاع والأصوات ناجمة عن التكريرات الحاصلة في التنسيقات الصوتيّة فكلّها تكرريرات معجّلة، ما يُحدث انطباعًا عند القارئ بسرعة الحياة، وسرعة القول(سَاقَنا النجمُ المغامرْ نَ+نْ/ نَ+جْ) (شارعٌ يفرغُ... رِ–غُ رَ–غُ)، (سَاقَنا النجمُ المغامرْ مُ+لْ مُ–غَ) (حُفِرَتْ فيه عِبَارَهْ فِ–رَ فِ+يْ)؛ هذه التنسيقات تدلّ على التكريرات المعجّلة في اللغة، وبالتالي فهي تعكس روح الشاعر التوّاقة إلى العودة بالزمن إلى الشرق حيث الضوء الأزليّ.

ولمّا كان الفراغ مسطّحًا، بينما بالقرب من المركزيّة الدوران انحناء، فإنّ المجوس بانتقالهم إلى أوروبّا، وصلوا إلى الفراغ حيث ظهرت مفردات الشاعر دالّة عليها " ضباب، لا نجم، المستعاره، ليل، إلهًا هاربًا..." ما يدلّ على ضبابيّة الصورة في المكان الجديد، وهو العالم السفليّ، العالم المظلم، فلا نور ولا حياة، بل ظلمة أبديّة. وبإمكاننا تخيّل شكل المكان بالقرب من الضوء أي الإله، أو بالابتعاد عنه كالتالي:



وفي النهاية، نقول إنّ وجود المادّة في الفيزياء والحضارة في الحياة يؤدّيان إلى انحناء الزمكان، وانحناء هذا الأخير إضافة إلى سرعة الحركة، يمليان على الجسم كيفيّة الحركة.

المعالجة النّصّيّة لفرادة اللغة وخصائصها الأسلوبيّة

إذا كان لا بدّ من شيوع مصطلح عامّ شائع هو الأسلوب، فهو لأنّه يوجد شرطان هما: الحضور في الخطاب، وانزياحات اللغة عن أشكالها القياسيّة المعروفة من جهة، وتكرار ظهور هذه الانزياحات. فاللغة الحاملة للنّصّ تؤثّر في شكلها المعياريّ أو القياسيّ على فهم معانيه، إلاّ أنّ الفرادة التي تنتج عن لغة كاتب معيّن تظهر عبر الانزياح الحاصل فيها، وعبر التأكيد على هذا الانزياح بتكراره في غير موضع. فتصبح اللغة، لغة الكاتب المنزاحة، أصلاً عنده تميّزه عن غيره من المبدعين. فليس بالضرورة مراقبة أي خرق لعياريّة اللغة وللقاعدة النحويّة الأساس، لأنّ القارئ سيشعر بها عند تكرارها في النّصّ الأدبيّ الخاصّ بكاتب معيّن، وهو ما يُتّفق على تسميته بالأسلبة (le Stylème).

ولمّا كان الأسلوب مبنيًّا على نظريّة اللغات الفرديّة، سواء أكانت أدبيّة أم لم تكن، كان لا بدّ من دراسة البنى الألسنيّة الخاصّة بخليل حاوي من خلال قصيدة المجوس في أوروبّا، للعثور على ناحية الفرادة في أسلوبه.

1.6. الاستفهام: انزياح عن مركزيّة المكان

اتّجهت الدراسة الألسنيّة عدّة اتجاهات وذلك من دوسوسير حتّى يومنا، وما تزال بفعل التطوّر الحاصل في اللغة، وكونها مجموعة عادات صوتيّة يكيّفها حاجز البيئة، فلا تخلو من كونها شكلاً من أشكال المثير والاستجابة. لذلك نهتمّ بالقدرة الإبداعيّة (Créativité) للّغة، لكي نتمكّن من إنتاج جمل خاصّة تنزاح عن الاستخدام الحقيقيّ لها، فنتمكّن عندها من تمييز القدرة الفرديّة والفريدة للكاتب في إنتاج عالم لغويّ خاصّ.

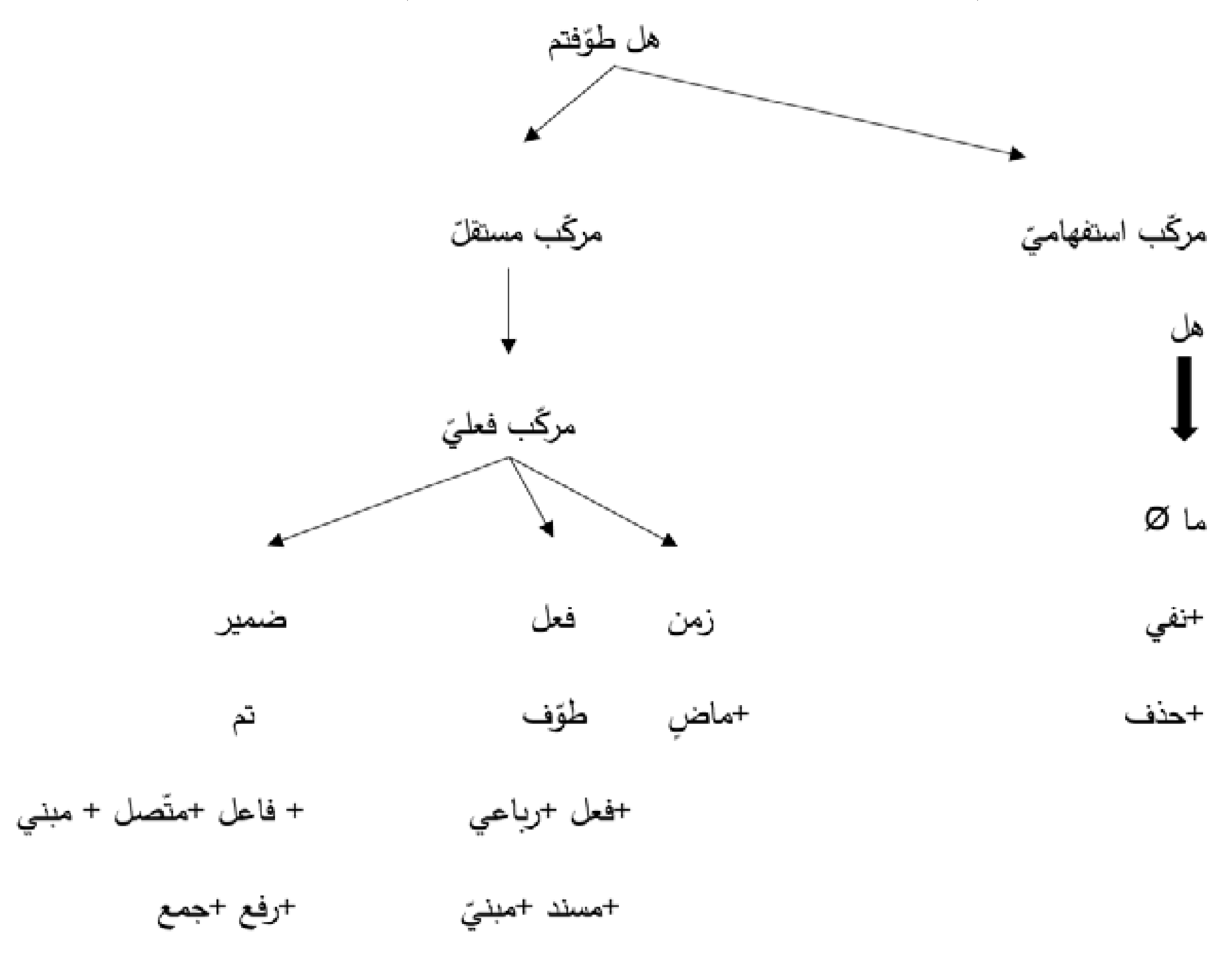
ومن يقرأ عالم الشاعر اللغويّ، يستدلّ من روح النصّ على صورة لغويّة مكرّرة هي صورة الاستفهام.

"**هل طَوَّفْتُمُ ...**"

"**... أينَ المغارَهْ؟**"

والاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبيّ، وهو "طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصّة". وهو "اسم مبهم يُستعلم به عن شيء". ويكون الاستفهام بحروف معينة وأسماء محدّدة وظروف معروفة لكلّ منها معنى خاصّ إضافة إلى المعنى الأساسيّ الذي وضعت من أجله وهو الاستفهام أو السؤال. وليس في الاستفهام أدوات خاصّة بالاسم وأدوات خاصّة بالفعل إلا (أي) فإنها خاصّة بالأسماء. وبذلك تكون لأسلوب الاستفهام أهميّة بالغة في اللغة العربيّة، وتكمن هذه الأهمّية في الدور الذي يؤدّيه في عمليّة التواصل بين البشر، ووظيفته التبليغيّة والحجاجيّة. وإذا كان معلومًا أنّ التواصل لا يتمّ إلاّ استنادًا إلى التخاطب، فإنّ الاستفهام أبرز أدوات هذا التخاطب، لأنّه يجسّد دورة التخاطب حيث يتوفّر على مرسِل ومرسَل إليه ومرسَلَة.

ولمّا كان الاستفهام خطابًا، تنوّعت أغراضه، فقد يكون حقيقيًّا وقد يكون مجازيًّا، وهو في كلّ هذا تتغيّر أشكاله وأغراضه، الأمر الذي جعل النحاة يدرسونه دراسة تحليليّة. ولهذا كان الاستفهام عنصرًا من العناصر النحويّة المهمّة، حيث إنّ مَن يتصفّح المصادر النحويّة يجدها تخصّص له حيّزًا كبيرًا في طيّاتها، كما يجدها تزخر بكمّ هائل من أقوال أوائل النحاة عن أدوات الاستفهام.



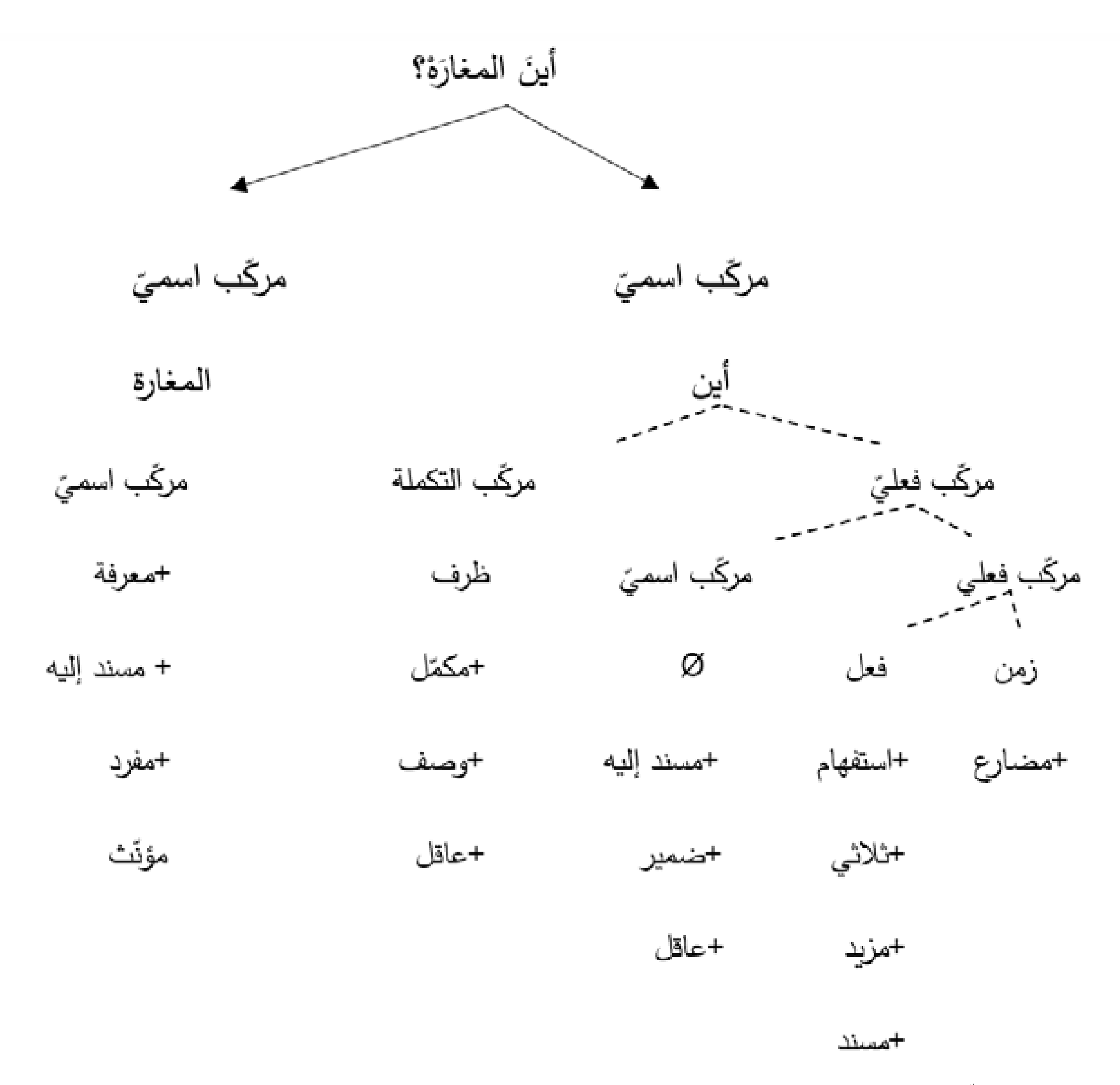
تمّ تحويل المركّب الاستفهاميّ السابق من البنية العمقيّة إلى البنية السطحيّة عن طريق القواعد التحويليّة التالية:

- **الحذف الإجباري**

تمّ حذف مركّب النفي (ما) الذي يعطي معنى الإنكار.

- **الإحلال أو التعويض**

حلّ مركّب الاستفهام (هل) محلّ مركّب النفي (ما).



تمّ تحويل المركّب الاستفهاميّ السابق من البنية العمقيّة إلى البنية السطحيّة عن طريق القواعد التحويليّة التالية:

- **الحذف الإجباريّ**

تمّ حذف المركّب الفعليّ ومركّب التكملة (أستفهم ظرف) حذفًا إجباريًّا.

- **الإحلال**

حلّ مركّب الأداة (أين) محلّ المركّبين السابقين المحذوفين. وتمّ إحلال مركّب النغمة الهابطة محلّ النغمة الصاعدة في مركّب الاستفهام.

- **التقديم**

تمّ تقديم مركّب الأداة الدّال على الاستفهام (أين/ الخبر) على المركّب الاسميّ (المبتدأ)

فحاوي بلسان المجوس يستفهم عن أرض الحضارة في مشهد يصوّر فيه العالم الذي رسمه المجوس في ذاكرتهم العامّة؛ فحين ذهبوا إلى أرض باريس ولندن وروما ليجدوا الإله الجديد الذي سيولد، فتّشوا في الذاكرة الجماعيّة عن المكان الأصليّ له، فتبادر إلى ذهنهم المكان الأوّل الذي وصلوا إليه في الشرق. لكنّهم فتّشوا ولم يعثروا على ذاك المكان المنظور.

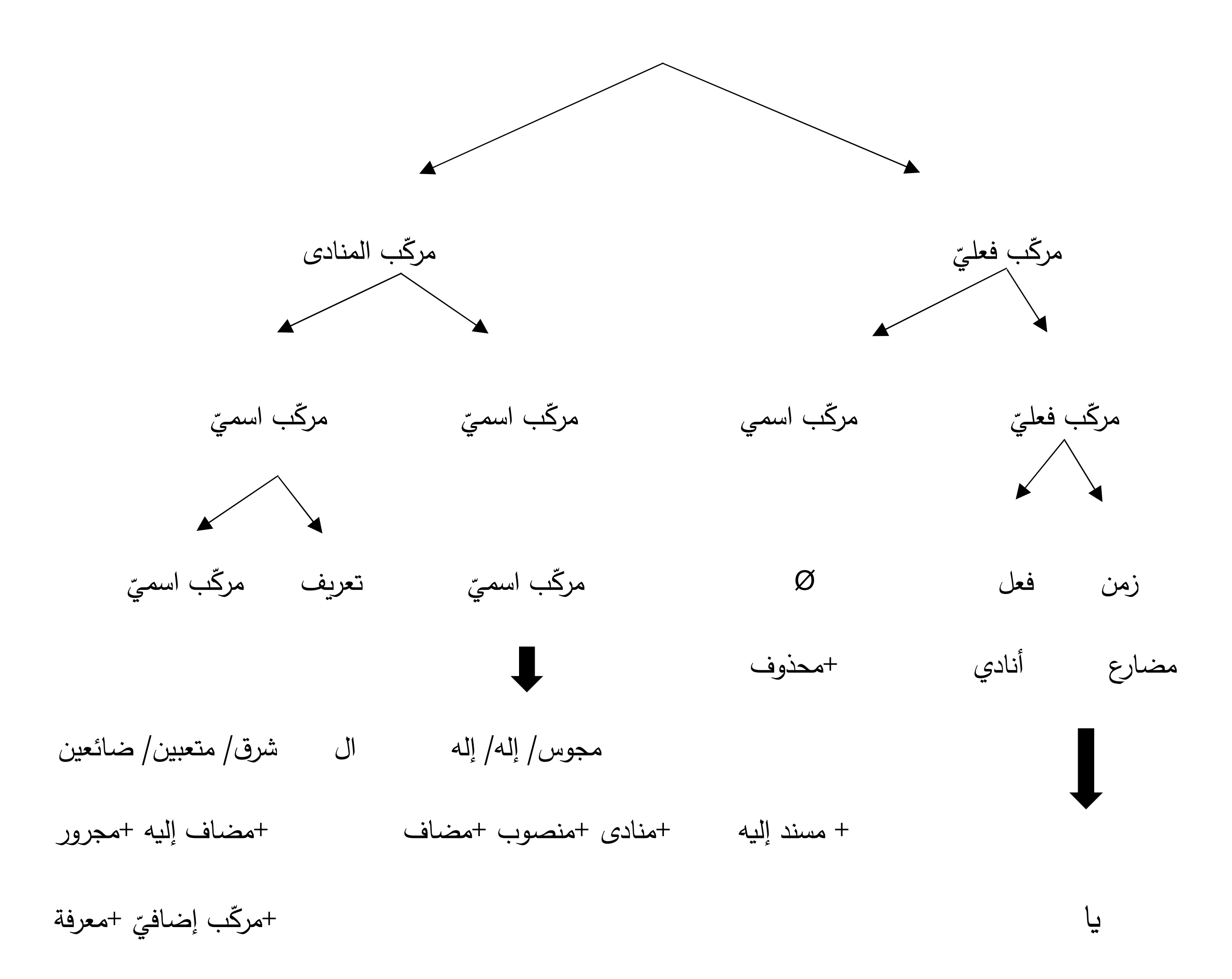
فجاء الاستفهام بصورتين مختلفتين، الأولى صورة العارف الذي لا جدال عنده، عبر أداة الاستفهام (هل) التي تدلّ في مضمونها على الإجابة المحدّدة [نعم/لا]. والصورة الثانية هي صورة الجاهل الذي يريد أن يفتّش عن المكان عبر اسم الاستفهام (أين)، وهو عامل، يدلّ على المكان، لكن من غير تحديده.

2.6. النداء: العودة إلى الجذور

النداء هو "كلّ اسم مضاف فيه فهو نصبٌ على إضمار الفعل المتروك إظهاره. والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب." والنداء في عرفِ النحاة وعلماء البلاغة العرب هو توجيه الدعوة إلى المخاطب وتنبيهه، للإصغاء وسماع ما يريده المتكلم بأحد أحرف مخصوصة، تعرف باسم أحرف النداء، ينوب كل حرفٍ منها مناب الفعل (أدعو) أو (أنادي).

"يا مجوسَ الشرقِ"
"يا إلهَ المتْعَبينْ
يا إلهَ الضائِعينْ
يا إلهًا هاربًا

يا مجوسَ الشرقِ/ يا إلهَ المتْعَبينْ/ يا إلهَ الضائِعينْ



تمَّ تحويل تركيب النداء في الجُمل السابقة من البنية العمقيّة إلى البنية السطحيّة، وذلك عن طريق الحذف، والزيادة، والإحلال أو التعويض.

- **الحذف**

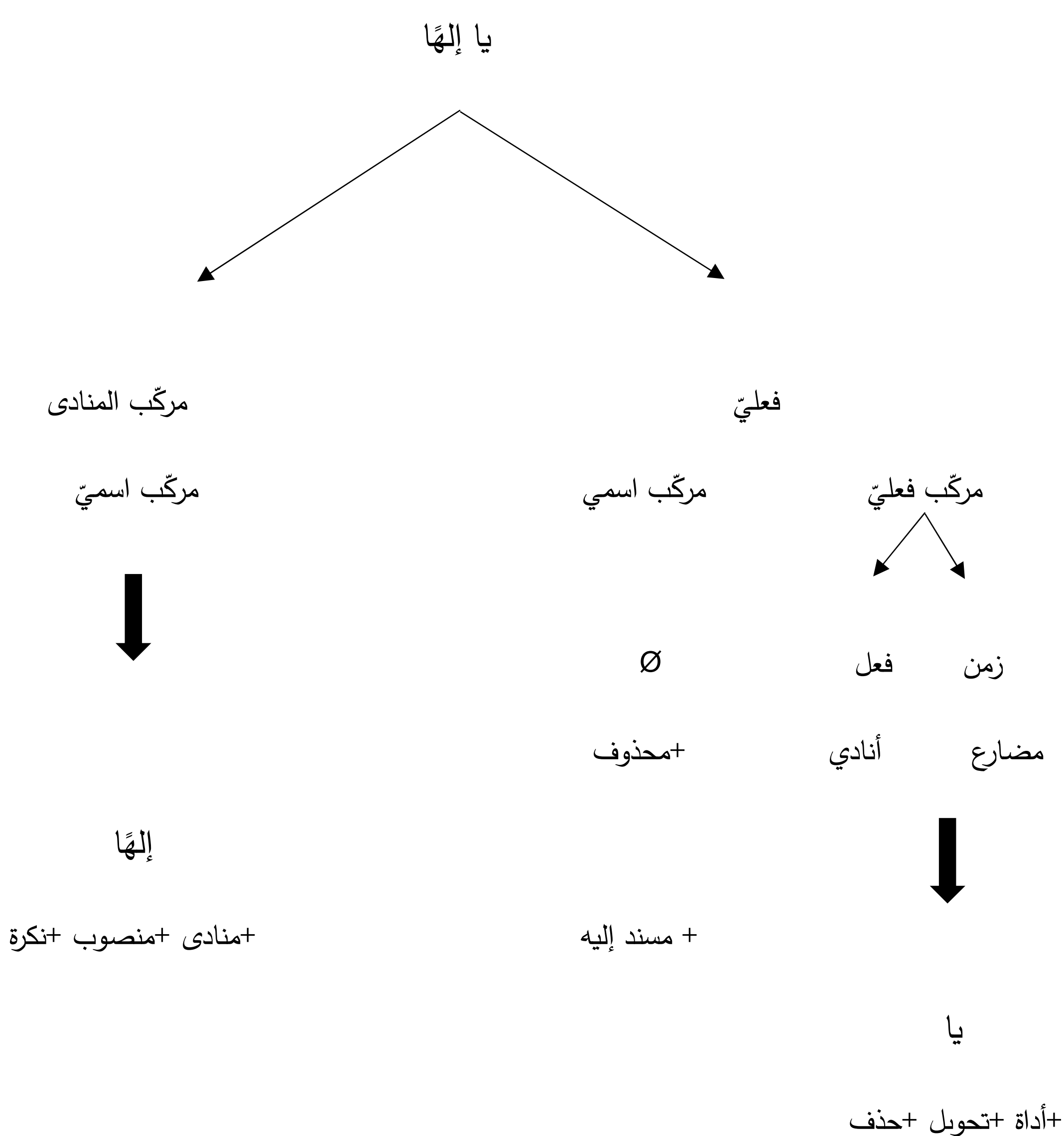
تمّ حذف المركّب الفعليّ الدالّ على النداء (أنادي) بجميع مكوّناته، حذفًا إجباريًّا. كما تمّ حذف المركّب الإضافيّ (المضاف إليه الياء) في (ربِّ)

- **الزيادة**

تمّت زيادة مركّب الأداة الدّال على النداء (يا) بجميع مكوّناته، لإفادة مدلول النداء.

- **الإحلال أو التعويض**

تمّ إحلال مركّب الأداة (يا) محلّ المركّب الفعلي (أنادي)



تمّ تحويل تركيب النداء في الجُمل السابقة من البنية العمقيّة إلى البنية السطحيّة، وذلك عن طريق الحذف، والزيادة، والإحلال أو التعويض.

- **الحذف**

تمّ حذف المركّب الفعليّ الدّال على النداء (أنادي) بجميع مكوّناته، حذفًا إجباريًّا.

- **الزيادة**

تمتّ زيادة مركّب الأداة الدّال على النداء (يا) بجميع مكوّناته، لإفادة مدلول النداء.

- **الإحلال أو التعويض**

تمّ إحلال مركّب الأداة (يا) محلّ المركّب الفعلي (أنادي)

يبدو النداء في القصيدة بصورتين متوازيتين في الشكل، مختلفتين في المضمون، متوافقة مع ما ذكره النحاة العرب من مبادئ وأسس، حيث جاء هذا التركيب مع أداة النداء (يا).

أمّا تراكيب النداء، في بنيتها العمقيّة، تراكيب فعليّة، وأداة النداء قد حلّت محلّ المركّب الفعلي (أنادي) فيكون المنادى بالتالي منصوبًا على المفعوليّة، وهذا ما ذكره سيبويه في المكان السابق ذكره.

وهكذا، يعتبر تركيب النداء في الأنموذجات السابقة صورة صوتيّة منقلبة عن صورة منطقيّة، تتدرّج في أصل بنائها التركيبيّ تحت مركّب فعليّ، يتفرّع إلى قسمين؛ الأوّل فعل رئيس ينقسم بدوره إلى قسمين مركّب فعليّ (أنادي) ومركّب اسميّ محذوف، والثاني هو مركّب المنادى.

بعدها، يتحرّك المركّب الفعليّ (أنادي) من موقعه الأصليّ في الجُملة، المتفرّع عن الفعل الرئيس، تاركًا وراءه في الزمن الذي يؤشّر إلى سمة المضارع، ويتحرّك المفعول به إلى موقع آخر هو مركّب المنادى ليؤشّر لسمات عديدة مذكورة عند كلّ تركيب.

وبذلك، ينقلب المركّب الفعليّ والفاعل (أنادي) إلى حرف نداء (يا) والمفعول به إلى منادى، ومن ثمّ تنقلب الجُملة من فعليّة إلى شبيهها الصوتيّ "أسلوب النداء.

وفي مراجعة النداء البارز في القصيدة، نعثر على صوت الشاعر الضائع في المجهول يفتّش عن الخلاص، عن الجذور التي تربطه بلا وعيه الجماعيّ، حيث يتوجّه النداء إلى إله هو الأصل والجذر والخلاص. وفي ذلك يحاكي الشاعر البطل التراجيديّ الأسطوريّ الذي يفتّش عن الحقيقة التي يعرفها، لكنّه يأبى تصديقها، على غرار ما فعل "أوديب" في "Oedipe Roi" لسوفكل.

خاتمة عامّة

شهد القرن العشرون انقلابًا خطيرًا في النظريّات الفيزيائيّة وثورة في الأفكار والمفاهيم التي مهّدت لوصول نظريّة النسبيّة الأينشتاينيّة، الأمر الذي أدّى إلى تغيير كامل لنظريّة نيوتن الحركيّة لأنّها ربطت، كما لاحظنا أجزاء تلك النظريّة بسرعة الضوء، حيث يمكن عبر ذلك تفسير أجزاء النظام الشّمسيّ، إضافة إلى أنّ سرعة الضوء لحدّ اليوم تُعَدُّ أقصى سرعة وصلنا إلى تدوينها.

وبما أنّ المكان مرتبط بالزمان لا محالة، فلا يمكن فصلهما عن بعض في العمليّة العلميّة والمنطقيّة. لذلك فإنّ دراسة المكان وفيزيائه في قصيدة المجوس في أوروبّا للشاعر خليل حاوي، فرض درسًا للزمان الذي ارتبط بذاك المكان المدروس، لأنّه لا يمكن تحديد المكان إلاّ بمعرفة الاتجاه والهدف. ما دفع بالشاعر في قصيدته بالاستعانة بالمجوس رمزًا للتفتيش عن الحضارة الجديدة، الحضارة التي أبهرت الكون وجعلته لا يرى سواها.

فالمجوس عند "حاوي" ليسوا إلاّ نحن الذين ابتعدنا عن محوريّة الضوء ومركزيّته، مركزيّة المعرفة، معرفة الإله الذي تجسّد بالحرف والكلمة لونًا أبديًّا، يخترق فيزياء المكان في هذا الزمن.

وهكذا، من خلال دراسة النّصّ، وبالاستعانة بالأسلوبيّة التكوينيّة، استطعنا اختراق عالم الشاعر حاوي، والتعرّف إلى فرادة الأسلوب عنده، في الإيقاع والتركيب، وما يميّز ذاك الأسلوب عن غيره من أساليب الكتابة الشعريّة، لنجده عالَمًا مشحونًا بالتناقضات، لكنّها مشدودة إلى فعل الخلق، الذي ظهر بمظهر الضوء ومركزيّته المشدودة كما الكون إليه.

وأخيرًا نقول، إنّ المفهوم الذي نتداوله جميعًا يعود إلى أنّ المبدع يصنع نفسه أمام الورقة (Devant le papier l’artiste se fait)، على حدّ قول مالارميه (Mallarmé) وهذا المبدأ يدعم المبدع في عمله الإبداعيّ، لأنّه يتوجّه منه مؤسّسًا لعالمه الخاصّ، لكنّ الناقد، الرائيّ، يغيّر هذه المقولة إلى أخرى تقول: أمام عين الناقد يصنع المبدع نفسه.

حواشي البحث

[1] حسين الكريمي، الجاذبيّة موجز مبسّط للجذب العام والنسبيّة، جمعيّة رؤيا لهواة الفلك، لا سنة، ص4.

[2] ألبرت آينشتاين وليوبولد أنفلد، تطوّر الفيزياء، تر. علي المنذر، أكا ديميا، بيروت، 1993، ص 134.

[3] فرانسوا بالليبار، آينشتاين غاليلو ونيوتن (المكان والنسبيّة)، تر. سامي أدهم، ط1، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص112.

[4] المرجع نفسه.

[5] خليل حاوي، ديوان حليل حاوي، دار العودة، بيروت، 2001، ص 137-146.

[6] Michel Paty, Les conceptes de la physique, Université paris 7- Denis Diderot, Paris, 2001, P 201

[7] .حسن بلال، ألبرت آينشتاين، ط1، الهيئة العامة السوريّة للكتاب، دمشق، 2012، ص 14

[8] Jean-marc Vercruysse, Les (Rois) mages, Atrois presses université, France, 2011, P.24

[9] B. Malmberg, Les nouvelles tendencies de la linguistiques, PUF, Paris, 1968, P 109.

[10] Pierre Guiraud, La stylistique, P.U.F, Paris, 1972, P11.

[11] Leo Spitzer, Etudes de Style, Gallimard, Paris, 1970, P 54

[12] Ibid, P 56.

[13] Jean Starobinski, La relation critique, Edition Gallimard, Paris, 1970, P 24-25.

[14] رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ط1، دار المعارف، مصر، 1993، ص 126.

[15] Leo Spitzer, Etudes de Style, Ibid, P 24.

[16] Michel Paty, Les conceptes de la physique,Ibid, P 1

[17] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 139.

[18] Berger, E, La reprise comme resource interactionnelle, TRANEL, 2008, P 57.

[19] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 139.

[20] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 141 – 142.

[21] Otto Jesperson, Language, Its nature development and origin, Henry holt & company, New york, 1922, P123-14

[22] Jean Chevalier, Alain Gherbrant, Dictionnaire des symbols, Edi. Robert Laffont/ Jupiter, Paris, 1990, P 796.

[23] Carles Bally, L'étude systématique des moyens d'expression", in sur la stylistique, Eurédit, Paris, 2007, P 116.

[24] Pierre Fontainier, Les Figures du Discours, introduction par Gérard Genette, Flammarion, Paris, 1977, P429.

[25] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 141-143-144-145-146.

[26] هاوارد أيزنبرغ، الفضاءات الداخليّة للاستكشافات الباراسيكولوجيّة للعقل، تر. الحارث عبد الحميد وأسيل عبد الرزاق، بغداد، 2001، ص 22

[27] رزق الله الياس قسطنطين، تشكّل الـ"أنا" الشعريّ في "شيخ الغيم وعكّازه الريح" لـ"جوزف حرب"، ط1، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2011، ص 154.

[28] https://www.universalis.fr/dictionnaire/phonostylistique/ consulté le 22/8/2018

[29] Anne Lacheret-Dujour, La Prosodie des circonstants en francais parlé, Collection linguistique publiée par la société de linguistique de paris LXXXV, Edi. Peeters, Leuven, Paris, 2003, VII

[30] Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, Payot, Paris, 1995, P 55-56.

[31] Pierre Léon, Précisde phonostylistique: Parole et expressivité, Armand Collin, Paris, 2005, P 4.

[32] Jean Molino, Pour une théorie sémiologique du style, in P. Cahné et G. Molinié dir., Qu'est ce que le style?, PUF, 1994, P 221-222.

[33] François Rastier, Le problème du style pour la sémantique du texte, in P. Cahné et G. Molinié dir., Qu'est ce que le style?, PUF, 1994, P 277.

[34] ميشال زكريّا، مباحث في النظريّة الألسنيّة وتعليم اللغة، ط2، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص 56.

[35] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 139، 141.

[36] عبد العزيز عتيق، علم المعاني، لا ط، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص 96.

[37] مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربيّة، مراجعة سالم شمس الدين، لا ط، المكتبة العصريّة، بيروت، 2007، ص 104.

[38] أبو الفتح عثمان ابن جني، كتاب اللمع في العربية، تحقيق فائز فارس، ط2، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، 1990، ص 137.

[39] سيبويه ، كتاب سيبويه، تح. عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، لا تا، بيروت، ج2، ص 182

[40] خليل حاوي، المصدر السابق، ص 139، 145.

ثبت المصادر والمراجع

المراجع العربيّة والمعرّبة

1. ابن جني، أبو الفتح عثمان، كتاب اللمع في العربية، تحقيق فائز فارس، ط2، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، 1990.
2. أيزنبرغ، هاوارد ، الفضاءات الداخليّة للاستكشافات الباراسيكولوجيّة للعقل، تر. الحارث عبد الحميد وأسيل عبد الرزاق، بغداد، 2001.
3. آينشتاين ألبرت وليوبولد أنفلد، تطوّر الفيزياء، تر. علي المنذر، أكا ديميا، بيروت، 1993، ص 134.
4. باليبار فرانسوا، آينشتاين غاليلو ونيوتن (المكان والنسبيّة)، تر. سامي أدهم، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص112.
5. بلال، حسن، ألبرت آينشتاين، ط1، الهيئة العامة السوريّة للكتاب، دمشق، 2012.
6. حاوي، خليل ، ديوان حليل حاوي، دار العودة، بيروت، 2001، ص 137-146.
7. زكريّا، ميشال، مباحث في النظريّة الألسنيّة وتعليم اللغة، ط2، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985.

8. سيبويه، (أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، كتاب سيبويه، تح. عبد السلام هارون، ط1، بيروت، دار الجيل، لا ت.
9. عتيق، عبد العزيز ، علم المعاني، لا ط، دار النهضة العربية، بيروت، 1974.
10. عيد، رجاء، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ط1، دار المعارف، مصر، 1993.
11. الغلاييني، مصطفى، جامع الدروس العربيّة، مراجعة سالم شمس الدين، لا ط، المكتبة العصريّة، بيروت، 2007.
12. قسطنطين، رزق الله الياس ، تشكّل الـ"أنا" الشعريّ في "شيخ الغيم وعكّازه الريح" لـ"جوزف حرب"، ط1، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2011.
13. الكريمي، حسين، الجاذبيّة موجز مبسّط للجذب العام والنسبيّة، جمعيّة رؤيا لهواة الفلك، (لا سنة).

المراجع الأجنبيّة

1. Bally, Carles, L'étude systématique des moyens d'expression", in sur la stylistique, Eurédit, Paris, 2007.
2. Berger, E., La reprise comme resource interactionnelle, TRANEL, 2008.
3. Chevalier, Jean, Gherbrant, Alain, Dictionnaire des symbols, Edi. Robert Laffont et Jupiter, Paris, 1990.
4. De Saussure, Ferdinand, Cours de linguistique générale, Payot, Paris, 1995.
5. Fontainier, Pierre, Les Figures du Discours, introduction par Gérard Genette, Flammarion, Paris, 1977.
6. Guiraud, Pierre, La stylistique, P.U.F., Paris, 1972.
7. Jesperson, Otto, Language, Its nature development and origin, Henry holt & company, New york, 1922.
8. Lacheret-Dujour, Anne, La Prosodie des circonstants en francais parlé, Collection linguistique publiée par la société de linguistique de paris LXXXV, Edi. Peeters, Leuven, Paris, 2003.
9. Malmberg, B., Les nouvelles tendencies de la linguistiques, PUF, Paris, 1968.
10. Molino, Jean, Pour une théorie sémiologique du style, dans P. Cahné et G. Molinié dir., Qu'est ce que le style?, PUF, 1994.
11. Paty, Michel, Les conceptes de la physique, Université paris 7 Denis Diderot, Paris, 2001.
12. Pierre, Léon, Précisde phonostylistique: Parole et expressivité, Armand Collin, Paris, 2005.
13. Rastier,François, Le problème du style pour la sémantique du texte, dans P. Cahné et G. Molinié dir., Qu'est ce que le style?, PUF, 1994.
14. Spitzer, Leo, Etudes de Style, Gallimard, Paris, 1970.
15. Starobinski, Jean, La relation critique Edition Gallimard, Paris, 1970.
16. Vercruysse, Jean-marc, Les (Rois) mages, Atrois presses université, France, 2011.

الهجرة والمكان في كلمات الأغاني اللبنانيّة

د. منى مارتينوس
علوم اجتماعية/ الجامعة اللبنانية

مقدمة

إن عمر الهجرة اللبنانيّة من عمر تاريخ لبنان، من عمر هذا الشعب الّذي أحب المغامرة والكفاح، وأكثر ما أحبّه هو الحريّة. لاحت أولى مشاهد الهجرة مع السفن الفينيقيّة حيث شقت عباب البحار وقطعت المسافات لتنشئ المستعمرات، وتتبادل السلع، وتنشر الأبجديّة....

الهجرة هي أبجديّة العيش في قاموس اللبناني، تدخل في الأدب والأغاني، ولعل النفاذ إلى مكنونات النفس البشريّة عبر ما قالته الأغاني، أمرٌ فائق الأهميّة في تصوير أنماط التفكير وصيغ التعبير وسمات الذهنيّة...فالغناء عُرف على مرّ العصور بأنه وسيلة للتعبير عن الحياة النفسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة والإبداعيّة. والأغاني هي الحامل الحقيقي للمشاعر تتلقاها الآذان والقلوب تتبنّاها وترددها وتعيش معانيها على مدى السنين، تدور في فلكها أجيال متتابعة تتوارث مكنوناتها الحضاريّة في مختلف مستوياتها.

الهجرة بكل نواحيها موضوع قديم وعصري وملحّ. أما الدراسات حول الموضوع المتناول، وهو علاقة المكان بأغاني الهجرة، وتحديداً من زاوية أنتروبولوجية، فهي دراسات حديثة العهد وقليلة في هذا الحقل المعرفي، وبهذا يشكل الموضوع إضافة معرفيّة للعلوم الاجتماعيّة والأنتروبولوجيّة، وخاصة أن البحوث الّتي تشبهه قليلة جداً.

الأنتروبولوجيا الثقافيّة هي فرع من علم الأنتروبولوجيا وهي تهتم بدراسة الثقافة الانسانيّة وتعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته، وهي كما تدرس الشعوب القديمة تدرس الشعوب المعاصرة. وأنتروبولوجيا المكان تتفرع من الأنتروبولوجيا الثقافيّة، فدراسة المكان كأبعاد مميزة للثقافة، بصرف النظر عن الحسابات الإثنوغرافيّة قد ولّدت منذ التسعينيات عدداً من مجالات البحث الأنثروبولوجي، إذ غالباً ما كان يتم تعريف المكان من خلال مفهوم هندسي أو رياضي أو قابل للقياس، بينما يشير المكان بالمعنى المجرّد إلى المعاني الثقافيّة الّتي يعبر عنها الناس بالنسبة لموقع أو مكان معين.

تكثّفت اهتمامات علماء الأنثروبولوجيا الخاصة بالمكان أثناء إعادة الهيكلة الاقتصاديّة العالميّة في أواخر القرن العشرين وتدفقات الهجرة. وعلى الرغم من أن العوامل المكانيّة والبيئيّة كانت موجودة دائماً في الإثنوغرافيات، إلا أنها ظهرت في أغلب الأحيان كخلفيّة من دون إثارة اهتمام. ولكن التحليلات البنيويّة

المعاصرة الّتي تركز على التفسيرات الرمزيّة تفسح المجال لدراسة وتفسير الظواهر الثقافيّة كالتنقل والنزوح والهجرة، وصنع المكان وبناء الهويّة، لتعكس الأبعاد الاجتماعيّة والرمزيّة والإنتاج الاجتماعي وترسم الخطوط العريضة لبعض التطورات في مجالات البحث الجديدة الّتي تأخذ مفهوم المكان على محمل الجد. وبما أن علم الأنتروبولوجيا يدرس الإنسان في مختلف نشاطاته الفكريّة والثقافيّة، فيصبح من المهم أخذ الأغنيّة الشعبيّة موضوعاً على اعتبار أن الأغنية الشعبيّة هي نتاجٌ فكريٌ محملٌ بالعديد من الدلالات، ودراستها تمكننا من فهم وإدراك الخصائص والخلفيات الفكريّة والثقافيّة للمجتمع.

فالهدف إذاً من هذه الدراسة هو فهم الظاهرة الثقافيّة الّتي تحددت في هذا البحث ألا وهي إبراز خصوصيّة المكان في أغاني الهجرة اللبنانيّة، وتفسير المراحل التطوريّة لها، وذلك من خلال تحليل طبيعة العلاقة بين نمط الانتاج الفكري ومعطيات البنية الاجتماعيّة، وتحديد وظيفة هذا الانتاج في المجتمع المدروس. وبهذا تضيف الدراسة حجراً على البناء العلمي الّذي لا نهاية له.

ومن خلال هذه المعطيات يمكننا طرح سؤالين وهمت: ما هي علاقة المكان بثقافة المهاجر أو المهجّر؟ وكيف يبرز تأثير المكان على ثقافة الفرد من خلال الأغاني؟

هذه الدراسة استوجبت استعمال المنهج البنيوي الّذي ينظر إلى البنى الاجتماعيّة الّتي تقوم عليها ثقافة مجتمع بوصفها مستقلة عن معرفة الأفراد وعن أفعالهم، باعتبار أن طريقة تفكير الأفراد لها بنية كامنة، تُحدّد ما يفكّر به الفرد. والبنيويّة هي منهج بحث يقوم على دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر الأساسيّة المكونة لبنى يمكن أن تكون مجرّدة أو محسوسة. ومن أبرز من عمل ضمن إطارها "فريديناند دي سوسير" (Ferdinand de Saussure)، "كلود ليفي ستروس"(Claude Lévi–Strauss)، "إميل دوركايم" (Émile Durkheim)، وغيرهم.

تمّ استخدام أسلوب التحليل النوعي الّذي يتّسم بالقدرة على استطلاع البنى ذات المعنى المتوارية خلف مظاهر الأفعال وظاهر الأبنية الكلاميّة، حيث أنّها لا تظهر ولا تبرز إلّا من خلال المشاركة والتواصل الكلامي وغير الكلامي، حيث يسمح المنحى النوعي بالتعرّف على الحيّز الاجتماعي – الثقافي المدروس من الداخل ومن الخارج في آن معاً[1]. وقد تمّ اعتماد طريقة تحليل المضمون في هذا البحث، وميزة هذه التقنية أنها تعمد إلى الوصف المنهجي لمضمون النصّ، ثمّ إلى تحليل الموضوعات والصور الّتي يتضمنها، وذلك بتفكيكه إلى وحدات صغيرة ودالة بحيث تتكشف معنى الرسالة الّتي تتضح به أجزاؤها[2].

الأغنيات المختارة كعينة هي ثلاثة وهذا البحث يركز على كلمات الأغاني من دون الدخول في تفاصيل الألحان والموسيقى:

- " خدني على الأرض الي ربتنا" غنتها "فيروز" في العام 1974 أي قبل الحرب الأهليّة اللبنانيّة، وهي من كلمات وألحان الأخوين رحباني.
- أغنية "يا رايح عضيعتنا" غناها "عازار حبيب" في العام 1985، وهي من كلمات الياس ناصر وألحان عازار حبيب.
- أغنية "الغربة" غناها "فارس كرم" في العام 2009، وهي من كلمات وألحان ياسر جلال.

الأغنيات الثلاثة هي من الأغاني الشعبيّة اللبنانيّة الّتي تظهر المعاناة الناتجة عن الهجرة، وتُظهر الثقافة الخاصة بثلاث حقبات من تاريخ لبنان. وما يجمع كلمات هذه الأغنيات أنها تشارك في تشكيل خطاب يتراكم على مهل ليشكل طبقة معرفيّة تدخل في ثقافة المتلقي وتنبعث منها. هذه الاغاني هي بمثابة إسهامات عمليّة لإظهار حياة المجتمع اللبناني في حقبات معينة، كلها تغني للغربة وللهجرة، ولكل هجرة أسبابها، فالمهاجر الّذي تغني له فيروز ترك ضيعته هرباً من الحربين العالميتين، وضيعة عازار حبيب مهجّرة بسبب الحرب الأهليّة، وفارس كرم ترك ضيعته بسبب الأزمة الإقتصاديّة. كما أن الحنين والشوق يجمع الاغنيات الثلاثة فالأسباب مختلفة والفعل واحد وهو الهجرة إن كانت إراديّة أو قسريّة، لأن الهجرة والاغتراب يكتسبان دائماً صبغة قسريّة حتى لو اختار الانسان الغربة فإنها تأخذ طابعاً قسريّاً لأن ظروف الهجرة قاهرة.

والأغاني الّتي قيلت عن الهجرة والسفر والغربة كثيرة وكثيرة جداً في المجتمع العربي واللبناني، فهي إما بلسان المغترب الّذي يفتقد أهله ومحبيه ومكانه الأليف، أو بلسان المشتاقين للقاء من سافروا وتركوهم وحدهم ليذهبوا إلى بلد آخر بفعل هجرة قسريّة أو طموحاً في تحقيق أمنيات جديدة، فكتب الشعراء وأبدع المطربون في التعبير الصادق عن شعور الإغتراب والإحساس بالوحدة، ليس فقط في لبنان إنما في الكثير من بقاع الأرض.

وللبنان خاصيّة مميزة فإنه قد عانى تاريخياً ولا زال من مرارة الهجرة، ففي الذاكرة أغانٍ كثيرة لمطربين كثر أمثال وديع الصافي وفيروز وصباح، فلطالما سمعنا على لسانهم "اشتقنا علبنان يابا وعخبار الضيعة وأهلها" و"يا مهاجرين رجعوا غالي الوطن غالي" و "ردّني إلى بلادي" و "قايمة ضب تيابي ورايحة لعند حبابي" و "راجعة على ضيعتنا وعالأرض الي حبتنا" و... وبقيت المواضيع نفسها تتكرر مع المطربين الشباب حتّى يومنا هذا، فغنت هبة طوجي، وجوليا بطرس، وتانيا قسيس "وطني حبيبي وين ما بكون بيغلبني الحنين"...

تحديد مفاهيم الدراسة:

الثقافة

حاول الكثير من علماء الاجتماع تحديد مفهوم الثقافة، وزخرت مؤلّفاتهم بالكثير من التعريفات لهذا المفهوم. ولعل تعريف إدوارد تايلور (Edward Taylor) الّذي قدّمه في أواخر القرن التاسع عشر في كتابه "الثقافة البدائيّة"، هو من أقدم تعريفات الثقافة وأكثرها شيوعاً حتّى يومنا هذا. فهو يذهب فيه إلى أن الثقافة هي "كلّ مركّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيّات أو العادات الّتي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع"[3].

الهويّة الثقافيّة

تبدو الهويّة الثقافيّة بناء ديناميّاً وعلائقيّاً مركّباً يتشكّل في سياقها الوعي أو تتمَ إعادة بنائه، ولا يمكن فهمها بعيداً بمعزل عن الإطارات الاجتماعيّة والشروط الموضوعيّة المكونة للوعي الفردي والجماعي. ولأن هذه العمليّة لا تتمّ في فراغ، بل في وسط معين يمارس فيه الفاعل الاجتماعي دوره كفرد من الجماعة، فهو يتأثّر بالديناميات الناظمة لاشتغال هذا الوسط بوصفه بنية معرفيّة لها أبعاد تاريخيّة وسوسيولوجيّة متعدّدة[4].

المكان

المكان هو مجموعة من الخصائص الطبيعيّة كالمساحة والمناخ والتضاريس، لكن هذه الخصائص الطبيعيّة ليست شرطاً كافياً فلا بدّ من وجود الإطار الّذي يخلعه الشخص على المكان، فينسبه إلى نفسه وينسب نفسه إلى المكان. إذاً، إضافة إلى خصائصه الطبيعيّة والجغرافيّة المميّزة، لا بدّ أن يُنظر إليه على أنّه تكوينات أو بنى أو حالات معرفيّة ووجدانيّة، تكون موجودة لدى الأفراد والجماعات، وتسهم على نحو واضح في تحقيق إحساسهم بالهويّة الفرديّة والجماعيّة، وفي استمراريّة وجود هذا الإحساس لديهم[5].

المكان الأليف

يعدّ من الأماكن الّتي تبقى مختزنة في الذاكرة وهو الّذي يشبه "رحم الأم"، إنّه يبعث الدفء والحماية والطمأنينة في أيام الطفولة، مثل بيت الطفولة والقرية ويظل عالقاً بالذاكرة طوال العمر[6]. فهو ليس مجرد شيء حفظته الذاكرة بل صورة محميّة تحفظ الماضي وأحداثه.

الهابيتوس

هو نظام من الاستعدادات الدائمة، الّتي يمكن نقلها من جيل إلى آخر عبر العائلة والمدرسة، ويبدا تكوينه منذ الطفولة الأولى، وهو نتاج لتاريخ وتجارب عديدة حصلت في الأسرة والجماعة والمجتمع على مدى الأجيال السابقة. وهذه الاستعدادات هي بوصلة ذهبية داخليّة يهتدي بها الإنسان، وهي حسب بيار بورديو (Pierre Bourdieu) بنية منظَّمة من الاستعدادات تلعب دوراً منظِّماً لحياة الفرد"[7].

خصوصيّة المكان في أغاني الهجرة اللبنانيّة

1- تاريخ الهجرة والأغنية اللبنانيّة

تعتبر الثقافة كلاً معقداً يشمل جميع الأنشطة الّتي ينتجها مجتمع ما في فترة من فترات تطوره لمواجهة المحيطَين الطبيعي والإنساني قصد فهمهما والسيطرة عليهما. فالطريقة الّتي تعيش فيها جماعة ما والسلوكيّات والممارسات الّتي تقوم بها هذه الجماعة تعكس هوية خاصة بها، وما الهجرة إلا جزءاً من هذه الثقافة عبّرت عنها الأغاني بشكل لافت في الزمان والمكان المناسبين.

الهجرة

الهجرة من أقدم الظواهر الاجتماعيّة وأهمها من حيث أشكالها وتنوعها وأسبابها ونتائجها وعلاقتها بالأرض. لهذا فإن ظاهرة الهجرة كانت ولا زالت مجالاً رحباً لاهتمامات المتخصّصين في مجال الدراسات الإنسانيّة، نظراً للتأثيرات البارزة لهذه الظاهرة على الفرد وعلى المجتمع المصدّر له والمستقبل له.

والهجرة بشكل عام هي انتقال الناس من بلدهم إلى بلد آخر. وهنا لا بدّ من عرض تعريف الأمم المتحدة الّذي ينصّ على أنّ: "الهجرة شكلٌ من أشكال الانتقال الجغرافي والمكاني المتضمِّن تغييراً دائماً لمحلّ الإقامة العاديّة بين وحدة جغرافيّة وأخرى، كما أنها حركة انتقال السكان من أرض تدعى منطقة الأصل، إلى منطقة أخرى تدعى منطقة الوصول، ويتبع في تلك الحركة تغيير في محل الإقامة. وتختلف تلك الحركة من حيث مدى المسافة المقطوعة والزمن الّذي تستغرقه"[8].

أما التهجير أو الهجرة القسريّة فقد لاحظ الباحث اللبناني مصطفى بزّي أن التهجير هو "هجرة جماعيّة أو هجرة مجموعة من الأفراد، أو فرد واحد، نتجت عن تطورات سياسيّة أو أمنيّة أو عسكريّة معينة تفرض على هؤلاء ترك الوطن إلى الخارج، أو ترك منطقة في الوطن غير آمنة، إلى منطقة أخرى أكثر أماناً واستقراراً"[9].

وإذا أردنا أن نتكلم عن الهجرة اللبنانيّة فمن الممكن أن نقول أن عمر الهجرة اللبنانيّة من عمر تاريخ لبنان، إذ أن لغة الإبحار والهجرات ولدت في ساحل فينيقيا، وحكمت على أهلها بالاغتراب الدائم. وتوارث اللبنانيون منذ عهد الفنيقيين هذه المهنة ولا زالوا.

لقد شهد المجتمع اللبناني هجرات متلاحقة ونزوح متواصل من أيام الفنيقيين إلى عهد الصليبيين والمماليك والحكم العثماني. إلا أن الهجرة الواسعة بدأت عملياً عام 1860 عقب الفتنة الشهيرة بين الموارنة والدروز، واستمرت حتى العام 1920 تاريخ إنشاء دولة لبنان الكبير، حيث خفت الهجرة بعد هذا الإعلان لتعود وتنشط في منتصف سبعينيات القرن الماضي وما زالت ناشطة حتى يومنا هذا. أما أسبابها فمتعددة: سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة... ولكن أكثر الهجرات الّتي ذكرت في التاريخ الحديث بدأت في القرن التاسع

عشر، فبعض الكتب التاريخيّة تذكر "أنطونيوس البشعلاني" كأول مهاجر لبناني فردي هاجر إلى القارة الأميركيّة في العام 1854... والبعض يذكر "الياس الخوري يونس" من بلدة "مزيارة" الشماليّة الّذي هاجر إلى السواحل النيجيريّة في العام 1882...

وتوالت الهجرة اللبنانيّة إلى بلاد مختلفة، كالقارة الأميركيّة، والسواحل الافريقيّة المختلفة، وبدأ اللبنانيون يجوبون بتجارتهم "المحمولة"، بلدان الاغتراب، يحملون "الكشة" يتحدثون لغة السكان أنفسهم ويتمرسون عاداتهم. أما الكشة فهي تعني الصندوق باللغة البرتغاليّة، اعتمدوها لأنها لا تتطلب الخبرة والعلم ولا رأسمالاً ولا مهارات لغويّة متقدمة، ولأنّها ذات مردود سريع، واستقلاليّة في التحرك، وكانوا يضعون في الصندوق بعض الحاجات من خيوط وإبر ودبابيس وجوارب وصابون وعلب سجائر وأمشاط ومرايا وعطور وألبسة داخليّة وأنسجة وثياب جاهزة... يبيعونها في شوارع المدن والأرياف... جلّ إهتمامهم أن يرسلوا جزءاً من أرباحهم إلى ذويهم الذين يعانون ظروفاً صعبة في الوطن، وأن يحتفظوا بالأرباح الباقية لتكوين رأسمال ربما يكون زوادة إذا صمموا على العودة...وشيئاً فشيئاً، تطورت "الكشة" الى متجر فمصنع فشركة ضخمة، وتوسعت تجارتهم الى المواد الغذائيّة والأقمشة والآلات الكهربائيّة مروراً بتجارة الأسماك والاخشاب والبن... وصولاً الى الذهب والألماس... كما أنّ المهاجرين ساهموا ولا زالوا في دعم الاقتصاد اللبناني، فإنهم ساهموا أيضاً ببناء وإعمار هذه الدول الّتي هاجروا إليها، فأسسوا المدارس والأنديّة الرياضيّة والمستوصفات والمراكز الطبية المجانية، إضافة الى تعبيد العديد من الطرقات التي تصل بين بعض المدن والقرى. واللافت أن من بين أحفاد هؤلاء التجار البسطاء خرج مليارديرات مثل "كارلوس سليم" الّذي حمل لقب أغنى رجل في العالم لفترة طويلة خلال العقد الأول للقرن الحادي والعشرين.

وتوالت الهجرات ولعل أكثرها كثافة هي في الأعوام الممتدة بين 1975 و1990، أي خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة، ولكنها لم تنته بانتهاء الحرب إنما لا زالت مستمرة، لأن أسبابها لا تقتصر على الحروب والمجاعة والتهجير، بل تتشابك مع الأسباب الاقتصاديّة والبطالة والشعور بالغبن.

الأغنية اللبنانيّة

قبل تأسيس الإذاعة اللبنانيّة في القسم الأول من القرن العشرين، كان لبنان من ضمن بلاد الشام الّتي تقع تحت السيطرة العثمانية، والّتي اتسمت بنفس الميراث الموسيقي المتأثر بالموسيقى التركيّة والفارسيّة، وعُرفت القدود الحلبيّة والأغاني الشعبيّة كالموليا والزجل والموشحات والدلعونا والعتابا والميجانا وغيرها... إلى أن تأسست الإذاعة اللبنانيّة عام 1938 في عهد رئيس الجمهوريّة الراحل "إميل إده". في بداية تأسيسها بقيت الأغنية اللبنانيّة فناً تابعاً لا شخصيّة مستقلة لها، إذ كانت اللهجة المصريّة هي الغالبة إلى جانب أغنيات باللهجة البدوية، وبعضها بلهجة لبنانيّة مترددة. أما سكان الأرياف فبقوا على القوالب الغنائيّة التراثيّة المتأثرة بطابع بلاد الشام.

بقي الوضع على ما هو عليه حتّى العام 1950 إلى أن ثار بعض الفنانين اللبنانيين ورفضوا هيمنة هويات أخرى على الهوية اللبنانيّة، ومن هؤلاء "عمر الزعني"، و"نقولا المني" و"يحيى اللبابيدي" و"سامي الصيداوي" و"متري المر" و"الأخوان فليفل"... منهم من غنى أغاني إنتقاديّة إجتماعيّة، ومنهم من غنى أغاني وطنيّة وعاطفيّة. وجاء من بعد هؤلاء مجموعة ملحنين شباب أمثال "فلمون وهبي" و"توفيق الباشا" و"جورج فرح" و"محي الدين سلام" وغيرهم... إلى أن طرق الأخوان رحباني أبواب الإذاعة اللبنانيّة، وقدّما خطاً مميزاً بمفردات عاميّة مثل الصخر والوعر والشوك والعليق، في الوقت الّذي كان الشعر الغنائي يستعمل مفردات توحي بالنعومة مثل الورد والزنبق وغيرها... فلقي خط الرحابنة اللبناني نجاحاً، وازدهرت الحركة الموسيقيّة الجديدة، وهكذا بدأ يلوح مستقبل واعد للأغنية اللبنانيّة[10]... ومع الوقت أصبح للأغنية اللبنانيّة سمات خاصة تحددها وتميّزها عن غيرها، كما يمكن القول أن الأغنية اللبنانيّة لعبت أدواراً مهمة في تسجيل الأحداث، ومواكبة المجريات الإجتماعيّة والسياسيّة، وكانت خير ممثل للتراث الشعبي والأنماط الحياتيّة عند الناس القرويّة منها والحضريّة. ويمكننا القول أيضاً بأن للمكان حضور كثيف في الأغاني اللبنانيّة، إذا أردنا استحضار هذه الأغاني فهي كثيرة وكثيرة جداً، وهذا يدلّ على أهمية المكان كفضاء يمارس فيه اللبناني حياته ويعبّر عن تعلّقه به كهوية مكانية.

2- المكان في كلمات أغاني الهجرة اللبنانيّة

يغني الناس في أفراحهم وفي أحزانهم وتحافظ الأغنية على شكلها كأكثر الأشكال الفنيّة انتشاراً وتأثيراً، إذ أن الغناء كان ولا زال النشاط الإنساني الأكثر قرباً من الناس في كافة ظروفهم وأوقاتهم.

كما أن المكان والعلاقات المكانية، سواء نظرنا إليها كمتغيّرات مستقلة أو تابعة، هي عناصر أساسية لا يمكن إغفالها في الدارسة الانتروبولوجيّة للمجتمعات. وتبيّن من خلال كلمات الأغاني الّتي اعتمدت في هذا البحث أن هناك أماكن مشتركة تكرر ذكرها، مما أظهر أهمية هذه العناصر المكانية البنائية، وأبرز دورها ومكانتها لدى اللبناني الّذي تعرض لهجرة أو تهجير.

أ – عناصر المكان في أغاني الهجرة

بعد أن تمّ تفكيك وحدات النصوص للأغنيات الثلاثة المأخوذة كعيّنة، ظهر المكان كما يلي:

مستند رقم (1): العناصر المكانيّة في أغاني العيّنة

خدني على الأرض الي ربتنا (فيروز)	يا رايح عضيعتنا (عازار حبيب)	الغربة (فارس كرم)
تلاتها الحلوة الأرض الي ربتنا حفافي العنب والتين ترابات ضيعتنا بواب العتيقة عم تلوحلي صوت النهورة ينده الغياب عيون عشبابيك تشرحلي طرقات منسية ازرعني بأرض لبنان البيت يلي ناطر التلة بوّس الحيطان إركع تحت أحلى سما وصلي	يا رايح عضيعتنا طالت عنها غيبتنا هالضيعة الي فيها تربيت ومغيبها بيت وبيت فيها نحبيت وحبيت بيت بيي أول صورة بعينيي نيالك شو عبالك ضيعتنا الحلوة قبالك	منرجع عالضيعة شو مشتاق لأمي وبيي وأختي إسمع شي كلمة حنية تنسيني عذابي ما بدي هالغربة راجع عالضيعة لاقوني بدي اركع بوس ترابها هالأرض الحنونة

الإنطباع الأول يُظهر بأن المكان هو الأرضيّة الرحبة الّتي تستند إليها هذه الأغاني، والذاكرة وما تنطوي عليه من خزين لا ينضب هي المصدر الأساسي في تكوين كلماتها. وتجدر الإشارة إلى أن علاقة المكان بدلالته ليست علاقة وصفيّة مقتصرة على ما هو مرئي وملموس، وهذا ما سيُظهره تحليل كلمات الأغاني من حيث أن القيم المكانيّة الّتي تركزت في الأغنيات الثلاثة قد أتت على الشكل الآتي: الضيعة، البيت، والأرض.

الضيعة اللبنانيّة

ترددت كلمة الضيعة في الأغنيات الثلاثة وبدت الضيعة المكان المنشود الّذي ينشده المغترب. وأبرزت الأغنيات الطابع القروي وأشعلت الحنين لذكريات الماضي بلمس أعماق النفس لدى المغترب وشدّه للغوص في أعماق اللحظة الماضية، وذلك بورود تفاصيل كثيرة في كلمات الأغنية حتّى تشكلت صورة المكان في خيال المستمع وقادته إلى المكان الّذي يحن إليه. ففي أغنية فيروز مناشدة للعودة إلى المكان الأليف، مكان الطفولة، إذ لا تقتصر المناشدة على العودة كزيارة، إنما تبدو أيضاً رغبة البقاء في المكان، لأنها تطلب أن "تُؤخذ على تلاتها الحلوة" وتُنتسى هناك على "حفافي العنب والتين"، على "ترابات ضيعتنا". وكما أغنية فيروز كذلك أغنية عازار حبيب الّذي يشتكي من طول غيابه عن ضيعته، ويناشد الّذي مرّ بضيعته أن يمرّ به كي يتلمّس أثراً منها أو يشتمّ رائحتها من خلال الّذي زارها ولو حتّى بطريقة غير مباشرة. ف"ضيعتنا" هي محور الأغنية وموضوعها، يتفرع من هذه الأهميّة بيت الأب وهو بيت الطفولة.

وكما يشتكي عازار حبيب من حرمانه من ضيعته، كذلك يشتكي فارس كرم من غربته الّتي أبعدته عن ضيعته، ومن ضياع العمر في الغربة بعيداً عن الأهل والأحباب. (بسافر شب وبرجع شايب برجع ما بلاقي الحبايب...) ولعل أكثر ما يخيف المغترب هو فقدان الأهل والأحباب في غيابه. الأغاني الثلاثة الّتي تشبه الكثير من أغاني الهجرة اللبنانيّة، تنشد "الضيعة" وإذا طرحنا سؤالاً وهو: لماذا يتمحور موضوع "الضيعة" دائماً في هذه الأغاني؟ فيكون الجواب أن الغالبيّة العظمى من اللبنانيين هم أبناء القرى حتّى لو سكنوا في المدن، فإنهم يعودون لقراهم في نهاية الأسبوع وفي المناسبات الدينيّة والعائليّة والإجتماعيّة. فسكان المدن أكثرهم وفد من الريف، في النصف الثاني من القرن الماضي بعد التغيّرات الإقتصاديّة الّتي حصلت إثر الإنفتاح على الغرب، وبعد نشاط مرفأ بيروت كأول مرفأ على الشاطئ الشرقي للمتوسط، تسارعت عملية النزوح من الريف إلى المدينة الساحلية وخاصة بيروت وبهذا يكون أغلب سكان المدن وخاصة بيروت وضواحيها من أصول ريفيّة، لهذا يبقي الإتصال بالريف مستمراً وخاصة في أيام العطل والمناسبات الإجتماعيّة والسياسيّة كالإنتخابات وغيرها، فاللبناني لا زال يعتز بالحسب والنسب والإنتماء إلى منطقته، والإنتخابات النيابيّة تعيد المقترع إلى مسقط رأسه حيث عائلته الأكبر الّتي تنشدّ إلى العصبيّة الموروثة .. كما أن الإتصال بالريف يبقى سهلاً بسبب القرب الجغرافي الّذي يجعل الوصول إلى أبعد القرى في أقصى الشمال أو الجنوب لا يستغرق أكثر من ساعتين ونصف، إضافة إلى ذلك يصطاف أغلب أبناء المدن في الريف، ويتأثرون في ثقافة القرية، وتترك القرية لديهم ذكريات كثيرة لذلك تعتبر القرية هي المرجعيّة الكبرى لمعظم اللبنانيين، وتصبح هي "الوطن" والملاذ، ويصبح الطابع الريفي من الوجوه الّتي تميز لبنان. ومن خلال هذه المعطيات، نستنتج أن الطابع الريفي بارز جداً في الثقافة اللبنانيّة، فالعاصمة بيروت مثلاً بقيت بلدة كبيرة حتّى أربعينيات القرن الماضي، وكل محيطها كان قرىً صغيرة تعتمد على الزراعة وتربية المواشي. حتّى أن عاصمة لبنان قبل إعلانه دولة لبنان الكبير كانت بلدة ريفية في جبل لبنان وهي بلدة "دير القمر".

هذا بالنسبة للوضع الإجتماعي، أما بالنسبة للوضع الفني، فالأغنية اللبنانيّة، منذ بداياتها خلقت بشكل عام حنيناً إلى القرية نتيجة للتحولات السريعة الّتي شهدها لبنان إن من الناحية السياسيّة أو الإجتماعيّة وما رافقها من تطورات ثقافيّة. وكانت أغاني الرحابنة ومن جايلهم ردة فعل على التطورات وتعبيراً عن القلق من الحداثة الّتي أصابت المجتمع والّتي بدأت تهدد التناغم الجمعي في القرى وذلك في المرحلة التاريخيّة الّتي سبقت صعود الظاهرة الرحبانيّة بوقت قصير.

إضافة إلى الفن، أغنى الأدب المهجري والأدب الشعبي تلك الحقبة بمناخ من الحنين إلى القرية، فأفاض في تمجيد الطبيعة والقرية اللبنانيّة والفطرة، إذ أن هذه المرحلة اقترنت بهجرتين لأهل الجبل والريف إجمالاً، وهي الهجرة الكبرى على الأميركتين حول مطلع القرن الماضي، بسبب المجاعة والسياسة العثمانيّة، وهجرة

صغرى (نزوح) من الريف إلى المدينة، وخاصة بعد إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 واتخاذ بيروت عاصمة للبنان الّتي جذبت إليها سكان الأرياف لأنها تميزت بانفتاحها على التغيّرات واستفادتها من العمران والتطور والفرص الجديدة.

إذاً النصيب الأكبر للهجرة والنزوح كان لسكان الأرياف الّذين يحملون إرثاً تاريخياً طويلاً ومحملاً بمعاناة جعلتهم متشبثين بالأرض. لكن هذه الهجرة لم تكن لتقضي بسهولة على تعلق أبناء القرى ببيئتهم بل أنتجت حنينيّة إلى القرية اللبنانيّة في وجه التحولات والتغيرات الّتي تهدد الذاكرة وعالم القرية بالدمار، فبرز الكثير من الأدباء والشعراء الذين مجّدوا القرية مثل الياس بو شبكة، أمين الريحاني، أسعد السبعلي أسعد سابا ... والجدير ذكره بأن الهجرات اللبنانيّة قد حصدت كل المناطق اللبنانيّة، الريفيّة والمدينيّة، ولكن استدعاء القرية دائماً دون المدينة في أغاني الهجرة، في هذه العيّنة وغيرها، يطمس المدينة ويصوّر القرية وكأنها عالم طوباوي شاعري، يمكن أن يكون مردّ هذا الإستدعاء – إضافة إلى الطابع الريفي –، أن المدينة خطفت الكثير من سكان الريف النازحين إلى المدن، فعانت الأرياف من النزوح والهجرة بالوقت نفسه.

وهكذا أصبح موضوع القرية اللبنانيّة موضوع محوري في الأغنية الشعبيّة خاصة حيث كان التيار الغالب في ذلك الوقت هو التيار الرومنسي، لذلك نجد الشعر والغناء ينصبان على حياة القرية اللبنانيّة وعناصرها، فتحفل الأغاني بعناصر ومفردات مثل الضيعة والعين والتنور والعليّة والسّلة والعرزال والكرم...إن هذه اللغة المفرطة في المحليّة تجيء في سياق الحنين وتؤكد الانتماء وتسترجع المكان المنحوت في الذاكرة، هذا المكان الّذي لا يمكن استرجاعه إلا بالتذكّر، لأنه منسوج في ذاكرة المهاجر أو المهجّر، الّذي يعيش بالزمان بعيداً عن المكان؛ فهو يتذكّر، يُراقب، ينتظر العودة، لكي يعود ويرى بعينيه ويلمس بيديه.

البيت

من الناحية الإجتماعيّة، يهتم اللبناني بأن يكون له بيتاً يأوي إليه ويؤسس فيه عائلة، لذلك يسعى بكلّ ما أوتي من قوة إلى امتلاك بيت، حتى لو اضطر إلى بيع قطعة أرض أو إلى الهجرة لبضع سنوات لتأمين مسكن له ولعائلته. فالبيت "أول مقتنى وآخر مبيع" بحسب المثل اللبناني. ويهاجر الكثير من اللّبنانيين لسنين وسنين ثمّ يعودون، وأوّل ما يقومون به بعد عودتهم، هو بناء بيت لهم في ضيعتهم، لأنّ "البيت عزّ" أو "البيت رفع رأس". ومن العيب أن يبيعه صاحبه لأنّه مظهر من مظاهر قوّته، وإذا تعرّض لحالة مادّية سيئة يقولون "مسكين انخرب بيته". ومن لم يمتلك بيتاً ويسكن بالإيجار، يُنظر إليه نظرة استخفاف، ويُضرب فيه المثل المعروف: "مسكين فلان مثل البزاقة بيته على ظهره".

وعندما يبدأ الفرد ببناء بيته يدعو له المحبّون ببقاء هذا البيت وازدهاره: "الله يوسع ديارك" وأيضًا "انشالله بتورّتو لولد الولد" إشارة الى أهمّية الحفاظ على ملكيّة البيت وتوريثه وبقائه ضمن العائلة الواحدة.

يُحافظ اللبناني على كرامته وعزّة نفسه من خلال بيته. ويظهر هذا الامر جلياً في الاغاني الشعبيّة فتغنّي فيروز مثلا: "عالعالي الدار علّيها لإلنا الدار والفيها، فيها الكرامة نسقيها، ودايِر من دار نحميها". يفتخر القروي بالدار العالية وبالعليّة، لأنها تحمل صفات الرفعة والكرامة، وحماية الدار هي من العادات اللبنانيّة الأصيلة الّتي بها يفتخر ويجاهر، ويَدْعي اللبناني لمن يحبّ بعمار داره، ولمن يبغض بخراب بيته.

أما من الناحية النفسيّة، فيرى "باشلار" (Gaston Bachelard) بأننا منذ وجودنا في العالم كان الوجود هنيئاً في بيت الطفولة، وبأن البيت كوننا الأول، هو المكان الّذي ينطق بالإلفة والحماية، فالبيت القديم هو بيت الإلفة الّذي يولد فيه الإنسان والّذي يوفر له مختلف أساليب العيش، هو يحمل معاني الإستقرار والسكينة والطمأنينة والتجذر والإنتماء لأنه يلعب دوراً هاماً في التنشئة والتربية واكتساب العادات والتقاليد، ويقول باشلار أنّه "داخل حدود البيت تُمنح الحماية". وفي حديثه عن بيت الطفولة لا يفرق باشلار بين بيت غني وفقير، فالبيت هو الملجأ بشتى حالاته[11].

بيت الطفولة يعيش مع الإنسان طيلة حياته، فالحياة تبدأ فسيحة، محمية، دافئة في صدر البيت، إذ يجد الإنسان مكانه في هذا المهد، قبل أن تقذفه الحياة إلى العالم، لذلك تصبح العودة إلى البيت نوعاً من الإسترخاء الدافئ... فإدوار سعيد عاد بعد أربعين سنة وبعد أن أنهكه المرض، إلى أماكنه القديمة الّتي لا زال دفئها يسري في روحه... فمن يقرأ كتابه "خارج المكان" يلتمس أن إدوار سعيد غادر المكان جغرافيّاً ويعود إليه رمزيّاً ليحتويه ويعلن إنتماءه إليه وعدم تخليه عنه والإمساك به حتى الرمق الأخير[12]. فالمغترب أو المهاجر يشعر بثقة واطمئنان حين يعود لبيته القديم الّذي ولد فيه، حتّى لو عاد بأحلام اليقظة ومن خلال أغنية أيقظت فيه الحنين.

ويعلق بيت الطفولة في الذاكرة طوال العمر على الرغم مما نراه من أمكنة مختلفة، وذلك لأنه يشبه رحم الأم، فكلما ابتعدنا عن بيت الطفولة نستعيد دائماً ذكراه. فأغنية "يا رايح عضيعتنا" تعبر عن افتقاد مؤديها لبيت الطفولة (بيت بيي أول صورة بعينيي)، فالجملة هذه توحي بحميميّة العلاقة بين المغني والبيت باستعماله ياء المتكلم، فهو يناشد الضيعة بضيعتنا ولكن عندما ذكر البيت ذكره بصفة خاصة بياء المتكلم. وكذلك فيروز تطلب أن تعود إلى البيت الأول وهو الّذي (ينطر التلة)، فالبيت متروك بانتظار الغياب والباب مغلق بانتظار أن تفتحه، والإشتياق كبير وقد عبرت عنه في تقبيل الحيطان. اما فارس كرم الّذي هاجر (ليخلص هالبيعة) فسبب هجرته هي الظروف الإقتصاديّة، والإحتمال الأكبر أن البيعة هي أرض

لبناء منزل. وتعبيره عن اشتياقه للمكان كان من خلال اشتياقه لأهل المكان (الأم والأب والأخت بشكل عام، والحبايب بشكل خاص) وكأن البيت في هذه الأغنية يتمثل بأهله وبالعلاقات العاطفيّة الّتي نسجت معهم، فهذه الذكريات وهذا الدفء والحنان ومخزون الذاكرة هو المكان الأليف. فمن الناحية الأنتروبولوجية، البيت بحسب كلود ليفي ستروس "هو ذاك التراث المادي والروحي الّذي يشمل الكرامة والأصول والقرابة والأسماء والرموز والمكانة الإجتماعيّة والسلطة والثروة"[13].

الأرض

لا تزال طبيعة الأرض وخصوبتها ووفرة الماء فيها من العناصر الأساسيّة الّتي تحدّد هويّة القرى اللبنانيّة، لأن "الزراعة هي عصب الحياة الإقتصاديّة في القرية اللبنانيّة ومصدر رزق لأكثر أهلها"[14]. فللأرض اتصال وجداني بأصحابها حتّى إذا أراد رب عائلة أن يدلّل ولده يقول له "يا رزقاتي". ومن يمتلك الأراضي فهو ذو شأن في القرى.

للأرض أهمية كبرى من حيث إنها تؤدي وظيفة الإنتاج المادي من جهة، ومن حيث إنها رمز الجاه والمكانة الإجتماعيّة. والأرض تعني الثبات والإنتماء والكرامة والكرم والعطاء والكسب المادي والإفتخار. عدا عن أنّ الأرض هي وسيلة من وسائل الإنتاج وتحقيق الأمن الغذائي وعبره الأمن الإجتماعي، هي أيضاً انتماء وارتباط بالمجموعة البشريّة الّتي يتشارك الفرد العيش معها وتجمعه بها ذاكرة جماعيّة تختزن أحداثاً ووقائع وصوراً ذهنيّة متواترة تضم طقوساً وممارسات وعادات ودلالات رامزة بالإضافة إلى أنها نمط عيش يفرض مجموعة من السلوكيات والمحدّدات اللغويّة وغيرها. هذه العناصر تجعلنا نقرّ بأن العلاقة بين الإنسان والأرض هي علاقة تفاعليّة تنتج مشاعر كبيرة نحو الأرض، تزداد إلحاحاً عند الضغط، ويظهر هذا الإلحاح لدى فقدان العنصر المادي فيصبح الاستذكار هو الطريق الوحيد، وجلّ ما يثيره الأغنية الّتي تستذكر المكان بكل عناصره الماديّة والرمزيّة.

وتظهر مكانة الأرض في أغنية فارس كرم عند قوله "بدي إركع بوس ترابها هالارض الحنونة"، وفي أغنية فيروز "الأرض الي ربتنا"، فالأرض كالأم تربي وتعطي بحنان، والإنطلاقة هي أرض "الضيعة" ولكن الوطن ككل هو المقصود أيضاً ويتجسد ذلك في قولها "خدني ازرعني بأرض لبنان"

تعبر أغنية فيروز عن مرونة عالية بين الإنسان والأرض فكلاهما من مادة واحدة، وتظهر هذه المرونة في عبارة "اشلحني على ترابات ضيعتنا". هذا كله يعني بأن الإنسان لا ينسى البيت الأول والمكان الّذي نشأ فيه. فضياع الموطن الأول أو المكان الأول هو مأساة كفطام حقيقي إذ لم يعد هذا المكان الأليف هو الركن الّذي يطل منه الإنسان على العالم. وأخيراً يمكن القول أن المكان المتمثل بالضيعة وببيت الطفولة وبالأرض هو المكان الأليف المفقود بسبب الهجرة الإختياريّة أو القسريّة.

ب- دلالات المكان في أغاني الهجرة اللبنانيّة

وصفت أغنية فيروز المكان بطريقة إنشائيّة، وأخذ الحيز المكاني كثافة عالية ، فالتشكيلات المكانيّة اتخذت عدة أشكال (التلات الحلوة – الأرض الي ربتنا – حفافي العنب والتين – ترابات ضيعتنا – بواب العتيقة – شبابيك – طرقات منسية – أرض لبنان – البيت يلي ناطر التلة – أحلى سما) بحسب أهميتها وكثافتها، كما أن كلمات الأغاني لم تعطِ أسماء محددة للأمكنة، فالمكان المصور في الأغنية ليس مكاناً محدداً بإسم معين ولكنه يشمل كل الريف اللبناني، فعند سماع الأغنية يشعر كل لبناني مهاجر أو مهجّر أنها موجهة له وللمكان الّذي ينتمي إليه.. كما نلاحظ إضفاء صفات إنسانيّة على بعض هذه الأمكنة، لتوضيح حالة هذه الأماكن المنتظرة والحزينة بسبب الهجر (بواب العتيقة عم تلوحلي، صوت النهورا ينده الغياب، البيت يلي ناطر التلة)، ويمكن أن نذكر هنا أنّه خلال الحرب العالميّة الأولى هناك قرى هاجرت هجرة جماعيّة كقرية "بجرين" في بلاد جبيل، فمن لم تقتله المجاعة رحل. إن هذه الصور المكانيّة في أغنيات العينة وخاصة أغنية "فيروز" تثير الذاكرة وتستدعي تلك الوحدات المكانية الكئيبة، وتحرّك مخيلة المتلقي وتجعله يشعر بالحنين والألم على حالة مكان يرتبط به عاطفيّاً ونفسياً واجتماعيّاً.

إضافة إلى ذلك استطاعت الأغنية أن توظف ألفاظاً مكانيّة لها دلالتها في الثقافة اللبنانيّة (حفافي العنب والتين، ترابات ضيعتنا) ببساطتها أعطت سمة رمزيّة للمكان وأخرجته من الحيّز الجغرافي ليعبّر عن جماليات المكان من جهة وعن أهميته كهوية مكانيّة من جهة ثانية. والجدير بالقول، أن الأرض والضيعة والبيت، ليست بالنسبة إلى المهاجر مجرد صخور وحفافي وأنهار وتراب وشبابيك... هي ذاك التراث المادي الّذي يشير إليه "باشلار" بتصويره المكان كإستراحة وفسحة تملأ على الّذي يسترجعه تجربة مكانه الأليف، وهي ليست معطيات هندسية بل مكيفة بخيال المتلقي إذ يتجاوز المكان كما هو في الواقع الخارجي إلى مكان يحمل أبعاداً رمزية. إنه جسر عبور نحو مرتكزات مثقلة بالمعاني الكامنة وراءها، لما تتضمن من معانٍ روحيّة غير محسوسة. وعند استرجاع المكان في الذاكرة يسترجع الإنسان الأبعاد النفسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة والعقائديّة الّتي ترتبط بهذا المكان، فالمكان لا يكتسب سحره وقدسيته من تضاريسه أو جماله الطبيعي أو الجغرافي بل من أناسه الذين صنعوا به ذكرياتهم، فتتحول الأمكنة إلى مزارات مقدسة يعود إليها المغترب ليداوي بها جراح الغربة، على غرار "إدوار سعيد"، لصير للمكان ببعده النفسي محطة للإطمئنان والإستقرار والراحة والشعور بالحب والأمان والحماية.

وركّزت أغنية فيروز على تفاصيل المكان بشكل كبير ومرت على ذكر أهل المكان (شي إيد تسلم عليي، شي صوت عم بيقول مسا الخير) بشكل أقل من ذكرها لتفاصيل المكان، بينما عبر فارس كرم عن المكان من خلال ذكر الضيعة عدّة مرات في الأغنية مركّزاً على أهل المكان ذاكراً أمه وأبيه وأخته والأحبة، وأما عازار جبيب فقد غنى للضيعة وللبيت الأليف بيت الطفولة مسترجعاً ذكرى الحب الأول، فالتعبير عن

مشاهد الحبّ والارتباط العاطفي إن بالبيت الأول الّذي هو مهد الطفولة وأول الإختبارات الحياتية، وإن بالإرتباط بالمحبوب (انحبيت وحبيت)، يتيح للمستمع أن يعيد تشكيل العلاقات العاطفيّة والروابط الأسريّة والإجتماعيّة الّتي نُسجت في مرحلة سابقة من العمر وذلك من خلال الأغنية الّتي تدفع المتلقي إلى تخيل الأماكن الّتي تخصّه.

إن استمرارية الروابط هي إحدى سمات البيت، وهي مفروضة من قبل هذا الرابط العصباني بين أعضاء المجتمع المحلي. فمن أهم عناصر التنظيم الإجتماعي في المجتمعات المحليّة القرابة والعادة والذاكرة الجماعيّة، "فالوحدة العائليّة وروابط الدم وعلاقات الجوار والقربى والقرب الفيزيائي والمشاركة في السكن في بقعة ضيقة من الأرض والاتصال العقلي والروحي، تعكس كلها القانون العرفي للجماعة وتعبر عن عاداتها المحليّة وتقاليدها وروحيتها المشتركة"[15].

فإن بناء هوية المكان في هذه الأغاني يتكىء على عمودين؛ صور مكانية (التلات الحلوة حفافي العنب والتين بيت بيي..) وروابط وعلاقات (إسمع شي كلمة حنيي، فيها انحبيت وحبيت، شي صوت عم بيقول مسا الخير...) يتداخل فيها الأنا مع الآخر، والحقيقة مع الخيال، فيغدو المكان لجميع المهاجرين والمهجرين حالة عالية الكثافة يمثلها التداخل بين العناصر الطبيعيّة وترابط العلاقات الإنسانيّة، فتكتسب هذه الصور أبعاداً مكانيّة ثقافيّة وحضارية وهويتيّة.

وصفت هذه الأغنيات المكان كل واحدة بطريقة معينة، باستحضار الطبيعة المتجسدة بين منطق الذاكرة ومنطق الحلم، وباعطاء قيمة للمكان بحسب قرابة وأهميّة سكانه، أو بحسب ما طُبع برأس المتذكّر من ذكريات حميمة في مرحلة من مراحل العمر الّتي لا يمكن للفرد نسيانها. وبهذا تأخذ بنية المكان أهميتها من الذكريات المتعلقة بالمكان الأول الأليف، ومن والعلاقات الأسريّة والإجتماعيّة.

في الأغنيات الثلاثة مناشدة للعودة أو تمني أو وعد تنشد فيروز العودة إلى الوطن بلسان حال المغترب اللبناني، وهي تطلب أن تعود إلى بيتها وضيعتها، إلى المكان الأليف الّذي يبث مشاعر الإلفة والإطمئنان في النفس.

وفي الأغاني أيضاً شوق للمكان الأليف وسكانه، يبرز من خلال الشعور بالإغتراب الواضح في كلمات الأغاني. يطلب عازار حبيب وبرجاء أيضاً (يطول عمرك لا تطول)، ممن زار ضيعته أن يمرّ به (حولّ) ليخبره عنها بعد طول الغياب القسري، و"يفوّل" عليه بالعودة (علي وقلي عقبالك وبالخير عليي فوّل..) أي أن يكون الزائر فأل خير للعودة.

هذا الشعور بالإغتراب هو شعور نفسي تسببه الغربة، هو الإشتياق للأهل وللمكان الأول بشكل واضح ورفض المكان الجديد وتمني العودة للمكان الأليف، هو يشير إلى تفسّخ في المشاعر ناجم عن فقدان التواصل بالإنقطاع عن الأجواء والأماكن والوجوه المعتادة بسبب السفر الطوعي أو الهجرة والنزوح القسري على حد سواء، ولأن التواصل يتشكل من خلال المجتمع، كما أن المجتمع يتشكل من خلال التواصل، فالإنسان بحسب "دوركايم" ينشىء شبكة من المعاني والرموز وطرق التفكير والشعور والعمل ليحدد سلوكه، وهكذا فقد المهاجرون والمهجّرون الفعل التواصلي، بفقدانهم مجتمعهم ومكانهم، وبفقدانهم قراهم، كما فقدوا الشحنة العاطفيّة الجماعيّة الّتي كانت تمنح توازناً لحياتهم الإجتماعيّة، فأحسوا بفراغ ناجم عن خلل من حرمانهم من الحالة الجماعيّة الّتي يمنحها لهم انخراطهم بمجتمعهم، وقد سبق لدوركايم أن أكّد هذه الحقيقة، فقال: "يتشكل لدى الأفراد من خلال حضورهم الجماعي ضرب من الشعور الجمعي الجياش"[16]، هذا الشعور الجمعي يخلق بينهم الرابط الإجتماعيّ – النفسيّ، الّذي يبقى كامناً ليعود ويستيقظ في أوقات الوحدة والشوق إلى المكان والمجتمع الأصلي. وهذا ما أظهرته الأغاني عبر صور شعريّة مغناة، ظهرت مثلاً عندما يخاطب فارس كرم الغربة قائلاً "عني عني عني يا غربة حلي عني، فرقتي كل الأحباب وأخدتي الغالي مني"، بهذا يظهر الإغتراب ورفض الغربة حتّى أن المغني يلقي اللّوم على الغربة لأنها أفقدته الأحباب، مع أن فقدان الأهل والأصحاب هو من معادلات الحياة، ففي الحياة الموت كما الولادة، والحزن كما الفرح. خلاصة القول أن الهجرة هي جزء من ثقافة المجتمع اللبناني ومن البناء المادي والإجتماعي له، حيث أنّ جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر، ليس إلاّ تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتيّة مشتركة . وما محاكاة الطبيعة الريفيّة والمكان والأهل والأحبة الذين ينتمون للمجتمع نفسه، إلا تعبيراً عن هوية هذا المكان المليء بالهجرات على مدى العصور، وبما ان الأغاني تعبر عن الثقافة فلا عجب من كمية أغاني الهجرة ودعوتها الدائمة للعودة وتعبيرها عن مرارة الغربة والاغتراب.

ج – وظيفة أغاني الهجرة

الأغاني هي أداء العاميّة الّذي ينقل ما في الحياة اليوميّة ببساطة، بما يتضمن من موروث لغوي كأداة لتوصيل رسالة بواسطة عبارات مؤثرة وبأساليب فنيّة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الثقافي الّذي يعبر عنه. وظيفة أغاني الهجرة هي الآتي:

– الأغنية الّتي تتكلم عن الهجرة تشكل جسراً بين ماض وبيئة قد فُقدا وحاضر مفروض، وهي تعبر عن علاقة إنتماء وحميميّة مع هذا الماضي الغابر ومع حاضر لا تملك زمامه.

– مثل كل الفنون تعبر الأغنية عن ثقافة المجتمع في زمن محدّد بحسب ظروف هذا الزمن. فكل أغنية أرّخت أحداثاً تاريخيّة واقتصاديّة وأظهرت روح العصر وأحداثه بالكلمة واللحن، وهي محمّلة بالكثير من الدلالات ودراستها تمكننا من فهم وإدراك خصائص المجتمع لأنها تبرز روح الشعب،

فالغربة الّتي أنجبت بعداً وشوقاً أنجبت أيضاً فناً عبّر عن الظروف الّتي أدّت اليها. ولأن الثقافة ديناميّة، فالهجرة تقف عند مفترق طرق التاريخ الثقافي لتطرح النقاشات حول العلاقة بين الثقافة والهوية.

– الأغنية إذاً تمثل هويّة ثقافيّة تقيم فيها تفاصيل الحياة اليوميّة، وتعبر عن خصوصيّة المجتمع وذهنيته؛ فالقواسم المشتركة والتاريخ المشترك والمتشابه زاد من الإرتباطات والعلاقات بين هؤلاء الأفراد، هذا التاريخ المتشكّل من تراكمات وأحداث معيّنة كالحروب والنكبات والتدهورات الإقتصاديّة والسياسيّة والإجتماعيّة والإزدهار والنجاح والإنتصارات... جعل الجماعة تنشأ على أساس تفسير أفرادها للماضي المشترك تفسيراً متشابهاً. فعندما يستند الأفراد في حاضرهم على الماضي، يكون قد تشكّل مخزوناً من الذاكرة الجماعيّة لدى الأفراد جميعاً، فتشكّلت هويتهم وتحدّدت بذلك انتماءاتهم تحت لواء مفهوم ثقافي موحد. والأغاني هذه أظهرت الثقافة الخاصة بكل حقبة من هذه الحقبات؛ فالموسيقى واللغة والأسلوب والسياق هي بعض العناصر الأساسيّة الّتي تبرز الهويّة الثقافيّة على الرغم من سرعة الإتصالات والتبادلات العالميّة.

فأغنية فيروز يمكن اعتبارها رومانتيكيّة تحمل سمات المرحلة الّتي كانت في ذلك العصر أي قبل الحرب الأهليّة عندما كان لبنان ينعم بالهدوء والإزدهار والإنفتاح الإقتصادي الّذي كانت له تبعات مهمة وواضحة في حياة اللبنانيين، حيث فرضت تغييرات سوسيواقتصاديّة وثقافيّة على الريف والمدينة، بسبب تسارع التطورات الإجتماعيّة بالمقارنة مع العقود القليلة السابقة، ولم يكن هناك من مشكلة أكبر من مشكلة إرجاع المهاجرين والنازحين إلى قراهم لتعود هذه القرى تنعم بالحركة السابقة.

أما فارس كرم فأغنيته فيها عتب على الدولة وعلى الحالة الإقتصاديّة الّتي توصل إليها الشعب، مع موسيقى سريعة تناسب العصر، وأغنية عازار حبيب شاهدة على فترة من فترات الحرب الأهليّة الّتي حصلت فيها الهجرة القسريّة والنزوح القسري.

تمتلك هذه الأغاني بشكل عام قدرة على الحفاظ على نظام القيم وترسيخه حيث يتواصل حيّاً من جيل إلى جيل، ويبقى فاعلاً من خلال التداول، ويساهم في ترسيخ الثقافة واستقرارها وتعميقها لدى الأفراد. كما يمكن القول بأن الفنون هي بمثابة أداة من أدوات التنشئة، لهذا تعزّز الأغاني هذه الهويّة الوطنيّة ومكانة الوطن في النفوس وتربي الذوق الفني على الإرتباط بالوطن ارتباطاً نفسيّاً وعاطفيّاً. فالأغنية اللبنانيّة مثلاً تطورت بشكل كبير بعد تأسيس الإذاعة اللبنانيّة وانطلاقتها، وأدّت إلى صياغة هوية للبلد مع الرحابنة وفيروز وصباح وذكي ناصيف..

– والجدير ذكره أن للأغنية الرائجة تأثير على المجتمع، فَنَشْر الأفكار من خلال الأغنية هو مبدأ نفسي وقدرة على استقطاب الجموع. فالأغنية من وجهة نظر سوسيولوجيّة – وبخاصة الرائجة منها – هي شكل من أشكال التعبير الجمعي عن الوعي الجماعي المرتبط بالهويّة الثقافيّة، يكتبها المؤلف ويغنيها المغني ويتلقاها المستمع، وتبرز فيها خصائص المجتمع اي بناه العامة.

– إن هذه الأعمال الفنيّة تقوي العلاقة بين المكان وأصحابه على اختلاف أمكنتهم. وتبرز الهويّة الوطنيّة الّتي تتنوع أشكالها وظروفها ولكنها تربط بين اللبنانيين على اختلاف مشاربهم، إذ يمكننا القول بأن المجتمع اللبناني هو موزاييك من الثقافات المتأثرة بالدين، والعادات والتقاليد، إنما تجتمع تحت لواء ثقافة موحدة وتناغم جمعي يعزز لدى الفرد الشعور بالأمن والطمأنينة في مكانه للتشابه في اللغة والقيم والآراء والجو الإجتماعي العام الّذي جعل نشاط الأفراد ذا مرجعيّة واحدة من خلال الضمير الجمعي الّذي بحثه دوركايم والّذي يشير فيه إلى المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف بين أعضاء المجتمع الّتي تشكل نسقاً له طابعاً مميزاً، وبهذا الإطار يمكن إعطاء هذا المثل الشائع الّذي يعيشه المغترب اللبناني، وهو: إذا التقى لبنانيّاً بلبنانيّ آخر من معارفه أو من خارجها، في بلد الإغتراب، تُلغى بلقائهما كل الأشكال التقليديّة للإنتماءات، فالنسب والجماعات والأحزاب والعقائد والطائفة، لا توضع في الحسبان، أو أقلّه للوهلة الأولى، بل يتوحد الخطاب تحت شعار: هل أنت لبنانيّ؟ هذا السؤال يعيد تشكيل الإنتماء من مكانه الضيق ليتجاوز الأمكنة الّتي تتواجد فيها العائلة والأصدقاء والحي والطائفة ويتسع للوطن بكل أجزائه.

أخيرا يمكننا القول بأن هذه الأغنيات ليست أغاني ترفيهيّة بقدر ما هي مساهمة في بناء الهويّة ووسيلة للتعبير عنها، لأنها نفسيّاً لأنها قادرة على التعبير عن رغبات وانفعالات أفراد المجتمع.

خلاصة

في إطار القراءة السوسيولوجية لنص الأغاني فإن الدراسة لا تنحصر في حدود الرؤية الماديّة للنص إنما تتعداها لتغوص في الأنساق الرمزيّة الخفية وما يحصل فيها من تفاعلات. وبهذا فإن إنتاج نصّ مكتوب هو بحسب علم الإجتماع نصّ ثقافي محوره النشاط الإنساني وديناميّة البنى الإجتماعيّة، وكلّ نصّ هو نتاج حقبة زمنيّة وسياقات اجتماعيّة فرضت أنماطها الإبداعيّة.

وقد تبين من خلال معالجة هذا الموضوع بطريقة تحليل المضمون وبحسب البعد الأنتروبولوجي الّذي يندرج في إطار طرح ثقافي واجتماعي وتاريخي، بأن هناك ارتباطاً عضويّاً بين البيئة والنتاج الفني الّذي يصدر عنها، ونعني البيئة بشقيها الطبيعي والاجتماعي. ففي هذه الأغاني يتزاوج الفعل التذكري "الذاتي" مع "الجمعي"، ليحمل في طيّاته أبعاداً ثلاثة وهي المادي والرمزي والوظيفي، إذ عبرت الأغنيات الثلاثة

عن تأثير المكان على الفرد اللبناني ومجتمعه الّذي تأخذ الهجرة حيزاً كبيراً فيه، وتأثير الظروف الإجتماعيّة والإقتصاديّة والسياسيّة، في زمان معين. فكلمات الأغاني مستوحاة من تفاصيل الحياة اليوميّة، ولها مدلول اجتماعي وآخر ثقافي، وهي تشكلت في ضوء واقع وثقافة سائدة، كما أنها قدمت لنا أدوات درس ثريّة لتحليل الواقع الإجتماعي والثقافي للمجتمع اللبناني في حقبات متتالية. هذه الأغاني سجلت التاريخ الإجتماعي، وهي نتاج جملة من العوامل الإجتماعيّة والثقافيّة الّتي تتداخل فيها العادات والتقاليد والوعي الجمعي، لتشكل هويّة ثقافيّة خاصة بهذا المجتمع، يقترن بها الزمان والمكان وظيفيّاً من خلال مركب متجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات الّتي تحتفظ لهذه الجماعة البشريّة، بهويتها الحضاريّة، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخليّة وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء.

صحيح أن الأغنيات تسترجع ذكريات تبدو للوهلة الأولى ماديّة، فالبيت والضيعة والأرض، هي معطيات ماديّة ولكنها تعبر عن الهويّة الثقافيّة البالغة التركيب الّتي تأسست في إطار علاقات تاريخيّة واجتماعيّة وثقافيّة، وتشمل الأنماط السلوكيّة والقيَميّة بفعل انخراط الناس في تجارب حياتيّة تأسست جراءها مع مرور الزمن، بنيات ثقافيّة إنسانيّة ذات جذع مشترك واحد وأصبحت من نسيج الجينات المعرفيّة لدى اللبناني، إذ "يقول أصحاب المذهب البنيوي في أوروبا إن البنية جاهزة قبلنا تنتظرنا. وعندما نكبر تصهرنا وتكيّفنا مع مقتضياتها. وعندما يأتي أجلنا نذهب نحن وتبقى البنية"[17]. فلكل ضيعة قصة، ولكل بيت تاريخ وملكيّة عقاريّة معينة، ولكل أرض عطاءات وقصص متوارثة من الأجداد، لها تأثيراتها ومكانتها ورمزيتها في الذاكرة الفرديّة والجماعيّة، هي متوارثة في وعي ولا وعي الأفراد، تتخزن في مكان محدّد بالذاكرة، وتقوم بوظيفتها عندما تتعرّض لإثارة. ففي الأغنيات يظهر أن لا شيء يبدو للإنسان أكثر حميميّة من مسكنه ومكان نشأته حيث يشعر فيه الفرد بالإلفة والأمان، حيث يشكّل المرجعيّة ونقطة الارتكاز، فوصف المكان بهذه الأغاني لا يرمي إلى إظهار مظهره الحقيقي الخارجي، إنما يرمي إلى تبيان القيم الرمزيّة الّتي تعني هذا المكان، إضافة للعلاقة الشخصيّة بين المكان والمهاجر، والّتي تشكّلت من خلالها الهويّة الثقافيّة الوطنيّة.

ربما تتنوع المكونات الثقافيّة المحليّة، لكن هناك ذاتيّة عامة تشكل الهويّة الوطنيّة اللبنانيّة، فالكل مختلفون في الجزئيات والوسائل، ولكنهم يتفقون على الأهداف العامة للبنان واحد. فالثقافة لا يشترط بها أن تكون واحدة، فقد تتنوع داخل المجتمع الواحد؛ لأنها تشكل الرؤية الخاصة بكل فئة، فهناك ثقافة السلطة، وثقافة المعارضة، وثقافة الطائفة، وثقافة العشيرة ... إلا أنها تنسج هدفاً واحداً يمكن أن نسميه "الهويّة الثقافيّة الوطنيّة" إذ تتداخل الهويّة العامة بالثقافة الجزئيّة لتبني هذه الهويّة الثقافيّة الوطنيّة، حيث تجتمع في هذا المفهوم ما هو موضوعي وما هو ذاتي، ما هو فردي وما هو مجتمعي.

أنما هذا لا يعني أن الهويّة الثقافيّة ثابتة، فالهويّة الثقافيّة كيان يصير، يتطور، وليست معطىً جاهزاً ونهائيّاً. هي تصير وتتطور، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضاً باحتكاكها سلباً وإيجاباً مع الهويات الثقافيّة الأخرى الّتي تدخل معها في تغاير من نوع ما. فاللبناني مهاجر بطبعه ومنذ القدم، وتتميز شخصيته بالمرونة والتأقلم، وهنا نستشهد بهذا البيت من الشعر للشاعر سعيد عقل:

"ومن الموطن الصغير نرود الأرض نذري في كل شطٍّ قرانا

نتحدى الدنيا شعوباً وأمصاراً ونبني – أنى نشأ – لبنانا"

بمعنى أنه بفقدان المكان تتحرك معطيات الهويّة الثقافيّة، وتدافع عن ذاتها، ولكن المرونة الّتي يتمتع بها اللبناني تجعله ينخرط ويغامر ويتحرّك من مكانه، إنما يبقى محتفظاً بهذا الجذع الّذي تكلمنا عنه في سياق الموضوع. فتسليط الضوء على الديناميكيات الإجتماعيّة والثقافيّة كالهجرة والنزوح وارتباطهما بالموروث الثقافي، لا يعني أن الهويّة الثقافيّة هي كيان ثابت إنما هو كيان خاضع لسيرورة متحركة في جميع الاتجاهات.

وإذا سألنا أنفسنا: ما الّذي يربط حركة أفراد هذا المجتمع بالمكان على مرّ الزمن؟ نجد إنه ذلك المخبأ الدائم الّذي يعود إليه الفرد عند كل أزمة ليجد فيه الأمن والاطمئنان حماية لذاته ولهويته الثقافيّة والإجتماعيّة، مهما تعرّضت لهزّات عنيفة وهجومات تدميريّة، هو القيم الماديّة والمعنويّة المرتبطة بهابيتوسه الخاص كبوصلة تقود الفرد إلى برّ الأمان. فعلى المستوى المعرفي، إن وظيفة المكان هي تقديم الأمان؛ هذا البناء الإجتماعي الّذي كوّنه المجتمع، وجعله متمركزاً في الضمير الجمعي لأفراده، حيث تلعب التنشئة الإجتماعيّة دوراً هاماً في بناء الثقافة والقيم وحيث تتحول هذه القيم إلى هوية. وخلاصة القول إنّ هذا المجتمع المحلّي مرجعٌ للهويّة ومكانٌ للولاء أن "الضيعة" و"البيت" و"الأرض" هي "المكان" الّذي يمثّل مرجع الهويّة والمركز الّذي يستقطب الولاء.

وأخيراً يمكننا القول بأنّ النتاج الأدبي هو إبن البيئة بشقيها الطبيعي والاجتماعي، وأنّ الأزمنة تتعاقب، وتتنوع الأحداث، وتهرم الأشخاص أو تنتهي، ويولد الجديد، وتتبدل معالم المكان، ولكن يظل المكان حاوياً لكل هذا... فالمكان ثابت والأزمنة والأشخاص والأحداث تتبدل، وكلمات هذه الأغاني معبرة عن ثبات هذا المكان رغم التسليم بالتبدل والتغير.

وهنا يمكن أن نطرح سؤالاً لربما تجيب عنه أبحاث مستقبليّة وهو: في عصرنا الحالي الّذي تتفاقم فيه الهجرات القسريّة والإراديّة، وفي منطقة تعجّ بحروب قتاليّة وحروب ناعمة، ما أهمية ودور الهجرة والإقتلاع في صياغة الهويّة الوطنيّة؟

الهوامش

[1] بندكتي، روبير: الهوية بين المجتمع المدني والجماعة الطائفية، بيروت، دار المشرق، 2012، ص. 15.

[2] معتوق، فردريك: سوسيولوجيا التراث، بيروت، شبكة المعارف، 2010، ص. 25.

[3] تومبسون، ميكل، وآخرون: نظرية الثقافة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (سلسة عالم المعرفة: العدد 223)، تموز 1997، ص. 9.

[4] عماد، عبد الغني: سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة لبناء، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2017، ص. 275.

[5] عبد الحميد، شاكر: الحلم والرمز والأسطورة، دراسات في الرواية والقصة القصيرة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، السلسلة: دراسات أدبية، 1998، ص. 215.

[6] النابلسي، شاكر: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص. 16.

[7] معتوق، فردريك: الموسوعة الميسرة في العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 2012، ص. 180.

[8] UNITED NATIONS, Multipling Demographic Dictionary, 1958, p.76

[9] بزّي، مصطفى: الهجرة والنزوح من لبنان خلال القرن العشرين، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2008، ص. 37.

[10] أبو نبيل، مراد: الأخوان رحباني إبداع فكري وفني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 2015، ص. 31 و32.

[11] باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص. 9.

[12] سعيد، إدوار: خارج المكان، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2000، ص. 22.

[13] HADDAD Elie, "Qu'est-ce qu'une maison? L'homme, 222020/10/, URL: https://journals.openedition.org/lhomme/23755

[14] القسيس، أديب: القرية اللبنانية في مؤلفات شكري الخوري وأنطوان خياط، بيروت، مؤسسة دكاش للطباعة، 2001، ص. 79.

[15] أنظر: روشيه، غي: مقدمة في علم الاجتماع العام – 2 – التنظيم الاجتماعي، تعريب مصطفى دندشلي، ط2، بيروت، مكتبة الفقيه، 2002، ص. 80 و 83.

[16] Durkheim, Emile: Les formes élémentaires de la vie religieuse. Le système totémique en Australie, (1912), éd P.U.F. « Quadrige », 1979, p.p. 370371-.

[17] معتوق، فردريك: التقاليد والعادات الشعبيّة اللبنانيّة، طرابلس، لبنان، جروس برس، 1986، ص. 25.

المراجع

المراجع باللغة العربية

- أبو نبيل، مراد: الأخوان رحباني إبداع فكري وفني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 2015.
- باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، 1989.
- بزّي، مصطفى: الهجرة والنزوح من لبنان خلال القرن العشرين، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2008.
- بندكتي، روبير: الهويّة بين المجتمع المدني والجماعة الطائفيّة، بيروت، دار المشرق، 2012.
- تومبسون، ميكل، وآخرون: نظريّة الثقافة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (سلسة عالم المعرفة: العدد 223)، تموز 1997.
- روشيه، غي: مقدمة في علم الاجتماع العام – 2 – التنظيم الاجتماعي، تعريب مصطفى دندشلي، ط 2، بيروت، مكتبة الفقيه، 2002.
- سعيد، إدوار: خارج المكان، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2000.
- عبد الحميد، شاكر: الحلم والرمز والأسطورة ، دراسات في الرواية والقصة القصيرة في مصر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، السلسلة: دراسات أدبيّة، 1998.
- عماد، عبد الغني: سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة لبناء، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2017.
- القسيس، أديب: القرية اللبنانيّة في مؤلفات شكري الخوري وأنطوان خياط، بيروت، مؤسسة دكاش للطباعة، 2001
- معتوق، فردريك: التقاليد والعادات الشعبيّة اللبنانيّة، طرابلس، لبنان، جروس برس، 1986.
- معتوق، فردريك: سوسيولوجيا التراث، بيروت، شبكة المعارف، 2010.
- معتوق، فردريك: الموسوعة الميسرة في العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 2012.
- النابلسي، شاكر: جماليات المكان في الرواية العربيّة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، 1994.

المراجع باللغة الفرنسية

Durkheim, Emile: Les formes élémentaires de la vie religieuse. Le système totémique en Australie, (1912), éd P.U.F. « Quadrige », 1979, p.p. 370371-.

HADDAD Elie, "Qu'est-ce qu'une maison ? L'homme, 222020/10/, URL : https://journals.openedition.org/lhomme/23755

UNITED NATIONS, Multipling Demographic Dictionary, 1958, p. 76.

ملحق
(كلمات أغاني العينة)

خدني على الأرض الي ربتنا (فيروز)
خدني على الأرض الي ربتنا، انساني على حفاف العنب والتين، اشلحني على ترابات ضيعتنا.
بواب العتيقة عم تلوحلي، وصوت النهورا ينده الغياب، وعيون عشبابيك تشرحلي، وصحاب عم بتقول نحنا صحاب.
وإمشي على طرقات منسية، دنية غياب ورح يبيت الطير، أنطر شي إيد تسلّم عليي، وشي صوت عم بيقول... مسا الخير.
خدني ازرعني بأرض لبنان، بالبيت يلي ناطر التلّة، إفتح الباب وبوّس الحيطان، وإركع تحت أحلى سما وصلي.

يا رايح عضيعتنا (عازار حبيب)
يا رايح عضيعتنا، برجوعك صوبي حوّل
طالت عنها غيبتنا، ويطوّل عمرك ما تطوّل

هالضيعة ال فيها تربّيت، ومغيّبها بيت وبيت
فيها انحبّيت وحبّيت، ولبّيت الحب الأول
والله طالت غيبتنا، يطوّل عمرك ما تطوّل

شفلي بدربك بيت بيّ، أوّل صورة بعينيّ
وغنّي عنّي غنّيّة ،وخلّي الموّال يموّل
والله طالت غيبتنا، يطوّل عمرك ما تطوّل

نيّالك شو عبالك، ضيعتنا الحلوة قبالك
علّي وقلّي عقبالك، وبالخير عليّ فوّل
اشتقنا وطالت غيبتنا، يطوّل عمرك ما تطوّل

الغربة (فارس كرم)

الله يلعن بي الغربة شو سوت بحالي
مُرّة ومرمرتلي قلبي وسرقت مني الغالي
قلنا بنسافر سنتين وبنرجع على الضيعة
ضاع العمر وبعدو حسين ما خلص هالبيعة
ويلي ويلي ويلي الله يعين الي عنده عيله
عايش على الشمعة مهموم عم يتحمم بالكيلة
دلي دلي دلي يا تعتيري ويا دلّي
شو صاير بي هالناس كلوا عايش بالقله
شو مشتاق لإمي وبيي واختي تكوي تيابي
إسمع شي كلمة حنيي تنسيني عذابي
سافر شب وارجع شايب تا ارتاح شويي
إرجع ما بلاقي الحبايب شو صعبة يا خيي
هيه هيه هيه هالدنيا هيه هيه
بيجي ناس بتمشي ناس بضلها هيه هيه
يمي يمي يمي مش قادر إنسا همي
متل خيال بعمري صار وصاير عم يمش بدمي
ما بدي هالغربة راجع على الضيعة لاقوني
بدي إركع بوس ترابا هالارض الحنونه
عيش بالدنيا واتهنا وضلك عايش راضي
راحت رجعت طلعت نزلت راح تزعل عالفاضي
جنة جنة جنة هالدنية والله جنة
اسمع مني وريح هالبال وضلك عايش متهني
عني عني عني يا غربة حلي عني
فرقتي كل الاحباب وأخدتي الغالي مني

الهجرة اللبنانية في بداية القرن العشرين
قرية الهبارية –قضاء حاصبيا نموذجا

د. سليم هاني منصور
قسم التاريخ/ الجامعة اللبنانية

تعد الهجرة العامل الثالث الى جانب الولادات والوفيات المؤثر في حركة السكان وحجمهم ، وقد تتقدم على احدهما او كليهما من حيث درجة تاثيرها وفاعيليتها .

والهجرة الصيقة بلبنان وتاريخه، فقد بدات قبل إنشائه، أي في زمن القائمقاميتين ثم زمن المتصرفية، واستمرت مع سقوط السلطنة العثمانية، ومع اعلان دولة لبنان الكبير ثم الانتداب الفرنسي والاستقلال وما بعده .

لا يمكن دراسة تاريخ لبنان دون العودة الى موضوع الهجرة، واسبابها، وظروفها واثارها ، بل واكثر من ذلك، فان معرفة تفاصيل الهجرة، وانتشار المهاجرين، واعدادهم، واعمارهم، ومهنهم، وطوائفهم، وغيرها... يساعد في كتابة تاريخ لبنان الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والديمغرافي .

واذا كانت اكثر دراسات الهجرة قد انحصرت في نطاق جبل لبنان ، وقد اهملت المناطق الاخرى، فلم يعرف حجم الحجرة ودورها، وتاثيرها على الحركة السكانية فيها ، لذلك تم القيام بدراسة عن الهجرة اللبنانية، في الربع الاول من القرن العشرين ولمنطقة نائية في الجنوب اللبناني .

وقد قسمت الدراسة الى فصلين : اما الفصل الاول فقد تعرضت فيه للظروف السياسية، والاقتصادية، التي واكبت بداية القرن العشرين ، وتحدثت فيه عن مفهوم الهجرة الدولية، والاسباب التي دفعت الناس الى ترك ديارها، واهلها، والسفر الى جهات الدنيا المختلفة .

اما الفصل الثاني : فهو دراسة بحثية عن قرية في الجنوب اللبناني (الهبارية – قضاء حاصبيا) ، وذلك بعد التمكن من الحصول على احصاءات عن المهاجرين منها في اوائل القرن الماضي (احصاءات وزارة الداخلية)[1]، والقيام بتحليل المعلومات ورصد المناطق التي تمت الهجرة اليها، ومعالجة الارقام والنسب التي تم التوصل اليها لابراز اسباب الهجرة وتوضيح اثارها .

الفصل الاول

لما فتح السلطان سليم الاول بلاد الشام عام 1516م ، اصبح حكم لبنان (ما يعرف حاليا بلبنان) في ايدي امراء الجبل تحت سلطة الوالي العثماني الاسمية في عكا، وهكذا كان الامر في عهد الامراء المعنيين والشهابيين. وعلى اثر انتصارات محمد علي باشا ، قررت السلطنة العثمانية حكم جبل لبنان مباشرة، فعينت قائم مقاميتين الاولى للموارنة في الشمال والثانية للدروز في الجنوب ، والحقتهما سنة 1842 بوالي صيدا مباشرة .

بعد ذلك حصلت حوادث 1860 الشهيرة بين الدروز والموارنة ، فاضطرت الدولة العثمانية تحت الضغط الاجنبي، الى وضع الجبل تحت نظام المتصرفية بموجب اتفاق وقع في 9 حزيران سنة 1861 بينها وبين الدول الخمس بريطانيا وبروسيا، وروسيا، وفرنسا، والنمسا، وتقرر فيه ان يكون لجبل لبنان حاكم عثماني مسيحي غير لبناني يسمى المتصرف يقترحه الباب العالي ، وتوافق عليه الدول الكبرى، وتقرر فيه ايضا ان يعاون المتصرف، ادارة مؤلفة من اثني عشر عضوا .

ولما دخلت السلطنة العثمانية الحرب العالمية الاولى عام 1914 الغت استقلال لبنان الاداري، وعينت جمال باشا حاكما مباشرا .

وفي عام،1919 اقر ميثاق عصبة الامم نظام الانتداب، وفي عام ،1920 تقرر الانتداب الفرنسي على لبنان في مؤتمر الحلفاء الاعلى المنعقد في سان ريمو.

وفي 31 اب(اغسطس) 1920 اصدر الجنرال غورو القرار رقم 318 بضم المدن التالية الى جبل لبنان وهي ولاية بيروت التي كانت من اقضية صيدا، وصور، ومرجعيون، وبيروت، وطرابلس، وبعض سكان ولاية الشام في اقضيتها الاربعة: حاصبيا، وراشيا، وبعلبك، والمعلقة (البقاع).

وفي الاول من ايلول 1920، دعا الجنرال غورو بعض السياسين والاعيان ، وممثلي الطوائف ولا سيما بطريرك الموارنة الياس الحويك، ومفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا، الى احتفال يقام في قصر الصنوبر في بيروت ، وقد حرص غورو على حضور المفتي والبطريرك، للاشارة بان المسلمين والمسيحيين على السواء موافقون على صيغة لبنان الكبير في ظل السيطرة الفرنسية ، وموافقون على فصل لبنان عن سوريا.[2]

وحددت حدود لبنان الكبير من الشمال مصب النهر الكبير، على خط يلازم مجرى هذا النهر صعودا على علو بلدة جر القمر، حتى التقاء النهر الكبير مع رافد وادي خالد، ومن الشرق خط القمم الفاصل بين وادي

خالد، ونهر العاصي المار بقرى مصرعه، ,حا بعنا فيسان على علو قرى بريقا ومتربة اما في الجنوب فحدود فلسطين ومن الغرب البحر الابيض المتوسط[3].

اصدر الجنرال غورو القرار رقم 326 تاريخ 16 ايلول 1920 حدد بموجبه مناطق لبنان الادارية كالآتي:

1- صنجق لبنان الشمالي قاعدته زغرتا ويضم :

- قضاء عكار باستثناء القسم الواقع شمالي النهر الكبير الذي يحده من الشرق خط وادي خالد
- قضاء زغرتا الذي يضم مديريات الزاوية والضنية وبشري
- قضاء البترون ويضم مديريات الكورة ونفس البترون

2- صنجق جبل لبنان قاعدته صيدا ويضم:

اقضية كسروان والمتن والشوف ومديرية دير القمر

3- صنجق لبنان الجنوبي قاعدته صيدا ويضم :

-اقضية صيدا والتفاح وجزين والشقيف والقسم الشمالي من الشحار.
- قضاء صور ويضم القسم الجنوبي من الشحار.
- قضاء حاصبيا ويضم مرجعيون حتى الحدود مع فلسطين.

4- صنجق البقاع قاعدته زحلة ويضم:

- اقضية راشيا والبقاع ومعلقة وبعلبك ومديرية الهرمل

5- مديرية بيروت مع ضاحيتها التي تشكل منطقة ادارية مستقلة

6- مدينة طرابلس مع ضاحيتها تتلتي تشكل منطقة ادارية مستقلة[4].

مفهوم الهجرة:

تعد الهجرة عنصرا رئيسيا، من عناصر الدراسة السكانية، وذلك لانها فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان ، وهي تؤثر في خصائصم الديمغرافية، والاقتصادية، إذ يعد التغير في التركيب العمري والنوعي مثلا نتاجا هاما من نتائج الهجرة من الاقليم او اليه .

ولما كان صافي الهجرة، يعني انتقال السكان من مكان لاخر، فان ذلك يعيد توزيع السكان، في اي منطقة، وما يترتب عليه من نتائج ايجابية، كتوفير الايدي العاملة، وزيادة فرص الحصول على المدرب منها و نتائج سلبية مثل زيادة عبء الاعالة، في المناطق المهاجر منها، وخلق كثير من المشكلات السكانية في المناطق المهاجر اليها.

وللهجرة انماط متعددة، ويتميز كل منها بخصائص ديمغرافية خاصة ، وان كان يقصد بها عموما، الانتقال الجغرافي، من منطقة لاخرى، وهي تنقسم الى قسمين من حيث الاستمرار والدوام هما : الهجرة الدائمة ،والهجرة المؤقتة. ويمكن تقسيمها الى ثلاثة اقسام رئيسية من حيث المدى والاتجاه وهي كالآتي :

1- الهجات الدولية وتتمثل في الانتقال السكاني عبر حدود الدول اي من دولة الى اخرى.

2- الهجرة الداخلية او المحلية وهي تتمثل في انتقال السكان فيما بين اجزاء الدولة الواحدة.

3- الهجرة الدورية او المؤقتة، وتتمثل في الانتقال الجغرافي من مكان لاخر، لفترة محددة ثم ما يلبث المهاجرون، ان يعودوا الى مواطنهم الاصلية، بعد ذلك وابرز امثلتها هجرة الايدي العاملة، والانتقال الموسمي لبعض السكان[5].

وتشمل الهجرة الدولية (موضوع بحثنا) الانتقال السكاني عبر حدود الدول ليس فقط الدول المتجاورة، بل ومن قارة الى اخرى ،وليست المسافة ذات اعتبار كبير في التعريف لهذا النوع من الهجرة.

على ذلك فان دراسة الهجرة الدولية تبدو سهلة من هذا التعريف البسيط لها واعتمادا على سجلات الهجرة عند حدود الدول ، ولكن ما ينبغي ملاحظته هو ان الاعتماد على هذه السجلات لايؤدي الى دراسة دقيقة ، وذلك لانها قد لا تحتوي على الحقائق عن المهاجرين من ناحية ، كما انها سجلات لحظية من ناحية اخرى تسجل حالة المهاجر وقت عبور الحدود دون اعتبار للتغير الوظيفي والاجتماعي الذي سيطرأعليه في دولة المهجر بعد ذلك ، كذلك قد لا تتوافق بيانات الهجرة للدولة الموفدة مع بيانات الهجرة للدولة المستقبلة.[6]

يتضح مما سبق، ان الربع الاول من القرن العشرين قد شهد تطورات هامة واحداث خطيرة : سقوط السلطنة العثمانية ,الحرب العالمية الاولى[7]، قيام دولة لبنان الكبير انما ليس المجال هنا للخوض في شرح الاحداث انما هي الخلفية التي سننطلق منها لتحديد اسباب الهجرة .

اسباب الهجرة :

الاوضاع الاقصادية

تعتبر الاوضاع الاقتصادية، من اهم العوامل الدافعة للهجرة ، يفسر ذلك تركز مصادر الهجرة في المناطق الجبلية، التي ادى فقرها وندرة الموارد فيها، الى البحث عن مصادر الرزق اينما توفرت.[8]

فخلال تلك المرحلة، كانت الولايات العربية التابعة للسلطنة العثمانية، والتي انطلقت منها الهجرة العربية، نحو امريكا، قد وصلت شأنها شأن بقية الولايات، الى درجة كبيرة من الانحطاط الاقتصادي، في وقت بدات فيه مطامع الدول الاوروبية في التزايد، وقد ارغمت هذه الاخيرة الباب العالي، على توقيع اتفاقيات تجارية مجحفة، كما اضطرته بسب فراغ خزينة الدولة الى طلب قروض متعددة من هذه البلدان ، وصل

مجموعها الى اثني عشر قرضا خلال المرحلة الممتدة ما بين 1855 و1875، معظمها تم استعماله لتسديد الديون المترتبة على القروض السابقة.

امام هذا الوضع، تدخلت الدول الدائنة بهدف مراقبة مالية الدولة ، وهو ما نجم عنه انشاء ادارة الديون العثمانية التي اصبحت الدول الاروبية من خلالها تراقب مداخيل عدد من المنتجات مثل الملح والحرير والتبغ .

نتيجة لكل ذلك، ارتفعت الاسعار بشكل لم يسبق له مثيل، خصوصا بعد ان رفعت الدولة من قيمة الضرائب المفروضة على المنتجات المحلية، التي لم تعد قادرة على منافسة المواد المستوردة ، وقد ادى هذا الى تدهور كبير في الحركة التجارية في الولايات العثمانية.

مما زاد الوضع حدة تدهور طريق الحرير الذي كان يمر بهذه الولايات ، بعد شق قناة السويس وفتحها بوجه الملاحة البحرية ابتداء من 1869.

ولم يكن الوضع في الريف باحسن منه في المدينة، وهكذا فعلى رغم الغاء نظام الاقطاع في بعض الجهات، مثل جبل لبنان منذ 1861 ، فان هذا النظام بقي قائما من الناحية العملية ، واذا استثنينا النخبة المكونة من الاستقراطية التقليدية، وكبار موظفي الحكومة العثمانية، فان بقية الاهالي كانون يعيشون في حالة فقر تام زاد من حدته الارتفاع الذي عرفته الكثافة السكانية في عدد من المناطق الحضرية والقروية[9].

والحال لم يتغير زمن الانتداب، فتوزيع الملكية في الداخل، خاصة الزراعية منها، والذي جاء الانتداب الفرنسي يزيد في ازمته، ويعطي صفة شرعية للتجاوزات، و النهب الاقطاعي القديم، و طريقة الاستغلال التقليدي للارض، وهيمنة الاقطاعيين على كامل المردود، واعمال السخرة التي قام بها الفرنسيون بالذات وضعف الصناعات، والحرف، وعجزها عن استيعاب اليد العاملة، التي تدخل تباعا في عملية الانتاج، ضاف الى ذلك الربا، والضرائب والافات التي تلحق بالمزروعات، حمل ذلك ودفع البلاد ان تتجه نحو الفقر ليكون السبب الاول والاساسي للهجرة.[10]

ان توسيع رقعة جبل لبنان المتصرفية ، نحو حدوده التاريخية، والطبيعية، لم تدفع الجبليين من اللبنانيين الى استصلاح اراضي البقاع الخصبة ، كما لم تحمل الفئات الميسورة الحال منهم على امتهان الزراعة ، بل هيأ الاحتلال الفرنسي والادارة الانتدابية المعسكرة لسكان المناطق، التي الحقت بمتصرفية جبل لبنان فرصة المساواة باخوانهم في الجبل ، وذلك بفتح طريق المهاجر امامهم والتي كانت تقتصر حتى ذلك الحين على الجبليين دون سواهم فهاجر بعض سكان القرى جلهم او جميعهم احيانا الى امريكا خاصة الجنوبية منه[11].

فقد كان معظم الرواد المهاجرين اناسا فقراء، معدمين اميين يجهلون لغة البلاد التي يأتونها، وكانوا يلاقون ضروبا من الشقاء، ويكابدون انوعا من شظف العيش ، كان الواحد منهم يبدأ كبائع متجول، يحمل صندوق خشبيا صغيرا، فيه طرائف وبضائع غريبة من البلاد المقدسة، وقطع قماش مطرزة،.وكان على المهاجرين الاول ان يعيلوا انفسهم ،وان يرسلوا بعض المال لإعالة اهلهم في لبنان ، وقل جدا ان يهمل المهاجر اهله في الوطن الام او ان يقطع علاقاته نهائيا بوطنه.[12]

الدعاية:

شكلت رسائل المهاجرين الى ذويهم في الوطن، مادة دعائية ترغبهم في السفر ، وقد تضمنت معظم هذه الرسائل شرح التعليمات، وادق التفصيلات، التي يحتاج اليها المهاجر، عند وصوله الى الخارج ، وكانت رسائل المهاجرين التي تصل الى اقاربهم، و اصدقائهم في الوطن، عبر البريد، او بيد احد العائدين، تحمل الاخبار المبالغ فيها، وفي اغلب الاحيان، كانت هذه الرسائل، تدعم بالصور الفوتوغرافية، التي تظهر ابن البلد باللباس الاجنبي المميز، الذي تظهر عليه علامات الغنى والاناقة الجذابة ، وكذلك ساعدت نجاحات بعض المهاجرين وارسال المال الى ذويهم الى تحريك الحماس للهجرة في نفوس الشباب[13].

وكان رجوع المهاجرين الى مسقط رأسهم، خصوصا الذين نجحوا في العودة ببعض الاموال، حيث المنطقة التي ينتمون اليها برمتها ، وفي الوقت نفسه، فرصة جديدة لتحريك خيال الشباب واحلامهم بالهجرة.[14] فالبعض لايعتبر الجوع الذي يعتبر احد اسباب الهجرة هو الذي دعاهم الى النزوح، ولا الخوف على املاكهم وارواحهم ، ولكن نجاح المهاجرين السابقين، يعتبر السبب الرئيسي في بلاد عرف اهلها بالغيرة وحب التقليد.[15]

ولا يمكن التقليل من دور السماسرة ، فقد لعب هؤلاء دورا رئيسيا في عملية تسفير المهاجرين، وتهريبهم، وكان نشاط هؤلاء يبدا بترغيب الشباب على الهجرة، في مواقيت معينة من السنة ، اذ كانت البواخر الصغيرة ترسو في ميناء بيروت، مرتين في العام الاولى في الربيع لقاصدي السفر الى امريكا الشمالية، (الولايات المتحدة وكندا) لتصل اليها في الصيف ، والثانية، في الخريف للمتوجهين الى القسم الجنوبي من القارة الامريكية كي تبلغها في الشتاء، واثناء رسو تلك البواخر، كان بحارتها يرسلون السماسرة الى الاسواق، والقرى، للاعلان عن وصول السفن، وفي الوقت ذاته يعرضون خدماتهم على الراغبين بالهجرة ، ومن هنا يبدا القرويين بجمع المال من عدة مصادر لشراء (النولون) استعدادا للسفر.[16]

ومن العوامل ايضا، ان هجرة الاوائل، تتحول الى عامل ترغيب لهجرة اللواحق، من ابناء البلدة الواحدة، وهذا ما يعرف ب(نداء الاخ) الذي يشكل دعوة مباشرة، وغير مباشرة، للخوض في الهجرة .الدعوة المباشرة والصريحة ناتجة عن حاجة المهاجر لايد عاملة ماهرة، او غير ماهرة لتوسيع اعماله في بلد الاغتراب. ويفضل استقدامها، من معارفه السابقين، ومن اقربائه ، في بلد الاصل، ومن مسقط راسه بالذات.

وذلك لسهولة التعامل معها، واحتمال اخلاصها ، ووفائها للعمل الجديد، فضلا عن أن اي المهاجر يثبت لابناء قومه انه اصبح رب عمل فيزين لهم حسنات الهجرة، باعتبارها فرصة للتخلص من المستوى المعيشي المنخفض، والابتعاد عن المخاطر السياسية، والامنية[17].

عامل الخوف : ساعدت الاحداث الطائفية التي عرفها جبل لبنان، بين الدروز والموارنة، عام 1860 وما رافقها من تعديات على المحرمات، وقتل، وتدمير، ونهب ،وتهجير، الى توليد حالة من الذعر، والرعب، والخوف، بين ابناء الكيان الواحد .ان حالة ترقب الاسوأ ،دفعت بالعديد من الشباب الى الهجرة، بحثا عن الامن والاستقرار والعمل.

تطور التعليم : يعتبر ازدياد المدارس في (جبل لبنان)، وبيروت، ظاهرة ايجابية، ولكن غياب فرص العمل الداخلية ، امام هؤلاء المثقفين الشباب ،الذين وجدوا في الهجرة المجال الحيوي لتحقيق طموحاتهم.

دور المواصلات البحرية ووسائل الاتصال: حيث تحسنت المواصلات البحرية ، وقامت شركات لبنانية متخصصة في خدمة المسافرين، كذلك لعبت وسائل الاتصال دورا رئيسيا في تعريف اللبنانيين على عالم ما وراء البحار.

اسباب سياسية: الاضطراب السياسي الذي عاشته السلطنة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى، ومحاولات الاصلاح، والغزو الروسي لبعض اراضي السلطنة، مما انعكس سلبا على اوضاع الناس، واصحاب التطلعات، والبرامج، والافكار السياسية، والاصلاحية ، هذا بالاضافة الى تدهور الاوضاع الامنية، فاضطر الكثيرون الى مغادرة البلاد نحو مصر، فأوروبا، ومنها نحو القارة الامريكية[18].

عوامل جذب: ان عوامل الجذب في مراكز المهاجر البعيدة، وفرت المجالات الحيوية الايجابية للشباب، فجذبتهم الى تلك الارض الغريبة الحوافز، التي كانت في احلامهم من صور المجتمعات الحرة التي يسعى ابناؤها الى العمل والعلم ، وجني الثمرات، والتمتع بالشهرة ، في رحاب اوضاع بيئية، وامنية، وترفيهية مثلى[19].

فهناك مناطق لا تمتلك مواصفات جذب[20]، ولكن الحالة الاقتصادية المزدهرة، والنمو الاجتماعي في الامريكتين، يعتبر من الاسباب الرئيسية في جذب المهاجرين واستخدامهم للحاجة اليهم.

لذا يجب الربط بين النوعين المتلازمين، للعوامل المسببة للهجرة، وهما: العامل الداخلي، والاخر الخارجي. الاول الذي يشجع السكان على الهجرة او يدفعهم اليها قسرا، والثاني، الذي يستقطبهم الى شروط عمل أفضل وهذا يفسر ان العلاقة بين مجتمعي الارسال، والاستقبال جدلية.[21]

الفصل الثاني :قرية الهبارية –قضاء حاصبيا نموذجا

موجز عن قرية الهبارية

معنى التسمية : قد يكون من الجذر (هبر) ويفيد القطع او من الجذر (برا) الارامي والعبراني بمعنى اكل.

الارتفاع عن سطح البحر 800 متر.

تبعد عن بيروت 110 طلم وعن حاصبيا 10 كلم.

قضاء حاصبيا.

تنتج : الزيتون والتبغ والحبوب والفاكهة وبعض الخضار.

في البلدة : برج روماني وبئر قديم ونواويس قديمة.[22]

موجز تاريخي عن منطقة حاصبيا

تعتبر منطقة حاصبيا غنية على المستوى التاريخي، فمنها خرج الامراء[23]، ومن احفادهم فيما بعد رؤساء، ولكن بالرغم من ذلك، فان كتابة تاريخها في بداية القرن العشرين ، وخاصة بعد سقوط السلطنة العثمانية وانضمامها الى دولة لبنان الكبير، تفتقر الى الشواهد، والحجج، والوثائق، نظرا لقلة هذه المصادر، وعدم توفرها واعتماد الكتاب والمؤلفين بدرجة كبيرة على المعمرين في تدوين التاريخ[24].

لذلك يعتبر الحصول على جداول احصائية مفصلة للمهاجرين، وموثقة ورسمية، من الدوائر المختصة (وزارة الداخلية)[25] امرا مهما لكتابة تاريخ الهجرة عن منطقة تندر فيها وثائق المهاجرين، او المغتربين في تلك الفترة .ان السجل الذي حصلنا عليه من تاريخ 1896 الى تاريخ 1924 لذلك يصعب معرفة الهجرة ما قبل هذا التاريخ، لانعدام السجلات الرسمية، ودفاتر الاحصاء والصحف في ذلك العهد.

الاعمار التي هاجرت[26]

1.		17
2.		17
3.		29
4.		22
5.		37
6.		31
7.		18
8.		23
9.		19
10.		24
11.		20
12.		15
13.		25
14.		24
15.		23
16.		22
17.		38
18.		27
19.		46
20.		23
21.		34
22.		17
23.		36
24.		20
25.		27
26.		33
27.		33
28.		18
29.		21
30.		24
31.		36
32.		16
33.		30
34.		43

35.		28
36.		19
37.		20
38.		38
39.		22
40.		25
41.		26
42.		19
43.		19
44.		19
45.		10
46.		7
47.		27
48.		27
49.		32
50.		24
51.		26
52.		31
53.		34
54.		35
55.		31
56.		32
57.		31
58.		46
59.		31
60.		46
61.		37
62.		30
63.		33
64.		28
65.		32
66.		14
67.		11
68.		29

69.		16
70.		32
71.		31
72.		26
73.		36
74.		34
75.		39
76.		33
77.		35
78.		11
79.		27
80.		42
81.		50
82.		32

متوسط العمر :2251/82=27,45 سنة.

الاوضاع الاجتماعية للمهاجرين

العدد(رجال)	النسبة المئوية
47 عازب	57.31%
27 متأهل	32.92%
أرمل	6.09%
العدد (نساء)	النسبة المئوية
2متأهلة	2.43%
1عزباء	1.21%

جنس المهاجر

العدد	النسبة المئوية
79 ذكور	96.34%
3 اناث	3.63%

المهن

العدد	النسبة المئوية
77 تاجر	93.34%
2 فلاح	2.43%
3 نساء لم تذكر مهنهن	

من يرسل الدراهم

العدد	النسبة المئوية
82 لا يرسل دراهم	100%

من لديه املاك

العدد	النسبة المئوية
77 ليس لديهم املاك	93.9%
5 لديهم املاك	6.09%

من يدفع رسوم

77 لايدفع	93.9%
5 يدفع رسوم	6.09%

الدول المهاجر اليها

العدد	النسبة المئوية
36 الارجنتين	%43.9
21 برازيل	25.6%
11 المكسيك	13.41%
5 كوبا	%6.09
4 نويورك	4.87%
3 ذكر العبيد	%3.65
2 كندا	% 2.43

الوضع التعليمي

العدد	النسبة المئوية
69 امي	84.41%
13 متعلم	15.85%

اما بالنسبة للنساء فلم يذكر وضعهم

الديانة: مسلمون[27]

الاستنتاجات :

- اكثر المهاجرين من العزاب 57.31% ، المتأهل32.92% ، وارمل6.09%، وهو ما يبرز اهمية ومخاطرة هذه الفئة للسعي في الحصول على الرزق .
- اما بالنسبة لاعمار المهاجرين، فموسط العمر ،27.45 اي ان الفئة الشبابية هي التي تهاجر للبحث عن الرزق، ما يؤدي الى خسارة القوة العاملة في بلدهم .
- اما بالنسبة الى جنس المهاجر، فكانت النسبة طاغية للذكور 96.34%، وهو ما يؤدي الى اختلال الميزان الديمغرافي، فقلة من النساء، هي التي هاجرن 3.63%.

ونشير هنا الى ما توصل اليه الباحث، عبد الواحد اكمير في دراسته العرب في الارجنتين : ان تميزت الهجرة في بداية عهدها بكونها هجرة مؤقته، تطول الذكور، حيث تجاوزت نسبة هؤلاء بشكل واضح النسبة المسجلة لدى الهجرات ذات الاصول الاوروبية ،التي اخذت طابع الاستقرار الدائم.

وفيما يتعلق بمعدل العمر، فانه بخلاف الهجرة الاوروبية، التي تسجل لديها نوعا من التقارب في النسب بين مختلف الاعمار، فان اكبر نسبة لدى المهاجرين العرب، طاول اولئك الذين يتراوح سنهم بين عشرين وثلاثين سنة ، وهو ما يعني في سوق العمل اغناء البلد المستقبل باليد العاملة النشيطة، على حساب البلد الاصلي[28]. وهو ما يتطابق مع النسب التي حصلنا عليها من خلال الدراسة .ومن ظواهر الهجرة قبل الحرب العالمية الاولى انها كانت بالدرجة الاولى مقتصرة على الذكور (وهذا ما يتطابق مع الدراسة)، اما المراة فلم تستلفت قيمتها الاقتصادية نظر المهاجر، وهناك تفسير اخر لعدم هجرة النساء في بداية الحركة باعتبار ان المهاجرين كانوا يضعون العودة نصب عيونهم فلا يصطحبون النساء[29].

- بالنسبة للمهن، فان اكثرية 93.9% تجار و2.43% فلاح والارجح انها نسبة غير واقعية، فان اكثرية المهاجرين ،كانوا من الفلاحين، فالمنطقة التي يسكنوها لا تقع على تقاطع طرق والبيئة التي انطلقوا منها، بيئة زراعية اكثر اعتمدها على الانتاج الزراعي والحيواني، الا اذا كان المقصود من المهنة، هو النشاط الذي يقوم به المهاجر في بلاد المهجر. واني ارجح ذلك .
- بالنسبة للوضع التعليمي، فان اكثرية المهاجرين من الاميين اي الذين لا يعرفون القراة والكتابة 84.14%، وكذلك الارجح انها النسبة نفسها للنساء[30]، اي ان اكثرية الفئات المهاجرة، لا تمتلك اي قدر من التعليم، لذلك فهي تغادر بلادها دون ان تمتلك مؤهلات، وهي بطبيعة الحال لاتمتلك معرفة جيدة بالمنطقة المقصودة، والارجح انها ستواجه مصاعب، وعقوبات كثيرة من حيث التعامل واللغة.

– اما بالنسبة لمن يرسل دراهم لاقربائه فان النسبة 100% لمن لا يرسل وهذا يعني ان من يسافر لم يستقر، وليس لديه القدرة على ارسال المال لذويه .

– القسم الاكبر من المهاجرين ليس لديهم املاك 93.9 وهي النسبة نفسها لمن لا يدفع اية رسوم، وهذا دليل على الفقر والحالة المتردية للمهاجر.

– الملاحظ ان مقصد الهجرة هو الامريكيتين، فلم تقصد مصر ،او استراليا، او افريقيا كما كانت الهجرات الاخرى، وياتي في مقدمة الدول الارجنتين 43.9% (بونسيرس) ثم البرازيل (سان بولو ,ريوكرندي 25.6%) ثم المكسيك 13.41% ثم كوبا 6.09% ،ونيورك 4.87% ذكر العبيد 3.65% ،وكندا2.43%، وهي تتشابه مع النسب في المجتمعات الاخرى، فحتى نهاية العشرينات (القرن الماضي) تركزت الهجرات الشيعية في البداية في الارجنتين، والبرازيل، وفنزويلا ،ثم بدا البعض بالتوجه الى قارة افريقيا، قبل ان يتحول قسم كبير من الجيل الشاب الى بلدان الخليج، مع الفورة النفطية مع مطلع السبعينات، التي اتاحت فرصا واسعة للعمل[31].

تميز الارجنتين بكونها مقصدا :

أ. هناك مثل ارجنتيني يقول المكسيكيون هم ابناء الازتك، والبيروفيون هم ابناء الانكا، والارجنتيون هم ابناء البواخر، لعل هذا المثل يساعد على فهم طبيعة البنية البشرية لهذا البلد، الذي بدات تعرف تشكلا جديدا منذ منتصف القرن التاسع عشر نتيجة لسياسة تشجيع الهجرة الخارجية التي سنتها الحكومات المتعاقبة، والتي جعلت من الارجنتين ولمدة تزيد على نصف قرن قبلة للمهاجرين القادمين من مختلف الاصقاع.

ب . سعي الحكومة الفدرالية منذ تاسيسها عام 1853 الى تشجيع الهجرة الخارجية التي جعلتها ضمن اولوياتها.

جـ اهتمام الحكومات المتعاقبة بظاهرة الهجرة بسبب حاجة البلاد الملحة لليد العاملة.

د. الازدهار الاقتصادي وتبني عدد من المفكرين البارزين في الارجنتين لطروحات تربط بين النمو الاقتصادي والهجرة.

هـ خصصت الحكومة الارجنتينية اواخر القرن التاسع عشر ميزانية خاصة لتغطية تكاليف المهاجرين الذين يودون العمل في الفلاحة.

ومع بداية القرن العشرين، سوف تأخذ الهجرة ابعادًا جديدة، حيث ستتحول الارجنتين إلى أهم بلد لاستقطاب المهاجرين في أمريكا اللاتينية، ولن يتوقف الاتجاه التصاعدي الذي اتخذته الهجرة، إلا مع الأزمة الاقتصادية العالمية[32].

– ان الهجرة شملت كافة العائلات، فمن خلال رصد اسماء العائلات في البلدة، تبين ان المهاجرين لم ينحصروا في عائلة واحدة ، او عدد محدود من العائلات، إنما توزعت لتشمل البلدة ككل ومنها: بكري، نجم، نورالدين، ابو حسن، زاهر ، منصور، حديد، ابوعلوان، الشعار، ابراهيم، بركات ، يوسف، ابو ايوب، ابو همين، الجدوع، الخطيب، باز، ابو حمدي، الاخرس، ياسين ، شبلي، شقير، بركات ، عيسى، هزيمة، مرعي، حجول، عثمان ، ابو عسلي، ابوقيس ، حسين ، عمار، عقل ، عساف.

يتضح من خلال الدراسة، ان اكثرية المهاجرين من الفلاحين الفقراء حيث لا يملك القسم الاكبر منهم اية املاك ولايدفعوا اية رسوم.

بالاضافة الى ذلك فاغلبية المهاجرين، هم اميون، اي يتضح عدم وجود مدارس في منطقتهم، وتبرز درجة المخاطرة في السفر الى مناطق تحتاج منهم التعرف الى لغتهم، وقوانينهم، وهي مناطق مجهولة بالنسبة لهم.

اما بالنسبة للدول المقصودة بنسبة كبيرة (الارجنتين البرازيل) وهو ما يتوافق مع علاقة ابناء القرى ببعضهم حيث يقومون بتشجيع اقاربهم وجيرانهم بالسفر والرغبة بالتجمع في اماكن متقاربة.

وهناك اسئلة تطرح في هذا المجال:

هل هناك هجرة قبل تاريخ الدراسة ؟

لماذا أهملت الاعداد التي هاجرت من هذه المناطق حين تدرس الهجرة من لبنان ؟

والسؤال: كم سيكون حجم القرية ان بقي هذا العدد الكبير من المهاجرين ؟ الجواب ان شكل القرية وكثافتها السكانية وحجم العمران فيها سيكون مختلفًا ولكن عملية تحديده تحتاج الى معطيات ومعلومات اضافية.

ان تحديد اثار الهجرة في هذه المنطقة، يحتاج الى معرفة عدد السكان، وحجم التحويلات المالية، بالاضافة الى احصاءات عن عدد المنازل، والمزارع، والمحلات، قبل وبعد الهجرة، وهي غير متوفرة.

بالاضافة الى ما سبق، يطرح سؤال هل كانت الهجرة دائمة ،ام مؤقتة، وهو سؤال تفيد الاجابة عليه في مجالات كثيرة : اقتصادية ،وديمغرافية، عل ذلك يكون في دراسات اخرى ان شاء الله .

الهوامش:

[1] انظر الملاحق

[2] حلاق،حسان دراسة في تاريخ لبنان المعاصر ، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1985، ص101.

[3] ضاهر، مسعود،تاريخ لبنان الاجتماعي، دار المطبوعات الشرقية ، ط2، 1984، ص45.

[4] شرف، جان واخرون ، دولة لبنان الكبير (1920-1996)، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ،ط2، 1999،ص167.

[5] انظر ابو عيانة، فتحي محمد، دراسات في علم السكان ، دار النهضة العربية ،بيروت، دط، 1985، ص 157-158.

[6] انظر المرجع نفسه ،ص159.

[7] في اثناء الحرب العالمية الاولى هبطت نسبة الهجرة حتى كادت تتقطع انقطاعا كليا ، مع ان بعض مصادر المعلومات تشير الى عدد ضئيل من المهاجرين اللبنانيين دخلوا بلاد الاغتراب خلال سنوات الحرب الاربع.وهذا الهبوط في نسبة الهجرة طبيعي بالنظر الى ما رافق الحرب من ظروف عزلت البلاد عن العالم الخارجي .انظر الحص ، سليم ،الهجرة من لبنان تاريخها واسبابها ، مجلة ابحاث،دار الكتاب ن بيروت ج1، 1959،ص59.

[8] العقل،جهاد نصري ، الهجرة الحديثة من لبنان ، دار وكتبة التراث الادبي ،بيروت ،ط1 ، 2004،ص58.

[9] إكمير ، عبدالواحد، العرب في الارجنتين ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ،2000،ص 19-20.

[10] انظر ضاهر ، تاريخ لبنان الاجتماعي ، مرجع سابق، ص 149.

[11] انظر المرجع السابق ، ص148.

[12] انظر حتي ، فيليب ، تاريخ لبنان ، دار الثقافة ،بيروت ، ط3 ، 1978، ص 577-578.

[13] انظر العقل ، الهجرة الحديثة ، مرجع سابق ، ص 62.

[14] انظر إكمير ن العرب في الارجنتين،مرجع سابق،ص21.

[15] مروة ، كامل ،نحن في افريقية ، دار المكشوف ، بيروت ، 1938، ص188.

[16] العقل ن جهاد ن فجر الهجرة ،دار ومكتبة التراث العربي ، بيروت ، دط، 2003ن ص26.

[17] ارزوني ، خليل ، الهجرة اللبنانية الى الكويت(1915-1990)،مكتبة الفقيه، بيروت، ط1، 1994،ص118.

[18] انظر الحص ،الهجرة من لبنان تاريخها واسبابها ،مرجع سابق ،ص60. وانظر العقل ،الهجرة الحديثة من لبنان ، مرجع سابق ، ص 60-70.

[19] انظر العقل ،الهجرة الحديثة في لبنان ،مرجع سابق ، ص 65.

[20] فلم تكن للكويت على سبيل المثال خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عوامل جذب اقتصادية او غير اقتصادية يمكنها ان تلعب دورا مؤثرا في اختيار الكويت بلدا للهجرة ، ولم تلحظ الوثائق المعروفة وجود لبنانيين في الكويت خلال السنوات القليلة السابقة للحرب العالمية الاولى. انظر ارزوني ، الهجرة اللبنانية الى الكويت (1915-1990) ،مرجع سابق ،ص 159،

[21] انظر العقل ، الهجرة الحديثة في لبنان ،مرجع سابق ، ص 65.

[22] انظر الاسمر ،راجي ،الموسوعة المصورة للقرى والمناطق اللبنانية وحكاياتها،ج2 ،l'edition du mois،ط1، 1998،ص551.

[23] حاصبيا هي بلد الامراء الشهابيين الذين استخلصوها من الافرنج في ايام السلطان نور الدين واسسوا امارتهم التي استمرت حتى زوال الاحكام الاقطاعية ، ومن هذه الاسرة الشهابية اتصل فرع بالمصاهرة بالامراء المعنيين فانتقل اليهم حكم لبنان بعد انقراض الاخيرين وكان المع الامراء الشهابيين الامير بشير الكبير.انظر خوري،حنا حردان، الاخبار الشهية عن العيال المرجعيونية والتيمية ، دن ،دم،دط،ص25.

[24] انظر سليقة ،غالب،تاريخ حاصبيا وما اليها،دن،دم ،ط1، 1996.وانظر الخطيب ، منيف ، شبعا ، دار منريخ، بيروت ،ط1، 1995.

[25] تم تصوير جداول احصائية عن الهجرة من بلدة الهبارية في اوائل القرن العشرين من ارشيف وزارة الداخلية .

[26] انظر الملاحق

[27] انظر الملاحق

[28] اكمير ،العرب في الارجنتين،مرجع سابق ،ص 171-172.

[29] انظر الحص،الهجرة من لبنان تاريخها واسبابها ،مرجع سابق،ص61-62.

[30] منصور ، سليم ، دور سجلات المحاكم الشرعية في كتابة التاريخ سجل محكمة حاصبيا (1925-1933)، دراسة غير منشورة ،ص10

[31] عتريسي ، طلال واخرون،الشيعة في لبنان ، دار المعارف الحكمية ، حارة حريك ،ط2012،1،ص155.

[32] انظر اكمير،العرب في الارجنتين ،مرجع سابق ،ص 24-26.

المصادر والمراجع

- أبو عيانة، فتحي محمد، دراسات في علم السكان، دار النهضة العربية، بيروت، دط ، 1985.

احصاءات الهجرة من وزارة الداخلية اللبنانية

- أرزوني، خليل ، الهجرة اللبنانية الى الكويت (1915-1990) ، مكتبة الفقيه، بيروت، ط1، 1994 .

الاسمر، راجي، الموسوعة المصورة للقرى والمناطق اللبنانية وحكاياتها، l edition du mois ط1، 1998، .

- أكمير، عبدالواحد، العرب في الارجنتين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2000
- حتي، فيليب، تاريخ لبنان، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1978 .
- الحص، سليم، الهجرة من لبنان تاريخها واسبابها، مجلة ابحاث، دار الكتاب، بيروت، ج1، 2012.
- حلاق، حسان، دراسة في تاريخ لبنان المعاصر، دار النهضة العربية ، بيروت، دط، 1985 .
- الخطيب، منيف، شبعا، دار منريخ ، بيروت، ط1، 1995 .
- خوري،حنا حردان،الاخبار الشهية عن العيال المرجعيونية والتيمية،دن ،دم،دط.
- سليقة، غالب، تاريخ حاصبيا وما اليها، دن، دم، ط1، 1996 .
- شرف ، جان واخرون، دولة لبنان الكبير (1920-1996) ، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ط2، 1999 .
- ضاهر، مسعود، تاريخ لبنان الاجتماعي، دار المطبوعات الشرقية، ط2، 1984 .
- عتريسي، طلال واخرون، الشيعة في لبنان، دار المعارف الحكمية، حارة حريك، ط1 ، 2012 .
- العقل، جهاد نصري، الهجرة الحديثة من لبنان، دار ومكتبة التراث الادبي، بيروت، ط1، 2002 .
- العقل، جهاد، فجر الهجرة ، دار ومكتبة التراث العربي،دم، دط، 2003.
- مروة، كامل، نحن في افريقية، دار المكشوف، بيروت ، 1938 .
- منصور، سليم، دور سجلات المحاكم الشرعية في كتابة التاريخ سجل محكمة حاصبيا (1925-1933) ، دراسة غير منشورة .

NOMBRE d'ordre / الرقم	NOM & PRÉNOMS de l'émigré / اسم وشهرة الشخص	Prénoms du père et nom et prénoms de la mère / اسم الأب واسم الأم وشهرتها	Date et lieu de naissance / تاريخ ومحل الولادة	Sexe / الجنس	Rite / المذهب	Profession / المهنة	Marié ou célibataire / متأهل أو عازب	Lettré ou illettré / متعلم أو أمي	INDICATIONS SUR L'ÉMIGRÉ			Contrée de l'étranger / محل الإقامة في المهجر	Date d'émigration / تاريخ المهاجرة	OBSERVATIONS / ملاحظات
١	علي بكرون	متوفي سليم / زينب احمد متوفية	١٨٨٤ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس برازيل	١٩٠٠	
٢	حسين نجيم	متوفي حسين / عائشة [illegible] متوفية	١٨٧٨ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٨٩٦	
٣	احمد نجيم	متوفي حسين / عائشة [illegible]	١٨٨٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٥	
٤	حسين [illegible]	سعود / [illegible] متوفية	١٨٨٩ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس [illegible]	١٩١١	
٥	اسعد ابو حسين	متوفي محمد / نجيبة [illegible] متوفية	١٨٨٧ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	شاطل	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩١٢	
٦	حسين [illegible]	متوفي سليم / [illegible] متوفية	١٨٨٣ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	[illegible]	امي	[illegible]	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩١٤	[illegible]
٧	محمد حسين منصور	علي / [illegible]	١٨٨٤ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٩	[illegible]
٨	علي [illegible]	متوفي احمد / [illegible] متوفية	١٨٧٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	متعلم	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٨٩٦	
٩	عبد الله [illegible]	متوفي احمد / [illegible]	١٨٨٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٠	[illegible]
١٠	احمد حمود	متوفي [illegible] / [illegible]	١٨٨٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	شاطل	امي	[illegible]	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩١٠	[illegible]
١١	محمد [illegible]	محمد / [illegible]	١٨٨٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٥	
١٢	علي الشعار	احمد / عائشة [illegible]	١٨٩٠ قبارية	ذكر	مسلم	[illegible]	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٨	
١٣	محمد ابراهيم	متوفي سليم / امينة [illegible]	١٨٨٢ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٦	
١٤	نجيب بركات	متوفي احمد / [illegible]	١٨٧٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	نيويورك	١٩٠٠	
١٥	محمد [illegible]	متوفي [illegible] / [illegible]	١٨٧٧ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٠	
١٦	[illegible]	متوفي علي / فاطمة شبلي	١٨٨١ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	[illegible]	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٧	
١٧	[illegible]	متوفي [illegible] / [illegible] متوفية	١٨٦٠ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	متعلم	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	نيويورك	١٨٩٨	
١٨	علي ابو علي	متوفي احمد / [illegible]	١٨٧٩ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٦	
١٩	احمد ابو علي	متوفي [illegible] / [illegible] متوفية	١٨٦٠ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	ارمل	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٧	
٢٠	قاسم يوسف	متوفي محمود / [illegible] عثمان	١٨٨٢ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩٠٦	
٢١	حسين ابو حسين	متوفي علي / زينب [illegible] متوفية	١٨٧١ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	ارمل	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	بوينس ايرس	١٩١٠	
٢٢	محمود منصور	متوفي علي / امنة الله متوفية	١٨٨٦ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٢	[illegible]
٢٣	حسين الجوع	عبد الله / [illegible] متوفية	١٨٨٧ قبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد	[illegible]	١٩٠٩	

Numéro d'ordre الرقم التسلسلي	NOM et PRENOMS du recensé اسم وشهرة المعني	Prénoms du père et nom et prénoms de la mère اسم الأب واسم الأم وشهرتها	Date et lieu de naissance تاريخ ومحل الولادة	الجنس	المذهب	الصنعة	متأهل أو عازب	متعلم أو أمي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	محل وجوده الآن في المهجر	تاريخ المهاجرة	ملاحظات
٢٤	علي الخطيب	متوفى شاكر – متوفية فتاحة حبيب	١٨٨٩ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا معلومية الرعاية	لا ملك ح	لا يوجد	سانتوس	١٩٠٩	
٢٥	جوزيف باز	متوفى محمد – متوفية وردة درويش	١٨٨٦ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩٠٩	
٢٦	حسين ابو حمدي	متوفى علي – سليمة نجم	١٨٧٨ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩١١	
٢٧	سليم الاخرس	متوفى محمد – ناعسة فرحات	١٨٧١ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩١١	
٢٨	محمد الشعار	متوفى علي – متوفية امينة يوسف	١٨٨٢ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩٠١	
٢٩	سعيد ابو حسن	متوفى احمد – فضة عباس	١٨٨٨ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	البرازيل	١٩٠٩	
٣٠	احمد ابراهيم	محمد – متوفية مريم درويش	١٨٧٦ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩٠٠	
٣١	محمد ساسين	متوفى ذيب – متوفية سلما محمد	١٨٨١ هبارية	ذكر	مسلم	فلاح	متأهل	متعلم	لا معلومية تحت الرعاية	لا طلب تحت الرعاية	لا يوجد	البرازيل	١٩١٢	
٣٢	عبد الله ابو علي	متوفى عبد الجليل – متوفية فاطمة [illegible]	١٨٧٧ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يطلب	كنسيك	١٩٠٢	
٣٣	محمد شباب	متوفى محمد – متوفية سلما ابراهيم	١٨٩٢ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩١٢	
٣٤	حسن ابو علي	متوفى سليمان – متوفية [illegible]	١٨٥٩ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	ارمل	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس برازيل	١٨٩٩	
٣٥	عبد الحميد ابو علي	متوفى شاكر – متوفية زينب قبيسي	١٨٩١ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	ريوغرندي	١٩٠٩	
٣٦	عثمان شقير	متوفى خليل – زينب قبيسي	١٨٨٩ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩٠٨	
٣٧	محمد زاهد	متوفى غانم – متوفية سليمة [illegible]	١٨٨٩ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	بوينس	١٩٠٩	
٣٨	محمد دبجات	خزاعي – رضا شقير	١٨٧٦ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	سانتوس	١٩١٢	
٣٩	محمد عيسى	متوفى حسن – متوفية سعدى ابو علي	١٨٨١ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	ريوغرندي	١٩٠٦	
٤٠	حسين باجوق	متوفى علي – متوفية امنة خشفة	١٨٧١ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	متعلم	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	ريوغرندي	١٨٩٦	
٤١	باجوق	متوفى علي – متوفية امنة خشفة	١٨٧٤ هبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	سبق طلب	لا يوجد	ريوغرندي	١٩٠٠	
		متوفى	١٨٨١											

Numéro d'ordre رقم التسلسل	NOM et PRENOMS du recensé اسم وشهرة المحصى	Prénoms du père et nom et prénoms de la mère اسم الأب واسم الأم وشهرتها		Date et lieu de naissance تاريخ ومحل الولادة	Sexe الجنس	Culte المذهب	Profession المهنة	Marié ou célibataire متأهل أو عازب	Sachant lire متعلم أو أمي	Fidélité de l'émigré			Domicile actuel à l'étranger محل الإقامة الحالي في المهجر	Date d'émigration تاريخ الهجرة	OBSERVATIONS ملاحظات
٤٧	محمد مرعي	سعدية حمد احمد	حسن	١٨٩٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	[illegible]
٤٨	محمد شقيب	وضحى حمدة	[illegible]	١٨٩٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	١٨٩
٤٩	سعيد عبد الله	زينة صالح متزوجة	محمد متزوج	١٨٩٠ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	١٥٥
٥٠	محمود حمدان	لطيفة شقيب متزوجة	محمد متزوج	١٨٩٩ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	١٥٧
٥١	خليل شبلي	صبحة ابو علي متزوجة	علي متزوج	١٨٩٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	١٧٠
٥٢	حسن عثمان	امنة بركات	عبد الله متزوج	١٨٩١ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	١٧٨
٥٣	محمد عيسى	[illegible] متزوجة	سليم	١٨٩٠ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	كوبا	١٩٢٢	١٨١
٥٤	محمد ابو علوان	زينب محمود	عبد الغني متزوج	١٨٨٨ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	كوبا	١٩٢٢	٢٠٠
٥٥	محمد معروف	نجيبة عقاد	محمود	١٨٩٢ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٠١

Numéro d'ordre	NOM et PRENOMS	Mère	Père	Date et lieu de naissance	Sexe	Culte	Profession	Marié ou célibataire	Sachant lire	Fidélité de l'émigré			Domicile actuel à l'étranger	Date d'émigration	Observations
٥٥	محمد معروف	نجيبة عقاد	محمود متزوج	١٨٩٢ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٠١
٥٦	محمد ابو حسين	مريم [illegible] متزوجة	حسين	١٨٩٠ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢١١
٥٧	محمد الخطيب	[illegible] متزوجة	احمد متزوج	١٨٩١ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢١٢
٥٨	حسن ابو سلمى	[illegible] متزوجة	علي متزوج	١٨٩٢ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	٢٢٢
٥٩	احمد شقيب	[illegible] شقيب متزوجة	قاسم متزوج	١٨٩١ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٠٢
٦٠	احمد شقيب	[illegible] متزوجة	سليم متزوج	١٨٧٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٠٧
٦١	محمد عيسى	[illegible]	[illegible] متزوج	١٨٨٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	[illegible]	١٩٢٢	٢٠٢
٦٢	كامل ابراهيم	[illegible] متزوجة	سليم متزوج	١٨٩٤ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	البرازيل	١٩٢٢	٢١٢
٦٣	كامل ابو عيسى	[illegible]	حسين متزوج	١٨٩١ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	[illegible]	١٩٢٢	٢١٤
٦٤	قاسم شبلي	[illegible]	محمد	١٨٩٥ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	٢١٠
٦٥	محمد ابراهيم	مريم [illegible]	[illegible]	١٨٩١ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	كوبا	١٩٢٢	٢٢٢
٦٦	[illegible] عيسى	مريم ابو [illegible]	احمد	١٩٠٩ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٢
٦٧	[illegible] عيسى	مريم ابو [illegible]	احمد	١٩١١ حبارية	اناث	مسلمة		متأهلة		لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٤١
٦٨	علي ابو سلمى	زينب [illegible]	حسن	١٨٩٢ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	مكسيك	١٩٢٢	٢٤٢
٦٩	علي شقيب	زينب شقيب	حسن	١٩٠٦ حبارية	ذكر	مسلم	تاجر	عازب	متعلم	لا يدفع	يبقى ملك	لا يبدل	بوينس ايرس	١٩٢٢	٢٤٠

Numéro d'ordre الرقم المتسلسل	NOM et PRÉNOMS du recensé اسم وشهرة المحصي	Prénoms du père et nom et prénoms de la mère اسم الأب واسم الأم وشهرتها		Date et Lieu de naissance تاريخ ومحل الولادة	الجنس	الدين	المذهب	المهنة	متأهل أو عازب	يعرف القراءة				محل الإقامة والمهجر	تاريخ الهجرة	ملاحظات
٧٠	محمد عمار	علي متوفي	سعدى علوية	١٨٩١ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	[illegible]	١٩٢٢	٤٠١ [illegible]
٧١	عبد المطلب عمار	علي متوفي	سعدى علوية	١٨٩١ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	البرازيل	١٩٢٢	٤٠٢
٧٢	فياض بركات	محمد	فاطمة ابراهيم	١٨٩٨ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يملك	لا يريد	[illegible]	١٩٢٢	٤٦٠
٧٣	محمد عقل	سعيد	عائشة حمود	١٨٨٦ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	كوبا	١٩٢٢	٤٧٣
٧٤	محمد ابو عسلي	حسن	لطيفة غانم	١٨٨٠ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يملك	لا يريد	[illegible]	١٩٢٢	٤٧٥
٧٥	عقل عقل	اسعد	منيفة بركات	١٨٨٤ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	متعلم	لا يدفع	يملك	لا يريد	كندا	١٩٢٢	٤٨٨
٧٦	علي ابو قيس	حسين	علا الكلب متوفية	١٨٨٩ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	كوبا	١٩٢٢	٤٩٨
٧٧	محمد عساف	متوفي [illegible]	[illegible] متوفية	١٨٨٧ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	برازيل	١٩٢٢	[illegible]
٧٨	محمد ابو قيس	سليم	[illegible]	١٩١٢ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	برازيل	١٩٢٢	[illegible]
٧٩	[illegible]	متوفي [illegible]	[illegible] متوفية	١٨٩٧ حصباية	[illegible]	مسلم			[illegible]					[illegible]	١٩٢٢	[illegible]
٨٠	[illegible]	[illegible]	[illegible] متوفية	[illegible] حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	[illegible]	١٩٢٢	[illegible]
٨١	سليم ابو قيس	احمد	[illegible]	١٩١٠ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	متأهل	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	برازيل	١٩٢٢	[illegible]
٨٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	١٨٨٠ حصباية	ذكر	مسلم	مسلم	تاجر	عازب	امي	لا يدفع	يملك	لا يريد	[illegible]	١٩٢٢	[illegible]

[illegible]

مختار [illegible] مختار [illegible] عضو عضو عضو عضو

[illegible]

مختار [illegible] مختار [illegible] عضو عضو عضو

[illegible]

الرئيس [illegible] الأعضاء [illegible] حاكم [illegible] الأعضاء [illegible]

الاغتراب في شعر الصّعاليك...
بين خرق نمطيّة الحياة وتوليد شعريّة النصّ...
(لاميّة الشنفرى أنموذجًا).

د. علي نسر
قسم اللغة العربية وآدابها
الجامعة اللبنانية

مقدّمة:

شكّل المكان، إقامةً وهجرةً، طللًا دارسًا ومشيّدًا، المدماكَ الرئيس للقصيدة العربيّة الجاهليّة، واستمرّ في العصور الّتي تلت، وصولًا إلى اليوم، حتّى أصبح رمزًا ذا إشارة إلى الهجرة والحنين والاغتراب في معناه المادّي المكانيّ. هذه القضيّة، فتحت شهيّة الباحثين والدّارسين، حتى غصّت صفحاتهم بما يتناول موضوع الأطلال والتنقّل بين الأمكنة في الشّعر الجاهليّ، وما لهذا التنقّل من أثر أسهم في بناء القصيدة. لكنّ ما ظلّ قاصرًا وأقلّ اهتمامًا لدى النقّاد، هو الاغتراب الفكريّ والروحيّ والاجتماعي في القصيدة الجاهليّة، وإن كان صاحبها مقيمًا في المكان وبين أحضان قبيلته. ولأنّ طبيعة القبيلة والارتباط بالمكان، ماديًّا، شكّلا سمة مشتركة بين معظم الشّعراء، أصبح تناول هذه القضيّة شبه مألوف، ما أسهم في انعدام الجانب المتعلّق بالشعريّة، لأنّ الشعريّة أكثر ما يحقّقها في النصّ، شكلًا ومضمونًا، الخرق الّذي يتفرّد به الشاعر فيمنح نصّه هويّة أدبيّة. وكثيرة هي النّماذج الّتي تشير إلى ذلك، إذ لم يخلّد الشعراءَ شعرُهم المشترك بين الجميع، كالحديث عن الأطلال، أو طلب الملك والتغنّي بالنسب وما شابه ذلك، بل الأكثر خلودًا هو ما انضوى ضمن القصائد الّتي ولّدت محاورات مع الوجود والحياة ذات الوعي الفعليّ القائم، وأطلقت أسئلة تناولت قضايا وجوديّة ومصيرية أحرجت الحياة وصعّبت عليها الإجابات الواضحة، ولوّحت بطموح نحو وعي ممكن مأمول. وهذا ما ظهر لدى جهابذة الشّعر الجاهلي في النقلات النوعيّة الملموسة في قصائدهم كـ(امرئ القيس) و(طرفة) و(عنترة) وغيرهم. لكنّ أكثر ما تجسّد هذا الخرق عبر التمرّد على الواقع القبليّ وما وصلت إليه الثقافة العربيّة وحضارتها، في ما يعرف بحياة الصعلكة، وقصائد الصعاليك، إذ أنتجت حيواتُهم طرقًا جديدة في التفكير والتصرّفات انعكست واضحةً في قصائدهم. وهذا ما عبّرت عنه، خيرَ تعبيرٍ، لاميّةُ (الشنفرى) التي أعلنت بشكلٍ لا يحتمل الرّيب، عن سعي صاحبها إلى ما يولّد له توازنًا نفسيًّا جرّاء شعوره بالغربة عن الواقع وضرورة لجوئه إلى عالم الوحوش الأكثر أمنًا وملاذًا وتحقيقًا للذات.

القصيدة الجاهليّة: بين التنميط والخرق:

شكّلت القصيدة الجاهليّة ثوبًا مألوفًا لدى الشعراء، حتّى استحالت القصيدة شكلًا شبه متّفق عليه، تنضوي تحته معانٍ ومضامينُ وموضوعاتٌ شعريّة تناقلها الشعراء دون تعديلات جوهريّة، ما ذوّب الذات الشاعرة وصهرها في مرجل الجماعة ليصبح التّعبير نطقًا بلسان الفرد عن المجموع. وعلى الرّغم من نمطيّة القصيدة وتشابه موضوعاتها وهيكليتها البنائية، إلا أنّها تعدّ آخر ما قدّمته الثقافة العربيّة آنذاك، إذ لا يمكن ان نعدّها تقليدية، كما يحلو لبعض الباحثين، لأنّها جاءت نتيجة حركة حياتية، وأسهمت في بلورتها عوامل فكريّة واجتماعيّة واقتصادية... إنّما القصيدة التقليدية هي الّتي سارت على طريقتها بعد انتهاء العصر الجاهلي، وأبقت على النمط نفسه، شكلًا وطرقَ تعبيرٍ، ما جعل الهوّة بين شكل النصّ ومضمونه تتّسع، في حين كانت المسافة بينهما متقلّصة في القصيدة الجاهليّة.

ولأنّ كسر نمطيّة الحياة في العصر الجاهلي، كان أقرب إلى حفر الصخر بإبرة، فمن الطبيعي أن تتعثّر حركة التغيير في شكل القصيدة وما تحويه من طرح وفكر، بل كانت القصيدة انعكاسًا لحالة القبول بالأمر الواقع ووصفه دون العمل على تغييره لدى عامّة الشعراء، فـ"لا يقصد الشاعر الجاهلي أن يغيّر حياته، بل يريد على العكس، أن يؤكّدها"[1]. ويختصر هذا الموقف في ما يقوله "تميم بن مقبل":

"ما أطيبَ العيشَ لو أنّ الفتى حجرٌ   تنبو الحوادث عنه وهو ملمومُ"

هذه النظرة الّتي شكّلت سمة من سمات الحياة آنذاك، جعلت القصيدة تجترّ نفسها ولا يتغيّر سوى اسم الشاعر، حتى أصبح الحكم على فنيّتها متوقّفًا على لفظة هنا أو معنى وصورة هناك، ليصبح ما يعرف ببيت القصيد معيارًا نقديًّا ذا صفة انطباعية، وذلك يعود إلى التقاطع في موضوعات النصوص من أطلال والتغنّي بالنسب والقبيلة والسيف والحصان والكرم والضيافة وهجر الحبيبة وما شابه ذلك. حتّى إذا ما ظهر خرق لهذه المعاني المتداولة، كان لافتًا، بل يعدّ انزياحًا يفرض فنيّة وشعريّة، لأنّه يجعل من صاحبه متفرّدًا لا يشبه غيره، وإن كان هذا الخرق سيولّد تهمًا وشبهات بالنسبة إلى معيارية النقد والقوانين الصارمة الّتي تحكّمت بالقصيدة على مرّ قرون. هذه الشعريّة، شكلًا ومضمونًا، أكثر ما يولّدها استفزاز الشّاعر للحياة، ومحاورتها عبر طرح أسئلة تعجيزية، تتطلّب إجابات ملغّزة، لأنّ الشاعر لم يتوقّف دوره على ترداد ثقافة عصره، بل يعمل على خلخلة هذه الثقافة. فـ"فرادة الشاعر، رأسماله الكبير الذي لا يعوّض، لا تقوم على امتلاك ثقافة العصر التي يستطيع الكثيرون امتلاكها، ولكنّها تقوم على محاصرة ثقافة العصر، من خلال محاصرة اقوى قلاعها، ومحاورة أبهى تجلياتها باسئلة تحرجها ولا تستطيع الإجابة عنها. هذا الاختراق للثقافة القائمة هو الفرادة التي ترى من العالم ما لا يراه الآخرون، فتشكّل خصوصية الشاعر الكشفية التي تشكّل سمته الفريدة ويعرف بها"[2].

وهذا ما تحقّق لدى بعض الشعراء الّذين لم يخلّدهم شعرهم الّذي يتناول التغنّي بالنسب والطموح نحو الملك وتقديم بانوراما عن الحروب... بل ما خلّدهم الشعر الّذي يؤكّد وجودهم أمام مرايا حقائقهم. ومن أبرز هؤلاء الشعراء، امرؤ القيس الّذي فرض شعريته على معاصريه، وعلى النقاد والمهتمّين الآتين بعده. فلم يقدّم شيئًا فريدًا في معلّقته وفي تغنّيه بنسبه حيث يقول:

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني، ولم أطلب، قليلٌ من المالِ

ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدرك المجدَ المؤثّل أمثالي

لكنّ أكثر ما يؤكّد شعرية نصّه، حين وقف أمام قبر عجوز، محاورًا الوجود عند شعوره بدنوّ أجله، جاعلًا قبرها، دون معرفتها، بوّابة للنسب الحقيقي، فيقول:

أجارتنا إنّ المزار قريب وإنّي مقيمٌ ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنّا غريبان ها هنا وكلّ غريبٍ للغريب نسيبُ

وهذا ما جعل معظم النقّاد بعد امرئ القيس، يرون فيه الأكثر تميّزًا، ويختزل هذا الموقف ما هو منسوب إلى الرسول (ص)، من قول: "امرؤ القيس سيّد الشعراء وقائدهم إلى النار". وأكثر ما تتّضح فرادته الشعرية عبر اختلافه عن غيره، في ما يقوله الإمام علي (ع): "لو أنّ الشعراء المتقدّمين ضمّهم زمان واحد، ونصبت لهم راية فجروا معًا، علمنا من السابق منهم، وإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة. فقيل: ومن هو؟ فقال: الكنديّ، قيل: ولم؟ قال: لأنّي رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة". وبهذا نجد "بأنّ الخليفة عليًّا، قد برّر حكمه على امرئ القيس فذكر أسباب شاعريته وهي تتمثّل في أنّه أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة، أي: أنّه أحسنهم إمساكًا بجواهر الكلام والمعاني، وأسبقهم فطنة وإبداعًا في التّصوير"[3].

ولم يقتصر الخرق ومحاولة التغيير على امرئ القيس، بل سار على دربه ثلّة من الشعراء الّذين أكّدت قصائدهم انزياحهم عن المألوف في طرق التعبير والمضامين الشعرية، كطرفة وزهير بن أبي سلمى وغيرهما... لكنّ الأكثر تمثيلًا للخرق الحياتي، فانعكس شعرًا شكلًا ومعنى، كان الشعراء الصعاليك الّذين اتّخذوا التّمرّد على نظام القبيلة ونمط العيش نهجًا حياتيًّا، وطريق تعبير من الناحية الشعريّة، وأكثر ما تجلّت حركة الصعلكة في إظهار الشعراء شعورهم بأنّهم غرباء في محيطهم، يسعون إلى تجاوز الواقع والوعي القائم، نحو واقع من نسج تصوّرهم، ووعي ممكن يؤكّد اغترابهم الروحيّ والاجتماعي ورفضهم لما هو فعليّ. فكيف تجلّت هذه الظاهرة في شعر الصعاليك انطلاقًا من لاميّة الشنفرى المعروفة بلاميّة العرب؟

– لا ميّة العرب للشنفرى

ممّا يلامس السبعين بيتًا، تتألّف قصيدة الشاعر الجاهلي (الشنفرى)، وهو من أبرز الشعراء الصّعاليك. وإذا ما تأملنا القصيدة، نراها امتدادًا لما سبقها من قصائد جاهلية، ولما سيليها من حيث الموضوعات والشكل،

حتّى صار الشعراء يشكون نضوب الموضوعات ونفادها على أيادي السابقين، وهذا ما أكّده عنترة وزهير وغيرهما في مناسبات ما. وفي إطار ما يعرف بنظرية التلقي من رسم آفاق انتظار، حين يقف القارئ أمام أيّ نصّ، فإنّ معظم أبيات القصيدة لم تخيّب تلك الآفاق، إذ يعثر المتلقّي بين كلماتها على الكثير ممّا توقّع العثور عليه وتجهّز لكشفه ورؤيته. كلّ هذا يجعلنا أمام نمط شعريّ ليس فيه خرق وانزياح عن المألوف. لكنّ ما يقارب السبعة أبيات، كان كفيلًا للفت النّظر وتخييب أفق الانتظار، لما تحمله هذه الأبيات من دلالات تحيلنا مباشرة إلى مدلولات حياتيّة، إذ عكست صورة الشاعر الفرديّة، وما فيها من تمرّد وخروج على إطار القبيلة المسيّر حركة الباقين بطريقة شبه آلية لا تغيير فيها ولا ابتكار. لقد حوت أبيات القصيدة عمومًا، على ما اتّسمت به حياة الجاهليين، وما تدفّق من دلاء تلك الحياة في قوالب شعريّة شكّلت مرآة لحركة الناس وقتذاك، كالافتخار بالذات، والذود عن القبيلة، والإغارة على القبائل الأخرى... وهذا ما حدّ من مقوّمات الشعرية فنيًّا، لأنّ الشعرية تأتي نتيجة ما يعرف بخرق المألوف فنيًّا، شريطة أن يكون هناك ما يشبه ذاك الخرق حياتيًّا، وهذا ما أشرنا إليه، سابقًا، في الحديث عن بعض الشعراء المتفرّدين في ذاك العصر، وعلى رأسهم امرؤ القيس الّذي "كان يسلك ويفكّر خارج نظام القبيلة وقيمها السائدة. ففي شعره وسلوكه ما يخرق هذه القيم"[4].

لأجل هذا، سوف تتوقّف هذه الدراسة عند ما هو لافت وغير مألوف في النصوص الجاهليّة، لنكتشف من خلاله حركة فرديّة شكّلت حجرًا رمي في بركة الحياة الواقفة، مشكّلًا دوائر لم تخمد أو تهدأ. وإذا بالشاعر، يتمرّد على قوانين يجترّ بعضها بعضها الآخر، خائبًا ظنّه في ما وصلت إليه الثقافة العربية أو حضارتها، وكأنّ هذا الانفصال دعوة ثوريّة سيكون لها صدى متردّد في العديد من طروح أترابه حياتيًّا وشعريًّا. فيقول في الأبيات السبعة الّتي ستتمحور حولها هذه الدراسة مضمونًا وأسلوبًا:

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم فإنّي إلى قومٍ سواكم لأميلُ
فقد حمّت الحاجات والليلُ مقمرٌ وشدّت لطيّاتٍ مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزّلُ
لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ
ولي دونكم أهلون: سيدٌ عملّسٌ وأرقط زهلولٌ وعرفاء جيألُ
هم الأهل، لا مستودع السرّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جرّ يخذلُ
وكلّ أبيّ باسلٌ غير أنّني إذا عَرضتْ أولى الطرائد أبسلُ

إنّها أبيات تشوّش مخيّلة المتلقّي للوهلة الأولى، لأنّها أبيات ذات طرح جديد سيجعل صاحبها متفرّدًا بها. فيكفي أن نعرف جاهليّة النصّ، ليتبادر إلى الذهن شملة موضوعات وعلى رأسها موضوع المكان والهجرة منه وإليه، إذ شكّل المكان لازمة لاستهلال جميع القصائد الجاهلية في ما يعرف بالوقوف على الأطلال، لا بل أكثر من ذلك، فإنّ الوقوف على الطلل استمرّ لدى العديد من شعراء ما بعد ذاك العصر لما يشكّله من ثيمة أساسيّة وإشكاليّة في الوقت عينه.

لذا، فإنّ ما تطرحه هذه الأبيات السبعة، اغترابٌ وهجرة تخلّصا من الإسار المكاني ليكونا ذوا دلالات مختلفة، إذ نجدنا أمام اغتراب فكريّ واجتماعيّ وروحيّ ضمن المكان الواحد، راسمًا الشاعر من خلاله تصوّرًا للخلاص تمثّل في اللجوء إلى عالم آخر، وهو عالم الوحوش بعد أن حدّت القبيلة بأفكارها المستقعية من طموح الكثيرين. فكيف تجلّى هذا النوع من الاغتراب؟ وما هي الأسباب المؤدّية إليه؟ وما النتائج المترتّبة عليه؟

الاغتراب وتحقيق الذات:

يرتبط الاغتراب، عادة، بالهجرة المكانية، إذ يصبح صاحبه غريبًا في مكان آخر، سعيًا وراء تحقيق طموحات لم يوفّره المكان المهاجر منه، ما يولّد حنينًا وارتباطًا بالوطن، فيخرج المرء جسديًّا ويبقى معلّقًا بوطنه روحيًّا وفكريًّا. والهجرة المكانية قديمة، ربّما لم تكن تحت مظلّة الهجرة بالمعنى الوطني لعدم توافر مصطلح الوطن وإن كان هناك ما يشبه الشعور بالهجرة وطنيًّا في الشعر القديم، وهو قريب من الشعور الذي ترجمه شعراء المهجر شعرًا ناطقًا بالحنين وحبّ العودة وعدم رغبتهم في ترك البلاد طواعيّة. وقد صوّر الشاعر العباسي أبو فراس الحمداني، هذا التعلّق بالوطن قبل الوصول إلى ما اصطلح عليه باسم الوطن أو قبل بلورة تعريف نهائيّ له، فيقول عند مغادرة حلب:

أسير عنها وقلبي في المقام بها كأنّ مهري لثقل السّير محتبسُ
مثل الحصاة الّتي يرمى بها أبدًا إلى السّماء فترقى ثمّ تنعكسُ

لكن ما لم تعطه الدراسات حيّزًا واسعًا يستحقّ الغوص فيه، هو الاغتراب النفسيّ والفكريّ داخل المكان، ومحاولة دحض السائد من ثقافة تنمّط عليها الكثيرون وأصبح الخروج منها جنحة ومخالفة للأعراف. إنّه الاغتراب الاجتماعي والثقافي الّذي "يقوم فيه المغترب بالخروج الكليّ عن نواميس السائد الاجتماعي بل يقوم بمناهضة هذه القوانين دون الاكتفاء بمغادرتها، ويقوم بمحاولة إسقاطها، ويخضع ذلك لرؤيتين، إحداهما سلبية والأخرى ثورية إيجابية هدفها تغيير القانون الاجتماعي وفق مفهوم الأكثر صلاحية وقدرة على التطوير " [5]. اغتراب تصوّره أبيات الشنفرى السبعة الّتي تسهم في توليد شعرية النص فنيًّا، وهي امتداد لخرق سلوكي سبق التعبير الفنّي بوقت ليس بالقليل ومهّد له، لأنّ استجابة الشعر للتغيّرات الحياتية، فرديّة أو جمعيّة، لا تشبه الاستجابات الأخرى، إذ لا يمكن أن تكون آلية فورية وميكانيكية، بل تخضع للعلاقة المنطقية الجدلية الّتي تقوم بين ما تضغطه البنية التحتيّة وما تستجيب له البنية الفوقيّة فينعكس ذلك فنًّا وفكرًا وانتماء... فـ"إنّ تغيّرًا كهذا يتطلّب وقتًا طويلًا تختمر فيه بذور التجديد والتغيير، وتختمر في الأذهان والنفوس لتورق في ما بعد، وتعطي ثمارها المرجوّة" [6].

هذا النّوع من الشعور بالاغتراب، يدفع بصاحبه نحو التمرّد. التمرّد الّذي يحفّز صاحبه على إثبات الوجود، والبحث عن الذات المتلاشية والضائعة ضمن ما هو مرسوم لها في المحيط القائم فيه كوعي فعليّ اتّخذ شكلاً نهائيًّا، وأيّ خلخلة لثوابت هذا الشكل يؤدّي إلى تصويب أصابع الاتّهام نحو مقترف هذه الجريمة حسب عرف العامّة. لكنّ الشعور بمثل هذا الاغتراب، يزيد من حدّة البحث عن الذات، إذ "لم يكن العرك الدائم والانتقال والهجرة إلا أشكالًا من رفض العالم الخارجي. وهو رفض يبقيه أو يصيّره مجرّد وسيلة لإشباع الذات وتوكيدها" [7]. كل ذلك يأتي، من خلال رغبة انتزاع حق الاعتراف بالذات عبر صراع مع ذوات أخرى، وإن كان ثمن ذلك الموت أحيانًا، الموت المؤدّي إلى الحرية والإنسانيّة، حيث "إنّ القبول الإرادي بخطر الموت في معركة من أجل الاعتبار المحض هو ما يجعل الإنسان إنسانيًّا، وما يشكّل ركيزة الحريّة الإنسانية" [8]. فالانهزام في اثناء المحاولة يعدّ نصرًا وحريّة، (نحاول ملكًا أو نموت فنعذر)، فـ" الفارس المغلوب حرّ حتّى في اختيار طريقة موته" [9].

ومن يعد إلى الأبيات السبعة، فسوف يجد أنّ الشاعر يعاني من نقص، وكأنّه سئم من التلقين الّذي يزيده كسلًا، ولا يمكن أن يتمّ النّقص إلّا عبر مشاهدة المشهد من خارج دائرة الحياة المجترّ بعضها بعضه الآخر، فـ" حين يتّضح للإنسان انفصاله عن الأشياء حوله، يتّضح له نقصه، وبالتالي تعطّشه لكمال لا يتحقّق إلّا في الخارج" [10]. وهذا ما يؤكّده التّاريخ وعلم الاجتماع، حيث القبول بما هو محدّد مسبقًا، وهذا ما اتّسمت به القصيدة الجاهليّة حتى صارت متشابهة، لأنّ الجاهليّ، حياة وشعرًا، لم يكن يطمح إلى التغيير بقدر ما كان يحمل عدسة توثيقه للواقع دون العمل على خلخلته، متمنّيًا أن يكون حجرًا ملمومًا على نفسه دون إعطاء الواقعيّات التي تفرض نفسها أيّ اهتمام. فـ" الشعر الجاهلي شعر شهادة: لم تكن غاية الشاعر العربيّ أن يغيّر العالم أو يخلق عالمًا آخر. كانت غايته أن يتحدّث مع الواقع، ويصفه ويشهد له. يحبّ الأشياء حوله لذاتها ولما تمثّله، ويضع كلّ شيء حيث يفرح به ويفيد منه. لا يحاول أن يرى في الواقع أكثر مما فيه، وإنّما يحاول أن يراه بكلّ ما فيه" [11]. لكنّ العظماء المولّدين خرقًا في جدار الحياة، هم من اتّخذوا الخروج وسيلة لتحقيق أهداف قد تكون غريبة عن الباقين، أو قد تسنّى لهم حظ الخروج ليكشفوا الحقائق عن بعد، وهذا ما فعله الأنبياء أيضًا، ومنهم الرسول محمد (ص)، إذ شعر بغربة داخل أهله وعشيرته، وأسعفه يتمه ليكون في الصحراء رضيعًا خارج أسوار مكّة، وعمله تاجرًا وفّر له رؤية جديدة، وكذلك مهنة الرعي الّتي أسهمت في رؤية الواقع بعين أكثر اتّساعًا، إذ إنّ لمهنة الرعي دورًا بارزًا في كشف خفايا الوجود، إذ أسهمت هذه المهنة في جعل النبيّ خارج إطار القبيلة والجماعة، وصار باستطاعته النظر إليها من الخارج بعيدًا من المؤثّرات الاعتيادية، كما وفّرت للرسول فرصة للاختلاء بالذات والتفكّر في وجود الخالق دون ضوضاء الأهل ومن يساعد في تنميط الفكر وتحجيمه. فـ"مهنة الرعي تلهم صاحبها دروسًا وعبرًا في الوحدة والعزلة مع الذات والغنى عمّا في أيدي الناس" [12].

إنّ الاغتراب الفكريّ والاجتماعي، يجعل (الشنفرى) متدجّجًا بسلاح الاختلاف، سلاح يحفر كوّة في السياجات المحيطة، قانعًا بعزلته الاجتماعية، خاصّة بعد شعوره بأنّ تحقيق ذاته يتوقّف على هذه العزلة عن الأهل أوّلًا، ووضعهم في أجواء ما يخطّط له محذّرًا إيّاهم بأنّهم سيخسرونه ويخسرون أنفسهم إن لم يبادروا إلى إيجاد حلول من أجل الخلاص والتحرّر من مختلف القيود المصنوعة بحجّة أنّها غاية ما توصّلوا إليه. (أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم). إنّها الأنا الواقفة أمام أناها الأعلى، فاتحة أبوابها أمام متطلّبات الهو حسب وجهة نظر الجماعة، في حين أنّ إغراءات الهو المحرّضة على تحقيق الذات، أخذت دور الأنا الأعلى، إذ لا اتّزان للنفس إلا عبر تلبية النداء الداخلي للثورة على القائم ورسم وعي ممكن علّ الأهل ينتبهون. وقد تنبّه علم النفس إلى هذا النوع من الاغتراب الناتج عن الصراع بين مكوّنات الجهاز النّفسي لدى صاحب هذا الشعور، إذ " حسب فرويد: الاغتراب فشل الأنا في أداء وظيفته المتمثّلة في العمل على التوفيق بين مطالب الهو والأنا الأعلى، بالإضافة إلى مطالب العالم الخارجي، وتكمن ضريبة هذا الفشل في الشعور بأنّ أجزاء في بدننا، قد تبدو في بعض الأحوال وكأنّها غريبة وأجنبية ولا تؤلّف جزءًا من الأنا" [13].

نعم، إنّ الشعور بالفشل ضرب من ضروب الشعور بالاغتراب، لكنّ في أبيات الشاعر، ما يشير إلى تجاوز هذا الفشل والتعويض عنه عبر اللجوء إلى قوم أكثر جدارة بالحياة (فإنّي إلى قوم سواكم لأميلُ). وبهذا، يصبح الشاعر مقيمًا داخل عزلة اجتماعيّة، والعزلة الاجتماعية هي "انسحاب الفرد وانفصاله عن تيار الثقافة السائدة في مجتمعه، والشعور بالوحدة والفراغ النفسي حتى ولو كان مع الآخرين، مع سعيه للابتعاد عن الآخرين" [14]. هذا التعويض هو ما يقنع الشاعر بأهميّة ما يفعل، مسوّغًا تحرّكه المتمرّد هذا بضرورة سعي الذات إلى تحقيق ما يقتنع به الجمهور ذو الثقافة السائدة، بأنّه محال وعصيّ وضرب من ضروب الجنون أو الخروج على القيم الأقرب إلى الآيات النهائية. وبهذا نجد لدى الشنفرى "ذاتًا دائبة البحث عن حضورها الباهر في المجتمع. فهي لذلك تصمّ كلتا أذنيها عن لوم العذّال في استخفاف واستعلاء صريحين، وهي تركب المخاطر ولا تحسب للعواقب حسابًا ولو كان الموت يتربّص بها في كلّ أرض ومنعطف" [15].
وهكذا، فإنّ ما يدعو إليه الشاعر، يؤكّد أنّه سبق من اتّصف به في العصور اللاحقة، خاصّة العصر العبّاسي الّذي شهد ثورات على مختلف الصعد، إذ يرى أدونيس، أنّ "ظاهرة الشعور بالغربة والانفصال عن الآخرين- (صدأ العيش) كما يعبّر أبو تمّام، نسغ أساسي يجري في تجربة أبي نواس وابن الرومي وأبي تمّام والمتنبي وأبي العلاء، ومعظم الشعراء في المرحلة العباسية" [16]. لكنّ هذا المتجلّي، عباسيًّا، كانت الظروف قد نضجت لجعله موجودًا بالفعل بعد أن كان موجودًا بالقوّة، في حين أنّ صرخة الشنفرى، جاهليًّا، كانت البذرة شبه الثوريّة الّتي رواها اللاحقون حين شعروا بغربتهم في قومهم، فكانت صرخة أحد شعراء الصعاليك إرهاصًا لصرخة المتنبي حين قال: "أنا في أمّة تداركها الله غريبٌ كصالح في ثمودِ".
كما أنّ توجّهه إلى قومه لإسقاط الحجّة عليهم، ودرء اللوم عبر تعداده أسباب قراره حيث الحصول على

ما تفتقر إليه القبيلة، يشكّل طريقًا ممهّدًا لصيحة المتنبّي حين نبّه قومه بأنّ رحيله عنهم سيلحق الضرر بهم وسيكونون هم الراحلين، إذ يقول:

"إذا ترحّلت عن قومٍ وقد قدروا   ألّا تفارقهم فالراحلون همُ"

هذا الشعور بالاغتراب، يفضي إلى الشعور باللاانتماء، والبحث عن عالم بديل، كما هو واضح في البيت الأوّل من الأبيات السبعة. لكنّ الهدف ليس اختيار الشاعر قومًا آخرين واستبدال أناس غرباء بعشيرته الأقربين، فالمسألة ليست بهذه السطحية، إذ "ليست القضيّة قضية تحوّل شاعر من قوم إلى قوم آخرين، ولكنّها قضية أخرى أبعد غورًا وأشدّ مأسوية، إنها قضية الانتماء"[17]. فإنّنا أمام انتماء اسمه اللاانتماء، حيث يحاور الشاعر قومه من خلال عدم انتمائه إليهم، ولكنه في الواقع، يحاورهم من انتمائه إلى اللاانتماء، أي الانطلاق من حريّة فرديّة تحرّر صاحبها (الفارس) من الواجب المترتّب عليه دون أن يكون له يد في الاختيار .فـ "فروسيّة اللاانتماء، أو رفض رابطة الدّم، من أجل إقامة رابطة من نوع آخر قد تكون النواة العربيّة الأولى للرابطة الطبقيّة، وتتمثّل في الشعراء اللصوص والصعاليك والغاضبين بعامّة– ولا تستند إلى شعور بالواجب، بل إلى الفرديّة الّتي تحسّ إحساسًا طاغيًا أنّها قادرة على هدم قانون الضرورة وعلى الرغبة في تحقيق ما يعدّه العقل مستحيلًا"[18].

بين الاغتراب والرّحيل:

لم تكن رغبة الشاعر في تحقيق ذاته مجرّد شعار، بل كان الاغتراب من أقوى الدوافع الّتي حرّضت الشنفرى، كغيره، على التمرّد والعزم على الرحيل، (وشدّت لطيّاتٍ مطايا وأرحلُ). لكنّ اللافت في حجج الشاعر، اعتماده العقل دليلًا (فقد حمّت الحاجات والليلُ مقمرٌ). إنّه نور العقل الّذي امتدّ أمامه هاديًا إيّاه، وكأنّ الشاعر يريد القول، بأنّ تحرّكه لم يكن وليد انفعال وردّ فعل، بل هو فعل إرادي عقليّ جاء بعد تفكير وتريّث في اتّخاذ القرار. فالقرار بعد جرح، ودعوة داخليّة أرّقت الشاعر ومن يشبهونه، تكلّم الشاعر بلسانهم في لاميّته، فـ"في لاميّة العرب الذائعة الصيت، مرارة لاذعة، وحسرة مستسرّة، ودعاوى عريضة، واغتراب جريح"[19].

تدفع الشاعر إلى اتّخاذ قراره رؤية غير مألوفة في ذلك الوقت، حيث الحث على الرحيل من أجل انتشال ذاته وإنسانيته المغيّبة في بئر عامّة ليس له فيها قرار، في حين كانت دوافع الرحيل ماديّة حيث البحث عن الماء والخضرة. فلم يشعل الشاعر حربًا من أجل غذاء وماء، بل وجد بقاءه مقتلًا له دون أن يكون له عذر في البقاء طالما أنّ الأرض واسعة والكون مترامي الأطراف، وليس ما يضع السدود في وجوه الطامحين سوى الاستسلام والخضوع للواقع الّذي يسيّرهم بدلًا من تحقيق المصير عبر تحقيق الذات، واتّخاذ العقل وسيلة نجاة:

لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ   سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ

فالخوف من الموت على قيد الحياة، والرغبة في اكتشاف ما وراء السور الفكري المحدّد، يجعلان الشاعر متّخذًا قراره، وعازمًا على ما يبغي تحقيقه، وكأنّ هذا تناصّ مسبق مع ما يدعو إليه الله الناس إلى الهجرة حين تصبح الحياة خطرًا عليهم، وفيها ما يخضعهم ويذلّهم، إذ جاء في القرآن الكريم: "إنّ الّذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا"[20].

فجهنّم ومصيرها، ما يحسّ به الشاعر في بقائه ضمن قبيلته رغم شعوره بالغربة والاختلاف عنهم، فما كان أمامه سوى اختيار عالم يرى فيه ملاذًا ومأوى ومحطة تحقيق ما يفتقر إلى وجوده بين أهله، حيث اتّسعت رقعة التباين بينه وبينهم. إنّه عالم الوحوش:

ولي دونكم أهلون: سيدٌ عملّسٌ　　وأرقط زهلولٌ وعرفاء جيألُ

عالم يكشف لنا المأزق الّذي وصلت إليه الحياة البشرية بأقصى ما فيها من قيم حضارية، حضارة القبيلة، ذروة ما انتهى إليه الفكر آنذاك. ولكن ما الّذي وفّره للشاعر عالم الوحوش وكان صعبًا على عالم القبيلة؟ إنّها تفاصيل يريدها الشاعر فرديّة وخاصّة، لكنّ عالم القبيلة المذيب كلّ ما هو فرديّ في قدر الجماعة، ذوّب المسافة بين العامّ ولخاص، حتى صار الفرد محرومًا من إخفاء أسراره. إنّها الحياة الخاصّة، مصدر الإبداع والتغيير، والحديث مع النفس بما لا يريد المرء أن يذاع. إنّها دعوة ثوريّة لتحقيق الذّات في ظلّ عالم أصبح غريبًا: "هم الأهل، لا مستودع السرّ ذائعٌ لديهم...". كما أنّ ما ينجزه الفرد لا يحتسب له في عالم القبيلة الجمعي، بينما يتحقّق ذلك في عالم الوحوش والبراري المقفرة الخالية من البشر:

وكلّ أبيّ باسلٌ غير أنّني　　إذا عَرضتْ أولى الطرائد أبسلُ

إزاء هذا الواقع، لم يجن الشاعر سوى الإحباط والهزيمة، والشعور بالغربة الاجتماعية والفكرية، ما حثّه على إيجاد البديل، إذ "ماذا يفعل الشاعر، وليس أمامه غير الخيبة؟ يلجأ إلى خلق عالم آخر"[21].

الاغتراب وشعريّة النصّ:

لقد ظهر في أثناء دراسة لاميّة الشنفرى، أنّ الاغتراب ومحاولة الخروج على المألوف شكّل خرقًا لجدار من الأفكار المتوارثة الّتي اتّخذت لها شكلًا نهائيًّا أخضع كلّ من في إطاره، واضعًا السدّ في طريق أيّ محاولة تغييرية تهدّد الثوابت الّتي رفعتها أعمدة ظرفيّة، واستحالت كتلًا اسمنتيّة عصيّة على التقويض وإن انهارت تلك الأعمدة الّتي اسهمت في رفعها. وهذا ليس حكرًا على العصر الجاهليّ، بل نراه في مختلف أنواع العصور وما نشهده اليوم ليس ببعيد مما كان في ذلك الوقت.

ولأنّ النصّ من أبرز ما تفرزه حركة الحياة وعجلتها الاجتماعية التحتية، فمن الطبيّعي أن نبحث عن الشعريّة خارج النصّ وداخله. فخارجًا، تبيّن أنّ الشعرية تحققت في ما ولّده الشاعر من خروق لنمطيّة الحياة، عبر طرح أسئلة تعجيزيّة على الثقافة السائدة، بروح فرديّة منبثقة من تلك الجماعة، متمرّدة عليها، محرجة إيّاها، محقّقة فرادة ما، و"الفرادة لا تكون فرادة حقيقية إلا إذا ارتكزت إلى ثقافة فردية قابضة على ثقافة الجماعة، واضعة إيّاها بين يديّ أسئلتها الحرجة التي تمسّ أساسيات تلك الثقافة العامّة فترجّها رجًّا"[22]. وبهذا، تكون الرؤية أبرز مقوّمات ولادة الشعريّة النصيّة من حيث المضمون والموضوع، تلك الرؤية الّتي أنتجتها حركة ضاغطة لتجاوز ما يعرف بالوعي القائم، ورسم طريق خلاص ضمن ما يعرف بالوعي الممكن، حسب وجهة نظر البنيوية التكوينية، وما شدّدت عليه من ضرورة رصد الرؤية إلى العالم ورسم طريق الخلاص. ولكنّ هذه الرؤية، تبقى، أدبيًّا، روحًا من دون جسد، إن لم ترتدِ ثوبًا شكليًّا وأسلوبيًّا يجعل منها روحًا ناطقة بدلًا من روحٍ متقوقعة صامتة، وكذلك الأمر، لا قيمة لشعرية نصّ عبر شكله الجسد، إن لم يكن هذا الجسد نابضًا بعروق الروح الداخليّة. فـ"الجمال الفني عامّة، والجمال الأدبيّ على وجه الخصوص، متّصل برؤية الأديب إلى العالم، وغنى الشعريّة من غنى الرّؤية"[23]. هذه الرؤية الّتي تجلّت في النصّ، تؤكّد ميول صاحبها إلى الإبداع والابتكار، وذلك عبر اختياره وتحديد ماهيّته من خلال هذا الاختيار، فـ"إذا كان الإبداع تجاوزًا، فهو يتضمّن اختيارًا، لأنّ من يبدع يتخلّ عن شيء ليتبنّى آخر غيره"[24]. وهذا الاختيار المؤدّي إلى الابتداع والابتكار، تميّزت به أبيات الشنفرى، ليؤكّد توليد الجديد حين تفرض الحياة علينا ذلك، وهذا ما أشار إليه القرآن أيضًا، حين تبنّى الله ما ابتدعه النصارى الّذين اتّبعوا السيّد المسيح (ع) من رهبنة وجعلها بابًا من أبواب الرضوان، مباركًا هذا الابتداع المواكب لحركة الحياة، "...وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة ورحمة ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله..."[25].

ولم يكن الاغتراب المؤدّي إلى الابتكار عبر الرؤية فحسب، بل عمل الشاعر على التوفيق بين طرحه الرؤيوي وشكل نصّه الفنيّ، وهذا ما أشرنا إليه سابقًا حول تقليص المسافة بين الشكل والمعنى في القصيدة الجاهليّة. فهذه الدعوة إلى التجديد المنبثقة من الشعور بالاغتراب، انعكست أسلوبيًّا أيضًا، إذ اعتمد الشاعر الصورة والرمز في إظهار ما يريد الإقدام عليه، ليضعنا أمام العقل تحت مسمّى (المقمر)، رمزًا إلى ما يمكن أن يرشدنا إليه العقل من نور وهداية إن أردنا ذلك وخرجنا ممّا هو مألوف وقد استحال عتمة لتكرار نفسه دون شموس جديدة. هذا بالإضافة إلى استخدام فعل (سرى)، ليؤكّد التسلل سرًّا حين يصبح الليل جملًا، خوفًا من افتضاح أمره ومعاقبته عبر إبقائه داخل السياج العقلي والفكري الأحادي، وهذا ما يؤكّده في إصراره على أنّ العالم الّذي يقصده بديلًا سيكون منأى للكريم وملجأ:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزّلُ

فالشاعر هو الكاره ما يعاني منه أبناء قبيلته، لكنّه قلب المعادلة وجعل نفسه مكروهًا لأنّه سيغدو دخيلًا بما يطرحه من أفكار غريبة قد تزيد الحالة السائدة تحجّرًا وثباتًا، إذ "من الظواهر، ما يجد في ما ينقضه أو يناقضه، عوامل للاستمرار والحيويّة، وفي تراثنا العربيّ الكثير من ذلك. فما يبدو راسخًا، أو ذا أسس قويّة، يتراءى لنا، أحيانًا، أن الفضل في رسوخه وقوّته يعود إلى ظاهرة مختلفة عنه، أو مغايرة له"[26].

ومن الناحية الأسلوبية اللافتة، والّتي خدمت رؤية الشاعر وأكّدت توفيقه بين اللفظ والمعنى، ما فعله الشاعر من أنسنة لذاك العالم الموحش لتبييض صفحته وتأكيد أهميّته، وأنّه أكثر إنسانيّة وعقلانية من عالم القبيلة الّذي لم يعد يتّسع لأفكار الشاعر وطموحاته، فالأهل الجدد، وحوش لكنّ الشاعر ألحق بصفاتها ميم الجماعة والضمائر والصفات الدالة على العاقل: (هم، لديهم، الأهل، قوم سواكم...).

خاتمة:

لقد تبيّن، من خلال سبعة أبيات تعود إلى لاميّة الشاعر الجاهلي الشنفرى، أنّ حالة اغترابيّة كانت سببًا في تمرّد الشاعر وطرح فكرة الرحيل واستبدال قوم أخرين بقومه. هذا ما تجلّى من خلال إظهار شعوره بخيبة الأمل الّتي وصل إليها جرّاء المأزق الذي تعاني منه ثقافة الحياة القبلية والحضارة آنذاك. فقد أكّد الشاعر أنّ الأرض تتسع لمن يريد تحقيق الذات، وإن كان الثمن غاليًا، محدّدًا صورة العالم البديل، وهو عالم البراري والوحوش الّذي وفّر له ما لم تستطع القبيلة توفيره. وبهذا الاغتراب، تحقق التمرّد على المألوف، مولّدًا خرقًا حياتيًّا أسهم في شعرية النصّ من الخارج، في حين نرى توفيقًا بين الطرح الخارجي والتعبير داخل النصّ لتتحقّق شعرية النص الفنية من خلال تقليص المسافة بين المحتوى والمبنى، أو الأسلوب والمضمون. فالاغتراب في سبعة أبيات، جعل الشاعر متفرّدًا، فارضًا أسئلة محرجة على الثقافة السائدة، مخلخلًا ثوابتها لصالح المتغيرات التي تفرضها الحياة عبر عجلة حركتها التحتيّة. وعبر هذه الأبيات السبعة، تحققت الشعرية شكلا ومضمونًا، لما في ذلك من اختراق وانزياح عن العالم المألوف، إذ ما يقارب الستين بيتًا، لم يقدّم الشاعر فيها شيئًا جديدًا بل كانت المعاني والمضامين متناسلة من قصائد سابقة تؤكّد التشابه والتقاطع في معظم أشعار الجاهليين، إلّا أنّ الأبيات المذكورة أخرجت القصيدة من إطارها المرسوم، كما أخرجت الشاعر سلوكيًّا، من دائرة الوجود المحدّدة مسبقًا.

الهوامش

[1] أدونيس، مقدّمة للشّعر العربيّ، دار السّاقي، (د.ط)، بيروت، 2009، ص30.
[2] علي مهدي زيتون، الشعرية بين الرمز والعرفان، دار المعارف الحكميّة، (ط1)، بيروت:، 2017، ص21.
[3] رامز الحوراني، المناهج النقدية القديمة، (ط1)، بيروت، 1995، ص61.
[4] أدونيس، الثابت والمتحوّل، (ج1)، دار الساقي بيروت، 2011، ص260.
[5] سليمان حسين، مضمرات النصّ والخطاب،اتّحاد الكتّاب العرب، ط.1، 1999، ص199.
[6] مريم حمزة،الأدب بين الشرق والغرب، دار المواسم للطبع والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 2004، ص167.
[7] أدونيس، مقدّمة للشعر العربيّ، ص 23.
[8] نبيل أيوب، الطّرائق إلى نصّ القارئ المختلف، دار المكتبة الأهلية، (ط1)، بيروت، 1997، ص141.
[9] أدونيس، مقدّمة للشّعر العربيّ، ص12.
[10] المرجع نفسه، ص 10.
[11] المرجع نفسه، ص20–21.
[12] علي شريعتي، معرفة الاسلام، دار الأمير، بيروت، 2007، ص 252.
[13] فيصل عباس، الشخصية في ضوء التحليل النفسي، دار المسيرة،(ط2)، بيروت، 1987، ص34.
[14] خالد زهران، دراسات في علم النفس الاجتماعي التربوي على الأطفال والراشدين، دار الفكر العربي (ط1)، القاهرة، 2002، ص 109.
[15] وهب أحمد روميّة ، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، (207)، الكويت، ص 256–266.
[16] أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، ص33.
[17] وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص265.
[18] أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، ص 16.
[19] وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص ص256.
[20] القرآن الكريم، سورة النّساء، الآية 97.
[21] أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، ص 54.
[22] علي مهدي زيتون، الشعرية بين الرمز والعرفان، ص36.
[23] المرجع نفسه، ص40.
[24] أدونيس، مقدّمة للشعر العربي، ص 92–93.
[25] (القرآن، سورة الحديد، الآية 27).
[26] جودت فخر الدين، الإيقاع والزمان، بيروت، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، ط.2، بيروت، 2008، ص 13.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن رشيق، العمدة، (ط.2)،(ج1) القاهرة، 1926.
- أدونيس، مقدّمة للشّعر العربيّ، (د.ط)، دار الساقي، بيروت، 2009.
- (2011)، الثابت والمتحوّل، (ط10)، (ج1)، بيروت: دار الساقي.
- أيوب، نبيل، **الطّرائق إلى نصّ القارئ المختلف**، (ط1)، دار المكتبة، الأهليّة، بيروت 1997.
- حسين، سليمان، مضمرات النصّ والخطاب، (د.ط)، اتّحاد الكتّاب العرب، 1999.
- حمزة، مريم الأدب بين الشرق والغرب، (ط1)، دار المواسم للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.
- الحوراني، رامز، المناهج النقدية القديمة، (ط1)، بيروت 1995.
- زهران، خالد، دراسات في علم النفس الاجتماعي التربوي على الأطفال والراشدين، (ط1)، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002.
- زيتون، علي مهدي، الشعرية بين الرمز والعرفان، (ط1)، دار المعارف الحكمية، بيروت، 2017.
- روميّة، وهب أحمد، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، (207)، الكويت، 1996.
- شريعتي، علي معرفة الاسلام، بيروت: دار الأمير، بيروت، 2007.
- عباس، فيصل، الشخصية في ضوء التحليل النفسي، (ط2)، بيروت: دار المسيرة، بيروت، 1987.
- فخر الدين، جودت، الإيقاع والزمان، (ط2)، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.

الأبعاد الفلسفيّة للهجرة
من ثقافة الأصالة إلى ثقافة الحريّة (مفارقات وأبعاد)

د. مارلين يونس
قسم الفلسفة/ الجامعة اللبنانية

المقدّمة

1- من الهجرة الجغرافيّة إلى الهجرة الكيانيّة تجلٍ للمسارات والأبعاد .

2- الأوديسه أو المعجزة الإغريقيّة الناشبة من مواقيت الهجرات

3- الفيلسوف من اللاوطن إلى مدينة الوجود

اللاوطن:الوحشة الجذرية من الوجود

4- مقام السؤال الثقافي

5- الهجرة الدينيّة وعُدّة المُريد (الهجرة المتمثّلة في حضور الغياب)

6- التيه العقلاني ومتلازمة الاختفاء(هجرة الحقائق وهجرة المعنى الأصليّ)

6- 1 الوعي التعيس وعبء الاعتياد الثقيل

7- هجرة النقص إلى اكتماله

الخاتمة

المقدّمة

إنّ الذات الإنسانيّة لا تعي ذاتها إلّا بالخروج إلى العالم، والعالم هو مساحة حرّة من التفاعل المستمرّ بين عدّة عوالم تتجدّد باستمرار من خلال حركة تواصليّة تربط وتفصل بين الناس في نفس الوقت، فتتيح للإنسان الحرّ أن يستخرج منها مدلول أثرها في تكوين ذاته . وإذا كان كلّ مقصد إنسانيّ ينبئ عن مقصد ظاهر ومقصد باطن. فاستجلاءً لمثل هذه الرؤية يشعر الإنسان بانجذاب إلى رباط حيّ إلى ما يتجاوز كيانه المتعيّن أي إلى ما لا يستقيم كيانه بمعزل عنه. وهذا الانجذاب يتعيّن بالهجرة التي تعني الانتقال من الانخراط العينيّ في الدنيويّ إلى البنية الإنسانيّة الكونيّة لهذا الانخراط.

وبالرغم من أنّ الإنسان هو كائن اجتماعيّ وتاريخيّ واتّصاليّ، إلّا أنّه الكائن الوحيد الذي لم تستقرّ ماهيّته بعد. لذا، يتعيّن عليه أن يكوّن هويّته وماهيّته من خلال مجموع الخصائص التي يستمدّها من مسيرة تاريخه. "فتاريخ الإنسان هو بالطبع تاريخ النوع الإنسانيّ، إلّا أنّ لكلّ فرد ولكلّ جمع محلًا فيه ودورًا في صنعه. والإنسان يدخل في مسألة انبناء متواصل للتاريخ في ضوء تعامل متواصل مع غائيّة الإيجاد" . وتتبلور مهمّة العقل الإنسانيّ في فعل الإيجاد، وفعل الإيجاد هو فعل قائم على طاقات وقابليّات تحثّ على التواصل مع سيرورة الحياة من خلال هجرة المفاهيم. وقد تكون الهجرة للمفاهيم مبنيّة على الانتقال من أفق ثقافي ضيّق ومحدّد، أو من أزمة قيم مقيّدة الأهداف، أو من فضاء يحفل بمفاهيم موروثة وتقليديّة.... ومفاد ذلك أنّها تنحو نحو عالم من عوالم الحياة لم يعد مناسبًا أو نافعًا في مكان أو زمان معيّن. وتأخذ في معظم الأحيان منحى أو مسارًا اجتماعيًّا أو ثقافيًّا أو فكريًّا يصبّ في صالح ارتقاء الإنسان. والحال هذه، فكيف تتبلور المفاهيم داخل موطنها الأصليّ؟ وكيف تُستقبل أو يتمّ تأويلها في بلد الاستقبال؟

إذا كانت الفلسفة هي فنّ البحث عن طرق معرفيّة أو ابتكار لمفاهيم جديدة على حدّ قول دولوز. فهذا الخلق في مفهوم الهجرة لا يحيلنا إلى انفصال المخلوق عن سياقاته لأنّه يأتي نتيجة لما كان قبله ولما سيأتي بعده. من هنا يُفهم مسلك المهاجر الذي يحتفظ بصورة العائد في قلبه، كإعادة تدوير للزمن الماضي والزمن القائم وذلك عبر استشراف الزمن القادم. ويتمّ ذلك من خلال تدفّق الواقع في عدّة صور معرفيّة. والفلسفة كيوتوبيا تساعد في حمل دعوة الاكتشاف إلى أرض جديدة، ليس بالمعنى الجغرافي فحسب بل بالمعنى الفكري الذي يتعلّق بانتزاع الفرد من خطاباته التقليديّة وعاداته وتقاليده، ومن المسلمّات والابّيستمولوجيّات وطرق العيش التي كان متعلّقًا بها. وممّا لا شكّ فيه أنّ العالم مبنيّ على فلسفة الاتّصال الجماهيريّ، وهذه الفلسفة تجسّد صحوة الوعي المنطقيّ للثقافة القادرة على استنهاض هويّة العقل الإنسانيّ، وهي تنفّذ مطالب الهجرة لأنّ الأفكار تسكن في رحاب كلّ الأمكنة والأزمنة.. وبما أنّ الفكر الحرّ ينبثق من وحي يوطوبي يتخطّى حدود ذاته ، من هنا تنطلق مسيرة هجرة هذا الفكر الحرّ الباحث عن الحقيقة والموسّع لمدارك المشترك الأنطولوجيّ والأنتروبولوجيّ. لكن هل بإمكان الفلسفة احتواء موضوع الهجرة أو استيعابه؟ وكيف تستطيع الوقوف خارج إطار الزمان والمكان، أو على قمّة المفاهيم المجرّدة؟

يقتضي هذا البحث تعيين مفهوم الهجرة عند الإنسان المستنير بثقل الحضور الإنسانيّ والذي يرفض حالات التقليد البليد وحالات المسخ الصوري أو الوجود الغرازيّ. سأحاول ما أمكنني معالجة هذا الموضوع الذي تنهض فيه البنائيّة التكوينيّة للهجرة على ثلاثة محاور فلسفيّة تتفاعل فيما بينها وأهمّها: المحاور الأنطولوجيّة والابّيستمولوجيّة والأكسيولوجيّة، وذلك وفق مقاربة تتضمّن مفاعيل الهجرة من خلال مسارات وتجليّات الصراع الماهوي وانعكاساته على الوعي، ومن منطلق مفارقات الذات الإنسانيّة، وهجرة العوالم المحسوسة والعودة إلى الأصيل بعد انصهار أمارات التعدّديّة الثقافيّة الواهبة للمعنى المتولّد من مسار الهجرة وتحوّلاتها.

1- من الهجرة الجغرافيّة إلى الهجرة الكيانيّة: تجلٍّ للمسارات والأبعاد

يتضمّن مفهوم الهجرة الكثير من التعريفات التي تختلف حسب تعدّديّة المعاني المقصودة من المفهوم، ويمكن تعريف الهجرة بشكل عامّ على أنَّها التخلّي عن المكان الأصليّ أي أرض المنشأ على أن تكونَ الغاية من الإقامة في المكان الجديد إنشاء قواعد للاستقرار والتوطُّن والانصهار في المجتمع الجديد. وهذه الحركة الجغرافيّة التي تمثّل الحركة الانتقاليّة المكانيّة المؤطّرة بالزمان ضمن فترات محدّدة، قد تكون إيجابيّة في بلد وسلبيّة في بلدٍ آخر، كما قد تتحدّد بالدوافع والأسباب المؤدّية لها، ومنها الأسباب الاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة والاقتصاديّة... وتقتصر البنية الأنطولوجيّة للهجرة على الحرمان من مكان معيّن خاص بالإنسان أو الشعب، وهذا الحرمان الذي يظهر كخسارة للأصل هو في الوقت ذاته حتميّ وضروريّ للإنسان لأنّه يبحث عن هويّته ضمن أطر الزمان المستردّ والضائع. ليس ثمّة هويّة صامتة، فكلّ هويّة هي رغبة في الكلام عن النفس. غير أنّ الهويّة لا تستمدّ كينونتها من ذاتها، بل من المفارق لها أيضًا، أي ممّا ينفصل عنها ومن الآخر، لأنّ الآخر لا يأتي من أيّ مكان بل هو كلّ إمكانيّة للشعور بأنّنا لسنا نحن بما فيه الكفاية. وطالما أنّ المطلب الداخليّ للهويّة يعكس المطلب الخارجيّ. فوجود الإنسان لا يتحقّق خارج هذا المطلب، ذلك أنّ الوعي يتجلّى كقدرة للاستلقاء في ما هو أبعد من مرتعه الخاص. وخروج الهويّة عن ذاتها هو مكوّن أساسيّ لها، وإدراكها لذاتها هو إدراك متحوّل ومشروط بتفاعلها اللامحدود. ويشاطرنا في هذا الموقف إدوار سعيد ومحمود درويش إذ تغدو الهويّة عندهما بنت الولادة غير الوارثة لماضيها لأنّها إبداع صاحبها، نورثها ولا نرثها. والهجرة هي الاختلاف المستعاد غير المندرج ضمن إطار الهويّة (أرسطو) أو ضمن إطار التعارض (هيجل). وهذا الاختلاف يشير إلى الكثرة المتكثّرة أو الإنمائيّة، أي المواجهة بين الكثافات أو القوى الفاعلة لأنّ الإنسان يشعر بأنّه متعدّد يسكن في داخله عالمًا خارجيًّا يتجدّد باستمرار. وطالما أنّ مفهوم الهجرة يضمّ العودة أيضًا، فهل أضحى التلاقي تخليًا؟ وإلى أي حدّ يمكننا إثبات أنّ الحركات الارتداديّة (الذهاب والإياب) مآلها انوجاد الشيء نفسه ؟ وتعزيزًا لفهم دلالات الهجرة، يُسعفنا في هذا المقام المسلك أو المسار الذي تصوّره لنا مغامرة الأوديسه.

2- الأوديسه أو المعجزة الإغريقيّة الناشبة من مواقيت الهجرات

إنّ الهجرة هي حركة ضروريّة ملازمة لطبيعة النفس البشريّة وتركيبة المجتمع. وهي وجه من أوجه الملاقاة بين الأنا الذاتيّة والأنا الظاهرتيّة. قد تنطلق الهجرة من البداية المحسوسة المكانيّة والمقروئيّة، ولكن غاية حقيقتها لا ترتبط بالمكان، بل بالانتظار والذكرى والحنين . ويعني التفكير في الهجرة التفكير في الإنسان الذي يشغله التنقّل والترحال والهروب والتخفّي وكأنّه يهجر بالرغم من تعثّرات المسار لكي يحيا من جديد، ولكي يتحرّر من انعتاق العبوديّة وأسرها. فالهجرة هي صيرورة وظاهرة كونيّة وهي بمثابة قانون وجوديّ وحركة ثقافيّة. وهي الأفق الذي يؤدّي إلى تلاقح عدّة ثقافات واندماجها مع بعضها. وهذا الاندماج الذي يتبلور هو مصدر إثراء لهويّة المهاجر، غير أنّ المفارقة هي أنّنا نحبّ السفر ونكره الرحيل مع أنّنا

نكتشف دائمًا في البعد داخلًا. وتأتي الهجرة بدلالاتها الواسعة لتفتح للإنسان آفاقًا رحبة تستحضر في داخلها طموحات وعوالم كثيرة انطلاقًا من فكرة أنّ الحقيقة تأبى البقاء في دار المستقرّ. ذلك أنّها استشراف للغد المكوّن من همم تجدّ ومعارك تحترب وأحلام تقود إلى هذه ال"نحن" الذي كنّا لنكون.

ومن المعلوم أنّ الصيغة العامّة لمفهوم المجتمعات المهاجرة، ليست حديثة النشأة، وقد اقترنت بالنشاط الاستعماريّ القديم ونمطه التقليديّ وتسمياته المختلفة. وقد أطلقت على هذه المجتمعات تسمية مجتمعات الشتاتDiaspora /διασπορά ، وهو مصطلح اقترنَ بدلالة سياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة... وقد أنشأت المجتمعات المهاجرة التي استوطنتْ قرب شواطئ البحر المتوسط قبل الميلاد بقرون عديدة، مركزًا حضارياً مميّزًا في بلاد اليونان القديمة. وقد وصفَ أفلاطون تلك الحالة بقوله: "نزلنا في شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء. وأحدث انصهار الشعوب مع بعضها البعض ما أسماه المؤرخون: "المعجزة الإغريقية" أي حدثًا غير متوقّع أو أمور خارقة نتجت من تفاعل عدّة ثقافات مختلفة الأعراق والملل والمعتقدات؛ فعلى سبيل المثال مدينة إيليّا هي مدينة يونانيّة اشتهرت بأصالة أفكارها الفلسفيّة والعلميّة، وقد أنشأها المهاجرون أو الفارّون من الغزو الفارسي في جنوب إيطاليا ، وكذلك مدرسة الإسكندريّة الفلسفيّة، التي تميزتْ بنزعة فلسفيّة غنيّة بما أنتجَهُ فيلون الإسكندريّ من فكر في تفسير التراث اليهوديّ الدينيّ، وفي مقدمة ذلك التوراة، وما أنتجَتْهُ الفيثاغورية الجديدة، والأفلاطونيّة الجديدة، وغير ذلك من الآثار الفكرية والروحيّة التي كان لها الدور الكبير في تأسيس اللاهوت المسيحيّ. يبيّنُ لنا هذا التلاقح الثقافيّ العظيم دوره في نشر النشاط والتفاعل في مختلف المجالات المعرفيّة، حيث كان لكلّ مرحلة خصوصيّتها وفرادتها الثقافيّة والاجتماعيّة الخاصّة بها. وللاطّلاع على مغزى هذه الرحلة، يمكن الإضاءة بشكل مقتضب على مضمونها.

إنّ رحلة الأوديسه لهوميروس أو الرحلة الملحميّة هي مغامرة للبحث عن الحكمة، وهذه المغامرة تعبّر عن مسعى الاجتهاد الإنسانيّ الدائم في الحياة. وتتضمّن هذه الأسطورة ركائز أساسيّة واختصار لمحطّات مهمّة شغلت رحاب الفلسفة والفيلسوف والإنسان. وهذه المحطّات تستتبع في فكر الإنسان استعدادًا للعديد من التحدّيات والحروب والوعود والرهانات واغتنام الفرص والمخاطرة والمجازفة، حتّى يتسنّى له الانتقال من العماء والفوضى والصراع القاسي الذي يمثّل بداية الأشياء إلى الهارمونيا والسلام والحبّ. كما تصوّر أيضًا طريق العودة المحفوف بمصاعب مختلفة منها: ضياع الذاكرة والهويّة والانحراف عن المسار الصحيح بالإضافة إلى ومضات ورائيّة رمزيّة عابرة.. نفهم الزمن فيها كجهاز للتسوية أو التصالح (organe de la réconciliation) الذي يأخذ شكل العودة لاسترداد الزمن الضائع، والحجّ المنفيّ (pélerinage d’exil) وعودة عوليس إلى وطنه الروحانيّ الحقيقيّ على غرار الإبن الضالّ. والمُراد قوله من ذلك أنّ على الوعي الإنسانيّ أن يواجه او يجابه المحن قبل الوصول إلى عالمه الخاص. قد تكون العودة نوعًا من الهجرة

الثانية أو ما يمكن أن نسمّيه بالهجرة الموصّفة أو الموصوفة (migration caractérisée)، والموصوف هو المتميّز الذي يدلّ على الذات الحقيقيّة للهجرة. لكن ما نريد أن نصفه عند العائد إلى بلده، هو الشعور بالغربة. ذلك أنّ المهاجر يرسم أثناء غربته عالمًا أو صورًا من الخيالات أو نموذجًا للبلد المثاليّ لكي لا ينساه، ويُصاب بالخيبة عند العودة ويُصبح بدوره غريبًا عن بلده وغريبًا عن الحلم الجميل الذي تصوّره. وهذه المحطّات المرآويّة للذات المغامرة تلقى صدًى عند الفيلسوف جانكلفيتش كما سأظهرها في الهامش . ويمكن أن تنضوي هذه المسارات تحت عنوان "المسار الدائري" (Erinnerung) حيث ترتدّ النهاية إلى البداية. والسؤال الأساسي الذي سنطرحه، ما هي مقوّمات الحياة الجيّدة التي تطرحها الرمزيّة التي تحفل بها الأوديسه؟

إنّ الهدف من هذه الرحلة الملحميّة أو الأوديسه يتمثّل في السعي الدؤوب للبحث عن المعرفة البشريّة واكتشاف أشياء جديدة. كما يتبلور في التفتيش عن السلام الإنسانيّ والانصهار مع الهارمونيا الكونيّة أو التآلف مع رغد الكينونة والسكن في الحاضر وذلك من خلال الانتصار على الخوف الذي يقهر الحياة، والعمل على تأبيد اللحظة والهروب من الشغف الحزين (passion triste) على حدّ قول سبينوزا، وعدم الارتداد نحو الماضي المقلق والحزين المُغرق في النوستالجيا العاطفيّة التي تسبّب الاعتلال والتشلّع والحزن. بل الاستكانة إلى النوستالجيا الكوسمولوجيّة أو النوستالجيا التفاعليّة التي نصوّر من خلالها الحقبات العظيمة الحافلة بأعرق معاقل الحضارات.

3- الفيلسوف من اللاوطن إلى مدينة الوجود

اللاوطن: الوحشة الجذرية من الوجود

إنّ الهجرة هي تجوال مرآوي للذات وحركة متأصّلة في عمق المجتمع. وهذا التجوال يشغله التقلّب والتحوّل نظرًا لما يعتري هذه الذات الإنسانيّة من أحوال مضطربة وقلقة تُشعر الإنسان بأنّه يعيش ضمن حالة من الوحشة الجذريّة. هذا ما يشير إليه هايدغر في واقعة الدازين اليومي المنغمس في مسرح "الهمّ" . والآن لنرَ كيف يحتمل الدازين اليومي عموميّته؟ وما هو مقام الفيلسوف في مدينة الهُمّ؟

يعتبر هايدغر أنّ:" الدازين هو الكائن الذي هو نفسي في كلّ مرّة، الذي كينونته هي لي في كلّ مرّة . والكيان الإنسانيّ مفطور على عمليّة الترحال، ومن الطبيعيّ أن ينصبّ كلّ جهد المفكّر من أجل الترحّل عن وطنه الخاصّ لكي يدخل في البعد الكوكبي (planétaire). فنحن نفكر على غرار النمط الكوكبيّ، والمقصود بذلك أنّنا نفكّر من خلال صور اعتباطيّة حرّة وعشوائيّة ترسم وجه انتمائنا في مجتمعات تمور بالتقلّبات والتحوّلات والتغيّرات. وهذه المجتمعات تشغلها حركة الهجرة بغية التخلّص من حالة التخلّف والضعف. كما تشغل فلسفة التغيير الحتميّة التاريخيّة المتأصّلة في فكرة الوجود، التي تنقل

الأفراد والمجتمعات من حالة إلى أخرى. من هنا يتوجّب علينا معرفة كيف تصبح مكانيّة في حال وزمانيّة في موضع آخر. فكلّ شيء في مكان، وكلّ شيء لا يزال موجودًا، لكن كل شيء يتنقّل برحلة غير مرئيّة ومثبت باتّجاه شيء جديد. ويسعفنا في هذا المقام قول أنجيلوس سيلسيوس . وبما أنّ الصراعات الاجتماعيّة والسياسيّة والعقائديّة تساهم في فلسفة التغيّر، فهناك إشكاليّات كثيرة تؤسّس للهجرة منها: الثورات المطّردة التي تتولّد من إشكاليّة الظلم المغيّرة لاحتمالات التاريخ. وانبساط التيه (déploiement de l’errance) المتولّد من الظلم. هذا التيه الذي يذهب صاحبه في الأرض تحيّرًا، لكنّه يلقى ملاذه في مآلات الانفلات من القيود المسيّجة في إطار مفهومي ضيّق ليستقرّ في رحاب الكون. وهذا التيه الذي يعني الانقلاع من الجذور يُعتبر من الشروط الطبيعيّة لتحرّر الفكر. وهو يحفل بعدّة أشكال ترافق الإنسان في حياته منها: التيه الروحانيّ والتيه العقلانّي....

لقد عانى من تيه الهجرة أو المنفى الكثير من الفلاسفة على سبيل المثال: هوبز وروسو وماركس وأدورنو ونغري... لكنّ دور الفيلسوف العظيم هو أن يقف على الحدود الأخلاقيّة بين عقول الإنسانيّة، لأنّ المنفى هو جزء من الانتماء إلى الإنسانيّة. والفلاسفة هم مقامات جيّدة للمنفى خارج الثقافة الأمّ وخارج اللغة (ابن رشد). وقد حوّلت أوروبا منفى إبن رشد إلى وطن تاريخيّ جديد لمهمّة الشارح الكبير للعقل البشري. إيضاحًا لمثل هذا التصوّر، على الفيلسوف أن يظلّ "الشارح الكبير" وأن لا يتحوّل إلى شخصيّة تنتمي إلينا فقط من الداخل. بمعنى آخر يجب أن يبقى حاملًا لنور الحقّ والحقيقة. وما ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق، أنّه لا يمكن تحمّل الفيلسوف إلاّ بوصفه "آخرًا" أو "غريبًا" أو "أجنبيًّا" وذلك يعني أنّنا لا يمكن أن نتصوّره إلاّ وهو يتدثّر جبّة المعلّم الكونيّ الحامل للحقائق والأمكنة معه . إنّ ما لا نفرغ للبحث فيه هي التساؤلات التالية التي عرضها المفكّر فتحي المسكيني في كتابه "الدين والامبراطوريّة في تنوير الإنسان الأخير": هل ثمّة وطنيّة فلسفيّة في عصر الإمبراطوريّة الرقميّة؟ وإلى أي مدى يمكن التفكير في تبرير فلسفيّ جذريّ لظاهرة "المقاومة" الامبراطوريّة، المضادّة متأوّلة بوصفها تعبيرًا عن حسّ مدنيّ كليّ؟ وأيّ وطن هو وطن الفيلسوف في عصر الإمبراطوريّة الرقميّة الجديد الذي زُجّت فيه الإنسانيّة الحاليّة دفعة واحدة وبصلاحية حقوقيّة غير مسبوقة؟ وعلى أيّ ضرب من الانتماء يؤسّس الفيلسوف مُقامه في مدن الزمان" ؟

كثيرًا ما حصرنا علاقة الفيلسوف بالمدينة في صورة الفيلسوف- المشرّع الكلّي، ومن ثمّ في تقليد البحث اليونانيّ عن أفضل شكل للحكم، وهو موقف لم يتغيّر في جوهره مع الفصل الحديث بين السياسة والأخلاق والانصراف المنهجيّ إلى البناء الحقوقي لمعنى السيادة الذي به تتقوّم الدولة- الأمّة. إنّ أسئلتنا عن المدينة كيفما تقوّلناها تنبع من حاجة التفكير في شكل الحكم، ولا ضرّ إن كان المتعلّق هو التنبيه على سبيل "المدينة الفاضلة"، كما عمل الفلاسفة من أفلاطون إلى الفارابي، أو التشخيص التاريخيّ لأنماط الحكومة وآليّاتها وخططها كما تحدّث في مدن الزمان، ومثلما نرى من ابن خلدون إلى هابرماس.

في جميع الأحوال تمثّل الهجرة الجانب التاريخي المتواصل أي الجانب المعرفي والشعوري المترجم في النفس تجاه الأسماء والأماكن. ويمكننا اعتبار أفلاطون بأنّه المهاجر الأوّل، وأوّل الهاربين من العوالم المحسوسة وعوالم الوهم والكذب والخداع. فهجرة المكان لا تعني فقط التخلي الجسدي بل الديالكتيكيّة، ذلك أنّ الطريقة الجدليّة هي الوحيدة التي ترتفع إلى مبدأ لكي تؤسّس نهاياتها. وهي تعني أن نتخلّى عن سجننا لنرتقي إلى مملكة الأفكار الموعودة أو الوطن الحقيقيّ. ومن شروط وجود الإنسان أن يكون مهجّرًا أو سجينًا لكهف الجهل، أو لتجسّد الروح في الجسد، وهذا ما تبيّنه لنا الأساطير المهمّة ومنها (le mythe d'Er de Pamphilien) وأسطورة الكهف .

4- مقام السؤال الثقافي

تنعقد حول مفهوم الثقافة الكثير من التعريفات التي يصعب تحديدها. والصراعات الناشبة حول كيفيّة التعريف هي صراعات اجتماعيّة تترنّح بين هجرة التابع للمتبوع، وهجرة المستقرّ إلى المتحوّل، والفاعل إلى المنفعل. فالثقافة معناها ممتدّ ومتفرّع، وقد تكمن التباينات الاجتماعيّة والقوميّة وراء الاختلافات الدلاليّة المسندة للتعريف الشائك أو المربك. وقد يكون المفهوم مرتبطًا بقيم الديمقراطيّة ومبادئها. كما قد يتحدّد على حدّ قول مالك بن نبيّ من خلال مجموع القيم التي يكتسبها الفرد من بيئته ومحيطه، أو من أساليب السلوك التي تتّصف بأنّها تكتسب عن طريق التعلّم. والثقافة هي الذاكرة الجمعيّة للمجتمع وهي تشكّل هويّة الإنسان وتميّزه، وهي ظاهرة جماعيّة تنماز من جمهور إلى آخر، كما أنّها سجلّ مفتوح يواكب تطوّر المجتمع وسيرورته، كما يواكب النشاط الإنسانيّ المُعدّ دائمًا للتغيّر. تصف الثقافة جوانب الحياة الإنسانيّة التي تتشكّل من خلال سيرورة تاريخيّة. وهذه السيرورة هي كفيلة بإنتاج عدّة مكوّنات تتمظهر من خلال عدّة وجوه، كما تشكّل مقام المحايثة لتوطين المفاهيم داخل الفكر من أجل أن تصبح الأشياء حاملة لقضايا ولأنساق رمزيّة تتصدّرها اللغة أو العديد من قواعد التزاوج في العلاقات الاقتصاديّة والفن والعلم والدين، التي يتداولها الناس وتتوارثها الأجيال. وتهدف كلّ هذه الأنساق إلى التعبير عن بعض أوجه الحقيقة الطبيعيّة والاجتماعيّة وعن العلاقات التي تربط كل من هاتين الحقيقتين بعضهما ببعض. فما هي مقوّمات هذا الاحتواء الذي يتمثّل بالانصهار الثقافيّ؟ وما هي هذه الثقافة أو هذه الكفاية التي نعمل دائمًا على إنمائها؟

ينبسط التاريخ وينتشر متفتّحًا في العقل والمخيّلة، ويكتسب تجسّده في الاستجابات المتنوّعة لثقافة شعب التي هي بدورها توسّط لانهائيّ لوقائع ماديّة، ولحقائق اقتصاديّة ركائزيّة، ولمواضيع تفصيليّة عاديّة (بايزِل ديفيدسُن). وتُفسّر شخصيّة الإنسان من خلال الامتثال إلى النموذج الثقافي الخاص بالمجتمع الذي ينتمي إليه. ويُسعفنا في هذا المقام استحضار قول لدنيس كوش: "كن طبيعيًّا أي "امتثل لنموذج الثقافة الذي نُقل إليك" . هناك محفّزات ونواهٍ في طبيعة الإنسان قد تدفع به إلى امتثال لا واعٍ للمبادئ الأساسيّة للثقافة،

وهذا ما يسمّى بالترسيخ الثقافي. وقد أشار رالف لينتون إلى وجود أنماط عديدة للشخصيّة ضمن الثقافة الواحدة لأنّ العديد من أنساق القيم تتعايش في عدد كبير من الثقافات التي تساكن بعضها عالميًّا . ولقد تمثّلت صيرورة الأنسنة بالهجرة من التأقلم الوراثي مع المحيط الطبيعيّ إلى التأقلم الثقافيّ. وفي مجرى هذا الانتقال التطوّريّ الذي انتهى إلى الهومو سابيانس (Homo Sapiens) أي إلى الإنسان العاقل، تراجعت الغرائز وعُوّضت تدريجيًّا بالثقافة أي بذلك التأقلم المتخيّل والمراقب من قبل الإنسان والذي بدا أكثر وظيفيّة من التأقلم الوراثي لأنّه أكثر منه مرونة وأكثر منه قابليّة للنقل بيسر وسرعة. وقد اشتركت المجموعات البشريّة في امتلاك المخزون الوراثيّ نفسه، وتمايزت باختياراتها الثقافيّة. فما من شيء طبيعيّ محض لدى الإنسان، حتّى الوظائف البشريّة المتناسبة مع حاجات فيزيولوجيّة كالجوع والعطش... والتي تزوّدها الثقافة بمعلوماتها، فهي لا تستجيب لهذه الحاجات بالطريقة نفسها، لهذا توجّه الثقافة السلوكات التي لا إكراه بيولوجيّ فيها، كما أنّها تمكّن الإنسان من تأقلم المحيط مع حاجاته ومشاريعه. لكن كيف تجعل الثقافة تحويل الطبيعة ممكنًا ؟ يُكره الناس حسب سارتر حينما يريدون أن يكونوا كتلة لا يمكن اختراقها. وحين يرفضون التغيّر أو التحوّل إلى "غير" داخليّ وغريب من الداخل. ولا مجال لفصل أيّ هويّة عن انفعالاتها. من المفيد أن نستشهد في هذا السياق بقول لكاسيرر، "أن يكون الإنسان مثقفًا، فهذا يعني أن يملك عالمًا" (être culturel, c’est avoir un monde). فالتثاقف هو مجموع الظواهر الناتجة من تماس موصول ومباشر بين مجموعة أفراد من ثقافات مختلفة تؤدّي إلى تغيّرات في الأنماط (Patterns) الثقافيّة. يعتبر دنيس كوش أنّ الطبيعة مؤولّة ثقافيًّا، وهي مبدأ الحركة، والبشريّة لم تتوقّف عن إنتاج الاختلاف الثقافي أو التعدّد الثقافي. أمّا تايلور فقد اعتبر أنّ كلّ الناس هي كائنات ثقافيّة، وهو لم يشكّ في الوحدة النفسيّة للإنسانيّة التي كانت تفسّر ما يلاحظ من تماثلات بين عدّة مجتمعات مختلفة.

وقد حوّل سلافوي جيجك فكرة ماركس الشهيرة فاعتبر أنّ البيئة هي أفيون الشعوب الجديد بدلًا من الدين، والهدف الأساسي لطبقة المثقّفين إخراج اليقينيّات والأفكار المتحجّرة والشعارات الزائفة وتحديثها. لكن هل بإمكان المقيّد ضمن الغيتو الثقافي أن يفهم ثقافته؟ هذا ما أومأ به بودريارد عن المثقّف الأمريكي الذي اعتبر أنّه لا يستطيع فهم ثقافته لأنّه مقيّد أو مسجون في غيتو ثقافي خاص. والمُراد قوله من ذلك يجب أن نتخلى عن تصوّر العلم كبناء قائم بذاته ومستقلّ عن باقي مجالات الحياة البشريّة. وقد استخدم ويل كيمليكا مصطلح أوديسا التعدّدية الثقافية للإشارة إلى مهمّة الصعاب الشبيهة في الفلسفات القديمة بملحمة "الأوديسا" التي واجهتها هذه المنظومة الهامّة في الفكر والممارسة السياسيّة .

إنّ مقام الفعل البشريّ الجديد هو مقام حرّ حول الأفكار. والفكر هو أعلى قيمة مؤشّرة على أنماط الوجود المترجمة في عدّة مواضيع. فالفكر البشريّ يشتغل في ظروف متماثلة، بطريقة متشابهة أينما كان منخرطًا أيضًا بوصفه وريثًا للأنوار، في تصوّر فلاسفة القرن الثامن عشر الكوني للثقافة . تسبح الأفكار على نحو حرّ يطرح فيبر فيه مفهوم "المصاهرة الاختياريّة" وهو اصطلاح يقصد منه التعبير عن تصوّر أنّ الأفكار تخلق وتختار بواسطة الفرد وتتناسب مع الموقف الاجتماعي للفرد. والأفكار كالبشر تتحوّل في معانيها ومقاصدها كما يتحوّل هؤلاء بفعل الهجرة، إذ نعمد إلى النهل من التراث للبحث عن المرادفات المحتملة، ليس بغرض الترجمة والتقريب فحسب، بل تحت تأثير آلية نفسيّة ذهنيّة تروم إثبات الذات الجماعيّة عبر ادعاء السبق والأفضليّة . كما يؤكد علي أومليل على أن تلوّن الأفكار ببيئتها وفقدانها لدلالة الأصل، ليس في حدّ ذاته بالأمر السيء، ولا بالأمر الذي يمكن تجنّبه، شرط أن تساهم آليّة التبييء هذه في إصلاح الأحوال. وما دامت الثقافة ميدانًا حياتيًا فإنّ غايات الغد الثقافي أو ثقافة الغد ستتجسّد في الإرهاص بما هو جديد قادر على قلب الراهن والمعيش السائد نحو الأفضل.

5- الهجرة الدينيّة وعُدّة المُريد

إنّ الإنسان هو صائغ للمفارقة الجدليّة وغائص فيها. لذا، يتعيّن عليه أن يكون في حركة دائمة... فهو يعيش دائمًا في صراع وفي صيرورة دائمة وهجرة لا نهائيّة، إنّه مهاجر أي هو خارج من دار الكفر إلى دار الإيمان، بمعنى أنّ هجرته تتضمّن العودة إلى مآل الانوجاد وترك الذنوب والمآسي وعبادة الذات والانتقال إلى النفس المطمئنّة والتلاقي مع الأصل أي الله . ويتعيّن على أهل التقوى الفرار الدائم إلى الله. أي الفرار من الهوى إلى التقى. وللهجرة بهذا المعنى صور شتّى ذكرها الشوكاني في قوله:"وقعت الهجرة في الإسلام على عدّة وجوه منها: الهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى المدينة، وهجرة القبائل، وهجرة من أسلم من أهل مكّة، وهجرة من كان مقيمًا بدار الكفر، والهجرة إلى الشامّ في آخر الزمان عند ظهور الفتن... وتوضيحًا لهذا الأمر أحدثت الهجرة النبويّة الفيصل بين مرحلتين: مرحلة الدعوة ومرحلة الدولة أي النقلة من الدعوة إلى الدولة حيث يتحقّق التاريخ بها وفيها. كانت نقلة من الدعوة إلى عالميّة الإسلام، ومن مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة القوّة. كما أنّها شكّلت معلمًا بارزًا في قانون التدافع بين الحقّ والباطل والخير والشرّ والإصلاح والفساد. فالهجرة مثّلت باب الفرج وسبيل النصر والتمكين، ولم تكن قدر فرد بل سعي جماعة. وقصّة الهجرة النبويّة هي أكبر من أن تعلّق عليها سورة واحدة، فذكرى الهجرة قصّة تؤخذ منها العبرة على امتداد الأيّام، وتُذكر في أمور كثيرة وفي مناسبات مختلفة. فعلى سبيل المثال نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر، ونزلت سورة الأحزاب في أعقاب الخندق، ونزل النصف الأخير من سورة آل عمران في وقعة أحد أي شوال... فأفواج المهاجرين ظلت متّصلة سنين وتطلّب التعليق عليها في مواضع عديدة. ومن ثمّ ذكرت في سور البقرة وآل عمران والتوبة والنحل والحج والممتحنة والتغابن والحشر.. وكان التعليق في كلّ سورة يحمل بعدًا معيّنًا . سنحاول أن نُضيء على بعض الجوانب في الهامش... وقد صاحب تحمّل الهجرة

الصبر والرضى عند المؤمن الذي تربّى على أنوار الوحي وهدي الإيمان. وتجدر الإشارة أنّ فكرة الهجرة قد اقترنت بفكرة بالجهاد، والجهاد يُفيد التغلّب على الضعف البشريّ وعلى الطبيعة. فالهجرة جهاد والجهاد هجرة لأنّه ترك وتخلٍّ حتّى عن النفس ذاتها. وبإمكاننا الاستنتاج أنّ الجهاد والهجرة قرينان في كتاب الله، فإذا راعينا المجاز مع الحقيقة يُصبح جميع المهاجرين مجاهدين.

تفرض الهجرة دائمًا وبشكل ضروري وجودًا معيّنًا، وهي لا تقطع أوصالها مع الجذر، فثبات الله جعل منه سبينوزا أسًّا وقاعدة في الطبيعة بما أنّها مقام للمادة، وليس في خارجٍ متعالٍ مجاوز بل إلى جانب المهاجرين بطبيعتهم تحت لواء الإنسان. وبهذا المعنى يغدو إله سبينوزا هو المنفي الذي هو في نفس الوقت الإنسان ومن خلال المسار الذي ينطلق من المعرفة الغامضة إلى النعمة. فإله سبينوزا هو هذا المهاجر القائم بين الموضوع والواضع. ويقول أوغسطينوس لكي نرى الإله أو نجده علينا أن نخسره أو نفتقده. فالهجرة في المسيحيّة تعني المجد الآتي والتجلّي والانتظار والرجاء والاستعداد للمحن والجهاد الروحي والتحرّر من شريعة الخطيئة والموت . وتمكينًا لأهميّة ذلك نستنتج أنّ من دون الهجرة لا وجود للمسافر ولا سبيل إلى النعمة. وهذا ما تُفيد به الرحلات الرسوليّة وأعمال الرسل الناشطة لتحدّي الظلمات ولانبثاق نور الحقّ وإعداد طريق الربّ. كذلك ما جاء في صلاة يسوع الكهنوتيّة: "إنّي ذاهب إليك أقول هذا الكلام وأنا في العالم وكما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم وأقدّس نفسي من أجلهم ليكونوا هم أيضًا مقدّسين في الحقّ. وأيضًا قول المسيح في إنجيل يوحنا36:18 "مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت من هذا العالم، لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أسلّم إلى اليهود". وما كُتب في سفر النبي أشعيا: "هاأنذا أُرسل رسولي قدّامك ليعدّ طريقك (صوتٍ منادٍ في البريّة أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبله قويمة". أو ما يظهر عندما صرخ يسوع "إيليا لماذا تركتني" يوضّح لنا من خلال هذا القول بأنّ مملكة الأرض المهجورة هجرها الإله، والمسيح يريد أن يبسط مملكة الله على الأرض المهجورة حيث يسكن الناس. تجدر الإشارة إلى أنّ ما كشفته عن الهجرة الدينيّة يضع الإنسان في موضع المهتدي الذي يسعى جاهدًا إلى تخطّي محدوديّة الانتماء البشريّ الصرف، غير أنّ الخاصيّة التي يتّصف بها الإنسان الخاطئ أو الضائع سأبيّنها من خلال هجرة الاستلاب للعقول.

6- التيه العقلانيّ ومتلازمة الاختفاء (هجرة الحقائق وهجرة المعنى الأصليّ)

إذا كانت معرفة الخير والشرّ معطاة للإنسان، أو بمعنى آخر إذا كان يملك حريّة الاختيار. فإنّ البحث الفلسفيّ معنيّ بتحديد طبيعتها ونتائجها. وتبعًا لذلك يسأل الفيلسوف المفكّر عن الموقف الذي ينبغي أن يتّخذه، وهذا ما نستشقّه عند المفكر إدوار سعيد الذي يرى أنّ المنفى العقليّ ليس مشكلًا سياسيًّا بل هو مقام روحيّ لطرف جديد من الانتماء: ويُفيد ذلك أنّه الشعور بالانتماء إلى أكثر من تاريخ واحد وأكثر من جماعة خاصّة. فالمنفى العقليّ بنظره هو انتماء مؤسّس على تعدّد تاريخيّ وتعدّد جماعويّ. وقد استخدم أدوارد سعيد عبارة "خارج المكان" أي ترك المكان الأصلي والدخول في مغامرة الترحال أو متلازمة الاختفاء حيث يتمّ انهيار الثنائيّات وانثناء العمق في جغرافيا الفكر الجديدة.

إنّ المعرفة هي حال من أحوال الوجود الإنسانيّ الذي يقوم على أساس الوجود في العالم. وهي الإحاطة بعالميّة المحيط الذي نعيش فيه، والفهم هو انفتاح على عدّة عوالم. غير أنّ الضلال والهداية هما ممكنان في كلّ لحظة من لحظات وجود الإنسان في هذا العالم. وقد يختار الإنسان السكن في صحراء التيه وتحت تأثير الجهل لجهة ما يسمعه ويقتنع به ويروّج له. وهذا ما نتلّمسّه عند الإنسان في الزمن الحاضر الذي يقتصر دوره على أن يكون النموذج للمستهلك في عصر السطوح الذكيّة والانفعال العدميّ. بمعنى آخر إنّ إنسان الحاضر منجذب إلى الإغراءات التقنيّة التي تهدّد وجوده كما تهدّد تماسك الشعوب وتعايشها لأنّها تنظر إلى الإنسان وكأنّه مجرّد من الصفات والميزات الأخلاقيّة أو فاقد لشعور الانتماء وحامل لهويّة رقميّة واهية تجعله يختفي في التيه المعولم الذي يُغرقه في دراماتيكيّة التحوّل وتأثير الشاشات وهجرة الأشكال لمضامينها.

من طبيعة البحث أو الكتابة أن تكون عمليّة استكشافيّة ومتنامية، أي أن تكون مفتوحة على احتمالات كثيرة. في الواقع. فما نحتاج إليه في هذا الصدد هو الحكم أو كيفيّة الانتقال من وحدة النموذج إلى وحدة الشبكة العلائقيّة، غير أنّ ثقافة اليوم كما سبق قد أشرنا غيّبت الكوجيطو الديكارتي وهذا ما يظهره بودريار، فلا تفكير في عالمنا ولا معرفة، فالهجرة والتضحية بالأصالة قائمة من خلال التسطيح والتصنّع والغطرسة التملكيّة وتشكيل الأذواق وتسطير الأهداف والتجانس السلس... وهذه كلّها عناوين لثقافة مجتمع الاستهلاك (نحضّر الأشياء لكي نضحّي بها) التي تعني عند بودريار التغييب للأصالة والجوهر والهويّة. وهذا التعيين يحطّم الأصيل ويستحضر العدوّ الداخليّ الكامن في الداخل، وذلك للاستيلاء على المعرفة، من ناحية اختفاء الحقيقة في الزيف، والتاريخ في الآنيّة، والفكر في الهالة الفينومينولوجيّة، والحقيقة في الاستيهام والسطوع، والأصيل في الأثير، والواقع في تقعير هزائم الاختفاء في الافتراضي، والذات في الموضوع، والقيمة في العلامة، والكتابة في الإشهار، والتاريخ في الإنيّة، والديمومة في الفوريّة، والذاكرة في النسيان، والمراقِب والمراقَب في الحجب والطرد والطمر مع التحوّل الراديكالي لحياة تدور حولها مراحل الوجود ومغامراته. وعندها يغدو كلّ واحد منّا منبوذ الوعي (paria consciente) على حدّ قول حنا أرندت، بسبب هجرة الحقائق والوعي الأخلاقي وهذا ما يُوقع الوعي في حالة الشقاء والتعاسة.

6- 1 الوعي التعيس وعبء الاعتياد الثقيل

عندما نفكر في موضوع الهجرة تحضر إلى أذهاننا فكرة الرهن والراهنيّة لذاكرتنا وماضينا. وهذا الجزء الاندفاعي الذي يحرّك ماضينا هو مملوء بالأسف والتحسّر، لهذا السبب يظهر الوعي مشلعًا وتعيسًا لا يستطيع أن ينسى وجوده الغابر كما تشهد لذلك صلاة أغسطينوس . وهذا ما ندعوه "عبء الاعتياد الثقيل"، حيث نسقط في المكان الذي لا نريده، وحيث لا نستطيع أن نكون في المكان الذي نتمنّاه. وقد ضجّ التراث الفلسفي بفكرة الوعي التعيس الذي يتعذّب من دون أن يستقرّ في أيّ مكان. فكلّ شيء يجري

وكأنّ الوعي لا يستطيع أن يستقرّ إلّا في منفاه أو في هروبه الأحادي الزاهد والمنعزل. وقد شدّد لوقريس في " De natura rerum "على هذا الشيء الذي يتسلّل إليه طيلة حياته على اعتبار أنّ الإنسان يقضي وقته في الهروب أو التخفّي والترحال. ذلك أنّ الوعي يظهر كنشاط يرخي بإسقاطاته إلى ما هو أبعد من مكانه الأصليّ.

ولقد ربط الفيلسوف هيغل مفهوم "الوعي الشقي أو التعيس" بإحساس الفرد بالاغتراب عن نفسه وعن محيطه، اغتراب يسبّبه العقل الجدليّ التنويريّ للمثقّف العضويّ ومقدرته على الاستبصار. وكلّ موضوع الوعي التعيس قد عُولج في الثقافة الأوروبيّة مع العديد من الفلاسفة، على سبيل المثال المفكّر والروائي الإسباني ميجل ده أونامونو، وجان فال ونيتشه وهوسرل وهيدغر وجانكلفيتش... وهذه الفكرة (conscience malheureuse) ترتدّ في جوهرها إلى الوعي بالذات أي أنّ لحظة الوعي هذه تستدعي نقيضها وهو النفي، ولأنّ النفي إثبات كما يقرّ المنطق الكلاسيكيّ والجدلي والعلاقة بينهما جدليّة. يمكن اختصار هذا الفهم لحقيقة الوعي بالذات بأنّه محاولة لتجاوز إطار الذات أو براديغم الذات من خلال شيء أوسع منها، يعني أن نُحدث فاصلًا أو فراغًا بيننا وبين أفعالنا وأن يكون لدينا لحظات استبصار ناجمة عن لحظات مركّزة ومكثّفة لتحليل الذات. وأن نتأمّل أفعالنا فهذا يعرف بحسب الصورة السيكولوجيّة محاربة النفس، وذلك من خلال تقويم الأفعال الجيّدة وهجرة الأفعال السيّئة. وهذا التقويم يتطلّب المراقبة وتحليل الدوافع وحقيقتها. فالإنسان هو صادق في حدود الشعور ولكنّه غير صادق في ما وراء الشعور لأنّه ليس مستبصرًا بذاته. وهذا ما شدّد عليه أهل التصوّف من خلال قولهم: إذا عاملت نفسك فتشرّع (يعني أن نتكلّم عن المواقف والوقائع لا عن الدوافع)، وإذا عاملت الخلق فتحقّق) أي علينا أن نفترض للناس الافتراضات الطيّبة ونحاول أن نتقمّص حالات ضعفهم وهشاشتهم. كما علينا أن نهجر حيلة الإسقاط ونلغي الموقف الراهن.

إنّ الوعي بالوجود لا يتبلور إلّا في الحركة المضنية التي تذهب مجيئًا وإيابًا والتي تكتمل في محاولة يائسة وسلبيّة لكي تستعيد الراحة تحت أي شكل من الأشكال، وتحت أي ظرف أو أيّ شرط، وهذه حقيقة المهجّر المستسلم للضياع ولتكثّرات الجذمور ولهجرة الجذر الأصليّ حيث تغيب كلّ بداية وكلّ نهاية بين وسط متعدّد بلا بنية محدّدة. وهذه البنية تتضمّن الكثير من الخطوط والرسوم الهاربة المقيمة والمترحّلة. وهي جينالوجيا مضادّة (Anti-généalogie) أو ذاكرة مضادّة تصوّر المنفى وتقرّ بأنّ الحركة أهمّ من الجذر، ويصبح الإنسان خطًّا مجرّدًا أو سهمًا يعبر الفراغ، يرسم العالم على الذات. وهذه الذات تلبس خطوطًا وخوارط مفتوحة وموصولة في كلّ الاتّجاهات. لكن كيف السبيل لاهتداء الذات التائهة للوصول إلى كمالها ؟

7- هجرة النقص إلى اكتماله

إنّ سعي الإنسان إلى الكمال هو سعي مشروط باجتماعيّة الإنسان. "فكلّ إنسان مفطور على أنّه محتاج في قوامه أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلّها وحده. فلذلك لا يمكن أن ينال الإنسان الكمال، الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعيّة، إلاّ باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين..." وعندما تنطرح اجتماعيّة الإنسان بهذا الشكل، تنطرح بالفعل نفسه تاريخيّته. وفي هذا المنظار يرتبط بلوغ الإنسان بحركة استكمال المعرفة العقليّة عبر التاريخ. ويكون جمال كلّ موجود إنساني مشروطًا ليس فقط بمرتبته في نظام القوى والملكات النفسيّة في المجتمع، بل بالمرحلة التاريخيّة التي تجتازها البشريّة في سعيها إلى الخروج من العقل بالقوّة إلى العقل بالفعل، أي في سعيها إلى تحقيق العقلانيّة المحضة الممكنة لها . نطرح في هذا المحور الجمال كوجه من وجوه إدراك الإنسان للعالم والفن كإبداع إنساني لأشياء جميلة. لنتأمّل في رحاب النص مسألة الموجود في كتاب الفارابي "أراء أهل المدينة الفاضلة" الذي يتضمّن فقرة عن الجمال الموجود في الوجود الإنساني، والتي تستحقّ انتباهًا خاصًّا على حدّ قول ناصيف نصّار التي كان لها موضعًا مميّزًا في كتابه: "التفكير والهجرة، من التراث إلى النهضة العربيّة المعاصرة": "الجمال والبهاء والزينة في كلّ موجود هو أن يوحّد وجوده الأفضل ويحصل له كماله الأخير. وإذا كان الأوّل وجوده أفضل الوجود، فجماله فائت لجمال كلّ ذي الجمال. وكذلك زينته وبهاؤه، ثمّ هذه كلّها له في جوهره وذاته، وذلك في نفسه وبما يعقله من ذاته" . "وأمّا نحن، فإنّ جمالنا وزينتنا وبهاءنا هي لنا بأعراضنا، لا بذاتنا، وللأشياء الخارجة عنّا، لا في جوهرنا، والجمال فيه والكمال، ليس هما فيه سوى ذات واحدة وكذلك سائرها" . يطرح هذا النص مشكلة الجمال الإنسانيّ بالمقارنة مع الجمال الإلهي، على أساس تعريف الجمال في كلّ موجود بالوجود الأفضل والكمال الأخير. ولكن حرص الفارابي على المباعدة بين الجمال الإلهي والجمال الإنساني جعله يتصوّر هذا الأخير كأنّه منفصل عن جوهر الإنسان، وأضعف بالتالي تماسك مذهبه. فماذا يعني القول بأنّ جمالنا هو لنا بأعراضنا، لا بذاتنا، وللأشياء الخارجة عنّا، لا في جوهرنا؟

تمهيدًا للجواب على هذا السؤال، لا بأس أن نستحضر دلالات المفهوم ونحلّلها في هذا النص الذي يتضمّن قسمين: القسم الأوّل يتناول قضيّة التعريف عن الجمال، والثاني يشرح لنا تطبيق هذا الجمال على الموجود. فجمال كلّ موجود ليس شيئًا متحقّقا له في أي حالة من حالاته، أو في أيّ طور من أطواره. إنه شيء متوقّف على شرطين بهما قوامه وظهوره. الشرط الأوّل هو تحقّق الوجود الأفضل للموجود، والشرط الثاني هو بلوغه استكماله الأخير. وذلك لأنّ كلّ موجود بحسب فلسفة الفارابي موجود على درجة معيّنة من الكمال أو لبلوغ درجة معيّنة من الكمال. يبدو لنا أنّ الوجود الأفضل لكلّ موجود هو وكماله الأخير شيء واحد. وعليه لا يكون الجمال الذاتي لكل موجود جمالًا بالمعنى الحقيقيّ إلّا عند بلوغه كماله الأخير" . واعتمادًا على مثل هذا التصوّر، نسستطيع القول أنّ الجمال هو اختراق واندفاع إلى باطن الحياة، وإذا كانت الحياة العاديّة تقلّص رؤيتنا وتقيّد مآلات التفكير الابداعي الحرّ، فإنّ الجمال هو إطلاق سراح للعين والخاطر والرؤية، وهجرة إلى العوالم الحرّة.

الخاتمة:

بناء على ما تقدّم وممّا لا ريب فيه أنّ الهجرة هي ظاهرة كونيّة تدفع بالإنسان لكي يُطلق حركة في الفضاء وفي الزمن وفي ذاته. مثلما يتغلغل أو ينسلّ الماضي بخفية في الحاضر، وكما تتسلّ الذات في الآخر والآخر في الذات. سأنهي بقول للراهب الساكسوني هوغو أف سان فكتور الذي عاش في القرن الثاني عشر: "إنّه لمصدر فضيلة عظيمة للعقل المجرّب أن يتعلّم شيئًا فشيئًا، أوّلاً أن يتغيّر في الأمور المرئيّة والزائلة، كي يكون قادرًا بعد ذلك على أن يخلّفها وراءه تمامًا. إنّ المرء الذي يجد وطنه حلوًا ما يزال مبتدئًا غضًّا؛ وأمّا من يكون له كلّ ثرى مثل ثرى البلد الأصلاني فلقد اشتدّ عوده؛ لكنّ الكامل هو الذي يكون العالم كلّه بالنسبة إليه مكانًا أجنبيًا. فالروح اليافع قد ركّز حبّه على بقعة واحدة من العالم؛ والشخص القوي قد نشر حبّه على الأمكنة كلّها؛ وأمّا الرجل الكامل فقد أطفأ شعلة حبّه" . وللقدماء تراث أخلاقيّ حول مقام المنفى ونستطيع نحن استبداله بالهجرة. فقد قال سينيك: ليس ثمّة ما يخسره المرء في المنفى، فمن أيّ جهة نظرت إلى السماء تكون المسافة هي نفسها بين ما هو إلهيّ وما هو إنسانيّ . ويقول الشاعر رامبو في هذا المجال: "أنا" هو "آخر" وهذا يعني أنّ بإمكان الشاعر أن يحمل غيريّته كإنسان من دون تردّد: وأن يشعر أنّه كلّ الذين لم يكُنهم يومًا ما، وأنّه يشتاق إليهم، وأنه يرغب في أن يقرأ عليهم فلذات حواسّه الأكثر استثنائيّة. وحده الشاعر يشتاق إلى الذين لا يعرفهم، ولا يجد في هكذا شوق أيّ تصادم مع الواقع. بعد هذه الشذرات النيّرة التي أوردتها، من المفيد أن نُظهر في هذا السياق أنّ ما يتنازع الفعل الإنسانيّ، حدّ الموروث التقليديّ الذي لا مفرّ من تركه، وحدّ التجلّي الكشفي المستقبليّ الذي لا مناص من ارتباط الفيلسوف به وهو ما يتأوّل بالمنفى أو بالهجرة الذي يحوّله إلى إسم علم إنسانيّ أو كونيّ، على سبيل المثال ابن سينا أو إبن رشد .. ... الذين أصبحت أسماءهم من أهمّ الأيقونات الفلسفيّة.

الحواشي والمراجع

1 Jankélévitch, L'odyssée de la conscience dans la dernière philosophie de Schelling, L'Harmattan, 2005 (19331),p. 36.

2 ناصيف نصّار، النور والمعنى، تأملات على ضفاف المعنى"، دار الطليعة، بيروت، 2018، ص. 389. 2

3 Miguel Abensour, "La théorie critique: Une pensée de l'exil?", Archives de philosophie, Avril–Juin, 1982, p. 3 .198

أنظر:

4 Etymologiquement, "Partir" a signifié jusqu'au XVI e s "Partager". Toutefois, vers le XIIe s, il est intégré au langage juridique "partie" puis politique "parti"(XVes). Il revêt au XIIIe s le sens d'une action réfléchie, "partir d'un lieu" ainsi que "se séparer de quelqu'un". Partir signifie également "le départ". Signalant une homonymie entre "départ" de l'ancien français "départir" c.à. d "s'en aller"," s'écarter de" et "partager" avec les locutions: "avoir maille à partir et "faire le départ entre le bien et le mal". Voir: Fernandez Bernard, Identité Nomade, Editions Economica Anthropos, Paris, 2002, p.31.

5 La carte de tendre est la carte d'un pays imaginaire appelé "tendre" inventée au 17e s par différentes personnalités, dont Catherine de Rambouillet, et inspiré du roman Clélie, histoire romaine de Madeleine de Scudéry (1654) .

6 See: Subaltern Studies, Neil Rogall, From Newsletter, London Socialist Historians Group, No Autumn 1998, P.23- Historiography

7 عبارة المعجزة الإغريقيّة استلّها المفكّرون من "إرنست رينان" في مؤلّفه "ذكريات الطفولة والشباب" نظرًا لإعجابه بالآثار اليونانيةّ التي تتضمّن الكثير من العوالم الثقافيّة والفكريّة والتاريخيّة، بمعنى آخر التي تحمل عراقة لنواريخ متعدّدة حيث نشهد تأبيدًا للحظات الإنسانيّة . ولا تتضمّن طبيعة هذا الجمال الأبديّ الصامد الأثر المحليّ أو الوطنيّ فقط بل تفاعل عدّة محطّات من التاريخ. وأيضًا لفرويد رأيًا مماثلاً في هذا الصدد من ناحية ما يتعلّق بالانبهار في كيفيّة تواصل الفكر القديم الذي يُترجم فرادة هذه الأرض الجليلة. وللمفكّر فرانسوا هارتوغ في كتابه" الرحيل إلى اليونان" محطة تساؤليّة عن مدى حاجتنا إلى حضور الغد، فالإغريق ليس إرثًا مُعطى بل رحلة تاريخ طويل ممتلئ بالاستملاكات المتتالية. كما

يُروى أنّها نشأت في عصر التجديد الذي كان روّاده يرون أنّ العلوم والمعارف الإنسانيّة ولدت في القرن السادس ق. م، واستمرّت خلال الفترة الهلّنستيّة، وتناولت مجموعة واسعة من المواضيع بما في ذلك الفلسفة السياسيّة والأخلاق والميتافيزيقا وعلم الوجود والمنطق وعلم الأحياء والبلاغة وعلم الجمال...

8 8 أنظر: ول ديورانت، قصّة الحضارة، ت. محمّد بدران، مج، 3، ج7، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1953، ص. 9

9 Il faut d'abord que quelque chose soit, qui ne devrait pas être que cette rébellion soit progressivement réprimée ,que l'être complet soit enfin restauré dans tous ses droits" . [Od, p.93]. Le premier temps correspond à une sorte de péché et signifie une "exaltation de l'ipséité", la patrie que nous sommes, plutôt que de demeurer expression fidèle de l'univers, en sa totalité qualitative, se fait toute unilatérale et partiale, bref individualiste et égoïstement matérielle [Od, p.315316–],dans un deuxième temps, il y a compensation rationnelle du péché, c.à. d retour à une sorte de totalité, mais abstraite et distante, comme l'est par exemple l'impersonnelle justice. Dans une troisième phase, il faut entrevoir une transfiguration spirituelle, qui exprime un retour au monde concret. Celui-ci n'étant ni esprit ni matière mais totalité sublime et sagesse ou innocence retrouvée. Ce schéma commandera l'itinéraire éthique et spirituel de l'homme, tel que décrit dans les vertus. Voir Isabelle De Montmollin, La philosophie de V. Jankélévitch, PUF, 2000, pp. 6061–.

10 .Heidegger, Sein and Zeit, Être et Temps, Paris,1985,&27

11 فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانيّة، دار منشورات ضفاف، بيروت، 2016، ص. 39

12 أنجلوس سيليسيوس (1624 1677–) عالم لاهوت وطبيب وشاعر ألماني ومن أهمّ المناضلين لحركة الإصلاح الديني.

"Je ne sais pas ce que je suis, je ne suis pas ce que je sais, une chose et pourtant aucune chose, un petit point et un cercle".

13 فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانيّة، ص. 13

14 فتحي المسكيني، الدين والامبراطوريّة في تنوير الإنسان الأخير، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2016. ص. 63.

15 دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعيّة، ت. منير السعداوي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2007، ص.11

16 .12–Wolton Dominique, L'autre mondialisation, Flammarion, 2003, pp. 11

17 ويل كيمليكا: فيلسوف سياسي كندي اشتهر بعمله في التعددية الثقافية وأخلاقيات الحيوانات وهو يشغل منصب أستاذ الفلسفة السياسية في جامعة كوينز في كينجستون وأستاذًا زائرًا في برنامج دراسات القوميّة بجامعة أوروبا الوسطى في بودابست. أهم منشوراته "نظريات العدالة.

18 مهند مصطفى، مراجعة كتاب أوديسا التعدّديّة الثقافيّة ص. 277–271

19 دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعيّة، ت. منير السعداوي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2007، ص 32 20 – علي أومليل، أفكار مهاجرة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2013، ص. 8

21 جميل قاسم، علي شريعتي، الهجرة إلى الذات، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2015، ص. 290

22 سأوجز ما تتضمّنه بعض السور، على سبيل المثال: في الآية رقم 46 من سورة الحج "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها. فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور". وفي الآية 100 من سورة النساء" من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغمًا كثيرًا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورًا رحيمًا". وآية رقم 195 من سورة عمران" فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ثوابًا من عند الله، والله عنده حسن الثواب".

23 هذا ما يُشار إليه في رسالة القديس بولس إلى أهل رومة" فليس بعد الآن من هلاك للذين هم في يسوع المسيح، لأنّ شريعة الروح الذي يهب الحياة في يسوع المسيح قد حرّرتني من شريعة الخطيئة والموت".

24 « Mais je retombe en ce bas monde dont le poids m'accable, je redeviens la proie de mes habitudes, elles me tiennent, et malgré mes larmes, elles ne me lâchent pas. Tant est lourd le fardeau de l'accoutumance ! Je ne veux pas être où je suis et je ne puis être où je veux : misère de part et d'autre ! » . Voir (Confessions VII, 10,16).

25 الجذمور (Rhizome) :إنّه نوع من النباتات تنتمي إليه النبتة المعروفة باسم اليهودي التائه والتي تتميّز بغزارة الإنتاج، تنبثق من الأرض وتمتد فوق منطقة واسعة، على شكل نباتات منفصلة ومتجاورة. ولكنّ الواقع يكشف أنّ هذه النباتات المنفردة ظاهريًّا هي أجزاء مترابطة تحت الأرض، تنبثق من نبتة كبيرة واحدة. وتكتسب هذه النباتات دلالة فلسفيّة متميّزة إذ ترتبط بالثنائي الفرنسيّ الشهير فيليكس غوتاري (Félix Guattri) وجيل دولوز (Gilles Deleuze). فهو خريطة وليس تتبّعًا لآثار، فهو موجّه نحو تجربة حسيّة على اتّصال بالواقعيّة. والعالم مكوّن من موجودات منفصلة منعزلة وليس من كليّات مترابطة.

26 فتحي المسكيني، الدين والامبراطوريّة في تنوير الإنسان الأخير، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ص. 108

27 الفارابي: "كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة"، ص.96، أنظر أيضًا "كتاب السياسة المدنيّة" ص. 69.

28 ناصيف نصار، التفكير والهجرة، دار الطليعة، بيروت، 2004، ص. 51.

29 ابن خلدون: "المقدّمة"، تحقيق علي عبد الواحد وافي،طبعه لجنة البيان العربي،القاهرة، الجزء الثالث،1960، ص. 975.

30 الفارابي: "التوطئة في المنطق"، ضمن كتاب "المنطق عند الفارابي"، تحقيق رفيق العجم، الجزء الأوّل، دار الشرق، بيروت، 1985، ص. 55.

31 ناصيف نصّار، التفكير والهجرة، ص. 48

32 فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانيّة، ص. 12–11

33 المصدر نفسه ، ص. 33

المصادر والمراجع

Cf. Sénèque, Lettres à Lucilius : « une grande partie de la vie s'écoule à mal faire, la plus grande à ne rien faire, la vie tout entière à faire autre chose », traduit par M-A Jourdan-Gueyer, Paris , Flammarion, 1992, livre 1, lettre 1.

Edward Said, Réfléxions sur l’exil et autres essais [Reflections on Exile and Other Essays, Harvard University Press,2000],traduit de l’américain par Charlotte Woillez, Arles, Actes Sud, 2008.
Gilles Deleuze et Felix Guattari, Qu’est-ce que la philosophie, Paris, Minuit, 1991.
------------Logique du sens, Editions de Minuit,1969.
------------Différence et répétition, PUF, 1968.
Gusdorf, Fondements du savoir romantique, Payot, 1982.
Hegel, La phénomènologie de l’esprit, trad.Bernrd Bourgeois, Vrin, 2018.
Miguel Miguel Abensour, “La théorie critique: Une pensée de l’exil?”, Archives de philosophie, Avril-Juin, 1982, p. 198.
Nietzche, Par delà le bien et le mal, traduit par C. Heim, Paris, Folio essais, 1998.
Paul Ricoeur, Temps et récits, tome III, Le temps raconté,, Editions du Seuil,1985.
Platon, La République, livre VII, traduit par R. Baccou, Paris, Flammarion,1991.
-------, Phèdre, traduit par Paul Vicaire, Paris, Gallimard, 1989.
S. Weil, La pesanteur et La grâce., Paris, Plon, 1988.
Saint Augustin, Les confessions, traduit par J. Trabucco, livre dixième, chapitre, XL., Paris, Flammarion, 1999.
Sartre, L’être et le néant, chap II,”Les conduites de la mauvaise foi”, Paris, Gallimard, 1999.
Sartre, L’être et le néant, chapitre II, « les conduites de la mauvaise foi », Paris, Gallimard, 1999.
Sénèque, Consolations, traduit par Colette Lazam, Paris, Rivages, 1992.
https : www.//mominoun. Com/articles.
https:// www.cairn.info/revue_ hermes
إدوارد سعيد، الإستشراق، المعرفة، السلطة ،الإنشاء، ت. كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، الطبعة السابعة،2010
ابن رشد،"تهافت التهافت"، تحقيق الأب موريس بويج، طبعة ثانية، دار المشرق، بيروت، 1987.
الجرجاني،علي بن محمّد، معجم التعريفات، القاهرة، دار الفضيلة، ٢٠٠4
دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعيّة، ترجمة: د. منير السعيداني، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط 1، 2007.
سعد البازعي، قلق المعرفة، إشكاليّات فكريّة وثقافيّة، المركز الثقافي العربيّ، 2010.
صالح الطيّب، موسم الهجرة إلى الشمال، بيروت، دار الآداب، 1994.
علي أومليل، أفكار مهاجرة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2013.
الفارابي، كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق ألبير نادر، دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية، 1968.
فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانيّة، دار منشورات ضفاف، بيروت، ط.1، 2016
ميجيل ده أونامونو، الشعور المأساوي بالحياة، ت. علي ابرهيم أشقر، دار التكوين للطباعة والنشر، 2020
ناصيف نصّار، التفكير والهجرة، من التراث إلى النهضة العربيّة الثانية، دار الطليعة، بيروت، 2004.

توصيات المؤتمر:

١- تحفيز المثقفين العمل على إبراز أهمية الوطن وقيمته، وأهمية اللغة العربية، حتى وإنْ دفعتْ الظروف القاسية والضاغطة إلى الهجرة، فلا بدّ من العمل على الحفاظ على اللغة العربية، لأنها مفتاح تراثنا وحضارتنا وشخصيتنا؛ فعلينا الاعتزاز بها، وعدم طمسها لحساب لغاتٍ أخرى وحضاراتٍ أخرى. والدعوة للعودة إلى أرض الوطن، التي هي أحقّ باستثمار عقول أبنائها واختصاصاتهم.

٢- دعوة المجتمعات لإنشاء الأندية الثقافية التي تتناول قضايا المهاجر، وتربطه بوطنه، وتحميه من ذوبان شخصيته، وتنمّي فيه روح الوعي، وترسيخ القيم، وتعالج ما يواجه من مشكلات.

٣- تحفيز الشباب المهاجر أن يكونوا سفراء بلدهم، ووجهه المشرق؛ وأن يعملوا على إبراز الوجوه الإيجابية للشخصية العربية، التي تجعل منا شعوباً مرحّباً بها أينما حلّت، والعمل على محاولة محوِ صورة الإرهاب التي التحقت بنا ظلماً وبهتاناً.

٤- دعوة النازحين في كلّ أقطار العالم عامة، وفي المخيمات خاصة، إلى الرجوع والعودة إلى أوطانهم، مع انتهاء الظروف الضاغطة التي دفعتهم إلى الهجرة.

٥- الدعوة والتمني إلى الحدّ من العقول المهاجرة، لما فيها من خسارة على الوطن والأمة، والعمل على إعادتها، وتأمين الظروف المعيشية الملائمة لهم.

٦- الاهتمام بالنتاج الشعري البارز في أدب المهجريين الجدد، وإدخال نماذج من شعرهم في المناهج التربوية.

٧- تفعيل التواصل مع الأندية والمنتديات الثقافية الموجودة في الخارج.

٨- الإضاءة على دور شعراء المهجر، من خلال التوصية بعمل برامج حول الشعر المهجري.

٩- أهمية تواجد إدارة للثروة البشرية الوطنية، بموازاة الثروات الطبيعية التي تستحوذ على اهتمام الحكومات المتعاقبة.

١٠- تفعيل دور وزارة المغتربين من حيث تأمين قاعدة بياناتٍ إحصائية تتعلّق بهذه الظاهرة؛ والتواصل مع الجهات المعنية بشؤون المهاجرين من سفارات، جهات مانحة، نقابات، أمن عام وغيره...

ومن التوصيات القانونية:

١- الدعوة إلى تعزيز إمكانيات ضبط الحدود البرية والبحرية، لمواجهة جماعات الهجرة غير الشرعية على الحدود.

٢- الدعوة إلى ضرورة تعديل التشريع اللبناني بشكلٍ يتناسب مع بروتوكول مكافحة تهريب المهاجرين، وإلزامية مساءلة كلّ من كان له دور في ارتكاب أيّ فعل من أفعال الهجرة غير الشرعية.

Notes

1 B. L. Hoffer, Language Borrowing and Language Diffusion: An Overview of Intercultural Communication Studies. (2002), page 1.
2 Philip Durkin, The Oxford Guide to Etymology. (2009), pages 134-135.
3 As cited in A. Alvanoudi, Language contact, borrowing and code switching: A case study of Australian Greek. 2017, page 2 in the first footnote, "borrowing is also referred as transfer or transference (Clyne 2003), and copying (Johanson 2002)."
4 N. Palfreyman, K. Sagara & U. Zeshan, Methods in carrying out language typological research. (2015) page 2.
5 M. D LeCompte and J.Preissle, Ethnography and qualitative design in educational research (2nd ed.). San Diego, CA: Academic Press. (1993) page. 257 as cited in J. A. Hatch, Doing qualitative research in educational settings. (2002) page 152.
6 Martin Haspelmath, Lexical borrowing: Concepts and issues. (2009). Page 38.
7 Haspelmath (2009).
8 Hoffer (2002).
9 Jumah Yousif Qreshat, The history of loan words in English and its impact on the English Lexicon (2019).
10 Haspelmath (2009).
11 Elina Stepanyan, A Survey on Loanwords and Borrowings and Their Role in the Reflection of Cultural Values and Democracy Development: the Armenian Paradigm. (2018).
12 Haspelmath (2009).
13 Stepanyan (2018).
14 Haspelmath (2009).
15 J.Al-Qinai, Morphophonemics of loanwords in Arabic. (2000).
16 Fredric W. Field, Linguistic borrowing in bilingual contexts. (2002).
17 Stepanyan (2018).
18 Lyle Campbell, Historical Linguistics: an Introduction (2nd edition) (2004).
19 Charles Barber, C. Beal Joan and A. Shaw Philip, The English Language: a Historical Introduction. (2012).
20 A. Weber, Politics of English in the Arabian Gulf (2011).
21 Hoffer (2002).
22 Hoffer (2002) page 2.
23 Stepanyan (2018).
24 Dénes Gazsi, Arabic-Persian Language Contact (2011).
25 ZHOU Li-na, Loan Words in Modern English and Their Features. (2016).
26 Al-Qinai (2000).

References

Alvanoudi, A. (2017). Language contact, borrowing and code switching: A case study of Australian Greek. Journal of Greek Linguistics: 1-42.
Al-Qinai, J. (2000). Morphophonemics of loanwords in Arabic. Studies in the Linguistic Sciences, 30(2), pp.1-25.
Barber, Charles and Joan C. Beal and Philip A. Shaw. (2012). The English Language: a Historical Introduction, New York: Cambridge University Press.
Campbell, Lyle (2004). Historical Linguistics: an Introduction (2nd edition). Edinburgh: Edinburgh University Press, and Cambridge, MA: MIT Press.
Durkin, Philip. (2009). The Oxford Guide to Etymology. Oxford; New York: Oxford University Press.
Field, Fredric W. (2002). Linguistic borrowing in bilingual contexts. Amsterdam: Benjamins.
Gazsi, Dénes. (2011). Arabic-Persian Language Contact. In The Semitic Languages: An International Handbook, Stefan Weninger (ed.). De Gruyter Mouton.
Haspelmath, Martin. (2009). Lexical borrowing: Concepts and issues. In Loanwords in the World's Languages: A Comparative Handbook, ed. by Martin Haspelmath and Uri Tadmor, 35–54. Berlin: De Gruyter Mouton.
Hatch, J. A., (2002). Doing qualitative research in educational settings. Albany, NY: State University Press.
Hoffer, B. L. (2002), Language Borrowing and Language Diffusion: An Overview of Intercultural Communication Studies XI-2, pp.1-36.[Online] Retrieved on Nov. 1 from: https://web.uri.edu/iaics/files/01-Bates-L.-Hoffer.pdf
Li-na, ZHOU. 2016. Loan Words in Modern English and Their Features. Sino-US English Teaching, March 13(3), 209-212.
Palfreyman, N., Sagara, K., & U. Zeshan. (2015). Methods in carrying out language typological research. In E. Orfanidou, B. Woll, & G. Morgan (Eds.), Research methods in sign language studies. Chichester: Wiley Blackwell.
Qreshat, Jumah Yousif. (2019). The history of loan words in English and its impact on the English Lexicon. In Journal of Critical Reviews. Vol 6, Issue 6, 2019.
Stepanyan, Elina. (2018). A Survey on Loanwords and Borrowings and Their Role in the Reflection of Cultural Values and Democracy Development: the Armenian Paradigm. European Journal of Marketing and Economics, July v. 1, n. 2, p. 77-86.
Weber, A. (2011). Politics of English in the Arabian Gulf. From proceedings of the First International Conference on Foreign Language Teaching and Applied Linguistics, Sarajevo, May 5-7, 60- 66.

The rate and amount of borrowing have always been in direct relation with the factors that motivate borrowings. For example, English borrowing has gone through many periods where the rate and amount of borrowing were not proportioned. These periods are characterized by extensive cultural contact between speakers of English with speakers of other languages. Borrowings during these periods cannot be sharply limited as the percentage can overlap. For example, the influence of Norse on English began in the 8th century A.D. and remained strong even after the Norman Conquest, which resulted in many Norman French loan words.

In the case of English, often the native and imported terms survive as a synonym of the import. Other times their meanings overlap, sometimes they are redeployed and take up different positions in the semantic field of the concept. A well known example is in the field of livestock. The Anglo-Saxons referred to the lamb as sheep while the Normand as mutton. The sociological significance is obvious; the natives herded (sheep-herd) the animals while the invader cooked and consumed them (mouton). This also explains the difference between cattle/beef and pigs/pork.

Sometimes a word migrates from one country to another in an apparently arbitrary fashion. The Old French word "gars/garce" is a migrant of Germanic origin. The feminine "garce" has managed to hold on to the exclusively negative connotations of its original meaning vagabond or servant, whereas the masculine has been promoted to the respectable "garcon" boy, standing in opposition to "fille" girl. Interesting traces of its original meaning survive in examples such as "garçon de café" waiter and "garçon d'écurie" stable boy.

8. Conclusion

The more contacts speakers have, the more words migrate; consequently, the more words a language will acquire. In this era of globalization, many lexical items, especially related to culture, science and technology, have become common to and used by many languages. The process of borrowing is typological, yet the adoption and adaptation of these borrowings undergo several accommodations. Based on exposure and age, some borrowings follow the system of the host language while others retain the characteristics of the source language on different level: syntactical, semantic, phonological, orthographical, and morphological.

The reasons of borrowing internal, relevant to the host language. Borrowings in this case is more to satisfy a need. Lack of lexical items, especially for new concepts, ideas, phenomena, or things, and eliminating polysemy are some of the factors that encourage borrowing. The other reasons for borrowing are referred to as external because they are strongly linked to social, cultural, political, industrial and economic situation of the source language. Prestige, globalization, increased exposure, trade, and avoiding inconveniences are all major external factors that enhance lexical borrowing.

Commonly, internal factors and some external factors, in specific lengthy exposure, prestige, and the attempts to evade language related inconveniences, dictate a unilateral direction of borrowing, usually from profound economic, political, social, cultural and/or industrial language to a weaker one. On the other hand, external factors, especially globalization and trade, call for a reciprocal type of borrowing, where any two languages in contact take words from each other. Reciprocal borrowing and unilateral borrowing can contribute to mediated borrowing, which spreads words even further. Al-Qinai[26] maintained that "a pure language is a poor language."

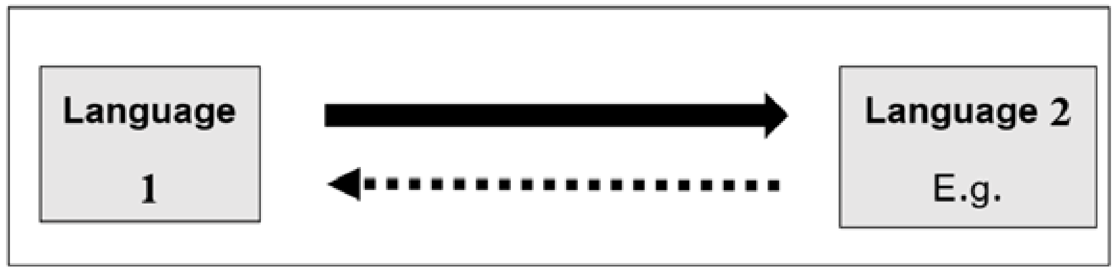


Figure 1. Unilaterality of borrowing

In opposition to the unilaterality of borrowing is the reciprocal borrowing where two languages borrow from each other more or less the same percentage. See Figure 2. At one stage of time, Arabic and Persian linguistic interference manifested itself in the reciprocally borrowed lexicon[24]. In the pre- and early Islamic era, Arabic adopted Persian lexemes in areas related to science, botany and bureaucracy. Later on, in the 9th century AD, the Arabic language invaded the Persian language, in specific Arabic morphological and syntactic features.

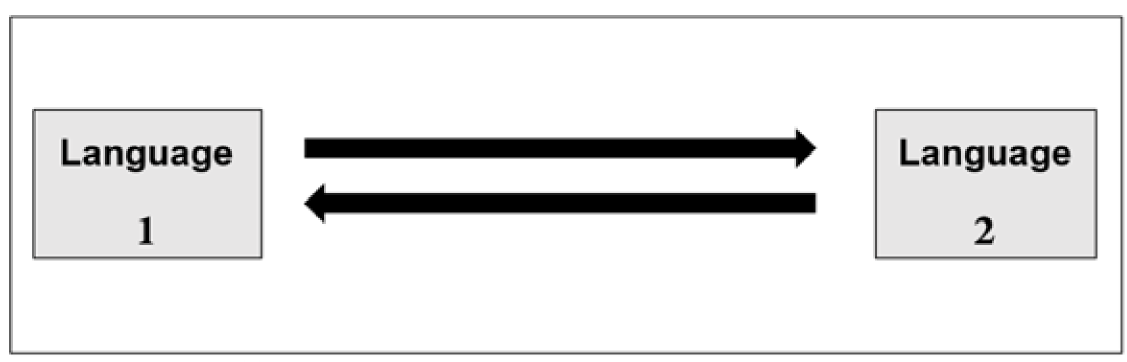


Figure 2. Reciprocal borrowing

Borrowings from one source also undergo other journeys. That is, the same lexical item, that is borrowed from one language, undergoes another process of borrowing. This is the case of many Chinese words that entered English through Japanese as a mediator. See Figure 3. Almost 200 Chinese words out of the estimated 900 borrowed into English entered through the Japanese because of Japan's prominence in international economy[25].

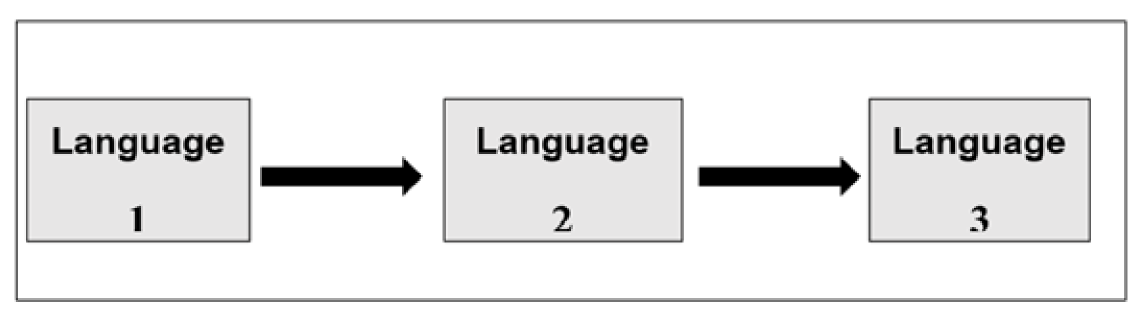


Figure 3. Mediated borrowing

Li na traced the influx of loanwords with Chinese origin into English. In the latter part of 20th century, especially when the People's Republic of China started exchanging with the outside world, and through modern international trade and communication, many words and notions found their way to English. These loan words include one country two systems, one child policy, lose face, Tai-chi, taikonaut, to name a few.

In politics, so many terms and tactics are borrowed globally. One specific example took place in the 2020 presidential debate between Joe Biden and Donald Trump. When Trump was asked about the amount of federal income taxes he paid in 2016 and 2017, he said millions of dollars and we “get to see it” only to be confronted by Biden, the elected president of USA, saying the word inshallah. This loanword from Arabic literally means, “If God wills”; it refers to events that one hopes to happen in the future. It has its religious connotations – nothing happens unless God wills it. Yet, in common practice, inshallah has become associated with procrastination – never getting things done. It is this second sense that Biden evoked upon using this word.

Due to the technological advancement, many terms have evolved. In English, the evolution took two directions: either by means of extension – giving already existing words other semantic dimensions, such as computer, memory and mouse that took on different meanings – or by inventing new lexical item such as bluetooth and hashtag. Other languages borrowed these words either directly or indirectly. Arabic, for example, preferred to borrow the translation of the majority of these words. That is, the word mouse took as well another meaning in Arabic.

Cultural borrowings usually spread especially in this era through food. Since China is popular for its rich food culture, Chinese dishes have entered worldwide cuisine and the names of their dishes are borrowed. Some of the borrowed words appear on the menu of the restaurants: Ramen, ginseng, lychee, etc. In the same direction, many British and American restaurants have borrowed French food names: fromage blanc, entrée, café au lait, pain au chocolat, chowder, etc. Words from Italian cuisine have also found its way into world restaurant menus: calzone, confetti, lasagne, pasta, broccoli, and zucchini. Other types of food that gained international fame are espresso, Sushi, kebab and pizza.

The globalization of markets has had its impact on products and their advertisements. These advertisements usually display the product with its name of origin, which, by time, becomes a load word. German "fahrvergnügen" is an example of a loan word that was being spread through advertisements for Volkswagens some years ago. The term was in use until the advertisements disappeared[22]. Besides, the spread of "Americanisms" has contributed to international vocabulary. Words like iPhone, booklet, bestseller, comics, etc. are used in many languages.

7. Direction of borrowing

In any two languages in contact, lexical borrowings can go in both directions, yet the percentage of borrowing is asymmetrical. That is, more words are borrowed by one language than the other one. Many factors control this process. Usually, the source language has some advantage of dominance in terms of power, culture, or wealth. This is the case with the relationship between Russian and Armenian languages (See Figure 1), which is characterized by its "unilaterality". That is, the process of borrowing words was mainly from Russian into Armenian, and very little in the opposite direction[23].

6.2. Eliminating polysemy

Borrowing also occurs when speakers tend to eliminate polysemy in the host language. That is, the one-term borrowed word replaces a two-term concept to simplify its structure especially if the two terms in the host and source languages serve as nouns of an undifferentiated concept. For example, in Russian, sniper /snaiper/ replaced the use of /metkij strelok/ the 'sharp shooter' and motel /motel/ replaced /gostinica dlya avtoturistov/ 'hotel for campers'[17].

6.3. Avoiding inconveniences

Some languages borrow words despite the existence of the same term to avoid inconveniences. In Korea, the tabooed word /meido/ maid is preferred over the native word / jochuu/ to call upon a person working for a foreign family. The native word is avoided because it carries negative connotations. The same thing for the Korean /hɔstis/, borrowed from English hostess to refer to a lady who worked at a night club[18].

6.4. Prestige

The prestige of the source language is one of the motives that enhance borrowing; "speakers seek a more prestigious variety as a sign of social superiority and education"[19]. Such speakers seek to be labeled as fashionable and up-to-date. For example, Japanese borrowed the English word now in its adjectival form /naui/ to refer to being up-to-the-minute and it is used in many domains, namely fashion and technology. Speakers who tend to use words to mean 'now', but not the borrowed word are marked as of the older generation or as old-fashioned. In the same manner, Okay replaces gut or einverstanden in German and d'accord in French.

6.5. Trade

Trade has always been a great motive to borrow new terms. Trade results in exchange on many levels and especially on the linguistic one. The words /kurkum/ turmeric and /khurasān/ cement are borrowed upon frequent use through trading contact between the Arabs and Persians.

6.6. Exposure

The duration of exposure between two languages identifies the rate of borrowings. For example, the expatriate labor force population in the Gulf makes up over 81% [20]representing a major source of influence to the penetration and adoption of borrowings from English into Arabic. The same influence takes place in Japan. Around 95% of the Japanese study English starting from middle school because a high competency in written English is one of the requirements of many universities. This will lead to the acquisition of English by 85% of the Japanese. This long exposure to English language encourages the borrowing of words and consequently leads to mark the educated class upon incorporating these borrowings[21].

6.7. Globalization

With the rapid process of globalization, lexical borrowing has flourished in areas of politics, technology, science, and culture. It accelerated the process and rate of borrowing. In fact, globalization can satisfy all the aforementioned motives that encourage borrowing.

5.2. Syntactical/Grammatical Level

Some syntactical features are present in the host language, but not the source language. So, loanwords undergo grammatical changes to fit in the host language. For example, grammatical gender, as in French and Arabic, mark words as either masculine or feminine. This is why the English word weekend, when changed into French, takes the default masculine gender le weekend.

5.3. Morphological Level

Besides, in some host languages, borrowed words are morphologically altered by adding suffixes or endings. Armenian suffix [er/ner] which expresses plurality is added to some borrowed English words jeans and boots. They become jeanser and booster respectively[13]. Another example is the French word metre which when integrated into Arabic/meter/, it followed Arabic morphological patterns.

5.4. Orthographical Level

Loanwords have to be adapted orthographically to match the host language; otherwise, they would not be readable. The French word chauffeur was orthographically altered and became chofer when borrowed into Spanish[14]. In some language like Arabic, all loanwords are adapted orthographically to become readable because loanwords are written in the Arabic script.

5.5. Semantic Level

When loanwords enter a host language, they sometimes take on a meaning different from the one in the source language. The word /won/ in Poland has positive connotations and it means "smells nice", but in Russia, it means "stink" despite the fact that Polish and Russian are Slavic, sharing similar grammar, phonology, and vocabulary. The word chaps means a decent person in England while in America, it refers to a pair of leather leggings worn by cowboys to protect their legs. The words republic and republican mean different things in American, in France and in Ireland.

6. Factors that encourage borrowing

Already established languages tend to coin a word instead of borrowing one. Al-Qinai[15] commented that Arabic philologists noticed that Arabic speakers would often rather coin a word before integrating a foreign word. He provided the example of the neologism /midjhar/ for the English word microscope. Despite the fact that a language might have a perfectly fit lexical item for the same concept or can generate a word, it ends sometimes by borrowing. That means there are factors that encourage borrowings.

6.1. Lexical Gap

The major reason for borrowing is to satisfy lexical gaps. When the host language lacks a form, borrowing becomes a necessity[16]. For example, in the scientific domain, words like oxygen, watt, gene, chromosome, and adrenaline are borrowed from the language that invented them to several languages. Usually, lexical gap flourishes with inventions, which results in inventing neologisms.

language was facilitated by the strong tendency to abbreviate words and phrases in the system of the Russian language at that time. These words passed from Russian into Armenian during the years of Soviet power through Russians.

5. Adoption and Adaptation of loanwords

The borrowed words do not generally fit in the host language due to idiosyncratic properties of both languages, which usually lack compatibility. To achieve this process, borrowed words need to be adopted or adapted. Yet, the degree and duration of the process of adaptation vary depending on specific criteria: the age of a loanword, knowledge of the host language speakers of the source language, and their attitude toward the source language. That is, if the source language is well-known, host language speakers may not adapt the word phonologically, nor inflectionally. For example, the English language borrowed from Greek and Latin words as well as their plural forms; phenomenon/phenomena and crisis/crises are some examples.

However, if the number of loanwords is huge, then the need for adaptation decreases. Instead, the host language imports the rules along with the words. A suitable example is German borrowing the plural suffix -s along with words from Low German and English. Later on, this suffix became an integral part of the language and was also extended to non-loanwords[12].

This is why adaptation of borrowed words is sometimes indispensable especially if the word is going to be used by the host language. These words usually undergo some changes on phonological, morphological, orthographical, semantical, and/or syntactical levels.

5.1. Phonological Level

Sometimes, due to the lack of a phoneme in the host language, the borrowed words undergo phonological changes. The Russian language lacks the / ħ/ sound, so Arabic proper nouns are pronounced with /x/ sound instead: Houla is pronounced as /xula/. Russian lacks as well a front rounded vowel, so the pronunciation of some French words like résumé /rezyme/ 'summary' becomes /rezjume/. When the English word virus integrated into Arabic, the /v/ is pronounced as /f/ /fāyrus/ due to the absence of such phoneme in Arabic. The word /quṭun/ 'cotton' gets altered into /kɑtən/ when borrowed into English because English lacks the letter /q/. So, its nearest equivalent, which is /k/, replaces it. Another example is the Arabic /xarūb/ 'carob'. The Arabic voiceless velar fricative /x/ is changed into voiceless velar stop /k/ in accordance with the English sound system.

However, in some cases, phonological changes take place without a verification. Persian /ʃrawīl/ is altered in Arabic and becomes /sarawīl/ pants, Hebrew/Syriac /ʔiʃmāwīl/ becomes /ʔismāʕīl/ in Arabic. So, changing the phonemes /ʃ/ into /s/ and /w/ into /ʕ/, which already exist in the Arabic language, is considered as irregular and lacks verification.

On the other hand, structural borrowing is identified as borrowing a morpheme or a part of a word. Japanese /demoru/ is composed of 'demo' from English demonstrate plus the verbal ending '-ru' because Japanese inflects verbs and adjectives. In modern Russian, words like policeman 'полисмен' and sportsman 'спортсмен' are borrowed from English; that is, the first part of the word is the common meaning of a profession of a person and the second is the common element -man '-мен'[8].

Other cases of borrowing include borrowing the meaning and translating it. The English word almighty most probably follows the Latin model of 'omnipotence'. That is, the components, "omni-" meaning all and "potens" meaning might or powerful, match closely with 'all' and 'mighty', the components of the English word[9]. These two types of borrowings are identified as loanblends and loanshifts respectively. They are also referred to as loan translations or calques. In this study, structural borrowing is not tackled; the focus is limited to analyzing lexical borrowing.

4. A Scenario of the Process of Borrowing

The actual process of borrowing is described as complex as it involves many usage events[10]. Usually, borrowing of nouns, as a part of speech, is the most common type because they are less disruptive to the syntax of the host language. Speakers of the host language know to some extent the source language or, at least, the relevant word. When speaking, these speakers tend to use the new word mostly because it exactly conveys the idea they try to express. They might pronounce the words the same or in a similar way to the source language. When used for the first time, these speakers most probably use it with speakers of the source language. At some point and due to common practice, they come to use the word in the community of the host language. To these speakers, despite the fact that the word may sound 'foreign', they gradually become familiar with it. That is, speakers in the host language would start using the word even when their knowledge of the source language is slight or minor.

These speakers modify it according to the host language linguistic system phonologically, semantically, syntactically, morphologically and even orthographically. The new word gradually becomes part of the conventional ways of speaking. By time, speakers in the host community would not perceive it as a loanword at all; it resembles the native words of the language. Yet, this conventionalization is a gradual process. A suitable example is the word garage. English speakers adopted the word from French with its French pronunciation at first. It is most probable that these first speakers who used the word garage in English knew at least some French, and they must have heard it used in a French-speaking context by French speakers. Later on, the word underwent adoption and adaptation processes. Eventually, it became dealt with as a common word, not a loan.

Once borrowed into a language, the same lexical item can be borrowed in the same process into a third language. Stepanyan[11] gave the example of the Russian language borrowing in the 20th century truncated words from French and German like taxicab and metropolitan, which are in Russian 'metro' and 'taksi' respectively. These words then penetrated in Armenian in the same truncated form. Stepanyan clarified that the integration of such words first into the Russian

2. Theoretical Framework

The study adopts the comparative perspective in tackling lexical borrowings; it goes beyond the descriptive level of identifying loanwords and their histories. The study tends to explain, at least partially, the reasons certain words are borrowed into already established languages that could have made up a new word of its lexical stock. Since lexical borrowing is dealt with as a living entity, the study follows typological analysis, which is "concerned with mapping the diversity of languages and discovering patterns across them through comparative research in various domains"[4].

LeCompte & Preissle[5] described typological analysis as "dividing everything observed into groups or categories on the basis of some canon for disaggregating the whole phenomenon under study". That means that the analysis of data starts by dividing the overall collected data into set categories, generated in this study from theory and research objectives.

3. Types of Borrowings

Lexicogenesis in any language can happen either by internal mechanisms or external ones. Internal processes are word formation procedures, such as blending, clipping, affixation and derivation. On the other hand, external processes result from adding new form-meaning words, lexical borrowing, to a language upon the contact between a source and host language.

In his Loanword Typology project, which is among the first research projects that to address the issue of lexical borrowing typologically, Haspelmath[6] distinguished between material borrowing and structural borrowing, depending on whether the borrowers are native speakers or non-native speakers:

> "Material borrowing refers to borrowing of sound-meaning pairs (generally lexemes, or more precisely lexeme stems, but sometimes just affixes, and occasionally perhaps entire phrases), while structural borrowing refers to the copying of syntactic, morphological or semantic patterns (e.g. word order patterns, case-marking patterns, semantic patterns such as kinship term systems)".

The type of material borrowing that is related to this study is loanwords or lexical borrowings. It takes place by adoption and/or imposition. The borrowing usually takes the whole word with its meaning, which is the most frequent and typical case of borrowing. The words café 'coffee' and kindergarten 'children's garden' are borrowed into English from French and German respectively[7].

Lexical Borrowings across Cultures

Dr. Yousra SABRA
Professor of English Linguistics
Lebanese University

1. Introduction

The metaphor of human migration helps in explaining and understanding migration of words. Humans migrate and immigrate for several purposes, yet they can rarely escape their roots, culture, and psychic, to list a few. On the other hand, their mentality, behavior, and perspective undergo changes. Even when assimilation and integration take place, immigrants retain a percentage of their heritage; the retention remains proportional to the degree of assimilation and/or integration as well as to the duration. Words behave similarly.

This phenomenon has been taking place throughout the entire history of humanity. Due to several situations of human communication, different languages interact and eventually influence each other. This interaction results in certain changes in the lexical stock of those languages. That is, in addition to the native words a language has, its vocabulary contains borrowed ones that enrich the language. Thus, whenever two cultures get in contact with each other over a period of time, contact induced changes occur.

The notion of immigration of words is referred to as borrowings. Hoffer[1] defines borrowing as the process of "importing linguistic items from one linguistic system into another." That is, the abstract noun 'borrowing' involves adopting words from a source/donor language into a host/recipient language. These words are referred to as loanwords. Philip Durkin[2] defines loanwords as the act of borrowing "a word form with its meaning or a component of meaning from one language to another."

The terms, 'loan' and 'borrowing,' are actually used as metaphors. The lending process is not literal; there is no transfer from one language to another. It is not expected that the source language would receive its words back, nor does it lose the items in question. Thus, some researchers[3] suggested different terminologies; the words 'transfer' and 'copy' are used instead. However, since the term 'borrowing' is already established in linguistics, it is adopted here in this study.

Several factors affect the amount of borrowing as well as the rate. Yet, in this current era, lexical borrowings continue even with already established languages that tend to provide accurate terms from their own language stock. These borrowings are sometimes taken wholly and, in other times, they undergo modifications to fit in the host language. It is worth investigating the reasons, the means, and the rate of borrowings nowadays in order to understand the factors affecting this phenomenon.

Puis, Norek comme Montesquieu, semble critiquer les occidentaux et la politique frontalière de l'Europe qui ne respecte pas les libertés fondamentales de l'individu mais aussi qui, à travers une série de mesures, tend à restreindre puis à criminaliser le déplacement d'un peuple tyrannisé (« Les migrants fuient un pays en guerre vers lequel on ne peut décemment pas les renvoyer, mais de l'autre côté, on les empêche d'aller là où ils veulent. C'est une situation de blocage, on va dire ») (Norek, 2018, p.116) à qui l'on refuse même le statut de réfugié. Ces gens en déplacement deviennent des immigrés irréguliers, des « clandestins » ou des « sans-papiers » (« Alors on leur a créé le statut de « refugiés potentiels » […] ça n'existe nulle part ailleurs et dans aucun texte de loi. C'est du fait maison Calais […] si on refuse de les intégrer à la France, ce n'est pas pour les faire rentrer dans le système judiciaire. Mais on ne leur donne pas non plus la qualité complète de réfugiés, sinon, il faudrait s'en occuper. Donc avec cette appellation de réfugiés potentiels, ni on ne les arrête, ni on ne les aide. On les laisse juste moisir tranquilles en espérant qu'ils partiront d'eux-mêmes ») (Norek, 2018, pp.180-181) stigmatisés et criminalisés mais aussi privés de toute sécurité étant donné qu'ils ne possèdent aucun statut, aucune identité (« Non-assistance à personne en danger […] Tous ces migrants-là, c'est comme s'ils fuyaient un assassin en série, qu'ils frappent à notre porte et que nous, on faisait semblant de ne pas entendre ») (Norek, 2018, p.143). Bref, une tyrannie de forme nouvelle montrée par Norek et définie par l'un des personnages de Schmitt cité plus haut : « la dictature, au moins c'est clair, ça joue franc-jeu […] En Occident, c'est plus vicieux : pas de despote mais des administrations bloquées, des règlements plus longs que tous les annuaires téléphoniques, des lois concoctées par des êtres bien intentionnés » (Schmitt, 2008, p.69)

Les migrants sont criminalisés sans être emprisonnés. Qu'est-ce qui est pire encore que la prison ? C'est d'être privé de son droit d'être protégé contre toutes sortes de violence («il avait été tué dans la nuit, vers 3 heures du matin, et déposé ici, à la frontière de la Jungle, pour que la police n'y entre pas ») (Norek, 2018, p.209)

Conclusion :

En conclusion, le polar, qui excelle à tourner la plume dans toutes les plaies, a commencé à s'intéresser au sort des réfugiés et des migrants. Par son engagement, il est lui-même devenu une terre d'accueil pour eux. Les auteurs du policier font donc œuvre d'utilité. Selon Olivier Norek, « le polar est un outil romanesque formidable, qui ferre le lecteur avec du suspense pour le conduire vers une exploration des faits de société, sans jouer les tire-larmes ». Il met toutes les composantes du roman noir : un espace clos, destiné à endiguer la vague d'immigration, un crime commis contre l'humanité, une atmosphère menaçante et oppressante, des anti-héros en quête d'identité et enfin une critique socio-politique du monde. Bref, Le polar a tout pour plaire mais aussi pour sensibiliser à la question des migrants.

Notes :

[1] Claudel, Ph. (2019), L'Archipel du Chien, Paris, Le Livre de Poche.
[2] Norek, O. (2018), Entre deux mondes, Paris, Pocket
[3] Leblanc, M. (1919), L'île aux trente cercueils, Paris, Éditions Pierre Lafitte
[4] Narcejac, B. (1969), DELIRIUM suivi de l'Ile, Paris, Denoël
[5] Schmitt, E-E. (2008), Ulysse from Bagdad, Paris, Éditions Albin Michel
[6] Simenon. G. (2016), Un nouveau dans la ville, Paris, Omnibus
[7] Sayad, A. (1999). La double absence. Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré. Paris : Seuil.

[8] Jouve, V. (1999), La poétique du roman, Paris, Sedes
[9] Voltaire, (1979), Romans et contes, éd. F. Dellofre et J. Van den Heuvel, Paris, Gallimard, Pléiade.
[10] Duchet, C. "La Méthode sociocritique, exemple d'application : le sociogramme de la guerre » dans une conférence à l'Université nationale de Séoul.
[11] Ibid.
[12] Dapsens, S. (2005). Les causes de migration : pistes d'analyse et d'action, Centre Avec

l'auteur met les vérités sur le monde dans la bouche de ses protagonistes. Le Commissaire dit : « Le monde est devenu commerce […] Il n'est plus un champ du savoir. La science a peut-être guidé l'humanité pendant un temps, mais aujourd'hui, seul l'argent importe. Le posséder, le garder, l'acquérir, le faire circuler » (Claudel, 2019, p.187) La preuve c'est que la science ou la connaissance, incarnée par le personnage de l'Instituteur ne parvient pas à triompher de la cupidité (« J'étudie les courants ») (Claudel, 2019, p.77) ; « Je veux comprendre comment les corps de ces hommes ont pu s'échouer sur la plage de l'île. Cela ne correspond à aucune logique […] Je parle de la logique physique » (Claudel, 2019, p.77) : l'Instituteur a été accusé, à tort, de viol, puis séquestré ; il est mort dans sa prison. On l'a fait taire, on a fait taire la voix de la science. Norek, lui, propose avant tout de « penser la guerre » comme le dit Claude Duchet. « La guerre n'est pas un objet littéraire parmi d'autres, c'est une question posée à l'homme que la littérature a à affronter, dont elle doit rendre compte, que la littérature, au sens général du terme, ne peut éviter » , et que la littérature de migration ne peut négliger surtout qu'elle est considérée comme l'une des principales et multiples causes de l'immigration.

Le roman de Norek décrit d'un point de vue européen, français, du point de vue de l'auteur la dictature, l'injustice et la violence que subissent actuellement les Syriens sous le régime de Bacchar El Assad (« Damas- Syrie 2016. Section 215- Military Intelligence (service de renseignement militaire ») (Norek, 2018, p.17) ; Le dernier coup avait fait éclater l'arcade sourcilière sans que les cris de l'homme, nu et ligoté à la chaise, traversent l'épaisseur des murs du sous-sol » (Norek, 2018, p.17). Les Syriens ne sont pas au bout de leur peine parce qu'ils sont pris entre deux feux (« avec les révolutions arabes, un vent de démocratie avait soufflé sur la Syrie […] Mais ce mouvement, aussi noble qu'en soient les causes, fut rapidement réprimé dans le sang de milliers de manifestants, menant le pays dans une guerre civile » (Norek, 2018, p.23). Il peint les villes en ruine, dévastées par la guerre qui a éclaté en 2011 (« Il pensa à Alep […] ses demeures écroulées […] Ses immeubles en ruine à perte de vue […] Ses avenues bordées de voitures brûlées ou explosées et dans ce chaos […] une population terrifiée et résignée qui continuait de vivre comme on joue à la roulette russe ») (Norek, 2018, p.20) Avec le terrorisme et les exactions de toutes sortes, la Syrie est devenue un enfer (« profitant de cette faiblesse, comme un virus dans un corps extenué, l'État islamique enfonça […] les griffes de sa violence et de son obscurantisme. Il y eut dès lors, pour deux bourreaux, une seule et même victime. La dictature de Bachar el-Assad et la folie de Daesh, contre le peuple syrien désarmé ») (Norek, 2018, p.23).

La migration est aujourd'hui d'actualité plus que jamais en raison des conditions socio-politiques ainsi que la multiplication des guerres en des régions comme l'Afrique noire, l'Asie centrale et le Moyen-Orient. Cependant, « dans le sillage des évènements du 11 septembre 2001, certains pays ont encore resserré leurs politiques à l'égard des immigrants, des réfugiés et des demandeurs d'asile » . Ces mesures restrictives ont engendré l'apparition d'un problème grave : l'immigration clandestine.

À travers la présentation des causes du départ des personnages du roman, l'auteur montre que les phénomènes migratoires dépendent en grande partie du non-respect des droits de l'homme et du manque de la démocratie dans les pays d'où viennent les populations migrantes.

ses paysages, son vin, son huile, ses câpres, deviendrait celle sur laquelle viennent s'échouer des cadavres venus d'Afrique ? Nos eaux pures seraient celles dans lesquelles des morts trempent, marinent et pourrissent ? Pensez-vous que ces messieurs seraient encore d'accord pour investir des millions et construire leur complexe ? ») (Claudel, 2019, pp.36-37)

Le Maire propose son île comme un marché de consommation pour assouvir chez les consommateurs leur soif de plaisir appelée aussi l'hédonisme. Et l'hédonisme de nos sociétés modernes est inévitablement imputable au capitalisme, à son exaltation de la consommation et du confort matériel. Dans le roman de Claudel, c'est le Maire qui incarne le capitalisme autant pour sa position sociale- il est en effet la plus haute instance de l'île- que pour sa richesse (« le Maire […] était le plus important patron de pêche de l'île. Il possédait trois bateaux à moteur et les installations de chambres froides où stocker son poisson et celui des dix autres patrons pêcheurs trop pauvres pour en posséder ») (Claudel, 2019, p.16)

Si le lecteur ne s'est pas encore rendu compte que le capitalisme est un système guidé par la seule recherche du profit, que sa logique de fonctionnement est la croissance du capital, qu'il est devenu maître du monde et que ses conséquences se remarquent sur les plans humain, social et même écologique, l'auteur vient lui élargir le champ de vision. Le Maire n'est plus le seul capitaliste du récit mais entrent en scène « des gens qui ont de gros intérêts économiques dont une partie de l'activité s'implante dans le domaine du transport maritime […] [Ils] s'efforcent de s'inscrire dans une activité économique globale » (Claudel, 2019, p.186) et qui prétextant des intentions humanitaires, répondent à des nouvelles demandes du marché nées des bouleversements du monde : en plus du transport maritime des biens de consommation, ils commencent à assurer le transport des humains d'un continent à l'autre. Référence claire à une activité économique illégale qu'on a récemment appelée « le business de la migration » ou « le business des passeurs de migrants », une activité inscrite dans le monde des affaires, du commerce et du capitalisme. Dans ce business-là comme dans tous les autres, les gros poissons mangent les petits (« Ils formaient un État dans l'État, employaient quantité de gens, en éliminaient d'autres qui les gênaient ») (Claudel, 2019, p.189)

Les habitants de l'île, inexpérimentées dans le domaine mais exerçant ce même métier de passeurs par appât du gain, n'échappent pas au châtiment parce qu'ils sont surveillés en permanence. Des images satellite les ont montrés mettant la vie des migrants en danger provoquant parfois leur mort (« Sur le troisième cliché, le nombre de points noirs dans l'eau s'était multiplié par deux ou trois et on n'apercevait plus que deux hommes blancs sur le pont, le pont peint de cette couleur rose tyrien si caractéristique de l'île ») (Claudel, 2019, p.191)

Voltaire oppose le conte philosophique au roman et se prononce sur sa visée : il le veut intéressant, amusant mais surtout moral et philosophique (« Je veux qu'un conte soit fondé sur la vraisemblance […] Je voudrais surtout que, sous le voile de la fable, il laissât entrevoir […] quelque vérité fine qui échappe au vulgaire » . Pourtant, chez Claudel, la parabole policière prend par moments la forme d'un roman noir inscrit dans une réalité précise, dans un univers violent, et possédant un un regard tragique et pessimiste sur le monde. Comme dans les contes de Voltaire,

Dans le roman de Claudel, le discours porte sur le conservatisme social, le capitalisme et le « business de la migration ». L'intrigue répond à l'un des modèles policiers archaïques : l'intrusion d'un ou de plusieurs éléments étrangers dans une communauté quelconque, une intrusion susceptible de déranger l'ordre établi et de menacer la tranquillité de la collectivité. L'auteur se veut conformiste au niveau de la forme. Après l'espace, c'est au niveau de l'intrigue qu'il observe scrupuleusement les codes du genre d'origine. Il semble vouloir placer l'histoire à raconter dans un moule policier dans le seul but de montrer que le racisme et le rejet de l'autre est, pour le moins qu'on puisse dire, un acte criminel. Le récit rend compte des particularismes locaux, des activités professionnelles des iliens, de leurs traditions et de leur culture. Leur refus catégorique de l'autre poussé à l'extrême jusqu'à se transformer en un désir de nier son existence est une représentation hyperbolique de l'intolérance aveugle de certaines communautés, de certains groupes, de certaines sociétés qui se manifeste au contact avec ce qui est diffèrent.

Pour les habitants de l'île, l'apparition des corps des migrants sur l'île est une « erreur » et les faire disparaître sans laisser de traces à la manière d'un crime parfait est une nécessité, les renvoyer au néant d'où ils sont sortis. La façon du Maire de traiter le problème des étrangers en dit long sur la cruauté de sa communauté mais aussi sur son caractère matérialiste : cette société, à l'instar de presque toutes les sociétés modernes, considère que la matière est la seule réalité et ne reconnaît aucune forme de spiritualité. Ici, le matérialisme revêt deux sens : une philosophie qui s'oppose au spiritualisme et selon laquelle il n'existe d'autre substance que la matière, d'une part, et la recherche des jouissances et des biens matériels ou ce qui est connu aujourd'hui par la course à la consommation, d'autre part. Selon Jouve, « Le registre de langue d'un personnage renseigne sur la nature de son rapport au monde et aux autres [...] La dimension stylistique d'un discours, surtout si elle appuie sur des réseaux métaphoriques, éclaire les obsessions du locuteur et son univers imaginaire » .Le discours de l'un des protagonistes, à savoir le Maire, se caractérise par le recours à l'image de la nourriture. La sélection de ce domaine métaphorique reflète l'abrutissement de l'Homme devenu incapable de concevoir une présence en dehors des réalités matérielles ou concrètes et convaincus que cette réalité s'évanouit une fois la matière anéantie et à travers cette sélection se manifeste une vision idéologique qui appréhende les sociétés d'aujourd'hui comme un monde dégradé qui fait prévaloir les satisfactions matérielles sur l'inquiétude spirituelle (« -Les souvenirs. On peut les garder, mais on peut aussi les râper comme un morceau de fromage dans la soupe. Et après, ils n'existent plus [...] – Le fromage, il disparaît. Il fond dans la soupe. Il ne reste que le goût dans la bouche, mais avec un verre de vin, on le chasse. Il n'en reste plus rien ») (Claudel,2019, p.27) C'est pourquoi les morts sont enterrés debout sur l'île « comme les soldats pétrifiés d'une armée anéantie » (Claudel, 2019, p.47) et c'est pourquoi l'homme n'est défini que par des réalités matérielles le reliant au monde, à sa vie sur terre et jamais par son caractère d'humain ni par son âme (« S'ils avaient eu sur eux des papiers d'identité, le problème aurait été diffèrent […] Des papiers d'identité les auraient reliés au monde, à un pays, une administration humaine, une histoire, une famille » (Claudel, 2019, p.48)

Pour le maire, ce qui devrait préoccuper les iliens ce n'est aucunement le souci de remplir un devoir humain et religieux envers leurs frères mais plutôt leur survie sur l'île, la prospérité de leur communauté et de son économie. (« Notre terre qui est fameuse par ses sources d'eau chaude,

perdu son statut social et son métier : il n'est plus policier ni garant de la sécurité. Les mauvaises conditions de vie ont aussi influencé son identité morale (« Il ne serait un héros que pour sa femme et sa fille. D'ici là, il ferait profil bas et bâillonnerait sa morale ») (Norek, 2018, p.128) Voici donc une nouvelle figure de l'enquêteur ici présentée : un gardien de l'ordre déchu, une figure brisée à jamais, qui elle-même sombre dans la peur et dans la folie. D'ailleurs, le prologue du roman est intitulé « Le fou » et que serait la folie si ce n'est une perte totale d'identité, une perte de soi, une rupture avec soi ? Celui qui est démuni de ses rêves, de ses désirs, qui a tout sacrifié pour se trouver un lieu sûr où il puisse vivre est un être presque inexistant. Après la mort de sa femme et de sa fille, le départ de son protégé, après le démantèlement complet de la Jungle en octobre 2016 et donc après avoir perdu toute raison de vivre et d'exister, lui qui coopérait avec la police calaisienne pour empêcher que les crimes ne se produisent et que la violence et le terrorisme ne se propagent dans le camp, Adam est devenu un fantôme, un esprit errant bloqué dans cet endroit qui lui a ôté son âme, hantant la Jungle à tout jamais devenant ainsi la meilleure incarnation de la misère humaine (« Même en plein jour, l'homme restait une silhouette. Un amas de fringues répugnantes et de crasse, les bras plongés dans un charnier qu'il arrêta de fouiller comme s'il avait subitement perdu tout espoir. Il se releva, hagard, et repartit à reculons, machette toujours en main, pour disparaître à nouveau dans la forêt ») (Norek, 2018, p.13)

Tout cela crée un écart entre l'identité acquise au cours du processus de l'immigration et l'identité rêvée au départ. « Comme Socrate, selon Platon, l'immigré est atopos, sans lieu, déplacé, inclassable […] Ni citoyen, ni étranger, ni vraiment du côté du Même, ni totalement du côté de l'Autre, il se situe en ce lieu « bâtard » dont parle aussi Platon, la frontière de l'être et du non-être social » . L'erreur stratégique du personnage de Norek et de tous les migrants de par le monde c'est qu'ils pensent qu'en changeant d'espace, ils peuvent résoudre tous leurs problèmes. Il s'ensuit alors une immense déception mortelle. Adam a fui la Syrie et ses injustices pour se retrouver exploité par la mafia des passeurs puis dépouillé de ses droits en tant qu'être humain par le gouvernement français.

Le discours socio-politique sur le monde d'aujourd'hui : le capitalisme, la guerre, le « business de la migration », la migration clandestine et l'impuissance de la police et des pays d'accueil.

Si l'étude de l'espace, des personnages, de la tonalité et des autres composantes du récit ont permis d'étudier l'espace et l'immigration d'un point de vue humanitaire, cette partie sera réservée au contexte politique qui accompagne ce phénomène et dont les récits vont rendre compte. À travers son écriture, l'écrivain peut amener ses lecteurs à une prise de conscience des problématiques du monde, des « crimes » commis contre l'humanité. Il tient un discours d'actualité et pousse les lecteurs à mesurer la gravité de la situation du monde d'aujourd'hui. En outre, et à travers son roman policier de migration, il souligne l'impuissance de l'institution policière et des appareils sécuritaires face à l'immense vague d'immigration, citons à titre d'exemple son échec dans la limitation du trafic illicite de migrants et son impuissance face aux trafiquants mais aussi le fait que la police est détournée de sa mission principale, de combattre le crime et qu'elle finit par baisser les bras face au désordre et à la cruauté du monde (« Tout le monde ment. La vie est une farce. La scène de tout à l'heure m'a beaucoup amusé […] toute cette saloperie étalée comme ça, sans honte » (Claudel, 2019, p.178)

Les noms des personnages reflètent leur propre vision de l'individu : un être réduit au seul rôle de membre d'une collectivité ou de contributeur à cette communauté.

Tout oppose l'Instituteur aux habitants de l'île : il est jeune, impulsif, émotif (« Malgré son grand corps solide, la force qui se dégageait de sa jeunesse, il avait un peu plus de trente ans, il ressemblait soudain à une créature tout à fait vulnérable ») (Claudel, 2019, p.24), humain ; eux, ils sont âgés, aigris, statues de pierre qui n'ont jamais quitté leur trou, apathiques, résistant aux idées comme aux hommes venus du continent. Leurs deux portraits physique et moral, très repoussants, s'harmonisent pour les décrire comme tels (« Le Maire [...] était d'une maigreur d'anchois, avec un visage sec et jaune et des cheveux gris. Il avait soixante ans. Comme le Docteur, [...] mais celui-ci avait la taille et la forme d'un tonneau. Il était chauve et rouge ») (Claudel, 2019, p.21). Le personnage de « l'enquêteur » est incarné par un inconnu qui débarque sur l'île sans crier gare se faisant passer pour un commissaire. Il correspond parfaitement à l'image du détective privé du roman à énigme, un étranger, extérieur à la sphère sociale où le crime a lieu. Sa description nous fait revenir à l'esprit celle du personnage d'Un nouveau dans la ville de Georges Simenon, auteur belge de romans policiers psychologiques. Un personnage quelconque à tout point de vue (« un inconnu entre deux âges, ni grand ni petit, ni gros ni maigre, ni jeune ni vieux, qui semblait une incarnation parfaite de la banalité ») (Claudel, 2019, p.91) et dont la seule présence fait naître l'hostilité. Il s'agit aussi d'un personnage qui cache sa propre identité au début, solitaire, asocial, hautain, manifestant du mépris à l'égard des hommes, de tous les hommes qui entend devenir le maître des lieux mais qui surtout comme le personnage simenonien est prêt à aller au bout de lui-même (« je n'aime pas être là, de même que je sens je commence à ne pas vous aimer. Au fond, je n'aime pas grand-chose. Je n'aime pas la société. Je n'aime pas mon pays ni mon époque. Je n'aime pas l'espèce humaine pas plus que je n'aime aucune espèce animale ») (Claudel, 2019, p.101) contrairement aux habitants de l'île ne possédant aucunement une profondeur d'âme et ne manifestant nullement le désir ni le besoin de se connaître ou de se découvrir. Ici, la parabole policière se rapproche par moments d'un roman policier psychologique où coupable et enquêteur effectuent un voyage au fond d'eux-mêmes pour sonder le niveau d'humanisme contenu dans leur être. Elle s'apparente aussi parfois à un mauvais roman de police, une parodie du sous-genre où, par ironie du sort, le policier n'est plus un vrai policier, où la police est totalement absente (« L'île ne possédait aucun local de police, et encore moins de cellule ») (Claudel,2019, p.145) et les crimes restent impunis si la Providence n'en décide pas autrement.

La comparaison établie tout au long du roman de Norek entre la vie du policier syrien, devenu un sans-abri, un sans-papier, séparé de sa famille pendant le pénible voyage clandestin et celle du policier français Bastien venu s'installer à Calais avec sa famille est la preuve des travers d'un système où les humains n'ont pas les mêmes chances et les mêmes droits. Quand on naît en Amérique, en Europe, au Japon, on n'a plus besoin de recommencer sa vie tandis que lorsqu'on voit le jour en Afrique ou au Moyen-Orient… (« J'ai aussi rencontré quelqu'un. Un migrant syrien. Un flic, comme moi, mais d'un autre pays. Il n'a plus de nouvelles de sa femme et de sa fille. Il les attend, il les cherche, et quand il m'en a parlé, comme un égoïste, je n'ai pas réussi à penser à autre chose qu'à vous. […] Moi, je vous ai, […] Lui, il n'a plus rien »). Il lui faut recommencer sa vie, voire passer toute sa vie en quête d'une identité perdue. Loin de chez lui, il a

Chez Norek, il s'agit d'un voyage pénible, d'un long parcours jalonné d'obstacles. Un voyage au sens propre et figuré du terme. Un voyage sur les mers ou les océans et un voyage de l'être au fond de lui-même : il s'agit en réalité d'atteindre le fond du gouffre ou même le fond de l'océan si l'on n'a pas la chance de poursuivre la traversée. Les titres des cinq parties du roman de Norek tracent clairement ce voyage intérieur : Fuir, Espérer, Résister, Survivre, Sombrer. En effet, le départ pour un ailleurs incertain s'accompagne de silence, de repli sur soi qui irait jusqu'à l'isolement.

Le roman de Norek, à travers le personnage d'un jeune syrien, appelé Adam, qui fuit son pays pour quitter le chaos et la guerre, dénonce les violences psychologiques et les humiliations faites aux immigrés, mène une insurrection contre les injustices qui privent des êtres humains de leur dignité, les confinent dans un lieu isolé et dans le silence et les dépossèdent de leur identité. Ce roman rend la problématique de l'immigration assez concrète, beaucoup plus concrète que dans le roman allégorique de Claudel, et nous permet d'analyser ce phénomène. Il montre que l'immigration est une véritable déchirure spirituelle, une souffrance individuelle. Le parcours suivi par les personnages incarne le processus de passage de l'illusion à la souffrance. Et ce parcours ne mène nulle part d'ailleurs : comme chez Claudel où les corps n'ont même pas été enterrés pour reposer en paix, chez Norek, les migrants encore en vie mais morts dans l'âme, à défaut d'être sauvés, flottent dans une sorte de purgatoire (« Coincés entre la vie terrestre et la vie céleste. Comme bloqués entre deux mondes […] Des âmes, entre deux mondes » (Norek, 2018, p.116)

Le personnage fuit le pays natal en ruine, dévasté et appauvri par la guerre. C'est un voyageur, un Ulysse, une antonomase par laquelle Éric Emmanuel Schmitt désigne son personnage de nationalité irakienne, contraint de quitter son pays et de vivre ailleurs dans Ulysse from Baghdad . Mais la quête du bonheur, la recherche de l'Eldorado n'est pas facile à mener. Face à l'espoir d'un avenir meilleur, se dressent beaucoup d'obstacles : la difficulté de partir, les dangers de la mer et les mauvaises conditions de voyage.

La misère des personnages : crise existentielle et crise identitaire

Les personnages de Claudel sont dépourvus d'âme, d'humanité et de sensibilité. Ce sont également des anti-héros, des personnages ordinaires portant des valeurs antihéroïques et antisociales, qui ne mènent ni ne croient aux combats dans la vie. Pour eux, le monde des hommes est « le résultat d'aménagements, de compromis et de concessions » (Claudel, 2019, p.78) Ils se moquent de la morale et de l'éthique. Pour eux, les frontières entre le bien et le mal n'existent pas ; « elles ne sont qu'une convention, une invention des hommes, une façon de simplifier ce qui est complexe et de trouver le sommeil » (Claudel, 2019, p.68)

Chez Claudel, le seul « rôle thématique » que les personnages assument est celui qui renvoie aux catégories sociales (l'institutrice de l'île, le maire, le médecin …). Ces personnages sont désignés par le métier ou la fonction qu'ils exercent au sein de leur petite communauté. Ils ne portent pas des noms propres mais plutôt ceux de leurs métiers (« le Spadon, qu'on appelle ainsi car [...] c'est sans doute un des plus fins pêcheurs d'espadon de l'île ») (Claudel, 2019, p.16).

Ce récit de mort est teinté de fantastique, un surnaturel qui traduit le désarroi des coupables, qui les met face à leur propre cruauté, qui anticipe leur châtiment et qui participe de l'atmosphère inquiétante des récits fantastiques : « On vit alors une chose qui parut à tous irréelle et fantastique : un visage mort, d'un noir tirant sur le gris, couvert de cheveux crépus blancs de givre, dont les yeux soudain se mirent à pleurer des larmes de sang que le froid immédiatement figea en de minuscules perles écarlates » (Claudel, 2019, p.45).

D'ailleurs, les personnages ne semblent pas pouvoir échapper à la punition. L'auteur veut que l'île soit une représentation symbolique de l'existence humaine. Elle est trouée de quantité de gouffres et est dominée par un volcan qui s'anime lorsque les habitants s'attirent la colère de Dieu, des dieux, ou des forces occultes même si ces habitants ne croient en rien. Ce volcan recrache, par son cratère, tout ce que les iliens auraient au préalable fait ingérer au sol de l'île. Un système concret qui fait rappeler un concept abstrait, celui du châtiment divin, ou du Karma existant dans toutes les cultures, les religions et les mythologies. Les profondeurs de l'île semblent communiquer avec la surface c'est-à-dire qu'en réalité rien ne disparaît, tout ce que l'on cherche à enfouir dans les profondeurs de la terre finit par remonter à la surface tout comme la punition divine ou les conséquences de ses mauvaises actions auxquels il est difficile d'échapper. Le souvenir des cadavres que les habitants ont jetés dans l'un des gouffres ne hante pas seulement les esprits mais s'abat sur toute la population telle une malédiction (« c'était une odeur de charogne qui prenait ses quartiers sur l'île [...] Il était difficile de ne pas songer aux corps des noyés dans les entrailles du Brau […] Cette pestilence était le premier acte d'une vengeance […] les morts allaient faire payer aux vivants leur indifférence » (Claudel, 2019, pp.153-154); « La terre est morte sous les vomissures incandescentes du Brau » (Claudel, 2019, p.207)

Et si l'on est puni pour le mal qu'on a fait c'est que la frontière entre le bien et le mal est bien tracée. En effet, en plus du concept du châtiment divin, ce conte philosophique véhicule la doctrine manichéiste à travers le personnage de l'Instituteur (« [des] hommes comme l'Instituteur, empêtrés d'idéaux et de bonté, […] qui se persuadent de connaître le juste et l'injuste, le bien et le mal et croient que les frontières entre les deux versants ressemblent au tranchant d'un couteau ») (Claudel, 2019, p.68), doctrine sur laquelle était construit le récit policier classique et en fonction de laquelle un coupable était identifié, emprisonné et exclu de la société. L'auteur du roman reste fidèle à cette construction de base qu'il sublime. Une sublimation digne d'un conte philosophique à portée morale.

Chez Claudel, il est impossible que l'Homme puisse effacer ses péchés tout comme il est impossible pour lui qu'il dissimule son crime. Et même si l'on ne croit pas en Dieu dans le roman, on ne pourra pas échapper au narrateur qui se déclare omniscient (« Je suis celui à qui rien n'échappe. Je vois tout. Je sais tout ») (Claudel, 2019, p.10) ni à la vigilance technologique (« Vous serez sans doute frappé par leur qualité et leur précision. Le fameux œil de Dieu, mais Dieu a des quantités d'yeux de nos jours, toujours ouverts et qui nous regardent sans cesse ») (Claudel, 2019, p.190).

évidente l'idée selon laquelle le crime est inhérent à la nature humaine et qu'il existe depuis que l'Homme a commencé à vivre avec l'autre. C'est pourquoi l'auteur refuse d'ancrer l'action dans un cadre spatio-temporel précis (« Les faits que je vais raconter ont eu lieu hier. Il y a quelques jours. Il y a un an ou deux. [..] J'écris « hier » mais il me semble que je devrais dire « aujourd'hui ». Les hommes n'aiment pas l'hier [...] L'histoire se passe sur une île. Une île quelconque » (Claudel, 2019, p.10) L'atemporalité est du ressort de la parabole et rien n'est plus atemporel que l'intolérance.

La parabole n'occulte pas pour autant l'intrigue policière. L'intolérance, crime moral, n'est pas le seul crime commis. Dans le roman sont perpétrés des crimes plus concrets, plus substantiels dignes d'un récit policier. En effet, le roman de Claudel correspond parfaitement au modèle du roman policier insulaire qui présente un personnage étranger à l'île, victime d'une conspiration qui vise à l'éloigner parce qu'il gène la communauté et perturbe son existence. Il gène la communauté parce qu'il rappelle à ses membres leur devoir d'humain. Tout comme Mainguy, personnage de la nouvelle de Boileau-Narcejac intitulée L'île , L'Instituteur de L'Archipel du Chien est un étranger qu'il faut renvoyer sur le continent. Il est la victime. Ils sont les criminels. Le mobile de la communauté est la préservation de sa stabilité, une constante des romans policiers insulaires. Faire disparaître des cadavres est aussi un crime commis à plusieurs.

Les crimes, le sang et la violence foisonnent dans les récits policiers de migration. Avant d'être victime d'intolérance, le migrant fuyant un pays en état de guerre, est témoin d'un crime contre l'humanité (« Devant lui, […] s'étalaient en rangées ordonnées près de trois cent cadavres à la peau grise, au visage déformé » (Norek, 2018, p.5). Il fuit la torture, la mort et l'injustice qui règnent en maîtres dans les conflits armés.

Un autre crime contre l'humanité, déjà commis par les personnages de Norek, c'est la déshumanisation des migrants, le fait de les considérer comme des sous-hommes détenant moins de droits que les autres, de les exclure de l'humanité. L'intolérance prend la forme de Calaisiens en colère, remplis de haine, d'extrémistes racistes appelés des « casseurs de migrants » qui organisent des « chasses au Noir ». Norek alerte les lecteurs contre ce genre de discrimination et les appelle à corriger leur prise de position à travers le personnage de Bastien, policier censé d'interdire aux migrants tout accès à la mer mais qui finit par aider un jeune soudanais à passer en Angleterre et à s'offrir une nouvelle vie. L'auteur essaie ainsi de propager des idées humanistes concernant la solidarité.

Le tragique : fatalisme et atmosphère funeste

Chez Claudel, la nature, le climat et le temps qu'il fait sur l'île depuis la découverte des cadavres sont tout aussi hostiles que les personnages qui l'habitent. « Le temps était à la pluie. Fine encore, légère et froide, et la mer poussait des vagues mauvaises courtes mais tendues qui se broyaient sur la grève en une écume sale » (Claudel, 2019, p.16)

« Le plafond de nuages s'était encore abaissé » (Claudel, 2019, p.24)

« La lumière s'était éteinte dans le jour qui semble-t-il se refusait à naître » (Claudel, 2019, p.62)

Chez Norek, le lieu principal de l'action n'est pas moins lugubre, bien au contraire il évoque la mort (« Le long de la côte, à l'écart du centre-ville, entre une forêt et les dunes, il y avait un ancien cimetière […] L'État a fait place nette […] et on a invité les migrants à s'y installer […] La Jungle était née » (Norek, 2018, p.89). Il est appelé la Jungle par les migrants eux-mêmes parce qu'aucune loi ne régit cet endroit situé aux confins du monde. C'est un endroit non habitable, sale où l'on endure la faim, la pauvreté, la violence, l'humiliation, le racisme et surtout le déchirement identitaire (« C'est à la fois une zone de non-droit et un bidonville » (Norek, 2018, p.94). En effet, l'espace dans le roman de Norek n'est plus synonyme d'identité ou d'appartenance parce que le sans-papier n'appartient à aucune nation, ni au pays qu'il a fui, ni au pays auquel il rêve d'accéder encore moins au pays qu'il traverse, en l'occurrence la France. L'intégration, ce processus qui lui permet de passer de l'artérite la plus radicale à l'identité la plus totale, lui étant refusée, il se retrouve enfermé entre deux mondes, étranger partout. Le migrant perd son identité sociale mais également son identité personnelle.

Par ailleurs, la Jungle, de par son caractère dangereux, répond aussi bien aux critères de l'espace d'un récit policier qu'à ceux d'un récit de migration. C'est une scène de crime et de violence par excellence « Comme tous les soirs, à la faveur de l'obscurité. Règlements de comptes et punitions, vols et agressions sans que personne n'intervienne » (Norek, 2018, p.137). En effet, c'est un univers où la peur règne en maître, où chacun est suspect, celui qui porte un uniforme et celui qui n'en porte pas. C'est un endroit où l'on risque de se faire tuer physiquement et moralement (« -Il te faudra une machette aussi. Tout le monde en a une, ou un couteau. Pour couper le bois, la corde et on me sait jamais, pour te défendre ») (Norek, 2018, p.133)

Le double crime : intolérance et violence

« Roman policier tout autant que conte philosophique » voilà comment l'on décrit le roman de Claudel sur la quatrième de couverture. Cette définition évoque la dualité du récit en question. Le roman s'ouvre sur un réquisitoire, un discours d'accusation ou d'incrimination. Le narrateur y fait le procès de l'Homme: il énumère, en les accumulant, les fautes, les torts et les crimes de l'accusé pour prouver sa culpabilité (« Vous souillez la beauté, flétrissez l'innocence [...] Votre égoïsme vous engraisse. Vous tournez le dos à vos frères et vous perdez votre âme » (Claudel, 2019, p.9). Une accusation est lancée contre les lecteurs, tous les lecteurs (« Vous vous ressemblez tant, sortis du même inaltérable moule » (Claudel, 2019, p.9) et le crime commis est un crime contre l'Humanité, le crime de fermer l'œil sur les atrocités commises contre l'Autre (« vous n'avez pas voulu croire. Vous ne voulez jamais voir ») (Claudel, 2019, p.10) Le pacte de lecture est noué d'emblée. Le lecteur est impliqué dans l'histoire, il en est même un personnage. Il ne s'attend plus seulement à lire une histoire mais aussi à subir un procès. L'engagement de l'auteur n'est plus discutable.

L'histoire racontée est réelle ou réaliste (« L'histoire qu'on va lire est aussi réelle que vous pouvez l'être » (Claudel, 2019, p.9). Crime et réquisitoire voici comment l'auteur établit un lien entre le genre policier et le conte philosophique à visée morale et comment il fait de l'histoire d'un crime une réalité et du récit policier un récit réaliste, c'est-à-dire un récit qui dit le réel, la réalité de l'immigration aussi cruelle qu'elle soit. La coexistence de ces deux formes de récit rend

L'île est associée à l'enfer (« Le vin de l'île [...] est fils des ténèbres et du ventre de la terre [...] le gouffre sans fond de l'envers du monde » (Claudel, 2019, pp.12-13). Il s'agit là d'une référence claire à la mythologie grecque et à la fatalité : l'homme est victime de son sort, un sort décidé par les dieux. Et ici, dans le roman, le sort de l'homme prend la forme de la terre natale : l'homme porte alors son identité comme une bénédiction ou une malédiction (« Les vieux avaient coutume de dire en le buvant qu'ils tétaient en même temps le sein d'Aphrodite et celui d'Hadès » (Claudel, 2019, p.13). La terre d'origine peut être source de malheur (« cet endroit isolé qu'on dirait arraché à un pays du nord, de Scandinavie ou d'Islande, et jeté là comme pour faire mal à l'âme » (Claudel, 2019, p.15). L'île est austère et elle manifeste de la cruauté envers ses habitants (« On l'appelle la plage, faute de mieux, même si personne ne peut s'y baigner en raison des écueils et des courants, ni s'y étendre car elle est faite de galets volcaniques, râpeux et blessants » (Claudel, 2019, p.15). La description de l'espace dans le roman de Claudel et son influence non seulement sur le mode de vie des personnages mais aussi sur leur comportement, leur attitude, leur personnalité et leurs valeurs se rapproche d'une étude anthropologique et sociologique (« La Vieille, c'est l'ancienne institutrice [...] Elle est née ici et elle y mourra. On ne l'a jamais vue sourire ») (Claudel, 2019, p.15).

En plus de sa portée symbolique, l'espace de L'Archipel du Chien remplit la fonction de cadre de l'action. Dans le roman policier d'immigration de Claudel, le choix de l'île est doublement réussi : d'une part parce que l'île demeure le cadre privilégié du récit policier traditionnel qui fait l'éloge du crime en milieu confiné, d'autre part parce qu'étant un espace aux confins bien dessinés, elle représente ainsi tout pays ou tout territoire délimité par des frontières, régi par un système social, politique et judiciaire donc le cadre idéal pour un récit de migration qui vise essentiellement à montrer et à étudier d'un point de vue sociopolitique les conséquences de l'intégration difficile d'étrangers dans un système déjà établi et à faire la lumière sur la réalité crue du processus d'intégration dans les terres d'accueil.

Le principe du huis clos adopté par l'auteur connote et renforce l'idée de l'isolement et de ses conséquences: le refus de l'autre, la discrimination et le racisme. L'île choisie comme cadre de l'action est une île rude, cadre archétypal de la littérature policière classique. Elle fait revenir à la mémoire des fervents lecteurs de policier l'île imaginaire de Sarek, cadre du roman L'île aux trente cercueils de Maurice Leblanc. L'île rude est le plus souvent entourée d'une mer agressive, battue par les vents, entourée de récifs dangereux. Ses habitants sont majoritairement des pêcheurs (« Ici on est paysan ou pêcheur » (Claudel, 2019, p.12), une population déshéritée abandonnée par le continent (« L'histoire se passe sur une île [...] Guère éloignée du pays dont elle dépend mais qui en est oubliée, et proche d'un autre continent que celui auquel elle appartient, mais qu'elle ignore » (Claudel, 2019, p.10) avec un fort sentiment d'appartenance entraînant le rejet de tout étranger (« Inhumer ces trois corps dans notre cimetière n'a aucun sens. Déjà parce que ces hommes ne faisaient pas partie de notre communauté » (Claudel, 2019, p.49) ; « l'Instituteur n'était pas d'ici. Qu'il n'était pas né sur l'île. Qu'il n'était pas comme eux. Il n'y avait qu'à l'écouter ou le regarder. C'était le meilleur argument en somme, celui de la naissance, de la communauté, des origines. C'est avec cela que les civilisations se sont construites et fortifiées » (Claudel, 2019, p.71). Les assassins en sont le plus souvent originaires (« « parmi cette communauté vivaient aussi [...] des meurtriers » (Claudel, 2019, p.209).

Mais aussi comment ces deux romans explicitent-ils et définissent-ils le rapport entre l'institution policière, les instances des pays d'accueil et les immigrants ? Est-ce un rapport d'hommes à leurs égaux ? Ou bien est-ce un rapport de force inégal ? Bref, comment ces deux récits policiers appréhendent-ils, au moyen des composantes du genre, la situation des migrants ? Dans L'Archipel du chien, est racontée l'histoire de trois cadavres de migrants africains noirs échoués sur la plage d'une île tranquille de population blanche située entre l'Europe et l'Afrique. Les crimes se multiplient puisque la culpabilité des habitants ne se limite pas à leur besoin pressant d'occulter la présence de ces corps étrangers et fétides qui met en danger le projet de la station thermale et qui menace leur survie mais elle s'étend également à leur activité illégale et clandestine d'assurer la traversée des migrants d'un continent à l'autre. L'auteur du roman dénonce l'intolérance et la cruauté du monde vis-à-vis des migrants fuyant la guerre ou la famine dans leurs terres d'origine.

Dans Entre deux mondes, Olivier Norek met en scène un policier syrien qui a fui la misère de son pays, a perdu sa famille et s'est enfin retrouvé dans un camp de réfugiés au sein de « la jungle de Calais ». Pendant son séjour infernal dans cette jungle située entre deux mondes, ce migrant lutte contre la violence et sauve un enfant dans cette zone d'insécurité et de non-droit.

La scène de crime

Des titres tels « L'Archipel du Chien » et « Entre deux mondes » mettent en avant l'espace par rapport à d'autres éléments constitutifs du récit. Intimement lié au déplacement et à l'immigration, l'espace, terre de départ et terre d'arrivée est élevé au rang de thème dans la littérature policière migrante vu toute la symbolique qui lui est attribuée. « mondes » et « archipel » contenus dans les titres sont des termes relevant du domaine géographique et promettant au lecteur un voyage à travers le monde et les océans.

Dans cette littérature, l'espace est d'une part un lieu de confinement propice au crime comme dans les romans à énigme, d'autre part, une métaphore de l'identité ou de l'altérité.

Dans l'Archipel du Chien, l'espace est mythique : la terre d'origine est un héritage lourd à porter et un facteur d'isolement et d'enfermement. L'île où se déroule l'action est un espace imaginaire et symbolique : il n'est pas ancré dans la réalité ni dans le temps. C'est un espace tranquille, peu édénique, plutôt macabre et menaçant. Il ne présente pas le charme exotique des espaces des contes philosophiques du XVIIIe siècle (« Quand on observe cet archipel sur les cartes, on ne peut de prime abord remarquer le Chien [...] Le Chien surgissait soudain [...] Il en va de lui comme de certains êtres dont on ne devine pas la vraie nature quand on commence à les fréquenter, et qui un jour vous sautent à la gorge » (Claudel, 2019, p.10). Le temps qu'il fait dans ce coin du monde est âpre (« Le Chien crache des saisons inhumaines. L'été assèche les hommes et les terrasse. L'hiver les transit » (Claudel, 2019, p.12). Les habitants subissent l'espace où ils naissent et évoluent aussi bien que le climat qui y règne comme une fatalité. Cette terre d'origine peut même les aliéner (« Leurs maisons ont fait le tour du monde [...] Dans les magazines [...] Cela les a fait rire, avant de les contrarier [...] Elles sont dures avec eux. Inconfortables. Sombres et rugueuses [...] Elles les encerclent et les oppressent. Ils ont fini par leur ressembler » (Claudel, 2019, p.12)

L'immigration, délivrance ou violence? dans la littérature policière de migration

L'Archipel du chien de Philippe Claudel et Entre deux mondes d'Olivier Norek

Eliane Saadé
Doctorante
Université Libanaise

Introduction

La migration est le défi du XXIe siècle : ils sont des centaines de milliers à fuir leur pays à cause de la guerre, de la pauvreté, des catastrophes climatiques et à chercher refuge ailleurs.

Les études sur la migration (migration studies) couvrent une panoplie de modes d'approches puisqu'une entraide interdisciplinaire s'impose afin de mieux saisir les processus migratoires dans leurs phases, leur forme et leur contenu. Et la littérature se réserve aussi une place dans les études de ce processus de déplacement : elle est envisagée comme un instrument empirique pour décrire le monde de la migration. Elle prend le nom de « littérature de migration » ; c'est une littérature par le migrant, pour le migrant et sur la figure du migrant et son processus migratoire.

Le phénomène de la migration a depuis toujours marqué la littérature mais ses traces se font de plus en plus visibles parce que l'immigration de masse, bien qu'elle constitue un pas vers l'inter culturalité et l'enrichissement mutuel, semble être lourde de conséquences tout autant sur l'individu que sur l'humanité du fait des bouleversements qu'elle crée et du changement démographique, ethnique, religieux et autre qu'elle engendre dans la constitution des sociétés. La littérature se charge donc d'exprimer tout le chaos provoqué par ce déplacement qu'il soit volontaire ou forcé, tout le mal qui se produit au cours de ce processus : le détachement, le dépaysement, l'exclusion, la discrimination, la difficulté d'intégration… la liste des problèmes risque en fait d'être longue.
Le polar ne pouvait ignorer la question des migrants. En effet, le caractère sécuritaire ou même judiciaire du problème de l'immigration, rend ainsi tout à fait légitime l'incursion du genre policier dans la situation problématique des migrants. De plus, l'immigration emprunte au roman policier puisque son intrigue repose sur un déplacement conçu comme un système mafieux.

Dans la présente intervention, nous allons rapporter le résultat d'une étude réalisée sur les romans noirs récemment publiés, L'Archipel du Chien de Philippe Claudel et Entre deux mondes d'Olivier Norek qui traitent de la question de la migration. Nous tenterons de répondre aux questions suivantes : Quelle est la principale cause de la migration ? D'où vient le phénomène de la migration clandestine ? Quel est son impact sur la vie des refugiés ? Comment cet effet socio-psychologique est-il présenté à travers un récit policier ? Quel rapport entretiennent les deux auteurs avec ce phénomène clé de leur temps ?

References

Abdelhady, D. (2011). The Lebanese Diaspora: The Arab Immigrant Experience in Montreal, New York, and Paris.
Abdelhady, D. (2014). The Sociopolitical History of Arabs in the United States: Assimilation, Ethnicity, and Global Citizenship. In S. C. Nassar-McMillan, K. J. Ajrouch, & J. Hakim-Larson (Eds.), Biopsychosocial Perspectives on Arab Americans: Culture, Development, and Health (pp. 17-43).
Acheraïou, Amar. (2011). Questioning Hybridity, Postcolonialism and Globalization. Retrieved from https://b-ok.asia/s/questioning%20hybridity
Ackerman, A. (2012). Cultural Hybridity: Between Metaphor and Empiricism. In P. W. Stockhammer (Ed.), Conceptualizing Cultural Hybridization: A Transdisciplinary Approach (pp.5-42).
Ajrouch, Kristine J. (2000). Place, Age and Culture: Community Living and Ethnic Identity Among Lebanese American Adolescents. Small Group Research. 31 (4). 447-469. Retrieved from https://booksc.org/book/45345248/0e6762
Alt, S. M. (2006). The Power of Diversity: The Roles of Migration and Hybridity in Cultural Change. In B.M. Butler & P. D. Welch (Eds.), Leadership and Polity in Mississippian Society.(pp. 289-308). Retrieved from https://www.academia.edu/25025133/4._The_Power_of_Diversity_The_Roles_of_Migration_and_Hybridity_in_Culture_Change
Artigas, M., Glick, T. F., & Martínez, R. A. (2006). Negotiating Darwin: The Vatican Confronts Evolution 1877-1902.
Ashcroft, B., Griffiths, G., & Tiffin, H. (2000). Post-Colonial Studies: The Key Concepts, 2nd ed. Retrieved from https://b-ok.asia/book/734163/61d846
Bivan, A. D., Iwoketok, U. E., & Agye, Z. (2017). Hybridity and Ambivalence: The Consequence of the Diaspora Compromise. Diaspora Studies.1-13. DOI:10.1080/09739572.2017.1331608
Crapanzano, V. (2010). Preface. In P. Tabar & J. Skulte-Ouaiss (Eds.), Politics, Culture and the Lebanese Diaspora (pp.ix-xiii).
Cuninghame, P.G. (2008). Hybrid Identities: Theoretical Examinations. In Keri.E. Iyall Smith & P. Leavy (Eds.), Hybrid Identities: Theoretical and Empirical Examinations. (pp. 13-40). Retrieved from
Dear, M. & Burridge A. (2005). Cultural Integration and Hybridization at the United States-Mexico Borderlands. Cahier de Géographie du Guébec, 49(138), 301-318. Retrieved from https://www.erudit.org/en/journals/cgq/2005-v49-n138-cgq1092/012559ar.pdf
Hutnyk, J. (2005). Hybridity. Ethnic and Racial Studies, 28(1), 79-102. Retrieved from https://www.researchgate.net/publication/238399750_Hybridity
Hyndman-Rizik, N. (2010). On Being Honkey-Lebanese: The Inter-Racial and Inter-Cultural Experience of 3rd and 4th Generation Lebanese Americans. In P. Tabar & J. Skulte-Ouaiss (Eds.), Politics, Culture and the Lebanese Diaspora (pp.2-21).
Iyall Smith, K. E. (2008). Hybrid Identities: Theoretical Examinations. In Keri.E. Iyall Smith & P. Leavy (Eds.), Hybrid Identities: Theoretical and Empirical Examinations. (pp. 3-11). Retrieved from
Kraidy, M. M. (2005). Hybridity, or the Cultural Logic of Globalization. Retrieved from https://library.oapen.org/bitstream/id/652690df-3c7b-464f-9f55-2273f55f5c54/626979.pdf
Marotta, V. P. (2008). The Hybrid Self and the Ambivalence of Boundaries. Social Identities. 14(3), 295-312. Retrieved from https://www.researchgate.net/publication/248991299_The_hybrid_self_and_the_ambivalence_of_boundaries
Pieterse, J.N. (2001). Hybridity, so what? Theory, Culture and Society. 18(2). 2-27. DOI: 10.1177/02632760122051715
Pindi, G. N. (2017). Hybridity and Identity Performance in Diasporic Context: An Autoethnographic Journey of the Self Across Cultures. Cultural Studies Critical Methodologies.8(1). 23-31. Retrieved from https://booksc.xyz/book/67963628/588898
Rowe,A. (2010). Heritage Projects in the Lebanese Diaspora. In P. Tabar & J. Skulte-Ouaiss (Eds.). Politics, Culture and the Lebanese Diaspora (pp.39-54).
Truzzi, Oswaldo M. S. (1997). The Right Place at the Right Time: Syrians and Lebanese in Brazil and the United States, a Comparative Approach. Journal of American Ethnic History. 2 (16). 3-34.
Wagner, C. (2016). Migration and the Creation of Hybrid Identity: Chances and Challenges. Harvard Square Symposium: The Phenomenon of Migration. 237-255. Retrieved from http://rais.education/wp-content/uploads/2017/09/16.pdf

59 V.P. Marotta, 2008, p. 305
60 K. E Iyall Smith , 2008
61 Vordermeyer ,2012, cited in C. Wagner, 2016
62 cited in C. Wagner 2016, p. 245
63 C. Wagner, 2016, p. 246
64 cited in C. Wagner, 2016
65 A.D Bivan, U.E Iwoketok, & Z Agye, 2017
66 J. Hutnyk 2005, p. 85
67 C. Wagner, 2016, p.242
68 Amar Acheraïou , 2011, p. 95
69 V.P. Marotta, 2008
70 cited in V. P .Marotta, 2008, p. 299
71 Park , 1928, cited in V.P. Marotta, 2008, p. 305
72 V.P. Marotta, 2008, p.305
73 V.P. Marotta, 2008, p. 306
74 V. Crapanzano, 2010, p. vi
75 C. Wagner, 2016, p. 249
76 J. Hutnyk 2005, p. 92
77 cited in J. N. Pieterse , 2001, p. 3
78 D. Abdelhady, 2014, p. 19
79 D. Abdelhady, 2014, p.20
80 cited in D. Abdelhady, 2014, p.23
81 D. Abdelhady, 2014, p. 22
82 cited in D. Abdelhady, 2011, p. 4
83 Oswaldo M. S. Truzzi, 1997, p. 8
84 cited in D. Abdelhady, 2014, p. 24
85 cited in D. Abdelhady, 2014
86 D. Abdelhady, 2014, p. 36
87 D. Abdelhady, 2011
88 D. Abdelhady, 2011, p.19
89 V. Crapanzano, 2010, p. vi
90 V. Crapanzano, 2010, p.xii
91 D. Abdelhady, 2004, cited in N. Hyndman-Rizik, 2010, p. 12
92 N. Hyndman-Rizik, 2010, p. 16
93 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.9
94 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.10
95 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.11
96 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.12
97 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.13
98 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.15
99 N. Hyndman-Rizik, 2010, p.16
100 A. Rowe, 2010, p. 40
101 A. Rowe, 2010, p. 51
102 D. Abdelhady, 2011, p.97
103 D. Abdelhady, 2011, p.89
104 D. Abdelhady, 2011, p.41
105 D. Abdelhady, 2011, p.80
106 Kristine J. Ajrouch, 2000, p.457
107 D. Abdelhady, 2011, p.60
108 D. Abdelhady, 2011, p.61
109 D. Abdelhady, 2011, p.66
110 D. Abdelhady, 2011, p.62
111 D. Abdelhady, 2011, p.65
112 Krisitine J. Ajrouch, 2000, p. 454
113 Cited in D. Abdelhady, 2011, p.20
114 D. Abdelhady, 2011, p.97

1 cited in V. P. Marotta, 2008, p. 295
2 Amar Acheraïou, 2011
3 M. Artigas, T.F Glick & R.A Martinéz, 2006
4 A. Ackerman, 2012, p. 7
5 J. N. Pieterse, 2001, p. 8
6 V. P Marotta, 2008, p. 295
7 Amar Acheraïou, 2001, p. 88
8 cited in M.M Kraidy, 2005, p. 49
9 M.M Kraidy, 2005, p. 48
10 M.M Kraidy, 2005, p. 49
11 Amar Acheraïou, 2011, p. 89
12 A. Ackerman, 2012, p. 11
13 B. Ashcroft, G. Griffiths, & H. Tiffin, 2000
14 Amar Acheraïou, 2011, p. 89
15 V. P. Marotta 2008, p. 295
16 M. Dear & A. Burridge, 2005, p. 303
17 M.M Kraidy, 2005, p. vi
18 M.M Kraidy, 2005, p. 1
19 J. N. Pieterse, 2001, p. 2
20 A. Ackerman, 2012 p. 6
21 A. Ackerman, 2012
22 A. Ackerman ,2012, p.12
23 A. Ackerman, 2012, p.12
24 V. P. Marotta, 2008, p. 296
25 K. E. Iyall Smith, 2008, p. 8
26 K. E Iyall Smith, 2008, p. 6
27 K. E Iyall Smith, 2008, p. 8
28 K. E Iyall Smith, 2008, p. 6
29 K. E Iyall Smith, 2008, p. 9
30 P. G. Cuninghame, 2008, p. 16
31 P.G. Cuninghame, 2008, p.17
32 P. G. Cuninghame, 2008, p.19
33 Keupp, 2012, cited in C. Wagner, 2016, p. 238
34 Arjun Appadurai (1990), cited in M. Dear & A. Burridge, 2005, p.304)
35 Dear & Burridge, 2005, p. 304
36 Dear & Burridge, 2005, p. 305
37 Amar Acheraïou, 2011, p. 90
38 Bhabha , 2004, cited in Alt, 2006, p. 29
39 S. M. Alt, 2006, p. 289
40 Vordermeyer , 2012, cited in C. Wagner, 2016
41 Han, 2005, cited in C. Wagner , 2016
42 cited in M. Dear & A. Burridge, 2005, p. 303
43 M. Dear & A. Burridge , 2005, p. 303
44 M. Dear & A. Burridge, 2005, p. 304
45 Alt, 2006, p.291
46 G. N. Pindi, 2017, p. 24
47 M.M Kraidy, 2005, p. 10
48 V.P. Marotta, 2008, p. 306
49 M. Dear and A. Burridge, 2005, p. 304
50 M.M Kraidy, 2005, p.48
51 V.P. Marotta, 2008
52 cited in V.P. Marotta, 2008, p. 297
53 V.P. Marotta, 2008, p. 298
54 V.P. Marotta, 2008, p. 298
55 Sakamoto 1996, cited in V.P. Marotta, 2008, p. 302
56 V.P. Marotta, 2008, p.302
57 V.P. Marotta, 2008, p. 305
58 V.P. Marotta, 2008, p. 306

As a particular example, Abdelhady narrates the experience of Khaled, a Lebanese whom she interviews seven years after he moves to The United States. She expounds how this immigrant identifies himself with neither the American society nor the Lebanese one. He refuses to be categorized in any of these molds because he understands it as his "social and cultural death"[111]. This provides insight into the self-satisfaction concerning the different identity the Lebanese enjoy. Having a unique identity, even if an in-between one, is favorable. The mixed identity that is not fully American and not perfectly Lebanese is life to these people, not a hurdle or a source of anxiety.

Finally, a look at differences in identity formation between males and females of Lebanese Americans seems a must. In her study, Ajrouch finds that the adoption of Lebanese ways varies between male and female adolescents. While males are less restrained and enjoy more freedom and detachment from family and community, the females are kept under restrictions similar to the ones enforced in the homeland. The females are raised this way so as to preserve the traditions and the Arab identity, whereas males are more "acculturated"[112]. Arab women—a category that includes Lebanese women—are also represented in American media as "oppressed or totally absent" . Such portrayals exacerbate the "stigmatization of Arab communities" as Naber contends[113]. Abdelhady also notices a difference in sense of home and identity between the genders among the Lebanese immigrants. Particularly, the women resort to their own dwellings to gain the feeling of belonging to a home, whereas the males find this in communal events[114]. This pours back to the upbringing they are given, for the males are given more free space, and their identity is not formed by closed spaces. On the other hand, the females, being reared in a more traditional way that preserves Lebanese/ Arab customs, are bounded by the home environment – a fact that ultimately shapes their identity. They appear more Lebanese or Arab than the males.

Conclusion

Hybridity is an elusive term. To various people in separate places and distinct sorts of boundaries, it may be a source of contentment, confusion, loss or alienation. It seems, however, that ambivalence is the word that describes it all, whether related to the meanings of hybridity or to its impacts that leave the subjects—particularly the immigrants—in a status that is replete with ambiguity and indecision. They may develop a desire to belong to the host country, yet spiritually they are bound to their native lands, even when they are as far in time as three or four generations away. The Lebanese Americans exemplify this disturbed condition at its best. They aspire both to belong to American society and to remain attached to their Lebanese roots—a past they take pride in and are incapable of sending into oblivion. These Lebanese hybrids thriving in the American context are even satisfied that they belong to this in-between territory and that they enjoy an ambivalent status of identity. It is their life. It has become an identity unique to them, an identity they seem reluctant to give up.

Currently, Abdelhady explains that regardless of their refraining from religious affinity, Lebanese immigrants in America continue to participate in Lebanese religious gatherings and observe religious occasions so as to be "reminded" of their roots[102]. Organizing groups and societies that gather the Lebasese persists today, verifying that there is still some need to hold activities that help preserve their "collective memory and knowledge of Lebanon's traditions and heritage". It is clear that such attempts are pathways to build up solidarity among these people and to foster "communal belonging"[103]. Abdelhady narrates a particular personal experience of an invitation she has to a hafle in 2001—one organized by a Lebanese acquaintance of hers. Abdelhady describes the mood of "ethnic pride" that exudes this social occasion[104]. Nevertheless, Abdelhady is adamant about the shortage of coherence these immigrants suffer – in comparison with the lives of those who favor "unitary ethnic identities"[105].

A study conducted by Ajrouch (2000), based on interviews with adolescent Lebanese males and females in the United States, focuses on ties with the native country, identity, family bonds, etc … It is noticeable that the respondents in the interviews use the terms Boater and White. The adolescents affirm their cognizance of the terms, stating that a Boater refers to the immigrant who is still unable to adopt the American cultural habits. On the other hand, they look at the White as a term incorporating both positive and negative implications. Positively speaking, a White has "access to education and privilege" while on the other extreme showing a "lack of sense of obligation, commitment or responsibility". The respondents remarkably assert that they neither belong to the positive nor to the negative "but somewhere in between". Noteworthy here is the fact that these respondents also live in ethnic societies within the United States and adopt Lebanese and Arab customs, some of which being shunning dating, eating halal food and observing Ramadan[106]. All the while, however, the adolescents refuse to be called Boaters, which means they do want to attain the American customs. Nevertheless, their interviews have unveiled indecision. They hesitate as to their desire to join White category or not — quite indicative that they are hedging in the inclination to be Lebanese or American. They are reluctant to be fully white while simultaneously shunning the classification of Boater. This is where hybridity plays. It leaves its marks even on the younger generation. They are thrown somewhere they cannot identify the boundaries. That cannot be sure, and this hesitation about belonging to one place or another, to America or to Lebanon remains kindled, even in the generation born on American lands.

Nevertheless, the experience of the American Lebanese at times appears satisfactory—even if only at the individual level. Abdelhady in this light reveals the fact that a large group of the immigrants interviewed in her research remark that their understanding of their social position is both "multiple" and "contradictory"—what they call a "transcultural narrative" that is equivalent to "mixing of different identities and cultural repertoires[107]. Such immigrants seem proud of their position, for they see it as "enriching", "unique"[108], "desirable", and even "liberating"[109]. Interestingly, these immigrants attribute their attitude to the multicultural and multilingual Lebanese character . This is quite impressive as it indicates that the Lebanese immigrants[110] are already receptive of cultural adaptation and the adoption of multiple identities insofar as their ancestors in their native land are open to various cultures and tongues.

the white using it—to describe the Lebanese immigrants. Thus, as she uses it, Honkey-Lebanese means externally appearing white yet internally feeling Lebanese. The term "epitomize[s] the postmodern Diasporic condition where racial, cultural and ethnic identity is not so easily defined or categorized"[92].

In fact, by gaining whiteness a sort of a "subaltern inversion" occurred to the Hadchitis—a crisis she calls "ethnic demise"[93]. Experiencing this acute crisis, the first migrating generation tried to curb it by intermarriage. Whereas the 1st generation worked to retain their special character as Lebanese from Hadchit, "the 2nd and subsequent generations attempted to accumulate whiteness in order not to be seen as black"[94]. The writer unveils that the Hadchitis have multiple identifications that inhabit simultaneously and that these immigrants appear to be enmeshed. For some of them being Lebanese is just an ethnic symbol they manipulate "strategically", yet for others Lebaneseness is something they feel obliged to "strategically hide" from the society . Hyndman-Rizik also claims that this Lebaneseness is "unavoidable" and "imposed" on them due to their physical appearance. One of the interviews she makes reveals "how difficult it is actually to overcome the color barrier in the USA, even after five generations"[95]. She then concludes that "ethnicity . . . oscillates between the search for roots and the move toward ever increasing hybridity"[96]. The writer even pinpoints the split between 3rd and 4th generation migrants and the disorientation upon meeting new immigrants[97]. After a hundred years of settling in the USA, the Hadchitis suffer "double remoteness" because they are still short of being Arab despite their being "unconventionally American". This matches what Kraidy calls hybridity of "halfies"[98]. Hyndman-Rizik finally approves of Hall's argument that the post-modern identity of the Lebanese Americans is "fractured and de-centered, due to globalization, hybridization and the erosion of national boundaries"[99].

Rowe, on the other hand, notices that a group of 3rd and 4th generation immigrants "do not describe themselves as Lebanese- American… but rather explain that they are 'not Lebanese anymore'". Significantly, one cannot distinguish them from the other white Americans; they have similar "names, appearance, demeanor, dress, place of residence, speech patterns". Paradoxically, most of these "invest a great deal of time, money and social capital into their Lebanese-oriented heritage projects"[100]. They are eager to know, understand and celebrate authentic Lebanese culture. Rowe concludes based on the ethnographic cases studied that these Lebanese Americans enjoy "a powerful imaginative capacity" that boosts their link to Lebanon and the diaspora .The heritage projects these immigrants organize is a kind of "a dialogue amongst themselves and also with the second-generation about cultural relations"[101]. The 2nd generation Lebanese Americans try to dissuade their children from searching for and following Lebanese traditions because it is in vain now that they are American. However, the 3rd generation now are at a loss, so they try to compensate by reattaching themselves to heritage in a way or another, like organizing projects and parties and creating albums in order to resume the connection with their ancestors. The "anxiety" of the 3rd generation Lebanese immigrants relates to being no longer connected to Lebanese culture, besides their concern towards the future generations who may be totally disconnected and unable to identify themselves and their kins. That is why they strive to reconnect with Lebanon in their own ways

After WWII, immigrants could adapt better in the American circle although they had stronger political and religious affinities to their native lands than to the host country. At that stage, Syrian /Syrian-Lebanese immigrants were already assimilated to the middle class in the American society[84].

The third-wave immigrants ranging between 1965 and 2001 were also assimilated, yet they remained ethnically attached to their motherland .The reaction of the Americans towards the immigrant Arabs was somehow similar, for those latter were considered as Others—a source of threat to the whole, as Goffe claims[85]. Thus, this group that had infringed on American life still faced racial segregation, and their hybrid existence was curse-like.

In the aftermath of the September 11 strikes, terrorism entered the stage, and Arab Americans seemed a group "under siege" as Yonge demonstrates in 2004 [86]. As a result of 87 interviews Abdelhady had with Arab American immigrants, she notes that many respondents declared their exacerbated sense of difference in the American context in the aftermath of 9/11. Because of being segregated, they tended to identify themselves more as Arabs whilst remaining integrated and active in the social, economic, political, and cultural life in America. Particularly, the Lebanese immigrants were characterized by an adaptive nature compared to that of a chameleon[87]. Nevertheless, the largest group of immigrants rejected this "ambiguous position" and tried to build new identities distant from the binary of "exclusion/inclusion". This seems to match the category of "marginal man" as expounded by Park (1928). In particular, post- Civil War Lebanese immigrants became active in New York's cultural arenas—an attempt to rectify the common images of the "conflict-ridden country". Abdelhady describes their strife to reconstruct this image as reflective of "an illusory cohesion and stability". It is noted as well that whilst Arab Americans currently seem to be socially considered white or Caucasian, the state and media considers them as basically "Other"—a juxtaposition of status in the American culture. Thus, the images propagated about these are evocative of "violent, backward and irrational" and hence "inferior" people[88].

Crapanzano asserts that Lebanese in the diasopra are caught in an in-between, being simultaneously Lebanese and American or other. However, the literature of the Lebanese immigrants, similar to that of the Lebanese residents, revolves mainly around Lebanon and the way they are related to it—to the extent that belonging to Lebanon is their "constituted subject"[89]. Noticeably, Lebanese immigrants give much importance to family history. The desire to return is "always there even if the return trip is not always taken". This desire is set ablaze when their identity is challenged in America and when "ambivalence" starts to grow in them concerning their identity[90]. On the other hand, the Lebanese Diasporic identity is described as becoming "increasingly transient and less focused on the myth of return, but rather on building homeliness in Diaspora"[91].

In order to assess the impacts of hybridity in the Lebanese diaspora, Hyndman-Rizik has studied the inter-racial and inter-cultural experiences of the descendants from the village of Hadchit, in North Lebanon—third and fourth generation immigrants who migrated to the US in the 1890's. Hyndman-Rizik borrows the term Honkey from African Americans— who refer to

Hybridity in Lebanese Americans

The case being so regarding the dilemma in identity formation and its implications, what place do Lebanese immigrants in the United States occupy amidst this hybridity maze? In fact, the existing literature in English language seems to be short of analyzing the mixed identity of Lebanese Americans. These hybrids have left their homeland over a long time and experienced the culture of the American society, so an analysis of the impact of hybridization on them is a must.

Lebanese-American Diaspora: An Overview

Abdelhady notes that immigrants from Mount Lebanon have constituted the majority of immigrants from the Middle East to North America starting from the mid-nineteenth century—pushed by economic, religious, or political factors. The early immigrants were called Syrians or Syrian-Lebanese and rarely Arab—a mark of ambiguous ethnic identity. Due to their recognition that they were "sojourners"[78], these early immigrants had conflicts in their sense of belonging to the American context. Thus, they usually chose to live among "co-ethnics" and, language-wise, could speak little English that just helped them work as back peddlers[79]. Abdelhady then notes that they were hardworking people, but they had to endure insults from children and some customers. Thus, the early adult immigrants had to bear the burden of being different. Feeling inadequate in a social circle that shunned communicating with them became a yoke. Hybridity at that stage thus appeared a stumbling block, leading to a crisis of belonging and fluctuation between yearning for their own culture on one hand and being repelled by its different ways that diverged from the environment they had moved to.

Arriving prior to the creation of modern nation-states, Arab immigrants in general were conscious regarding the difference, and thus attempted to prove that they belonged to the white privileged group so as to "escape the stigma of otherness" as noted by Gualitieri and Samhan[80]. Nonetheless, this journey has been fraught with "struggle . . . discrimination [and] contradictory sense of identification and ambiguity about their inclusion in American society that lasts until the present"[81]. Remarkably, it is pointed out by Gualitieri that despite their assimilation into the white group within America, early Arab Americans were "in between" or "not quite white"[82]—hence typical holders of multiple belonging.

Significantly, immigrants of the first wave worked on founding groups that attempted to foster their cohesion and ethnic bonds, while at the same time enhancing assimilation. Naff states that in the 1920s societies were founded on the basis of being beneficial for both the host group and the incoming one, and that such societies were established on religious and regional considerations since the Lebanese identity during that era was looked at from such perspective. The first American-born generation was then encouraged to socialize into these groups so as to adopt the customs and traditions propagated in their homeland. This was done by "meetings, festivities and marriages". However, it seems that the young Lebanese Americans at that time were not so eager to adopt the ways of their ancestors, Rather, they felt "embarrassed" towards their uneducated parents[83].

contends for the transfiguration that the hybrid undergoes, noting that hybrid individuals may find it "a big challenge" to reconstruct the new identity and to stand upright in a globalized world[63]. This is compounded because hybrids are subject to more extreme discrimination since they are intruders in the homogeneous surrounding culture, as noted by Zick and Kűpper. Actually, the challenge may also be the necessity to be higher achievers than others in order to be granted equal rights. Consequently, hybrids react and become radical ethnicists[64]. Noteworthy here is the The Blame Theory, the propagators of which believe that the weak hybrid victims of racism are to blame for being maltreated[65].

Linguistics is another realm in which hybridity interferes. For instance, the merging of African and European people in the Carribean has given birth to Creoles, that, being enslaved, produced a new set of languages known as pidgin or patois – common demeaning terms[66]. Pivotal in the hybrid identity is the sense of belonging, for primarily first-generation migrants are ardently attached to their native land and unable to negotiate the new culture. However, the problematic issue is that of multiple belonging, for migrants of the second generation shun assimilation and seek hybridity as an outlet so as to escape the dilemma. Indeed, being detached from one's country pushes the immigrant to discard part of the cultural identity, thus destabilizing the self-identity[67].

Merits of Hybridity

Despite the aforementioned demerits, hybridity is at many times a commended trait. For example, Bhabha (1994) places hybridity in a favorable context, where it plays the role of "a privileged means of resistance and subversion with a strong liberatory potential for the colonized or subaltern subjects"[68]. Bhabha also propagates the belief that hybridity opposes binaries[69]. Similarly, to Pieterse , hybridity is essential insomuch as it "questions and erodes boundaries"[70].

Hybrids may also have enlightened and objective character, "profound critical judgment, [and] cosmopolitan sentiments"[71]. Gilbert and Hannerz explain that the term "marginal man" coined by Park—the hybrid with ambivalent psychological condition – may not always be "degenerate . . . or passive". Rather, the marginal man could evince such traits as "wider horizon, . . . keener intelligence, [and] more detached and rational viewpoint", for such a group plays the role of the "intermediary and interpreter between two races or cultures"[72]. Furthermore, when the social and cultural conditions are favorable, hybridity may enhance "cross-cultural adaptation [and] intercultural effectiveness" and undermine "ethnocentric attitude", and in specific cases, hybrids may be "self reflective" and "critical" of themselves and others[73]. Although Crapanzano admits that mixed identities could be "painful" and conducive to alienation, she insists that the multiple perspectives they are granted "open imaginative horizons [and] spur creativity"[74].

Besides, it is claimed that hybrids do outperform at strategies the like of "bilingualism, values centered on family, [and] psychical stability". They may also be dexterous, flexible, empathetic, tolerant and capable of mediation and negotiation[75]. Hybridity theorists in general disapprove of the claim that hybridity is essentially negative, insisting on the creativity and appeal that cultural hybrids manifest[76]. According to Papastergiadis (1997), hybrids are "lubricants in the clashes of culture" and "negotiators" that facilitate the annihilation of xenophobia in the future[77].

Demerits of Hybridity

One of the extreme vantage points is that of the French racial theorists Comte de Buffon and Joseph Ernest Renan, who adopt a hierarchical view of races by placing white Europeans at the peak of the ladder, thereby considering the mixture of races degrading to the superior ones. However, Kraidy denounces this early analysis as being "pseudo-scientific" due to its limited focus on "the contamination of white Europeans by the races they colonized"[50].

A research studying the economic and political status of blacks in America—conducted by Du Bois in the late nineteenth and early part of the twentieth century— came up with the conclusion that they suffered from "double consciousness", where the blacks were incorporated into both black and white cultures while simultaneously seeing oneself through the eyes of the white other[51]. Robert E. Park emphasizes one main significant outcome: the birth of a novel type of personality which he calls "marginal man"— an individual involved in the life of two discrete cultures, vacillating between the reluctance to liberate oneself of native culture on one hand and being rejected in the new society due to racial segregation on the other. Such type of personality remains "on the border of two cultures and two societies" – where fusion is impossible[52].

The analysis of Park and other modernist critics stresses the fact that the hybrid tends to destabilize the pattern of living in both the host and native culture. To illustrate, the host culture looks at hybridity as a phenomenon that disturbs social and cultural boundaries and even "makes their existence . . . difficult to maintain"[53]. The German Sociologist Georg Simmel believes that there is ambivalence in boundaries, for they simultaneously "hinder and enable", liberate and confine, foster identity formation by setting up the difference between the self and other and help "suppress and exclude others". Interestingly, Simmel uses the metaphor of the bridge and door in his analysis of "connectedness and separateness"[54] in people. The bridge represents the physical, social and psychological separation, while the door stands for both boundaries and openness toward difference. There is also the claim that some hybrids create a new Other within their own group, thus building up new boundaries that involve internal "domination"[55]. This is done as reaction by such hybrids towards the discrimination and racism they suffer from in the host culture. Besides, the hybrids tend to pose themselves against the group in the host country[56].

Marotta insists that hybridity does have "a dark side"[57], pointing out as examples the issues of frustration, anxiety, discomfort, pain and confusion, "feelings of exclusion and low self-esteem", and "distress and depression"[58]. Besides, hybrids may develop conditions of anger and frustration as they are subject to racial discrimination, eventually ending up as alienated. Marotta also cites the result propagated by Park that hybrids are "existentially lost" and suffer from homelessness and alienation[59].

Moreover, hybrids may have partial identities and play multiple roles, besides showing pluralistic selves[60]. Vordermeyer admits that there are merits and demerits to hybridity, picking self-confidence on one hand and partial loyalty on the other, expounding that a hybrid may suffer internal struggle as to the two cultures involved[61]. Han pinpoints as well the problems of mixed feelings that may be nurturing ground to "interior conflicts, anxiousness and instability"[62]. Wagner

Significantly, Bhabha (1994) regards that hybridity is ubiquitous and that all cultures are hybrid rather than pure. He basically relates hybridity to "the spatial metaphor of the third space"[37].

Bhabha proposes that without this "liminal space"—third space— involving a meeting place of different identities, a new hybrid identity and culture cannot form. This third space is the location that signifies a shift in cultures, in the use of sign and symbol and in negotiation of meanings[38].

Hybridity and Immigration

Immigration is noted as one of the most active phenomena fostering hybridity, for based on recent studies, "movements of people, shifting demography, and changing settlement patterns" cause "social change"[39]. Now, as the migrant crosses borders to attain what was not accessible in the native country and feels nostalgic towards what was left behind in the motherland, a process of formation of social identity takes place[40]. Particularly, there are the refugees and asylum seekers who undergo a process of identity reconstruction[41].

Based on Steven Flusty's analysis of 2004, cultural hybridity is thought to rest on the ground of "place" that obscures the cultural beliefs that existed earlier. He expounds that it combines "disparate cultural attributes, practices, and influences" to produce new individual and group identities. He also affirms that such a process takes place in the aftermath of experiencing a state of separation from "one's roots" and a condition of being deprived of "a place of one's own"[42]. Among the reasons of such cultural mixing, Dear & Burridge point out "large-scale migration" and introduce the view point of Garcia Ganclini (1995), who also asserts "dislocation (migration) and deterritorialization (consequent upon globalization)" as inducers of hybridization[43]. Indeed, basically, "contextual change"[44] pushes individuals to respond in specific ways, thus embodying what is termed cultural hybridity.

Similarly, as "disparate peoples" come in contact, new social phenomena are born, particularly when these peoples recognize the disparity[45]. Hybridity thus links to immigration, for the immigrants are bound to be involved in the third space as they live a binary experience of "assimilation versus rejection"[46]. Kraidy investigates the role of media in the issue of immigration and hybridity. He admits that the boom of immigration waves from the East to the West has been "a catalyst of hybrid forms". The commercial media play a "crucial role in the formation of migrant identities". In host countries like the United States, the United Kingdom and Australia , hybridity is "central" in diasporic media, and the media programs specialized for migrant communities enhance cultural hybridization[47].

Impacts of Hybridity

Basically, deciding whether hybridity is beneficial or not relies on the "social, cultural and political context [and] personal strengths and weaknesses of . . . individuals"[48]. Hence, coming up with specific crystal-clear effects of hybridity is almost preposterous due to the fact that the change that necessitates hybridity incorporates both local and individual characteristics whose mixing is "volatile, complex and sensitive to the specifities of place"[49].

In sociology, the dissection of hybridity results in locating a variety of forms: “identities that exist across borders, duality, gender (a false dichotomy), new identities, the diaspora (borderless) and the internal colony hybrid (formed within boundaries)”. First, there are distinct hybrids that form because of the geographical separation of countries. Second, some hybrids have “double consciousness’’ and “a two-ness”, or a duality that does not resemble the two identities it has originated from. A third form emanates from “a false dichotomy”, “where an identity that seemingly only has the capacity to occupy two forms is actually shown to encompass another form”[25]. Totally new hybrid identities take shape “when multiple categories exist within borders”[26]. There is also a “borderless” hybrid identity that forms within “diasporized population”. Although the diasporas are separated from their native lands, they still feel “tied to a border via their shared national identity”[27]. Consequently, such people tend to either have a hybrid identity that is still attached to their homeland or obtain a distinct identity that diverges from that of those living in their native societies. Finally, the internal colony hybrid is created within the borders of a country, particularly in a colony within the country[28]. This internal colony hybrid lives “within the boundaries of another identity group”[29].

Definition of Identity

But what is identity in the first place? Historically speaking, identity used to integrate issues of “territory, language, kinship, and blood lines”. Today, however, the term has turned rather more “vogue” in social science as it has to “keep pace with globalizing cultures and societies”—despite the fact that ramifications of the original meanings still persist in public opinion and in politics[30]. Sociology sees social identity as the way individuals classify themselves in specific groups, and this means that there are “national, gender, and work identities, among others”[31].

Cuninghame advocates the view that identity depends on “external markers and signs”, but most importantly on “the presence of ‘others’, who both mirror and delimit private-individual and public-collective boundaries”[32]. In psychology, the term identity is in part based on Erik Erikson’s theory (1966), where identity is defined as a means “to keep a continuity and an inner coherence”. In postmodern societies, identity has taken over additional meanings, taking into consideration the issues of “discontinuity, fragmentation, dispersal reflexivity and transition”. Identity today, hence, does not mean there is “an inner nucleus”. Rather, it entails a lifelong process of “adjustment between interior and exterior”, basically those that are “contradictory”[33].

Causes of Hybridity

Significantly, the reasons behind hybridity are multifold, ranging between the material and the cognitive. Hybridization occurs due to capitalism and its relevant factors: “demographic change, a pervasive media, technological media, technological change, capital flows, and struggles for ideological pre-eminence”[34]. The cognitive process is also linked to hybridity, for it can be “a state of mind”. Questions the like of “Where is the border? and When is the border?”[35]encompass a cognitive process. Even geographically, a “border” is internally embraced— both individually and collectively—in case there is a crossing, be it “literal or metaphorical”[36].

Homi Bhabha, a major figure attempting an exploration of what it means to be a hybrid, bases his attitude on the assumption that “culture, discourse, and identity” are both “fluid and ambivalent”.

Currently, the issue of hybridity has become a hot matter of debate among intellectuals, and it involves "métissage", where the research diverges from nineteenth century racial implications[14]. In fact, the link between hybridity and racist ideas has ceased to be hurdle to contemporary research that defines the "cultural and biological hybrid" as an individual who mixes traits of distinct cultures or a cultural identity that emanates from "heterogeneous sources". In addition, current research asserts the prevalence of "fusion and mixing of cultures", which necessarily implies that hybridity has turned to a "ubiquitous" phenomenon that covers a wide range of domains, some of which being, according to Pieterse and Hutnyk : "horticultural practices, genetics, . . . cybernetics, . . . languages, . . . interdisciplinarity, [and] cultural practices such as consumer behaviour"[15].

Definition of Hybridity

The simplest definition of hybridity clarifies that it forms "when different cultures come together in the same place to create something that did not previously exist"[16]. Nevertheless, Kraidy confirms that it is quite hard to reach consensus as to a definition to hybridity. He pushes this further by describing it as "a risky notion". Denouncing the claim that hybridity is a "single idea' or "unitary concept", he asserts that it is an "association of ideas, concepts, and themes that at once reinforce and contradict each other"[17]. In fact, he admits that it is mainly a matter of cultural interference and that it "retains residual meanings related to the three interconnected realms of race, language and ethnicity". Besides, he believes that hybridity is not optional. Rather, it is an "obligatory celebration of cultural difference and fusion" simultaneously. To him, hybridity is closely related to the process of globalization of "economic exchanges and the supposedly inevitable transformation of all cultures"[18].

Pieterse sees hybridity as a riddle-like concept, for hybrids exist neither in "social mapping" nor in "models and arrangements of multiculturalism"[19]. Ackerman links the term hybridity "to linguistic compositions from different languages or more generally everything that is composed of different or incongruent elements"[20]. In literary studies, Edward. W. Said, Gayatri Chakrovorty Spivak , and Homi K. Bhabha stand out as voices explicating a new view about "the Other" [the colonized] and thus about the hybrid in literature and in academia[21]. Debating that the global movement of "people, artefacts, signs and information" has influenced all cultures, these thinkers claim that "culture these days is hybrid per se"— thus resulting in a struggle regarding identity and difference. Hence, to these postcolonial theorists, hybridity is meaningful insofar as it entails "disruptions' and "difference"[22].

Types of Hybridity

The Russian linguist Mikhail Bakhtin (1895 – 1975) distinguishes between "intentional and organic hybridity". Organic hybridization is "unintentional" and "unconscious"— the outcome of daily interaction and mixing of cultures. Intentional hybridity, on the other hand, occurs when the discourse used is reluctant to fuse two points of view and alternatively poses them in contrast to each other "to unmask authoritative discourse"[23]. According to intentional hybridity theorists, a hybrid "challenges and destabilizes the continuity and security of the existing social and cultural order". A major difference between organic and intentional hybridity lies in the fact that whereas organic hybrids "borrow . . . appropriate, [and] never question the status quo, intentional hybrids... discredit, poke fun and problematize the existing order and the modernist, essentialized identities underlying it"[24].

Ambivalent Hybrids and the Unique Lebanese American Identity

Safaa Fahes
MA in English Literature-
Lebanese university

Introduction: A Historical Overview

The existing literature on hybridity reveals that this latter is quite far from being purely a modern term. Young contends that the history of racial hybridity is "long and contentious"[1], emphasizing that it has had been in existence for ages, and that it has been a matter of debate. Actually, the issue of hybridity dates back to ancient civilizations— to the times of the Sumerians, Egyptians and Greeks. This is due to the fact that such peoples prospered as a result of the mingling of foreign ideas, philosophies and technologies. For a long time in the ancient world, particularly with respect to the Greeks, hybridity evoked negative connotations. Then, biology and botany incorporated the term hybridity, especially with Darwin's theory[2]. In his Origin of Species, which was published in November 1859 , Darwin argues that the intercrossing of species is fraught with production of sterile offspring[3].Thus, in the nineteenth century, hybridity— whether biological or social—started to be condemned as "degrading" and harmful[4].

A major breakthrough was the emergence of Mendel's laws in 1865, which set the stage for a shift in evaluation of hybridity. The genetics of Mendel in fact describes gene mixing as "invigorating"[5]. However, racial science of the nineteenth century and "the colonialist fear of contamination" were still the principal molders of attitudes on hybridity. During that era, hybrids, "categorized as half-breeds, half-castes, mutts, and mongrels", were regarded perilous to the superior European whites who were considered physically, culturally and racially pure[6]. The corruption of the whites by the colonial experience was looked at —up till the twentieth century— as a "monstrous" phenomenon that jeopardizes socio-political order[7]. One example in literature is Kipling's relentless denunciation of the "monstrous hybridism of East and West"[8].Thus, attitudes towards hybridity oscillated between the "essential consensus perspective" of "hybrid sterility" on one hand[9] and "hybrid vigor" on the other – while persistently adopting the strategic fear of "miscegenation" and praising white superiority[10].

Such extreme views persisted till the last two decades of the nineteenth century, when hybridity started to be tackled with brighter, less harsh debates in the academy of the West, for it began to be analyzed as of different use and goals. This was mainly due to the "voices through which the issue of hybridity [came to be] articulated"[11]. At that stage, the "strategic re-positioning of the term hybridity" took place in the postcolonial studies of the 1980s [12]. In 1994, Homi Bhabha tackled the issue of hybridity in his book, The Location of Culture, in which he ascertained the interdependence of the relations between the colonizer and the colonized, the rejection of the purity of cultures, and the empowerment of hybridity, based on the recognition of cultural difference[13].

Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 309-335.

Endnotes

1 Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), p313.
2 Kohzadi, Hamedreza et al. "A Study of Franz Kafka's The Metamorphosis". Journal of Basic and Applied Scientific Research, vol. 2, no.2, 2012, pp. p1601.
3 Camus, Albert. Algerian Chronicles. Edited by Alice Kaplan, Harvard University Press, 2013. p. 150
4 Zaretsky, Robert. A Life Worth Living. Harvard UP, 2013. pp 7-8.
5 Davidson, John E. "In Search of a Middle Point: The Origins of Opression in Tayeb Salih's 'Season of Migration to the North'". Research in African Literature, vol. 2, no.3, Autumn 1989, pp. 385-400. Indiana University Press Stable. p 338.
6 Rolleston, James. A Companion to the Works of Franz Kafka. Camden House, 2002. p 2.
7 Kafka, Franz. Metamorphosis. Translated by Michael Hofmann, Penguin Books, 2007. p 1.
8 Kohzadi, Hamedreza et al. "A Study of Franz Kafka's The Metamorphosis". Journal of Basic and Applied Scientific Research, vol. 2, no.2, 2012, pp. p1603.
9 Minar, Karla S. "Shame and Alienation in Kafka's The Metamorphosis". Jurnal Ilmu Sastra, vol. 2, December 2017, pp. 125-129-131.
10 Mondal, Pradip. "Predicament of the Modern Man in the City: Reading Kafka's The Trial and The Metamorphosis". thecontour.weebly.com, vol. 1, no.3, p 69.
11 Carroll, David. Albert Camus, the Algerian: Colonialism, Terrorism, Justice. Columbia University Press, 2007. P10.
12 Tarpley, James Hebron. The Algerian Island in the Novels of Albert Camus: The End of the Pied-Noir Adventure Tale. University of Pittsburgh, 2004. P 53
13 Camus, Albert. The Stranger. Translated by Joseph Laredo, Penguin Group, 2010. P71
14 Sprintzen, David. Camus: A Critical Examination. Temple Univ. Press, 1988. P23
15 Porz, Rouven et al. "The Absurd in the Field of Genetic Diagnosis". Albert Camus in the 21st Century: A Reassessment of his Thinking at the Dawn of the New Millennium. Edited by Christine Margerrison et al, Amsterdam, 2008. P165
16 Davidson, John E. "In Search of a Middle Point: The Origins of Opression in Tayeb Salih's 'Season of Migration to the North'". Research in African Literature, vol. 2, no.3, Autumn 1989, pp. 385-400. Indiana University Press Stable. p387
17 Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 333.
18 ---."Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 319.
19 Westphal, Bertrand. Geocriticism Real and Fictional Spaces Translated by Robert T. Tally Jr., Palgrave Macmillan, 2007. P xi
20 Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 318.
21 Kafka, Franz. Metamorphosis. Translated by Michael Hofmann, Penguin Books, 2007. P99
22 ---. Metamorphosis. Translated by Michael Hofmann, Penguin Books, 2007. P101
23 Camus, Albert. The Stranger. Translated by Joseph Laredo, Penguin Group, 2010. Pp 71,72,74,75,77,78.
24 Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 319.
25 Salih, Tayeb. Season of Migration to the North. Tanslated by Denys Johnson- Davies, Heinemann, 1994. Pp135, 30,31,35.
26 Karl, Frederick R. "Space, Time, and Enclosure in The Trial and The Castle". Modern Literature Vol. 6, No. 3 (1977), pp. 424.
27 Zoran, Gabriel. "Towards a Theory of Space in Narrative". The Construction of Reality in Fiction Vol. 5, No. 2, (1984), pp. 329.
28 Qtd in Westphal, Bertrand. Geocriticism Real and Fictional Spaces Translated by Robert T. Tally Jr., Palgrave Macmillan, 2007. P78.

This paper has shown that cultures and nations, including their failures, push individuals to reinvent and reconstitute their homelands in an attempt to find more security, stable identity and cultural continuity. By doing so, the psychological states of the characters does not ameliorate. On the contrary, this defense mechanism proves to be another myth as it fails to grant the characters the happiness and satisfaction they seek. Reconstructing a new homeland by limiting the scopes of space and time renders the three protagonists more vulnerable to social judgement, alienation and depression. Initially, the claustrophobic space protects Gregor, Meursault and Sa'eed from confronting the real reason behind their misery. However, as the text progresses the reader traces the absurdity of their chosen paths and they are gradually dragged into depression which eventually leads to death. Thus, reducing the country into a smaller space (room/prison) is a desperate attempt to save themselves and eventually save their homelands. As Zoran affirms, "[a]ny spatial object may also be perceived as a synecdoche for a more comprehensive space"[27]. However, they fail to successfully achieve both objectives and their downfall is seen as a symbolic downfall of their own nations or rather of the global modern world. This might be the human curse in the modern era and perhaps the best answer for humans' misery and their disappointments with their own nation is explicitly portrayed by the poet Riccardo Bacchelli who says: "We Europeans know the world too well. Columbus / did not realize the harm he was doing. History / which moves to the West will end up just where it had departed. / Is the earth so round for the sake of irony?"[28].Life which is the most precious gift bestowed onto man shall end in death and there is no other way to reverse or stop this cycle in all spaces and at all times.

Works Cited

Primary sources

Camus, Albert. The Stranger. Translated by Joseph Laredo, Penguin Group, 2010.

---. Algerian Chronicles. Edited by Alice Kaplan, Harvard University Press, 2013.

Kafka, Franz. Metamorphosis. Translated by Michael Hofmann, Penguin Books, 2007.

Salih, Tayeb. Season of Migration to the North. Tanslated by Denys Johnson- Davies, Heinemann, 1994.

Secondary sources:

Carroll, David. Albert Camus, the Algerian: Colonialism, Terrorism, Justice. Columbia University Press, 2007.

Davidson, John E. "In Search of a Middle Point: The Origins of Opression in Tayeb Salih's 'Season of Migration to the North'". Research in African Literature, vol. 2, no.3, Autumn 1989, pp. 385-400. Indiana University Press Stable. http://www.jstor.org/stable/3819172. Accessed 7 June, 2015.

Karl, Frederick R. "Space, Time, and Enclosure in The Trial and The Castle". Modern Literature Vol. 6, No. 3 (1977), pp. 424-436.

Kohzadi, Hamedreza et al. "A Study of Franz Kafka's The Metamorphosis". Journal of Basic and Applied Scientific Research, vol. 2, no.2, 2012, pp. 1600-1607. http://www.textroad.com/pdf/JBASR/J.%20Basic.%20Appl.%20Sci.%20Res.,%202(2)1600-1607,%202012.pdf . Accessed 14 February, 2016.

Minar, Karla S. "Shame and Alienation in Kafka's The Metamorphosis". Jurnal Ilmu Sastra, vol. 2, December 2017, pp. 123-133.

Mondal, Pradip. "Predicament of the Modern Man in the City: Reading Kafka's The Trial and The Metamorphosis". thecontour.weebly.com, vol. 1, no.3, pp. 64-72.

Porz, Rouven et al. "The Absurd in the Field of Genetic Diagnosis". Albert Camus in the 21st Century: A Reassessment of his Thinking at the Dawn of the New Millennium. Edited by Christine Margerrison et al, Amsterdam, 2008.

Rolleston, James. A Companion to the Works of Franz Kafka. Camden House, 2002.

Sprintzen, David. Camus: A Critical Examination. Temple Univ. Press, 1988.

Tarpley, James Hebron. The Algerian Island in the Novels of Albert Camus: The End of the Pied-Noir Adventure Tale. University of Pittsburgh, 2004.

Westphal, Bertrand. Geocriticism Real and Fictional Spaces Translated by Robert T. Tally Jr., Palgrave Macmillan, 2007.

Zaretsky, Robert. A Life Worth Living. Harvard UP, 2013.

Sa'eed's rooms, in London and Sudan, abound with objects that secure the image of the exotic triumphant East that he aspires for. However, this abundance of objects does not create any movement. On the contrary, the room in London represents a motionless image of the exotic strong East versus the dominant colonial West. Sa'eed's room echo what Zoran states about the objects; "the objects structured belong to the reconstructed world, but the structure itself is imposed on them by the linguistic nature of the text[24]. The other room in Sudan presents a fixated image of the triumphant East. Mustafa's room in Sudan welcomes the narrator with "dampness and an odour like that of an old memory". The memory of the long-lost traditional Sudan. What the room depicts is a complete symmetry with the outside space; "all that came in from outside was more darkness". Suffocation extends from the outside space to the internal enclosure that Mustafa aspires to protect himself in. Mustafa's room "was a graveyard that looked on to a garden". "The room was heavy with the smell of burning sandalwood and incense, and in the bathroom were pungent Eastern perfumes, lotions, unguents, powders, and pills. My bedroom was like an operating theatre in a hospital"[25].

Kafka, Camus and Salih allow to make their choices and create their claustrophobic yet detached spaces. The reader feels a sense of suffocation in their work which is not merely physical; it extends to the intimate relationship between locale and content. The reader feels the entanglement of the characters' attempt to go everywhere in their new spaces, yet they reach nowhere. This mixture of liberation and imprisonment within the space-time considerations of enclosure paradox is, apparently, the subject of the three narratives. We note the religious, political, and social implications, but we must resist seeing these works as anything but the tensions and conflicts themselves. Thus, it is significant to examine the real value of reconstructing new homelands by retreating from the collective to the personal. Kafka, Camus and Salih present narratives that show enclosure as an alternative. Enclosure reaches its highest creative point in the studied narratives. They have "profound reverberations in cultural terms; for such enclosure represents those time and space considerations which have dominated our thought since the eighteenth century"[26]. For such enclosure writers, death is the essence of infinite space and limitless time, to the extent death entangles itself with every aspect of life. Gregor, Meursault and Sa'eed's sanctuary spaces represent the nothingness and absurdity of modernity and their retreat is a temporary solution for their disappointment. Upon close inspection, the three characters prove to be withdrawn into the dark world of solitude and depression and death becomes the ultimate solution. In enclosure, it is only through death or something akin to it that the protagonist can reach more vital ground, if he or she ever does. With death as absolute, the individual is miniaturized, diminished, dwarfed, made to seem part of the fateful or circumstantial destiny that was so much a part of the late-nineteenth and twentieth century psyche. Gregor, Meursault and Sa'eed are three figures striving for a secure space, and like Prometheus being neglected or left to rot, are striving to overcome a fate that discards individuals. Working in time and space, these protagonists face a losing struggle against endless sweeps of space and time. Hence, the dilemma is always in reaching that beyond, escaping from a measured hell into an infinite paradise.

detachment with the global space, their retreat to their enclosed places render them motionless similar to the few objects around them. Gregor's room remains static after his transformation. The only time his mother and sister try to move the furniture in the room, he changes from being harmless and obedient into aggressive and rebellious. He refuses to change the static environment around him as it represents a more secure spatial and temporal scope. Gregor's room successfully distances him from the bureaucratic and dull outside space that frustrated him; "with each passing day his view of distant things grew fuzzier, [---] he might have thought that his window gave on to a wasteland where grey sky merged indistinguishably with grey earth"[21]. Gregor adapts to his transformed body and feels more comfortable with the new spatiality and temporality which shuts him away from the world; "his physical mastery of his body was of a different order from what it had been previously, and so now he didn't hurt himself"[22]. In Kafka's Metamorphosis, the line stretching between the room and the outside world is the central axis in the spatial structure of the novella, focusing all the powers acting in the "world" despite the fact that it is never actively traversed by the main character. Gregor is reprensentative of the "modern" human. Like all men, he is faced with the bafflement of existence; like all men he tries to understand his transformation and miscommunication with the outside world. He wants his world to be one thing but finds it another. He cannot relinquish his grip upon the explainable of his familiar world. Nor can he fully grasp the strangeness of his new one (metamorphosis). The Gregor lives in anxiety and claustrophobia the modem experience, persisting in a hope which is barren of fruit.

Correspondingly, Meursault feels upset every time he has to leave his cell and get in touch with the outside world. Despite the liminality of death and life, the prison seems to offer a more secure space to Meursault. His adaptation to his confinement comforts him as it guarantees a rare connection with the collective space. Similarly, Meursault feels more secure in his inner secluded prison than the outside world; "I felt that my cell was my home and that my life was at a standstill"[23]. Withdrawing from the outside space/time, Meursault feels a sense of belonging, security and safety. Tirelessly, describing the farfetchedness of his cell, Meursault could stabilize the representation of his country at least momentarily. He does not resist the claustrophobic prison despite its darkness and "tiny window". He also feels a sense of confidence describing the dark journey he has to take every time he has a visitor; "I went down a long corridor, then down some stairs, and finally along another corridor". Meursault connection with the outside space turns into a painful experience as it reminds him of the injustices of the system; "I found the noise quite painful". He also trains his mind to forget the outside world with all its fake freedom and steps up to thinking "like a prisoner". He gradually succeeds in distracting his body from focusing on the physical pleasures of the world and enjoys the freedom of only connecting with the sky through the bars of the prison. He even enjoys the nothingness of time and space in his cell. He succeeds at subverting what life should be according to the social norms. To him, living in the world for just a day would easily allow someone to "live a hundred years in a prison". Not only does Meursault destabilize social space but he also learns how to replace real people with fictional ones and how to control time. He "ended up losing track of time in prison. [---] [He] hadn't understood how days could be both long and short at the same time. Long to live through I suppose, but so distended that they ended up flowing into one another".

The narrator in Season explains upon exploring Mustafa's room that Mustafa "wants to be discovered, like some historical object of value. There was no doubt of that, and I now know that it was me he had chosen for that role. It was no coincidence that he had excited my curiosity and had then told me his life story incompletely so that I myself might unearth the rest of it" (Salih 154). The three narratives show a "diachronic relation" where "in the space of a given narrative, one may move from point a to point b, but not vice versa; in another narrative, the movement may be reversible. In both cases, movement ceases to be potential; it is fully realized, and is, so to speak, incarnated in space"[18]. Thus, the movement of Gregor, Meursault and Mustafa in the symbolic space is from "point a to point b". It is the movement from the national or collective space to the claustrophobic smaller physical space (room) and inner space (depression).

Indeed, the three novellas combine nearly every aspect of claustrophobic spaces as an attempt to substitute their disappointment with their homelands. Choosing to retreat from the national space to a personal place can be considered as an escape mechanism to avoid facing the severe dissatisfaction with the socio-politico dynamics. Hence, Gregor, Meursault and Sa'eed retreat to the room in order to distance themselves from the collective defeat. The characters' rooms are enclosed and dark which might oppose with Westphal's premises on space. Robert Tally explains that Westphal's ideas certainly do "not attempt to return to an unsophisticated notion that fiction is able to offer a mirror reflection of the 'real' referent out there. Rather, Westphal understands that the referentiality operating between fiction and the 'real' world is characterized by constant movement, or oscillation[19]. However, the three characters' movement in the studied texts prove to be heading in one direction: from the national space to the claustrophobic personal one.

Gabriel Zoran discusses in his "Towards a Theory of Space in Narrative" that within the overall chronotopos of the reconstructed world, one should distinguish between synchronic and diachronic relationships, which each have a different type of effect on the spatial structure. Before continuing, a clarification of the term chronotopos here is necessary. This Einsteinian term was introduced into literary criticism by Bakhtin (1978), who uses it to signify the entire complex of space and time together, including physical objects, events, psychology, history, etc. Zoran, however, has not used the term to signify the totality of space and time, but rather to describe a specific aspect. That is not to signify all things that may be found in space or in time, but only what may be defined by an integration of spatial and temporal categories as movement and change. He states,

> At every point of the narrative, that is, at every synchronic situation, some objects may be found at rest and others in motion. Naturally, the distribution can vary from point to point. One may generalize and state that there are certain objects in space which are characterized by their capacity for movement and others which remain at rest. This is not the same as the relationship between subject and object, or between characters and environmental objects; the differentiation between the states of motion and rest may be determined among "inanimate" objects and among characters alike. There are characters which have a capacity for movement and there are those which are, so to speak, tied to their places.[20]

This can be traced in the narratives under study. Gregor, Meursault and Mustafa Sa'eed seem to be tied to the chosen places (room/prison). After experiencing disconnection and

> [H]e remains practically blind to the socially established meanings with which others embellish events. Nowhere is this more evident than in his relation with Marie. [---] he knows nothing of love and cares nothing for the institution of marriage. But when Marie smiles in a certain way he is attracted to her and wants her. His desires are not without warmth, but they lack premeditation or foresight. They are spontaneous responses to sensuous qualities and reflect little if any conceptual interpretation or social propriety.[14]

Meursault's deep sense of alienation is blunt when he is fully aware that his fate is doomed to a death sentence, yet again, he appears to be separate from reality. Undoubtedly, he is facing his own possible death, but on another level he additionally seems to be relating to his physical existence at a distance from his Self. Meursault feels alienated from the other "healthy" and "genetically normal" people around him. He fails to communicate properly with them. This "social alienation of Meursault" in Camus's The Outsider is labeled as "social absurdity"[15].

Likewise, Salih experiences dislocation when he immigrates to England where he spends most of his life with his Western wife. He also portrays the conflict that a person feels upon displacement. The narrator in Season, for instance, could not wait for the moment he would return to his homeland, yet he could not turn a blind eye to the pitfalls in his own culture. As John E. Davidson argues, both the narrator and Mustafa Sa'eed "have allowed their minds and souls to be separated, and they fight feelings of betrayal of self and community. In the case of the narrator, the plight of the native intellectual is made more difficult because the foreign training that is questioned enables the native oppression to be seen and critiqued"[16]. On the other hand, Mustafa is portrayed as a character that migrates geographically and psychologically. On the geographical level, he leaves his country to Cairo and then he immigrates to London. In that foreign land, his journey of internal immigration starts. He sets a fictitious space to allure women and starts changing his names. That being done, he distances himself from his own reality. However, this process of alienation and dislocation into a new geographical space only augments his loneliness and failure especially after the resistance he receives from Jean Morris. As a result, he adopts another model of displacement. By killing Jean, he hopes to be locked away in a physical space (prison) that would protect him from his frustrations. Unfortunately for him, his new strategy fails and he is only locked up for seven years. Consequently, he feels the urge of trying another form of displacement. That is when he geographically immigrates back to his native land hoping for a psychological and physical settlement. This new phase, nonetheless, is also transient especially after the appearance of the narrator who uncovers his secret. Subsequently, he decides to move away again by supposedly disappearing in the Nile.

All these forms of geographical and psychological migrations serve Gregor, Meursalut and Mustafa very little; nevertheless, the only space that probably gives them a sense of security and identity is their room/prison. Hence, space plays a crucial role in a narrative as Zoran emphasizes;

> It goes without saying that space is not a neutral material just existing in the world; it has various functions relating to other planes of the text. Every element in space - actually every element in the text - has to be regarded, to use the term of Hrushovski (1976), as a 'juncture', in which patterns from all the textual planes may intersect: patterns of space together with patterns of characterization, ideas, mythology, and so forth. The functions of space may appear clearly when dealing with single texts and pointing out the system of relations within the complex of its components.[17]

caused by an internal factor, as shame occurs from within an individual". Throughout the narrative, Gregor is portrayed as a selfless individual who is ready to sacrifice his needs, ambitions and all types of self-fulfillment for the sake of pleasing his family. His devotion for his duties as a son and brother alienate him from his own needs. According to Minar, Gregor "experiences alienation before and after his metamorphosis. It is implied that since the time before his metamorphosis, Gregor has been selfless; yet, his family takes his selflessness for granted"[9]. Being such a dutiful son made him feel more guilt after his transformation. He even "experiences shame, he sees himself the way his family sees him, a burden. This alienates him because he is denied from the possibilities of himself as an individual who constantly puts others before himself and does everything he is expected to do even though he has his own needs". These strong emotions of alienation and loss are also emphasized by Pradip Mondal; "[t]he most gruesome aspect of Samsa's fate is not his metamorphosis but the blindness with which everybody treats this metamorphosis. His self is what is absolutely alien, void, and nonexistent, not only in the world of business in the city but also in the world of the family"[10].

Similarly, Camus is a person whose sense of alienation due to the political situation at the time pushed him to dislocate from one country to another. Dislocation comes as a reaction to the dissatisfactions that he had towards the inhumane modern world. By writing The Stranger, Camus portrays a condition where space is not fixed but it fluctuates based on the psychological experiences of the main character or perhaps the writer. David Carroll quotes Jean Paul Sartre who states that the novella "itself is a stranger. It comes to us from the other side of the Equator.' Carroll presents how Sartre describes the geographical and cultural remoteness of Camus' novella:

> The novel appears to have arrived in France from a foreign land located across the Mediterranean, a land of beautiful beaches and blazing sun where simple pleasures still exist, a land far removed from the war, occupied Paris, collaboration, and the continuing winter of French discontent. Coming from another place, the novel also arrives as if from another historical time, a time of simplicity, honesty, innocence, and moral courage, and in this way too it appears totally foreign to the French living in either occupied or Vichy France[11].

Camus creates a double effect of dislocation. Meursault comes from a foreign land to France, and the French come into direct contact with this stranger and his victim (the Arab). The French characters are confused and try hard to understand the bizarre character of Meursault and to make sense of his crime. However, this confrontation proves to be absurd. James Hebron Tarpley affirms that the protagonist, Meursault, "inhabits a space between other spaces, often described using the rubric 'entre x et y'. This young man between sea and shore and sand, between living and dead, between alone and case', between France and Algeria, is forever grappling with his space and identity – metaphor for all pieds-noirs and, by extension, post-colonial existence" [12]. After committing the crime, Meursault is dislocated from his empty and emotionless home to a prison to which Meursault quickly adapts and is no more fluctuating "entre x et y"; "I felt that my cell was my home and that my life was at standstill"[13]. Indeed, the emotions of nothingness that filled his heart made him unable to really sense the difference between a real home and a prison.

Meursault's focus on physicality proves his emotional detachment and sense of alienation As Sprintzen argues, "A lively sensitivity to the play of light and shadow colors his day. The weather, qualitative changes in experience and in the modulations of nature practically enrapture him". Meursault receives signals around him as they are, "asking and expecting nothing more". However, what proves his alienation is that,

on" intensifies the feeling of alienation. However, all these facts were neglected at the time and Algeria was considered part of France, "not a foreign nation containing several million Arabs and Berbers deprived of the rights of citizenship." The situation grows worse and worse and Camus feels frustrated by the 1950s. Zaretsky compares Camus to "his mythic hero, Sisyphus, bolted not to a pillar, but instead to the tragic impasse of Algeria's resistance to a foreign occupation". No one can deny how hard Camus "labored for a solution that would satisfy the imperatives of justice for both Arabs and pieds-noirs, risking his life of an impossible peace since he could not take one side in the political conflict. Camus failed and fell silent - a silence he maintained until his death in 1960"[4].

Similarly, Tayeb Salih realizes the agonies of the era he lived in. Certainly the overall subject matter of imperialism and neo-colonialism echo in Season. Salih admits being influenced by Frantz Fanon who compares colonialism to the act of castrating the colonized nations. That might be the reason behind portraying Mustafa as a person who is obsessed by his masculinity and sexual dominance over the Western women. It is as if the East is reclaiming its dominance through the sexual colonialism of Western females. However, this dominance is shown to be false and fake as the narrative suggests. Despite the success that Mustafa achieves in his retaliation, and despite being portrayed by his lawyer as a victim of cultural confrontation, yet it "is a defense that Mustafa mentally rejects, for he knows he has victimized him-self"[5]. Salih states in one of his interviews that he writes with a mixture of consciousness and unconsciousness. Hence, it is quite normal for a mindful and self-conscious writer to feel alienated when he/she is repeatedly saddened by the prejudices and inequalities that dominant powers exercise in the world. In addition, there is an equal frustration with the motherland that fails to resist or protect its citizens properly.

This emotional frustration with their own cultures and nations might have unconsciously led the three authors to alienation and dislocation. Franz Kafka himself, despite the family constellation and insistence not to leave Prague, cannot resist the urge to dislocate from the suffocating and alien environment he was living in. Therefore, "near the end of his life (1923), […] he became close to his sisters, particularly Ottla, in whose house in Zürau he convalesced in 1917–18 after the diagnosis of tuberculosis"[6]. Physically detaching himself from his home and immediate society might have been his last defense mechanism to escape his depression. Similarly, Gregor, in Metamorphosis, primarily escapes his painful life and excruciating sense of alienation through his physical transformation into an insect[7]; Gregor Samsa feels that he has been treated as a lowly insect and comes to feel that he is one: the story makes the leap from 'I feel like an insect' to 'I am an insect' . Whatever the causes, Gregor's feeling is rooted in the collapse of his nature between impersonal self (outside) and I (inner self)"[8]. After accepting his non-human condition, Gregor is convinced that dislocation might make him and his family feel better; hence, he locks himself in his room and knows that any attempt to reclaim his humanity is not accepted even by his parents. The effect of his dislocation creates a sense of emptiness and nothingness.

Karla S. Minar claims in her article "Shame and Alienation in Kafka's The Metamorphosis" that "the feeling of shame leads to alienation or the estrangement from others and one's own self, as what others see is only a fragment of the possibilities of the self." She believes that "alienation is

resist the hybrid ethos and are extremely attached to their own perspectives to an extent that they would reduce a whole nation to a room. This study examines the urge that Kafka, Camus and Salih portray in their fiction to escape the collective space which proves to be destructive to the individual and their characterization fits Gabriel Zoran's theory of space and time. Zoran argues that characterization "can be conceived of as transformation from the physiological-psychological existence of characters in the world to their textual existence, i.e., dialogues, descriptions, actions, etc., all arranged in a temporal verbal continuum"[1]. He assures that such "transformation is a two-way relationship from the text to the world and vice versa". Zoran differentiates between two major relations in a narrative: *synchronic and diachronic* relations which shall help to analyze the novellas under study.

In 1922, Kafka writes in a letter to his friend, Max Brod,

> But what is it to be a writer? Writing is a sweet, wonderful reward, but its price? During the night the answer was transparently clear to me: it is the reward for service to the devil. This descent to the dark powers, this unbinding of spirits by nature bound, dubious embraces and whatever else may go on below, of which one no longer knows anything above ground, when in the sunlight one writes stories. Perhaps there is another kind of writing. I only know this one, in the night, when anxiety does not let me sleep, I only know this one. And what is devilish in it seems to me quite clear. It is the vanity and the craving for enjoyment, which is forever whirring around oneself or even around someone else… and enjoying it. The wish that a naïve person sometimes has: 'I would like to die and watch the others crying over me,' is what such a writer constantly experiences: he dies (or he does not live) and continually cries over himself.[2]

Kafka clarifies in this deep reflection his dissociation from the common and collectively adopted perspective of space and time. His portrayal of finding clarity amid darkness and absorbing space into the underground empowers anxiety and renders it effective on his soul as a writer. The fable reflects Kafka's own frustrations with the modern age. Metamorphosis can be considered an analogy to the claustrophobic modern era where people have become too mechanical and far from human connection. The novella becomes the equivalent of reality, an object to be perceived and discussed, but lacks a final explanation of its ultimate truth.

Likewise, in "Call for a Civilian Truce in Algeria" published in Algerian Chronicles, Camus expresses the "pressure" of his situation and his "profession as a writer." He shows his struggle and responsibility to bring opposite perspectives closer. He comments on the French/ Algerian struggles saying,

> [m]y only qualification to speak about this issue is that I have experienced Algeria's misfortune as a personal tragedy. Nor can I rejoice in any death, no matter whose it is. For twenty years I have used the feeble means available to me to help bring harmony between our two peoples. To my preaching in favor of reconciliation, history has responded in cruel fashion: the two peoples I love are today locked in mortal combat. The look of consternation on my face is no doubt a cause for laughter. But I myself am not inclined to laugh. In the face of such failure, my only conceivable concern is to spare my country any unnecessary suffering[3].

Robert Zaretsky confirms that "[f]ew writers were more conflicted over personal and national identity than Camus." Since he was a "pied-noir" – the moniker given to immigrants who during the nineteenth century came to French Algeria from other parts of Europe and "becoming citizens of a nation, France, whose language they did not know, and whose language they did not speak, whose history they did not know and whose soil they would probably never step foot

Immigrating into Depression: Claustrophobic Spaces in Kafka's, Camus's and Salih's Fiction Reframe Homeland

Khouloud Al Dimashki
Department of English Literature and Criticism
Lebanese University

Literature has always shown us that when fluctuating between life and death there is an entire life and that life is by no means negative. Departure or reclusion does not mean loss of personal self, nor does refusal deny any substitute existence. The significant issue remains, nonetheless, whether resistance or surrender might be the desired resolution of existential conflicts. Universally speaking, some individuals amidst their darkest moments might choose specific alternates that structure new perspectives and create a more reassuring existence. When one is frustrated with nation's spatiality and temporality, one may reduce all national representations into insignificant claustrophobic spaces hoping to create a better representation of the nation. Immigration which has emerged as a prevailing political issue throughout history and which has always been a source of examination, has amply impacted literature. Advancing into a new country may be to some individuals like advancing into the unknown, into an ever-agonizing exile. Franz Kafka, Albert Camus and Tayeb Salih are writers whose lives and narratives were mapped amidst the most violent times on all ideological levels. The three writers, who upon first look might seem disconnected spatially and temporally, yet when closely inspected, numerous subtle commonalities emerge.

Kafka's Metamorphosis, Camus's The Stranger and Salih's Season of Migration to the North [Season henceforth] have clearly revealed the ramifications of modernity and the political struggles in and outside Europe. The novellas under study meticulously portray individuals (Gregor, Meursault and Mustafa Sa'eed) who have internalized aggression and frustration with the political dynamics which ultimately lead to their demise. The political dynamics and specificities of the twentieth-century systems fashioned an elaborate corpus of universal knowledge that suffocated those who disapprove or resist. Such confrontation has generated new labels and binaries such as "the other", inferior/superior, East/West, colonizer/colonized to name a few. Those who are defined as Others have become marginal to the Empire; consequently, this geographical displacement has left irremediable damage. Thus, some individuals, represented by Gregor, Meursault and Sa'eed, have constructed their own homelands as part of resistance and revenge. Gregor, in Metamorphosis, transforms into an insect and is locked up in a room where he is completely isolated from the bureaucratic and unjust world. On the other hand, Meursault, in The Stranger, commits an unnecessary crime to be sent to prison where the reader accesses the nation with its representations from this claustrophobic space. Sa'eed, in Season, constructs his exotic room in London as a revenge tool against the West, and then he constructs another in Sudan as an emblem of victory.

Those created spaces can be considered as alternate homelands. They are intended to provide security for those who refuse to adapt or conform to the political systems. Such characters

Konicheckis, A. (2008). *De génération en génération : la subjectivation et les liens précoces.* Paris : PUF.
Le Clézio, J.M.J. (2006). *Ourania.* France : nrf. Gallimard.
Majdalani, Ch. (2005). *Histoire de la Grande Maison*. Paris : éd. du Seuil.
Muxel, A. (2002). *Individu et mémoire familiale*, Paris : Nathan.
Stril-Rever, S. (1990*). Le refoulé de l'histoire.* France: Ed. Ramsay.
Winnicott, D.W. (1975). *Jeu et réalité. L'espace potentiel*. Paris: Gallimard.
Winnicott, D.W. (1995). *La mère et son enfant*. Paris : Payot.

Revues

CANTOR-GRAAE E., PEDERSEN CB, Full spectrum of psychiatric disorders related to foreign migration: a Danish population-based cohort study. JAMA Psych, 2013 Apr, 70(4) : 427-35 cité par Édouard Leaune, et Halima Zeroug-Vial, Psychose et migration : entre clinique, épidémiologie et politique *Dans revue* Rhizome n°52 - *Santé mentale et santé publique distance et proximité de disciplines connexes. Juin 2014*
Chahine Al Chabab, N. (2012). Family space and architecture in Lebanon. *Journée d'études- Palais de l'Unesco- Psychothérapeute, Profession et Éthique* ; vol 1-Mai 2012, 174-192.
Granjon, E. (2014). Migration : projet de vie ou rupture imposée ?, *Humanitaire*, 37 | 2014, 66-73.

Références électroniques

Barthélémy, C. & Demangeat, M. (2006). Le roman familial et son expression littéraire : René Crevel. *Imaginaire & Inconscient*, 18(2), 55-70. https://doi.org/10.3917/imin.018.0055
Boyer, A. (2006). Le lieu et le lien. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, nº 37(2), 9-16. https://doi.org/10.3917/ctf.037.0009
Bruyère, B. (2014). Une aventure humaine : la migration- Approche des processus inconscients prémigratoires. Thèse de doctorat en psychologie, Université Lumière - LYON 2-École doctorale EPIC -Institut de psychologie
Chapellon, S. & Houssier, F. (2016). Une allégorie du vacillement identitaire potentiellement provoqué par la migration : *Amok*. *Filigrane*, *25* (2), 145–161.
https://doi.org/10.7202/1039652ar
Eiguer, A. (2007). Migration et faux-self : perspectives récentes. *L'information psychiatrique*, volume 83(9), 737-743. https://doi.org/10.3917/inpsy.8309.0737
Fabregat, M. (2009). Défauts de transmission symbolique dans la migration. *Dialogue*, 185(3), 29-42. https://doi.org/10.3917/dia.185.0029
Goldbeter-Merinfeld, É. (2006). Maisons et liens familiaux. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, nº 37(2), 35-53. https://doi.org/10.3917/ctf.037.0035
Graschinsky de Cohan, G. (2002). Histoire, migration et déracinement : le legs de Marie Langer. *Topique*, nº 80(3), 63-79. https://doi.org/10.3917/top.080.0063
Grima, M. (2006). Quitter les lieux.... *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, nº 37(2), 107-120. https://doi.org/10.3917/ctf.037.0107
Jugian-Perez, H. (2006). L'intraduisible. Deuil, mémoire, transmission de Janine Altounian **[1]**. *Revue française de psychanalyse*, vol. 70(5), 1659-1664. https://doi.org/10.3917/rfp.705.1659
Nayla de Coster IPA*, (article non daté)* L'autre langue, pensées psychanalytiques sur la migration, la perte de culture et de la langue. http://www.psychoanalysis.today/CMSWebParts/CustomVAControls/ArticlePDF.ashx?NodeID=402&Culture=fr-FR
Vigouroux, F. (2006). Dans la peau de la maison. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, nº 37(2), 17-21. https://doi.org/10.3917/ctf.037.0017
www.vincentdeGaulejac.com *(article non daté)* Comment notre famille et nos ancêtres nous lèguent une névrose de classe. *Nouvelles Clés*-Publié en 2010.

La migration trouve son sens dans les liens qui y sont rattachés et dans les lieux qui leur servent d'enveloppe.

Pour clôturer notre réflexion imprégnée par notre situation libanaise, la migration serait le retournement en son contraire d'un trop de patriotisme blessé, traumatisé, impossible à être symbolisé.

Des interrogations restent à étudier:

1-Peut-on émigrer sans partir ? l'ermite, le solitaire, l'ambulant, le refuge dans la vie communautaire…est-ce une migration?

2-D'autre part, être « un étranger de l'intérieur »[6] (Altounian, 2019, p.156) ne manque pas de peine pour ceux qui l'éprouvent et dont la situation nécessite un support et une contenance. Ce sentiment d'étrangeté en dehors de la migration, quelles en sont les causes ? Comment y remédier ?

3-Quelles seraient les motifs inconscients qui résident derrière la migration ?

(Cette dernière question est le sujet d'une étude en cours.)

Un mot en guise de résumé: Partir c'est aller de soi même vers soi - même pour connaitre sa vérité. Ou bien disons-nous avec Gibran Khalil Gibran dans Le Prophète que regarder de loin permet de mieux voir, étant donné que la migration crée une distance entre la personne et son cadre de vie habituel.

Quelle que soit la migration, désirée ou pas elle se conjugue avec l'angoisse de séparation qui, elle, ne peut être désirée. De plus, elle n'est pas exempte d'attendrissement et ne fait qu'appeler en chacun de nous une chanson exprimant une nostalgie au pain fait par la mère, celle de Marcel Khalifé, la mieux indiquée pour clôturer notre réflexion: " أحنُّ إلى خبز أمّي" (Darwich, 1965).

1-Concept créé en 1974 par Anzieu D. Voir Anzieu, D. (1985). Le moi –peau. Paris : Dunod.

2-Le *roman familial* est une expression de Freud. « Le « Roman Familial » évoque l'activité fantasmatique considérée par Freud comme moyen propre à chacun, confronté à la question œdipienne, d'une réorganisation imaginaire des liens parentaux. » (Barthélémy, C. & Demangeat, M. (2006).

3- « Objet transitionnel » est un concept créé par Winnicott (1971, p.32). Il est employé ici pour comparer les objets artisanaux à des objets transitionnels.

4- « Défense contre l'angoisse » *Ibid*., p.32.

5-N.B. Cette partie de la vignette seulement est transmise ici vu son lien direct avec le sujet de l'étude. Le suivi avec Bassim n'en fait pas partie.

6-Appellation donnée par Serge Leclaire à une émission de France culture *« Le Bon Plaisir de Jean Laplanche »* à laquelle l'auteure avait participé. « C'est dans une position d'extériorité […] qu'il travaillait et accueillait ses étudiants étrangers. » (p.156)

Bibliographie

Altounian, J. (2019). *L'effacement des lieux*. Paris : PUF.
Altounian, J. (2004) « De quoi témoignent les mains des survivants ? De l'anéantissement des vivants, de l'affirmation de la vie » in Témoignage et trauma, Implications psychanalytiques, dir. J. F. Chiantaretto. Paris : Dunod.
Anzieu, D. (1985). *Le moi –peau*. Paris : Dunod.
Bourdin, D. (2000). *La psychanalyse de Freud à aujourd'hui, Histoire Concepts Pratique*. France : Bréal.
Chédid, A. (2015). *L'ancêtre sur son âne et autres nouvelles*. Paris : Didier.
Cyrulnik, B. (1989). *Sous le signe du lien.* Paris : Hachette Littératures.
Eiguer, A. (2008). *Jamais moi sans toi*. Paris : Dunod.
Fédida, P. (1978). *L'absence*. Nrf. Gallimard. France.
Foulkes, S.H. (1970). *Psychothérapie et analyse de groupe*. Paris : Payot.
Klein, M. (1968). *Envie et gratitude et autres essais*. Paris : Gallimard.

Synthèse

Rouba et Bassim ont tracé, chacun à sa façon, le chemin parcouru non sans difficulté, par des migrants ayant été arrachés à des objets chers: lieux peuplés d'histoires, d'aventures, de parents, d'alliances inconscientes, de secrets peut-être, d'images de toutes les couleurs et de toutes les saveurs.

Aussi « La souffrance qui découle de la séparation d'avec sa terre natale peut se traduire en termes de rupture avec le corps maternel ». (Kaës, 1998, cité par Chapellon et Houssier, 2016, p.149).

Cela nous rappelle chez Goldbeter-Merinfeld (2006) quand la description du passé (des lieux) concerne tous les sens: en nous remémorant un lieu du passé on re-voit les images, on sent les odeurs et on entend les sons. On remarque cela surtout « lorsque dans un contexte de décès ou de départ, on est amené à revisiter des lieux où l'on a vécu dans le passé, que l'on a quittés mais qui ont continué à être occupés par des parents âgés. » (p.41).

Il en est de même pour le migrant qui, soit il fait cet acte de visite, soit il continue à le rêver, se le représenter afin de s'y accrocher comme assise pour rebondir et avancer…

Dans les deux vignettes, l'emboitement des lieux: la maison *Beit Jeddi*, le village des ancêtres, le pays des origines et la terre-mère source de quiétude, cet emboitement nous rappelle «la préoccupation maternelle primaire » de (Winnicott,1995), seul refuge où l'être baigne dans une plénitude complète.

Ainsi, plus la frustration déclenchée par la migration est pesante, plus la joie des retrouvailles est grande, tout comme « la retrouvaille du bon objet [devient] plus ardue pour l'enfant. » (Klein, 1957, p.26). Aussi, l'espoir, la réconciliation avec le départ, l'attente du retour, tel le for-da décrit par Freud pour témoigner de l'espoir de l'enfant dans le retour de sa mère- seul moyen de lui épargner le danger de la perdre et de souffrir des séquelles pour la vie- est le désir de vie triomphant qui couronne l'attente du migrant.

Conclusion

La migration: entre fantôme et symptôme

Comme un adolescent dans sa relation avec la notion d'identité, le migrant dans son nouveau lieu, vogue entre la recherche qu'il entreprend et la liquidation de cette recherche et cela soit par la révolte soit par la soumission soit par une adaptation aboutie non sans difficulté.

L'action d'émigrer est un passage, un pont rêvé pour être franchi dans l'espoir de mener le sujet, sûr de réaliser son désir ailleurs, à l'autre bout du monde, le monde auquel il tâcherait d'appartenir.

Plus encore, comme l'adolescent, il se révolte contre son vécu avec tout ce qui le constitue: personnes et choses, lieux et liens. Et s'en va. Là- bas, on le voit aimer les personnes qu'il a voulu haïr, se rattacher aux choses desquelles il a voulu se détacher et dessiner pour y habiter les lieux qu'il a cru vouloir fuir. Quant à ses souvenirs, on découvre le migrant, dans son nouveau pays, chercher à sentir l'odeur de l'air et des délices de son pays.

Analyse

Cette vignette est centrée sur la maison, la terre –mère (ou la mère –terre), la recherche des origines, le besoin même à 95 ans de reconnaitre son père, voir son visage, le besoin d'une référence et de re-nouer lien avec le lieu des origines.

La maison couvre plusieurs symboles en lien avec le présent contexte parmi lesquels:
-Symbole de la présence du père que les enfants et petits-enfants n'ont pas connu. -Symbole du ventre de la terre –mère qui a été inlassablement recherchée par un enfant (la petite-fille âgée déjà) de la troisième génération.

La maison de grand-père *Beit Jeddi*, appellation donnée par plus d'un membre de la famille, à la maison, la même maison, celle du grand-père qu'ils n'ont pas connu, traduit l'écriture et la reconnaissance du roman familial par tous les membres. Ce nom donné à la maison exprime un sentiment de loyauté et un besoin d'appartenance, d'identité commune.

La rencontre par le moyen d'internet dénote le manque vécu par la petite-fille d'Amérique, manque hérité et qui n'a pas arrêté d'agir afin de pouvoir achever le dessin de l'arbre de sa famille.

Il est à noter aussi l'attachement de la fille de Bassim à sa grand-mère paternelle, et l'insistance de lui réaliser son désir de voir le visage de son père avant de mourir, faisant plaisir en même temps à son père.

Comme le dit Ulivucci (2014), « La photographie aidera dans ce cas à élaborer l'absence et à entériner la séparation d'une histoire ancienne en inscrivant la transformation observée » (p.267).

Le sens est tel que: on-t-a besoin de la référence à un Ancêtre: celui qui délimite les racines, sécurise, confère à l'identité recherchée toujours. Aussi on-t-a besoin d'un espace où se situer. La visite annuelle de Rabih, son retour sur le lieu de naissance de ses ancêtres « est un acte particulièrement porteur qui peut révéler ce qui a été inscrit et ancrer une nouvelle naissance à soi-même. » (Ulivucci, 2014, p.267). Aussi ce retour explique « l'histoire personnelle », « familiale » et « collective ».

Le lieu - la maison- est la couverture du roman familial, celle qui rassemble ses pages. Histoire, émigrants, morts et vivants tous passent du fantasme au réel rien que par l'espace palpable dessiné par les murs et le pavé de cette maison. Quand on dit maison on voit, on entend les voix de ses habitants, on sent les odeurs de mets délicieux, la terre humide du jardin. La maison c'est le lieu qui donne la carte d'identité. Elle condense les liens entre les membres qui n'ont pas eu l'occasion d'y vivre. La maison symbolise la langue, la culture, elle restaure l'équilibre en faisant preuve de présence, tolérant ainsi l'absence, comme si chacun disait à ses parents et grands- parents: voilà nous sommes là !

rejoint le *faux-self* et la basse estime de soi dont parle Eiguer (2007) comme étant dépendante « de l'appréciation extérieure ». De même l'ethnologie comme spécialisation exprime une soif de savoir sur les peuples et sur les cultures.

L'expression « C'est l'enfer ! » prononcée par Rouba désignant sa vie familiale, nous rappelle la phrase célèbre de Sartre « L'enfer, c'est les autres ». Pour Rouba, l'enfer c'est partout en dehors du Liban, pays de sa mère qui lui donne chaleur et sécurité compensant les déplacements de son grand-père maternel, de sa mère, de ses grands-parents paternels, de son père partant au Brésil, ainsi que la migration de Rouba après sa naissance au Brésil et son départ en France.

L'avancement des séances a permis à Rouba de renouer avec une image de la culture maternelle (thérapeute parlant sa langue maternelle).

Cette série de migrations secoue l'équilibre psychologique de chaque membre de la famille et laisse des blessures: celle du grand-père maternel quittant la Grèce, celle de la mère de Rouba quittant le Liban, celle de son père quittant son pays d'origine et celle de Rouba qui vit la douleur héritée de ces migrations.

2- Bassim ou la maison des origines connue par *Beit Jeddi*

Histoire de longue date relatée par Bassim, entrepreneur en retraite. Bassim est venu consulter pour une difficulté de vivre, un malaise ayant émergé après sa retraite, suite au mariage de sa fille et sa situation, seul, à la maison, chaque fois que sa femme et son jeune fils partent au travail.

Bassim n'a pas connu ses grands-parents. Ses arrières grands-parents ont quitté le Liban pour l'Amérique en 1910 avec quatre petits garçons nés au Liban. Devenu adulte, Nabil, l'un des quatre frères, est retourné dans son village d'origine au sud Liban, s'est marié avec Ghiwa et ont eu trois enfants: Hayat et deux garçons. Nabil est mort quand Hayat, sa fille, avait deux ans et ses deux frères quatre ans et six ans.

Les trois autres frères de Nabil sont restés en Amérique et les années ont passé... Récemment, après trois générations, la petite –fille de l'un d'eux cherchait sur internet pour trouver les noms de sa famille au Liban. Elle cherchait son origine et son village. La fille de Bassim, fille unique mariée, elle-même archéologue, a vu les noms recherchés …et les deux femmes ont communiqué sur internet et se sont échangé des photos. La femme d'Amérique envoie des photos, parmi lesquelles une sur laquelle il y a le père de Hayat avec ses trois frères en Amérique. C'est comme ça que Hayat, à 95 ans, deux ans avant sa mort, dans son village, voit la photo de son père pour la première fois.

Le père de Hayat avait bâti, dans le passé, une maison de pierre taillée que tout le monde nomme *Beit Jeddi*. Référence. Celui qui a hérité de cette maison est Rabih, l'un des neveux de Hayat (fils d'un de ses deux frères) qui vit lui-même en Amérique. Chaque été, il vient avec sa famille dans cette maison, et toute la grande famille du village et du village voisin, celui de la mère, se rassemble au sein de *Beit Jeddi*. […][5]

La peur de la migration, du déplacement, sentiment provenant des racines grecques de la mère, apparait chez Rouba dans son désir exprimé de venir vivre au Liban. Le sentiment de contenance non assurée de la part de la mère à qui cela manquait aussi, la sécurité recherchée ne pouvait être sentie qu'au Liban, là où sa mère aussi se sentait en sécurité. « Ma mère ne cesse de répéter qu'elle vit dans un pays étranger », insiste Rouba.

La loyauté trahie (sentiment inconscient de la mère) aurait contribué à renforcer les causes du divorce de la mère, et réside derrière le refus de grossesse. Par la suite, le fait d'avoir un enfant unique, lui aussi, aurait des motifs inconscients en lien avec le fait d'avoir quitté ses propres frères et sœurs nombreux pour vivre un sentiment de solitude dans un pays étranger (le Brésil tout d'abord). Ce sentiment que la mère a vécu avec amertume dans le nouveau pays a été éprouvé également par Rouba, unique, sans fratrie, sans cousins, sans amis(es) et sans partenaire.

La recherche de place par Rouba (à sa première séance elle ne savait où s'assoir) et le désordre de sa chambre témoignent d'une indécision à l'égard de sa situation et de sa juste place.

La difficulté de laisser sa mère pour aller vivre seule, la consolation après les disputes, l'aide assurée à sa mère en lui donnant son avis sur des achats pour la maison et bien d'autres sujets, témoigne d'une inversion des rôles mère-fille ; la mère ayant besoin de sa mère qu'elle avait quittée à l'âge de vingt ans.

L'inversion du rythme nuit/jour peut s'expliquer par le fait que Rouba garde le rythme de son pays de naissance, le Brésil. Sa décision de ne pas se marier ni d'avoir des enfants nous renvoie à l'impasse généalogique dont parle Gaulejac et à laquelle Tisseron (cité par Gaulejac, n.d) ajoute l'idée d'« une loyauté familiale invisible qui empêche [l'individu]de s'en libérer. »

Même sa thérapie, Rouba l'a entreprise au Liban, espace, lieu et langue maternelle ayant pour elle un rôle salvateur, contenant. La langue maternelle représente le lien avec la mère: lien de sa mère avec sa mère et lien avec la terre-mère, terre de son pays d'origine.

Aussi Rouba reçoit des sentiments transmis et lourds: peur transmise de la génération de ses grands-parents maternels et paternels, peur d'être attaché à un pays et de le quitter.

Frustration transmise de la mère à la fille parce que la mère a été frustrée par sa migration: quitter sa terre et quitter sa mère se rejoignent et se confondent. Il y a aussi frustration du père héritée de ses parents italiens et frustration du grand-père maternel.

Par son rêve de vivre au Liban, elle exprime le besoin d'appartenance culturelle et d'intégration éprouvé par ses ascendants dans les deux branches maternelle et paternelle.

Le choix du cinéma comme spécialisation ouvre sur le désir de remplir des rôles variés témoignant d'une recherche d'adaptation à la société où vit Rouba et à laquelle elle se croit intégrée. Cette non ressemblance diminue son estime de soi et sa sûreté qui fait qu'elle n'a pas d'amis(es). Cela

et pleurait longtemps dans son berceau. Sa mère la laissait pleurer et ne la consolait pas.

Quand Rouba a quatre ans, la famille de trois déménage en France. Quand elle prononce ses premiers mots, elle parle le libanais, langue de sa mère…Depuis toujours, Rouba et sa maman visitent le Liban deux fois par an et chaque fois, quand vient le moment de retour, Rouba fait 39 de température…

Actuellement, Rouba a deux masters en sciences du cinéma et ethnologie ; n'a jamais travaillé. Elle dort le jour et se réveille la nuit. N'aime pas manger. Endure de constipation. Garde toujours sa chambre en désordre ce qui ajoute une cause à ses disputes avec sa mère.

Rouba souffre de n'avoir jamais réussi sa relation avec sa mère, jamais trouvé un partenaire, jamais eu une amie pour une longue période, jamais sentie proche de ses cousins et cousines. Rouba n'a envie de rien faire, elle n'a pas confiance dans les autres. Le sentiment de méfiance lui a été inculqué par sa mère qui lui répétait: « on ne sait pas ce que les autres veulent de nous, ils sont tous des étrangers ». Rouba se trouve obligée de rester proche de sa mère, « je ne peux pas m'éloigner d'elle, elle ne me laisse pas faire », confirme-t-elle.

La dynamique relationnelle familiale est telle que la mère se considère comme victime et culpabilise sa fille et son mari sans raison apparente de n'importe quoi. La relation conflictuelle et perturbée avec sa mère que Rouba décrit comme manipulatrice se traduit par des oppositions, une dévalorisation de la part de la mère, des reproches. Rouba se met en colère, est irritée, révoltée, mais juste après elle se sent coupable, apaise la colère de sa mère et se soumet à sa volonté.

« C'est l'enfer !», répète Rouba dans chaque séance, « C'est l'enfer ! »
« Moi, je ne veux pas me marier, ni avoir des enfants », dit –elle.
« Je veux venir vivre au Liban ! » déclare –t-elle après plusieurs séances, je veux vivre ici.

Analyse

Le choix du Liban pour sa thérapie exprime le besoin de nouer un lien avec ce lieu. Aussi son désir verbalisé met des mots sur le désir de sa mère, désir non-dit qui n'a pas cessé d'exister et de la travailler durant plus de trente ans.

La culpabilité vécue par la mère du fait d'avoir laissé ses parents et d'être partie, culpabilité refoulée et non seulement transmise à la fille mais aussi projetée sur elle comme quoi c'est elle qui est fautive à l'égard de sa mère.

Le sevrage de la petite (non allaitée au sein) n'est que sevrage affectif transposé sur elle et dont a dû souffrir la mère au moment de sa séparation d'avec sa propre mère. Plus encore, il serait le sentiment de sevrage de son grand-père maternel éloigné de son pays. D'autre part, comme le dit Klein (1968) « un enfant qui souffre de difficultés alimentaires peut éveiller l'angoisse et la culpabilité de la mère, […]. Il existe donc une interaction constante entre le monde intérieur et extérieur, […] » (p.136).

La migration entreprise comme étant un *naître ailleurs ou naître autrement ou naître à nouveau* –tel qu'on l'entend souvent– n'est pas une naissance ; elle est un passage, une traversée. Cependant, elle ressemble à un acte de naissance dans la mesure où son arrivée introduit un sujet nouveau dans un milieu nouveau et dans la mesure où cette arrivée a été plus ou moins attendue, rêvée, désirée.

Pour clôturer ce mouvement transitoire et achever la trajectoire de passage entre deux milieux différents et deux cultures différentes, « Le migrant pourra à la fin de cette crise se redéfinir et vivre dans deux cultures. » (Akhtar, 2007, cité par Fabregat, 2009, p.32).

Le mouvement migratoire devrait s'achever et, à chaque migrant sa façon de le faire. « Certes, l'individu fera, dans le cas heureux, un travail de deuil ; il élaborera sa nostalgie, ses pertes ; […] » (Eiguer, 2008, p.739).

Il est toutefois sûr qu'un accueil contenant et un environnement *suffisamment bon* ont une grande part dans la transformation de l'hostilité du nouveau milieu en un *bon sein* où des éléments *alpha* contenants contribuent à soulager la peine de la migration. Pour Klein (1968), l'angoisse, le sentiment d'hostilité, la persécution, reviennent à la qualité de la relation qui a été bâtie avec la mère (le sein maternel). Elle exprime cela ainsi: « Que la relation […] aux autres personnes de son entourage puisse aider ou non l'enfant à surmonter cette douleur dépend en grande partie de ses affects à l'égard de son unique objet perdu. » (Klein, 1968, p.41).
Quand la migration se dessine sur l'une des branches d'un arbre d'une famille, il faudrait en parler, la résorber, en faire le deuil. C'est une séparation qui, non élaborée, gardera l'ombre de sa peine sur toute la vie de la personne, ou d'une autre ou plus qu'une autre de sa famille.
Conter le roman de sa migration, parler de son expérience, mettre en mots ses affects, émotions, pensées et angoisses permet de les éclairer et de les élucider.

De la clinique

1-Rouba ou le mal de l'étranger

Rouba, 36 ans, vient consulter pendant son séjour au Liban.
Rouba vit en France avec ses parents. Elle est enfant unique d'une mère migrante moitié libanaise moitié grecque et d'un père italien dont les parents avaient émigré de l'Italie. Issue du deuxième mariage de la mère précédemment mariée à l'âge de vingt ans à un Libanais avec qui elle a vécu au Brésil, puis divorcée sans enfants (la difficulté de conception serait un refus inconscient de grossesse pour garder un espoir de rompre et retourner dans son pays tellement elle avait souffert de son départ du Liban). Elle avait mal vécu cette séparation d'avec sa famille et son pays ; là-bas, divorce et deuxième mariage avec le père de Rouba.

Le père est le fils aîné d'une fratrie de deux garçons de parents ayant déménagé de l'Italie depuis longtemps. Très attaché à sa mère.

Rouba est née au Brésil, y avait vécu ses premières années d'enfance.

Enfant, elle pleurait tout le temps, non allaitée au sein, refusait le biberon puis la nourriture

Suite à un deuil non fait, à la migration-séparation non élaborée, des perturbations du sommeil: cauchemars, insomnies, une maladie du corps ou de l'âme, un ou plusieurs échecs, une faillite ou tout simplement un attachement exagéré à son partenaire ou à ses enfants dévoilent la peine enfouie. Cette peine peut s'exprimer à travers des rythmes de vie ou de travail exagérés, elle peut trouver remède au moyen d'activités, de mouvements et de groupements dans le nouveau pays (la diaspora libanaise en est un exemple), ou aussi par la création artistique où un deuil non fait encore se trouve facilité par la création d'un objet artisanal, une peinture ou une écriture. D'où les boutiques artisanales tenues par les migrants exposant des motifs variés symbolisant leur pays d'origine. On voit les migrants transporter inévitablement, dans leurs bagages, des produits locaux surtout les aliments traditionnels de leur pays ; ces objets aussi, à côté de leur symbolique orale, maternelle, affective, sont en une sorte des objets transitionnels sécurisants.

La bouteille d'huile de rose signalée par Altounian (2004) dans « Finalement, à part la bouteille d'huile de rose, rien, rien n'est resté. » (p.41), et « On n'avait rien que la bouteille d'huile de rose » (p.42), peut en être un exemple quoique ciblant, en même temps, beaucoup d'autres symboliques et interprétations.

Chacun de ces objets devient un « objet transitionnel »[3] qui joue le rôle de « défense contre l'angoisse »[4].

Eiguer (2008) trouve que la différence culturelle à la base du sentiment d'étrangeté et d'inadaptation pose le problème de majorités et de minorités. C'est lorsque la spécificité d'un sujet appartenant à la minorité est reconnue, et « cela est le produit d'un long travail » (pp. 59-61) que le sujet est mieux intégré et son estime de soi retrouvée.

La reconnaissance de la différence est une solution à cette problématique.

Fin de la crise

Au printemps, [les goélands] ils sont revenus sur leur site de naissance et là, ils se sont reconnus. » (Cyrulnik, 1989. p.8-9)

L'effet de la migration, sa marque, est un tableau peint en différentes couleurs et se manifestant sous multiples formes, aspects ou sentiments: un penchant artistique ou un métier déterminé, un parcours précis, une soif inlassable d'amour en vue de combler un manque ou un désir - *un seul être vous manque et tout est dépeuplé* (Lamartine)- un trouble psychologique, le refrain répété par les uns et les autres de vouloir retourner mourir dans son pays d'origine ou qu'on soit enterré dans la terre où étaient nés ses ancêtres… Cette trace/blessure, non seulement elle prend multiples formes, mais aussi elle se pose sur n'importe quel individu et n'importe quelle génération et peut-être aussi sur toute la structure de la famille ainsi que sur les liens qui la régissent: liens, conflits, coalitions ou oppositions, attachements, identifications…Et cela, tout en parle: le dessin d'un petit-fils de la troisième ou la quatrième génération, le silence d'un adolescent ou la douleur d'exister d'un adulte dont la cause est difficilement identifiable.

L'auteure évoque « les effets des migrations » en se posant des interrogations autour de la solution qui serait engendrée par la suite dans le cas où des confusions, des clivages et des défauts de symbolisation se présentent. Aussi, elle se pose des interrogations autour du caractère traumatique de la migration et autour de la possibilité de se manifester « dans un après-coup ».

Dans d'autres cas, certains migrants expriment « leur marginalité » par « la délinquance » ou « par l'addiction » (Eiguer, 2007, p.740).

Migration et « douleur d'exister »

Le cours de la vie de la personne est marqué par la migration qui, elle, n'est pas neutre. Que de fois souffrance, peine ou conflit, colère ou autres émotions et états d'âme trouvent leur sens dans les coins et recoins du lieu quitté ou du lieu retrouvé, ou aussi dans la « douleur d'exister » loin d'un objet aimé: chose, lieu ou personnes. Ces coins sont à la manière de « placards » où un « fantôme » peut être caché à notre insu et cette souffrance se lie à un deuil non fait avec un sentiment autour de la migration ou de n'importe quel corollaire de la migration.

Quel que soit le désir ou le non- désir du migrant – parfois c'est le désir de ses parents ou même il a été le désir de ses grands-parents – son existence tend à inter-agir avec ses racines. Ceci se fait soit en les tirant et en les étirant jusqu' au dernier bout du monde, soit en essayant vainement de s'en détacher, soit de régler des dettes envers elles pour se sentir exaucé, pardonné de la faute de s'être éloigné de son monde, soit encore son existence souffrira de la peine d'être là par force comme tirant à contre –courant de ses racines plantées dans le terreau du pays de ses ancêtres.

Migration … crise

La migration est comme une blessure. Une fois-là, elle est soit pansée soit béante, avec ou sans points de suture, mais elle a existé, elle a saigné et son souvenir ébranle le cœur. Cicatrisée ou pas, elle est là et tout se fait en fonction d'elle, pour la cacher ou pour l'exhiber, pour en parler avec fierté, avec peine, avec rationalisation, ou pour la taire, la nier…Ainsi, le retour et les retrouvailles deviennent le rêve éternel du migrant comme si un inversement de rôles s'inscrit entre la terre des origines et la nouvelle destination qui, elle, dans le temps, a été son premier rêve. Certains auteurs pensent la migration « comme une crise de croissance qui, à la suite des crises typiques de séparation-individuation de l'enfance et de recherche identitaire de l'adolescence, conduit à la création d'une troisième individuation à l'âge adulte. » (Akhtar, 2007, cité par Fabregat, 2009, p.32).

Konicheckis (2008) souligne que le lien entre le familier et l'étranger est bouleversé et le migrant, avec ce sentiment inquiétant à l'intérieur de lui-même, peut expulser dehors « les objets persécuteurs, les étrangers en soi » (p.214), et aller adhérer excessivement à un idéal religieux ou autre.

Toute situation nécessitant une adaptation ne se fait pas sans prix. Ainsi, « Il est probable que l'adaptation à tout environnement, même à celui où le sujet est né, se réalise au détriment de l'épanouissement, fût-il minime, du *self* authentique. » (Eiguer, 2007, p.740).

De Coster (*n.d.*) décrit le développement d'un *faux-self* provenant de la difficulté de confrontation avec l'autre. « Lorsque les migrants se retrouvent confrontés à " l'autre, l'étranger ", ils peuvent avoir recours à des mécanismes de défense qui pourraient être d'abandonner ou de nier [leur] identification culturelle afin de mieux intégrer un nouveau groupe … » (*L'autre langue*, 1er paragr.) ; cet abandon ou ce déni comme solution pour ressembler à l'autre et pour intégrer le nouveau milieu pourrait finir par développer « un faux –soi ».

À l'extrême, l'aboutissement du *faux-self* ressemble à celui de l'impasse généalogique signalée par Gaulejac (2010), qui consiste en une réaction faisant apparition « pour satisfaire à la demande parentale » (5ème paragr.). L'impasse généalogique existe là où il y a « contradiction » à tel point que la demande peut être opposée complètement à la volonté des enfants menant alors le sujet à s'« aliéner », à s'« assujettir au désir de l'autre. »

Et les maladies…

Plusieurs études se prononcent au sujet des maladies mentales en lien avec la migration, parmi lesquelles:

Une étude épidémiologique danoise (Cantor-Graae et Pedersen, 2013) a délimité les types de pathologies mentales déclenchées par l'expérience de la migration, soulignant que ceci varie selon que les générations concernées par la migration sont en lien direct ou bien par un lien de transmission.

Dans cette étude, Cantor-Graae et Pedersen, (2013, cité par Leaune et Zeroug-Vial, 2014) notent que « […] les enfants d'immigrés et les personnes adoptées nées à l'étranger présentaient un risque pour l'ensemble des pathologies psychiatriques (schizophrénie, troubles de l'humeur, trouble bipolaire, toxicomanie, trouble de personnalité, anxiété…) » (p.14). La même étude précise que « les immigrés voient leur risque augmenté de présenter une schizophrénie ou une pathologie du spectre schizophrénique, mais sont moins exposés à l'émergence de troubles de l'humeur, de trouble de personnalité ou de toxicomanie. » (*Ibid.*, p.13).

Ainsi, que ce soit directement ou à travers une histoire d'exil, la schizophrénie s'avère être la pathologie la plus manifestée.

Pour Fabregat (2009) « Les maladies " typiques des migrants " mettent souvent en évidence les difficultés des patients dans l'élaboration des pertes. Les tendances à réinstaurer des relations primaires symbiotiques, mélancoliques ou envahissantes, barrant l'accès à un espace psychique propre, apparaissent [.] » (p.30). Elles sont parfois l'expression d'une problématique déjà existante et lointaine dans le temps avec les figures primaires. Toujours d'après Fabregat (2009), « Ces maladies s'expriment sous différentes formes: somatisations d'origine psychique, dépressions, régressions aux dépendances infantiles liées à des angoisses et à des peurs incontrôlées. » (p.30).

fantasmé d'émigrer qui attend la constitution d'une cause plausible et convaincante pour la personne elle-même ainsi que pour les autres pour agir. Tandis que dans l'après, se trouvent gravés deux mondes: l'un réel, concret, et l'autre fantasmé encore. Ce moment entre l'avant et l'après va être introduit au sein de l'histoire de l'individu et des générations, de leur roman familial et contribuer à la création du roman de la migration. Ce nouveau roman va s'insérer au sein du roman familial. Cela ne se fait pas sans difficulté. Et cette intégration est d'autant plus assimilée que les conflits inconscients sont mieux élaborés. Ceci est nommé par Graschinsky de Cohan (2002) « changement migratoire » (p.63).

Les changements que l'individu va subir et manifester du fait de la migration seront également reflétés sur son groupe familial du fait de l'influence mutuelle entre l'individu et le groupe.

Ce moment-là, cette action de migration varie entre deux pôles d'adaptation, allant du refus à l'aliénation.

Le *self*

Entre les deux pôles: refus et aliénation, le *self* de l'individu cherche à atteindre une plus ou moins bonne acceptation de la nouvelle appartenance donc bonne adaptation.

Le *self* de l'individu est dans une grande part influencé par l'action de l'environnement extérieur.

Au cours de ses œuvres, Winnicott explique le vrai *self* comme étant produit par la liberté des mouvements psychiques. Pour Winnicott (n.d, cité dans Bourdin, 2000), « Le *faux-self*, en revanche, provient des rapports établis avec le monde extérieur, et la scission entre vrai et *faux-self* se produit chez tous les individus à des degrés différents. » (p.183). Il trouve que le *faux-self* est même capable de faire disparaitre le vrai « lorsque l'environnement n'a pas été assez favorable. » (p.183).

Kohut (1971, cité par Eiguer, 2008) trouve que le *self* « serait capable d'autonomie et en conséquence d'apparaître isolé du milieu et non pas en interdépendance avec lui. » (p.109). Aussi, il insiste sur le besoin de la personne d'être approuvée dans ce qu'elle fait et d'être vue comme semblable aux autres de son milieu. Cela lui procure un sentiment de confort nécessaire pour le sens de soi.

Pour Eiguer (2007), l'individu va subir un trauma qui implique des changements au niveau de la personne elle-même aussi bien qu'au niveau de sa famille ; « il en sortira un autre soi-même », exprime bien l'auteur qui considère le *faux-self* comme une « solution adaptative ». En même temps, il évoque la migration et le *faux-self* pour dire que « l'adaptation requiert la déformation de son *self*, construisant une figure en faux. » (p.739).

qui y réside, mais de plus, il constitue un lieu d'ancrage de la mémoire familiale. (p.37). Le lieu est notre stabilité, notre repère. Un lieu, qu'on a quitté - une maison, un quartier, un pays - on en a besoin.

En parlant des maisons, Goldbeter-Merinfeld (2006) signale qu'« En effet, nous avons tendance à habiller nos maisons de rêves, de déceptions et d'espoirs, et leur « immobilisme » (même si on les quitte pour aller vivre ailleurs) font qu'elles demeurent les repères de notre histoire. » (p.46).

Étrangeté et groupe

Pour le migrant, le nouveau pays est un nouveau groupe. Et là, une place lui sera accordée de la part de ce groupe qui projettera sur lui multiples regards. Ainsi le migrant sera vu et regardé comme étranger, rival, conquérant, manquant de, inconnu, dépendant, soumis, intrus. Aussi sera-t-il avalé, dissimulé, bouc émissaire…Son sentiment dépend largement de la façon avec laquelle lui-même vit le groupe. Le sentiment d'étrangeté est renforcé par la représentation qu'a le migrant du regard du nouveau groupe à son égard.

Foulkes (1970), par son approche du groupe, déduit que l'héritage culturel gagne sur l'héritage biologique. L'un des concepts qui basent sa théorie c'est *l'effet du miroir* qui fait que l'homme parvient à se connaître lui-même à travers les autres. En même temps, chaque membre a des caractéristiques communes avec les autres. Foulkes insiste sur la « *matrice de groupe* comme base opérationnelle de toutes les relations et communications. » (p.117). Cette théorie atteste que l'essence de l'homme est sociale et non individuelle ; d'après elle, toute séparation entre individu-société, psyché-soma et imaginaire-réalité est artificielle et l'homme alors ne peut se réaliser pleinement qu'à l'intérieur d'un réseau groupal.

Partant de là, et sachant que la migration met l'individu face à un groupe qui lui est étranger, et donc à la possibilité de résurgence d'angoisses anciennes, cette réflexion vient ajouter une preuve à la complexité des processus qui prennent place chez l'individu suite à son déplacement.

Étant donné que la migration implique deux sujets ou plus: le migrant et le pays d'accueil, elle donne lieu à de nouveaux liens intersubjectifs engageant les deux partenaires. Là, le pays d'accueil, comme nouveau groupe et nouveau regard, a une grande part dans l'apaisement ou l'aggravation de la secousse migratoire. C'est le regard du nouveau groupe qui devient un miroir reflétant pour le migrant une image de lui-même en fonction de laquelle il se reconnaitra plus ou moins accepté, contenu, valorisé.

Un tournant, une articulation

La migration est une articulation, une « transitionnalité » (au sens winnicottien) entre le dedans et le dehors. Transitionnalité entre l'avant et l'après.

Dans l'avant-migration se trouvent enfouies les raisons inconscientes de l'acte tant

Le nouveau lieu, la nouvelle vie imprègnent le livre de vie de la personne et y ajoutent des pages, non seulement nouvelles, mais aussi d'une écriture différente.

Les groupes d'appartenance, les rituels religieux, les festivités, le rituel des réunions familiales pendant les événements familiaux: mort, maladie, naissance, fêtes (quoique la plupart n'aimeraient pas y participer mais ils le font), cela vient ajouter un bagage important au « roman familial »[2] de chacun.

Boyer (2006) trouve que le non-lieu c'est l'absence de lien et le traduit bien par cette image où « Nous parlons en effet de venue, et le lien s'établit, de départ, et le lien se rompt, de retour, et le lien se répare, de s'approcher pour tenter de l'établir, de s'éloigner pour essayer de s'en déprendre, etc. » (p.10).

Grima (2006) explique que l'acte de migrer ne se résume pas uniquement dans la perte de la terre mais bien au-delà, dans la perte des liens, dans une scission avec son monde et sa famille.

Cette expérience de perte devant laquelle se trouve le sujet, a une portée traumatique et laisse alors ses séquelles sur le psychisme. Même si parfois, dans certaines situations, cette rupture de liens s'avère comme la seule solution pour le sujet, mais, « Ceux et celles qui y sont exposés s'en trouvent fragilisés et leur vulnérabilité peut s'exprimer longtemps après l'arrivée en terre nouvelle. » (Nathan, 1988, cité par Grima, 2006, p.109). Cet acte de la migration en lui-même est la coupure, et, toujours pour Grima, « La migration devient le lieu de la coupure et il est attendu qu'elle délimite les lieux. De cette délimitation, il est imaginé qu'elle mette un terme à une histoire qui n'en finit pas de se répéter. » (*Ibid.*, p.119).

Dès qu'on quitte un lieu - bien entendu un lieu avec tous les habitants et les objets qui le peuplent - pour témoigner de loyauté continue à son égard, notre vie devient axée sur cette action d'être partis. On passe la vie à parler de retour, ou bien du lieu et des liens qu'on a quittés, ou bien on essaie - inconsciemment - de transposer notre décor au nouveau lieu. Ou bien on ne cesse de dire qu'on est là pour oublier le passé et ne plus en parler…

Cependant, un lieu dont on se sépare n'est pas nécessairement un lieu dont on se détache.

Altounian (2019) dans son ouvrage *L'effacement des lieux*, évoquant son angoisse quand approchait le moment de son « dé-placement » du lieu où elle se trouvait, disait: « Je n'y étais plus, je me représentais dans un lieu sans y être, hantée par un lieu inexistant qui pourtant se révélait avoir été présent en moi depuis toujours. » (p. 34).

Goldbeter-Merinfeld (2006) cite Segalen et Zonabend (1986):

> [U]ne famille, quelle que soit sa composition, s'inscrit dans un espace, un lieu où se déroule sa vie sociale et domestique et où prennent place toute une suite de comportements quasi ritualisés qui dessinent, pour chaque groupe, sa singularité. Cet espace n'est pas indifférent: il fournit des indications sur le rang social, le milieu culturel, l'origine régionale du groupe

Dedans et dehors

Le nouveau lieu est entre le dedans et le dehors.

Winnicott (1975) décrit deux lieux en introduisant l'idée d'*espace potentiel* découlant des expériences de chaque personne et qui varie d'une personne à une autre donnant lieu à des expériences culturelles variées.

Le dedans signifie l'intérieur de l'individu, « la réalité psychique » (p.193) et le dehors qui est « le monde de la réalité extérieure (ou partagée) » (p.192). « Il y a donc deux lieux, le dedans et le dehors de l'individu. » (p.193).

Pour Klein (1968), le dedans et le dehors nous ramènent à la notion de clivage: clivage du sein en bon objet source de gratification et d'amour et mauvais objet persécuteur. Ces deux lieux sont délimités par le clivage. Ainsi le sein est une construction au-dedans, et le dehors c'est l'environnement extérieur.

Muxel (2002) distingue « […] les lieux du dedans et les lieux du dehors, les lieux dans lesquels on s'arrête et les lieux qui ne sont que traversés, les lieux aimés et les lieux détestés, les lieux utiles et les lieux inutiles, […] » (p. 49).

Le dedans et le dehors sont décrits par Fédida (1978) comme étant ceux de la séance d'analyse, et sont signalés par le fait que « *Dedans - dehors* assume une scansion fantasmatique dynamique […] qui ne peut être confondue avec l'opposition complémentaire de *l'intérieur* et de *l'extérieur*, du subjectif et de l'objectif […] » (p.168). Pour Fédida, « Dedans et dehors règlent […] une scansion fantasmatique qui se retrouve dans les rapports du proche et du lointain, du propre et de l'étranger, de ce qui se nomme ici et là. […] L'analyse serait ce qui n'a pas de dehors ! » (*Ibid.*, p.168). Le dehors serait le « regard étranger, souvent inquiétant. Ou encore: dehors concerne un être-perdu dans un ne pas savoir où il est. » (*Ibid.*, p. 169).

Ces idées rejoignent dans une part ce que Stril-Rever (1990) avance en comparant le site archéologique à la psychanalyse, en expliquant l'« avoir-été-là » (p.25)comme notion par laquelle le site devient le lieu où peut s'effectuer, dans le discours psychanalytique, une transition analogique. Aussi l'auteure trouve une similitude entre les deux dans « l'opposition surface/profondeur » et « la restauration, visant à restituer ce qui est altéré ou manquant[.] » (p.26).

Lieu quitté, lieu recherché: les deux revers de la migration

La migration appelle les lieux et les liens.

Tout appel téléphonique entre individus de la famille ou entre amis débute par « où es-tu ? » et tout le discours prendra sa forme suivant le cadre où l'on situe son interlocuteur. Le lieu détermine les émotions, les affects, les idées, les paroles et la communication.

s'étayer. Et c'est cet accordage qui introduit chacun dans « une chaîne générationnelle ». La culture préexiste à la psyché et la soutient comme une enveloppe sécurisante lors des changements qui surviennent au cours de la vie.

Le sujet a donc besoin de stabilité de ces enveloppes sans quoi toute modification qui a lieu provoque un remaniement du psychisme ; il est en même temps lié à son passé et à sa famille par des alliances ou contrats qui préservent son intégrité.

Granjon (2014) exprime ainsi les bouleversements surgissant à la migration:

> En revanche, certaines conditions de la migration peuvent détruire les liens d'appartenance, au risque alors de dysfonctionnements psychiques sévères. Le « désaccordage » entre « l'intérieur et l'extérieur » du psychisme, par défaut, rupture ou destruction des garants environnementaux et fondateurs, par perte des repères sociaux, culturels, historiques, entraîne un déséquilibre profond, voire une crise structurelle. (1er paragr.)

Au sujet de la langue maternelle chez le migrant, Konicheckis (2008) remarque un bouleversement des fondements narcissiques de la personne et une « crise identitaire » (p. 205). La langue maternelle étant pour l'enfant le moyen de se lier à son monde interne et externe, Konicheckis précise que l'expérience de la migration avec la souffrance provenant de la résurgence de malaises antérieurs, laisse un impact sur la langue maternelle et, par un mécanisme de « régression », empêche le migrant de communiquer. Aussi trouve-t-il que certains patients refusent de parler leur langue maternelle par une sorte de « clivage par idéalisation » afin de la préserver vu qu'elle est affaiblie.

Bruyère (2014) parle d'un « possible sentiment d'une dette sans fond chez le sujet migrant, assortie d'une culpabilité mélancolique circulant dans les liens et la dynamique familiale entre le sujet migrant et les autres restés au pays. » (1er chap.)
L'auteure trouve que, dans des cas pareils, la personne qui a émigré continue à être présente pour sa famille rien que par l'argent qu'elle envoie et qui, d'une part, la délivrerait du sentiment de culpabilité, et, d'autre part accomplit un sacrifice pour que les autres continuent à sentir sa présence même si cette présence est « instrumentalisé [e] ».

L'individu et sa propre culture sont reliés par des liens symboliques au moyen de la langue maternelle, la famille et la filiation. Fabregat (2009) évoque ces liens comme étant affectés par la migration et comme étant blessés du fait du « déracinement » et de la « réintégration » dans un autre système culturel. Le sujet en tant que « sujet psychique » est « mis en cause » ce qui influence son sentiment d'identité et tout cela, tel que le formule Fabregat « avec des conséquences pour la deuxième et la troisième génération descendant des premiers émigrés. » (p.30).

Ce rapprochement entre psychanalyse et migration réside dans l'héritage psychique, la mémoire, les liens, l'attachement et le détachement, les racines, la recherche de l'identité… Ainsi, le concept de la maison- espace et temps- bâtissant le squelette qui soutient la personnalité de l'individu et la structure des liens de famille reçoit sa part de l'acte de migration.

La migration et les sentiments l'accompagnant: séparation, solitude, et nostalgie sont expliqués par le passé de l'individu depuis son enfance.

Winnicott (1975) parle de « menace de séparation » en expliquant « qu'avec les êtres humains, il ne peut y avoir séparation, mais seulement menace de séparation, la menace étant extrêmement ou peu traumatique, selon l'expérience faite des premiers modes de séparation. » (p.198).

De même, pour Klein (1968), « Cette nostalgie contribue à l'impression de solitude, elle dérive du sentiment dépressif d'avoir souffert d'une perte irréparable. » (p.122).

En psychanalyse, les effets de la migration sont évoqués par plusieurs études et auteurs.

Bouleversements, dette, langue, culture

Après un long voyage par-dessus les Pyrénées jusqu'en Atlantique [les goélands] sont revenus fonder une famille dans le site où ils sont nés et où leur enfance les a attachés. […] On dit que leurs cris n'ont pas le même accent et que cette étrangeté les intimide. (Cyrulnik, 1989, pp.8-9)

L'habitat, l'adoption de la nouvelle langue, de la nouvelle culture ne se font pas sans un ébranlement de deux fondements principaux de la personnalité de l'individu: sa langue maternelle et sa culture.
Ce bouleversement (changement de lieu, arrivée dans un nouveau cadre, une nouvelle culture) oriente le choix de profession, d'habitation, de relations, d'adhésion à une cause, etc.

Pour Chapellon & Houssier (2016), « L'émigration engendre de grands bouleversements.». Elle « […] représente un état psychique propre à constituer l'événement déclencheur de problématiques narcissiques identitaires inconnues du sujet. » (p.146), et aussi « des phénomènes relatifs à la part d'inconnu en soi que réveille la confrontation à l'autre. » (p.147). Ainsi, les fragilités du sujet, non découvertes par lui au préalable, se trouvent déclenchées, augmentées, du fait de son arrivée dans un pays étranger.

Granjon (2014) met l'accent sur la culture, sur le contact entre l'intérieur de la personne et l'environnement extérieur.

Elle avance que le psychisme est le fruit de « l'accordage » entre l'individuel prenant naissance à la naissance et auquel contribue le passé de ceux qui sont présents à son accueil (sa famille et son histoire), et « l'environnement culturel » lui présentant les bases solides sur lesquelles

Chédid (2015) raconte que « Dès qu'il mit pied à terre sur ce sol étranger, Assad sentit naître en lui un instinct de débrouillardise qui, jusque-là, avait fait défaut. » (p.12), nous rappelant ainsi comment le pays étranger peut toutefois nous pousser à investir nos efforts pour nous ressaisir comme on ne l'a jamais fait chez nous.

Le Clézio (2006), par le titre de son premier chapitre « J'ai inventé un pays » (p.13) exprime le besoin fondamental de la personne d'avoir un pays à tel point qu'il en invente un au cas où il n'en a pas.

Lossky, dans *La famille Zeidawi* (2013), décrit les événements familiaux d'un migrant libanais en visite du Liban où nous voyons les secrets qui accompagnent parfois la migration et l'importance de les élucider. L'auteure le signale ainsi: « Il était le père de Cédric, à lui de transmettre à son fils des éléments de son passé pour l'aider à se construire sur une base solide. » (p.216).

En art: peinture, archéologie, architecture, restauration, tout en parle. On ne fait de restauration que pour reconstruire l'histoire-sa propre histoire- sa mémoire. Et, plus encore, on vient restaurer poussés par le désir caché de refaire le même pour revoir son passé et en faire le deuil afin de bâtir le futur.

Chahine Al Chabab (2012) décrit le sens de la maison donné à travers l'adaptation de l'architecture au cours des années et des siècles à la vie familiale et sociale des Libanais ainsi que le lien remarquable entre les différents emplacements du salon et les réunions familiales.

Migration et psychanalyse

Comme la psychanalyse, la migration ouvre sur la recherche du *self*, l'attachement, le détachement, l'angoisse de séparation, la terre, la mère, le déracinement, le manque, les ancêtres, les Autres, les lieux, les liens … Le mot mère accompagnant dans la majorité des écrits le mot terre *-la terre-mère-* fait que, tel que mentionné par Kaës (1998, cité par Chapellon et Houssier, 2016), « La souffrance qui découle de la séparation d'avec sa terre natale peut se traduire en termes de rupture avec le corps maternel ». (p.149).

Elle ouvre également sur l'histoire et la mémoire ; le meilleur témoin de l'importance de ces concepts c'est les musées, les maisons de l'histoire, les objets antiques gardés, les maisons anciennes, les habitats restaurés après le retour de leur descendance ou même sans leur retour. La peine vécue par les Libanais en voyant leur héritage ancien détruit, démoli, le 4 Août 2020 à Beyrouth, trouve son sens ici, dans la valeur irréprochable de l'histoire. C'est là aussi où se situe la migration: dans un sentiment d'étrangeté chez soi, au sein de son pays.

Migration et psychanalyse se rapprochent par la recherche inlassable dans l'histoire, la mise en lumière de ce qui est loin, embrouillé, caché… la tentative d'exploration de nouveaux territoires qui ne sont pas encore révélés, pas encore connus. Toutes les deux étant principalement axées autour de la mémoire, des lieux, du temps, avec tous les objets qui les peuplent et les sensations qui en jaillissent: odeurs, fraicheur, bruits, couleurs et saveurs…

qui sont en lien quelque part avec une séparation, proche ou lointaine. Parmi ces perturbations: les phobies, les troubles de la parole, des migrations répétées, la peur de voyage, l'instabilité relationnelle, l'anxiété, un sentiment de manque, de frustration, d'infériorité…

La migration peut elle-même être un symptôme dénotant une blessure transgénérationnelle non encore pansée(béante) et alors impensée. C'est-à-dire émigre-t-on pour retourner dans le temps afin de retrouver le pays perdu d'un ancêtre ? ou bien on émigre pour bâtir un futur meilleur à ses enfants et à ses petits-enfants ? Où se place la migration sur l'axe du temps familial ? Et l'émigrant avec la branche née à l'étranger, comment se décrit-il ? croit-il qu'il fait fausse note au cœur de la communauté nouvelle ? fournit-il des efforts continus pour se sentir intégré?

Quoi qu'il en soit, partir c'est re-chercher, re-trouver, re-construire, re-produire.
L'histoire abonde de témoignages de peuples souffrants, résilients tels le peuple palestinien, arménien, et bien d'autres encore qui vont partout pour re-bâtir, re-fonder, re-trouver leur pays perdu.

Regards sur la migration

J'ai quitté mon pays
J'ai quitté ma maison
Ma vie, ma triste vie
Se traîne sans raison
(Enrico Macias, 1962)

Littérature et art

Pour un thème qui touche autant l'humain dans l'homme, un passage sur la littérature et l'art s'impose. La migration est le thème par excellence de la poésie, du chant, allant des pleurs, de la souffrance de la séparation et la nostalgie du pays quitté, si bien exprimées dans une chanson libanaise folklorique:

اشــتقنا عَ لبنان يابا وع خبار الضيعة و أهلها
وعَ بسمة لبنان يابا وترحيبة أهلا و ســـهلا

à l'espoir de retour et la joie des retrouvailles.
La littérature, elle, regorge d'œuvres d'écrivains brossant des tableaux de leur pays natal, la terre des ancêtres, la maison des grands-parents, le rêve de retour…

Beaucoup d'entre eux évoquent la guerre, les déplacements, l'exil, dont Altounian, dans *Ouvrez-moi seulement les chemins d'Arménie* (2003) et bien d'autres ouvrages, qui relate la douleur du déplacement traumatique et décrit ses effets transmis à travers les générations.

La grande maison de Majdalani (2005) dévoile le sens donné par les générations à la maison enracinée dans la patrie et dont dépend toute l'histoire des gens ici-présents.

Certains migrants se décrivent comme heureux, d'autres sont déçus et regrettent leur départ. Comment comprendre cela ? Quel changement survient sur le cours de l'axe familial ? Comment se fait le travail d'adaptation au nouveau pays ? au nouveau milieu ? Quel impact tout cela fait-il sur le corps psychique de l'individu et de la famille ? La migration s'arrête –t-elle chez la personne qui a émigré ? ou bien ses effets se transmettent d'une génération à l'autre ?

La migration est-elle une fin ou un début ? une finalité ou un moyen ?

Pour tenter de répondre à ces questionnements, nous avançons l'hypothèse suivante:
La migration prend la valeur des grands concepts qui travaillent l'inconscient du sujet à la manière du secret, de la dette, de la honte, et dont les effets se manifestent sur plusieurs plans. Elle constitue une articulation entre l'avant et l'après et contribue ainsi à l'écriture d'un nouveau roman: le roman de la migration. Le déchiffrement de ce nouveau roman ne se fait qu'en recourant au passé de l'individu, ses liens et son histoire.

Ainsi, l'équilibre est d'autant mieux restauré que la réconciliation avec la partie de son moi secouée est accomplie, la réécriture de ses désirs et de ses préférences est achevée, laissant la place à un moi accepté, adapté, pareil à ses nouveaux semblables.

Deux axes dirigent notre réflexion:

-Les indices reflétant les effets de la migration,

-Le sens des lieux et des liens.

Nombreux et variés sont les indices qui nous parlent des migration: L'attitude face à la séparation, l'attachement, la peur, la mort, la persécution, la solitude, la perte de références culturelles, une difficulté d'adaptation, une sur- adaptation… Tout peut constituer un signal et nous renvoyer, dans beaucoup de cas, à une migration plantée sur l'axe de temps de la famille, migration décidée, volontaire, choisie, sans rentrer (dans le présent document) dans la migration forcée qui a ses particularités propres. L'objectif ici n'étant pas de parler de migrations traumatiques (déplacement, exil…) qui ont leur propre psychologie, mais plutôt celui de montrer comment le lieu des ancêtres et les liens laissés dans le pays quitté laissent une empreinte tel un tatouage éternel imprimé sur la peau ou sur le moi-peau[1] de l'individu.

La migration en tant qu'elle est ouverture, découverte de l'inconnu et exploration, contribue indéniablement à l'édifice de la personnalité de l'individu, de son développement social et culturel ainsi qu'à son enrichissement émotionnel et laisse la place à son autonomie par son détachement affectif des images d'attachement fusionnel. Cependant, tout comme devant les grands événements de la vie: mort, maladie, mariage parfois, la migration met la personne devant un miroir et la mène à découvrir dans son intérieur une part inconnue jusque-là. Aussi, seront révélés pour la personne des sentiments, actions et réactions en lien avec la part de l'inconnu en elle, causant par là des bouleversements importants.

La clinique nous renseigne sur beaucoup de perturbations qui trouvent leur source ou

Le sujet de la migration peut être étudié dans un mouvement de va et vient c'est-à-dire dans deux sens différents: soit explorer les raisons inconscientes directes ou transgénérationnelles menant à la migration, soit étudier ses retombées psychologiques sur les individus et/ou sur les générations.

Nous tenterons d'exploiter ici les retombées qui peuvent apparaitre sous plusieurs formes: caractéristiques de la personne, sentiment patriotique poussé, adhésion à des groupes culturels, groupes anti-sociaux, choix de spécialisations et métiers (histoire, géographie, architecture, agriculture), amour de la nature pour retrouver la terre- mère perdue ou risquée d'être perdue pendant une guerre, passion pour le voyage ou le contraire, rejet, instabilité dans les relations de couple …aussi apparaissent-elles sous forme de défenses du migrant telles que déni, marginalisation, opposition, culpabilité et repli…

La clinique révèle beaucoup de problématiques du « moi » en lien avec la migration: constitution du *self*, recherche d'identité - problématique la plus pressante de la migration déclenchée par la différence culturelle-, sentiment d'exclusion, perturbations du narcissisme, infériorité, culpabilité, estime de soi, présence et absence, aussi bien qu'une problématique d'attachement soit très rigide soit très changeant aux objets d'amour. Tout cela relève souvent d'une histoire de migration.

Mon regard est porté surtout vers l'axe de l'histoire de l'individu avec ses lieux, son héritage familial inconscient, ses sentiments, ses désirs et ses liens avec son monde qui serviront d'étayage.
La migration est un tournant dans le cours de l'histoire du sujet. Elle le transporte dans le temps et dans l'espace contribuant à son insu à dessiner la trajectoire de son désir, de son existence, de son imaginaire …

Cet événement ne passe pas sous silence dans la vie d'un individu. Il constitue un grand titre dans son histoire sous lequel tout ce qui s'écrit ne se fait que pour l'illustrer ou en témoigner. La migration épouse la mémoire. Tout individu en lien avec la migration par l'intermédiaire d'un parent ou d'un ancêtre, plus ou moins loin dans les générations qui l'ont précédé, observe un grand événement. Aussi la migration peut être fantasmée ; nombre de personnes ne quittent pas leur pays physiquement mais ne cessent de rêver, de fantasmer, de projeter vivre ailleurs, ou bien ils le planifient pour leurs enfants projetant ainsi sur leur descendance leurs propres désirs, besoins et recherches.

Ainsi, le sujet de la migration sera exploité d'un regard psychanalytique à travers deux situations cliniques.

Problématique et hypothèse

Dans cette recherche sur les résultats de la migration, la question posée concerne l'après-migration: *Que se passe-t-il après la migration ?*

Lieux et liens: le roman de la migration

Dr. Rita El Chabab
Département de Psychologie
Université Libanaise

خدني ازرعني بأرض لبنان بالبيت يلي ناطر التلّي
إفتح الباب وبوّس الحيطان وإركع تحت أحلى سما وصلي

Paroles Rahbani chantées par Feyruz

Introduction

L'ébauche de mon intervention fut commencée avant la catastrophe du 4 août, date après laquelle l'idée de la migration est devenue pour les Libanais un compagnon inséparable. À ce moment-là, moment où la migration se transforme en rêve de tous les jours et en espoir représentant le pays de destination comme ayant un pouvoir salvateur, chez beaucoup de gens, nombre de motifs inconscients au départ qui jusque-là étaient enfouis, ont émergé.

Loin d'être directement imprégné par la situation libanaise actuelle envahissante, ce texte traite de la migration telle qu'elle a été dans tous les lieux et à tous les temps.

Les personnes qui ont émigré ne sont pas tous des gens qui ne veulent pas de leurs familles, de leur mère, de leur père…bien au contraire, la plupart sont des gens extrêmement attachés aux leurs et s'en vont pour se détacher d'eux, pour accéder à leur autonomie.

On part pour des raisons variées. Certains disent émigrer pour fuir, quitter un lieu, une maison, d'autres pour re- trouver un lieu, fonder une maison.

On émigre pour assurer sa subsistance, une vie meilleure, une assurance de vie et de mort, pour soi-même, pour ses enfants et pour leurs enfants. Cependant, bien que vivant dans les mêmes conditions, visant la sécurité et le bien-être et ayant parfois tous les mêmes facilités de partir, tout le monde n'émigre pas. Les motifs inconscients régissant la migration pourraient constituer le sujet d'une étude ultérieure.

Dans ce contexte, les interrogations qui se posent seraient telles que: *Que nous offre la migration ? Que cherche –t-on dans un lieu inconnu ? Quel est le sens de l'espace ? Et les souvenirs ? que fait –on de nos souvenirs dans la migration ? quel est le sort de notre mémoire ? la mémoire des lieux n'est –elle pas celle qui est attachée à un lieu ? liée à un espace et à un temps déterminés ? Qu'est-ce qui se cache derrière la migration ? le désir de vie ou le désir de mort ?*

Ou bien est-ce tout simplement le besoin de répondre au désir d'exploiter ce qui se cache derrière la mer (mère), comme l'exprime la chanson de Salwa Al Katrib, شو في خلف البحر خبريات ?

[1] Fouad Laroui, L'Insoumise de la porte de Flandre, éditons Julliard. Toutes les références à cet ouvrage sont désignées par (IPF, p.)
[2] HenriMitterrand, Le Regard et le signe, Paris, Puf, 1987, pp.139-140.
[3] Henri Mitterrand, L'Illusion réaliste, Paris, Puf, 1994, pp. 52-53.
[4] Jean Wesisgerber, L'espace romanesque, Editions, L'Age d'homme,1978, Lausanne-p1011.
[5] Ibid, p.15.
[6] Louri Lotman, La Structure du texte artistique, Editions Gallimard, 1973, p.311.
[7] Chedlia Jedidi, « Les divergents de Fouad Laroui », in Expressions magrébines, Vol. 18, N°2, pp157-174.

Références bibliographiques

-Fouad Laroui - Les Dents du topographe, Julliard, 1996.
- Méfiez-vous des parachutistes,Paris, Editions Julliard, 1999.
- Les Tribulations du dernier Sijilmassi, Paris,Julliard, 2014.
- L'Insoumise de la porte de Flandre, Paris,Editions Julliard, 2017.

- Louri Lotman, La Structure du texte artistique, Paris, Editions Gallimard, 1973.

- Henri Mitterrand - Le Regard et le signe, Paris, Puf, 1987.
- L'Illusion réaliste, Paris, Puf, 1994.

- Jean Wesisgerber, L'espace romanesque, Lausanne, Editions, L'Age d'homme, 1978.

Le narrateur et le personnage se relaient en tenant le même discours. Fatima, porte-parole de l'auteur,dévoileau lecteur son objectif tenu secret : se déconstruire :

Et, moi, que suis-je ? Une belgo-marocaine postmoderne pratiquant la déconstruction? (Elle sourit en pensant à son professeur de critique littéraire, il aurait apprécié…) Oui, c'est ça,son fameux plan, c'est un peu ça. Déconstruire, dit-elle. Vous m'aviez construite, permettez que j'efface, que je défasse. (IPF, p.25)

Le concept « déconstruction » est emprunté à Jacques Derrida. Ainsi, nous assistons à une intrusion de l'auteur dans le texte à travers Fatima, étudiante universitaire en face de son professeur de critique littéraire. Dans le chapitre « une louve dans la cage » (IPF, p-p.39-51), les termes « construite », « déconstruire », « effacer », « défaire », « altérité », « autre », « différence », « silence », « postmoderne » et « exotique » renvoie aussi à A.Khatibi, ami de Derrida, deux intellectuels qui se connaissent et dont les soubassements théoriques sont proches, ne serait-ce que sur ce concept de déconstruction.Fatima traduit sa volonté dese débarrasser des enseignements et des pratiques archaïques inculquées au sein de sa famille, dans l'école coranique et au sein de sa communauté par cette vengeance qu'elle voulait, néanmoins, petite (IPF, p.127).

Elle se réconcilie avec elle-même en se plaçant au-dessus des replis identitaires, en avouant implicitement que l'Autre fait partie d'elle. C'est aussi le sens de cette assertion de l'ingénieur Machin dans Méfiez-vous des parachutistes : « L'autre, le frère, c'est soi-même avec un décalage dans le temps. » (Fouad Laroui, 1999, p.130). L'Autre n'est plus un ennemi dans l'absolu, mais un partenaire. Adam dans Les Tribulations du dernier Sijilmassi (Fouad Laroui, 2014) adopte presque la même position, peu importe l'espace où l'on se trouve.Adam Sijilmassi, comme Fatima Benccheikh, arrivent tous deux à cette réconciliation des deux cultures. « L'interculturel et l'interlangue à l'œuvre dans [les textes de Fouad Laroui] lui permettent d'entrevoir cette altérité ouverte à l'universel.[7]»

Conclusion

L'espace sert ainsi à départager des communautés. Une fonction est accordée à chaque lieu clos ou ouvert. Le passage d'un espace à l'autre n'est pas toujours permis. Les Belges ne pénètrent pas à Molenbeek, espace conquis par la communauté immigrée. A aucun moment, ils n'y accèdent. L'entrée des membres de ce quartier dans la ville Belge n'est pas sans risque pour eux et pour les membres de cette dernière. S'aventurer dans cet espace pour quelqu'un qui n'en maitrise pas les codes, oraux ou écrits, court à sa perte. Fawzi, qui n'a qu'« un minimum de vocabulaire et une solide incompréhension de ce qu'est le Belge, ce qu'il veut, à quoi il sert »,(IPF, p.84) a payé de sa vie la transgression de cet espace étranger qu'il croyait pourtant permis.A la frontière physique incarnée par le pont s'ajoute la frontière invisible que représentent les codes culturels de l'Autre. Pourquoi cet Autre refuse de traverser le pont dans le sens inverse : peur, rejet de/par l'Autre… ?F.Laroui prend l'espace topographique pour rendre compte du phénomène de l'immigration avec ses problèmes interculturels et socioéconomiques. Il prend un exemple d'actualité (attaque du sex-shop), qu'il présente à travers une fiction, puis il le soumet à une réflexion, dans une table ronde, avec la participation d'intellectuels de grande renommée. La fiction et la réalité se rejoignent au terme du récit.

2- Quelle Altérité ?

Ces personnages et leurs histoires, puisés dans la réalité servent à F. Laroui d'illustrations à ses prises de position. Ses intrusions, dans les récits, marquent des arrêts pour une mise au point. La fin dramatique de Fawzi nous rappelle la fin tragique deNaji, dans le roman Les Dents du topographe (Fouad Laroui, 1996) qui abat plusieurs clients d'un bar avant de se suicider sur fond de dispute sur l'identité. L'humour dont use F. Laroui d'habitude ne submerge pas tout le sang coulé par les protagonistes. Comment Fawzi s'est laissé embrigader par les islamistes ?

Le narrateur révèle, en effet, le basculement de la communauté de Molenbbek dans le fondamentalisme (IP, pp56-58). Ce quartier jusque-là tranquille est soudainement secoué par le fondamentalisme : « L'islamise [s'abat] sur Molenbeek comme la sécheresse sur le Sahel »(IPF, p.56). Du fait, l'islam tel qu'il est pratiqué dans le quartier se voit adopter d'autres pratiques et d'autres règles. Les parents envoient Fatima suivre les cours de l'imam borné du quartier (IPF, p.15). Maati, l'épicier, connaissait, alors encore jeune, toutes les sortes de bière : «il en buvait des océans », avant de se repentir. Lui et Fawzi « ne se préoccupaient pas beaucoup de la foi et des fins dernières », puis des prêcheurs les ont convaincus qu'ils sont musulmans, « ils acquiesçaient ; donc il fallait faire sa prière, le ramadan, et puis ceci et puis cela » (IPF, p.56). Fawzi ne comprenait rien aux conférences de Tariq Ramadan et de Rachid Benzine, contrairement aux prêches de L'imam clandestin du coin qui prônait le djihad. Il a dû retenir cette idée de lutte même si son combat reste la vente de téléphones portables pour gagner sa vie (IPF, pp57-58). Cette effervescence religieuse violente qui traverse le quartier est l'une des causes de l'attaque de Fawzi au Sex-shop, « antre du Diable » et de la révolte de Fatima, l'insoumise, qui finit par s'installer dans l'espace de l'Autre. Mais en quoi consiste l'Altérité qu'elle prône ?

Les récits de vie de ces personnages sont en effet une réflexion sur la relation de l'immigré à cet Autre à travers leur coexistence dans un même espace, celui de l'Autre. Fatima se demande : « Les autres ? C'est curieux […] En quoi suis-je « l'Autre » ? » (IPF,p.41). Elle refuse cette forme d'Altérité basée sur la couleur de sa peau, sur l'exploitation sexuelle : « Je ne leur ressemble pas…C'est pourquoi, ils m'enferment dans une cage, dans l'altérité […] On m'enferme dans l'Altérité, enfermement à vie parce qu'enfermement dans ma peau », précise-t-elle. Le passage de la minuscule « a » à la majuscule « A » dans l'écriture du mot altérité/Altérité, c'est l'ouverture sur cet Autre dans sa grandeur, tout en gardant sa différence. C'est ce qui ressort de ses paroles adressées à un des clients : « Mais tu ne pourras pas toucher. Ici, C'est usus sans abusus. » (IPF, p.43). Sa vengeance, la rumine-t-elle uniquement contre cet Autre qui ne voit en elle que son corps, ou contre sa communauté qui l'emmure dans un uniforme? Ce sentiment de vengeance est-il ancré dans l'inconscient collectif des peuples arabes colonisés et humiliés ? « L'Etat islamique, c'est la revanche des vaincus », soutient l'un des participants au débat (IPF, p.117) sur l'attaque du club érotique.

« Elle se venge des uns en se dénudant pour les autres, et se venge de ceux-là en ne leur accordant rien » (IPF, p.48), dit le narrateur. C'est une double vengeance. Mais cette vengeance a aussi une dimension universelle en faveur des autres femmes soumises aux mêmes traitements.

IV- Transgression ou Intégration de l'espace de l'Autre

1- L'immigré dans le regard de l'autre

Fawzi, le mari putatif, voulant connaître la nature du travail de Fatima, l'a suivie jusqu'à son entrée dans la boutique érotique. Ayant découvert la trahison, il se sent offensé dans sa religion et dans son honneur. Il se rend à la boucherie islamique de Molenbeek et s'empare d'un couteau. C'est la deuxième fois qu'il transgresse l'espace de l'Autre. Il retourne à la boutique, qualifiée d'« antre du Diable »(IPF, p.85), que Fatima a déjà quitté. Il blesse mortellement Johnny, propriétaire de la boutique. Un des policiers alertés tire sur lui. Deux cadavres jonchent ainsi la rue. Fatima sans le vouloir se sent un peu coupable: «sa vengeance sur les hommes est allée bien au-delà de tout ce qu'elle avait imaginé. Elle avait prévu « juste quelques petites revanches privées». Cela ne l'empêche pas d'avoir une pensée fugitive à Fawzi accusée de terroriste islamiste, Les médias s'y mêlent : « Sa photographie s'est étalée dans tous les journaux. Lui, un terroriste islamiste ? » »(IPF,p.127). Le journaliste, Eddy Koekoek installé dans un café avait repéré et suiviFatima et Fawzi, parle d'acte terroriste perpétré par les deux personnages complices alors qu'il ne s'agit que d'un fait divers, un drame passionnel.Telle est l'image que les médias donnent de l'immigré chaque fois que ce dernier s'implique dans un acte de violence. La police qui n'a trouvé aucun indice qui le lie aux terroristes du Proche-Orient, écarte la thèse du journaliste connu être pur un mythomane. Fatima s'est libérée de tout un passé. Son père est décédé dix jours après ; la mère est rentrée à son village natal. C'est tout un passé qu'elle enterre.Sans niqab, elle quitte l'appartement de ses parents et rend la clé au propriétaire. Elle lance un dernier adieuaux hommes de sa communauté en leur disant: « Adieu, hommes verticaux, hommes obtus, qui causez inlassablement, ne vous arrêtant que pour jauger, mater, reluquer » (IPF, p127) Elle s'installe chez Emma. Fawzi qui incarne tout un islam mal digéré n'est plus. Johnny qui veut commercialiser son corps a été éliminé. «Je suis enfin moi-même », savoure-t-elle (IPF, p.126). « Le monde, au dehors, ne lui fait plus horreur, puisqu'il est le sien, puisque c'est elle qui le crée […] Sa nouvelle vie peut commencer » (IPF.p.131), rapporte le narrateur. C'est une réponse à la question identitaire posée au départ : « Que suis-je ? » (IPF, p.41).

Habillée à l'européenne, Fatima s'assoit au dernier rang, lors d'un débat sur « l'attaque du sex-shop par l'Etat islamique » auquel participent des intellectuels de renommée internationale : islamologue, sociologue, politologue, historien (Pierre Deum, Gilles Kepel, Pierre-Jean Luizard, Rachid Benzine) pour débattre de l'attaque du Sex-shop, qualifié d'acte terroriste (IPF,pp.109-122). Elle se hisse au rang des gens du savoir, loin du fanatisme des uns et de la débauche des autres. Fatima décide de reprendre ses études, d'aller jusqu'au bout et de s'engager peut-être dans la politique, comme Samia, « une Marocaine moderne, émancipée ».Elle se réconcilie avec elle-même et se voit ouverte sur l'Autre. Fière de ses origines, elle s'appelle toujours Fatima. Elle habite désormais avec son amie Emma. Elle a optédès le début pour une religion divine, un islam, qui ne suppose ni la crainte de l'enfer ni l'aspiration au paradis, l'islam que prêche Râbia al Adawya : « première mystique de l'islam » (IPF, p.15).

Fawzi, de son côté, n'a pas échappé aux injures, comme Fatima. Un automobiliste, le voyant debout sur le pont, lui a crié : « vas-y, plonge, fous-toi à l'eau, un Noraf de moins.» (IPF, p.86). Noraf, pour dire Nord-Africain, est déjà une insulte raciste. Tel le versant négatif de cette ville attirante. Tous les immigrés sans distinction sont semblables (pute, Moukère, terroriste) (IPF, pp. 43, 100, 127) aux yeux d'une catégorie sociale de Bruxelles-Centre.

Le sex-shop, autre espace clos, est vu de l'intérieur par Fatima qui rapporte les fantasmes des clients de la boutique où elle se venge des hommes et où elle venge des femmes de toutes les nationalités confondues, victimes d'exploitation sexuelle : « Je me venge de ceux qui rêvent de m'emmurer […] Je venge mes sœurs afghanes, iraniennes, marocaines…je me venge de Fawzi », s'écrie-t-elle (IPF.p.49). Voyeurisme, exploitation sexuelle, racisme constituent le versant sombre de Bruxelles des Belges.

4- Fatima, Bruxelles-Centre / le versant lumineux

Toutefois, Bruxelles n'est pas uniquement un espaced'exploitation sexuelle, un espace où le racisme se développe, elle est aussi le lieu de savoir, d'émancipation, d'une éventuelle carrière politique : ces offres constituent son versant lumineux « C'est quand même une belle ville, Bruxelles. Une ville en forme du cœur » (IPF,p.30),pense Fatima. Tout oppose les deux zones dans l'esprit de Fatimaet dans celui de Fawzi.

Dans les artères de Bruxelles, Fatima se détend : Elle prend le temps de contempler les superbes statues nues, d'examiner des affichettes de candidates marocaines aux prochaines élections, « elle se sent moins observée » (IPF.p.24). Bruxelles est un espace de liberté et d'ascension sociale, la preuve en est son amie Samia, exemple de réussite, « une marocaine moderne émancipée »(IPF.p.25). Elle s'est engagée dans la politique après avoir terminé ses études avec succès.

En accédant à cette ville suite à sa vengeance assouvie, à la mort de Johnny, propriétaire de la boutique érotique, de Fawzi, son prétendu mari et de son père, Fatima se débarrasse de sa tenue islamique au profit d'habits modernes. L'appartement de son amie Emma constitue un lieu intermédiaire entre Molenbeek et Bruxelles, elle y effectue sa mue. Emma, autre exemple de femme émancipée, calme néanmoins ses ardeurs, comme une mère, en lui apprenant que le voile était aussi catholique et en la mettant en garde contre une autre forme d'extrémisme : « Et toi, tu te veux libre, n'est-ce pas ? Eh bien, tu n'y arriveras pas si tu restes enfermée dans la colère, dans le ressentiment, dans la frustration… […]Tous ces sentiments négatifs, le ressentiment, la colère, etc., sont les pires ennemis des gens qui se veulent libres. Un peu de légèreté, Fati ! Voltige ! Joue-nous la fée. Souris à la vie (IPF.p.34). Fatima compte suivre le parcours de Samia et celui d'Emma en s'installant dans l'espace de l'Autre.La transgression de l'espace de l'Autre est-il permis ? En quoi cet Autre la fascine, le luxe, la liberté, le savoir ? Pourquoi renonce-t-elle à sa communauté ?

remarquer l'absence de structure culturelle à la fin du débat organisé, suite à l'attaque du sex-shop en affirmant : « Allez voir à Molenbeek, il n'y pas une seule librairie. Enfin, il y en a mais pas les vraies. », autrement dit, les librairies sur place restent alimentées par le courant islamique ou par des livres sans intérêt. Seul le discours des imams y est présent. L'animateur belge du débat lui répond : « Chère Madame, je n'irai pas voir à Molenbeek » (IPF, p.122). Cette réponse confirme l'absence de communication entre les deux espaces :A Molenbeek, ni encadrement culturel ni encadrement politique, les jeunes du quartier sont laissés entre les mains des fondamentalistes. Fatima y est persécutée par les siens. Les regards des hommes faisant partie du décor se focalisent sur son corps : « On m'examine, on me détaille. Comme une marchandise », clame-t-elle (IPF, p.22). Chaque fois qu'elle sort de chez elle, les hommes -ses compatriotes - qui occupent la rue à longueur de journée « l'observent. Leurs yeux semblent soupeser quelque chose, comme la balance d'un marchand, comme un trébuchet…Leurs yeux, l'arme fatale. Le regard »(IPF.p.19), renchérit le narrateur. C'est pourquoi, elle s'écrie : « Ils m'épuisent » (IPF, pp.16), le narrateur confirme ce jugement à propos d'un homme la regardant en ces termes : « Il la disséqua du regard » (IPF, pp.20).

3- Fatima : Bruxelles-Centre / versant sombre

Au centre-ville, comme dans son quartier, son corps n'échappe pas, non plus, au voyeurisme. En se rendant au sex-shop, « elle sent le regard [d'un] «homme lécher ses cuisses dénudées » (IPF.pp.36). Un client, qui se révélera le journaliste, Eddy Koekoekémet des propos vulgaires et insultants à l'égard des Africaines en voyantpasser Fatima devant le café où il est installé (IPF,p.42). Johnny, propriétaire du sex-shop,l'a auparavant, lui aussi, repérée dans un café en train de lire un livre. Le narrateur rapporte les pensées du propriétaire : « Quel corps, on pressent la souplesse même au repos, une vraie lionne, une liane » (IPF,p.39). Il ne voit en elle que le beau corps à commercialiser : « Je prends, je le prends, ce corps. », dit-il (IPF, p.40). C'est le corps et non le livre qui attire son attention. Il la voit comme une « lionne »et une « liane » qui ne peuvent qu'ensorceler les clients. C'est un corps/objet « exotique » (IPF, pp.40, 74) à vendre. Fatima accepte son offre qui consiste à danser dans son sex-shop, mais elle avait auparavant un plan en tête. L'occasion de le mettre à exécution se présente.

Fatima et Fawzi font tous deux face au racisme, dans la rue sur le pont et au centre-ville, Fatima entend des propos qui lui renvoient l'image qu'on se fait de la femme immigrée. Un automobiliste qui la voit sur le pont, drapée dans son voile, lui lance, lui aussi, des propos également racistes : «Hé, attention, ne reste pas là, tu risques de t'envoler, avec ta grand'voile ! ». Cette insulte qui sera reprise un peu plus loin, au même endroit par un autre automobiliste (IPF, pp.23, 63)ne la dissuade pas, sa détermination à exécuter son plan est totale. Son parcours initiatique, avec ses différentes épreuves et ses études l'ont aidée à atteindre sa maturité et à démonter, selon un plan soigneusement élaboréles préjugés sursapersonne sur les deux rives, deux aires culturelles que tout sépare : « Les Marocains de Molenbeek et les Belges de Bruxelles » (IPF,p.23).Les deux espaces sont séparés par un pont/canal, symbole de frontière culturelle invisible.

il se rend une deuxième fois à Bruxelles-Centre pour se venger des Belges qui ont corrompu sa femme : « Il est en « territoire étranger » (IPF, p.87), mais cette fois-ci, il est armé. Gare à qui oserait se mettre en travers de sa route ! » rapporte le narrateur (IPF, p.87). Il se voit accomplir « une mission sacrée »,pense-t-il (IPF, p..86). Les termes « la bannière d'un conquérant »,« pugilat »,« rameuter, valeureux compatriotes », « conquérant », « armé » et « une mission sacrée » ont une connotation militaire ; Fawzi se livre à une guerre sainte. A son retour à Molenbeek, il se sent chez lui. Une frontière s'établit ainsi entre les deux zones dans l'esprit des uns et des autres.

La ville de Bruxelles, à l'inverse, est décrite comme un lieu de débauche par Fawzi, espace corrompu et corrupteur. C'est ce qu'il ressent en regardant les vitrines des magasins, désignées de « vitrines diaboliques »où sont exposés des dessous féminins, « des cuisses pâles et des bras et des seins des mannequins figés, si peu vêtus, offerts à tous les regards »(IPF, p.82).Dans la rue, des femmes ne sont pas discrètes, des statues nues sont semées par le diable sur« l'itinéraire de la perdition » (IPF, p.83).Fawzi se retrouve dans un espace globalement féminin qu'il juge immoral, lui qui vient d'un espace masculin où la pudeur affichée demeure de rigueur. Quand sa femme se laisse approcher par un Belge, il s'enrage : « l'ampleur de la trahison… Voilà un Belge qui vient vers elle, sur le trottoir. Les deux corps se frôlent et elle ne fait rien pour l'éviter, pas un pas de côté, pas d'arrêt, rien…La maudite ! Fawzi fouille dans le regard du Belge, il le voit mordre les cuisses dénudées de sa femme » (IPF, p.70). Les chapitres « La trahison » et « Tout, Tout, Tout !» foisonnent de termes et d'expressions qui dévoilent la souffrance de Fawzi :« La maudite », « l'itinéraire de la perdition », « Malédiction ! », « Quelle indécence ! »,« aucun sens de la pudeur »,« le monde à l'envers » (IPF, pp. 66,79).Ces segments textuels révèlent l'indignation des pratiques immorales dans le club érotique. Une autre série de phrases placent cette condamnation dans le cadre de la religion et annoncent implicitement le châtiment, tel est le sens de nombreux extraits:«signes de l'heure qui annoncent L'Apocalypse…la Fin est proche»,« l'antre du Diable »,« Ces Belges dévêtues, ces Belges de pierre dévoient nos musulmanes de chair»,« On lui vole sa femme, on la prostitue et on se moque de lui »,« La musulmane pervertie par les Belges » (IPF, pp.73, 79, 80, 92). Ils traduisent dans la bouche de Fawzi la corruption, le mépris, la haine, le jugement dernier. Il découvre que sa future femme danse nue dans un sex-shop. Il ne décolère pas et accuse les Belges de tous les crimes. Une vengeance se profile à l'horizon. Molenbeek entre en « guerre » contre Bruxelles, pays des mécréants, qui l'humilie, lui et sa communauté.

2- Fatima :Molenbeek /prison

A l'inverse, Fatima a des représentations différentes. Sa présence à Molenbeek est vécue comme une prison. Un quartier englué dans les traditions archaïques, traversé par le mouvement fondamentaliste, lui empoisonne la vie, « Molenbeek, ça ne me donne pas trop envie de sourire, surtout dans la rue » (IPF, pp.34), avoue-t-elle. Des hommes dans la rue et aux cafés à longueur de journée, Oisifs ou vivant de petits commerces. Pour elle, Molenbeek, c'est le vide : vide politique. Vide intellectuel. « Pour Fawzi, la politique, ça ne sert à rien, c'est pour les Belges. » (IPF, p.64) Les habitants de Molenbeek ne font que consommer, comme le suggèrent les deux points de vente que sont la boucherie islamique et la boulangerie, citées à plusieurs reprises. Une auditrice fait

de changer d'habit : « elle s'était mise à porter le hijab, le prétendu « voile islamique », serré sur sa tête et tombant sur une djellaba noire » (IPF, p.9). Elle joue le jeu et passe pour une fille qui respecte la morale et les mœurs du quartier de sa communauté musulmane. C'est la première partie du plan. Son départ au centre de Bruxelles ne soulève pas de soupçons de la part des habitants de son quartier. Elle marque un arrêt chez son amie Emma - au nom symbolique- qui vit dans un appartement au centre-ville. Emma renvoie-t-elle à Emma Bovary ou à Emma, mère (en arabe marocain dialectal et en langue berbère)? Fatima troque son habit islamique contre l'habit moderne (robe légère, lunettes de soleil) et laisse tomber en cascade ses beaux cheveux noirs (IPF, p.68). L'appartement d'Emma constitue un lieu intermédiaire où elle trouve un appui auprès de son amie. De là, elle accède au sex-shop, autre lieu clos où elle exécute la deuxième partie de son plan. Fatima et Fawzi, qui l'a suivie sans qu'elle s'en aperçoive, se retrouvent ensemble pour la première fois dans un même lieu clos, hors de leur quartier de résidence. Fawzi Stitou découvre la nature de son « travail » et son corps nu. Il ignorait le plan secret de Fatima. Quelles représentations se font les deux personnages de ces différents espaces qu'ils arpentent ?

III- Représentation de l'espace des deux zones

1- Molenbeek de Fawzi en guerre contre Bruxelles

Le quartier Molenbeek est, pour Fawzi, un espace conquis, un sentiment de victoire sur l'Autre l'anime, Molenbeek est assimilé à Tanger (IPF, p. 60). Il ne cache pas sa satisfaction d'avoir squatté cette partie de Bruxelles. Le quartier constitue la propriété de sa communauté, il s'y sent en sécurité contrairement à Bruxelles-Centre qu'il qualifie de « territoire étranger » (IPF, p.87). C'est la première caractéristique du quartier : espace conquis. Il éprouve de l'affection pour son quartieret de la haine pour la ville belge. Le narrateur rapporte ses paroles et ses pensées où l'on lit cette conquête à travers certains termes :

J'aime bien Bruxelles, finalement, on se croirait à Tanger. Fawzi sourit à cette pensée qui s'est formée dans sa tête. IL se sent chez lui chez les Belges [...] Chaque fois qu'il arpente la chaussée de Gand, ces mots lui apparaissaient, flottants dans l'air, comme la bannière d'un conquérant.(IPF, p.60)

La solidarité des habitants de Molenbeek soudés par un esprit tribal constitue la seconde caractéristique. Si sa femme est agressée, il fera appel à eux, comme le révèle ce passage où se mêle sa voix à celle du narrateur : « En cas de pugilat généralisé, il peut toujours rameuter ses compatriotes. Il y en a, assis dans le café, en face. On a insulté ma femme ! A l'aide, Marocains des environs ! A l'aide, valeureux compatriotes, notre honneur est en jeu ! »Cette solidarité du groupe se lit dans le soutien qu'apporte Maati, l'épicier, l'ex-amant de la bière, à Fawzi. Ce dernier accepte de lui faire des rapports sur la conduite de sa future épouse en cas d'éventuels contacts avec des Belges (frôlements, bises, consommation de la bière). (IPF, p.56).

Quand il découvre que sa prétendue femme le trahit, il déclare la guerre à cet Autre : « l'honneur se lave dans le sang ». Il retourne à Molenbeek, « territoire marocain » (IPF, p.83), puis

La fille/la femme ne devrait pas laisser une mèche de cheveux dépasser, sinon « c'est cent mille ans d'enfer », selon l'imam de Molenbeek (IPF,p.13). Fatima, étudiante, ayant certains outils d'analyse, s'interroge sur le sens de cette Fatwa « qui brûle. Quoi brûle ? Dieu nous aurait créés pour un instant de vie et une éternité d'enfer ? Qui peut y croire ? Tout cela est horrible, horrible (IPF, p.15) Les injonctions de l'imam de la mosquée du quartier -« Faites ceci, ne faites pas cela » (IPF, p.16) - accentuent la pression qu'elle subit et lui dévoilent combien elle est prisonnière de traditions archaïques.

Dans la foulée, elle lit sur le site Internet la fatwa de l'imam Maghraoui de Marrakech autorisant les filles à se marier à l'âge de neuf ans, elle se rappelle un roman ethnographique sur le mariage des fillettes juives marocaines à huit ans, il y a un siècle dans l'Atlas et dans le grand Sud (IPF, p.13), puis elle fait état d'un roman de Tahar Ben Jelloun allant dans ce sens, allusion au roman Harrouda(IPF, p.12).Elle évoque enfin sa présence à une conférence du professeur Arkoun qui prône un islam modéré(IPF, p.17).Ses lectures, ses études supérieures et sa présence aux conférences et aux débats intellectuels l'ont aidée à prendre rapidement conscience de la situation de la communauté des immigrés en général et de la femme en particulier à Molenbeek.

1- Comment en sortir ?

Fatima interrompt ses études momentanément pour l'exécution de son plan. Elle se veut même être « Déesse de la vengeance » (IPF, p.49) et« Quand elle aura assouvi son désir de se venger des hommes […] elle aura le temps de penser à autre chose »(IPF, p.25). Son plan ne s'étale pas dans un temps indéterminé. Il s'inscrit dans un temps limité : « Dans un mois, toute vengeance bue, elle s'en ira. Apaisée. Reprendra ses études. Entrera peut-être en politique », pense-t-elle (IPF, p.50). Elle disparaitra de la scène comme le traduit la suppression du sujet « Elle » dans les deux phrases précédentes et renaîtra autre dans un espace autre. Sa vengeance prend trois formes : 1- s'offrir sans se donner, répète-t-elle : « je m'offrirais mais ce ne serait qu'une illusion : je ne me donnerais pas. Je ne me donnerai à personne », « s'offrir et se refuser », « elle s'offre, ne se donne pas » (IPF,pp.20, 36,50); 2- Écraser les hommes par son savoir ;3- faire une carrière politique.

Fawzi, quant à lui, se venge autrement de l'Autre qui lui a pris sa femme, il venge son honneur par l'épée, Il compte sur l'esprit tribal de sa communauté qui a la vie dure. La première, étudiante à l'université, situe sa lutte au niveau des idées ; le second, au niveau du corps. D'un côté c'est la raison qui domine, de l'autre ce sont les sentiments : « A l'école, plus tard au collège, [Fawzi] n'écoutait que distraitement, il n'a retenu que quelques règles de calcul, un minimum de vocabulaire ». Ses « quelques certitudes frisant le dogme » il les à acquis dans les cafés de Molenbeek ou dans ses rues » en scrutant « le monde et l'élément féminin » (IPF, p.84). Ainsi, tout oppose les deux protagonistes. Ils n'ont pas le même savoir, ni la même vision des deux espaces.

Alors que Fawzi tient à sa communauté et à ses valeurs traditionnelles bien qu'il regrette de ne pas avoir appris l'arabe, Fatima, qui s'afflige, elle aussi, de ne pas avoir appris l'arabe, mais pour d'autres raisons, prépare discrètement un plan en deux phases pour les quitter. Elle décide

Les rues et les lieux authentiques dans les deux espaces Molenbeek et Centre-ville créent un effet de réel qui cautionne les événements à venir, l'adhésion du lecteur à la fiction a de fortes chances de durer jusqu'à la fin du récit. Le sex-shop est perçu comme lieu de débauche, lieu de violence. Sa description ci-dessus –« violemment éclairé par des néons, angelots armés d'arcs, bombardements d'artillerie »–prépare le lecteur à un événement dramatique.

Ainsi, l'appartement des parents, l'appartement d'Emma, amie de Fatima, les magasins et le sex-shop, lieux clos privés, et la rue, espace ouvert public, constituent le cadre spatial des actions. Les polarités intérieure (l'appartement des parents, l'appartement d'Emma, les magasins, le sex-shop) et extérieure (rues) et les polarités « ici »(Molenbeek, espace de la marge) et « là-bas » (Centre-ville de Bruxelles, centre) retracent l'itinéraire des personnages et les lieux des actions. Ces polarités binaires opposent des espacesdotés de valeurs culturelles[6]: austérité/richesse ; rigidité/liberté ; pro miscuité/ordre. Les sensations visuelles, auditives et olfactives sont mises en œuvre dans la construction de cette topographie. La porte de l'appartement, le pont et la porte de Flandre, l'appartement d'Emma, l'étroite porte du sex-shop se dressent comme des frontières qui assurent plus ou moins le passage d'une zone à l'autre, d'un lieu à l'autre. Fatima, « enfermée » dans son quartier et la culture de sa communauté, décide de défoncer, comme ses deux amies, Emma et Samia, avec le savoir à la main, ces frontières invisibles, et non avec un couteau à la main, à la manière de Fawzi pour qui, « L'honneur se lave dans le sang ». (IPF, p.84)

II- Fatima, l'étudiante insoumise

Fatima élabore un plan de sortie en deux phases : se venger des hommes en portant l'habit islamique à Molenbeek, puis s'en débarrasser une fois à Bruxelles-Centre en allant danser dans un sex-shop. Pourquoi sa révolte ? A Emma, son amie, vivant au centre de Bruxelles, qui lui demande pourquoi elle a abandonné ses études et pourquoi elle a l'air d'être en colère, elle se fie en réitérant son malaise : « Je m'appelle Fatima et j'habite Molenbeek et…je suis cernée, je suis dans une situation impossible…la pression quotidienne des regards, le contrôle social. Tu ne peux pas comprendre » (IPF ,pp.32-33).Fatima a auparavant dévoilé son malaise qui la tourmente au psychiatre, discrètement consulté(IPF,p. 14).

Auparavant,elle se demande : « quand, à quel moment, le regard des hommes avait-il changé ?» Elle se rend compte que ce regard a bien changé avec « les formes… les hanches, les fesses, les seins qui pointent…. » qui ont pris des proportions plus grandes: Elle ne peut plus « se lover dans les bras de son père » : « Hchouma !» Tu n'es plus une petite fille, Fatima »lui asséna sa mère ». Le narrateur rapporte d'une part les pensées de Fatima en ces termes. : « Il n'y aurait plus que cela ; la hchouma, la honte, la pudeur. » Elle vit cette nouvelle étape comme « la perte de l'innocence » (IPF.p.12). Son corps devient avec l'âge une source de honte au sein de sa famille. Les paroles de la mère rapportées encore par le narrateur confirment le changement de leur regard envers la fille : « Ses seins avaient poussé », « ses jambes s'étaient allongées », comme disait sa mère – ça claquait comme un reproche (IPF,p.11). Tout cela au nom de traditions infectées d'un islamisme dévoyé. Fatima découvre, chemin faisant, que son espace corporel est source de souffrances.

reprises dans le récit (IPF, pp.46,47,91).Outre le bâtiment où loge Fatima, d'autres lieux meublent le quartier avec une fonction bien déterminée pour chacun : la boucherie islamique où Fawzi vient chercher le couteau utilisé dans l'assassinat de Johnny, le propriétaire du sex-shop, la boulangerie où Layla, l'employée, révèle à Fatima qu'on l'a choisie pour le mariage avec Fawzi,l'épicerie où Maati, l'ex-amant de la bière, chargé de rendre compte de la « conduite » de Fatima qu'il compte épouser et enfin la mosquée où le père envoie Fatima suivre les cours de l'imam borné dressent la cartographie de Molenbeek. Ce quartier, comme l'appartement des parents de Fatima, est replié sur lui-même. A aucun moment n'est signalée la présence à Molenbeek d'un Belge venant de Bruxelles-Centre. Le quartier demeure fermé à l'Autre, le Belge.

2-2- Bruxelles- Centre- ville : Espace à deux versants

L'espace de la ville de Bruxelles est également circonscrit par les déplacements des deux personnages qui empruntent le même chemin. Pour s'assurer de la bonne conduite de Fatima, Fawzi emboîte le pas à Fatima se rendant au Centre-ville se présentant comme un espace ouvert, mais il faudrait en maitriser les codes.

La topographie du Centre-ville, avec ses deux versants contrastés – débauche/savoir –, est en effet, balisée par des artères et des places aux noms réels que parcourent ces deux personnages: la rue Dansaert, la place du Vieux-marché-aux-Grains, café De Markten (les Marchés), la rue despoissonniers (où habite Emma, amie de Fatima), le boulevard Anspach, la rue Henri Mauss, le palais de la Bourse, l'église Saint-Nicolas, rue du Chou, rue Neuve, rue du Damier, rue de Malines (IPF, pp. 24, 25, 26,29,36,37) dressent la cartographie du Centre-ville.

Ces différentes rues débouchent sur le sex-shop, où se produit Fatima. Des clientsanonymes dans des cabinessuivent à travers les vitres de leurs cabinesFatima qui se fait appeler Dany et que l'on présente comme la Louve venue de l'Afrique du Nord (IPF,p.74). C'est le lieu où elle décide de se venger des hommeset où Fawzi essaie de se venger de Fatima qu'il accuse de trahison.Une description du club érotique par Fawzi en résume l'ambiance :

> [une] scène qui se réduit à une sorte de lit rond, couleur lie de vin, violemment éclairé par des néons. Au mur, un décor très kitsch, avec des angelots armés d'un arc, des cœurs pourpres à foison, des étoiles tellement stylisées qu'elles ressemblent à des bombardements d'artillerie en technicolor. (IPF. p.75)

Si l'appartement des parents est vu de l'intérieur par Fatima, le sex-shop est exploré par le regard de Fawzi, en tant que client et par celui de Fatima, l'actrice. L'austérité du premier contraste avec la richesse du second, une sacralité qui émane du premier s'oppose à une ambiance orgiaque de la boutique érotique, polluée et malsaine,« l'air vicié. L'air vicieux » où s'étouffe Fatima(IPF, p.43). L'appartement d'Emma dans le Centre-ville, amie intime de Fatima, est le second lieu clos. Celle-ci y marque un arrêt pour changer d'habits. Elle s'y installera définitivement après l'exécution de son plan de vengeance. Autre lieu est le Café Falstaff remplissant une autre fonction. Le journaliste Eddy Koekoek, qui donnera son interprétation de l'attaque du sex-shop en préparation, s'y siège (p.42).

2-Deux Espaces aux frontières invisibles

2- 1- Quartier Molenbeek : espace fermé

La découverte deBruxelles avec ses deux volets Molenbeek Centre-ville se déploie simultanément par le parcours des deux personnages, Fatima et Fawzi, qui effectuent un même va-et-vient entre ces deux univers, et par leurs regards. Le point de départ de la fiction est le quartier Molenbeek, et le point d'arrivée le centre-ville, au sex-shop, à travers les rues réelles qui lient les deux espaces. Le quartier se présente comme un espace clos, séparé de Bruxelles, espace ouvert, par un pont qui trace une frontière.

Les murs de l'appartement des vieux parents de Fatima à Molenbeek, vus de l'intérieur par celle-ci, sont décorés par une image de la Mecque et un tableau avec le verset coranique « le trône » calligraphiée. L'appartement qualifié de « sombre » donne une première impression au lecteur des sentiments qui animent Fatima Bencheikh, personnage principal. Elle porte une djellaba noire et un voile islamique, avec du henné appliqué sur les mains lors de son dernier séjour à Marrakech. Ce sont là autant d'informations dévoilant la nationalité, la confession et le statut social (immigrés) de la communauté marocaine. Cette maison abrite deux générations : les parents et leur fille. Les deux parents se sentent enfermés dans un « pays de mécréants »(IPF, p.8) et vivent en pensée ailleurs : La Mecque, avec le verset coranique (le trône) connu pour sa « protection » contre tout mal, est une allusion à cet ailleurs. Leur fille, étudiante à l'université libre de Bruxelles, se sent, à son tour, enfermée, elle, dans l'univers de sa communauté. Passionnée de lectures et d'arts, elle aspire à une émancipation qu'offre la ville belge. Ainsi, elle vit un déchirement : est-elle Marocaine, Belge, Belgo-marocaine ?« Mon quartier ? Plutôt le leur. Celui des hommes. L'espace public » (IPF, p.8), dit-elle en sortant de chez elle pour se rendre à son travail provisoire en ville belge. D'où cette question qui la tourmente : « Qui suis-je ? » (IPF, p.41). Fatima ne sent pas chez elle à Molenbeek. Un tel sentiment de malaise annonce son passage prochain et définitif de Molenbeek au Centre-ville. Le lecteur est ainsi progressivement préparé à ce déménagement.

A la sortie de l'appartement de ses parents, Fatima délimite cet espace et les lieux le composant par le regard et par sa marche en indiquant les rues et les lieux empruntés : étangs d'Ixelles, la chaussée de Gand, rue de la Fourche, la boucherie islamique, la boulangerie. Un pont marque la frontière entre les deux grands espaces : « un canal entre les Marocains de Molenbeek et les Belges de Bruxelles (IPF, p.23), précise le narrateur.

Les sensations visuelles et auditives s'associent dans la perception du quartier Molenbeek dans un premier temps. Espace animé, à l'instar des villes marocaines ayant perdu leur éclat, telles que les villes de Casablanca et Tanger(IPF, p.19). Cette description dysphorique annoncée à travers un champ lexical de la violence - « Sang, sang, sang »,« couleurs criardes, façades lépreuses, klaxon intempestifs, bourdonnement incessant, hommes debout » (IPF, p.18), laisse présager des événements malheureux ; l'emploi du mot « sang » à trois reprises sonne comme une alerte. Une anticipation annonçant l'assassinat de Johnny, le propriétaire d'un sex-shop, revient à plusieurs

L'immigration ou la restructuration de l'espace Dans L'insoumise de la porte de Flandre,de Fouad Laroui

Mohamed Bahi
Université Sultan Moulay Slimane
Beni-Mellal- Maroc

L'insoumise de la porte de Flandre[1], roman de Fouad Laroui, a pour cadre spatial, Bruxelles où coexistent deux communautés, séparées par un pont: l'une d'origine maghrébine au quartier Molenbeek ; l'autre belge de souche au Centre-ville. Elles se partagent inégalement ce grand espace qui est circonscrit par les déplacements et les regards de deux personnages : Mlle Fatima Bencheikh et Fawzi Stitou. Fatima, étudiante brillante à l'université refuse de se soumettre aux pressions qu'elle subit des deux côtés ; Fawzi, chômeur, vit de petit commerce. Structuration de l'espace de Bruxelles en deux parties, représentation des deux rives de la ville, - Molenbeek et Centre-ville -, et risques encourus par les personnages traversant le pont dans un sens ou dans l'autre. Telles sont les trois parties de notre communication.

I- Structuration de l'espace de la ville de Bruxelles

1- Espaces et lieux, quelle différence ?

Il convient Tout d'abord de préciser le sens du concept de l'espace. Qu'est-ce qui distingue l'espace du lieu ? Henri Mitterrand précise que « le lieu se détermine par une situation topographique », et qu'il existe une « hiérarchie des lieux, où se distinguent des lieux-ensembles […], des lieux-sous-ensemble […], des lieux éléments » ; il fait aussi la distinction entre les classes de lieux telles que « fond et surface », les classes fonctionnelles telles que les lieux de la vie privée, les lieux du travail professionnel. L'espace est, quant à lui, envisagé du point de vue de l'étendue, du volume, de la lumière, de l'usage, du découpage du territoire assigné aux personnages, de leurs points de vue, de leurs mouvements, de leurs actes »[2].L'espace romanesque qui ne se réduit pas à l'espace physique, « naît alors des regards du personnage, de ses gestes, de son écoute, de ses perceptions, qui l'authentifient et le justifient »[3]. Jean Wesisgerber, tout en partageant une partie de cette approche, définit l'espace romanesque en tant que produit du langage : « Comme les autres composantes du récit, [l'espace] n'existe qu'en vertu du langage […] en littérature, il naît des combinaisons de mots imaginés par celui qui écrit.[4]» Les relations binaires du genre proche/lointain, haut/bas, intérieur/extérieur permettent en partie d'appréhender un espace ou un lieu. « Ces polarités, dont chacune confronte des forces ou éléments opposés, correspondent […] à des relations objectant les tensions ou impressions enregistrées, au contact du milieu par le narrateur et les personnages.[5]» Les sensations, les polarités binaires et la langue contribuent ainsi à la construction de l'espace et des lieux. L'homme leur donne leur existence et leurs fonctions. D'où la difficulté à traduire la réalité d'un espace.

29 Tearfund, (2006). “Feeling the Heat: why governments must act to tackle the impact of climate change on global water supplies and avert mass movement of climate change refugees”, Londres, 2006, p. 5.
30 Global report on food crises, 2018
31 L’Orient-LeJour, publié avril, 2019
32 MOE/EU/UNDP report, (2014). Lebanon Environmental Assessment of the Syrian Conflict, september 2014 p 59
33 Heinrich Böll Stiftung,. (2018). The Right to Belong to a Political Community at the Example of the Legal Situation of Refugees in Lebanon, 11 juillet 2018.
34 MOE/EU/UNDP report, (2014). Lebanon Environmental Assessment of the Syrian Conflict, september 2014 p 33
35 Nasser, T. Faour, G. et Touchart, L. (2020). Suivi de la sécheresse dans un territoire agricole du Liban : la plaine de la Beqaa, méditerranée, revue géographique des pays méditerranéens
36 Shaban, A. et Gillette, C. (2016). Atlas du Liban, Changement(s) climatique(s) : des tendances difficiles à déterminer presses de l’ifpo p. 64-65
37 MOE/EU/UNDP report, (2014). Lebanon Environmental Assessment of the Syrian Conflict, september 2014 p.10
38 FAO. Lebanon, FAO Plan of Action for Resilient Livelihoods 2014-2018.
39 Riachi R., Chaaban J., (2012). The Agricultural Sector in Lebanon: Economical Features and Challenges. June 20 2012 Report. Page 20.
40 Banque mondiale (BM), The World Bank in Lebanon, 11 October 2018: www.worldbank.org/en/country/lebanon/overview
41 European Union (EU), EU Regional Trust Fund in Response to the Syrian Crisis, Action Document for EU Trust Fund to be used for the decisions of the Operational Board, 10 septembre 2018, p.7.
42 Homer-Dixon, T., (1999). Environment, Scarcity and Violence, Princeton, Princeton University Press, 1999.
43 VASyR2018; vulnerability assessment of Syrian refugees in Lebanon,2018.
44 Lebanon environmental assessment of the Syrian Conflict, September 2014.

• MOE/EU/UNDP report, (2014). Lebanon Environmental Assessment of the Syrian Conflict, september 2014
• Nasser, T. (2020). Ghaleb Faour and Laurent Touchart, 2020, Suivi de la sécheresse dans un territoire agricole du Liban : la plaine de la Beqaa, méditerranée, revue géographique des pays méditerranéens
• OIM, « Document de travail : Migration et environnement », 94e session, MC/INF/288, 2007, p. 1-2.
• Organisation internationale pour les migrations ; www.OIM.int/fr..
• Presidency of the Council of Ministers Central Administration of Statistics & Unicef, (2009). The multiple indicator cluster survey 2009 third session. Final report.
• Rapport OIM, (2008). Migrations et changements climatiques, n 312008, serie migration research de l'OIM, Genève
• Riachi R., Chaaban J., (2012). The Agricultural Sector in Lebanon: Economical Features and Challenges. Report. June 20 2012 Page 20.
• Shaban A. et Gillette C., (2016). Atlas du Liban, Changement(s) climatique(s) : des tendances difficiles à déterminer presses de l'ifpo p. 64-65
• Suhrke, A., Visentin, A., (1991). The Environmental Refugee : A New Approach, Ecodecision, Montréal, no 2, September 1991 : 73-74
• Tearfund, (2006). "Feeling the Heat: why governments must act to tackle the impact of climate change on global water supplies and avert mass movement of climate change refugees", Londres, 2006, p. 5.
• UNHCR, (September 2019).Syria Regional Refugee Response.
• UNHCR. (March 2015). Refugees from Syria in Lebanon.
• VASyR 2018; vulnerability assessment of Syrian refugees in Lebanon,2018
• World Bank Development Indicators [Database]. Retrieved from http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators.

Endnotes

1 Organisation internationale pour les migrations ;www.OIM.int/fr
2 Rapport OIM, 2008 Migrations et changements climatiques, n 312008, serie migration research de l'OIM, Genève
3 Joseph, G., et Wodon, Q., (2012a). Is Internal Migration in Yemen Driven by Climate or Socio-Economic Factors?, mimeo, Banque mondiale, Washington, DC.
4 Suhrke, A., Visentin, A., (1991) The Environmental Refugee : A New Approach, Ecodecision, Montréal, no 2, September 1991 : 73-74
5 OIM, « Document de travail : Migration et environnement », 94e session, MC/INF/288, 2007, p. 1-2.
6 AGENCE FRANCE-PRESSE, Publié le 2 mars 2015
7 Le Priol, M., (2019). Qui sont vraiment les « réfugiés climatiques»?
8 Hsu, S.S., (2006). "2 million displaced by storms", Washington Post, 16 janvier 2006.
9 Burke, E. et al., (2006). "Modelling the recent evolution of global drought and projections for the twenty-first century with the Hadley Centre climate model", Journal of Hydrometeorology, vol. 7, octobre 2006.
10 GIEC, (2007). "Contribution du Groupe de travail II au quatrième rapport d'évaluation du Groupe d'experts intergouvernemental sur l'évolution du climat – Bilan 2007 des changements climatiques : conséquences, adaptation et vulnérabilité", avril 2007, p. 10.
11 Geisser, V., (2013). « La question des réfugiés syriens au Liban : le réveil des fantômes du passé », Confluences Méditerranée, 2013/4 (N° 87), p. 67-84.
12 Lebanon's greenhouse gas inventory for 2015.
13 Le commerce du levant, Publié le 15 mars 2016
14 Haddad C, 2016; L'Orient-LeJour, publié 10 mars 2016.
15 Presidency of the Council of Ministers Central Administration of Statistics & Unicef, (2009). The multiple indicator cluster survey 2009 third session. Final report.
16 UNHCR, (2019). Syria Regional Refugee Response, 30 septembre 2019.
17 UNHCR, (2019). Syria Regional Refugee Response, 30 septembre 2019.
18 Government of Lebanon and UN Resident and Humanitarian Coordinator for Lebanon, Lebanon Crisis Response Plan 2017-2020 (2019 update), 31 janvier 2019, p.4..
19 UNHCR., (2015). Refugees from Syria in Lebanon. (March 2015)
20 Al-Jazeera, Lebanon: No formal refugee camps for Syrians, 11 mars 2015: www.aljazeera.com/news/2015/03/lebanon-formal-refugee-camps-syrians-150310073219002.html.
21 L'Orient-LeJour, publié juin 2015
22 World Bank Development Indicators [Database]. Retrieved from http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators
23 Haddad C, 2016; L'Orient-LeJour, publié 2016.
24 Lebanon's third national communication to the UNFCCC, report, 2016
25 Banque mondiale. (2013). Lebanon – Economic and social impact assessment of the Syrian conflict. Washington DC ; Banque mondiale. http://documents.worldbank.org/curated/ en/2013/09/18292074/lebanon-economic-social- impact-assessment-syrian-conflict
26 Lebanon's greenhouse gas inventory for 2015
27 Lebanon's greenhouse gas inventory for 2015.
28 Charre, J,. (1977). A propos de sécheresse revue de géographie de Lyon.1977

■ S’appuyer sur son propre travail de soutien aux défenseures de l’environnement, pour faciliter le travail des personnes œuvrant à la protection des terres, des denrées alimentaires et des populations contre les conséquences du changement climatique.

■ Miser sur des Campagnes pour consolider la paix et la stabilité sociale au Liban, afin de renforcer la compréhension mutuelle et la promotion de la cohésion sociale, en abordant des mesures pour encourager le retour des déplacés syriens.

Enfin, le dérèglement climatique est devenu un enjeu capital dans l’ensemble de la société internationale. Et d’autre part, les motifs de migration se juxtaposent et s'influencent mutuellement, les facteurs économiques, politiques et environnementaux s'imbriquent les uns dans les autres. À l’échelle internationale, il faut entamer une amélioration juridique du cadre existant, tout en s'efforçant de tenir en compte de la réalité actuelle, notamment de la nécessaire protection de ceux, qui sont forcés de migrer en raison de catastrophes naturelles. Chaque fois que nous émettons de gaz à effet de serre, nous créons une persécution politique à l'encontre des plus vulnérables. La question clé serait; Est-il possible d’amender la Convention de Genève et notamment son article 1 A § 2 en vue de considérer les dégradations environnementales comme une forme de persécution. Mais son extension envers les déplacés climatiques risquerait-il d’entraîner un nivellement vers le bas de la protection, qui leur est accordée et réduirait leurs perspectives d’être accueillis dignement ?

Réferences:

• Agence France-Presse, Publié le 2 mars 2015
• Al-Jazeera, Lebanon: No formal refugee camps for Syrians, 11 mar 2015: www.aljazeera.com/news/2015/03/lebanon-formal-refugee-camps-syrians-150310073219002.html.
• Banque mondiale (BM), The World Bank in Lebanon, 11 October 2018: www.worldbank.org/en/country/lebanon/overview
• Banque mondiale. (2013). Lebanon – Economic and social impact assessment of the Syrian conflict. Washington DC ; Banque mondiale. http://documents.worldbank.org/curated/ en/2013/09/18292074/lebanon-economic-social- impact-assessment-syrian-conflict
• Burke, E. et al., (2006). “Modelling the recent evolution of global drought and projections for the twenty-first century with the Hadley Centre climate model”, Journal of Hydrometeorology, vol. 7, octobre 2006.
• Charre. J., (1977). A propos de sécheresse revue de géographie de Lyon.
• European Union (EU), EU Regional Trust Fund in Response to the Syrian Crisis, Action Document for EU Trust Fund to be used for the decisions of the Operational Board, 10 septembre 2018, p.7.
• FAO. Lebanon, FAO Plan of Action for Resilient Livelihoods 2014-2018.
• Geisser. V., (2013) « La question des réfugiés syriens au Liban : le réveil des fantômes du passé », Confluences Méditerranée, 2013/4 (N° 87), p. 67-84.
• GIEC, “Contribution du Groupe de travail II au quatrième rapport d’évaluation du Groupe d’experts intergouvernemental sur l’évolution du climat – Bilan 2007 des changements climatiques : conséquences, adaptation et vulnérabilité”, avril 2007, p. 10.
• Global report on food crises, 2018
• Government of Lebanon and UN Resident and Humanitarian Coordinator for Lebanon, Lebanon Crisis Response Plan 2017-2020 (2019 update), 31 janvier 2019, p.4..
• Joseph, G., et Wodon, Q,. (2012a). Is Internal Migration in Yemen Driven by Climate or Socio-Economic Factors?, mimeo, Banque mondiale, Washington, DC.
• Heinrich Böll Stiftung, (2018). The Right to Belong to a Political Community at the Example of the Legal Situation of Refugees in Lebanon, 11 juillet 2018.
• Hsu, S.S., (2006). “2 million displaced by storms”, Washington Post, 16 janvier 2006.
• Lebanon environmental assessment of the Syrian Conflict, September 2014
• Homer-Dixon, T., (1999). Environment, Scarcity and Violence, Princeton, Princeton University Press, 1999
• Lebanon’s greenhouse gas inventory for 2015.
• Lebanon’s third national communication to the UNFCCC report, 2016
• Le Commerce du levant, Publié le 15 mars 2016
• Le Priol, M., (2019). Qui sont vraiment les « réfugiés climatiques»?
• L’Orient-LeJour, publié avril 2019
• L’Orient-LeJour, publié 10 mars 2016.

A l'échelon International, la volonté politique de l'État libanais vers l'extérieur devrait se focaliser sur les points suivants ;

■ Demander une assistance technique qui apporte son soutien à des groupes de défense de l'environnement, qui présentaient leurs arguments en matière de droits humain.

■ Opter une feuille de route fonctionnelle via les interconnexions identifiées dans les objectifs de développement durable (ODD) des Nations Unies.

■ Solliciter un support financier de la part des bailleurs de fonds internationaux, afin de pouvoir réellement accélérer le processus d'intégration d'une part, et d'autre part la répartition de la surcharge de ces migrants entre les états d'asiles.

Il est opportun à l'État libanais de définir les politiques nationales, et de mettre en œuvre des moyens, qui permettent de défendre le territoire national, de préserver ses caractéristiques fondamentales, d'assurer la pérennité de ses richesses naturelles, qui y sont exploitées, et d'y favoriser un développement économique et social harmonieux et durable. Le développement a toujours rimé avec une hausse des migrations. Au niveau national, le gouvernement libanais devrait assumer les points suivants :

■ Travailler avec plusieurs groupes ciblés dans le pays, afin de faire pression sur les parties disruptives pour assurer la défense de l'espace civique dédié à l'information, la participation, et la mobilisation. En vue de contribuer à la promotion de politiques plus progressistes en matière de climat.

■ Respecter les engagements tenus dans les COP vers une transition rapide et juste d'une économie moins polluante, qui ne laisse personne de côté.

■ Profiter de la dévaluation de la livre libanaise afin de rendre la production "Made in Lebanon" plus compétitive. Dans une perspective à faire baisser les émissions de gaz à effet de serre, et à aider les hommes d'affaires libanais à mieux s'adapter aux effets des changements climatiques.

■ Opter pour une politique gouvernementale visant à respecter la coordination interministérielle. Afin de faciliter la coordination et d'éviter la controverse.

■ Passer en revue la gestion des ressources hydrauliques.

■ Réformer durablement le secteur agricole et sa chaîne de valeur notamment en matière d'aménagement du territoire et de rationalisation des investissements.

■ Travailler sur son système actuel d'aide, basé sur des subventions et opérer une transition vers un programme social ciblé.

soins de santé au Liban, principalement via des centres de santé primaire (PHC), mais également des hôpitaux, ou des services de santé mobiles.

La migration entraine des conflits ethniques autour de l'appropriation des maigres ressources renouvelables, ainsi que des émeutes urbaines dans les lieux de destination[42]. Á signaler que, la concurrence de la main-d'œuvre syrienne moins onéreuse qu'à celle des Libanais, est particulièrement recherchée pour des emplois temporaires, peu qualifiés. Ce qui a entrainé une baisse de salaires. Cependant, des incidents sécuritaires dus à l'infiltration d'éléments armés, et de terroristes dans les camps des déplacés, et la recrudescence d'une façon significative de la criminalité au Liban, renforcent la méfiance et le rejet des Libanais à leur égard.

Selon le rapport vuls2018, les principaux problèmes à l'origine des tensions intercommunautaires (libano-syriennes), recueillis en 2017 ; la concurrence pour les emplois était la principale raison citée (38 %), suivie de la concurrence pour les ressources (11 %) et pour les services (9 %) [43]. Ainsi, la demande en eau sera de 108,75 millions de litres par jour par rapport au nombre total de déplacés syriens enregistrés, et non enregistrés. Une diminution du volume d'eau des rivières, et du nombre de puits a été notée dans de nombreuses régions du Liban[44].

Le géographe, Fabrice Balanche*, souligne que ; « ce couple anxiogène (travailleur/ colonisateur) n'est pas récent dans l'imaginaire social libanais ». De même, certains Libanais soupçonnent aussi, que les Syriens utilisent l'argument humanitaire, et victimaire, pour venir s'installer définitivement au Liban, prenaient les emplois des nationaux.
** Un géographe ; spécialiste de la géographie politique de la Syrie, du Liban et du Proche-Orient en général*

6. Solutions suggérées au niveau international et national

Compte tenu de l'urgence du problème, le Liban serait-il capable de réduire sa vulnérabilité aux risques climatiques, et d'assurer sa sécurité alimentaire ? Surtout que les acteurs gouvernementaux/ non gouvernementaux étrangers accordent une plus grande attention aux personnes les plus vulnérables.

Aujourd'hui, on peut dire qu'il n'y a pas de solution prête pour régler ce problème de façon radicale et définitive. Surtout que l'État libanais, avec ses moyens modestes et ses multiples considérations politiques, demeure impuissant. Il peine déjà à régler les problèmes de ses propres citoyens. Il est donc illusoire et vain de lui demander d'organiser efficacement la présence d'étrangers sur son territoire…

Cependant, le gouvernement libanais a un rôle moteur à jouer au sein de sa communauté pour contrecarrer la déstabilisation nationale et mettre fin aux menaces intrinsèques et endogènes de l'afflux de déplacés syriens, ce qui impose tout un éventail de mesures politiques nationales et internationales, à mettre en application.

5. Impacts des migrants environnementaux au niveau national

Les catastrophes naturelles déplacent de vastes pans de population pendant de courtes durées, tandis que les facteurs déterminants à action lente occasionneront vraisemblablement le déplacement définitif de populations, encore bien plus nombreuses sans faire pour autant les gros titres des journaux. Effectivement, les sécheresses successives ayant chassé les Syriens ruraux vers les villes, ont accentué l'instabilité sociale, et ont favorisé l'éclatement du conflit à l'origine de l'un des plus importants flux de migrants actuel.

La capacité de l'État libanais à lutter contre la pauvreté est limitée en raison de la faiblesse des moyens, qu'il consacre aux services de première nécessité. Mais, il est évident que, nos communautés d'accueil sont particulièrement influencées à différents niveaux par l'afflux de ces déplacés, qui amènent avec eux un caractère culturel différent. Ensemble, les locaux et les déplacés sont invités à cohabiter dans un cadre de respect mutuel, il en découle bien des avantages diversifiés dans la nourriture, la musique et le folklore. Mais la qualité de l'intégration dépend en particulier du fait, que le déplacé bénéficie ou non de réseaux sociaux préexistants au sein de la communauté accueillante.

Après dix ans de la crise syrienne, un quart de la population libanaise, totale de près de 6 millions, est une population émigrante, impacte de manière négative la capacité du gouvernement à assurer les prestations de base du service public, comme l'éducation ou les soins de santé. Selon la Banque mondiale (BM), la population du pays a également subi un appauvrissement significatif, avec près de 200 000 nouveaux pauvres depuis le début de la crise syrienne, sont venus s'ajouter à un million de Libanais vivant déjà sous le seuil de pauvreté. Entre 250 000 et 300 000 Libanais, la plupart des jeunes sans qualifications, auraient également perdu leurs emplois pendant cette période[40].

Selon la carte de vulnérabilité réalisée en juillet 2014, les communautés les plus vulnérables du Liban couvrent environ 900 km2 (8,6 % du territoire). Évidemment, ces flux de migrants syriens ont un impact sur les milieux environnants ; soit directement par l'empiètement sur les écosystèmes fragiles, soit indirectement par les impacts environnementaux des déplacés, tels que l'élimination des déchets solides, l'augmentation des taux de génération des eaux usées non-traitées, ainsi qu'à la vidange des réservoirs sceptiques, et l'abattage illégal pour le chauffage.

Le système scolaire public libanais a accueilli plusieurs milliers d'enfants syriens, qui représentent désormais (10 %) de l'effectif scolaire global. Avec le soutien financier de la communauté internationale, la capacité d'accueil pour les enfants déplacés syriens est passée progressivement à 220 842 pour l'année scolaire 2017-2018. Á ce chiffre, il faut ajouter 62 905 enfants syriens inscrits dans une école semi-privée, ce qui amène le total d'enfants déplacés syriens qui reçoivent une éducation formelle à 283 747. Ces efforts ont donc été clairement insuffisants, puisque (55 %) des enfants n'ont pas pu encore intégrer le système scolaire[41].

L'afflux des migrants syriens a provoqué une véritable asphyxie du système de santé publique. Selon le HCR, la majorité des déplacés syriens, où (87 %) des ménages, ont accès à des

est en usage depuis dix ans, elle tente à limiter les dégâts sanitaires et environnementaux mais à long terme, elle n'est pas durable.





Les deux photos ci-dessus montrent le déploiement des eaux non-traitées, qui polluent les ressources naturelles dans la région de la Bekaa

L'agriculture libanaise dispose d'un grand potentiel pour garantir la sécurité alimentaire et nutritionnelle des Libanais (en produisant la quantité de denrées alimentaires nécessaire), mais également fournir des emplois aux populations démunies installées dans les régions rurales.

Par ailleurs, il y aurait aujourd'hui 200 000 travailleurs agricoles syriens supplémentaires (soit 20 % des déplacés enregistrés) au Liban[38]. Cette arrivée massive de nombreux travailleurs syriens a entraîné une concurrence entre les travailleurs syriens et libanais entrainant une baisse des salaires parmi les travailleurs agricoles notamment dans les régions de la Bekaa. Ainsi, le salaire d'un ouvrier agricole libanais est passé de 23 à 16 dollars américains la journée. De même, le salaire d'un ouvrier agricole syrien est passé de 2 à 1,3 dollars américains de l'heure pour les hommes, et de celui des ouvrières syriennes de 1,3 à 1 dollars américains de l'heure.

L'industrie agroalimentaire libanaise constitue une partie importante de la production industrielle. En 2011, ce secteur agroalimentaire contribuait à hauteur de (26,3 %) de la valeur ajoutée de l'industrie, et employait (24,9 %) de la main-d'œuvre dans le secteur industriel[39]. Toutefois, les industries agroalimentaires de la région de la Bekaa ne pourraient pas survivre sans la main-d'œuvre des ressortissants syriens. Parallèlement, les propriétaires agricoles et urbains bénéficiaires de la présence des Syriens refusent de s'acquitter des taxes municipales sur les loyers payés par ces déplacés. Par conséquent, ils n'aident pas les municipalités à assumer les coûts supplémentaires importants qui en découlent, tels que les coûts liés à la gestion de l'eau et des déchets solides. Ce qui affecterait le bon déroulement de l'infrastructure des services de première nécessité

Ces camps sont le fait d'initiatives privées, voire commerciales, gérées par des propriétaires de terrains, qui cherchent à faire de l'argent facile sur le dos des déplacés. D'ailleurs, ces ITS n'accueillent qu'un peu moins de (20 %) [37] des émigrants syriens au Liban, occupent plus de terres, que ceux qui vivent ailleurs. Évidemment, ces tentes ne peuvent pas pousser verticalement, et doivent également être conformes aux spécifications du HCR relatives à l'espacement entre les abris. Ce qui implique que, ces installations temporaires sont gourmandes en terres par rapport aux autres formes d'hébergements. Notamment, la superficie moyenne d'un ITS est de 10 000 m2 (HCR, 2014). Cela équivaut à 23 m2 par personne. Certains camps provisoires construits par des propriétaires fonciers à l'intérieur des zones agricoles commencent à ressembler à des logements semi-permanents.





Ces deux photos satellites entre 2010 et 2020, un écart de dix ans, reflètent l'expansion insouciante des maisons-tentes de déplacés syriens, sur des terres arables, dans la région de la Bekaa sans prendre en compte les aspects socio-économiques et environnementaux

La plus grande concentration (712 ITS) se trouve dans la Bekaa. Et sont situés à près de 1000 m d'altitude, sur le plateau entre le Mont Liban et Anti-Liban, où les hivers sont froids. Les maisons-tentes sont équipées d'un poêle au fuel. Le HCR en distribue des bons de fuels, insuffisants pour la totalité de l'hiver, le marché privé est en pénurie de carburant, en cas de grands froids, et les prix s'envolent. Ce qui met en péril la survie des personnes vulnérables aux les intempéries d'hiver. Au moins 600 émigrants syriens dans la plaine de la Bekaa ont dû se réinstaller ailleurs en raison des graves inondations ou des dommages causés à leurs abris.

Les acteurs humanitaires ont organisé un système d'accès à l'eau, respectant le standard minimum de 35 litre/jour/personne. La distribution d'eau potable se fait par camion (water trucking), ou par le raccord à un puits. Pour la collecte et l'évacuation des eaux-vannes et ménagères dans les ITS, les premières interventions humanitaires ont exclusivement ciblé des programmes d'urgence, implantant les standards habituels des latrines partagées (une latrine pour une quinzaine de personnes) avec un exutoire aérien sur le « canal » d'irrigation ou de drainage existant à proximité ou créé à cet usage. Notamment dans la Bekaa, quatre stations d'épuration opérationnelles, à Yaat, à Zahlé, à Joub Jenin, et à Aytanite, sont administrées par l'autorité des eaux, une institution publique, qui en refuse l'accès aux citernes de vidanges. Les boues de vidange sont en majorité déversées dans les voiries, qui sont reliées à ces stations. Cette procédure provisoire

réduction du niveau des nappes souterraines, et du débit des puits, et des fleuves : Le débit annuel moyen du Litani est ainsi passé de 275 à 125 millions m3 entre 1965 et 2011.[36]

Dans cette région, le domaine de la viticulture est vaste : où la vigne a subi les caprices de la météo, plusieurs épisodes de gel, voire de la grêle. Par exemple, le thermomètre peut descendre jusqu'à moins 22°C en hiver. De tels froids extrêmes peuvent provoquer la mort du pied de vigne. Sans compter des semaines de canicule en été...

En 2010, la production de blé, d'orge et de pommes de terre a diminué en raison de la sécheresse et de la réduction des superficies ensemencées. Bien que la production de blé et d'orge se soit redressée en 2011 et en 2012. La production de pommes de terre est demeurée inférieure d'au moins (80 %) par rapport à 2005, principalement en raison de la diminution des hectares plantés 20 000 ha en 2005 (soit 46,8 % de la superficie cultivée en légumes et 7,2 % de la superficie totale cultivée), comparativement à 12 000 ha en 2012. De plus, les importations en provenance d'Arabie saoudite, et d'Égypte ont rendu la culture de la pomme de terre, autrefois une entreprise rentable et importante, vulnérable aux marchés ouverts. Ainsi, les cultivateurs de pommes de terre au Liban pourraient éventuellement perdre leurs moyens de subsistance ou profits, parce qu'ils ne sont pas capables de planter, et cultiver des pommes de terre comme avant.

Cette région incarne parfaitement les maux du secteur agricole, aggravée par une absence de gestion efficace de ses ressources en eaux, et d'aménagement des terres arables. Depuis les années 50 et 60, l'exode rural s'est intensifié et les paysans se sont installés sur les terres fertiles sans aucune planification. Par ailleurs, des constructions aléatoires détruisent les terres cultivables, qui pourraient potentiellement être utilisées par les Libanais, les plus démunis, pour assurer leur propre sécurité alimentaire. Pourtant, l'expansion périurbaine dans ces zones marginalisées offrait des services, que certaines villes n'ont pas en particulier, ceux liés à la qualité de leur cadre de vie. Désormais, il convient de miser sur cet avantage pour attirer les jeunes diplômés, et limiter leur flux de l'exode rural.

Généralement, plus de (80 %) des déplacés syriens trouvent un abri dans les secteurs urbanisés. Cette caractéristique rend leur identification difficile, alors que l'adresse déclarée lors de l'inscription au HCR a pu changer de multiples fois sans être remise à jour. Alors que les sites d'habitat temporaire, les ITS (Informal Tented Settlements). Constitués de maisons-tentes en matériaux légers (non-pérennes) serrées les unes contre les autres, sont généralement organisées autour de regroupements familiaux, ou villageois. Où un shawish s'est établi en chef de camp.



En fait, la coordination a un rôle important à jouer dans la relation de l'aide humanitaire avec les institutions. Elle ne peut pas se contenter de rester dans une position de coordination de la réponse, et de couverture de tous les besoins. Mais c'est plutôt dans un concept diplomatique qu'elle assure un réel support technique sur le terrain pour les plus démunis. Effectivement, le travail de proximité des associations libanaises ont permis de pallier les dysfonctionnements de l'état central.

4. Zone d'étude : la Bekaa

La plaine de la Bekaa, région de notre étude, partage une longue frontière avec la Syrie, et accueille plus de (34 %) des ressortissants syriens, soit 360 000 déplacés syriens enregistrés. Il s'agit à la fois du nombre absolu le plus élevé de toutes les régions libanaises, et la proportion de déplacés la plus élevée par rapport à la population locale. Leur répartition selon les cadastres de la Bekaa est la suivante ; Zahle (16 %), Baalbeck (11 %), Bekaa el ghalbeh, (6 %) Rachaya (1.07%) et Hermel (0.57 %) [34]. Une grande partie de ces déplacés travaille d'ailleurs dans le secteur agricole.

Cette région à forte production agricole, où (50 %) des terres agricoles du Liban sont situées dans le haut bassin du Litani, représente le pourcentage le plus élevé de cultures saisonnières (60 %) comme les céréales, les pommes de terre, les légumes, les fruits à noyau et la vigne. La Bekaa contient également le pourcentage le plus élevé de bovins (43 %), de moutons (72 %), de chèvres (51 %) et de poules pondeuses (60 %). La vallée de la Bekaa a connu au cours des cinquante dernières années une évolution importante dans son couvert périurbain, essentiellement due aux changements socio-économiques, voire politiques.

Durant ces dernières décennies, les conditions climatiques se sont manifestées dans la plaine de la Bekaa, par une sécheresse permanente d'intensité faible à modérée, avec un pic de sécheresse de forte intensité, considérée «dangereuse» en 2008, année de référence. Les changements climatiques possibles dans les années à venir prévoient une intensification des épisodes secs. Les sécheresses devraient survenir 15 jours à 1 mois plus tôt, les régions, déjà sèches, comme la Bekaa, à savoir Hermel seront les plus touchées. Quant aux facteurs humains tels : L'accroissement de la population combiné à une augmentation du nombre de déplacés syriens, constituent une pression accrue sur les ressources environnementales. Particulièrement, les ressources hydriques, sont de plus en plus vulnérables[35]. Une réduction de (6 à 8 %) du volume total des ressources en eau est prévue avec une augmentation de 1 °C, et (12 à 16 %) pour une augmentation de 2 °C.

En effet, les nappes phréatiques de la Bekaa, principale source d'irrigation, sont alimentées essentiellement par les précipitations hivernales. La culture, durant le printemps et l'automne dans la Bekaa est principalement affectée par la disponibilité de l'eau, et les températures extrêmes. Tandis que durant l'été, elle sera très vulnérable pour l'irrigation. Ces fluctuations de régime de pluie couplées par des déficits du rechargement de la nappe phréatique auront des conséquences immédiates telles : Perte de rendement des grandes cultures, des fruits ou des légumes de plein champ. Combinée avec une surexploitation des ressources en eau. Ces évolutions mènent à une

pour le gouvernement libanais, il convient de se référer aux ressortissants syriens au Liban comme des « personnes temporairement déplacées.

Par ailleurs, en l'absence d'une législation domestique sur les réfugiés, ces derniers ont en fin de compte un statut légal, qui n'est pas différent de celui des étrangères, dont le statut est réglementé par la Law Regulating the Entry and Stay of Foreigners in Lebanon and their Exit from the Country de 1962.[33]

Le budget du ministère de l'Agriculture ne représente que (1-3 %) du budget global libanais. Mais le Liban, via sa stratégie agricole globale (2015-2019) serait possible de s'appuyer pour élaborer un plan de sauvetage. Récemment, ce ministère a vu son budget amputé de (11,4 %), cette année pour atteindre une cinquantaine de millions de dollars. Cette baisse des financements portant principalement sur les subventions, qu'il attribuait jusqu'ici aux petits agriculteurs.

La loi-cadre pour la protection de l'environnement (444/2002), divulguée via le ministère de l'Environnement, acte le principe de la protection de l'environnement terrestre et aquatique de toutes les sources de pollution. Cependant, ce cadre légal concernant les questions environnementales souffre de l'obsolescence de certains textes, de l'absence de loi-cadre permettant de hiérarchiser et mettre en cohérence des textes parfois contradictoires. Les modèles validés par le ministère de l'Environnement sont invalidés par le ministère de l'Eau et de l'Énergie. Les études d'impact environnemental sont obligatoires depuis 2012 pour tout projet d'infrastructure d'envergure. Toutefois, dans la pratique celles-ci sont restées des procédures bureaucratiques plus que des outils pour l'aménagement, la gestion, et la conservation des espaces vitaux. En ce qui concerne le réchauffement climatique, hormis la loi 359/1994 et la loi 738/2006 relatives à la ratification de la Convention-cadre des Nations Unies sur les changements climatiques (CCNUCC), et du Protocole de Kyoto (KP) respectivement, aucune législation majeure traite directement à fond du réchauffement climatique au Liban.

Au niveau de l'autorité locale, la municipalité, comme dans de nombreux autres pays, une entité administrative, est plus directement affectée par la présence des déplacés. Elle a également la responsabilité de préserver la qualité environnementale. Á ce titre, les pouvoirs locaux peuvent intervenir à tout projet localisé dans leur périmètre d'exercices. Et joue un rôle stabilisateur positif dans son territoire, même s'il n'est pas toujours suffisamment reconnu. La municipalité a systématiquement joué le rôle de modérateur entre les communautés syriennes et libanaises, en tenant compte du fait que la solidarité avait laissé place à la lassitude, aux plaintes à propos de la concurrence économique, et aux craintes de mésententes entre les ressortissants syriens, et les acteurs armés.

On peut toutefois se demander si la communauté de l'humanitaire et du développement, en a fait assez pour soutenir leurs efforts. Á signalé que HCR et ses filiaux ne bénéficieront de l'aide internationale que de manière désorganisée. Et que les maigres ressources à la disposition du HCR sont destinées aussi à l'assistance des Libanais vulnérables. Plusieurs ONG développent chacune des solutions, qui leur seront adéquates pour apaiser la misère, et la discrimination sociale.

et à une gestion non-durable de ce secteur. Á titre d'exemple, les taux de pertes sur les réseaux d'alimentation en eau du Liban, sont estimés à (40 %) en moyenne.

Le Liban ne parviendra pas à répondre aux besoins hydriques des différents secteurs territoriaux, que ce soit d'un point de vue qualitatif et quantitatif. La multiplication des épisodes de sécheresse, et la variabilité des régimes pluviométriques sur l'année tendent à s'aggraver, et se concrétisent par une augmentation de la variabilité des régimes pluviométriques saisonniers ; L'évolution des températures (augmentation de 2 °C depuis les années 1970) se traduit par l'évolution de la couverture neigeuse, perte de (30 %) de sa surface, et de (50 %) de son épaisseur, et sa fonte précoce (10 à 15 jours). Et atteindra une diminution de (70 %) de sa couverture neigeuse avec une augmentation de 4 ° C. La fonte des neiges se produira au début du printemps, ce qui ne coïncide pas avec une forte demande d'eau d'irrigation, comme la saison estivale. De plus, la neige passera de 1 500 m à 1 700 m d'ici 2050 et à 1900 m d'ici 2090, affectant la recharge de la plupart des sources hydriques. Effectivement, deux tiers des précipitations proviennent des chutes de neige, et non pas directement de la pluie, comme la fonte des neiges s'infiltre dans les réseaux karstiques (Shaban et al., 2004;. Hreiche et al, 2006; Shaban, 2009).

Les besoins en eau pour l'usage domestique sont fonction de la croissance démographique, cette croissance des besoins individuels de consommation par jour épuise les stocks aquifères. En plus, la qualité de l'eau dans les nappes phréatiques est déjà préoccupante du fait de l'infiltration de polluants (eaux usées rejets industriels …). Á plus forte raison, l'eau aurait été contaminée par des produits biologiques et chimiques, elle contiendrait un niveau de métaux lourds dangereux (Aluminium, Baryum, Chrome, Cuivre, Nickel et Zinc) non-conforme aux normes internationales, la charge de pollution supplémentaire des eaux usées générées par les populations déplacées est estimée à environ 40 000 tonnes de DBO5 par an, soit environ (34 %) de la charge de DBO5 au niveau national[32]. Couplée par la multiplication des forages incontrôlés, dont on estime qu'environ (70 %) des puits opérationnels sont illégaux, en raison du manque d'application des exigences en matière de licence (Banque mondiale, 2003), pèsera plus sur la facture de la santé, et du développement des populations à risque. Particulièrement, les communautés à faibles revenus dépendent des ressources en eau pour la production agricole, l'eau potable, et l'usage domestique. Á signaler que les coûts d'allègements de la pollution sanitaires sont estimés à 7,3 millions de dollars américains par an.

3.4 Rôles des autorités centrales et locales

Le Liban a déjà adopté l'agenda 2030 pour le développement durable et les objectifs de développement durable (ODD). En plus, le plan libanais de réponse à la crise (LCRP), qui fait partie du programme régional réfugié et résilience (PRER), vise à améliorer la résistance du Liban face à la crise. Il s'agit à la fois d'aider les Libanais et les populations déplacées.

Du point de vue gouvernemental, pas de possibilité d'intégration locale pour les ressortissants syriens. La position du gouvernement est que le Liban n'est pas un pays d'asile et qu'en conséquence. Pour le gouvernement libanais, les deux seules solutions durables pour les déplacés syriens sont soit leur retour en Syrie, soit leur réinstallation vers des pays-tiers. Ainsi,

En particulier les sécheresses, en tant qu'aléa climatique, peuvent devenir un risque par la rupture de l'équilibre entre les besoins d'une société, et les ressources potentielles apportées par un milieu donné (Charre, 1977) [28]. Surtout, si les réserves hydriques ne sont pas assez rechargées à la fin de l'hiver, ou pendant des périodes consécutives, il risque d'y avoir une sécheresse plus intense lors de la saison agricole. Globalement, la proportion des terres subissant une sécheresse constante passera de (2 % à 10 %) d'ici à 2050 [29], entraîne des pertes de revenus pour les ménages, dont il s'agit des récoltes, du bétail ou de la pêche. En d'autres termes, les ménages les moins favorisés sont aussi les plus vulnérables aux chocs climatiques. Toute migration liée à la sécheresse est aussi une migration économique, et vice-versa. Or, peu de ménages pourraient adapter leurs activités agricoles aux chocs climatiques, ou s'orienter vers des activités moins dépendantes de l'environnement. Où s'orienter vers des activités génératrices de revenus.

Le rapport de l'ONU souligne que (91 %) des familles de ressortissants syriens au Liban, souffrent, à différents degrés, d'insécurité alimentaire, (53 %) étant dans une situation d'insécurité "légère", (36 %) dans une situation "modérée", et 2% souffrant d'insécurité alimentaire "sévère",[30,31]

Au Liban, les petits exploitants agricoles ne bénéficient ni d'informations, ni de conseils concernant les pratiques agricoles à adopter, ni d'accès à la recherche, ou au financement, couplés avec l'inefficacité des réseaux d'irrigation, le morcellement des parcelles agricoles, et l'absence de protection sociale pour les travailleurs agricoles.

Autres facteurs conjoints ; l'inondation du marché local par les fruits et les légumes syriens. Cette tendance est renforcée par la dévaluation de la monnaie syrienne combinée à la compétitivité des coûts de production en Syrie par rapport à ceux en vigueur au Liban. En plus, elle s'est renforcée en marge de la dégradation de la situation sécuritaire dans la région. De même, la fermeture des postes-frontières libano-syriens reliant le Liban au reste du Moyen-Orient, a obligé de nombreux agriculteurs d'expédier leurs produits agricoles à destination des pays du Golfe par voie maritime, un procédé (25 %) de plus, que les voies routières.

Dans ce constat, la réduction de la production des denrées alimentaires coûterait 300 millions de dollars américains, avec la flambée du prix de la nourriture, les produits alimentaires coûteraient 470 millions de dollars américains, au Liban en 2020. Aggravant la malnutrition, et facilitant la propagation des nouvelles épidémies liée aux changements climatiques. Contre 177,9 milliards de dollars américains pour les risques de maladies, et 47,2 milliards pour l'augmentation des risques de décès.

Une pénurie d'eau

L'eau est une ressource rare au Proche-Orient. Mais le Liban a la chance d'être mieux loti en ressource hydrique, par rapport aux autres pays avoisinants. Sa topographie chaotique, à majorité karstique (70 %), permet une large distribution des précipitations, en conséquence, cinq zones agroclimatiques distinctes jalonnent le territoire national. Afin de maitriser l'exploitation de cette ressource, et de préserver sa qualité, le pays des cèdres se trouve devant une impasse pour déployer des efforts constructifs, Notamment, les impacts du réchauffement climatique se conjuguent à une demande croissante sur les ressources hydriques superficielles et souterraines,

Également, réduisant les activités d'écotourisme, ce qui porte atteinte au moyen d'existence des communautés. Signalant que les forêts libanaises sont considérées comme un puits de carbone. En absorbant plus de dioxyde de carbone, qu'elles n'émettent avec -143,87 Gg de CO2 comme élimination nette. Pourtant les incendies de forêts perpétuelles causées par les températures croissantes et les négligences administratives exposeraient le couvert forestier libanais aux risques de dégradation irréversible.

Secteur agroalimentaire et sécurité alimentaire

Le secteur agricole emploierait près de (25 %) de la population active libanaise, et représenterait (80 %) du PIB dans les zones rurales. Néanmoins, la population agricole, et sa densité sont également sur une tendance à la baisse. La diminution annuelle moyenne de la population agricole entre 1999 et 2007 a été estimée à (5,4 %) (FAO, 2010). Environ (36 %) des terres sont cultivables au Liban, mais les terrains agricoles sont à l'heure actuelle d'à peine 231 000 hectares et la moitié, seulement sont irrigués. Pourtant, une diminution de la superficie des terres arables, et des terres cultivées permanentes de (7,2 %) a été signalée entre 1990 et 2005 (FAO, 2010).

Bien que le Liban importe (80 %) de ses besoins alimentaires, qu'il s'agisse de produits agricoles ou agro-industriels. Ledit secteur contribue de manière significative aux émissions nationales de GES, avec 879 éq CO2 Gg., ce qui représente (3 %) des émissions nationales en 2015. Sa principale source des émissions de GES est la catégorie de la fermentation entérique avec (45 % des émissions de ce secteur), suivie par celles « les sols agricoles » avec (33 %) et la gestion du fumier (22 %) respectivement[27].

Le dernier rapport du Centre de recherche et d'études agricoles libanais (Creal) affirme que : « La production agricole libanaise va s'effondrer en 2020, si rien n'est fait pour aider les agriculteurs à passer cette "annus horribilis". La raison de cet arrêt aussi brutal que violent est connue. C'est la crise bancaire et financière, qui met en danger les saisons agricoles de l'année en cours et, plus sûrement encore, celles à venir en 2021. En outre, lourdement endetté, le Liban dépend également de l'importation des produits alimentaires, qu'il consomme. C'est le cas, par exemple, du blé et d'autres céréales ».

Quant au secteur agroalimentaire, rien n'a été fait pour maintenir son développement. En contrepartie, on a favorisé le commerce à travers notamment la signature d'accords de libre-échange. Ce qui a abouti à une agriculture locale, peu compétitive, face aux productions étrangères, qui sont toutes, de surcroît, subventionnées.

L'agriculture est naturellement sensible aux conditions climatiques, ainsi les fluctuations extrêmes de la température pourraient avoir des conséquences graves sur la production agricole, car les températures extrêmement élevées pourraient réduire la productivité agricole ou modifier les variations saisonnières des plantes. Ainsi, avec ces perturbations climatiques, les enjeux sur notre sécurité alimentaire seront amplifiés, causant des changements dans nos productions vivrières et notre qualité alimentaire.

Face à un tel conflit, qui n'en finit pas, de plus en plus des émigrants syriens adoptent des mécanismes d'adaptation négatifs, tels que l'endettement, ou la réduction de la quantité de nourriture. Alors que les besoins en eau, et en nourriture sont une nécessité, les problèmes liés au logement sont également devenus une priorité. Le gouvernement libanais refusant la création de camps formels, une grande partie des déplacés Syriens vivent dans des campements informels, dans des appartements, qu'ils louent très cher, dans des immeubles en construction et des locaux commerciaux. Des habitats inadaptés et dépourvus, pour la plupart, d'accès à l'eau et à l'assainissement. Conjointement avec les changements climatiques, la misère touche toujours davantage les couches sociales marginalisées.

Secteur énergétique

La part du Liban aux émissions globales de gaz à effet de serre est de (0.06 %) uniquement. Le dioxyde de carbone est le gaz à effet de serre principal émis au Liban, résultant surtout de la consommation de combustibles fossiles pour la production d'énergie, et le transport routier. Qui compte pour (62 %) et (23 %) respectivement des émissions nationales, le secteur des procédés industriels occupe la troisième place (8 %) des émissions nationales, suivi par le secteur des déchets (3 %), la principale source d'émissions de CH4 au Liban, représentant (87,5 %) des émissions nationales totales de CH4. Les émissions du secteur agricole et le changement d'affectation des terres et la foresterie comptent (3 %) des émissions nationales[26]. En 2013, 251 Mégawats a été la valeur estimée de la demande croissante sur l'électricité, en raison des déplacés syriens au Liban (Banque mondiale, 2013).

Secteur du Tourisme

Une relation étroite existe entre le tourisme et le climat. Ce dernier influence un large éventail de ressources de l'environnement. Au pays des cèdres, le tourisme est principalement centré sur le tourisme récréatif. Désormais, la perturbation de l'écosystème peut nuire implicitement au tourisme.

Les principales ressources naturelles du Liban sont l'abondance de sa ressource hydrique, la richesse de sa biodiversité naturelle, et les sites naturels remarquables (réserves naturelles forêts …), forment un capital unique, qui doit être employé au service de la qualité de cadre de vie, et de l'économie touristique. Mais elles sont sujettes aux dégradations majeures engendrées;

Soit par une urbanisation, qui se propage vers de nouveaux espaces naturels de valeur, faisant perdre au Liban un des atouts majeurs de son attractivité et de sa qualité de vie. Entre la fin de la guerre civile en 1990 et 2010, l'urbanisation du territoire libanais est passée de (83,1 % à 87,2 %). Elle pourrait même atteindre (90 %) à l'horizon de 2030. On estime que (84 %) du territoire libanais ne disposent toujours pas de plans directeurs adéquats, ce qui a permis une construction chaotique, des changements dans la couverture et l'utilisation des terres (MoE, 2012).

Soit par des changements progressifs du climat, provoquant d'importantes perturbations à l'héritage naturel national, à la pollution des eaux, à l'air, à la déforestation, et à la destruction de l'habitat. Raccourcissant ainsi la saison de ski, l'attraction principale du tourisme hivernal.

syrien. Sans oublier qu'auparavant le Liban a été laissé seul brutalement, face à une situation similaire qui le dépasse : celle des camps de déplacés palestiniens.

Secteur économique du Liban

L'économie libanaise est principalement fondée sur le secteur tertiaire. De même, le Liban demeuré très dépendant de ses importations. Le déficit de la balance commerciale libanaise avait atteint son seuil le plus élevé (-2.3 milliards de dollars) en février 2012 [21]. Entre 2004 et 2011, on constate que le pouvoir d'achat des classes populaires a été considérablement affecté.

Des récentes études indiquent que le produit intérieur brut (PIB) du Liban atteint 45.7 milliards de dollars américains au début de l'année 2015. Avec un PIB par habitant de 17 462 dollars américains, un taux de croissance moyen de (2 %) (pour la période comprise entre 2001 et 2015) et un taux d'inflation d'environ (1.1 %) [22]. De 2008 à 2011, la croissance économique et l'inflation alimentaire ont augmenté suite à l'arrivée au Liban d'un million et demi de déplacés syriens.

Une étude conjointe du ministère de l'Environnement et du Programme des Nations unies pour le développement a évalué le coût du réchauffement climatique sur l'économie libanaise. Elle indique que si la production de gaz à effet de serre demeure inchangée, en 2020, le réchauffement climatique pourrait coûter 21,2 milliards de dollars américains au Liban[23].

Le réchauffement climatique pourrait avoir un coût direct sur l'économie nationale. Cela imposerait au Liban des coûts d'environ 320 millions de dollars américains en 2020, et 23 200 millions de dollars américains en 2080.

Le ralentissement de la croissance réduirait le produit intérieur brut (PIB) du Liban d'environ 1 600 millions de dollars américains, soit (3 %) d'ici 2020, (14 %) en 2040, (32 %) en 2080. Ce PIB perdu constituerait un coût réel, ou une réduction du bien-être économique du Liban[24].

Le réchauffement climatique coûtera donc 16 400 de dollars américains à chaque ménage en 2020. Suivant la même logique, les coûts totaux grimperaient respectivement à 80,7 milliards de dollars américains en 2040 et à 1 009 milliards de dollars américains en 2080. Chaque ménage devrait alors débourser 57 300 de dollars américains en 2040, et 721 900 de dollars américains en 2080.

Les (40 %) de la population libanaise en âge du travail sont soit au chômage, soit des travailleurs indépendants ou évoluent dans des secteurs informels, qui ne sont pas couverts par le code du travail. C'est notamment le cas des agriculteurs, et des employés domestiques.

Depuis 2011, le chômage des jeunes aurait augmenté de (50 %), suite à l'arrivée des émigrants syriens[25]. On estime qu'entre (30 et 56 %) des emplois au Liban sont liés à l'économie informelle. La crise syrienne a un impact économique et social considérable au Liban connaissant déjà des difficultés internes.

venaient travailler, seuls, laissant les familles en Syrie. Selon le rapport de situation inter-agences de l'ONU datant du 9 janvier, 2019, souligne que 850 camps informels accueillant 70 000 déplacés dont 39 900 enfants sont menacés par les intempéries, et le froid extrême.

3.2 L'afflux des migrants de toutes sortes au Liban.

Avant la crise syrienne, la pyramide des âges au Liban était en forme de cône, car la majorité de la population (53 %) appartient à une tranche d'âge comprise entre 20 à 59 ans[15].

Depuis le début du conflit syrien en 2011, le Liban accueille près de 1.5 millions de déplacés syriens au Liban[16], dont seuls 919 578 sont officiellement enregistrés. Selon les chiffres du Haut-Commissariat des Nations Unies pour les Réfugiés (HCR), à la fin du mois de septembre 2019 au Liban , la majorité, soit (52 %), sont des femmes. En matière de tranches d'âge, les moins de 18 ans sont les plus nombreux représentant plus de (55 %) du total. Les 18-59 ans représentent quant à eux à peu près (42 %). Les personnes âgées (plus de 60 ans) sont peu nombreuses puisqu'elles représentent moins de (3 %) des réfugiés[17].

Suite à la crise syrienne, près de 30 000 Palestiniens de Syrie déplacés au Liban ne dépendent pas du HCR, mais de l'Office de secours et de travaux des Nations Unies pour les déplacés de Palestine dans le Proche-Orient (UNRWA)[18], et qui pour la plupart rejoignent d'autres déplacés palestiniens, présents dans le pays depuis des décennies, dans un des douze camps officiels que compte le pays. Alors que ces derniers représentaient encore près de (10 %) de la population libanaise en 2014.

Désormais, la part que représentent les jeunes et les femmes au Liban, a considérablement augmenté. De fait, les femmes et les jeunes constituent une grande portion des déplacés syriens présents au Liban[19]. La majorité des réfugiés héberge, souvent dans des habitations insalubres comme des bâtiments inachevés ou des garages, tandis que les plus pauvres vivent dans des camps informels[20]. Ainsi, ces nouveaux locataires génèrent de plus de gaz à effet de serre particulièrement à l'usage du transport, de l'électricité, du chauffage, de la climatisation, et de l'utilisation des appareils ménagers. Par ailleurs, en 2015, le ministère de l'Environnement estime que 1000 tonnes de déchets solides sont produits quotidiennement par les déplacés syriens (Moe, 2015).

Le niveau de la pauvreté touchait (27 %) de la population libanaise, avec la crise syrienne, aurait donc augmenté de (4 %). Aujourd'hui (32 %) de la population libanaise sont considérées comme pauvres. Parallèlement, (70 %) des déplacés syriens ne peuvent combler leurs besoins nutritifs de base.

De manière générale, la main-d'œuvre syrienne est très recherchée dans des domaines, qui ne nécessitent pas de qualifications particulières (secteurs du bâtiment, ou de l'agriculture). De fait, au Liban, près de (92 %) des émigrants syriens travaillent sans un contrat. Par ailleurs, la moitié d'entre eux occupe des emplois saisonniers ou temporaires.

3.3 Les secteurs vitaux faces aux intempéries climatiques et socio-économiques

Il faut penser le territoire celui des collectivités. Depuis, l'éclatement de la crise en Syrie, en 2011, le Liban n'avait pas encore développé d'infrastructures en capacité de répondre à la demande de sa population, à plus forte raison accrue par les migrations provoquées par le conflit

des déplacés syriens, afin de ne pas les rendre visibles, mais n'a pas d'objection concernant l'assistance fournie à eux.

Loin des chiffres et des statistiques, ce n'est plus un secret de dire, que la crise syrienne va crescendo, et annonce désormais l'émergence de problèmes insolubles. Et rien n'indique qu'une solution de rechange pourrait pointer à l'horizon.

3.1 Le réchauffement climatique au Liban

En général, la *« peur des migrants »* devienne un moteur pour l'action en faveur de l'environnement. Surtout que la concentration de dioxyde de carbone a augmenté de plus de (33 %) et n'a jamais été aussi élevée depuis 420 000 ans. Sur le terrain, la fiction est déjà devenue réalité. Ainsi, les conséquences du réchauffement climatique seront selon toute probabilité plus prononcées pour certains groupes, par exemple les populations, dont leurs moyens de subsistance dépendent de l'agriculture et des activités côtières, surtout pour les communautés, qui sont déjà vulnérables, désavantagées, et victimes de discrimination.

Il faut reconnaître que la dégradation de l'environnement est un concept social et spatial ; hormis d'événements climatiques, et environnementaux ; la rareté des ressources en eau, la dégradation des sols, les effets du changement climatique. Où les gens fuient leurs zones sinistrées pour rester en vie. Il y faut aussi des facteurs de répulsion, non-climatiques, qui restent une variable clé, social ou économique. Tels que ; la croissance démographique, les politiques gouvernementales, les écarts en matière de revenus, et le taux de chômage élevé.

Les populations touchées ne consentent pas à partir, que lorsque leur intégrité physique devient menacée en raison des contextes d'insécurité alimentaire générés par le réchauffement climatique, voire par les conflits, qui en résultent par la précarité des ressources de survie. Désormais, les causes politiques sont étroitement liées à la sphère économique. Ce sont les États qui font les réfugiés (Emmanuel Marx, 1990). Ainsi, la migration se développe autour des enjeux politiques.
Le Liban s'est engagé à maintenir un seuil de réchauffement en deçà de 2 degrés lors de l'accord de Paris (COP21) en décembre 2015, et à réduire ses émissions de (15 %) d'ici à 2030 [12]. Si ces promesses sont respectées, le coût du réchauffement climatique en 2020 n'atteindra que 15,2 milliards de dollars américains, soit des économies de (28 %) [13].

Sous l'effet du réchauffement climatique, le cas libanais ne fera pas exception. Des changements climatiques seraient manifestés par la diminution des pluies (- 10 à 20 %) d'ici à l'année 2040, et de la neige (- 40 %), en passant par les sécheresses et les inondations, et les températures passeront d'environ 1 °C sur la côte, à 2 °C sur le continent, et d'ici 2090, elles seront supérieures de 3,5 °C à 5 °C. Ces perturbations devraient être accompagnées d'un changement significatif des niveaux bioclimatiques, ainsi, le niveau oroméditerranéen devrait disparaître du Liban en 2080, alors que le niveau bioclimatique aride devrait augmenter de (5 à 15 %) de la superficie nationale. Ce qui rallonge les épisodes de la sécheresse, sur l'ensemble du pays, il deviendra 9 jours de plus en 2040, et 18 jours de plus par 2090. Des milliers de décès se culminent entre 2 483 et 5 254 par an jusqu'en 2030, directement imputables au changement climatique[14].

De longues dates, des Syriens travaillaient au Liban, qu'ils soient saisonniers dans l'agriculture, dans la construction, gardiens d'immeubles, etc. De manière générale, les hommes

Néanmoins, d'autres facteurs interviennent implicitement à ce sujet. *En Afrique, la production agricole ne permet plus de vivre convenablement, souligne Ibrahim Thiaw*. « Cela n'est pas uniquement dû à la désertification, rectifie le géographe Luc Cambrézy*. Beaucoup de jeunes Africains refusent de se remettre à l'agriculture pour des raisons de pénibilité».*

Il est essentiel de reconnaitre que des migrations mal gérées constituent un risque : risque de déstabilisation, également risque pour le respect des droits fondamentaux, et la protection des personnes déplacées.

Aussi bien au niveau des politiques locales que des traités internationaux, les statuts juridiques adéquats sont nécessaires pour assurer la protection des migrants, notamment environnementaux. Cependant, il faut voir le revers de la médaille, la majorité des sociétés d'accueil sont parmi les populations les plus touchées par le réchauffement climatique. Ces personnes vivent souvent sur des terres marginales, et dans des écosystèmes, particulièrement sensibles aux modifications de l'environnement. Elles sont très attachées à leurs terres ancestrales, sur lesquelles reposent leurs moyens de subsistance, et leur identité culturelle.

Néanmoins, la diminution de la diversité biologique, et la destruction de l'habitat peuvent poser des défis aux communautés d'accueil, dépendant de leur environnement naturel pour assurer leur subsistance. Ce qui pourrait les persuader à changer leur style de vie et culturelle pour s'adapter aux changements du climat, et de leur milieu vital.

** Ibrahim Thiaw est un fonctionnaire mauricien qui est secrétaire exécutif de la Convention des Nations Unies sur la lutte contre la désertification depuis 2019*

** Le géographe Luc Cambrézy. Chargé de recherches à l'ORSTOM (en 1995). - Directeur de recherche à l'Institut de Recherche pour le Développement (en 2007)*

3. Le Liban et ses migrants

Le territoire national est le patrimoine commun du peuple libanais, le devoir de chaque génération est de le transmettre dans l'intégralité de ses richesses aux générations futures, après en avoir fait usage raisonné, et l'avoir développé selon des voies, qui n'altèrent pas son potentiel de résilience.

Une réalité incontournable, le pays des cèdres, une plaque tournante au niveau régional, classé comme, le second plus petit pays du Proche-Orient densément peuplé, et, aussi bien, compte parmi les dix pays les plus densément peuplés du monde.

Le Liban, non-signataire de la convention de Genève (1951), a refusé d'accorder le statut de réfugiés aux populations fuyant les combats. L'usage officiel est du mot déplacé, au lieu de réfugié. Ce pays a le pourcentage le plus élevé de réfugiés dans le monde. Il accueille actuellement près d'1,5 millions des déplacés, soit un tiers de sa population, dont une personne sur quatre, qui y vit est un émigrant. Beaucoup d'entre eux, vivent dans des zones rurales, où les infrastructures publiques et les ressources naturelles sont soumises à beaucoup de tensions. Plus de la moitié vit dans l'extrême pauvreté (ONU info, 2019). Cela a forcément un impact sur l'utilisation de nos ressources naturelles, non-renouvelables et paysagères.

Globalement, l'hypersensibilité de ce sujet au Liban, est marquée par la problématique inextricable des réfugiés palestiniens[11]. Le gouvernement libanais refuse l'installation de camps

Globalement, la proportion des terres exposées à une sécheresse extrême pourrait passer de (1 %) actuellement à (30 %) d'ici à la fin du XXIème siècle[9]. Un argument majeur dans l'intensification des conflits, pour l'appropriation des ressources naturelles, de plus en plus limitées.

Le rapport de 2007 du Deuxième groupe de travail du Groupe d'experts intergouvernemental sur l'évolution du climat (GIEC) estime que, les rendements de l'agriculture pluviale pourraient perdre jusqu'à (50 %) d'ici à 2020. Les auteurs dudit rapport notent également que « la production agricole, et notamment l'accès à la nourriture pourraient être gravement compromis par les fluctuations climatiques dans de nombreux pays, et régions d'Afrique ». Selon ledit rapport, les rendements des cultures en Asie centrale et du Sud pourraient chuter de (30 %) d'ici au milieu du XXIème siècle[10].

À long terme, les changements climatiques risqueraient bien d'aggraver les régimes, et la distribution de différentes maladies infectieuses, ce qui pourrait entraîner une propagation de maladies diarrhéiques, ainsi qu'une modification de la prévalence de certains vecteurs de transmission des maladies, tel que l'anophèle, vecteur du paludisme, de même, accompagnées par des mauvaises récoltes, et une progression de la malnutrition. Suite aux phénomènes météorologiques extrêmes, les dégâts infligés à l'infrastructure du service de la santé publique vont s'accentuer progressivement dans différentes contrées.

2.1 Les inégalités socioéconomiques et droits humains vis-à-vis les réfugiés environnementaux

Une « multitude de causes » entre en compte dans les flux de migrations : interactions entre changements climatiques, dégradation environnementale, instabilité politique, menace sécuritaire, croissance démographique, etc. En général, la population avec leur mode de vie moderne est un élément moteur des émissions de gaz à effet de serre. Surtout, les pays riches, industrialisés, émetteurs historiques de CO2, les émissions de gaz à effet de serre par habitant sont plus élevées que les tiers pays. Alors que, ce sont les sociétés les plus vulnérables, qui paient la tribune.

Des millions de personnes souffrent déjà des effets des catastrophes extrêmes exacerbées, par le réchauffement climatique : de la sécheresse prolongée en Afrique subsaharienne, aux tempêtes tropicales, qui balaient l'Asie du Sud-Est, les Caraïbes et le Pacifique.

Á signaler que, les fluctuations extrêmes de la température pourraient aggraver et amplifier les inégalités existantes, particulièrement aux groupes les plus vulnérables de la population, comme les enfants, les personnes âgées, et les personnes malades. Ces déplacements forcés affectent tout un éventail de droits ; du droit à l'eau, à l'assainissement, et à l'alimentation, au droit à un logement convenable, à l'éducation et au développement et toucheront probablement de manière plus grave les enfants, et les jeunes déjà en raison de leurs besoins métaboliques, physiologiques et développementaux. Ses conséquences deviendront de plus en plus graves et extrêmes avec le temps, créant ainsi une situation catastrophique pour les générations actuelles et à venir.

Effectivement, les futures générations subiront les effets de plus en plus graves du réchauffement climatique, si les gouvernements ne prennent pas des mesures immédiates.

2. Le réchauffement climatique

La Terre a toujours évolué au fil des ères géologiques, et cette évolution s'est accompagnée de fluctuations thermiques mondiales. Durant lesquelles, le climat de la Terre, résultat du changement de la pluviométrie, et d'un cycle hydrologique, a déjà connu des cycles de réchauffement et de refroidissement, duraient entre des milliers et des millions d'années. De même, ces cycles étaient causés par d'autres facteurs naturels, comme les changements dans l'orbite terrestre, l'intensité du soleil, ou l'activité des volcans.

Cependant, la période de réchauffement actuelle est plus rapide que les précédentes. Cette occurrence se manifeste par des événements climatiques plus fréquents, et d'une plus grande violence telles que sécheresses, tempêtes et inondations... Il est clair que c'est l'humanité, qui a causé la plus grande partie du réchauffement observé au cours des 100 dernières années, en libérant de gaz (CO2, CH4, N2O,…) retenant la chaleur, communément appelés gaz à effet de serre, afin d'alimenter nos vies modernes.

Les climatologues ont averti qu'un réchauffement climatique de 2 °C pourrait avoir des effets dangereux sur l'humanité. Si les émissions de gaz à effet de serre provenant des activités de l'Homme continuent à grimper sans contrôle, la Terre pourrait se réchauffer de plus de 4 °C d'ici la fin du siècle. Ainsi, d'ici à 2099, il faut s'attendre à une hausse moyenne de la température comprise entre 1,8 °C et 4 °C.

Le dérèglement climatique n'est pas directement à l'origine du déplacement des migrants climatiques. Plus de (90 %) des catastrophes naturelles, en cause sont liées à la météo, elle-même liée au réchauffement climatique[7]. Les changements climatiques occasionneront des mouvements de populations, en faisant de certaines régions de la planète, des lieux beaucoup moins vivables, rendant moins sûr l'approvisionnement en nourriture et en eau, et en aggravant la fréquence et la violence des aléas tels (les inondations et les tempêtes…). Les conséquences migratoires de phénomènes dits « lents » : la montée du niveau des mers, ou la dégradation des sols, et l'érosion des littoraux, affecteraient aujourd'hui plus de la moitié de la surface terrestre.

Ensemble, une accélération continue des taux de dilatation thermique, et de la fonte de glaciers provoquent une élévation du niveau global des mers, d'environ 4 mm/an. Et atteindra les zones côtières surpeuplées. De même, cette élévation du niveau des mers pourrait entraîner l'intrusion de l'eau saline et contaminerait l'eau aquifère, réduisant l'approvisionnement qualitative de la masse d'eau destinée aux usages domestiques et agricoles.

L'afflux de réfugiés n'est pas une « crise », c'est le début d'un grand mouvement planétaire, et plus précisément d'un effondrement global. L'ouragan Katrina, par exemple, qui s'est abattu sur la côte méridionale des États- Unis en août 2005, et a occasionné le déplacement temporaire de plus d'un million de personnes[8]. Cet ouragan a été davantage qu'un simple épisode météorologique : les dégâts, qu'il a occasionnés dans le Golfe du Mexique, étaient le résultat d'un médiocre état de préparation aux catastrophes, d'un sous-investissement constant dans les mesures de protection à mettre en place autour des villes, ainsi que de la destruction systématique des zones humides dans le delta du Mississippi, qui auraient peut-être pu atténuer l'impact de la tempête.

vie ou leurs conditions de vie, sont contraintes de quitter leur foyer habituel, ou le quittent de leur propre initiative, temporairement ou définitivement, et qui, de ce fait, se déplacent à l'intérieur de leur pays ou en sortent »[5].

Par ailleurs, le mot « réfugié » avait une vraie résonance au sein du grand public, sensible à la notion implicite de contrainte. D'autre part, ce mot véhicule des connotations moins négatives que le mot « migrant », qui laisse supposer un déplacement volontaire à la recherche d'un mode de vie plus attrayant.

De même, quoique l'expression « réfugiés climatiques » pose problème, on continue de l'utiliser en partie, parce qu'il n'existe pas d'autre expression satisfaisante. Alors que, les « évacués du climat » renvoient à des mouvements temporaires à l'intérieur de frontières nationales.

1.1 Les réfugiés environnementaux dans la région Mena

Dans une perspective géographique et culturelle, en parallèle à l'historicité des mouvements migratoires dans la région d'Afrique du Nord, et le Moyen-Orient (MENA), les dynamiques migratoires actuelles en Afrique du Nord, et le Moyen-Orient s'inscrivent dans une tradition forte de mobilités. Cette région est de longue date, l'un des carrefours migratoires les plus importants au monde, en raison de sa situation entre les deux principales zones de destination des migrations internationales, l'Europe et le golfe Persique. Elle comporte en outre de nombreuses populations pastorales et nomades, traditionnellement mobiles, comme l'illustrent les travaux de Dawn Chatty* (Université d'Oxford). En plus, les liens complexes entre le changement climatique, et les migrations d'Afrique du Nord et du Moyen-Orient sont de plus en plus affectés par des sécheresses à répétition, une désertification galopante, et un manque souvent cruel de politiques publiques adéquates pour faire face à ces aléas.

À titre d'exemples, les sociétés complexes de l'Egypte et de la Mésopotamie, se sont constituées à partir des populations ayant fui les terres de pâturage en voie de sécheresse pour gagner les zones riveraines. De même, l'expansion musulmane au VIIIème siècle en Méditerranée, et en Europe méridionale a été soutenue, dans une certaine mesure, par la sécheresse sévissant au Moyen-Orient. Actuellement, plus de 300 000 migrants et réfugiés ont traversé la Méditerranée pour se rendre en Europe en 2016.

Une étude publiée le 17 mars 2015 dans les Comptes Rendus de l'Académie des Sciences des Etats-Unis va même plus loin. En affirmant que, cette tendance aux sécheresses longues, et intenses dans le bassin méditerranéen se confirme, et que l'activité humaine en est la cause. Entre 2006 à 2010, soit les cinq années, qui ont précédé le « printemps Syrien » de 2011, la Syrie a subi la plus grave sécheresse jamais enregistrée dans la région, provoquant des catastrophes agricoles majeures, et forçant les communautés marginalisées, ruinées à migrer vers d'autres parties plus prospères. Ce qui a contribué au déclenchement d'une guerre fratricide[6].

** Dawn Chatty, FBA: est une anthropologue sociale et universitaire américaine, spécialisée dans le Moyen-Orient, les tribus pastorales nomades et les réfugiés*

Les impacts des déplacés syriens dans le secteur agricole de la Bekaa, sous la perspective du réchauffement climatique.

Dr. Georges AKL
Département de Géographie
Université Libanaise

1.Les réfugiés environnementaux du monde

Les risques humains sont majeurs, et la probabilité de migrations est forte. Selon l'Organisation internationale pour les migrations (OIM), près de 192 millions de personnes, soit (3 %) de la population mondiale, vivent aujourd'hui hors de leur lieu de naissance.[1]

À l'échelle internationale, la question des migrations environnementales est un sujet d'actualité, tant pour la communauté scientifique, que pour les acteurs de terrain, et les décideurs politiques. Les dynamiques migratoires environnementales sont complexes, et de nombreux autres éléments influencent les choix migratoires des ménages. Chaque année, ce chiffre est supérieur à celui des déplacements liés aux violences, et aux conflits (10,8 millions en 2018, NDLR). La population humaine serait affectée par les changements climatiques. Les estimations actuelles vont de 25 millions à un milliard d'individus d'ici à 2050 [2]. Ainsi, d'ici à 2050, une personne sur 45 dans le monde aura été déplacée par le changement du climat.

L'étude Agence Française de Développement (AFD)-Banque mondiale suggère que, le changement climatique a un impact (direct et indirect) sur les conditions de vie des populations et, en conséquence, sur la migration. Mais les facteurs socio-économiques, et notamment la perspective d'emploi plus favorable dans les régions de destination, demeure dominante[3].

L'expression " réfugiés climatiques "

La Convention des Nations Unies de 1951, et son protocole de 1967 relatif au statut des réfugiés indiquent clairement à l'existence d'une « persécution » ainsi qu'au franchissement d'une frontière. À propos de l'expression « réfugié environnemental » (Environmental Refugees) apparue au début des années 1990, signifie à la fois : réfugiés climatiques, ou écologiques, ou écoréfugiés[4]. Quant à l'expression "déplacés environnementaux", point de controverse, est plus adaptée, aux déplacements internes et internationaux, forcés et volontaires.

Faut-il qualifier les personnes déplacées par les changements du climat de « réfugiés climatiques » ou de « migrants climatiques » ? Ce n'est pas seulement affaire de sémantique, car selon que l'on acceptera l'une ou l'autre définition. Les implications au regard du droit international se traduiront par des obligations bien réelles pour la communauté internationale.

L'Organisation internationale pour les migrations (OIM) propose la définition suivante:
« On appelle migrants environnementaux, les personnes ou groupes de personnes qui, pour des raisons impérieuses liées à un changement environnemental soudain ou progressif, influant négativement sur leur

Table of Contents





UNIVERSITÉ LIBANAISE

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

section 1

MIGRATIONS ET ESPACE

Problématiques et défis

Ouvrage collectif

11 - 12 Décembre 2020

Sous le patronage de

M. Le Recteur Professeur Fouad Ayoub

Sous la direction de

Dr. Badia Mazboudi et Dr. Mona El Dassouki




UNIVERSITÉ LIBANAISE

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

section 1

MIGRATIONS ET ESPACE

Problématiques et défis

Ouvrage collectif

11 - 12 Décembre 2020



Sous le patronage de

M. Le Recteur Professeur Fouad Ayoub

Sous la direction de

Dr. Badia Mazboudi et Dr. Mona El Dassouki

